إيزابيل إبرهارت

كتابات على الرمال

(قصص ورواية)

الأعمال الكاملة

II

ترجمة: عبدالسلام المودني

مراجعة: صالح الأشمر

منشورات الجمل


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



ولدت إيزابيل إبرهارت سنة ١٨٧٧ في جنيف من أم متحدرة من الطبقة الأرستقراطية الروسية، ومن أب بهوية أثير حولها جدال كبير. وكان اكتشافها لإفريقيا وهي في سن العشرين قاسياً ونهائياً. توفيت سنة ١٩٠٤ غرقاً في فيضان واد صفرا. وعلى امتداد سبع سنوات سجلت كل يوم اكتشافاتها ووهجها وسرد تيهها، وغالباً باسم رجل ولباسه.

إيزابيل إبرهارت: الأعمال الكاملة II: كتابات على الرمال، الطبعة الأولى
أعدّه وعلّق عليه وقدّم له: ماري أوديل دولاكور و جون روني إيلو
ترجمة: عبدالسلام المودني ومراجعة: صالح الأشمر

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Isabelle Eberhardt: *Œuvres Complètes II: Écrits sur le sable*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إيزابيل إبرهارت

الأعمال الكاملة

II

كتابات على الرّمال

(قصص ورواية)

أعدّه وعلّق عليه وقدّم له
ماري أوديل دولاكور و جون روني إيلو

ترجمة: عبدالسلام المودني
مراجعة: صالح الأشمر

منشورات الجمل

تقديم




جروب باحثون
غواص في بحر الكتب

لعبة الأنا



«أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه،
فالحبُّ ديني وإيماني.»
ابن عربي، القرن الثالث عشر.

«ذات يوم هادئ من أيام فصل الشتاء، وفي ملل شهر رمضان وكسله، كنت أتجول في الكثيب المنخفض المطل على الوادي الحجري...»

كانت إيزابيل إبرهارت تكتب في بني ونيف في الجنوب الوهراني في شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة ١٩٠٣. لا ريب في أنها أفلحت في أن تنفرد بنفسها في الغرفة التي كانت تقتسمها مع صحفي ورسام هو ببنسيون إيستريلا في الفندق الوحيد بمدينة الحامية الصغيرة، حيث توقفت أسفل نافذتها خطوط السكة الحديد فجأة أمام الصحراء.

«... فرأيت محمداً جالساً، مسنداً ظهره إلى الجدار المتداعي لبناية المكتب العربي العتيقة.» من تكون هذه «الأنا» التي وضِعت في هذا النص؟ هل هي إيزابيل إبرهارت؟ كلا، فـ«أنا» هنا تتعلق بشخص آخر. إنه محمود السعدي، الشخصية الخيالية التي مكنت الكاتبة من التجوال في الكثيب ذلك اليوم. كان يرتدي برنس المسافر المجهول، وينتعل الحذاءين الأحمرين العاليين الخاصين بالفرسان. كان يمر أو يتوقف غير أنه ليس غريباً. كان قد قابل في اليوم السابق محمداً قرب معسكر الجنود «الأهليين»، وكان يتحدث لغته نفسها، ولم يشك محمد ولو للحظة بأن محموداً السعدي كان امرأة.

كان محمود السعدي يتجول بهدوء. ولم يكن يختبئ، بل يأخذ مسافة ليلاحظ

على نحو أفضل «. . . لأن المخازني كان مشغولاً بشيء شديد الغرابة. فقد أخرج من جيبه مرآة بائسة. . .»، وكان يبتسم أمام صورته.

لعبة المرآة. كانت إيزابيل إبرهارت وهي تكتب تنظر إلى محمود الذي يرقب المخازني الذي يتأمل صورته. إدماج صورة في قلب صورة، وألعاب بصرية وازدواجية. أين يكمن الخيال؟ فالمخازني محمد حقيقة، أو على الأقل هو انعكاسها، و«الأنا» هي ما تبتكر. وإذا ما تم تحويل زاوية النظر سنُلفي أن محمداً التقى خيال محمود (محمود المتخيل). وما دامت إيزابيل إبرهارت ابتكرت نفسها في محمود فـ«الأنا» التي تتجول في الكثيب هي وسيط، وتُمنَحُ حقيقةَ اللوحة التي هي بداخلها كعنصر مدمج، غير أن إيزابيل إبرهارت تدوّنه في سرّ كتابتها، فهي تعبّر وتوقّع نصّها. وهي موجودة.

لماذا لعبة «الأنا» هذه؟ في الأصل، هناك غياب وفراغ ينبغي ملؤهما مهما كلّف ذلك من ثمن. عندما ولِدت إيزابيل إبرهارت كان لها بالطبع والد، لعلّه الوصي عليها ألكسندر تروفيموفسكي، ولربما هو شخص آخر، معلوم أو مجهول، بيد أنها غير معترف بها ما دامت لا تحمل اسمه. فلتخترع أباً إذن، وهو ما قامت به من خلال مراسلتها من دون اقتناع مشيرة، في من أشارت إليهم من أشخاص آخرين، إلى طبيب مسلم، فقد اخترعت اسم عائلة (وليس اسماً مستعاراً)، اسماً جسدته لتعيش. وبهذا العمل تجاوزت قدر أنها ابنة غير شرعية، بالطريقة الأكثر أصالة مادامت قد اختارت اسماً مذكراً فارة في الوقت عينه من القدر المشترك لمعاصراتها من النساء.

كان هذا التخييل من أجل العيش، ولتكون، بصفة نهائية، هي نفسها. فارضةً ذلك على التوالي في نصوصها وفي حياتها «حقيقة» الصحفي الروسي الشاب نيقولا بودولانسكي، ثم «حقيقة» محمود السعدي الطالب، وستنتهي بخلق إيزابيل إبرهارت كامرأة وككاتبة.

منذ أن ولدت إيزابيل إبرهارت في جنيف سنة ١٨٧٧، كان التخييل في كل مكان في حياتها، حيث أب متخيل ووطن، هو روسيا، لم تعرفه إلا من خلال لغة أمها ومن خلال الأدب. حكاية أسرية مذهلة حيث تتعاقب المآسي وتختفي الأسرار. ويوجد التخييل أيضاً في الآثار الوحيدة المادية مثلما يوجد خارج الكتابات التي خلفتها وراءها. فهناك صورة لها وهي في سن الثامنة عشرة غير أن تلك صورة لملاح

فرنسي على وشك ركوب سفينة الفونجور، وهناك بطاقة أرسلتها وهي في سن العشرين إلى كاتم أسرارها علي عبد الوهاب في بون، غير أنها لـ«نيقولا بودولانسكي، الصحفي»، وثمة صور أيضاً عندما كانت تتبع موضة أن تصوّر في جنيف أو بون لدى لويس دافيد، وصور لفتى في ثوب شرقي، كبدوي في تونس، وكامرأة عربية، حيث بدت متنكرة. ثم أربع صور أخذت بعد ذلك بوقت طويل، ويبدو أنها التقطت لها خلسة. كل هذه دلائل لا تترك مجالاً للشك في نهايةشخصية محمود السعدي. وعند فحص هذه الأدلة التي مضى عليها الزمن يتم البحث عبثاً عن توقع وجود امرأة في سن الخامسة والعشرين خلف جسد البدوي رجل البارود، وهو يلوك سيجارته.

غير أنها تُظهر في آخر صورة لها، أخذت قبل أيام فقط من وفاتها، ابتسامة الطفل ونظرته الماكرتين.

وقد وقّعت إيزابيل إبرهارت في الفترة نفسها آخر نصوصها كاشفة عن نفسها فيها كما في تلك الابتسامة الأخيرة.

مع محمود السعدي تمكنت من ولوج قلب اللوحة التي كانت تصفها. وفي المقابل تظهر تفاصيل صغيرة من صورتها في كل شخوصها. مكر كتابة منطقي، مثلما صوّب رولاند بارت، عندما قال بخصوص بيير لوتي (أول ملهمي إيزابيل إبرهارت الأدبيين): «الكتابة أن يكون المرء جزءاً من اللوحة، لننكتب فقط، حيث إلغاء الخصم والأصل، المعبِّر والمعبَّر عنه، والموضوع والمبيَّن. فيما تبحث الكتابة الحديثة عن نفسها تحديداً.»

غير أن التواجد في قلب اللوحة يمنح الكاتبة الوسائل لوصف الأشياء من الداخل، وهو مسعى أساسي عند اختيار العيش بهذا، وإظهار أولئك الذين يريد الاستعمار إنكارهم، ويشير إليهم بكلمة يصبح معناها قدحياً «الأهالي».

والجرأة المضافة تتمثل في جعل الفلاحين الذين نزعت منهم أراضيهم، ورجال الفيالق والمحكومين بالأشغال الشاقة والمومسات والصوفيين والمجانين... وكل أولئك الذين همشهم المجتمع في تلك الفترة، أبطال نصوصها.

هو مسعى فريد في انعطاف القرن حيث كان الغرب ما يزال يريد أن يكون نموذج

الحضارة الوحيد، مع المبدأ الأساسي الأكبر للتقدم العلمي والتقني الذي يجلب السعادة.

ومع تخلص إيزابيل إبرهارت من التوافقات نجحت في منح صورة آسرة عن العالم الاستعماري الذي عبرته، وفي إظهار الفارق الذي يفصل بين الغرب والشرق، والذي طافت به. والأكثر من ذلك أنها قصدت الأهم حيث أولئك المتجولون الذين يستفزون أقدارهم كما ليجعلوها أسرع، إذ تبعت خطوط حيواتهم في المنظور المتجرد لوفاتهم، وفي طريقهم إلى الله، وتكشف في الآن نفسه موضوع سعيها مثلما كتبت تقول: «ثلاثة أشياء يمكنها أن تفتح أعيننا على فجر الحقيقة الساطع: الألم والإيمان والحب، كل الحب». ذلك أن في أعمالها تلك االإشارة غير اللائقة إلى المقولات الوجودية حيث الحب والموت وقوة الرغبة وحتمية القدر والإيمان وفكرة الله. وهي أسئلة من دون إجابات نهائية، ويلفي المرء اليوم حرجاً في نفسه في الحديث عنها خوفاً من إثارة سخرية الآخرين ما دامت قد أبعدت منذ مدة طويلة من قبل «الحداثة».

«كانت توجه خطواتها وقلمها هناك بإشراقة دائمة، حيث يمكن للمرء أن يرى على نحو أفضل تشوش نور الله في القلب البشري». كما أخبرنا حيمود إبراهيمي الملقب بمومو، شاعر الجزائر القديمة والشخص الغيبي، عندما كنا نتجول رفقته في شوارع القصبة التي أحبتها إيزابيل إبرهارت.

بحثت عن ذلك النور الإلهي لدى أناس بسطاء، وفي حكايات حقيقية حيث تلتقط عينها الحادث «الذي يسقط ببطء مثل ورقة على بساط الحياة». نظرة ووجه وأغنية ولقاء ونزهة... كل هذه الأشياء غير ذات القيمة، والتي يتطور التخييل انطلاقاً منها.

التخييل الضروري الذي تشبعت به، والذي مكنها من تجاوز المظاهر والانعكاسات الخادعة، والذي تصدر عنه في بعض الأحيان رؤى منذرة على نحو مفاجئ، حد تخمين موتها الوشيك ورحيلها إلى «جنة المياه». التخييل من أجل تجاوز المرآة. تخييل مياه فيضان واد صفرا حيث ستختفي في سن السابعة والعشرين.

المرآة، تحديداً، هو عنوان النص القصير جداً الذي نقترحه هاهنا كاستهلال لنصوص إيزابيل إبرهارت التخييلية، حيث حوالي ستين قصة ورواية غير مكتملة، هي

المتشرد، جُمعت لأول مرة، وهي تشكل الكتاب الثاني في أعمالها الكاملة، بعد صفحات من الملاحظات والنصوص واليوميات (الصادرة عن غراسي سنة ١٩٨٨).

يفيد عدٌّ تقريبي أن إيزابيل إبرهارت تمكنت في عشر سنوات فقط، ومن خلال الكتابة النشيطة والمنتظمة، من ملء حوالي ألفي ورقة، أي ما يزيد عن نصف ورقة كل يوم منذ نشر أولى نصوصها، من دون الحديث عن المسودات والمحاولات غير المنتهية والنصوص المختلفة التي أهملت. وَفْر مدهش بالنسبة لكاتبة مرتحلة ودائمة الحركة، طالما اشتكت من عدم إيجادها الحماسة اللازمة من أجل العمل.

ولم يشهد شخص أبداً أنه رأى إيزابيل إبرهارت تكتب، فقد عاشت معظم تلك السنوات العشر من الإنتاج الأدبي في مناطق حيث استعمال الطاولات والكراسي مجهولاً تماماً. فالناس يزجون هنالك سحابة يومهم مقرفصين أو ممددين على الزرابي... وهي أوضاع غير مناسبة للكتابة بالنسبة لشخص قادم من الغرب. وهذه النقطة البسيطة تظهر إلى أي مدى استوعب محمود السعدي الحياة الشرقية.

ولم تكن الكتابة مناسبة أيضاً في المرات العديدة التي عبرت فيها البحر الأبيض المتوسط منذ إقامتها الأولى ببون سنة ١٨٩٧ وحتى وداعها للعالم الغربي بداية سنة ١٩٠٢. وكان عليها أن تقاوم فتور واحات الجنوب عندما لم تكن منطلقة في اكتشافاتها في الطرقات والمسالك سواء على متن عربة أو على صهوة حصان.

«الألم مخصب» كذاك كانت تردد إيزابيل إبرهارت. وإنتاجها أكثر حدة عندما تكون مؤقتاً مبعدة أو منفية، وعندما يكون عليها أن تصارع تقلبات القدر. فالاعتداء الذي كانت ضحية له في بهيمة قرب الواد يوم التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٠١، ثم طردها من التراب الجزائري بعد أسابيع قليلة من ذلك، ومنفاها إلى مرسيليا، كل ذلك أحدث لديها حالة من الحمى في الكتابة، وعلى الخصوص كتابة نصوصها التخيلية، التي ستظهر في الصحافة الجزائرية مباشرة بعد عودتها.

منذ عام ١٩٠٢ بدأت إيزابيل إبرهارت تعاونها مع أخبار الجزائر ثم الأخبار، والبرقية الجزائرية وكانت توقّع نصوصها كل أسبوع تقريباً بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٤. ووجِد جوار جثتها بعد فيضان عين صفرا العديد من النصوص التي لم يسبق نشرها، والتي نشرها صديقها فيكتور باريكون في منشورات فاسكيل سنة ١٩٠٦ تحت عنوان في ظل الإسلام القائظ على شكل حلقات في جريدته الأخبار.

والواقع أنه منذ أن تأكدت موهبة إيزابيل إبرهارت الأدبية بعد نشر أول نصوصها لم تتوقف أبداً عن الكتابة.

ومثلما فعلنا في الكتاب الأول حاولنا، في سبيل تجميع هذه القصص، إيجاد التسلسل الزمني لإلهامها، وهي طريقة لتتبع مسار تلك التي كان يختلط لديها دوماً حبل الكتابة بخطوط الطريق الفارة. وهكذا يمكن، عن طريق تلك النصوص، سَبْر التخييل الموازي الموجود داخلها والبحث عن قراءة لرواية حياة إيزابيل إبرهارت حيث الموت يشكل رمزاً قاسياً جداً لرغبتها في الانصهار مع الصحراء. وبهذه الروح حررنا الملاحظات التي أرفقت بكل قصة. أما بخصوص رواية المتشرد، التي وضعناها في نهاية هذا الكتاب، فكانت، من خلال العديد من الروايات المختلفة، ثمرة مخطط طويل يعود تشكلها إلى بدايات إيزابيل إبرهارت الأدبية، وتشهد على ذلك المخطوطة التي حملتها أثناء تحرير آخر رحلة لها.

إن موتها المفاجئ بتاريخ الواحد والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر لسنة ١٩٠٤ أتاح لبعضهم فرصة العناية بترميم كتابتها. ففيكتور باريكون، الشخص الأول الذي آمن بموهبتها والذي فرضها على قراء صحف الجزائر، أضحى بطبيعة الحال وريثاً، فبعد نشره قصصاً كانت قد ظهرت من قبلُ في جريدته الأخبار أثناء حياة الكاتبة، عاد فأقحم بعضها في نصوص رحلتها المشكلة لكتابَي في ظل الإسلام القائظ، وملاحظات على الطريق (هذان الكتابان اللذان صدرا بعد وفاة الكاتبة عن منشورات فاسكيل سنتي ١٩٠٦ و١٩٠٨، حيث بدأت تتشكل أسطورة الكاتبة المرتحلة، كانا أول نجاحاتها في المكتبات)، ثم عمد إلى تجميع بعض النصوص انطلاقاً من وحدة الموضوع في صفحات الإسلام سنة ١٩٢٠ (لدى الناشر نفسه). ومعظم تلك القصص التي نشرت في النهاية مرتين أو ثلاث مرات لم تصب بتصحيحات باريكون، الميّال إلى ذلك الخلط بين نثره ونثر صديقته. بيد أنه عند صدور رواية المتشرد سنة ١٩٢٢ (دوماً لدى الناشر نفسه) أضاف إليها فصلاً آخر من كتابته.

وبرز على المسرح سنة ١٩٢٣ ناشر محب آخر، هو روني لويس دويون وكان دخوله بطريقة مجلجلة، فقد وجد اليوميات وبعض النصوص وأربع قصص لم يسبق

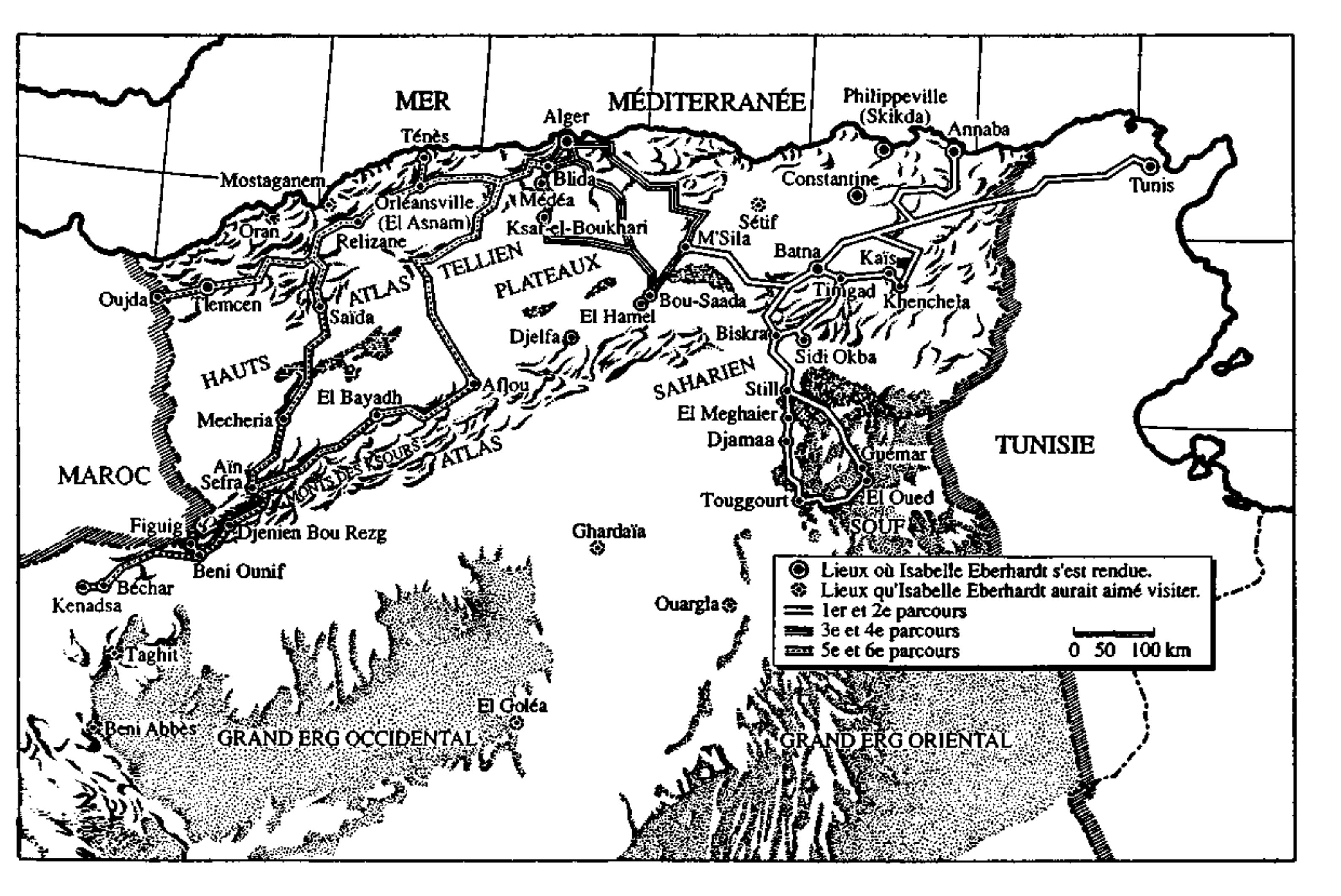
نشرها ولم تدخل فيها باريكون. وقدّم تلك اليومية إلى القراء، وكانت أدبية أكثر منها شخصية، مدعياً أنه اكتشف خلف الأسطورة الصورة الحقيقية لتلك التي أطلق عليه لقب «المرتحلة الطيبة»، ونشر قصتين في إحدى المجلات، ثم عاد لينشر على نحو متلاحق نصوصاً جُمعت في كتب أخرى متشابهة تقريباً: حكايات ومناظر سنة ١٩٢٥، وفي بلاد الرمال الذي لم ير النور إلا سنة ١٩٤٤.

لم تساعد عمليات النشر المجزأة هذه على الإحاطة بكل البعد الإبداعي الخاص بإيزابيل إبرهارت سواء في القصة أو في الرواية، ومع ذلك فقد عبّرت منذ محاولاتها الأولى، وفي نصوص لم يعد نشرها أبداً، وقمنا بالتنقيب عنها أخيراً في مجموعات «مهملة» (وغير مكتملة للأسف) في المكتبة الوطنية.

وهناك نصوص أخرى نُسيت أو أُهملت من قبل الناشرين الأوائل ولم تكن تفتقد للإلهام أيضاً، حتى ليمكننا الاعتقاد أنه من بين حوالي اثنتي عشرة قصة ورواية يتعين اكتشافها، هناك نصوص أبعد بعضها بسبب جرأتها، ومنها على سبيل المثال عبودية الذي يرسم لوحة عنيفة عن الاستعمار من خلال مأساة عاطفية.

إن المسار المتقلّب للعمل الذي تحدّى النسيان منذ أكثر من ثمانين سنة يضيف جاذبية إلى جاذبيته، فلكل قصة ولكل رواية حكايتها الخاصة... فلا شيء أبداً مما يمس إيزابيل إبرهارت بعيد عن التخييل فعلاً...

ماري أوديل دولاكور وجون روني إيلو.



MER
MÉDITERRANÉE
Alger
Ténès
Mostaganem
Oran
Orléansville
(El Asnam)
Relizane
Blida
Médéa
Ksar-el-Boukhari
M'Sila
Sétif
Constantine
Philippeville
(Skikda)
Annaba
Tunis
Batna
Kaïs
Timgad
Khenchela
Oujda
Tlemcen
Saïda
ATLAS
TELLIEN
PLATEAUX
HAUTS
El Hamel
Bou-Saada
Djelfa
Biskra
Sidi Okba
SAHARIEN
Aflou
El Bayadh
Mecheria
Still
El Meghaier
Djamaa
Touggourt
Guémar
El Oued
SOUF
TUNISIE
MAROC
Aïn
Sefra
MONTS DES KSOURS
ATLAS
Figuig
Djenien Bou Rezg
Beni Ounif
Béchar
Kenadsa
Taghit
Ghardaïa
Ouargla
El Goléa
Beni Abbès
GRAND ERG OCCIDENTAL
GRAND ERG ORIENTAL
Lieux où Isabelle Eberhardt s'est rendue.
Lieux qu'Isabelle Eberhardt aurait aimé visiter.
1er et 2e parcours
3e et 4e parcours
5e et 6e parcours
0 50 100 km

نبذة تاريخية

١٨٧٢ : بعد رحيل ناتالي دومورردير إبرهارت، زوجة الجنرال دومورردير، عن سان بيتسربورغ، تعيش بسويسرا رفقة معلم أبنائها الأربعة، ألكسندر تروفيموفسكي، وهو كاهن أرثوذكسي خلع ثوب الكهنوت، ويتحدر من أصل أرميني. وتضع طفلاً خامساً هو أوغستان دو مورردير وهو ابن محتمل للجنرال دومورردير.

١٨٧٧ : ولادة إيزابيل إبرهارت في السابع عشر من شهر شباط/فبراير بدار دي غروط بجنيف. لم تشر شهادة الميلاد إلى اسم الأب.

١٨٩٤ : يرحل أوغستان دو مورردير الأخ غير الشقيق لإيزابيل عن جنيف فجأة، منخرطاً في صفوف اللواء الأجنبي في سيدي بلعباس.

١٨٩٧ : بداية من شهر أيار/مايو تقيم إيزابيل إبرهارت ووالدتها في بون (عنابة) على الساحل الجزائري. وفي ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر: تموت ناتالي دومورردر وتدفن بحسب التقاليد الإسلامية في مقبرة بون الأهلية.

وفي كانون الأول/ديسمبر تضطر إيزابيل إبرهارت إلى العودة لجنيف رفقة الوصي عليها ألكسندر تروفيموفسكي، وتبقى هناك مدة سنة ونصف. في تموز/يوليو ١٨٩٨: مشروع زواج من رشيد أحمد الدبلوماسي التركي. توقف إيزابيل إبرهارت هذا المشروع عندما يُنقل رشيد أحمد إلى لاهاي.

١٨٩٩ : ١٥ أيار/مايو: وفاة ألكسندر تروفيموفسكي بعد إصابة بسرطان الحنجرة. تقيم إيزابيل إبرهارت بتونس.

٨ تموز/يوليو: الرحيل عن تونس إلى الجنوب القسطنطيني. أول اكتشاف للصحراء، ولمدينة **الواد** في صوف.

٢ أيلول/سبتمبر: العودة إلى تونس. أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر: رحلة إلى الساحل التونسي. تشرين الثاني/ نوفمبر: الإقامة بمرسيليا.

١٩٠٠: كانون الثاني/يناير: رحلة إلى ساردينا. من شهر شباط/فبراير إلى شهر تموز/يوليو: تعدد رحلات الذهاب والإياب بين باريس وجنيف. ٣ آب/أغسطس: الوصول إلى الواد حيث ستقيم إيزابيل إبرهارت حتى نهاية السنة. اللقاء بسليمان إهني وهو ضابط صف بسلاح الفرسان الجزائري، مسلم من جنسية فرنسية، ستقرر اقتسام حياتها رفقته. تلقُّن الطريقة القادرية. تصير إيزابيل صديقة الزعيم الديني سيدي الهاشمي بن إبراهيم وكاتمة أسراره.

١٩٠١: كانون الثاني/يناير: يتم نقل سليمان إهني إلى باتنة بسبب علاقته بإيزابيل إبرهارت.

٢٩ كانون الثاني/يناير: تتعرّض لاعتداء في بهيمة، قرب الواد. تصاب في ذراعها اليسرى، وفي رأسها بضربات سيف من قبل أحد أفراد الطائفة التيجانية، ويدعى عبد الله بن محمد الذي قال بأنه أُلهم في عمله ذاك من قبل الله. تدخل المستشفى بالواد حتى الخامس والعشرين من شهر شباط/فبراير. الرحيل إلى باتنة حيث ستكون هنالك موضوع مراقبة بوليسية. ٩ أيار/مايو: تظن إيزابيل إبرهارت أنها تحت قرار رسمي بالطرد فتغادر بحراً إلى بون ومنها إلى مرسيليا. ١٨ حزيران/يونيو: محاكمة عبد الله بن محمد في قسطنطينية، وإيزابيل إبرهارت تطلب الرأفة له من المحكمة. يصدر في حقه حكم بالأشغال الشاقة. مباشرة بعد المحاكمة، تطرد من الجزائر بأمر من الحاكم العام. تعود إلى مرسيليا، حيث تقيم في بيت شقيقها أوغستان. ٢٤ آب/أغسطس: يسمح لسليمان إهني بتغيير الفيلق الذي كان يعمل تحت لوائه. ١٨ آب/أغسطس: يلتحق بإيزابيل إبرهارت بمرسيليا. ١٧ تشرين الأول/أكتوبر: زواج مدني بمقر البلدية بمرسيليا.

١٩٠٢ : ١٥ كانون الثاني/ يناير: لما أضحت إيزابيل إيرهارت فرنسية نتيجة لزواجها، صار بإمكانها دخول الأراضي الجزائرية. تقيم ببون في بيت عائلة سليمان. استقرار الزوجين بالجزائر العاصمة في شارع لامارين، ثم شارع السودان في القصبة. في فصل الربيع: اللقاء الأول بفيكتور باريكون. في شهري حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو: السفر إلى بوسعادة وإلى زاوية الهامل. لقاء مع لالة[1] زينب وهي متصوفة تنتمي إلى الطائفة الرحمانية. ٧ تموز/ يوليو: الاستقرار في تنس حيث عُيّن سليمان إهني في وظيفة خوجة. العديد من رحلات الذهاب والإياب بين تنس والجزائر. استئناف صدور المجلة الأسبوعية الأخبار التي ستصير معاونة رسمية بها.

١٩٠٣ : كانون الثاني/ يناير: رحلة ثانية إلى بوسعادة والهامل. واللقاء الثاني بلالة زينب. نيسان/ أبريل، وأيار/ مايو وحزيران/ يونيو: حملة قذف ضد إيزابيل إيرهارت وأقربائها، وهي حملة مرتبطة بالسياسة الانتخابية لأعيان تنس. يستقيل سليمان إهني بعد تعيينه في سطيف. تستقر إيزابيل إيرهارت بالجزائر. شهر أيلول/ سبتمبر: ترحل كمراسلة حرب في الجنوب الوهراني بعد معارك المنقار وحصار تاغيت. شهر تشرين الأول/ أكتوبر: اللقاء مع ليوطي في عين صفرا. تحقيقات في بني ونيف حول الوضع على الحدود الجزائرية المغربية. العودة إلى الجزائر عند نهاية فصل الشتاء.

١٩٠٤ : السفر إلى وجدة (المغرب). شهر أيار/ مايو: إقامة ثانية بالجنوب الوهراني. احتلال بشار من قبل قوات ليوطي. تمضي إيزابيل إيرهارت فصل الصيف بالزاوية المغربية بقنادسة. شهر أيلول/ سبتمبر: لما كانت مريضة تعود إلى عين صفرا. ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر: تلقي إيزابيل إيرهارت حتفها في فيضان عين صفرا.

١٩٠٧ : ١٤ نيسان/ أبريل: وفاة سليمان إهني.

١٩٢٠ : انتحار أوغستان دوموردير بمرسيليا.



---

(١) لالة لدى أهل المغرب والجزائر: السيدة. المترجم.


قصص

المرآة

المخازني[1] محمد، من قبيلة دراكة شراكة لجيري فيل، بدوي طويل القامة، قوي البنية، مرِن، عريض الكتفين، بعضلات بارزة ترتسم بوضوح أسفل جلده الأسمر عند الرقبة والصدر، ذو وسامة ذكورية جلية، وملامح تدلّ على الصرامة والحزم، زادتها رجولة لحيته السوداء، وحاجباه المقوسان اللذان يظللان عينين سمراوين غائرتين وواسعتين.

كان يرتدي بأناقة مهملة قميصاً وغندورة بيضاوين مفتوحين دوماً على جيبه وصدره، والبرنس الأزرق الطويل الخاص بالمخزن، وغطاء الرأس الأبيض المشدود إلى أعلى الرأس بعقد صفراء لُفّت من دون إتقان. ومن دون تعمُّد، وبالفطرة فقط، كان يوحي بالنبل، ويبدو وهو في زي مرتزقة الجنوب البؤساء أشبه بقايد أو كآغا.

وكان محمد يكثر من الضحك بفرح جريء، وبلامبالاة رائعة، ويمر بلحظات غضب مروّعة سرعان ما تنقضي. وكان مُفرِح الكتيبة وقوّالها؛ أي مؤدّي أغانيها.

وكان على الخصوص فخور جداً بمهارته في ركوب الخيل، فما إن يرى أمامه مساحة واسعة وفارغة في أحد الكثبان حتى تتقد عيناه، وترتعش طاقتا أنفه بينما تقلب يده الطويلة والمتيبسة التي لم يتلفها أي عمل شاق اللجام. ومع ذلك، وخلال فترات الراحة كان محمد يبدو رزيناً وصامتاً ولا يضحك.

وذات يوم من أيام فصل الشتاء الهادئة، وفي ملل شهر رمضان وكسله، رحت

---

(١) حافظنا على إملاء إيزابيل إيرهارت للكلمات العربية التي تعيد كتابتها في بعض الأحيان بطرق مختلفة. والكلمات المكتوبة بخط مائل والتي لم يقدم معناها في النص الأصلي جمعت في معجم في آخر الكتاب. الأصل.

أتجول في الكثيب المنخفض المطل على الوادي الحجري، فرأيت محمداً جالساً مسنداً ظهره إلى الجدار المتداعي لبناية المكتب العربي العتيقة. توقفت لئلا يراني، ذلك أن المخازني كان مشغولاً بشيء شديد الغرابة.

فقد أخرج من جيبه مرآة بائسة، مرآة صغيرة دائرية بحاضن قصديري، وأخذ يتأمل وجهها فيه بانتباه وجدّ.

مر وقت طويل وهو كذلك، كأن البدوي كان مفتوناً بصورته، ولم يكن ذلك الدلال المفاجئ ليتوافق مع الوسامة الذكورية وهيئة الجندي الجادة جداً.

فيمَ كان يفكر وهو ينظر إلى نفسه في مرآة الطالب التي كانت بحوزته؟ ما الذي تستطيع أن تشعر به روحه الخشنة المولودة في المناطق المعزولة الواسعة وفي أكثر أنواع الحياة قسوة وأشدها بدائية، حياة الجمّالين من البدو الرحّل؟

انتهى محمد بأن أمسك مرآته بقوة، ثم عقد ذراعيه وتمطط، وابتسم.

إلى أحمد بن أرسلان

جهنمِية
شبق قبري

حُبٌّ من دون نهاية، حُبٌّ بلا عدد
حُبٌّ بأناس بلا أسماء
حُبٌّ حُلم، حُبٌّ ظلّ
هو دوماً حُبّ. احِبّوا!

أحِبّوا! ففي نظراتكم الصافية
هناك دوماً تلك الأنوار المشرقة
هي الشرارات السريعة
للشعلة الخالدة. أحِبّوا!

ج. ريشبان. جزر الذهب.

في صمت الليل، كانت القاعة الكبيرة ذات الإضاءة الخافتة غارقة في نوم غامض...

كانت رائحة فاترة تصعد من الطاولتين المقززتين ومن الأرضية الموحلة، كانت رائحة أحشاء بشرية ودم مُخثّر وأدوية مراقة...

وفي رائحة البؤس تلك، وفي تلك القاعة الأليمة، وعلى طاولتين، كانت ترقد جثتان، غطيتا بكفنين أبيضين مشؤومين، لباس الرعب.

وجوار الجدار العاري، جدار مستشفى أو سجن، مأوى أو ثكنة، كان هناك رجل بثياب رثة يرقد جامداً بلا روح، وقد أغمض عينيه في لامبالاته التي أضحت أبدية. كان شاباً جداً، لعله في العشرين من العمر. كان أشبه بتمثال أبيض، وديع جداً،

تنفرج شفتاه الذاويتان عن شبه ابتسامة في وجهه الشاحب، ابتسامة ما بعد القبر...

وفي الجهة المقابلة ترقد امرأة هي أيضاً في ثوب البؤساء.

تبدو كأيقونة متقشفة وصافية في جمالها السامي الشاحب، جمال الشهادة...

وتحت الظل المزرق للشعر الأسود بياض جامد، بياض الجسد المتصلب بلذة في برودة الموت، والذي أضحى غريباً منذ تلك اللحظة على العناقات المحتدمة، والقبلات الحارة.

ويظهر الشكل المتصلب للقماش المقزز تناسق الجسد الجميل...

وتلقي الشعلة الغازية الخافتة انعكاساتها الدامية على هيمنة الموت المظلم المشؤوم.

وفي الصمت المطبق، وفي الرائحة الكريهة، كان الجسدان المجهولان والشابان كلاهما يرقدان في نومهما المرعب...

كانا ما يزالان يحافظان على الشكل البشري، لكن لا قيمة لها في القاعة الجنائزية... لم يكونا، فقد شطبا إلى الأبد من عداد الأحياء.

بائسان حطمهما القدر، وصرعتهما العلة، فقد مرا كمجهولين للحظة قبل أن ينتهي بهما المطاف إلى ذلك المكان. وفي اليوم الموالي، وفي برودة المبضع ستمزق أحشاؤهما العارية، وستفحص على نحو مخجل، وستعرض على شبان آخرين وشابات أخريات، متعطشين للحياة وللعلم وللحب، أعضاؤهما الممزقة وثيابهما المدماة الحقيرة، ملكهما الوحيد من دون شك خلال حياتيهما اللتين ستظلان مجهولتين إلى الأبد...

سيعرض بؤسهما الأخير تحت الشمس اللامبالية، في سعادة الشمس الأبدية...

لا يهمّ!

ففي اللغز الكبير للصيرورة الأبدية، كيف يُندم على الدم والحياة والجسد المضحّى به؟

وكل أولئك الذين سيبللون أياديهم اليافعة والدافئة في ذلك الدم البارد، وفي ذلك اللحم المشوّه، سيذهبون فيما بعد محاولين التخفيف من ألم إخوانهم المثيرين للشفقة، ويسعون في يوم من الأيام إلى تهدئة الصرخة الكبرى التي تنتزعها الصيرورة الدائمة!

وسَيُلفَون هم أيضاً فيما بعد جامدين على نحو مفاجئ وباردين في العدم عينه الذي لا شكل له، ولا زمن له، ولا اسم له...

كذاك يحدث الأمر دوماً...

يرقدون في الشعاع الغريب للنور الخافت...

وهناك، إلى جوارهم، وهم موتى جامدون، إنسان حيٌّ يصارع قوى الظلام المجهولة، للأعماق المظلمة لوجوده والتي ستخضعه وتفنيه...

كان يقف أمام المرقد البائس الذي سُجيت فيه المرأة الشاحبة، طالب مداوم بالمصحة.

كان ينظر إليها وقد ارتعش جسده برغبة مرعبة.

كان وجهه شاحباً بعينين سوداوين مذعورتين، وكان يختلج برعشات باردة...

كان يقاوم بكل إرادته وبكل طاقته الشابة، ويصارع ضد نداءات العصاب المشؤومة...

غير أنه لم يكن يستطيع الفرار، فقد كان مفتوناً وجامداً، ذلك أن الجسد الذابل أخذ يضعف شيئاً فشيئاً، ويقع فريسة رعب قاتل، وأصيب قلبه بالغثيان...

أحس نفسه من دون قوة أمام العناق المشين الذي رغب فيه بجنون.

كان على وشك الاستسلام...

كان ألمه لا يحتمل في تلك الليلة الرهيبة...

ثارت رجولته ضد الجماع الكريه، وكانت إرادته تتمثل في الفرار...

بقي جامداً، ترشح جبهته عرقاً، وعاقداً قبضتي يديه...

كان يشعر بنفسه قوياً ووسيماً، وكان يدرك أنه ما يزال شاباً وفحلاً جداً. وكانت أنفته ترتفع إلى فكرة ذلك الطيف الجنائزي للحب الذي جرفه في العديد من المرات في عتمات اللذة التي يشق وصفها.

طرد متقززاً العتمة الوهمية التي ولدت من عُصابه المنتصر والذي أذله في تلك الليلة قبالة تلك المرأة التي كانت عيناه تنظران من دون حشمة إلى شكلها الجامد تحت الغطاء اللين، وأمام الوهم المروّع.

حاول بكل ما أوتي من قوة وعفة، أضحت غير واعية غير أنها كانت ماتزال حية داخله، أن يؤجل رغبته المحمومة للاستحواذ على سيدة حية، مهما كانت...

غير أن كل الصور التي كانت تثيرها ذاكرته تحت التوتر العنيف لإرادته كانت شاحبة ومجهولة... لكن عند رؤية تلك الميتة، ارتعش جسده الشاب وانتشى وضعف على الرغم منه.

وصعد اللون الأحمر للخجل إلى وجهه أمام انحطاطه... بل إنه ازدرى نفسه، وكرهها في تلك الساعة المعذبة.

تطلّع إلى رفع الغطاء الجنائزي فوق الجسد، ثم أدرك أنه كان ينظر من خلاله.

غير أنه أراد أن ينظر في الواقع، وعلى نحو حاسم.

وهكذا استسلم لتلك الرغبة مع أنه استمر في الصراع ضد الآخر الذي كان يدرك أنه مريض ومقزز...

وبيده التي أخذت ترتعش بعنف، أزاح الغطاء، ونظر إلى ذلك العري المؤلم الذي عُرض أمام ناظريه الفاجرين.

وهكذا أحس نفسه يخور، واقشعر بدنه طويلاً حتى أعماق جسده المنتصر...

ثم سقط على الجثة البيضاء، وضمّها إليه في عناق وحشي وأليم مصرّاً على أسنانه، ومرتعشاً في حمّى مروّعة...

عندما أمسكها، ومن دون أن يشعر ببرودتها حتى، شعر برعشة لذة قصوى.

استمر يضمّها إليه بكل قواه مرة تلو أخرى شاعراً بأنها حية وحارة ومجنونة بمداعباته، وتلتصق بجسده المختلج بشهوانية وارتخاء في دفئها اللطيف كعشيقة منفعلة...

صدرت عنه آهة لذة مهتاجة، وصرخة النصر، والتمجيد العظيم للعصاب شديد القوة.

أما هو المهتاج كفحل متوحش فكلما ضمها إليه أحسها أكثر حياة، وترتعش بفعل مداعباته المجنونة.

وعلى نحو عنيف ضغط بشفتيه على شفتي عشيقته ـ الطيف، الميتة والفاقدة الإحساس.

ومجدداً، هزت قشعريرة اللذة كل جسده.

ووضع رأسه ذا العينين المتسعتين بفعل اللذة بفتور ووهن على صدر الميتة.

وظلت تلك البعيدة، والفاقدة للحركة وللإحساس بالمداعبات المحمومة للفحل الذي كان يستحوذها على الرغم من الموت، ممددة دوماً شاخصة إلى السقف الغارق في الظلال الغامضة.

وبقيت عيناها الميتتان مغمضتين، ومن دون سعادة ومن دون ألم في ذلك الجماع الوحشي، فقد كانت تستريح وهي أكثر استسلاماً من أية عشيقة أخرى تحت العناق الشديد للكائن الحي.

ومع الصباح الربيعي الشاحب، وفي مرقدها الملوّث بالدم والحب، كانت الميتة وعشيقها، الذي نام، يستريحان. هي هادئة إلى الأبد، محلقة إلى المجهول المظلم، أما هو فمقدر له أن يحوم لسنوات أخرى في دوامة المجهول للصيرورة الأبدية...

ملاحظة

الشابة والحب والموت... تبلغ من العمر ثماني عشرة سنة بهذه «اللذة القبرية» اختارت إيزابيل إبرهارت الطريقة الأشد غرابة والأكثر استفزازاً أيضاً لتسجيل بداياتها الأدبية.

ففي سنة ١٨٩٥، كانت تعيش في ميران قرب جنيف رفقة والدتها والوصي عليها ألكسندر تروفيموفسكي. وكانت قد بدأت تقطع مع الاختناق الأسري، وترتاد كلية الطب حيث تعد صديقتها الحميمة فيرا، الطالبة الروسية، رسالة الدكتوراه هناك.

جهنمية هو أول نص نشر لإيزابيل إبرهارت، في ١٥ أيلول/سبتمبر سنة ١٨٩٥ في المجلة الحديثة الجديدة «سياسية أدبية فنية برسوم في الفاتح من الشهر ومنتصفه». وكان لكل مشترك فيها حق نشر نص شريطة أن يتوفر على جودة كافية بالنسبة لتلك المجلة الطموحة، والتي كانت في سنتها الرابعة عشرة من الوجود. وقد نُشرت فيها نصوص ألكسندر ديماس الابن، وزولا، ودودي، وهيسمانس، وفيرلين، وجيل ماسي، وبيير لوتي...

لم يشك قراء تلك الفترة أن كاتب هذا النص «الخطر» ما هو إلا شابة، فقد اختارت إيزابيل إبرهارت اسماً روسياً هو نيقولا بودولانسكي كاسم مستعار، غير أن غلطة مطبعية حرّفت توقيعها الأول ليصير بودولانسكي بوبوليونسكي. لكن الإهداء وموقع جهنمية - الحظيرة بالقسطنطينية - يشيران إلى الوجهة التي تدير نظرها إليها.

هناك أطباء يمرّون كشخوص في أعمال إيزابيل إبرهارت. وفي مراسلاتها، تؤكد غير مرة أنها ابنة أحدهم. ففي رسائلها إلى صديقها التونسي علي بن عبد الوهاب تصرّح بهذا الاعتراف الذي لا يصدّق «... علمت مستندة في ذلك إلى وثيقة بأني كنت نتاج اغتصاب محزن اقترفه طبيب أمي...» هل ينبغي البحث عن علاقة بين هذا التأكيد وموضوع جهنمية؟

إلى بيير لوتي، الكاتب الرائع
لرواية فارس جزائري و أزيادي،
بكل تواضع

أخ مجهول

رؤية المغرب

«أشار شاب وسط الحشد إلى السماء. كان شاباً ذا وجه لطيف وَرِع.
كان يشير إلى الأعلى، إلى نقطة غير مرئية، وينظر بانتشاء إلى عمق السماء الزرقاء، ثم قال:
ـ إنه الله! انظروا جميعاً! أرى الله![1] أرى الخلود!»

بيير لوتي. أزيادي.

بعد خمول النهار الملتهب، وبعد النوم الثقيل تحت سماء حارقة، مالت الشمس الحمراء باتجاه الأفق المستعر، وارتسم جبل أورانسينيس كطيف مظلم على هذه الوِهاد المتأججة. . .

كانت الحياة المرهقة بالحرارة على وشك الاستيقاظ في الوادي، وكانت نسمة خفيفة لا تكاد تدرك تهز قمم النخيل المصفرة والأوراق الصلبة والرمادية لأشجار الأوكاليبتوس. . .

وبعد ذلك النسيم القادم من الشمال، من البحر البعيد، العابر والخفي، اختفى بعض الشيء إرهاق النهار الثقيل.

وكانت هناك باحة كبيرة مربعة محاطة بجدران من اللبن المجزّع أحالت الشمس لونها ذهبياً عبر الزمن. . .

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

وفي العمق، على الجانبين، ممرات خشبية عتيقة جداً، اعوجت بفعل قِدمها.

وفي الحجارة المفككة حيث بنيت أساسات تلك الجدران حلقات حديدية رُبطت بها أطراف حبال مهترئة...

وفي العمق، ملجأ الرجال الباعث على الرثاء، حيث سقف من القرميد المسودّ مدعوم بأعمدة عتيقة، هو مكان للبؤس وللشقاء الوحشي...

وهناك، في مكان قريب جداً من ناحية الغرب، الجدار شبه المهدم الذي يطلّ على البادية المحترقة، ثم عبر أودية أخرى وتلال أخرى، على الأماكن البعيدة المغشاة بضباب ليلكي وعلى الجبال المسننة.

وفي تلك الباحة، على البلاطات الملوثة وعلى الطين، يتجمهر خليط من البشر من زمن بائد...

برانس رمادي، وغندورات زرق... وحمير شُهب وجمال حُمر...

كانت الدوابّ المشدودة إلى الحلقات تحمحم وتضرب الأرض الصلبة بقوائمها التعبة محدثة بعض الضجيج.

وكان الرجال يتحركون بأقدام عارية أو بنعال ويصرخون...

وفي هدأة الصمت، ترتفع أصوات جهورية وصرخات حادّة ونهيق حمير شاك...

وقرب الإصطبل المفتوح يقف جمل مجرود ماداً عنقه باتجاه الغروب المحتدم...

ومثل حيوان قديم ما يزال حياً في مفارقة كان يقف مفصولاً بخطوط شديدة الوضوح وتقريباً في لون أسود تحت سماء متألقة.

فجأة، أصدر صرخة طويلة ممدودة ومنتحبة... وكان ذلك الصوت الغريب مقلقاً وحزيناً، حزيناً بلا حدود.

وكانت الشمس تغرب وقد أضحت أكبر حجماً وأكثر احمراراً... وتمددت الظلال البنفسجية على الأرض الحجرية، وفقدت أشكالها الحقيقية.

ثم عمّ الصمت. كانت لحظة المغرب المقدسة.

وفي تلك اللحظة، وبحسب طقسهم، تفرقوا إلى مجموعات غير أنهم اتجهوا

جميعاً نحو أرض الشرق، إلى تلك الأرض البعيدة هناك حيث انتصر إيمانهم قبل ثلاثة عشر قرناً، وغزا العالم. كان المسلمون يصلّون ويتضرّعون أمام عظمة الله[1] الخالدة، معيدين بأصوات خافتة وبسرعة صلوات قديمة ومكررين الحركات التقية المهيبة...

وفي اللحظة ذاتها، وفي كل الأراضي الإسلامية، وفي كل دار الإسلام، كان ملايين الرجال الشديدو التباين، والقادمون من أماكن متباعدة يصلون بالطريقة عينها منذ قرون طويلة مولّين وجوههم جهة الكعبة المقدسة، ورافعين أيديهم إلى السماء برزانة ومهابة بالنسبة لأغلبهم...

وما إن تنتهي الصلاة حتى يبدأ الصراخ مجدداً.

وشيئاً فشيئاً غرق كل شيء في الشفق المزرق والمضطرب...

وهكذا، وبعد نفير البوق، عمّ صمت ثقيل على تلك المدينة التي كانت تستعد للنوم...

كان حزناً شديد اللطف ينفذ إلى كل شيء ويخدّر...

وصارت السماء أكثر ظلمة، وبدأت النجوم المتألقة الكبيرة بالالتماع.

ولفترة طويلة جداً استمرت وشوشة غامضة تصدر من تلك الباحة قبل أن تضعف شيئاً فشيئاً لتخرس تماماً.

وفي بساتين شجرات النخيل وفي غار الورود، بدأت أصوات أبناء آوى الحزينة نشيداً حزيناً ككل ليلة يترجّع صداه في الوادي الصامت...

حام نابشو القبور الغامضون وناحوا من مكان قريب في بستان الأغراس قرب خان القوافل...

وأشعلت نيران الحطب اليابس في أماكن متفرقة من الباحة، وارتفع لهيبها العالي باتجاه السماء في الجو الجاف... وألقت النيران أشعة حارقة على الرجال الأشبه بأطياف، وعلى الأشياء التي تشوهت أشكالها في الظل...

وهكذا، بدأت حول النيران الأغاني بطيئة وحزينة، وشكوى بدوية أو مزابطية لا تنتهي... وغنى البدو والمراكشيون أغاني بأصوات جهورية ومبحوحة، وامتزجت

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

على نحو غريب بالأصوات الواهنة للشكوى البربرية ذات الكلمات الحزينة والرتيبة في لغة لا تشبه أي لغة أخرى على الأرض. . .

ومع ذلك، ارتفعت في بعض الأحيان أصوات العرب العميقة في زغردة حزينة بشكل غير محدود، في زغردة فضيّة تماماً. . .

وترددت طويلاً في الجو الحار أغاني الحلم تلك، وردّت عليها أبناء آوى من مكان شديد القرب. . .

استمروا في أداء أغانيهم الحزينة الموحدة، في وحدة أغنية حزينة وبربرية ولدت في الصحارى عينها، تحت السماء المحتدمة نفسها، وفي المدى الفسيح المقفر ذاته. . . وأصل الحزن الكبير الكامن في أصواتهم واحد، فهو في هذه الآفاق الغامضة الكبرى، وفي عُقر الأرض الأبدي ، وفي صفاء السماء الأبدي. . .

وفي ركن الباحة، كنا نجلس متحلقين حول نار جريد قصير قُطع بعناء من الجوار خلف السور. . .

وأمامي، كان الحبيب ممدداً على الأرض مفترشاً برنساً أبيض كبيراً جعله يبدو مثل شيخ عربي. كان حزيناً في تلك اللحظة الحزينة على نحو لذيذ. . .

كان يحلم من دون شك. ومن دون شك كانت أحلامه تحمله إلى هناك، إلى بلد ولادته البعيد، إسطانبول. . .

ومن دون شك أيضاً، في أعماق روحه حيث ترقد الأفكار والتصرّفات الموروثة عن الإسلام الغابر، كان ذلك الحزن الكبير الذي يخيّم على أرض المغرب يوقظ أصداء بعيدة. . .

وإلى اليمين، كان أخونا بالتبني محمود جالساً، وقد لف رأسه المسند إلى يديه في حايك وردي اللون، وسقط على كتفه رسنُ الجمل الصوفي الأصفر. . .

قام الحبيب ببطء وبحركات متراخية خاصة به، فألقى جسده الطويل والرشيق ظلاً شديد السواد على الجدار المائل إلى اللون الأبيض على نحو غامض والمنار بنارنا التي كانت تخبو.

وأخيراً، قال مخاطباً محموداً باللغة العربية بصوته الناعم جداً والموسيقي على نحو فريد، ماداً يده باتجاه ظل الأروقة الممرات:

ـ حليم بن منصور بن جينة حاضر هذا المساء! سأذهب للبحث عنه. . . إبق معها!. . .

وعندما اختفى في الظل، خاطبني محمود قائلاً بصوته الخشن جداً مقارنة بصوت الحبيب:

ـ هل فكرت يوماً أنك ستقضين ليلة بفندق في المدية وحيدة مع رجلين عرفتهما قبل نحو ثمانية أشهر فصار أحدهما حبيبك والآخر أخاك؟ إنه القدر! من يدري كيف سيصبح في الغد، وما قيمة حساباتنا ونبوءاتنا؟

ثم قام بحركة لطف واسعة وازدراء كبير. . . ومع تلك الكلمات الصادرة عن ذلك الرجل الغريب جداً بحزن فريد، ولأول مرة، بدا لي كل ما كان غريباً، وكل ما كان مستبعداً في وضعي، واضحاً على نحو مفاجئ. . .

وتساءلت أكثر من أي وقت مضى بخوف غامض أية حتمية غامضة تثقل عرقي، وأية روابط قوية تربطه بأعراق الشرق الجامدة. . . !

ـ أنت عربي هذا المساء يا محمود أكثر من أي وقت مضى!

ـ أجل. . . هي مسألة وسط من دون شك. كان الرجل الذي مضى صلاح الدين يبحث عنه طالباً كبيراً من طلبة الدين الإسلامي، عالماً وولياً. . . ومع ذلك فهو شاب جداً. . . عندما سيموت ستشيد على قبره قبة. . . لكن ما دام على قيد الحياة فإنه سيتعرّض لعذاب شديد وسيُضطهد دوماً. . . لأنه يؤمن ولأنه ليس خائناً!

همس محمود هذه الكلمات مبتسماً ابتسامة مرارة ساخرة، بيد أن ألقاً موحِشاً عبر شعر رأسه الأسود الطويل، مضيفاً إلى وسامته الذكورية والغامضة التي يتصف بها ابن الصحراء الحقيقي.

بقي صامتاً، وقد ركز ناظريه المضطربين في عيني.

عاد الحبيب ماسكاً بيده رجلاً يرتدي برنساً صوفياً. كان متوسط القامة ذا لطف أنثوي تقريباً في ثيابه الفظة كرجل عادي. . .

جلس قرب النار قبالتي تماماً، وفي وضوء النار المتأججة، رأيت وجهه الشاحب والوسيم وسامة تفوق الخيال تقريباً بعينين سوداوين كأنما تضيء في عمقهما شعلة ورعة تحت القوسين الجميلين للحاجبين السوداوين.

كان ممعناً في صمته ينصت إلى الحبيب الذي كان يحدثه بصوته الرخيم المنتحب باللغة العربية ملطفاً على طريقة المشارقة الأماني الأكثر قسوة...

خاطبه الحبيب بابتسامته المتشككة الجميلة التي كشفت أسنانه البيضاء:

ـ لكل شخص يا حليم سعادته... تلومني على كوني شكاكاً وأني لا أبحث إلا عن اللذة وحدها... لكن ما الذي تقوم به أنت؟ لذتك ومثالك الأعلى هي الشهادة المجيدة من أجل قضية نبيلة تخدمها، وأنا ومحمود مخلصان لها على سبيل الهواية... وأنت تستلذ! ثق بي، فحتى الناسك لا يبحث عن شيء آخر سوى المتعة! فاللذة هي المتحكمة يا حليم!

رد الطالب الشاب بقناعة شخص متبصر، وبحركة استسلام فخورة...

ـ هو من خلق كل شيء، والسيد المطلق على كل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، مالك يوم الدين... لا أبحث عن اللذة... لم أتخل عن أي شيء، ولا أرغب في شيء من أجلي. الله عظيم وحده، لا شيء خالد خارج ملكوته، ولا يدوم إلا ملكه![1]

بعد خمسة أشهر، في المقهى الغنائي في شارع القصبة بالجزائر في دار الغنيال للسي محمد الأمزيان أو نياطالي...

كانت القاعة شبه ممتلئة، وعلى الكنبات المبرقعة، كانت البرانس والغندورات والحايكات وأزياء الجنود الموحدة، وفساتين النساء الإفرنجية...

وفي ضوء مسرجة الخزان المغطاة بدت هيئات فريدة وتجمّع ظلال غريب حيث بربر شديدو البياض وشديدو الأنوثة، وبربر برؤوس غريبة قديمة، وعرب حقيقيون بملامح واضحة ومنظمة وبعيون نشيطة، وزنوج غريبون، وملاّحون يونانيون متخلعون ووقحون... ومالطيون، وبالياريون وإسبانيون وإيطاليون... خليط بابلي صاخب.

وعلى المنصّة الحمراء، أسفل بيض النعام المعلّق في السقف، كان أولاد نايل وبنات من بني عمور يغنون على الهمس اللطيف للمندولينات والدربوكات.

---

(١) جاءت الجملة هكذا في الأصل، غير أن الكاتبة كتبتها بأحرف لاتينية. المترجم.

كانوا يرتدون أثواباً حريرية ذات ألوان زاهية ويضعون بودجات في شعورهم وأطواقاً من الأزهار الطبيعية حول أعناقهم...

كانوا يغنون ويتمايلون من جانب إلى جانب آخر، ويحركون أوراكهم على إيقاع الموسيقى، ويجلسون مشكلين نصف دائرة على نمارق محاكة.

وفي إحدى الزوايا، كان يهودي شرقي، شبه مختبئ تحت جوخ أحمر، يعزف على آلة بيانو فالساً شاذاً صاخباً لم تكن له أي علاقة بالأشياء الحزينة التي كان يغنيها أولاد نايل...

وكانت أجساد النساء الجميلة تلك، الملتفة بأثواب حريرية، تلهب الشهوات العنيفة لدى كل أولئك الرجال الذين ألقت بهم ظروف حيواتهم المتجوّلة في مدينة عمور الكبيرة.

وكان أولئك الذين يملكون بعض المال يعلمون في قرارة أنفسهم بأن أولئك النساء سوف يكنّ لهم، وكانت هذه الفكرة تلهب نظراتهم، فتشحب وجوههم وتوهن حواسهم...

في ذلك الجو الحار، كان صخب الأنفاس البشرية المشوش، واللهاث القوي لذلك الوحش من دون رأس، لذلك الحشد من الرجال، فريسة لأشد الشهوات غريزية.

أحسّوا جميعاً تقريباً بالاحتراق المحموم لرغبات الجسد العنيفة...

وفي بعض الأحيان، كانت رياح الليل الباردة تهب لتتلاشى بعض الشيء سحابة الدخان والروائح الحارقة التي تملأ القاعة.

وتختلط أصوات المغنيات الحادة وانتحاب الآلات الفاتر بالأصوات الخافتة الآتية من الخارج...

وهناك، في تلك الأحياء الميتة خلال النهار، كانت حياة مخفية، حياة مظلمة، قد استفاقت مع غروب الشمس...

... ومن الأسفل كانت تصعد عبر القوس البربري الكبير للمدخل أغان وأصداء أبواق عسكرية بعيدة، وضجيج لا ينتهي للموسيقى المحلية...

ومن فتحة في الشارع بين منزلين كان يظهر كل سحر الجزائر وخليجها العجيب، متألقة بالأنوار، ومزينة بالنجوم مختلفة الألوان...

كان منظراً خيالياً، حيث مدينة شبح معلقة بين السماء الصافية والبحر المعتم في فتور الليل...

في البداية تبدو المنارة وهي تلقي نورها الشديد البياض والذي يبدو مزرقّاً في الليل، يرتعش في صفائح فضية شاحبة على سواد المياه الداكن وسط التماعات الأمواج الفسفورية...

ثم ضوءا الوضع اللذان يرشدان السفن، أحدهما أخضر والآخر أحمر مثل نجمتين بعيدتين ثابتتين في فراغ الأفق غير المرئي...

وفي الأسفل يبدو المرفأ المضاء حيث ترسو البواخر الكبيرة وما لا يعد من الأكاليل، أكاليل أنوار الأرصفة وشوارع مدينة الروميين...

ثم إلى اليمين، ابتداء من باب أزون، عدد لا يحصى من النيران المتفرقة في عدم انسجام لا تلبث أن تختفي بعيداً في اتجاه مصطفى وحسين داي. وكان كل ذلك يتراقص ويتلألأ في النور المضطرب لنجوم السماء الجنوبية الكبيرة...

وتصعد من تلك المدينة المضاءة على ذلك النحو أصوات الطبيعة والناس ممتزجة وأكثر انتظاماً وأشدّ حمّى في لحن جماعي منتظم، باتجاه المدينة الأخرى العابسة والمعتمة... هدير أخرس ولامحدود للبحر الهادئ وهبوب الرياح أو الغناء الحزين لطيور الليل في الأحياء العالية باتجاه القصبة البرانية الساقطة والمدنسة وحشرجة الحب أو الاحتضار وصراخ الثورة أو اليأس الغاضب، ونداءات مذعورة للمجهول، وأغاني حزينة أو ممدودة على نحو محسوس...

كنا نجلس قرب الباب نحن الثلاثة مثلما كنا نفعل في السابق في باحة خان القوافل هناك في الطريق المؤدية إلى الصحراء الصامتة...

وكنا نتأمل في صمت جمال ليلة دار الإسلام تلك، الذي يفوق كل وصف. وتهنا نحن الثلاثة في أحلام حزينة على نحو لطيف...

لا شك أن أفكار الحبيب كانت تحمله مجدداً إلى إسطانبول الخلفاء والشعراء، إلى الوطن العثماني الوديع...

وكانت أحلام محمود الأكثر حزناً والأكثر وحشية من دون شك تحلّق باتجاه الكثبان الحزينة الكبيرة للجنوب الأقصى، إلى ما كان بلده المقفر والذي يحبه إلى الأبد عبر بعده عنه وتغيراته العميقة...

وكانت روحي الحزينة تتجه بحزن إلى الأرض السلافية، إلى سهب بودوليا الشاسع...

كنا للأسف بعيدين جداً، ثلاثتنا في صمت، بعضنا عن بعض، ومفرقين بهوّات يشق تجاوزها للماضي الميت والذكريات المحبوبة! كنا نفكر في الأشياء الميتة والناس الذين أحببناهم في الماضي والذين غرقوا في الفراغ النهائي المعتم...

بيد أن الحبيب كان يبتسم في غموض، وكانت لحظةُ حلمنا الصامتة من دون مرارة ولطيفةً جداً وخاضعة جداً.

أعادني السحر المقتحم لكل تلك الأشياء الإسلامية إلى الواقع، فعدت لأرى مجدداً فتنة الجزائر المشتعلة والغارقة في الأنوار تحت النجوم الشاردة في الأعلى، في أعماق السماء المدوخة ذات اللون الأزرق المخضر...

وكان أولاد نايل يغنون دوماً... والمِسرجات الزيتية التي كانت تشتعل، وتضيء منذ فترة القبة المعتمة، انطفأت، ومدت الحلكة ظلالها على الزخارف الطينية المطلية والعتيقة جداً والمدخنة جداً للجدران الكبيرة...

ذهب بعض الرجال ليناموا على الزرابي المتسخة المفروشة على الأرضية، في حين كان بعضهم الآخر يتحدثون ويضحكون، أما الفئة الثالثة فقد كان أفرادها يحثون المغنيات ملقين إليهن الليمون أو بعض القروش...

وكانت أولئك النساء يضحكن أيضاً، مستمرات في أغانيهن الحزينة اللامنتهية «على تصدّع سد سان دوني في سيغ».

فجأة، قال محمود:

ـ انظر صلاحيم[1]. انظر! وصل السي حليم لتوّه! لا شك أن محمداً أخبره أننا هنا!

قام محمود وذهب للقاء الطالب.

دنا هذا الأخير، وقبّل صلاح الدين على خده وقال بصوت خفيض:

ـ وصل سيدي إبراهيم بن يحيى إلى ورقلة... الأمر وشيك يا أخي، لقد تم اختياري! إبتهج! الله أكبر![2]

---

(١) هكذا جاء في الأصل، لعل الكاتبة تقصد صلاح الدين. المترجم.

(٢) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

زفر صلاح الدين، وأضحت عيناه السوداوان حزينتين بشكل غير محدود وهو ينظر إلى الطالب المتحمس.

وهمس:

ـ يا فقيري[1] حليم!

ـ فقير سعيد! استجاب الله أخيراً دعواتي...

ـ فلتكن سعيداً. وفي الحقيقة إذا كان ما تؤمن به كذلك فليباركك... أما إذا لم يكن كذلك فستموت على الأقل في عظمة الأمل... والأمر سيّان!

ـ أنت تعيس يا صلاح الدين لأنك لا تؤمن! في النهاية فليعنك الله لإخلاصك لقضيتنا ولإعادتك إلى ديننا الحنيف !فلتكن سعيداً يا أخي، أما أنا فقد أدركت مثلي الأعلى... وإذا ما مت قبل مضي سنة فلا تنسني واحرص على الصلاة على ذكراي! الوداع! سأرحل هذا المساء رفقة السي الجيوندر الحاج علي إلى بني مزاب. في أمان الله إلى الأزل[2]!

عانقه صلاح الدين ومحمود بتأثر جلي.

ثم ابتعد.

همس محمود وبصره شارد في البعيد، في إيماءة تبريك غامضة:

ـ إنه سعيد! الله معهم[3]!

الله يقصف عمرك![4]

مثل عربي.

بعد مرور عام، في سهول حبيلات اللامتناهية في أقصى الجنوب...

قرية من القريات العربية المشيدة باللّبِن، ضائعة في المدى الرحب الأحمر...

وفي كل جانب، كانت الصحراء الكبرى الكئيبة تتألق تحت شمس الظهيرة التي لا تُقهر.

---

(١) هكذا جاء في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي. المترجم.

(٢) هكذا جاء في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي. المترجم.

(٣) هكذا جاء في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي. المترجم.

(٤) هكذا جاء في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي. المترجم.

وكانت سحابة من ضباب دامٍ تلوح في الأفق، وفي بعض الأحيان كانت طبقات مائية وهمية تبدو ملتمعة في البعيد...

وأعلى القربيات البائسة والأسوار الطينية المنخفضة كانت بعض أشجار النخل اليابسة الصلبة والجامدة تحمل أوراقها التي أحرقتها الخماسين[1] في الجو المرهق...

وكان الدوار مملوءاً بجيش أفريقيا ورجال الفيلق والمرتزقة المحليين...

وحول الدوار البائس والقبة الصغيرة ترتفع صرخات غاضبة ويلعلع الرصاص الذي يتلاشى دويّه المتواصل في البعيد من دون صدى...

... وكانت الشمس على وشك الغروب في الحمادة الشاسعة وسط بخار مخيف كامد ومائل إلى الحمرة...

كان لبلد العطش[2] الغارق في أنوار قانية منظر كئيب...

وما من نسمة ريح ولا نأمة حياة في ذلك المدى الفسيح الميت...

كانت أرض النبي تلك، ودار الإسلام، مقفرة جداً في مساء المذبحة ذاك...

وكان الدخان ما يزال يصعد من القربيات المحترقة.

ووسط تلك الأنقاض السوداء كانت الجثث ذوات البرانس ملطّخة بالدماء المتخثرة. كانت جثث مسلمين هادئة إلى الأبد، تنتظر ووجوهها إلى السماء أن تدفن في تلك الأرض الإسلامية التي ماتت من أجلها...

وكان المسجد الصغير يحترق أيضاً، وكان الأخير... وكانت المنارة المشيدة باللِبن مثل بقية البناء تتصدع تحت وقع النار... وأخيراً أخذت النيران تجتاحها...

انزلقت الشمس باتجاه الأفق الحزين، وبدت كقرص أحمر كامد كبير ومن دون أشعة، وعلى وشك أن تغرق في أبخرة مائلة إلى اللون البنفسجي...

وهكذا، من أعلى المنارة، ووسط النيران والدخان الحارق، ارتفع صوت رجل. كان صوتاً صافياً جداً وشاباً جداً...

كان صوت الإسلام القديم.

---

(١) رياح جنوبية شرقية فصلية جافة وحارة تأتي من الصحراء الكبرى محملة بآلاف الأطنان من الرمال. المترجم.

(٢) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

كان الصوت يرتل على نحو مرتفع جداً وصاف جداً الكلمات الخالدة الثابتة التي تمجّد عظمة الله الواحد، والنصر القريب للمؤمنين وهلاك الكفار...

ارتفع الصوت أكثر صفاءً وأكثر ارتعاشاً، وكان ذلك الإنشاد المستوحى من الإيمان الإسلامي على وشك أن يُفقد في الصحراء الخرساء اللامتناهية والصامتة.

ولآخر مرة، كان الطالب حليم بن منصور أو بوجينة يرتل النداء المهيب للمؤمنين بدلاً من المؤذن الفقيد...

كان على وشك الموت، وكان الإخوان الذين يتوجه إليهم بندائه ينامون في الراحة الأبدية في أرض مولدهم...

وفي النهاية، وهن صوت الشهيد، وأضحى منخفضاً شيئاً فشيئاً في انتحاب لطيف ومستسلم، في انتحاب طفولي مثيراً في لحظة الموت السامية اللغز الغامض...

هوت المنارة في زوبعة من الشرارات... لم يبق هناك إلا ركام مدخّن ومن دون شكل ما تزال تجري فوقه بعض الشرارات الزرقاء المشؤومة...

وغرقت الصحراء في العتمة... ولم يعد دوار بني عربان موجوداً، وخرس صوت مؤذني الإسلام إلى الأبد في ذلك القفر المفقود في بلد العطش الشاسع...

إنتهت إذن المغامرة القصيرة العظيمة والحزينة لفتى الصحراء القديمة الذي قابلته في الماضي في ليلة لطيفة من ليالي فصل الصيف في الباحة الغامضة والوحشية لأحد الفنادق الخاصة بالقوافل في المدية، وفي الظل المتجهم والبعيد لجبل أوارانسينيس الكبير.

قضى ذلك الكائن الفاني وعاد إلى الأرض، الخزان الغامض جداً للذرات التي لا تعرف التلف...

ماتت تلك الحياة الشابة والمحتدمة في الزمن وفي الأبدية بلافائدة من دون شك وبوحشية، وغرقت في اللُّجّة السحيقة للموت المحتوم...

«آه! أين ستكونين يا أرواحنا البشرية التي تحيا يوماً واحداً، أين ستكونين غداً، وأين ستكون ذكراك؟»

ملاحظة

حلم شرقي مغربي مع الكثير من التفاصيل الحقيقية: وقّعت القصة من قبل ن. بودولانسكي. ونشرت رؤية المغرب بتاريخ ١٥ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٨٩٥ مع عنوان فرعي «قطعة من البوهيمي الروسي، الرواية التي ستصدر حديثاً» في المجلة الجديدة الحديثة بينما لم تكن إيزابيل إبرهارت قد تركت جنيف من قبل.

ففي السنة التي سبقت كتابتها، اكتشف شقيقها أوغستان الجزائر عند انخراطه في صفوف الفيلق، وعمل لها كمرشد، غير أن إيزابيل إبرهارت هي من كانت تختفي وتكشف نفسها في كل شخوص هذا النص.

رُبط الأدب والتجوال في هذه القصة بالرغبة في الانصهار حد الفناء في الصحراء وفي العالم الإسلامي. وسيكمل«الأخ المجهول» لبيير لوتي هذه النبوءة.

لم ينشر نص رؤية المغرب أبداً بعد نشره الأول.

دكتوراه

كان مساء هذا اليوم فاتراً. وكانت سحب بيضاء كبيرة تطفو فوق قمم الجورا الحادة التي كانت ما تزال مكسوّة بالثلوج. ومع ذلك كان في الجو بطء كبير وسلام انتظار قبل الدفعة الكبرى لحياة شهر أيار/ مايو.

كنت أعلم جيداً أنني، عندما أمضي الساعات الطويلة جداً جالسة أسفل نافذتي أتأمل الطبيعة المألوفة لتلك الضاحية الكئيبة حيث حزني الخاص، كنت أفقد ثمار الكد الحثيث الصادق تقريباً لنصف السنة الشتوي كله... غير أن ملل ذلك الوقت ورتابته كانا يصيبانني بالإرهاق. وكنت أغوص كالعادة في حياة التأمل.

... وبينما كنت أفكر في كل اللاجدوى المعنوية التي تزداد تراكماً حولي، سمعت طرقاً على الباب.

كانت شابة مجهولة قصيرة القامة وهزيلة، ذات وجه شاحب حزين يحيط به شعر داكن ومجعد قُصّ قبل وقت قصير.

خاطبتني باللغة الروسية راسمة على شفتيها ابتسامة لطيفة قائلة: «جئت من طرف لجنة دعم الطلبة الروس. وصلت لتوّي من روسيا من أجل إتمام دراستي في الطب، وأنا بلا موارد. أخبروني بأنك ما دمت كاتبة اللجنة يمكنك مساعدتي في إيجاد سكن.»

في العالم الصغير الاستثنائي جداً للطلبة الروس، العاشقين للحلم الاجتماعي أو الحلم الأوسع للفوضى السياسية، هناك اعتقاد شديد الصدق بالواجب الاجتماعي للتعاون المتبادل الذي يُطلب بوضوح، ويُعتبر ضرورة مطلقة للحياة. فالخجل الخاطئ والظالم من الفقير زال، وحلّ مكانه الإحساس المطلق بالحياة.

وهكذا فقد عرضت عليّ شوشينا طلبها من دون ضيق ومن دون تكتم وببساطة.

منحتها غرفة صغيرة مجاورة لغرفتي حيث ستقيم حتى نهاية دراستها.

هي سيبيرية ابنة بورجوازيين من يانيسيسك، وكان هدفها يتمثل بالحصول في أسرع وقت ممكن على شهادة الدكتوراه، والعودة إلى هناك لنجدة إخوانها الذين تتحدث عنهم بكل رقة.

كانت ترى إلى نفسها كشخص شديد التواضع وجندي خفي جداً في جيش الرواد العظيم. وكان هذا الدور يدفعها للحياة، وكانت سعيدة.

آه! يا لسعادة المتحمسين الذين يمضون حياتهم في حلم مطلق!

ولم تكن شوشينا ترى في العالم إلا الإنسان والحيوان أيضاً في درجة ثانية. هناك عالم بأكمله من المشاعر الأكثر رقة، والذي لم تلجه والذي لا تهتم به.

وكانت جادة جداً ومتواضعة ورقيقة. وفي المجمل، كانت رفيقة ودودة ما كنت لأختلف معها أبداً.

٣ أيار/ مايو

شوشينا كتومة ولها ذوق جميل في الحياة المشتركة، فهي تحترم لحظات حلمي وتتحمل حماقات مزاجي الكثيرة التي تستقبلها مبتسمة مع حرصها على تهدئتي خلال الأوقات السوداء للقلق الذي ينتج عادة عن أسباب مختلفة وملزمة حد أنها تبدو وكأنها لا تعاني منها أبداً... تلك الأوقات الثقيلة التي أمرّ بها منذ بعض الوقت.

وفي ألفة لغتنا الخفية لم تكن هناك روح لأننا شديدتا الاختلاف. بيد أن لشوشينا أحد أندر الطباع بحيث لا يغضبني وجودها أو يصيبني بالملل. وتعلقي بها مستند في الحقيقة إلى شعور أناني جداً بالراحة الذاتية... لكن لو علمت ذلك فقط؟

بالنسبة إليها، لم يكن الطب الذي ندرسه معاً مهنة أو فناً، بل عبادة. وهي تعتقد أنها تقدم خدمة للبشرية، وتتفاجأ أحياناً عندما أبتسم من نظرياتها، عندما تعلم بأن كل ألم يؤثر فيّ تأثيراً عميقاً، وعندما ترى أنني أتألم لربما أكثر منها عند رؤيتي أحداً يتألم.

... هي ضعيفة البنية جداً، ويبدو أن أية هبة ستجعل شعلة الحياة الصغيرة

لحياتها تترنح... ومع ذلك فهي تعمل بنشاط وصمت كنملة وبإخلاص دائم وصبور. كما تبدو عصية على كل تثبيط أو تحميس.

شهر تموز/يوليو

تقلقني شوشينا، فصحتها أضعف مما كنت أعتقد. فمنذ عدة أيام تمر بأوقات ضعف، ونومها قلق وتستيقظ غارقة في عرق بارد، وهي تسعل...

ومنذ أن شرعت أرقبها بانتباه بدأت أفاجأ في بعض الأحيان أن نظرتها التي كانت هادئة جداً من عينيها الواسعتين الرماديتين الليلكيتين باتت تعبّر عن خوف وفزع تقريباً. غير أنها لا تشتكي فهي تعالج نفسها بوعي وتستمر في عملها بعناد ذلك أن عليها اجتياز شهادة الدكتوراه في شهر تشرين الأول/أكتوبر.

إضافة إلى القلق الحقيقي الذي كنت أشعر به، لاحظت أني بدأت شيئاً فشيئاً أتعلّق بشخصها الذي كان يحتل حيزاً صغيراً، والذي يتصف بالبأس والطيبة خارج ضعفها وانمحائها.

حدّثتها عن صحتها، فردّت عليّ قائلة بابتسامة هادئة جداً:

ـ أجل، أجل. أنا مصابة بالسل منذ فترة طويلة. شعرت بالأعراض الأولى عندما كنت ممرضة بمحطة تيومين حيث كان يمر المهاجرون الروس قاصدين سيبيريا، لكني أراقب نفسي وأعالجها منذ ذلك الوقت. أريد أن أنجح في نيل شهادة الدكتوراه، وفيما بعد أن أحظى ببعض السنوات لأعمل.

وسرى ظل كئيب في عينيها مع كلماتها الأخيرة تلك... لم تود تعميق ذلك الأمر. لم تشأ أن تترك فزعها يتشكل... كانت خائفة.

كان هناك تعارض مؤلم بين الحاجات المتناقضة لوضعها الصحي، ذلك أنها كانت تمر بأزمة خطيرة جداً، والحاجات العاتية للعمل المتواصل والمعقد المتوجب عليها.

أما أنا المفتونة بشجاعتها الهادئة وإرادتها في الحياة، وفي أن تكون مفيدة، فلم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً لها!، علماً بأنها لم تكن محتاجة إلى تشجيع أو مواساة.

لم ترغب في زيارة طبيب قائلة إنها تدرك جيداً وضعها وما يتعيّن عليها القيام به. . . وهنا أيضاً خمّنت ضعفاً خفياً: ألم تكن تخشى أن تسمع من شخص آخر يقول بصوت مرتفع وبكلمات ذات وضوح مخيب ما كانت تعتقده؟

شهر تشرين الأول/ أكتوبر

خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة كان وضعها مستقراً. وكانت واقفة على قدميها ومنكبّة على عملها بفضل معجزات العلاج والطاقة على الخصوص، على الرغم من الحصة الضئيلة جداً لمصادرنا، ذلك أن خلافاً عابراً مع أسرتي تركني من دون إعانة مالية في الوقت الحاضر، غير أن قلق نظرتها أخذ يزداد غالباً وأخذ يبدو مرعباً تقريباً.

ومع ذلك، لم ينقص أبداً صفاء شخصيتها أو مثابرتها على العمل.

هزلت بشكل واضح. وأضحى السعال القصير والجاف دائماً تقريباً.

قررتُ قبل أيام استشارة صديقتنا ماري إدواردوفنا الطبيبة المختصة والودودة. . .

ـ عالجي نفسك جيداً. لا مجال لأخذ نوبة برد. كلي كثيراً، وتناولي مقويات. تناولي أيضاً الكريوزوت.

غير أن ماري إدواردوفنا خاطبتني بجدية حزينة:

ـ النهاية وشيكة جداً. لهذه الفتاة قوة إرادة فريدة وهذ ما يعيق بعض الشيء تطور المرض. ستموت قريباً متألمة. محزن فعلاً أنها ستموت في الوقت الذي ستبدأ فيه العمل الحقيقي الذي كان هدف حياتها!

ـ هل تعتقدين أنها ستحصل على شهادة الدكتوراه؟

هزت ماري إدواردوفنا رأسها بارتياب.

عندما التحقت بشوشينا ألفيتها جالسة على سريرها تنتظرني، ساكنة كعادتها. . . تأثرت بالنظرة القلقة المتسائلة وتقريباً العدوانية التي حدجتني بها كاشفة عن الصراع الضاري بداخلها بين اليقين الذي أوحى لها به ذكاؤها الجلي، ومعرفة وإرادة الحياة بعناء والأمل الحي.

عانيت في محاولة مني للتحكم في التأثر الذي اجتاحني عبر نظرتها، وفي أن أقول لها:

ـ تجدك ماري إدواردوفنا ضعيفة، لكن حتى اللحظة ليس هناك أي شر إذا لم تفقدي شجاعتك وإذا ما عالجت نفسك جيداً.

ولأول مرة، صدرت عن شوشينا أمامي حركة احتجاج وضعف في الآن عينه:

ـ آه! هناك بعض السنوات أيضاً! الكثير من العمل، والكثير من الجهد...

صمتت، وبعد لحظة صمت طويلة، قالت مبتسمة من جديد:

ـ لديّ نوبة حراسة هذه الليلة في قسم الولادة من أجل ولادة تبدو متعسرة. لا تقلقي.

ـ فلتجعلي أحداً ينوب عنك! سأذهب إذا أردت.

ـ آه، كلا! تعلمين أني أعدّ أطروحتي ولا أريد أن أفقد ملاحظات تبدو نادرة من دون هذا.

استمرت كذلك منذ ذلك الحين مع أنها كانت تبدو ضعيفة بين لحظة وأخرى... وشعرت أن الفراغ الذي ستخلفه إلى جواري سيكون عميقاً... أكثر عمقاً مما افترضته قبل تأكدي من موتها الوشيك.

الثلاثاء ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر

توفيت شوشينا ليلة الجمعة.

لزمت الفراش ثمانية أيام. أرادت يوم الجمعة، وكانت شديدة الضعف، تتنفّس بصعوبة، وتسعل كثيراً، أن تحضر درساً مهماً بالنسبة لها. عادت متأخرة وحدثتني قائلة:

ـ أنا متعبة جداً، سأنام. سأبدأ غداً في تلخيص كل ما أحتاج إليه من أجل الامتحان... لم تبق إلا ثمانية أيام!

كنت أقرأ.

وفجأة، سمعت حشرجة مخنوقة آتية من غرفة شوشينا، التي ظل بابها موارباً.

دخلت.

كانت جالسة على سريرها، واضعة يديها المتشنجتين على الغطاء، وبعينيها المتألقتين تنظر إلى شيء غامض. رأتني.

ـ متى؟... متى؟... نحن في أي تاريخ؟
كنت مرتعبة من تغيّر صوتها الذي أضحى متقطعاً وعصبيّاً.
ـ نحن اليوم في السادس منه، لكن لماذا؟ نامي فالجو بارد جداً.
غير أن اضطرابها زاد، وهي تقول:
ـ السادس! السادس! لكن لم تتبق إلا ثمانية أيام... ولم أنجز شيئاً. لا شيء...

كانت تهذي. وفجأة سقطت على وسادتها مغمضة العينين هادئة... انتهزت فترة الهدوء هذه، وصعدت بحثاً عن رفيق هو طالب بالمستشفى الإقليمي، فأمضينا الليل قرب سرير شوشينا التي كانت مضطربة حيناً وغارقة حيناً آخر في جمود كان يرهبنا.

لم تكن تسترد وعيها إلا للحظات قصيرة، وقد أضحت فريسة للهذيان المعتم الذي يصيب عضلات وجهها الشاحب بالانقباض، وغدت أشبه بزهرة ذابلة بعينين شديدتي الزرقة ولا تشعران بشيء.

وفي كل مرة خرجت فيها من ذلك الكابوس المؤرق كانت تبدي هلعاً متزايداً طالبة بيأس جرائد ذلك اليوم لرؤية التاريخ مجادلة خداعنا عبر الغلالة التي كانت تشوّش ذكاءها.

ـ يا إلهي! لكنكما تكذبان عليّ! أخبرتماني قبل يومين بأننا في يوم السابع!... آه! ناولاني الجرائد! لا تجعلاني أتخلف عن امتحاناتي...

وما إن تصير أكثر هدوءاً حتى تأخذ يد الطالب المساعد في المستشفى فالسوف وتخاطبه بنبرة مستجدية وبنظرة شديدة الحزن قائلة: فلاسوف! يا صديقي العزيز... أخبرني الحقيقة! أنت تعلم أني لن أعيش طويلاً... لا ينبغي جعلي أتخلف عن هذه الدورة... فالدورة الأخرى بعيدة جداً. أعلمني قبل الاختبار بيوم وسأقوم على قدمي. أعدك...

كانت رغبة البقاء لديها وإتمام عملها قوية جداً في نفسها حد أنها كانت تتوهم في شأن وضعها، مؤمنة بكل ما أوتيت من قوة بإرادتها.

غير أن فترات هدوئها كانت خاطفة، وسرعان ما كان يتملكها الهذيان المعتم.

كانت تخشى الوحدة على الخصوص، وكانت ترغب في البقاء مستيقظة كما لو أنها كانت تخشى ظهور طيف لمحته غير أن ظهورنا أبعده...

في بعض الأحيان كانت تخال نفسها في الامتحان، وفي هدأة الليل المرعبة كانت تعيد الصيغ، وتجاهد في شرحها، وتخرج أفكارها الواحدة تلو الأخرى بعناء من الغموض الكبير حيث كانت روحها قد بدأت تطفو.

والغريب أنها لم تفقد في أي لحظة الفكرة الجلية لضرورة علاجها، وكانت تستسلم لذلك في خضوع مطلق.

وفي اليوم الأخير، كانت أكثر هدوءاً وصمتاً. وكانت نظرتها فاترة وغير مبالية ترنو إلى مكان بعيد. وكانت تركز عينيها علينا من دون أن ترانا. وبدت كأنها تنظر عبر أجسادنا إلى مكان بعيد.

كان جسدها نحيلاً، وبدا وجهها بارز التقاطيع، لا يكاد يُرى في الأغطية البيضاء للسرير العتيق الخاص بشخصين وعلى الوسادة كان رأسها الخفيف يتهالك تقريباً.

خاطبتنا ماري إدواردوفنا قائلة:

ـ لا ينبغي تركها. إنها النهاية.

وهكذا فقد بقيت وفلاسوف جالسين قربها صامتين مثل أولئك الذين يسهرون على الموتى.

كان اليوم طويلاً في ذلك الانتظار لشيء يُخشى لكنه حتمي.

لم تتحدث شوشينا منذ عدة أيام عن الاختبارات، وتوقفت عن طلب تواريخ الأيام التي كانت تمضي.

وكان يوم الامتحان، وسعدنا بالنسيان الذي بدت شوشينا غارقة فيه.

وحوالي الساعة الخامسة، وبينما كان الشفق البارد لفصل الخريف يغرق الغرفة في العتمة، بدأت شوشينا تتحدث. كان حديثها في البداية همساً غير مفهوم ومتقطع، ثم لما دنونا منها متنبهين بدأنا نسمع ما كانت تقول:

ـ يوم الأحد كان يوم الثامن... الثامن... أجل. الإثنين؟ الإثنين يوم التاسع...

وبوضوح مفاجئ، وعلى الرغم من خداعنا، كانت تتذكر الأيام وتواريخها... وكلما ازدادت قرباً من ذلك التاريخ المحتوم ليوم الخامس عشر كان هيجانها يزداد.

فجأة، قامت وجلست مادّة ذراعيها أمامها... كانت عيناها مفتوحتين، وخداها نضرين وشفتاها الجافتان تضطربان...

أزاحت الأغطية وأرادت أن تنهض غير أنها سقطت على السرير بشحوب ضامر وعينين مغمضتين.

تملكتها حازوقة قصيرة ومتكررة جعلت كل جسدها يهتز.

قال فلاسوف المنحني عليها:

ـ إنها تموت...

ثم هدأت شوشينا. عادت لتفتح عينيها... نظرت إلينا، ولأول مرة منذ أن لزمت فراشها كانت نظرتها واعية جداً وعميقة تماماً مثلما كانت عليه في السابق... عمق هوة.

ابتسمت لنا بدعة وبحزن.

ـ هكذا... إنها النهاية... وأنا التي أردت أن أحيا بشدة... وأن أعمل... إنها النهاية...

وبعد صمت طويل، أضافت بسخرية مريرة على نحو مروّع:

ـ مر موعد الدكتوراه الآن.

ثم مدت يدها البيضاء، يد الميتة الصغيرة، إلى الكتب التي تركناها بإلحاح منها قرب سريرها... تناولت بحثاً دقيقاً ومدّته بجهد كبير على صدرها... أغمضت عينيها والتزمت الصمت ضامّة الكتاب كشيء ثمين إلى صدرها الضائق.

وببطء، سقطت دمعتان ثقيلتان، دمعتا طفلة، من بين جفونها المطبقة على خديها الغائرين... كان وجهها يعبّر عن أسى غير محدود لكن من دون تمرّد، ناعماً ومستسلماً...

ارتخى جسدها بعض الشيء، وانقبضت يداها على الكتاب، ثم صارتا جامدتين، وفتحت عينيها شبه الفارغتين...

ساد صمت كبير في الغرفة الضيقة حيث كان يبكي فلاسوف بصمت في ضوء المصباح الوردي...

وفي الشارع، مر طلبة ألمان يغنون أغنية خفيفة محتفين بنجاحهم المحتمل في الامتحان...

ملاحظة

دكتوراه هي القصة الوحيدة التي تروي فيها الكاتبة حياتها في جنيف إلى جوار الطلبة الروس. استلهمت فيما بعد من ذكريات سنتي ١٨٩٥ و١٨٩٦، بطل روايتها المتشرد.

كانت هذه القصة من بين المخطوطات التي نشرها روني لويس دويون في قصص ومناظر سنة ١٩٢٥ (المعرفة) في طبعة أنيقة بأعداد محدودة حيث وجدنا كتاباً من بين ١٣٨ نسخة. أعيد نشر كل نصوص هذا الكتاب في في بلاد الرمال. (سورلو سنة ١٩٤٤).

إلى أخي أوغستان دو موردير.
ذكرى محبة.

المباح والمحظور

استنفدا حدُّ الرغبة حرارتهما الأخيرة
سيصير قلبانا شعلتين كبيرتين
تعكسان نورهما المزدوج
في روحينا، هاتين المرآتين التوأم.

وفي مساء وردي وازرق تقي
سنتبادل وميضاً واحداً
مثل تنهيدة طويلة، مُلثث وداعاً...

بودلير، ازهار الألم.

كان ميشيل ليبدينسكي يموت ببطء، مدفوناً وسط البياض الشديد لسريره وغرفته...

ففي ذلك الصباح المتألق والمشرق من شهر أيار/مايو كان يبدو أكثر ضعفاً، وأكثر قرباً من النهاية المحتومة.

وخلال تلك الأيام الخمسة عشر الأخيرة أضحت وسامته الذكورية الطاغية نقية إلى حد بعيد، وعلى الخصوص أكثر لطفاً...

وعلى وجهه الذي غمره بياض فريد كانت عيناه الكبيرتان وحدهما ما تزالان تعيشان حياة رجل عظيم يحتضر.

وكان ألق الماضي يعبر في بعض الأحيان جفنيه الواسعين المتقلبين كظلال ميتة لقوته الفتية، ولطاقته التي تفوق طاقة البشر تقريباً...

غير أنه كان يبدو عادة غارقاً على نحو مضطرب في حلم مرير.

وعادة ما كانت شفتاه الشاحبتان تبتسمان في تناقض فريد، ابتسامة غريبة، ابتسامة لذة أليمة، وتقريباً وديعة في بعض الأحيان.

كان ممعناً في صمته، وبدا كأنه لم يلحظ أبداً ترددي الكثير عليه.

وكانت لامبالاته اتجاهي إلى أقصى حد، ذلك أنه لم يسألني عن اسمي إلا في اليوم الخامس... وقبلها اكتفى بمناداتي بلقب دكتورة، أو بسخرية مقصودة وشريرة تقريباً: الآنسة المتحذلقة.

درست حالته بصبر متتبعة احتضاره الطويل باهتمام متزايد، وبحزن غامض على نحو لاشعوري، وبكثير من الأسف على ذلك الفنان العبقري الذي كان على وشك الموت في تلك الساعة المهيبة للنهاية العظيمة، والتي يتمناها الجميع وتدركها قلة فقط...

لم يشتكِ أبداً الجاحد العبقري.

فخلال ساعات الليل الطويلة من دون نوم كان يظل ممدداً على ظهره مغمض العينين بلا حراك.

لم يكن يتحدث، وهكذا فقد كان يعمّ غرفة ذلك الفندق الصغير النظيف الواقع قرب البحر صمت مطبق...

وكنت أقصد ليبدينسكي كثيراً من باب العطالة، وأيضاً بهدف نفسي خالص، وأكثر مما كان يفرضه عليّ الواجب المهني...

وفي ذلك الصباح، كان ليدينسكي ينظر عبر النافذة المشرعة على السماء الصافية وصواري السفن القريبة المتميزة بخطوط دقيقة على اللون الأزرق الصافي العميق...

... وكان يعلم منذ مدة طويلة بأن السلّ الرئوي سيميته وهو بعد شاب، وأراد أن تكون حياته القصيرة على الأقل تتويجاً فنياً ومن أجل اللذة والحب والفكر... وفي تلك اللحظة، وعندما أحس الموت وشيكاً على نحو حتمي ومن دون عفو ممكن، أراد أن يموت مثلما عاش، كفنان وكعاشق للحياة.

اختار تلك المدينة العتيقة ذات الشعار الفروسي مدينة كالفي الوفية دوماً[1]

---

(١) ذكر في الأصل باللاتينية وهو شعار مدينة كالفي بكورسيكا. المترجم.

ليحتضر فيها ويموت قبالة البحر الأزرق العظيم الذي عشقه كثيراً كفنان، وتقريباً كمولّه، والذي ألهمه عبقريته، والذي أراد الاستمرار في سماع صوته الحزين حتى ساعته الأخيرة من أجل هدهدته في غفوته الأخيرة...

كان البحر هناك ينوح في الجوار خلال ليالي الصخب والعواصف، وكان أنينه العظيم يجعل المحتضر ينام...

وكان يشعر بالبحر قريباً، وينصت له من دون أن يملّ لحنه المرعب العظيم...

ذهبتُ لأجلس جوار النافذة الأخرى، وأخذت أنظر أنا أيضاً إلى الخليج المتلألئ تحت شمس الصباح والجبال البعيدة الغارقة في ضباب ليلكي...

وتردد في قلبي المريض بالشك وبالريبة القديمة سؤال من دون جواب «لماذا؟» منتصباً مرة أخرى من دون صدى في ضباب الغموض الحزين الذي يشق كشفه...

وأمام جمال الكون المطلق، وأمام انتشاء الأرض العاشقة المستلذة أسفل الشمس الخصبة، اجتاحت روحي الحنينية ذكريات حزينة ولطيفة على نحو غريب للبعيد الأبدي، ذكريات زُيّنت بهالة حزينة ومتألّقة للأشياء الميتة التي حلّقت للأبد، والتي أضحت بعيدة جداً... وكنت أفكر أيضاً في بعض الأحيان في ذلك الرجل الغريب الذي كان يحتضر ببطء، هناك في الجوار...

فقبل خمسة عشر يوماً وصل إلى كالفي واستأجر الطابق العلوي لذلك الفندق...

وفي اليوم الموالي، لم ينهض أبداً.

وبنزوة غريبة، بحنينية مؤلمة أو بتوهم الموت فقط، طلب طبيباً روسياً قصداً.

ووقع الاختيار عليّ بالضرورة، ذلك أنه لم يكن في الجوار أي طبيب روسي آخر.

قبلت معالجته للتعرف عن قرب على ذلك الفنان العظيم، ذلك المارق الفاتن والملعون في الآن نفسه، والذي أنكر الوطن البعيد إلى الأبد، وأنكرنا نحن، إخوته السابقين، واختار المنفى طواعية وإلى الأبد.

ومنذ البداية لاحظت أنه لم يعد هناك أي أمل... وأن بإمكانه أن يبقى على ذلك الوضع بضعة أسابيع، ولربما ثلاثة أسابيع أو شهراً على أكثر تقدير. ومن ثم ستكون النهاية الحتمية.

واقترحت عليه بداعي الواجب جمع بعض الزملاء الكورسيكيين المتميزين لفحصه.

غير أنه رد باحتقار:

ـ لا فائدة!

وكان يبدو من النظرة الأولى جاهلاً لنهايته الوشيكة جداً، ومع ذلك، ومنذ اللحظة الأولى، أدركت أنه لم يكن واهماً بخصوص وضعه الباعث على اليأس قطعاً.

لم يحدثني أبداً عن ألمه حتى ذلك اليوم، فقد بدا أن ذلك لا يقلقه...

غير أني أدركت في نظرته المعتمة أكثر فأكثر، وفي الانقباض الأكثر ألماً لحاجبيه الأسودين، تكوُّن وتطوُّر فكرة تتشكل لديه عبر جُمل عديدة للصراع الخفيّ، وأضحت تجتاحه يوماً بعد يوم، وتقريباً فكرة واحدة دوماً...

ـ آنسة... بودولانسكي!

كان صوته الواهن والمرتعش في بعض الأحيان يناديني لأول مرة باسمي.

دنوت منه فألقى علي نظرة كئيبة متسائلة.

ـ إسمعي! إنسَيْ كل روتين المهنة، إنسي كل ذلك. أعلم أني سأموت لكني أود معرفة متى. أريد أن تكوني أنت من يخبرني بذلك.

نظرت إليه للحظة، ومن دون تردد قلت له:

ـ أجل يا ليبدينسكي، ستموت.

ـ قريباً، أليس كذلك؟

ـ أجل.

وعبَر عينيه المتعاظمتين وميض كبرياء عنيف، وبريق أسود. كما لو أن عينيه غير الماديتين عانقتا السواد العظيم للعدم المطلق لما بعد القبر قبل الآوان.

وبرقّته الرشيقة وضع يديه المتشابكتين خلف رأسه المقلوب، وابتسم ابتسامة بهيجة تقريباً، وزفر بانتشاء ملء صدره...

ـ كما لو أن هذا اليقين يبهجك يا ميكايل ألكسندروفيتش!

ولم يرد بأي شيء.

كنت قد أقدمت لتوّي عمداً على أمر وحشي، وعمل مخالف تماماً لواجبي

المهني، وقمت بذلك بكل برود بغية سبر خفايا نظام لبيدينسكي الغريب... إضافة إلى ذلك كنت أرى أن الأمر سيان وأنه هالك حتماً.

وبقي بلا حراك، لمدة طويلة زائغ العينين.

وفجأة سألني بابتسامة غريبة:

ـ هل سبق أن أحببت؟ يا له من عالم مجهول من قبل الجميع ومغلق تمثله روحك كمتحذلقة ! كم عمرك؟ تبدين شابة جداً...

ـ أنا عجوز، أبلغ من العمر ثماني وعشرين سنة...

ـ فقط؟ يمكنك أن تخبريني بذلك ما دمت سأموت... هل سبق أن أحببت؟

ـ أجل.

ـ كلياً؟

ـ كيف كلياً؟

ـ شيء غير أفلاطوني؟ هذا يبدو من خلال عينيك... ولو لم يكن كذلك لما بدوت شابة جداً.

كان ينظر إليّ بفرح تقريباً راسماً على شفتيه ابتسامة ودودة ومفهومة بعض الشيء حد أني لم أشك فيها أبداً.

ـ أجل، أنت محق في حدسك.

ومجدداً بقي صامتاً بعيداً لربما مني في ذلك الحوار غير المترابط.

ـ لماذا أتيتِ إلى كالفي؟

عندما أخبرته الحقيقة، زفر ثم قال:

ـ توجد قرب لارناكا في قبرص غابة كستناء على صخرة غير بعيد من البحر... مكان فاتن... أردت بشدة أن أعود إليه مرة أخرى قبل وفاتي... ذقت هناك أكثر أنواع الحب ثملاً يمكن أن يُمنح لإنسان، ومع ذلك، يعلم الله إذا ما كنت قد تمتعت وأسرفت في كل أشكال الحب! أجل أردت رؤية ذلك المكان بشدة... إلا أن الأمر انتهى وسأموت... آه، يالجمال ذلك الحلم الذي يعود إلى ثلاث سنوات مضت!

... وبقي لمدة طويلة بلا حراك، وقد تعاظم الحزن في عينيه، ثم قال لي فجأة:

ـ إسمعي... سأسألك...

قاطعتْه موجة سعال، وخنقته. دخلت الممرضة المداومة، وأسندت رأسه بأن رفعته. وسرعان ما تضرّج القماش الأبيض الذي منحته إياه بالدم. . .

وهمس ليبدينسكي بوهن:

ـ أتركيني، إرحلي!

ولأول مرة، فضحت نظرته ألمه الشديد.

أضحى تنفّسه أكثر صعوبة، ولم يعد يصدر أية حركة. . . وانقبضت شفتاه الشاحبتان على نحو مؤلم.

وأخيراً، خاطب الممرضة بخشونة وقد بدت نظرته قاسية وقلقة:

ـ إرحلي، إرحلي، انتظري حتى تناديك الآنسة.

ثم توجه إليّ عندما غادرت:

ـ هل سأبقى حياً حوالي عشرة أيام؟

ـ أجل، وربما أكثر.

لم أشعر بأي تأنيب ضمير لإخباره بالحقيقة الحزينة جداً مدركة أنه من غير المجدي إطلاقاً أن أحاول خداعه.

ـ إذن. . . أرجوك. . . هل تريدين إرسال برقية لأحد أصدقائي في أثينا. . . بأن يحضر إلى هنا، لكن أن يفعل ذلك الآن!

ـ بكل تأكيد.

وبسخرية مريرة جداً قال:

ـ آه، لا يُرفض أي طلب للمحكوم عليهم بالموت !

وأضاف بحركة تحد محتقرة:

ـ لا يهمني حكم الناس، وحكمك. . . آه! كم أحتقر كل المنافقين ! أجل. أحبه! أحبه على الرغم من الجميع! على الرغم من الطبيعة ومن الموت! وأنا فخور بذلك!

لم أفهم عمّن كان يتحدث، لكني أخذت أرقبه معتقدة أنها بداية الهذيان.

ـ توقف عن الحديث يا ميكايل ألكسندروفيتش! قل لي فقط اسم صديقك وعنوانه. . . سأتركك وسأذهب شخصياً إلى مركز التلغراف حتى تتأكد. . .

ـ شكراً!

ولأول مرة، مد لي يده، ورماني بنظرة ناعمة وتقريباً ودودة.

ـ ٧ شارع هومير... ستيليانوس سينودينوس طالب في الحقوق. التوقيع ميشيل.

فجأة أمسك يدي، ولأول مرة خاطبني باللغة الروسية قائلاً:

ـ شكراً لك يا بودولانسكي، شكراً... لا تعتقدي بأني الجاحد الوقح كما يقال! إسمعي: «غير أن شاعر الملهمات القلقات يحب في ارتحاله وطنه البائس، أكثر من كل الروائح ومن كل المذابح الأجنبية...»

... خرجت يراودني إحساس بنوع من الحنان الحزين جداً اتجاه ذلك الرجل الغريب....

أسرعت الخطى على امتداد الشوارع الغارقة في النور وأنا أفكر في الحوار الداخلي الغريب الذي أجراه ليبدينسكي: «أحبه، على الرغم من الطبيعة ومن الموت» من؟ سينودينوس. حضرتني هذه الفكرة الغريبة. لكن كلا، فهو روسي، فكّرت متفاجئة بفرضيتي هذه وأحسست بنوع من الضيق الغامض...

عند عودتي إلى الفندق. تأخرت للحظة متأملة سفينة بخارية فرنسية كبيرة. كنت أرقبها بناظري... رحتُ أفكر بحزن غريب في اليوم الوشيك جداً الذي سأغادر فيه أنا أيضاً تلك الجزيرة التي بدأت أفهمها وأحبها، من دون رجعة، وحيث سأترك في قبر صامت ذلك الرجل ذا العبقرية القوية، وذا الشغف الشديد والمتقلب الجذاب جداً والشاب جداً إلى الأبد ويا للأسف!

... رحت أنظر إلى الجبال الغارقة في تلك اللحظة في ألق ذهبي كامد كذهب بيزنطي من الأيام الخوالي، وإلى السماء المتألقة فوق الخليج الملتمع في تعرجات نيران متحركة باتجاه المدى الحي فوق الأعماق المعتمة...

... وبعد أسبوع، وفي أمسية شفافة وفاترة...

كان ليبدينسكي بعد شبه اعترافه ذلك اليوم قد عاد مجدداً ليغرق في صمته المحتقر وبرودته الساخرة.

غير أني رأيت الصبر الهش الذي كان ينتظر به صديقه... ولما كان يشعر بأنه يزداد وهناً ساعة بعد ساعة، مترقباً بوضوح مرعب العدم المعتم، كان يصاب باليأس في بعض الأحيان.

لكن وصلت أخيراً برقية من مرسيليا في اليوم المنصرم معلنة وصول سينوديبنوس.

وبكل الاحتياطات الممكنة، سلمته الورقة الزرقاء الصغيرة.

صدرت عنه زفرة عميقة ثم استدار من دون أن تصدر عن جسده حركة. قلقت فاقتربت لأنظر من مكان قريب. كانت الدموع تتألق بين أصابعه البيضاء الطويلة التي تضغط على وجهه بقوة. وكان صدره يصعد ويهبط بألم ممزقاً بنحيب متشنج.

وغادرت الغرفة.

هل كانت تلك دموع الفرح... أو بالأحرى دموع اليأس الأخير؟

أي غموض يكمن في تلك الصداقة الغريبة مع ذلك الطالب اليوناني؟

ومرة أخرى، عاودتني الفكرة المزعجة نفسها.

ـ ناديجدا نيكولايفنا! (عند دخولي، كان صوته أكثر ضعفاً يتردد في صمت الغرفة المطبق). لا بد من إيجاد أزهار... لو فقط... ألمْ أُبالغ...

ـ إذا أردت أزهاراً فلا شيء أيسر من ذلك. ما هي الأنواع التي تفضلها؟

ـ آه، الزنابق والليلك والورود والياسمين... كل أنواع الأزهار! فهي تبعث البهجة في نفسي بالقدر عينه... فهي جميلة جداً ومليئة بالحياة!

أحضرت له محصولاً عطراً، وأضحت غرفته الممتلئة من دون حذر أشبه ما تكون بغرفة ميت.

وبنزوة جمالية لميت، اختار أكثر الأزهار جمالاً ونثرها فوق سريره وفوق صدره.

رأيته يقوم بذلك متفاجئة بعض الشيء وقلقة، وشبه نادمة وخائفة أن تضره كل تلك العطور.

لكن في المجمل، كان كل ذلك سيّان تقريباً، فقد كان محكوماً عليه بالموت في كل الأحوال! بدأت أفهمه وأعرفه، وما كان باستطاعتي أن أستمر في التعامل معه كمريض عادي.

وعندما كنت أنزل، قالت إحدى فتيات الخدمة:

ـ هناك سيد يسأل عن السيد ميشيل... أجلسته في الصالون.

دخلت، ورأيت قرب النافذة شاباً طويلاً أسمر ذا نظرة متفحصة. وكان يرتدي ملابس سوداء كما لو أنه في حداد. وكان ذا وسامة حساسة وشاحبة وأنثوية جداً.

لحظت اللطف الرقيق الذي يميّز أقل حركاته العفوية والبطيئة.

قال وهو ينحني:

ـ ستيليانوس سينودينوس. . . مَن حضرتك؟

ركّز عينيه السوداوين الكبيرتين والحمراوين بعض الشيء عليّ ملقياً نظرة كراهية صادقة وقلقة فاجأتني في البداية.

أفصحت عن اسمي وصفتي كطبيبة فصدرت عنه ابتسامة خفيفة مزدرية ومرحة بعض الشيء في الآن نفسه، وما كاد يرفع كتفيه.

وما كدت أنا أيضاً أكبت ابتسامة لأني فهمت فكرته الأولى فقد حسب أني عشيقة ليبدينسكي.

ـ علي أن أراه في الحالِ! كيف حاله؟

ـ ليبدينسكي؟ وضعه سيّئ جداً. . . راعِ صحته، في كل الأحوال سأذهب لأعلمه.

ـ بسرعة، بسرعة!

وبينما كنت أخرج، رأيت الشاب يلوي يديه في يأس فظيع.

وبحرص كبير أخبرت ليبدينسكي بالأمر فشحب وجهه على نحو جلي، وألقى رأسه على الوسائد واضعاً يده على صدره.

ـ بسرعة. . .

كان سينودينوس يرتجف تقريباً عند دخوله والفزع باد في عينيه.

أردت أن أغادر وأتركهما وحدهما غير أن ليبدينسكي صرخ في وجهي ملقياً عليَ إحدى نظرات التحدي الشرسة والمحتقرة التي كانت تصدر عنه عادة وقال:

ـ يمكنك البقاء رجاءً! إبقي!

بقيت مدفوعة بحب الاطلاع، وحتى لا أفوّت تلك المرحلة الهامة من المأساة التي توقعتها.

نهض ليبدينسكي فجأة ومد له يديه الشاحبتين تقريباً.

وكان في عينيه المحتدمتين في تلك اللحظة التماع سعادة سامية ورقة غير محدودة، وجعلته نظرة النشوة العظيمة تلك وسيماً في شحوبه كشخص يشرف على الموت.

جثا سينوديوس قرب السرير المملوء بالأزهار والذي بدا كأنه قبر.
كان عناقاً عنيفاً وشغوفاً من دون صراخ ومن دون كلمة.
ثم سمعت في الصمت المطبق لليل الذي حل انتحاب سينوديوس المؤلم.
وبهدوء كبير، قال له ليبدينسكي باللغة اليونانية وهو يضم وجه الشاب الأسمر إلى صدره:

ـ لا تبك يا حبيبي... ما فائدة ذلك؟ لن أحاول أن أعزيك... كن قوياً يا حبيبي المسكين!

تحدثا طويلاً بصوت خفيض ودوماً متعانقين، فقد كان ستيليانوس جاثياً بركبتيه على الزربية ورأسه متوار فوق صدر صديقه... كانا قد نسياني تماماً... ولم أعد أسمع منذ بعض الوقت ما كانا يقولان لأنهما كانا يتحدثان بصوت خفيض جداً.

ولما تعب ستيليانوس كفّ عن البكاء شيئاً فشيئاً.
تركتهما كذلك مع أن الوقت كان متأخراً.

بقيت أشعر بالنسبة لليبدينسكي بالتجرّد المطلق عينه في ما يتعلّق بمهنتي. لم أشأ وأنا مدركة تماماً حرمانه من لقائه الأخير مع ذلك الرجل الذي أخذت أفهم دوره بشكل واضح.

ما أهمية ذلك؟ ففي حالات ميؤوس منها عديدة تخليت عن واجبي الدقيق كطبيبة ممارسة ولم أعد أتصرف كمعالجة مهما كلّف ذلك من ثمن، وإنما كفيلسوفة وعلى الخصوص كمختصة في علم النفس مع أني بعيدة كل البعد عن الحساسية الأنثوية... وفي تلك الليلة أردت فعل ذلك.

كنت في تلك الساعة الهادئة، حيث بدا أن شيئاً مهيباً يخيم على المدينة النائمة أكثر من أي وقت، سيدة نفسي المطلقة، فقد تحكمت إرادتي في أقل اختلاج لأعصابي. وحده العقل كان يعمل، وتحولت المراكز العصبية إلى الدور الذي تقوم به أجهزة الهاتف ناقلة له أحاسيس كل لحظة.

في تلك اللحظة ألفيت في ذلك الوضع الخاص جداً هدوء الأعصاب المطلق والعقلية المحتدمة التي تأتيني أحياناً في ساعات الخطر أو أثناء عمل المثقف المضني، في العمليات الجراحية الخطيرة على سبيل المثال...

ومرة أخرى في تلك الليلة كان ترددي السلافي الكبير يتملك دواخلي، فعقدت ذراعيَ من دون أدنى نفور أو ثورة أمام ذلك التناقض الصارخ إزاء الطبيعة.

حدثت نفسي قائلة بأن كل شيء في العالم ما هو في النهاية إلا تعاقد خالص... وأمام الموت كانت كل نظرياتي الأخلاقية تُلغى.

رحت أتجوّل على امتداد الأرصفة الغارقة في الأنوار الكامدة والفسفورية، وأحسست بهدوء كبير في داخلي بدا كأنه نهائي وأبدي. وبوضوح لم يمس قط لربما رأيت كل العدم المطلق الذي تمثله السعادة والألم والكون والحياة والموت. وانتصرت العدمية الشاملة في تلك اللحظة على كل الآمال الشابة.

ومع ذلك فقد كنت أنظر بلذة فريدة وهادئة إلى السحر الفاتن لتلك الليلة الجنوبية، وشيئاً فشيئاً، ومن دون رجة، ومن دون ألم، عدت لأغوص مجدداً في عالم الذكريات الغامض والحزين بلطف... عادت إلى ذاكرتي ليال ربيعية أخرى، أكثر فتوراً وأكثر حرارة وأكثر بعداً في تلك الأرض الإفريقية حيث كنت أمضي لأتم حجاً حزيناً إلى حد كبير.

وبدا لي الفراغ النهائي الكبير كموجود وحيد وكوني وأبدي في الشفافية المدوخة عبر كل تلك الأشياء المحبوبة والتي بُكيَت في الماضي على نحو مرير جداً.

... بعد يومين من ذلك، وفي ساعة الشفق المتأملة...

كان ليبدينسكي ممدداً على نحو مقلوب وقد زاد هزاله وضعفه.

وإلى جواره، كان سينودينوس الذي لم يتركه أبداً جالساً على أريكة ممسكاً يد المحتضر بين يديه.

كانا حزينين وهادئين كما لو أنهما كانا يشعران أن الهدوء النهائي الكبير للراحة الأبدية يحلق فوق رأسيهما.

وكان ستيليانوس يتكلم دوماً بصوت خفيض جداً، وكان ليبدينسكي ينصت له صامتاً فاتحاً عينيه بابتسامة غامضة.

ألقى شعاع شمس الغروب انعكاسه الوردي الشاحب جداً على بساط الحائط المزين بأزهار، وعلى الغطاء الأبيض، وعلى شعر سينودينوس الأسود.

وفي الخارج، وفي الأعلى كانت بعض السحب القرمزية تسبح في المدى الذهبي الوردي الممتزج بشمس الغروب بينما كانت الجبال تتلاشى في بقع ليلكية.

دقت أجراس كالفي بطيئة ومرتفعة لصلاة التبشير المسائية، وكانت أصوات حدادها الطويلة تتلاشى في المدى، وفي السماء المتأججة...

وكان ستيليانوس يتحدث دوماً. لم يعد يرى، تائهاً في ضباب الذكريات الخادع على نحو حزين... وشيئاً فشيئاً انزلق رأس ليبدينسكي على الوسادة وأضحت نظرته جامدة على نحو غريب.

وكان ستيليانوس يتحدث وامتزجت موسيقى صوته، في أغنية احتضار حزين، وفي شكوى يأس عظيم، بأصوات الأجراس المهيبة.

ولم يعد ليبدينسكي يتحرك...

وتاهت نظرته في شعاع الغروب المجيد هناك في السماء الخادعة حيث لم يعد يعرف منذ مدة طويلة السرابات اللطيفة التي هدهدت بدايتنا في الحياة، والتي يحاول أحياناً الضعفاء واليائسون عبثاً أن يبتهلوا لها في ساعة الضيق.

وكان ستيليانوس وحيداً ممسكاً بيديه اللتين كانتا ما تزالان حارتين ومتعطشتين لعناقات الماضي المجنونة يدي سيده محبوبه وعشيقه المتجمدتين إلى الأبد.

انتهى ظل الليل الشفاف بالهبوط إلى الأرض النائمة، وإلى البحر الهائل في همسه الأبدي.

ملاحظة

في ١٥ أيار/مايو سنة ١٨٩٦ حملت هذه القصة الموقعة من قبل ن. بودولانسكي إشارة «يتبع» غير أنه في حزيران/يونيو انقطعت المجلة الجديدة الحديثة عن الظهور، واندمجت في كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها مع مطبوعة أخرى هي الأثينية.

وفي حدود علمنا لم تكن هناك من تتمة معلومة للمباح والمحظور إضافة إلى أن النص لا يتطلب ذلك. ويمكن أن يبدو غريباً على أعمال إيزابيل إبرهارت، في المنظر على الأقل (ذلك أنها لم تكن تعرف في تلك الفترة لا كورسيكا ولا الجزائر) غير أننا نجد في النص تساؤلات أثيرة حول الحب والموت وفناء الإنسان... ولشخصية الطبيب التي قررت في هذه المرة أن تتلبسها.

في ذكرى القايد بورمضان.

أطياف إفريقية
ـ العلماء ـ

حدث ذلك في الماضي، في الماضي البعيد حين كنت طالباً في زاوية الشيخ السعيد عبد الرحمان في عنابة، المدينة المغاربية العتيقة النائمة في خليجها اللازرودي، في الظل الكبير لإيدو الحزين... أذكر ذلك مثل حلم طفولي وكشيء حزين على نحو لطيف حدث في فجر حياتي المشرق قبل وقت طويل ويا للأسف.

وفي تلك المرحلة من حياتي ألقى الإسلام في نفسي سحره الكبير والعميق الذي ربطني إلى الأبد عبر الروابط الأكثر غموضاً لنفسي، إلى الأرض الغريبة لدار الإسلام.[1]

ومنذ ذلك الحين، أضحى إرث الرسول وطن الاختيار ومحبوباً طول الحياة عبر السنوات والمنافي والبعد العجيب، في الشتاء وفي الصيف، في القرب وفي البعد ما دمت أحيا وبعد الحياة!

في ذلك الوقت، وكنت في العشرين من العمر، كنت أحب الحياة لشراكها البراقة ولمباهجها التي تفوق الوصف من دون الاكتراث بالألم الشامل المنتصر دوماً... كنت أحب الحياة الحزينة والصافية والشرسة والغموض الكبير المبتسم والفاتن دوماً والمهدهد.

كنت متسكعاً لأني كنت من دون وطن... أحببت نظرياً أحد بلدان الشمال الكبير حباً حزيناً، لأنه شهد ولادة أمي المحبوبة ولأنه وصلتني هناك الأصداء الضعيفة، التي ما تزال ترتعش بأحزان غامضة، بذات تشبه جوهر أحزاني التي لا

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

يمكن تفسيرها والمبكرة... وما كان لي أن أستمر في الاعتراف بالبلد السلافي... غير أني ألفيت في دار الإسلام الوطن الذي رغبت فيه كثيراً وعلى نحو يبعث على اليأس. وكنت أحبها.

أذكر بوضوح شديد رؤية أناس تلك الفترة وأشياءها، وكل ما اختفى وكل ما قدّر له أن يتسمر في الوجود، وكل ما سيبقى ثابتاً إلى الأبد عبر استمرارية الوقت اللامتناهية - عندما سأغدو أنا أيضاً فانياً منذ قرون.

يبدو لي أني أعيد أحياناً، وفي اللحظات الحزينة، رؤية طيف عنابة الناصعة البياض ينبثق من ركام الرماد المغِمّ المجتمع عبر السنوات عند سفوح الإيدو القاتم، وينعكس في لازورد خليجها الحي في ساعة المغرب المفضلة...

ويبدو لي أني أرى كما كان يحدث في السابق، ومن خلال شرفة بيتي المغربي، التكوّم الثلجي المائل للزرقة الذي تشكّله البيوت العتيقة الهادئة والثابتة يرتسم في الزرقة العميقة للسماء باتجاه الشرق، عبر كل صخب وصمت القرون المغلقة على نحو فظ أمام كل روائح الخارج الكريهة والقاتلة...

ويبدو لي أيضاً أني أعيد رؤية الظلال المحبوبة جداً والتي أودّ في هذه اللحظة أن أتمكن من السجود على ترابها في افتتان لامحدود...

وأعتقد أني أسمع كما في الماضي الصوت الواضح والحزين للمؤذن حسين يرتفع بابتهالات الإسلام القديمة، معلناً بملء صوته في الالتماع الأحمر الذهبي للغروب عظمة الخالق...

في هذه اللحظة، حيث كل ما كان قائماً، وفي روحي الشابة التي بدت لا تدمر تقريباً، وخالدة تقريباً، في هذه اللحظة حيث اختفى الناس والأشياء عائدين إلى أصلهم الترابي، أعيد نبش ذلك الرماد الميت لسنواتي الأولى بهلع كبير وبارتجاف بارد كبير، هناك خلف اللازورد الكبير... وفقط من أجل الإخوان المجهولين والبعيدين والذين فكروا أحياناً مثلي بالهلع نفسه وبالأسى المزمن عينه في المناطق العزيزة من بين كل المناطق الأخرى، وفي الأرض التي أحبوا وهم بعد صغار في فجر حياتهم البهيج، وفكروا وتألموا وحيث لعلهم تركوا مثلي، في قبور صامتة ما أحبّوه بولع وما كان في المجمل سبب عيشهم، وخضعوا للألم، وحيث تركوا في فراق أليم الآثار الأخيرة لأحبائهم...

فقط، من أجل القلقين والحزانى، ومن أجل المنعزلين والحالمين أريد أن أشير إلى الظلال العزيزة.

١

كان في ضواحي حي قديم ميت، يغفو منذ قرون في الظل الحامي لزاوية عيساوة[1] المقدسة، في زقاق ضيق وعر، بيت منخفض وخشن. كان عبارة عن مكعب صغير من البناء القديم الذي يدهن كل سنة بالجير الأزرق، زرعت كرمة عتيقة على مستوى سطحه المستوي، وسط الساحة المغربية الصغيرة المبلطة قديماً والتي أضحت خشنة وغير متساوية... ولا شيء على الطريق، لا نافذة ولا كوة. وكان الباب المقوس على النمط القوطي والمنخفض جداً المصنوع من الخشب السميك المحفوف بالحديد والمزين بمسامير نحاسية عتيقة، مغلقاً دائماً ولا يفتح جزئياً على نحو غامض إلا لترك أحدنا، نحن الذين كنا نسكن هناك، سيدي محمد الجريدي مالك البيت، وسيدي عبد القادر الطالب الزنجي القادم من المغرب، وأنا، يدخل أو يخرج حيث كنت أقيم في الحي أو في الجماعة باسم محمود الموسكوي... إلا أنه في بعض الأحيان كان يفسح المجال لأطياف مدثرة بفرجيات الأثرياء البيضاء أو بملاءات نساء العامة الزرقاء... وذلك عند حلول الليل وعلى نحو خفي جداً حتى لا يستطيع أي شخص أن يسمّي تلك الأطياف المجهولة...

وكانت هناك أربع غرف تفتح أبوابها جميعاً ونوافذها الصغيرة على الساحة حيث توجد أسفل كرمة عتيقة بئر ذات حواف على شكل مزهرية منحوتة. وكان جذع الشجرة المألوفة الرمادي يميل على فتحة ضيقة لتستند إلى حافة الشرفة الظليلة بفروعها التي كانت ماتزال خضراء، وهو ما منح البيت لقب دار الكرمة.[2]

وكانت الجدران سواء في الداخل أو الخارج مدهونة بعناية بالجير الأزرق زرقة لازوردية لطيفة مثل غالبية البيوت المغاربية. وكانت الأبواب مغلقة بستائر مخملية

---

(١) عيساوة: طائفة في الغرب الإسلامي تضم عدداً كبيراً من الأفراد القادرين على الإتيان بخوارق في الوجد الحقيقي (ملاحظة إيزابيل إبرهارت). الأصل.

(٢) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي من قبل الكاتبة. المترجم.

مزينة بأزهار صغيرة. وإلى يمين بابي، في صندوق عتيق مكسور، كان يسكن الحمام الأبيض الأليف حد أنه كان يأتي ليأكل معنا في غرفة سيدي محمد حيث كان يقطن رفقة زوجته لالة فاطمة وابنة أخيها يمونة.

وعند حافة الشرفة أصيص الياسمين الأبيض الذي لا بد منه، وغصن الورد ذو الأزهار الحمراء والقوارير ذوات العمق المحدد حيث يخزن الزيت. وكان هناك جزء من جدار وسط أغصان الكرمة، يعود للبيت المجاور حيث تفتح نافذة وتظهر هناك أحياناً امرأة لا تقدر بثمن. هي بوبو الزنجية السودانية الشابة الفاجرة والخبيثة والتي كانت بالنسبة لسيدي محمد الجريدي شيئاً مرعباً.

وفي الشارع الوعر والمبلط على نحو سيّئ لم يحدث أبداً أن مرّت عربة، ولا يسمع في بعض الأحيان إلا الصوت الإيقاعي للقبقاب[1] الخشبي في أقدام بعض الزنجيات أو اليهوديات، أو النداء الغنائي للباعة المتجولين ولباعة الحليب الذين يمرون صباحاً. . . ثم يعود الصمت مطبقاً ومهدهداً. وفي ذلك الحي العتيق يبدو أن ساعة الزمن قد تخلفت ثلاثة عشر قرناً أو توقفت في سنوات خلفاء الغرب الأخيرة. . . تمضي الأيام والسنوات التي تتشابه على نحو ثابت برتابة مهدهدة مثلما مرت القرون المشرقة دوماً بالإيمان الصافي والخضوع الهادئ.

وكان يسود البيت هدوء كبير وشبه مهيب. وكان هناك شيء عتيق وقديم جداً في ذلك الهدوء العميق. . . وعندما يترك المرء مدينة النصارى[2] المتبذلة والصاخبة حيث يغرق يكون ذلك أشبه بنكوص مباغت في هوة بلاقرار للأيام الخوالي. . .

وفوق باب الغرفة، خط سيدي الجريدي بالحبر الأحمر هذه الآية القدرية: «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

وفي ساعات الفجر الأرجوانية، عندما تصيح الديكة في الضوء الأبيض نافشة ريشها المزركش، وعندما يقوم الحمام ويدور في الرطوبة المعطرة، أنهض من فراشي الصوفي الممدد على زربية سميكة. . . أستيقظ بإحساس قوة لذيذ ولامبالاة سعيدة تقريباً. . . مثل الصباحات السعيدة الطفولية البهيجة في الماضي. كنت أخرج في ثياب

---

(١) القبقب: نوع من النعال الخشبية والذي يُشد من مشط القدم بشريط جلدي، وتنتعله عادة الزنجيات واليهوديات. الأصل.

(٢) تعريف من قبل الكاتبة لكلمة نصارى، مع ذكرها في صيغة المفرد. المترجم.

بلدية طويلة مكونة من الحايك الأبيض تحت البرنس والعمامة الحريرية الصفراء التي يعتمرها المغاربيون، (البربر).

وأُلفي لالة فاطمة مشغولة دوماً بإشعال النار من الفحم في كانون متفحم مقرفصة بمروحيتها المضفورة على شكل صحن بيدها. وكانت منكبة تماماً على عملها بعناية وكرامة. كانت طويلة القامة رقيقة العظم خلف قميصها المصنوع من النسيج القطني المزين بالرسوم ذي الكمين الواسعين المشمرين والمعقودين في الظهر مشكلين تخريماً حول العنق، وبغندورتها المخملية الصفراء الطويلة المشدودة عند خاصرتها بمنديل حريري أحمر. وكانت حلية شعرها المملوءة بالمخمل محاطة بمنديل رأس أسود جميل. وكانت لالة فاطمة جميلة جداً فيما مضى. وفي تلك الفترة كان وجهها الذابل الصادق جداً والهادئ جداً ما يزال يحافظ على سحر كبير نابع من السلام البريء والرقة. كنا نتبادل تحايا طويلة بطريقة احتفالية حيث تقبيل اليدين والعديد من الأسئلة المتعلقة بصحتينا وأحلامنا، وكل ذلك في خمس دقائق كاملة، قاطعين جملنا بالعديد من الحمد لله[1] المقنعة.

ثم كنت أجلس عند جذع الكرمة على حافة الصهريج العميق. وكنا نتبادل الأحاديث على نحو مألوف إلى أن تضع لالة فاطمة ثلاث كؤوس صغيرة على المايدة[2] الصغيرة المنخفضة، وتصب القهوة الشهية جداً. وكانت تضع في الوسط خبزاً من دون خميرة صنعته بنفسها، ووعاء من الزجاج الأزرق مملوءاً بالتوت المحلّى في العسل. ثم تنادي بصوتها الهادئ: يا سيدي محمد، يا يمونة!... ومن الغرفة الصغيرة التي تكون ما تزال مغلقة يصدر صوت الطالب المسنّ راداً بأدب متناه: آنعام آمي فاطمة.[3] (أمي فاطمة، صيغة احترام ودودة...) وأبداً، لم يتخل أي منهما في كل ظروف الحياة عن هذا الأدب الحريص الذي لا يلغي الحب في سنوات شبابهما أو الصداقة الرقيقة في شيخوختهما الهادئة... وكان لذلك سحر مؤثر جداً، وجمالي جداً، يجعلهما محبوبين جداً ومبجّلين... وكان سيدي الجريدي شيخاً يبلغ من العمر خمساً وستين سنة، وكان طويل القامة رقيق العظم. وكان وجهه المدور الضامر

---

(١) هكذا جاء في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي من قبل الكاتبة. المترجم.

(٢) هكذا جاء في الأصل. المايدة أو الميدة: المائدة. المترجم.

(٣) هكذا جاء في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي من قبل الكاتبة. المترجم.

والنسكي بعض الشيء، يحمل بصمة رقة وبساطة طفوليتين على الرغم من الذكاء الجلي واليقظ على الدوام البادي من عينيه الجميلتين الحديدتي اللون. وكانت لحيته البيضاء وعادته في وضع سبحته المصنوعة حباتها من الخشب الأسود حول عنقه قد منحتاه ألقاباً وقحة اعتدنا وصفه بها نحن الطلبة الشبان الساخرون مثل بولحية، الرجل ذو اللحية، والأب صاحب اللحية، وبوسبحة، والأب صاحب السبحة... وكان يعلم ذلك ويضحك ملء قلبه. وكان يبدو حزيناً بعض الشيء وشديد التواضع والفقر يكسب قوت يومه من بعض الدروس التي يُعوَضُ عنها قليلاً. وكان سيدي الجريدي يتمتع بسحر غريب ويبدو أنه يتحرك وسط هالة من السلام والصفاء الخارق ويعيش في عالم خاص من السلام والهدوء والحلم.

وكانت هناك فتاة صغيرة هي الابنة الطبيعية لأخي ابنة لالة فاطمة الصغيرة، المتوفى ومرسيلية ثرية. وكانت فائقة الجمال وتنتمي إلى نوع بربري نقيّ جداً باستثناء عينيها الصغيرتين بعض الشيء والصافيتين واللتين تفضحان أصولها كنصف رومية. تخلت والدتها عنها ورباها سيدي الجريدي كابنته. كانت تبلغ من العمر ثماني أو تسع سنوات، وكانت متقلبة الأطوار كثيراً وكسولة.

تبادلنا مع سيدي الجريدي تحيات أطول، ثم تحلّقنا حول المائدة جلوساً على زرابي مربعة أو وسادات. وكان كل فرد منا يقول بصوت مرتفع صيغة التقديس هذه: «باسم الله الرحمن الرحيم». ثم نتناول إفطارنا في صمت بحسب المألوف. وعند انتهائنا من ذلك نغسل أيدينا في الحوض القصديري الصغير الذي تقدمه لنا لالة فاطمة، فنقوم منهين وجبتنا مثلما بدأناها بعرفان «الحمد لله!».

ثم كنا نقصد أحياناً أنا وسيدي محمد جامع الباي، مسجد عنابة لأداء صلاة الصبح.[1]

وكنا نخرج واضعين برنسينا بمهابة وعظمة إلى الشارع الذي يكون مايزال مملوءاً بالظل الرطب والهدوء المقيم، ويصير أكثر صخباً كلما نزلنا باتجاه الساحة الكبيرة وسط الحياة البربرية... وكنا نتحدث بدراية وبرويّة المسلمين المفكرين عن الدين وعلى الخصوص عن الشعر لأن سيدي الجريدي، شأنه في ذلك شأن كل الطلبة، كان

(١) جاء في الأصل كلمة *cabeha* كتبته بالخط المائل ويعرف ما قصدت بها الكتابة. المترجم.

شغوفاً بالأدب والشعر القديمين. ونصل ونحن نتحدث أحاديثنا الهادئة والمسالمة تلك إلى الزقاق الضيق والهادئ حيث يفتح الباب الصغير الملحق للجامع الكبير أسفل المنارة، في الوقت الذي يشرع فيه حسين بندائه الأول: الله أكبر[1]!

وبعد وضوئنا الاعتيادي ندخل رفقة الطلبة في ظل المسجد الظليل...

كانت لحظة صلاة الصبح، إضافة إلى الصلاة قبل الأخيرة، المغرب، عند مغيب الشمس، من اللحظات الأكثر لذة في حياتي، فهي أوقات مباركة حيث يحل سلام عارم بنفسي وخضوع صاف عند محطات القدر الحتمية... كانت أوقات مقدسة وظل سحرها الحزين غالياً عليّ عبر السنوات والمسافات المدوخة، غالياً إلى الأبد.

أين هي الكلمات البارعة جداً والمرتبة جداً والضبابية جداً أيضاً وغير الواضحة التي يمكنها أن تصف تلك الأحاسيس الفردية والحصرية على نحو عميق؟...

... ومن سيصف أبداً جمال الصباحات والليالي الإفريقية التي تفوق كل وصف بأنوارها الذهبية والأرجوانية، وأوقات الفجر المقدسة عند احمرار الشمس الغارقة في البحر الأحمر مؤججة قمم الجبال الوعرة، وأوقات الغسق البهيجة في مدن الشرق البيضاء مدثرة الأرض بضباب خفيف على شيء من الزرقة... وليالي القمر الغارق في الضوء الأزرق بصفاء لا مثيل له... والروعة الحزينة للصلوات الإسلامية المرددة بورع بأصوات الرجال المرتفعة من أعلى المنارات وفي صمت المساجد المهيب... معلنين انتصار الإيمان والقدر المحتوم والمجد اللامتناهي والخالد! من سيقول هذه الأشياء ذات السحر الخلاب... هذه الأشياء التي تفوق الوصف، والبعيدة جداً عن الأشياء المبتذلة العائدة لأوروبا المحمومة والمريضة... يلزم من أجل ذلك كلمات تكون مشتعلة وهادئة في الآن عينه وبرقة ولطف غير متاحين للغة البشرية...

في الجامع الواسع المهيب، في غمرة الصراع المروّع الذي يمزق روحي الممزقة الغارقة في الظلمات، كنت أقصد المسجد في انفعال كملحد ومولع بالفنون متعطش للأحاسيس الرقيقة والنادرة... ومع ذلك، ومنذ البدايات الأولى لحياتي العربية، فتنتني الروعة التي لا تقارن لإله الإسلام، وجذبتني في رغبة لا توصف لأدخل إلى روحي النور الكبير اللطيف المستمد من الصحراء الحارقة والرائعة حتى أفر من وحدة

---

(١) هكذا جاء في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي من قبل الكاتبة. المترجم.

الشك الرهيبة... ولأحلّق خارج هوّة الشك المعتمة باتجاه أعالي السماء اللازوردية...

لكن من بين كل الآلام التي تعذّب الروح البشرية يبقى الشك الأقدم والأعصى على العلاج... ولن يظل الإنسان الذي يفكر مالكاً لأمره في أن يؤمن أو أن ينكر.

كنت أبحث إذن عن سعادة الإيمان وسط حزن كبير وقلق شديد.

وفي ليلة صافية من ليالي فصل الصيف كانت تلطف حرارة النهار المرهقة، كنت أمر وسط حشود المسلمين الصامتين في الزقاق الأبيض الصغير في ظل المنارة العتيقة المذهبة بفعل شمس غامضة.

وفي الأعلى، في الضوء الأرجواني والذهبي المتقزح، كان حسين المؤذن ينشد بصوته الحزين الألحان اللطيفة البطيئة نشيد الإله الواحد الخالد... وكان صوت الحلم ذاك يجسد بطريقة أخاذة كل صفاء الإسلام الكبير.

فجأة، وكما لو أن الرعاية الإلهية شملتني، وفي لحظة صفاء مطلق، أحسست بإثارة من دون اسم تحمل روحي إلى مناطق النشوة المجهولة.

وعند عتبة المسجد كان شيخ أعمى يرتدي أسمالاً بالية، في صورة مأساوية للخضوع القديم لسيدنا سيوب[1]. كان يتضرّع بصوت حزين ممدود: «في سبيل سيدنا إبراهيم، وسيدنا عبد القادر وسيدنا بلكريم... في سبيل الله، إمنحوني قطعة نقدية أيها المؤمنون بالله!»

وكان المارّة يمنحونه الصدقة في صمت، وكان يباركهم بجملة الأمل هذه الثابتة دوماً «سيخلفها الله لك!»

ولأول مرة في حياتي أدخل بسعادة عارمة ولطيفة يشق تفسيرها في الرطوبة العطرة للجامع المفعم شيئاً فشيئاً بالحفيف المخنوق والأصداء الغامضة...

ولأول مرة، أهمس وأنا أجتاز تلك العتبة التي كانت مألوفة لي مع ذلك بإيمانهم الراسخ: الله أكبر!

في تلك الساعة المباركة كان كل الشك القديم قد مات ونُسي. ولم أعد وحيداً أمام روعة العوالم الحزينة...

---

(١) لعل الكاتبة تقصد سيدنا أيوب، وترفق ملاحظة على الهامش تؤكد هذا. المترجم..

وفي رعشة غموض، راودني في اللحظة عينها التي كان ينتهي فيها نداء حسين الحزين شيئاً فشيئاً، ما يشبه شعوراً حميمياً بالخلود. فرحت وعيناي مملوءتان بدموع النشوة أبتهل على التراب أمام عظمة الخالد.

صحيح أن نشوات مماثلة ليست سوى شهب مضيئة تنير دواخلنا المظلمة بوميض مباغت لا مثيل له يُفقد سريعاً في سواد الليل المميت...

وقد لا تكون إلا خدعة إلهية منتزعة من الألم ووهماً شافياً من ألم الروح... لكن ما فائدة ذلك! ففي دوامة الحياة والموت المدوّخة، وفي كربنا الشديد لماذا، وباسم من، ينجلي ويختفي ضباب الحلم البهيج كعزاء أخير لعاثري الحظ من الناس؟

من سيعيد لي أبداً ساعات الإيمان المباركة والسعادة اللطيفة في الظل الخفيف الأزرق للمساجد الإفريقية؟ من سيعيد لي نشوات الماضي السعيدة أو لحظات الأمل التي لا تُقدّر بثمن عندما تبدأ وقائع الحياة السوداء تتلاشى وتختفي في شعاع لطيف، وأفتح لنفسي آفاقاً غير محدودة للنور الساحر والسعادة التي لا توصف؟

كم كانت روحي الشابة والساذجة ـ والأكثر نقاءً ـ آنذاك محمولة نحو مناطق الوجد الإيماني على أجنحة الوهم المتقزحة... !

وعند خروجنا من المسجد، بعد النسيان ونشوة الصلاة المتأنية،أخذنا نبحث عن بعضنا البعض، نحن طلبة علم اللاهوت وعلم البيان بالزاوية، وننادي على بعضنا البعض لنصعد معاً زقاقنا القديم المفعم بالصمت والهدوء الغافي حيث بدأت تفتح الأفران والمقاهي المغربية.

وكان من بيننا، وكنا حوالي عشرين فرداً، أشقياء وزهّاد (كانوا قليلي العدد) وأقزام[1](؟) وصامتون وكسالى وشهوانيون، وكنا جميعاً مهتمين بالحب والشعر، المتعتين الكبيرتين والمشتركتين اللتين يتقاسمهما الجميع.

كنا نصعد زقاقنا السيّئ التبليط بمجموعات صغيرة حسب ألفة أرواحنا بالبطء الرصين للمسلمين متحدثين من دون أصداء، وتقريباً من دون حركات، بهدوء شديد مثلما يليق بالطلبة الحريصين على وضعهم.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، من دون إدراك ما تقصده الكاتبة من قبل الناشرين إذ وضعت علامة استفهام بين قوسين. المترجم.

. . . أحاديث مبتهجة أحياناً، وحزينة جداً أحياناً أخرى في مجموعات الشعراء والحالمين حيث الحب والموت يعودان باستمرار. . . وأحاديث المثقفين الشباب في العصور الوسطى مزينة باستشهادات لشعراء الإسلام الفلاسفة الكبار. . .

كنت وثيق الصلة بصديقيَّ الحميمين عبد السليم[1] ولد إيسني، وصلاح بن رزوق الراربي على الرغم من الاختلاف الكبير في شخصياتنا، تجمعنا وحدة الأفكار وحتى أذواقنا فيما يخص الصمت والتأمل والحلم اللامبالي.

وكان عبد السليم وصلاح المتحدران من عائلتين مرموقتين، من عرقين صارمين وشديدين، وسيمين جداً معاً تلك الوسامة البربرية الذكورية جداً والمهذبة في الآن عينه. . . كانا شابين جداً وعاشقين للحرية مع أنهما متمسكان بالعادات العائلية المتعلقة بالاحترام والخضوع. . . وكانا يعشقان حياتهما العربية وجمودها المهدهد، وكانا بعيدين جداً وغير مباليين ومستخفين على الخصوص «بالحركية» الأوروبية. ولم يكن أيّ منهما يعرف أي كلمة فرنسية. وكان صلاح يتحدث اللغة الإسبانية بطلاقة وقد تعلمها في وطنه المغرب. . . ولم يكن لديهما أي فضول في ما يتعلق بالشؤون الأوروبية.

«فلا يمسّن أبداً أي تغيير إفريقيانا ووطننا القديم هناك، يمننا وحجازنا حيث مساجدنا المقدسة وقبر نبينا! عليه السلام! وقبور آله وقبور أجدادنا! . . . ولا يتغيّرن أي شيء أبداً، ولا تقام الخرابات أبداً، وألا نسعى لأن نكون حكماء وأكثر قوة من الله بإرادتنا وأن نقيم ما دمره الزمان! فلا نغيرن أبداً أبداً جيادنا الجميلة بخطوط السكك الحديدية الغبية لأبناء التسرع والاضطراب اللامعقول! فليعد إسلامنا، عوض أن يتبنى أكاذيب الغرب وخدعه النجسة، إلى صفاء القرون الأولى للهجرة وعلى الخصوص إلى بساطته الأصلية! . . . ثم فليبق كل شيء من دون أن يتغير أو يعدّل عبر القرون! . . . عندما وصل الحكيم لما يقيم سعادة ابن آدم لم يبحث أبداً كشخص غير منطقي ليغير وضعه، ولم يهجر الواقع من أجل الوهم. . . فالجشعون هم الجوعى والجاحدون لله هم الأشرار.»

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، لعل الكاتبة تقصد عبد السلام. المترجم

كذاك كانت أحاديث عبد السليم المؤمن المتحمس البعيد عن كل خرافة، والمنتمي للطائفة السنوسية[1] القوية.

وكان عبد السليم يتعذب حباً ببربرية جميلة لمحها بالصدفة على أحد السطوح. لم يكن يستطيع رؤيتها مجدداً، وكان يوظف مواهبه في نظم قصائد[2] شوق منشداً في أبيات متناغمة حبه وجمال حبيبته.

ولم يكن يعرف عنها بعد أبحاث عديدة ومضنية إلا اسمها: منوبية، وولع الشابة بشكل منقطع النظير بالموسيقى الحزينة للنايات القصبية البدوية.

وكل ليلة كان عبد السليم يمضي في وقت متأخر ليجلس عند عتبة باب منخفض عتيق مغلق بشكل دائم، هو باب زاوية قديمة مهجورة منذ سنوات وكان الإخوان الذين عاشوا فيها قد ماتوا جميعاً أو رحلوا إلى البعيد... كان ذلك في حيها العتيق، حيث كان ينشد في الأزقة الميتة وفي صمت الليل المعطر بروائح غريبة أحلامه الملتهبة وأحزانه مرفقة بانتحاب نايه الصغير وزفراته.

ملاحظة

عندما نشرت الثانوية في آذار/مارس سنة ١٨٩٨، وكانت قد أنشئت في باريس قبل ثلاث سنوات على يد ج. بونفال، الجزء الأول من أطياف إفريقية، العلماء، تفاجأ نيكولاس بودولانسكي وهو يرى هذا النص موقعاً من قبل بول بيوني أحد المتعاونين المنتظمين مع المجلة الأدبية. خطأ صُحّح بسرعة في الشهر الموالي في الجزء الثاني، واستمر النشر بعد ذلك في شهري حزيران/يونيو وتموز/يوليو من السنة نفسها.

وبعد وقت طويل جداً علم رئيس التحرير ج. بونفال بأن نيكولا بودولانسكي كان إيزابيل إبرهارت.

لعبة هويات: العالم محمود الموسكوي ذلك الروسي المسكون بذكريات

---

(١) السنوسية: طائفة قوية تضم العديد من التابعين في إفريقيا على الخصوص وتهدف إلى جلب الوحدة للإسلام وصفائه الأصلي. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت). الأصل.

(٢) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

طفولته، هل له علاقة بإيزابيل إبرهارت التي استقرت في بون شهر أيار/مايو سنة ١٨٩٧ رفقة والدتها، والتي كانت تفضل مرافقة مسلمي المسجد المجاور عوض المستوطنين؟ وعندما أجبر موت والدة إيزابيل إبرهارت المفاجئ، بجنيف في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٨٩٧، هذه الأخيرة على العودة إلى جنيف احتفظت في قلبها بحنين حارق إلى «أرض الإسلام» التي سرعان ما أضحت وطنها بالتبني.

وعلماً بأن والدة إيزابيل إبرهارت قد دفنت في المقبرة الإسلامية بالهوية المزدوجة لنتالي دوموردير وفاطمة المنوبية، يمكن افتراض أن المرأتين قد اختارتا الإسلام كدين خلال إقامتهما ببون التي دامت ستة أشهر. يمكن للعلماء أن يرمز إذن إلى الظروف التي دفعت إيزابيل إبرهارت إلى النظر بافتتان إلى بهاء المساجد الهادئ الذي استحسنته روحها في دين كشف لها قانون القدر.

الساحر

كان السي عبد السلام يقطن بيتاً عتيقاً صغيراً بُني من الحجر الخشن وبيّض بالجير على نحو فظ، ويسند سقفه غصن مائل لكرمة عتيقة ذات أوراق سميكة واسعة.

كان في ذلك المأوى غرفتان خربتان، أما الغرفتان الأخريان فكانتا ماتزالان قائمتين نوعاً ما وكانتا تخفيان الفقر الفخور والتأملات الغريبة لسيدي عبد السلام المغربي.

(في إحداهما صناديق عدّة تحوي كتباً ومخطوطات من المغرب والمشرق.[1]

وفي الغرفة الأخرى حصيرة بيضاء من القصب عليها زربية مغربية مع بعض الوسادات، ومائدة منخفضة من الخشب الأبيض وموقد طيني فيه جمر من صمغ جاوة، وبعض كؤوس القهوة وأوان متواضعة لبيت رجل فقير، وكتب أخرى. وكان ذلك كل ما يشكل الأثاث).

وفي الساحة المهدمة حول الكرمة الكبيرة حيث البئر ذات البلاط المفكك كانت بعض نباتات الياسمين تشكل الترف الوحيد في ذلك البيت الغريب.

وفي الجوار يبدو المنظر الفاتن للتلال والأودية الصغيرة الخضراء التي ترصّع عنابة البيضاء مثل جوهرة (حول منزل السي عبد السلام كانت القباب المائلة إلى الزرقة والقبور البيضاء لمقبرة سيدي العشوش تتميز في تداخل ألوان شاحبة عن الأخضر القاتم للكرمة).

... وكانت الشمس قد غابت خلف إيدو الحزين الكبير، وانطفأ الحريق الأرجواني لكل ليالي فصل الصيف على البادية الخاملة.

---

(١) توجد روايتان لهذه القصة (انظر الملاحظة عند نهاية القصة). الأصل.

قام السي عبد السلام.

كان رجلاً في حوالي الثلاثين من العمر طويل القامة ممشوقاً يرتدي ثياباً واسعة يختفي بياضها أسفل برنس أسود.

وكان غطاء أبيض يحد وجهه الأسمر النحيل بالسهر لكن ملامحه وتعابيره جميلة جداً. وكانت نظرة عينيه الواسعتين السوداوين رصينة وحزينة.

خرج إلى الساحة من أجل الوضوء وصلاة المغرب.

فكر قائلاً:

ـ ستكون ليلة صافية وجميلة، وسأذهب للتفكير تحت أشجار الأوكاليبتوس في واد الذهب.[1]

عندما فرغ السي عبد السلام من الصلاة وذكر الشيخ السعيد، سيدي عبد القادر الجيلاني من بغداد، خرج من منزله. صعد البدر الممتلئ هناك، فوق البحر الهادئ عند الأفق الذي أخفته نوعاً ما أبخرة خفيفة بلون رمادي.

فجأة، أخذت الكلاب الشرسة عند البيوت البدوية القريبة من المقبرة تزمجر في البداية على نحو مبحوح، ثم عدت وقد علا نباحها باتجاه طريق سيدي إبراهيم.

عندئذ سمع السي عبد السلام نداءً مرتعباً. كان صوت امرأة. تفاجأ، ومع ذلك عبر المرج مسرعاً ليلمح عند وصوله إلى الطريق امرأة. كانت يهودية متبرِّجة تستند مرتعشة إلى جذع شجرة.

قال عبد السلام:

ـ ما الذي تفعلينه هنا ليلاً؟

ـ أنا أبحث عن السحّار (الساحر) السي عبد السلام المغربي. أخشى الكلاب والقبور... ! إحمني.

ـ إذن تبحثين عني... في هذه الساعة المتأخرة ووحيدة. تعالي، فالكلاب تعرفني، ولا تقترب الأشباح ممن يمشي في سبيل الله.

تبعته اليهودية صامتة.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة في الهامش من قبل الكاتبة. المترجم.

سمع السي عبد السلام أسنان الشابة تصطك، وتساءل كيف أمكن لإنسانة جميلة ومتزينة وخجولة أن تأتي إلى ذلك المكان وحيدة بعد حلول الليل.

دخلا الساحة، فأضاء السي عبد السلام مصباحاً بدوياً صغيراً وقديماً مدخناً.

ثم وقف وأخذ يتأمل زائرته الغريبة. كانت اليهودية ممشوقة القامة، هيفاء تلبس ثوباً أزرق باهتاً مزركشاً، وبتصفيفة شعر بربرية. كانت جملية جمالاً غريباً يبعث على الاضطراب.

وكانت شابة جداً.

ـ ماذا تريدين؟

ـ أخبروني بأنك تتوقع المستقبل... أنا حزينة وأتيت...

ـ لمَ لم تحضري نهاراً مثل الآخرين؟

ـ ماذا يهمّ في ذلك؟ إسمعني وأخبرني ما سيكون مآلي.

(ـ نار جهنم، مثل عرقك الكافر!

غير أن السي عبد السلام قال ذلك من دون قسوة، وشبه مبتسم، ذلك أن حضورها الفاتن قطع رتابة حياته ورج قليلاً الملل الواطئ الذي كان يعانيه في صمت).

قال عبد السلام (بعد أن أدخلها غرفته):

ـ إجلسي.

وهكذا شرعت اليهودية في الحديث:

ـ أحب رجلاً كان قاسياً معي، وهجرني. بقيت وحيدة وأنا أعاني. أخبرني إن كان سيعود.

(ـ هل هو يهودي؟

ـ كلا... مسلم.)

ـ أخبريني باسمه واسم أمه، ودعيني أنجز حساباً علمني إياه حكماء بلدي المغرب.

ـ المستنصر ابن فاطمة.

وعلى لوح خشبي خط السي عبد السلام أرقاماً وحروفاً، ثم قال مبتسماً:

ـ أيتها الشابة، ذاك الرجل الذي استسلم لفتنتك الخادعة، والذي كانت له الشجاعة المحمودة للهرب منك، سيعود.

صدرت عن اليهودية صرخة فرحة.

ثم قالت:

ـ آه، سأجزل لك العطاء.

ـ كل الثروات (المحصّلة على نحو سيّئ لعرقك) لن تكافئ أبداً كما ينبغي الكنز الذي لا يقدّر بثمن والمرير الذي منحتك إياه: معرفة المستقبل...

ـ والآن يا سيدي، هناك شيء آخر أطلبه من علمك. أنا رحيل ابنة بن عمي.

أخذت القصبة التي يستعملها الطالب كقلم، وضغطت بها على قلبها بينما أخذت شفتاه تهمسان كلاماً سريعاً وغير مبين.

ـ لا يجدر بك محاولة معرفة ما ينتظرك.

ـ لماذا؟ آه، أجبني، أجبني!

ـ فليكن.

عاد السي عبد السلام إلى كلامه الغامض. وفجأة ارتسمت دهشة مباغتة على ملامحه وأخذ يتأمل المرأة بانتباه. كان السي عبد السلام شاعراً، وكان مستمتعاً بالصدفة الغريبة التي وصلت حياته بحياة اليهودية، والتي كانت بحسب حساباته تتعرض للاضطرابات، وشديدة الفرادة، وستنتهي على نحو مأساوي.

قال عبد السلام:

ـ إسمعي، ولا تتهمي أحداً سوى فضولك، لقد تسببت في أذى الرجل الذي تحبين، هو يجهل ذلك لكنه فر لربما بدافع غريزي، غير أنه سيعود وس... آه يا رحيل، يا رحيل! هل هذا يكفي أم ينبغي قول كل شيء؟

أصدرت الجميلة رحيل المرتجفة والشاحبة حركة موافقة برأسها.

ـ ستحظين رفقة من تحبين بلحظة سعادة وأمل، ثم ستقضين في الدم.

وقعت هذه الكلمات في الصمت المطبق لليل من دون صدى.

أخفت اليهودية وجهها في الوسائد محبطة.

ـ هذا صحيح إذن! قبل قليل، في وقت المغرب، سألت العجوز تيرسا، غجرية باب الخميس... ولم أصدقها... شتمتها... وأنت، أنت تعيد علي ما قالته على نحو أكثر فظاعة... أموت؟ لماذا؟ أنا شابة... أريد أن أعيش.

ـ هكذا... هذا خطأك! كنت الفراشة العابرة التي يتألق جناحاها بالألوان البراقة جداً والتي تحوم حول الأزهار جاهلة ساعتها... أردت أن تعرفي، وها أنت ذي أصبحت أشبه بالبلشون الحزين الذي يحلم وسط المستنقعات المحمومة...

شرعت رحيل التي مالت على الزربية في الانتحاب.

نظر إليها السي عبد السلام متفكراً بالفضول العميق لروحه الباحثة التي هذبتها الوحدة. لم تحمل نظرته رأفة. لمَ الأسف على رحيل تلك؟ أليس كل ما سيحل عليها مكتوب ومحتم؟ ألا تشعر بابتذال روحها وجهلها عندما تشتكي ما منحها إياه القدر مصيراً أقل ألفة من مصائر الآخرين... هل سينجيها شغف أكثر وتقلبات أكثر في سنوات أقل من التقزز الممل.

قال السي عبد السلام:

ـ رحيل، يا رحيل! إسمعي... أنا من يجرح ومن يعالج، من يوقظ ومن ينيم... إسمعي يا رحيل.

رفعت رأسها، فكانت الدموع تسيل على خديها الشاحبين.

ـ كفّي عن البكاء وانتظريني، إنها ساعة الصلاة.

تناول السي عبد السلام من كوّة في الحائط كتاباً جُلّد بالحرير المحفوف بالذهب، وقبّله باحترام كبير ثم حمله إلى الغرفة الأخرى. ثم صلّى العشاء في الساحة.

نهضت رحيل الوحيدة، وأخذت تفكر مقرفصة، وكان تفكيرها حزيناً... كانت نادمة بمرارة كونها حاولت معرفة مصيرها، وما كان سيصيبها...

دخل السي عبد السلام مبتسماً.

ثم قال:

ـ ألا تعلمين أنك ستموتين عاجلاً أو آجلاً؟

ـ تمنيت العيش، وأن أكون سعيدة أكثر، وأموت في سلام...

رفع السي عبد السلام كتفيه مزدرياً.

قامت رحيل.

ـ ما الذي تريده كأجرة لك؟

بدا صوت اليهودية وكأنه أضحى قاسياً.

بقي صامتاً ينظر إليها، ثم رد بعد لحظة:

ـ هل ستمنحينني ما سأطلبه منك؟

ـ أجل، إذا لم يكن ذلك مبالغاً فيه.

ـ سآخذ كأجرة لي ما أريد.

(ثم قالت بوقاحة):

ـ دعني أرحل! (لست لك، أتركني...)

ـ أنت مثل الرمانة الناضجة التي سقطت من الشجرة لمن سيلتقطها، وما وُجد هو ملك الله.

ـ كلا، دعني أرحل...

تخلّصت منه.

(ومدّدها غصباً على الزربية).

ملاحظة

بعد إقامتها الأولى في الجزائر عادت إيزابيل إبرهارت إلى الوصي عليها ألكسندر ترومو فسكي في جنيف، وأخذت تعمل على مشروع رواية بعنوان رحيل وهي ميلودراما صاخبة تحكي الحب المحظور ليهودية مع مسلم. وعلى الرغم من العديد من محاولات إعادة الكتابة حتى شهر حزيران/يونيو سنة ١٩٠٠ فقد تخلت عن مشروعها الذي رأت أنه «تكديس مقزز لوثائق بوليسية حررت على نحو سيّئ.»

تقدم قصة الساحر حيث توجد شخصية رحيل خاتمة رواية لم تكتمل، ولم تسع الكاتبة لنشرها أبداً، وهناك روايتان للساحر.

ظهرت الرواية الأولى في أخبار الجزائر بتاريخ ٨ تموز/يوليو سنة ١٩٠٢، ثم أعيد نشرها بعد وفاة الكاتبة في الأخبار بتاريخ ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٠٥، وفي صفحات الإسلام (فاسكيل ١٩٢٠)، مع بعض التصحيحات من قبل فيكتور باريكون.

والثانية غُيّرت من دون شك من قبل الكاتبة، ووقّعت باسم إيزابيل إبرهارت إهني

(لقب زوجها)، وهي إحدى أندر ما نشر من قبل إحدى جرائد العاصمة. وتظهر في الإضافة المشهورة للجريدة الصغيرة في الثاني من شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٠٢ إلى جوار نص لفريدريك ميسترال. وأخذت هذه الرواية من قبل روني لويس دويون في مجموعة حكايات ومناظر (مصدر ذكر سابقاً) وفي في بلاد الرمال. (المرجع نفسه).

نشير بخط مائل وبين قوسين إلى التغييرات التي توجد بين الروايتين.

حكاية الجندي

في تونس، وفي ظل جامع الزيتونة العتيق أسفل قباب يغمرها الظل المائل للزرقة حيث فتحات واسعة تلقي أشعة نور صاف وحي مباغت، منطقة أثيرة يعمّها صمت خفي كما لو أنه مضايق بقربه من المسجد الكبير وكأنه مدينة صغيرة.

وعلى جانبَي ذلك الممر حيث الأعمدة الخضراء والحمراء المشكلة من الأشجار الثابتة، وفي دكاكين من دون عمق مثل خزائن أو خلايا ملئت بشموع صمغية كبيرة وقوارير مصقولة، كان يجلس رجال على مناضد مرتفعة. كانوا يرتدون أثواباً حريرية أو من الصوف الناعم خبت ألوانها برقة لامتناهية، ما بين وردي مخملي قديم وأزرق رمادي كأنه فضي، وأخضر نيلي وبرتقالي ذهبي... وكانت وجوههم ذات القسمات المتناسقة والرقيقة قد أرهقت بسنوات طويلة من الحياة الخفية والمتراخية، شاحبة شحوب الشمع وبملامح متميزة.

وكان العديد منهم من أبناء أسر مرموقة وثرية، وهم هناك فقط حتى لا يكونوا عاطلين، ولكي يجتمعوا بعيداً عن المقاهي حيث يتسلّى العامة.

ذاك سوق العطارين[1]. وكان دكان السي عليلة بن حسين أحد الدكاكين الأكثر تزييناً بذوق بسيط وبلذة.

والسي عليلة ابن قاض، إمام جامع الزيتونة، ويتحدر من أسرة عريقة ومحترمة من تلمسان، لجأت إلى تونس منذ الفتح الإسلامي. وبعد أن أنهى الشاب دراساته الإسلامية تزوج من فتاة تتحدر هي أيضاً من أسرة معروفة فمنحه والده ذلك الدكان ليقضي فيه ساعات الحياة الأرستقراطية الطويلة والرتيبة.

---

(١) هكذا جاء في الأصل مع ترجمة من قبل الكاتبة في النص الأصلي بين مزدوجتين وترجمته بسوق العطور. المترجم.

غير أن السي عليلة لم يكن يشبه في شيء باقي زملائه السابقين في الدراسة. وكان يتجنب الاختلاط بهم، ولم يكن يعرض أمامهم أهواءه التي لم يغير فيها زواجه أي شيء، فقد كان يفضل المجتمع الروحي للشعراء العرب القدامى، ولا يجاور من أفرادها القدامي إلا المظاهر الصافية جداً والجملية جداً.

وكان الشبان البربر الآخرون يفرون منه مقدرين أنه متكبر ومزدر.

وكان السي عليلة يملّ من رتابة الأشياء اليومية، وكان يعرف كيف يفكر لأن ذكاءه كان يقظاً وازداد شحذه في الدراسة المضنية للتأويل والشعر والقضاء. وكان إدراكه الأشياء يزيد من إصابته بالملل. ولم يكن هناك من جديد يبدو أمام فضول واحتدام سني عمره الخمس والعشرين.

وفي أحد الأيام الشبيه بأيام كثيرة أخرى كان السي عليلة يجلس في دكانه مسنداً مرفقيه إلى وسادة، ومقلّباً بلامبالاة كتاباً قديماً باهتاً لأحد الشعراء المصريين الذي ربط فكرة الموت بفكرة الحب. وكان السي عليلة يعيد قراءته للمرة المئة لربما، وكان أمامه وعاء صغير دقيق من الزجاج، رسمت عليه نجيمات زرقاء وذهبية، وفيه زهرة مغنولية كبيرة بيضاء وسط أربع أوراق لامعة ومعتمة كان يشمّ عطرها الحساس مثل روح شغوف. وكانت عينا السي عليلة تنصرفان عن أوراق الشعر الذابلة لتتركز أحياناً على ذلك البياض الدافئ المثمل.

توقفت عربة عند باب السوق، ونزلت منها امرأتان تحجبتا على الطريقة الجزائرية. كانتا مدثرتين بفراجيتين بيضاوين وغطاءا رأسيهما البيضاوين يسمحان لعيونهما فقط بالظهور. دخلتا ببطء على إيقاع ردفيهما المتمايلين في الظل المعطر تابعتين الممر. وكانت الأولى التي يمكن تخمين أنها شابة، ممشوقة القامة طويلة، وكانت ترفع رأسها لتنظر بجرأة هادئة. وكانت نظرتها وحدها تبين منها، بطيئة وفاتنة في روعة العينين اللتين زادتهما الأجواء البيضاء بهاءً.

أما تلك التي كانت تتبعها باحترام تقريباً فقد كانت عجوزاً جداً.

توقفت الغريبتان أمام متجر السي عليلة، وبدأتا بلكنة غنائية مساومة خبيثة مليئة بالكلام المبطن والملامح الرهيفة. راق لطفها للسي عليلة.

سأل قائلاً:

ـ من أين أنت؟

ـ من مكان بعيد في الغرب. تونس جميلة والرجال فيها لطفاء، وعلى الخصوص عطاري السوق. لم أندم أني قدمت إليها.

وبنظرة طويلة أضحت جدية على نحو مفاجئ، ومليئة بالوعود، راكمت أمامها العديد من الأشياء التي اختارتها، ثم قالت:

ـ إجلب لي كل هذا هذه الليلة قرب ساقية الحلفاويين عند خديجة القسنطينية.

ابتسم السي عليلة، وبلطف أبعد اليد المخضّبة بالحناء التي مدّت له قطعة ذهبية . . .

رحلت الجزائريتان، وأخذ التجار الآخرون يتهامسون ويبتسمون بخبث.

قارن السي عليلة لون الجبهة الصافي الذي رمقه تحت الحجاب بلون الزهرة الكبيرة المتفتحة شيئاً فشيئاً في الحر الأشبه بلون جسد، ثم اضطربت نفسه من أعمق غرائز حواسه.

. . . ومن المنارة الطينية الخضراء نادى الصوت الحالم للمنادي لصلاة العصر، وحضر أطفال للحلول مكان التجار الذين دخلوا في مجموعات صامتة صغيرة إلى المسجد.

أحس السي عليلة المؤمن الصادق في نفسه قلقاً وأن روحه هائمة. دعا الله غير أن الهدوء لم يصله، وأصابته الأفكار النجسة بالاضطراب. ثم خرج غاضباً على نفسه وحزيناً. «من تكون؟ هل هي جميلة على الأقل؟ ولمَ كل هذا الاضطراب؟ كما لو أني عدت لأصير طفلاً، كما لو أني لا أعرف بأن الأمر مشابه في كل مرة!»

احتقر نفسه بسبب ضعفه، غير أن سعادة الأمر غير المتوقع على الرغم من أنها مألوفة، كانت أقوى من المنطق المستوحى من التجربة المبكرة، وفاجأ نفسه وهو يترقب حلول الليل نافِد الصبر.

كان هناك باب موارب في جدار عتيق تصدّع من القدم ونمت فيه بعض الحشائش. وكانت زنجية صغيرة جالسة على عتبة الباب ترقب مدخل الممر بابتسامة ثابتة كاشفة عن أسنانها البيضاء.

دخل السي عليلة وأغلق الباب بقوة. كانت الباحة واسعة وفيها ساقية يتدفق ماؤها وسط أربع أشجار برتقال ذات جذوع مائلة. وكان هناك درج طيني يقود إلى رواق ذي أقواس مسننة في الطابق الأول حيث كانت السماء الوردية تلقي رداءً صافياً كبيراً.

وفي الأعلى كانت الجزائرية جالسة على فُرُش غطيت بالزرابي. كانت ترتدي لباس بون، وهو عبارة عن فستان حريري دون كمين، وقد شدت وسطها بمنديل، وقميصاً بكمين واسعين جعلهما تطريز معدني يتألقان، وكانت تصفيفة شعرها مسننة مغطاة بمناديل ذات أهداب.

وكان وجهها مدوّراً لبنيّ البياض بملامح رقيقة من دون صبيانية، لكن بالنسبة للسي عليلة كان كل جمالها في عينيها اللتين أضاءتا قبل ذلك بروعة مجهولة الظل الأزرق للسوق الفاتر.

دعت السي عليلة بلطف وبشاشة ليجلس قربها، وقدمت المرأة الأخرى، المومياء العجوز المتيبسة، القهوة المعطرة بماء الورد.

بعد تبادل عبارات الأدب الدقيقة، وبعض الأسئلة العابرة حول حياتيهما، قالت البونية:[1]

ـ الملل هو ما طردني من بلدي، ودفعني لأسافر مثل رجل. أُخبرت بأن نساء تونس جميلات، وأنهن يشبهن مسحوق الذهب المنثور على الحرير. هل هذا صحيح؟

دنا السي عليلة منها مبتسماً، وهمس كما لو أنه خشيَ أن يسمع أحد ما يقوله:

ـ عندما تتفتح الوردة في الحديقة تذبل باقي الأزهار، وعندما يطلع القمر تختفي النجوم، وعندما تظهر مليكة تخفض بنات السلطان أعينهن وتشحب وجوههن.

كان كلام السي عليلة كأنه شعر عربي قديم، ومع ذلك فقد فهمت مليكة، فكشفت ابتسامتُها سعادَتها.

وكان السي عليلة يدرك بلطفه وتحفظه كيف يمنح نكهة خاصة جداً حديثهما المطول مثل عذاب لذيذ في الضوء الوردي الخافت للشفق الفاتر.

... وفي غرفة مبلطة بالطين يغلق بابها ستار خفيف، تذوق السي عليلة لذة مجهولة في تسلسل تصاعدي لاحتدام الأحاسيس الغريب وصولاً إلى حد الانتشاء.

... عند الاستيقاظ، وعندما دخل نور الصباح البهيج في الظل الفاتر، كان السي عليلة مدركاً على نحو واضح أنه صار شخصاً آخر، فقد اختفى الملل، وأحس

---

(١) من بون. المترجم.

قلبه مفعماً بفتور مجهول يصعد نحو روحه في سعادة، ومن دون سبب معروف.

خرج. ألقت الأشعة التي كانت ما تزال مائلة لمساتها على نتوءات البيوت العتيقة في عمق ظل أزرق. كان الهواء خفيفاً، وهبت نسمة لذيذة محملة بعطر لا يوصف مثمل من حياة الشباب والقوة.

نظر السي عليلة إلى تونس حيث ولد بدهشة شخص غريب. كيف لم يرها جميلة جداً ولطيفة جداً عند النظر إليها؟ لمَ لم تحمل بعد ليلة الحب تلك الغل المعتم والتعب الممل لكل الآخرين، والذي كان يجعله يتردد دوماً عند عتبات النساء؟

غير أنه تصلّب عند باب السوق، فقد تملّكه ملل كئيب واجتاحه غضب أخرس، وفقدان صبر أمام الحاجة لقضاء يوم آخر في ذلك المكان بعيداً عن مليكة. ومع ذلك كان عليه الرضوخ، فقد قُدّر للحياة الإسلامية أن تكون كذلك، مليئة بالتستر والغموض واحترام العادات القديمة، وعلى الخصوص، الخضوع الأبوي.

أضحى السي عليلة أكثر انغلاقاً على نفسه، وأكثر صمتاً مما كان عليه، حد أنه أمضى الساعات الطوال يعيد في نفسه عيش حركات تلك الليلة وكلماتها. وعند بعض الذكريات، كانت تصدر عنه قفزة تذكّر تجعله يرتجف حتى أعماق جسده.

ألقيت مليكة وهي ابنة فقيرة ومنهكة وذابلة منذ صغرها تحت رحمة الجنود والحمالين، وكبرت في الشارع القذر. وكانت تقتات على بقايا طعام الثكنة بواسطة الرجال ذوي السترات الزرقاء الذين كانوا يلقون إليها عبر النوافذ كسر الخبز. تسوّلت، وتجوّلت حاملة أطباق الكسكس التي كانت ترهق يدها الضعيفة من أجل زاد العمال. وعندما بلغت منحها جندي، ومن بعده آخرون، قطعاً بائسة ربحت بعناء تحت البردعة لقاء جمالها ورقتها.

انتبه إليها بعد ذلك طالب، وكان باش عدل في المحكمة التي تقضي بين المسلمين.

كان السي زيان ذكياً وبعيداً عن الابتذال بسلوكه، فقطف الزهرة الملطخة عند حافة الحفرة النتنة، وأعاد زرعها في مكان آخر، ليراها تتفتح تحت ناظريه في غموض بيت عتيق صغير في الأعلى، هناك قرب الحصون المنيعة. وضعها وحيدة تحت مراقبة تبورة عجوز الحب المتقاعدة اللطيفة جداً والطيبة جداً، مع أنها داهية وقهرمانة قاسية، وأحبت مليكة لأنها كانت تشبه ابنتها الميتة.

أمضت مليكة بصبر خلال حجزها ذاك الذي دام سنتين ساعات وحدة طويلة، لأن القاضي لم يكن يحضر إلا لماماً. غير أن مليكة اكتسبت من خلال تميزه والحديث العميق اللذين يختص بهما في الشرق الرجل المتعلم والمتكون في الخارج.

وقبلت من دون تمرد وفاء الزوجة الذي فرضه عليها السي زيان لأنها كانت منطقية، فقد كانت في منزل خاص، وكانت تبورة هناك لخدمتها وتسليتها، ولديها ملابس وحلي. وفرّت من الفجور الذي غرقت فيه أمها.

غير أن كل ذلك مر على نحو سريع، وانمحى، فقد وقع السي زيان مريضاً، ثم مات.

وهكذا فقد فُتح باب البيت العتيق الصغير كل ليلة، غير أن كل من كان يدخله كان يضع عمامة الطلبة. وسكن ظل الغموض المميز دوماً بيت مليكة حيث كانت تبورة، التي احتفظت بها، العجوز المنتهية المخلصة التي كانت تحب أن تحكي حكايات حبها الماضية لتلك التي كانت تعيش تلك الحكايات، في تعاقب دائم للأجيال.

أسفت مليكة على السي زيان الذي لم تحبّه غير أنها كانت تكنّ له الاحترام والخوف. فقد كان يحسن معاملتها كثيراً. وتعوّدت على الصمت والأمان بعيداً عن الأشياء غير المتوقعة المخيفة للرجل المختلف دوماً تقريباً في دخوله مع شفق كل ليلة إلى حياتها.

أضحت ثرية وسط شبيهاتها، غير أنه مع إشباع رغبة الارتواء في روحها التي تهذبت على نحو غامض وُلِد الملل.

وذات يوم أمرت تبورة بأن تضع ملابسها وسجاجيدها وحليها في صناديق كبيرة من الخشب المدهون ورحلتا باتجاه تونس الأسطورية بين المدن الإفريقية.



وكل مساء، بعد أن تغيب الشمس خلف مرتفعات باب الغورجاني، وعندما تقفل أبواب السوق، يقصد السي عليلة حي الحلفاويين، متستراً مهرولاً، وسالكاً العديد من المنعرجات.

وعند دنوّه من الساقية يطمئن إلى خلوّ المكان بنظرة في كل الاتجاهات ثم يقصد الممر.

ومنذ الباحة تكون ابتسامة مليكة أول درجة في سلّم المتعة.

ويصعد مُمسَك اليد مثل الأطفال الصالحين السلّم الأزرق، ثم يُرفع الستار الرقيق الذي يحجب الباب مثل غلالة خفيفة، فيعاودان إيجاد النشوة التي قُطعت بالأمس والمداعبات الكثيرة والألاعيب الفاتنة.

وتمضي الساعات والأيام في رقة ولذة تولدان من دون توقف تهدهدانهما وتبدوان كأنهما ستدومان إلى الأبد.

وشيئاً فشيئاً أخذ السي عليلة يتحدّى والده والناس الذين بدأوا يهتمون به مع تكرار تخلّيه عن السوق من أجل الذهاب إلى بيت مليكة.

بدا له كل شيء جديداً. كل شعاع للشمس معلّق على طرف جدار، وكل لحن صغير للستيترات الصغيرة، تلك النايات العربية التي تهمس قرب المقاهي حيث يحلم المرء. كل ذلك بدأ يأخذ لديه معنى خاصاً، وبدا كأنه يذوب في تناغم لذته ويبدو في انسجام تام معها.

فهِمَ في تلك اللحظة السي عليلة المتفاجئ والمفتون عالمَ الرؤى البهيج والشمل الذي تحدث عنه شعراؤه المفضلون، والذين لم يكونوا له من قبل إلا موسيقى ماهرة، فأضحوا التعبير الأصدق لروحه.

وكانت مليكة تحب.

وفي بطء الأيام أخذت تعد الساعات، وعندما يتأخر السي عليلة قليلاً كان قلبها ينقبض بخوف أليم، وتشعر بغيرة غامضة في روحها أكثر حدة وأكثر وحشية.

وكانت الحدة الغريبة وشغف الكائن الشاب الذي كان عليه السي عليلة جديدين على مليكة. ولم يكونا يشبهان التسلط الهادئ للطالب غير المتأثر، والحب العابر للمتهتكين الآخرين. كانت تلك هي الحياة الحقيقية الكثيفة حد العنف، والتي أخذت تتكشف لها مع أنها لا تكاد تعيها.

لم تكن تفكر، ولم تشعر إلا على نحو أكثر حدة، ومن دون شك، أن حب عليلة الأكثر وعياً كان أقل حدة لأنه أبعد ما يكون عن الطبيعة.

وذات ليلة كان بدرها ممتلئاً نقلا بنزوة انتشاءهما إلى السطح الذي كان يحميه

جدار من الأعين الفضولية، وعلى نحو غريب جداً، شعرا بحزن كبير، حزن أسود من دون سبب جلي، فأخذا يبكيان مثل طفلين خائفين أحدهما في حضن الآخر، بيأس... وعندما انتهيا من ذلك تبادلا النظر مستغربين، ومرت هبّة الرعب تلك الليلة فوق لذتهما.

... وتلت تلك الليلة أيام انتظار أخرى، تعد ليالي النشوة. وفقد عليلة إحساسه بالوقت وبالواقع. وأضحى حبه كل حياته، وما عاد يستطيع وصف حياته من دون أن يدين بالاعتراف لما بدا له جوهرها.

وكان السي حسين والد عليلة يمضي أيامه الصافية يلقّن مبادئ الإسلام في الباحات الداخلية لجامع الزيتونة بعيداً عن ضجيج الحياة العصرية.

اعتزل السي حسين الهادئ والثابت مثل حكيم الناسّ. وأراد السي حسين باللامنطقية البريئة الموحدة لكل الآباء أن يغدو ابنه مثله تماماً. أراد جعله على الطاعة المطلقة للقوانين الأخلاقية للإسلام بقسوة شديدة.

وسرعان ما لحظ الشيخ تصرفات ابنه وشرع في مراقبته. علم سر عليلة وخلوة الجزائرية. وفي ذلك اليوم مضى السي حسين من دون أن يتفوّه بكلمة لابنه إلى الوزراة وتحدث إلى عمه وزير القلم.

وذات ليلة قصد عليلة الحلفاويين بقلب مقبل على مباهج الحياة بالهدوء العجيب للشخص الذي حُدد مصيره، والجاهل بكل شيء.

عندما رأى الباب موصداً تفاجأ وانقبض قلبه من توه. طرق الباب، وبدا له صوت المطرقة الحديدية وقد تغير وأصبح حزيناً.

فتحت له صاحبة البيت العجوز الباب. كانت عيناها حمراوين، وكانت تئن.

ـ آه يا سيدي، يا سيدي! لقد رحلت. حضر هذا الصباح رجال من الوزارة، ورجال الشرطة واعتقلوها. أخذوها من دون أن يقولوا لماذا أو إلى أين؟ وأخذوا متاعها. آه! ارحمنا يا رب! رحلت لالة مليكة!...

دفع السي عليلة العجوز، ومعذباً من دون أن يتمكن من التفكير ترك نفسه يجلس على حجر.

قال وقد أحس غضباً معذباً يجتاحه:

ـ كيف رجال من الوزارة؟ لكن لماذا يا ربي؟ آه! إنه والدي! لا شك أنه تبعني. آه! الآباء الذين يعتقدون أنفسهم صالحين وهم وحوش!

ما الذي كان باستطاعته، وهو بعد شاب خاضع للقوة الأبوية المساعدة بوزارة الباي وللإقامة. لأن مليكة جزائرية وبالتالي فهي من الرعايا الفرنسيين، وما كان لها أن تعتقل إلا بموافقة السلطات الفرنسية. ولماذا؟ ماذا فعلت؟ كيف تمكن والده من الحصول على مساعدة الروميين؟ وما الذي بقي للعمل إزاء أولئك الناس الذين لا يحفلون بسعادته وإرادته وحياته، والذين كانوا أقوياء جداً؟

وتساءل بأنانية من يعاني عما سيؤول إليه من دون مليكة؟ وفجأة ترك السي عليلة ذلك البيت الذي بدا مظهره ممزقاً، وقد اجتاح روحه ألم شديد، وانطلق في المتاهة الصامتة للشوارع العربية حيث أخذ يتسكع الليل كله. ومنذ الصباح شرع في البحث عن مليكة سائلاً رجال الشرطة... وحيثما توجه كان يصطدم بالجواب عينه أنه ما من معلومات تقدم له حول امرأة لا تربطه بها صلة.

كانت أياماً طويلة مليئة بالعتمة والخوف حيث تتوالى الحلول الأكثر تناقضاً في نفس السي عليلة.

أخيراً، لما شك أن مليكة قد تكون طُردت من تونس، قرر الرحيل والفرار من تونس التي بدأت تبدو له بشعة والمضي إلى هناك، إلى الغرب بحثاً عن عشيقته، غير أن عقله فرض عليه اعتراضاً: إذا صح وطُردت، لماذا لم تكتب له إذن؟

غير أنه أراد الفرار مع ذلك من الجمود الذي لا يطاق والذي يمزق طاقته ويوهن قواه.

كان الدكان ملكاً لوالده، ولم يكن للسي عليلة إلا مئات الفرنكات في خزانته، إلا أن السي عليلة لما أضحى من دون هواجس باع كل ما كان يملأ الدكان لأحد يهود الحارة.

وبما حصّله من بيعه رحل إلى بون، حيث باءت كل أبحاثه بالفشل، ذلك أن أحداً لم يرَ المرأتين منذ رحيلهما إلى تونس.

لم يستطع السي عليلة إلا أن يتأمل بحزن أليم بيت تبورة الصغيرة الذي تم تأجيره إلى قبايليين، ذلك البيت الذي ولد فيه جمالها وازداد روعة.

ولما تذكر السي عليلة أن مليكة سبق أن حدثته عن قريبة للعجوز تبورة تقيم بالقسطنطينية رحل إلى هناك.

وهناك انتهى من إنفاق القليل من المال الذي تبقى له فألفى نفسه من دون مال، وهكذا قبِل أن يذهب إلى زاوية في الجنوب ليعلم القواعد والقرآن.

مضت سنتان، وكان لا يزال يتألّم على الرغم من بعض المحاولات التي قام بها وقد تصلّبت إرادته إزاء الألم الذي كان يعذبه، ولم تمح أبداً صورة مليكة الفاتنة من مخيلته.

وذات يوم عبرت بخاطره فكرة العودة إلى بون، وتملكت روحه، وراح يعترف للصوفي المهيب شيخ الزاوية الذي منحه وسائل العودة إلى بون.

وما إن وصل السي عليلة حتى التقى بصفاقسي، وهو زميل قديم له انخرط في الجيش بعد سني شباب عاصفة. كان السي عبد الرحمن صديق طفولة السي عليلة الوحيد، وقد اعترف له الشاب بينما كانا يمشيان ببطء في الكورنيش المتعرج المرتفع أعلى البحر.

أضحى الرقيب شاحباً وتكدر وجهه. بدا كأنه يفكر، ثم قال:

ـ عليلة يا أخي... أنت تتألم. تعذبك الحيرة. لو كانت ميتة الآن، هل تستمر في العذاب هكذا؟

ـ صحيح أن يقين الشخص المحكوم عليه بالإعدام أفضل من خوف المتهم.

ـ وإذن فقد شاء القدر أن أكون أنا من يُعلمك. سأخبرك الحقيقة.

كانا قد توقفا، فأمسك عليلة القلق يد الرقيب.

ـ عادت مليكة إلى بون بعد رحيلك بوقت قصير. كيف أمكنك أن ترحل على ذلك النحو؟ لو بقيت في بون لكانت التقتك، ولكنتما سعيدين.

ـ لكن قل، أين هي الآن؟

ـ عليلة، توفيت مليكة. نحن الآن في شهر ذي القعدة... وفي شهر محرّم، أي بعد شهرين، تكون قد مرّت سنة على ذلك.

نظر عليلة إلى الرقيب. لم تراوده أبداً فكرة أنها قد تكون ماتت، هي المليئة بالحياة وبالشباب. تشبّث بأمل ضعيف:

ـ هل أنت متأكد؟

ـ مليكة العشيقة السابقة للسي زيان الباش عدل التي كانت تقطن قرب الحصون رفقة العجوز تبورة، والتي رحلت إلى تونس؟ إنها هي... وبحكايتك فهمت نوع حياتها هنا، ونهايتها...

ـ إحك لي كل شيء دون أن تراعي شيئاً، مادامت قد ماتت، فقد انتهى كل شيء. ما فائدة ذلك!

اجتاح فراغ كبير روح عليلة، وصار بلا هدف وبلا سبب للعيش ومن دون فائدة للحياة، غير أنه أراد أن يعرف. بدا له أنها ستعيش نوعاً ما في قصة الرقيب. هل حصلت لها أشياء مخيفة خمنها بغموض؟

ـ إسمعني إذن. وشى بها أحدهم في تونس للوزارة وللإقامة. لم تكن تملك إذن السفر، ولم تسجل لدى الشرطة فحُبست وسُجنت تبورة أيضاً بتهمة المشاركة. بقيتا في السجن ستة أشهر وكان فظيعاً... ثم طردتا. وقد عادتا إلى هنا ولا شك أن مليكة كتبت لك في تونس. كن أكيداً من هذا، غير أنك كنت في ذلك الوقت في القنسطنطينية أو في الجنوب. هذا قضاء وقدر!

ولما كانتا تملكان المال فقد عاشتا منعزلتين. وأعلم من مصادر موثوقة بأن مليكة لم تستقبل أحداً في بيتها ولم تغادره أبداً. ثم حل عليهما البؤس. لا شك أنهما فتحتا باب بيتيهما غير أن مليكة أبعدت عنها دوماً كل الطلبة وكل الرجال المتعلمين، وغير المبتذلين قليلاً، وأتت لتقيم قرب الثكنة، وأضحى رجالنا زبناءها المعتادين، إضافة إلى الحمالين. بدأت تشرب على نحو فظيع. كانت تشرب الأبسنت الخالص. وعندما تسكر كانت تبكي وتشتم رفاقها العابرين باصقة في وجوههم كراهية واحتقاراً. كان ذلك يبدو غير مبرر.

همس عليلة الذي انقبضت ملامح وجهه على نحو أليم:

ـ كانت ماتزال تحبني!

ـ والحقيقة أنها كانت تتجنب استقبال الرجل نفسه أكثر من مرة، وعندما يتحدث إليها أحدهم عن الحب مفتوناً بجمالها وسحرها كانت ترد مقذعة الشتائم.

رمى عليلة صديقه بنظرة طويلة ثاقبة:

ـ عبد الرحمن... طبعاً ومثل كل الآخرين، ذهبتَ لزيارتها.

ـ أجل، اعذرني يا أخي لأني أخبرك بكل هذا، لكنك أردت معرفة كل شيء!

ـ ما فائدة ذلك الآن! لقد ماتت في الألم، لأنك أنت نفسك تقول بأنها كانت تتعذب. انتهى كل شيء... لن أتمكن أبداً من رؤيتها وطلب الصفح منها!

ـ لقد كانت لك حتى اللحظة الأخيرة. عندما مرضت في صدرها وأدخلت المستشفى رأى الأطباء أنها ستموت، فقد أرهقها الكحول وكانت معرّضة من قبلُ للسل الرئوي. وفي غضون ثلاثة أو أربعة أشهر كان كل شيء قد انتهى. لم أحضر لحظاتها الأخيرة، لكني ذهبت لزيارتها في المستشفى في العديد من المرات.

وكان عليلة منذ بدء ذلك الحديث المعذب واللطيف مع ذلك، لأنه يدور حول مليكة المحبوبة حتى قبرها، ينظر إلى صديقه من دون وعي تقريباً، وبدأ يفهم.

وفجأة قال من دون غضب ومن دون غيرة:

ـ كنت تحبها أنت أيضاً!

أحنى الرقيب رأسه، وبارتعاشة في صوته همس:

ـ أجل، أحببتها. قمت بالمستحيل لانتشالها من الشارع، غير أني لم أتمكن من ذلك. كانت تصدني دوماً بغضب، ولا تريد أن تراني إلا كزبون يدفع. وعندما أصررت كثيراً رجتني ألا أعود أبداً، ولم أرها إلا في المستشفى وهي تحتضر. أنا من دفنها. فلنذهب إلى قبرها. لعلك لست غاضباً مني؟

ـ آه! كلا، أحبك أكثر لأنك أحببتها، لأنك تمكنت من تمييز الجوهرة المدنسة داخلها، والتي داستها الأقدام، غير أنها ظلت جميلة دوماً وقيّمة. أخبرتك بذلك من قبل والأمر سيّان لدي الآن... لا أستطيع القيام بشيء، ولم يعد هناك ما يُنتظر...

أحس عليلة تعباً شديداً وتقززاً عميقاً من الأشياء. بدا كأن الإرادة تكسرت داخله، وكأنه أيضاً يوشك أن يموت...

ـ أرني غداً يا عبد الرحمن أين يذهب المرء للانخراط في الجيش.

قرر ذلك فجأة، وكان ذلك في الواقع إذلالاً لشخصه. لم يعد له ما يصارع من أجله ليعيش، ولا شيء ليأمله أو ليرغب فيه. سيكون آلة غير مبالية وجاهلة وشخصاً عادياً.

وعلى مدى سنة تقريباً، وكل مساء، وعندما تغيب الشمس الذهبية خلف القمم المعتمة لجبل إيدو الكبير الحزين، ويعتم وادي بون وتلاله في أبخرة الشفق البنفسجية

كان رجلان يرتديان سترة الجنود الزرقاء يصعدان باتجاه قمم الخروب، تابعين طريق الكورنيش حيث يزمجر البحر في الأسفل عند الصخور السوداء...

ومن اللطف الثقيل بعض الشيء والشحوب الأرستقراطي للطالب عليلة لم يحتفظ الجندي علي إلا بسُلوك متميّز جداً. كان كثير الصمت ومنغلقاً، ويفر دوماً من الاختلاط بالناس إلا من صحبة الرقيب عبد الرحمن...

وهكذا كان يصعد حبيبا مليكة إلى المقبرة الإسلامية فوق تل منيدة المهيمن على الخليج الكبير الدائري وسط التلال الخضراء والبساتين.

وكانا يجلسان هناك قرب القبر الطيني الأزرق الصغير محتفظين بالصمت في تذكرات مختلفة.

ثم رحلت حاميتهما العسكرية، ولم يعد هناك شخص يأتي لزيارة قبر مليكة.

وحدها رياح البحر كانت تأتي لتهدهد الطين الأزرق، وتهمس في الأعشاب البرية، وفي الأوراق الصلبة لأشجار السرو السوداء.

ملاحظة

الإقامة الثانية لإيزابيل إبرهارت في المغرب بداية صيف سنة ١٨٩٩. توفي ألكسندر تروفيموفسكي قبل وقت قريب، وأضحت «قاصرته» حرة في الذهاب إلى تونس للالتحاق بصديقها علي بن عبد الوهاب، في محاولة منها لاتباع «حلمها بالشرق القديم» مثلما كتبت في ساعات تونس. (كتابات على الرمل. الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. غراسي. ١٩٨٨)

أحضرت إيزابيل إبرهارت من أعلى أحياء المدينة موضوع هذه القصة الطويلة التي ظهرت بعد ثلاث سنوات على حلقات في أخبار الجزائر (٢٧ و٢٨ و٢٩ آب/أغسطس ١٩٠٢).

حكاية الجندي لم تنشر مرة أخرى لأن إيزابيل إبرهارت كتبت رواية أخرى لها أكثر تكثيفاً، واختار فيكتور باريكون أن ينشرها تحت عنوان بلد العطر في الكتاب الذي نشره تحت عنوان في ظل الإسلام القائظ (فاسكيل ١٩٠٦) وقد صحّح النص واقتطع منه. تمكنا من نشر النص الأصلي بفضل مخطوطات صندوق إيزابيل إبرهارت في أرشيفات أوتر مير (إكس أون بروفانس) وهو النص الذي ننشره هنا كرواية أخرى.

رواية أخرى: بلد العطر

في أحد أحياء تونس العتيقة، وقريباً جداً من مسجد الزيتونة ـ جامع الزيتونة ـ حيث يتنفس كل شيء الماضي الصافي والإيمان الراسخ، منطقة صغيرة خلابة مليئة بالظلال تفوح منها العطور الأكثر عذوبة. هي سوق العطور، حيث بعض الشوارع المقببة بأعمدة من الجذوع الحمراء والخضراء، والطرقات الظليلة المليئة بالغموض والإشارات إلى الماضي الميت.

وتفتح إلى اليمين وإلى اليسار دكاكين العطارين مثل خزائن صغيرة، حيث يجلس المغاربة بوجوههم العسلية ببياض مرضي وبنظرات ناعسة بفعل الروائح المثملة.

وكان من بينهم السي الشاذلي بن الساحلي ابن تقي وفقيه علامة بجامع الزيتونة، وكان أصغرهم وأوسمهم.

وكان السي الشاذلي يحب أن يتانق في لباسه، أناقة تونس الرزينة حيث الأثواب الحريرية ذات الألوان الباهتة وتداخل ألوان كثيرة اللطف.

وكان السي الشاذلي يزجي سحابة يومه مستنداً بلامبالاة إلى صندوق ثمين من الصدف، ويقرأ الكتب العربية القديمة حيث الروايات والشعر. ومن باب دكانه كان يمكن أن يلاحَظ فنجان قهوة معطرة بماء الورد موضوعاً على طاولة صغيرة أمامه وغليون الشيرا. وفي وعاء شفاف من الخزف الأزرق الدقيق من إسطانبول وضعت زهرة منغولية كبيرة وسط أوراقها الأربع السميكة والملتمعة.

وكان أصدقاؤه في السوق الذين لم يكن يختلط بهم، ويبدو أنه كان يحتقرهم بعض الشيء، يقولون له باستمرار:

ـ بمَ تفكر يا السي الشاذلي؟

ـ أفكر بأن كل السعادة البشرية ما هي إلا وهم، وبأنه ما من شيء سيرضيني.

وبعد هذا الرد الذي لم يكن يتغير أبداً يلزم السي الشاذلي صمتاً مخيباً.

*

وذات يوم، توقفت عربة عند مدخل السوق، ونزلت منها سيدتان محجبتان، تضع إحداهما غطاءً أبيض، في حين كانت الأخرى تضع غطاءً أزرق معتماً. ولجتا الظل المزرق للسوق، واقتربتا من دكان السي الشاذلي.

لحظ الشاب أنهما غريبتان لأنهما كانتا تضعان الفرجية والطاقية المحددة المائلة الخاصة بالقسنطينيات.

جلست الاصفر، وكانت بيضاء، على المقعد المنجد وشرعت في الحديث بلكنة مغردة كعصفور.

وبعد أن لعبت أصابعها الطويلة والرقيقة المخضّبة بالحناء بالقوارير مختلفة الأشكال والصناديق العاجية وكرات التبخير المعطرة، وبعد أن ساومت بأسعارها، قامت وقد جعلت الأشياء التي اختارتها كومة صغيرة، ثم قالت:

ـ أرسل لي هذا إلى بيت لالة حنيني بالحلفاويين.

ـ لماذا لا تأخذينه الآن؟

ركزت المغربية عينيها السوداوين الواسعتين والمكحلتين على السي الشاذلي، وابتسم... فقد فهم.

ـ متى؟

ـ هذا المساء، بعد المغرب.

انتظر السي الشاذلي بنفاد صبر ساعة الدخول إلى المسجد من حيث خرج غاضباً على نفسه لانه كان ورعاً، فقد صلّى مسرعاً تضطرب نفسه بالمشاعر النجسة.

كان انعكاس الغروب الاحمر ما يزال يضيء قمة المدينة من جهة باب الغورجاني، وعمّ تونس هدوء مخدّر كبير.

ونزل السي الشاذلي المدثر ببرنسه بسرعة كبيرة باتجاه الحلفاويين.

دخل ممراً مقبباً، وتوقف أمام باب منخفض على نحو لا يصدق. وترددت المطرقة الحديدية الثقيلة بشكل غريب في البيت القديم الذي اجتاحته الحشائش.

صرخ صوت مرتعش وهرم:

ـ أشكون (من هناك)؟

ـ حل. (افتح) !

ولا يلفظ العربي أبداً اسمه في الشارع، حتى أمام باب بيته.

فتح الباب، وظهرت خلفه عجوز تضع فوطة زرقاء مثل ما تضعه التونسيات الفقيرات.

ـ هل قدمت من سوق العطارين؟

ـ أجل.

قادته عبر باحة كبيرة زرعت فيها ثلاث أشجار ليمون. وفي أحد الاركان، عند رواق الطابق الأول، كان قماش من الحرير القرمزي مشدوداً.

ـ هناك، اصعد!

وصل السي الشاذلي إلى الرواق عبر سلّم طيني أزرق. هناك تكدست المرتبات

الصوفية المغطاة بالقماش على زربية سميكة من الجريد، وأغطية حريرية ذات ألوان فاتحة، ووسائد مغلفة بالحرير القديم، طُرّزت عليها أزهار وعصافير حلم من الذهب الباهت. وفوق ذلك السرير كانت امرأة جالسة ترتدي قميصاً أبيض من الشاش بكمين واسعين متلألئين، وقفطاناً من المخمل الأزرق والذهبي، والعديد من الفندورات الحريرية، كان آخرها بنفسجياً. وكانت تضع على رأسها شاشية محددة مغطاة بمناديل ذات أهداب حيث علقت سلسلتين ذهبيتين جمعتا أسفل ذقنها مضيئتين وجهها الكامد بوميضهما.

ـ مرحباً بك... إجلس.

كانت جميلة ذلك الجمال المرهف الذي يتسبب في شعور حاد ولذيذ حد الرهبة.

جلس المغربي جوارها وجلبت عجوز مغربية القهوة المفروضة في صينية من النحاس المصقول.

سألت العجوز مطلقة ضحكة من فمها الادرد:

ـ هل النساء ببلدك تونس أجمل من منوبية؟

ـ ليس هناك أجمل منها في العالم... إنها الوردة المختفية وسط الأوراق.

ـ أنت أيضاً وسيم.

كانت منوبية تلعب شاردة بمروحية مطرزة، وفيما تصدر دمالجها صوتاً خفيفاً عند كل حركة. لم تكن لها وقاحة مومسات تونس. وعلى الرغم منه لم يكن السي الشاذلي يتحدث مثلما كان ليفعل مع أخرى. كان يخشاها تقريباً.

قالت:

ـ إسمع، ذهبت لاشتري العطور كي اتسلّي... ولكن عندما رأيتك اشتهاك قلبي. والآن أنا خجلى منك. لماذا؟

ـ لكن من أنت؟ ومن أين أتيت لتقلقي هدوئي الحزين؟

ـ وطني بون، لكني كبرت بالقنسطنطينية عند خالتي، شقيقة أمي. قدمت إلى هنا لأن الملل أصابني.

تجرأ الشاذلي، واستند إلى فخذي منوبية، وهمس وهو يقترب قليلاً منها:

ـ كلا، قدمت كما تأتي الحمامة عند نداء طائر الورشان. ناديتك فحضرت.

اهتز جسد البربرية الفاتر بقشعريرة طويلة وكان يصدر عنه عطر فريد أصاب الشاذلي بالاضطراب. أحس نفسه خائر القوى، ودارت رأسه وتساءل متفاجئاً عن مصدر الخوف المجهول الذي كان يشعر به والثمل المعذب واللذيذ في الآن نفسه.

كانت العجوز قد اختفت وبقيا هناك في صمت وسكر الليل الذي حل مادّاً بشكل لا ينتهي احتضار الرغبة العذب.

ضغطت جسدها على صدر الشاب المبهور وأخذ يضمها إليه شيئاً فشيئاً، حتى الإغماء النهائي بعيداً عن عالم الواقع.

*

ومنذ ذلك اليوم هجر السي الشاذلي دكانه مراراً، ونسي فتح كتبه القديمة. كان يعيش في قلب حلم.

وكان السي الشاذلي في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً، وكان قد ذاق كل الملذات وكل النشوات بامتلاء حد الشبع، ولم يشك يوماً أبداً أن الحب يمكنه أن يمنح انتشاءً مماثلاً، وأن يغير على ذلك النحو كل مظاهر الكون مثلما يحدث في الحكايا.

منحته الطبيعة احتفالاً عندما سلك طريق الحلفاويين مع حلول الليل. وفي الصباح حين كان تعباً وحزيناً وبدت له الطريق باتجاه الحمام قبل الصلاة وكأن غطاءً من الحداد يلقى على الاشياء.

ولم يشأ أن يبوح لأحد بسره، وكان الجميع يتساءلون ما حل بالشاب؟

فكان يُقال في السوق:

ـ إنه مجنون.

وكان آخرون يقولون:

ـ أضحى مسلولاً.

غير أن الشيخ مصطفى الساحلي الصارم لحظ التغيير الجذري الذي حل بابنه، وأمر بمراقبته جيداً. وذات يوم انكشف للشيخ سر عزلة منوبية...

وفي المساء، عندما حضر السي الشاذلي ليطرق الباب، فتحت له العجوز التونسية الباب حزينة، فقالت:

ـ أخذها اليوم يا سيدي رجال الباي، هي والعجوز تبورة، وقادوهما إلى المحطة لإرسالهما إلى الجزائر.

بقي الشاذلي جامداً كما لو أنه في قلب حلم عميق، ثم دخل إلى الباحة البيضاء الخالية، وصعد ليلفي الغرفة والرواق فارغين. عندئذ صرخ وقد أحاق به الغضب والألم فجاة قائلاً:

ـ أقسم بالله العظيم وبرسوله! أقسم بالشيخ السعيد سيدي مصطفى بن عزوز، سيدي في هذا العالم وفي العالم الآخر... بأني سأجدها.

*

بحث عن أثر لها طويلاً وبصبر. وأخيراً علم عن طريق بعض أصدقائه بأن منوبية عادت إلى بون حيث تعيش مثلما يقال حياة المومسات.

لم يعد يعرف قلب الشاذلي أي راحة فقد اقسم بأن يجدها. وهكذا ذهب ليلحق بها مهما كلف ذلك من ثمن. غير أن السي الشاذلي لم يكن يملك شيئاً ما دام والده حياً. وعبثاً توسل إذناً بالرحيل.

وهكذا هجر دكانه، ولازم مقابر وخرابات الضواحي.

وذات يوم لم يعد. وعبثاً بحث عنه والده في كل مكان. ظل السي الشاذلي غير موجود، لأن أحد أصدقاء طفولة الشاذلي منحه بدافع الشفقة ما يلزم للذهاب إلى القنسطنطينية، وإلى بون، فرحل الشاب.

ولمدة طويلة بحث السي الشاذلي عن معرفة ما آلت إليه منوبية في الشوارع العتيقة لعنابة البيضاء، ومقاهيها المغربية.

انقضت سنة تقريباً منذ اختفاء منوبية. وذات مساء التقى الشاذلي في مقهى بباب الواد أحد أصدقائه القدامى الذي أضحى رقيباً في الجيش بعد مرارات عديدة. ولما كان الشاذلي تعباً من الألم ومن الصمت، فتح له قلبه.

ـ منوبية بنت الخروبي؟... أعرفها.

ـ ما الذي آلت إليه؟

ـ فليرحمها الله!

بقي الشاذلي مرهقاً محطماً. أحس نفسه في تلك اللحظة وكأن باب زنزانة أقفل من دونه وأنه لن يتركها أبداً.

وكان لما هجر بلده وعائلته وثروته قد صار متشرداً، إذ بحث عن صديقته سنة كاملة، لاهثاً مجنوناً... وحضر إلى هناك ليعلم أنها ماتت!

ـ لكن، متى ماتت؟

ـ في بون حيث عادت من الجزائر منذ حوالي شهر. يقال بأنها أخذت تسرف في الشرب منذ عودتها من تونس. توفيت مصابة بداء في صدرها.

ـ ألا تعرف قبرها هناك يا علي؟

ـ كلا، لكن ابنة أخت تبورة الأخرى هونية ستريك إياه... توفيت تبورة أيضاً.

*

انحدرت الشمس العظيمة خلف القمم الزرقاء لإيدو الكبير الحزين محرقة المرتفعات المحيطة به والتلة المقدسة حيث زرعت أشجار السرو السوداء العالية والكرمات ذات الأغصان الصلبة والنحيلة.

وهناك، أسفل الحجارة المنحوتة ذات الألوان المختلفة واللطيفة، كان المؤمنون يرقدون في نوم القبر الذي يتعذر وصفه.

لم يكن هناك شيء في تلك المقبرة المليئة بالأزهار والكرم والجنبات محزناً أو كئيباً، حيث كل القبور من الطين والرخام الأبيض وعليها مسحات فرح. كان كل شيء فيها يتنفس الهدوء المهيب المطلق والخضوع والإيمان الراسخ وعزاء الآخرة.

وأمامها، وفي أشعة الغروب الحمراء امتد الخليج الساكن العظيم بلون وردي مائل إلى الأبيض المخدد باللونين اللازوردي والذهبي عاكساً السماء الغارقة في الصفاء.

الزاوية

كنت أحضر كل صباح في ساعة شروق الشمس أسفل سقيفة زاوية سيدي عبد الرحمان بالجزائر.

كنت أدخل الزاوية المقدسة وقت الصلاة. وكان يساعدني في ذلك تنكري...

والغريب أني كنت أشعر هناك في الظل القديم لذلك المسجد الإسلامي المقدس بأحاسيس يصعب وصفها عند سماع صوت الإمام المرتفع والقوي يردد الأدعية القديمة للإيمان الإسلامي باللغة العربية الجميلة، الجهورية والرجولية والغنائية والقوية مثل رياح الصحراء حيث ولد ومن حيث أتى بدافع من الإرادة البشرية وحدها، لفتح نصف العالم...

كنت أنصت إلى تلك الكلمات التي كنت أفهمها بعد وقت قصير وأحبها...

وكنت أنظر إلى الإمام. كان شيخاً طاعناً في السن قدم من الجنوب. كان عربياً خالصاً، ويمثل عرقاً قديماً من دون الاختلاط بالدم البربري. كان ناصع البياض بعينين واسعتين واهنتين لكنهما ما تزالان سوداوين.

وكانت عيناه تضاءان أحياناً بالتماع قوي مثل شرارة حية بهبة مفاجئة ثم تعودان لجمودهما الثقيل الذي يصيب بالاضطراب.

وعلى العموم، لم يكن هناك الكثير من الناس.

وكان من بينهم مؤمنون خلّص ومقتنعون بدا أنهم يتشربون بانتشاء كلمات الإمام...

وكان أحدهم على الخصوص يبدو متحمساً. كان مزابطياً في حوالي الأربعين من العمر من النوع البربري البارز جداً. كان سبّاخاً[1] في جبل المصطفى يدعى يوسف بن

---

(١) السبّاخ: زارع البقول في السبخات. المترجم.

العربي. وكان يصل إلى المسجد كل يوم في الوقت الذي أصل فيه. وفي النهاية بدأنا نتبادل السلام الودود جداً.

وخلال كل فترة الصلاة كان الرجل يبدو متأثراً جداً... فكان يغدو شاحباً، وتلتمع عيناه بغرابة بينما كان يعيد، من دون تسرع العديدين، الحركات المكرسة للصلاة.

وعند خروجه، وبعد أن ينتعل نعليه الباليين، كان يمنح دوماً أطفال الأهالي المتسولين بعض الصولديات...

أما أنا فقد كنت أجلس عند عتبة الباب بعد خروجي ورحيل الجميع. وكنت أشعل سيجارة من نوع «الشرق»، واضعة ساقاً فوق أخرى، أنتظر الحبيب الذي لم يكن يتخلف أبداً عن الحضور إلى المكان المختار.

وكان يتعيّن عليّ الوصول إلى الزاوية إذا ما أمضيت الليلة في بيتي الرئيسي برصيف الصيد بعد أن أمر في البداية على غسالة إيطالية تدعى روزينا مينوتي، وتسكن في قبو حيث أغيّر ملابسي النسائية بالزي المضحك الموافق لخططي لبقية اليوم، ثم أمضي إلى الزاوية ببطء.

وخلافاً لذلك، وإذا ما أمضيت الليل أتجول من دون حذر في الأحياء الخطرة أو في مكان آخر من أماكن إقامتي في المدينة العالية أو بباب الزون، كان يتعين عليّ سلك طرق مختصرة عجيبة.

وكنت أتوقف لدى مغنية بحي سيد عبدالله، ومرة أخرى بشارع السي رمضان، لدى اليهود...

أما المحطة الثالثة فكانت في مكان مجاور لمسجد قصبة بريوي العتيق الذي أزيل وتحول إلى كنيسة مسيحية.

وكان لديّ الحق في طلب الكرم لدى فحّام سوداني أسود في باب الزون، عندما أستحسن أمر الابتعاد أكثر. لكن في غالب الأحيان كنت أمضي الليالي في جولات خطرة بشكل عجيب أو في الأماكن البائسة حيث أتأمل المشاهد الغريبة التي ينتهي العديد منها في الدم المراق بغزارة.

كنت أعرف الكثير من الأشخاص الفاسدين والمشبوهين والفتيات والمجرمين المحكوم عليهم سابقاً، والذين كانوا جميعاً موضوع ملاحظة بالنسبة لي وتحليل

نفسي. وكان لي أيضاً العديد من الأصدقاء الموثوقين الذين وجّهوني إلى غموض الجزائر الشهوانية والمجرمة.

وعندما كنت أمضي ليلتي في ملاحظة مماثلة كان عليّ الذهاب إلى الزاوية صباحاً من أماكن بعيدة جداً في بعض الأحيان...

وكانت الشمس تضيء كل الساحة المتألقة وأشجار بستان المارنغو. وكانت السماء دوماً بصفاء غير محسوس، وبشفافية حلم.

وكان البحر يتألق بالضوء الأبيض الصافي، والذي كان ما يزال وردياً بفعل انعكاسات السماء الصباحية. وتدب الحركة في المرفأ، وفي الأسفل، في باب الزون، وفي شارع الجمهورية، وعلى جسر خير الدين كان حشد متداخل الألوان يتحرك في سيلين باتجاهين متعاكسين.

كنت أستريح في تلك الساعة اللطيفة والبهيجة بشكل مدهش، فقد كانت روحي تبدو وكأنها تسبح في الفراغ الساحر للسماء المفعمة بالضوء وبالحياة.

كانت ساعات سعيدة جداً، ساعات من التأمل ومن السلام، وتجديد كل نفسي، ومن النشوة والثمل أشبه بتلك التي أقضيها جالسة على تلك الدرجة الحجرية متفكرة في الظل الرطب لتلك الزاوية الجملية الهادئة. كانت لحظات لذة حقيقية ومحتدمة، ولحظات شباب وحياة!

وكنت أبقى أحياناً جالسة لفترة طويلة من دون أن أفقد صبري، وهادئة دوماً. وكنت أعلم أني أصل دوماً قبل الساعة المحددة لأنصت إلى الصلاة.

وفي النهاية، كنت أرى من الجانب الآخر للساحة جسد أحمد الطويل والنحيل.

كان يراني هو أيضاً، ويلوّح لي بيده اليمنى، وكان يأتي مهرولاً مبتسماً دوماً، وفرحاً دوماً، وكانت عيناه تنظران إلى عينيّ برقّة لا تتغيّر دوماً، ثم يقول محافظاً على ابتسامته الجملية:

ـ أيها المسلم الصالح! أنت هنا وتأخرت مرة أخرى! سلام عليك يا معشوقتي الحبيبة[1]!

---

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة من قبل الكاتبة في النص الأصلي. المترجم.

وكان يجلس جواري، ويبدأ في إشعال سيجارته الدائمة من سيجارتي، ثم نشرع في حديث لا ينتهي، ولطيف للغاية.

كنت أثمل من صوته الرخيم باللغة العربية التي يتحدثها بطلاقة مثل لغته الأم، التركية. كان يتطرق ببراعة ومهارة إلى نظريات في الفن وفي الفلسفة ودوماً بابتسامته اللذيذة، واللامبالية كمحب للحياة.

وكان ينصت إليّ متحدثة إليه عن أفكاري الخاصة وشكوكي وإغوائي، فيقول لي أحياناً:

ـ لديك روح غريبة، وذكاؤك خارق... لكنك ترزحين تحت وطأة قدر عِرقك، وتشاؤمك لا علاج منه.

لم أسمعه أبداً يحدثني عن كل هذه الأشياء باللغة الفرنسية لأنه لم يكن يستطيع التعبير عنها جميعاً إلا باللغة العربية...

ومع ذلك، كان يحب أن يحدثني بهذه اللغة التي كان يحب، والتي بدأت أفهمها سريعاً جداً... ثم يقول لي بابتسامة طفولية مرحة:

ـ أكاد أموت جوعاً... تعالي لنذهب للغداء.

ونقصد أي دكان في أحد الشوارع العربية العتيقة، ونتناول غداءنا بمرح. وكان تنكري ولقب سيدي الذي يناديني به العرب ببراءة يدفعان أحمد للضحك؟

احتفظ بكل مزاياه، وهو الفيلسوف الشكاك والمرتاب، وهو ما يمثل شذوذاً بالنسبة لشعبه. كان يتصف بمرح طفولي وبصراحة في الساعات التي يتخلى خلالها عن هدوء طباعه المحتقرة بعض الشيء، لكن اللطيفة دوماً والحزينة جداً في الغالب.

وفي الحب كان شهوانياً ومرهفاً بحساسية، ويعذبه أدنى اتصال عنيف. ولم يعدم حبه وهو الشخص الهادئ والرقيق احتداماً كبيراً...

ولم تكن بالنسبة له شهوة الحواس اللذة القصوى، فقد كان يضيف الشهوة الثقافية السامية بشكل غير محدود. وكان الفحل غافياً بداخله تقريباً، ومقتولاً تقريباً من قبل المثقف القوي، متخلصاً من الجوهر الخالص العابر، وغالباً ما كان يقول لي:

ـ كم أجد طبيعتك أشد ذكورية من طبيعتي، وما أشد ما ولدت أكثر مني من أجل صراعات الحياة الشرسة والضارية...

كان يتفاجأ من عنفي. كنت شابة حينها إذ لم أكن قد بلغت العشرين من العمر،

وكان البركان الذي غُطي من وقتها بالرماد وما عاد يثور مثلما كان يفعل في السابق يغلي بعنف مروّع حاملاً مُجامعي في سيول حِممه الحارقة باتجاه التطرف...

وكان ينضمّ إلينا في بعض الأحيان أخونا محمود جالباً معه مرحه المجنون، وفيض سعادته.

فكان أحمد يقول:

ـ لمحمود طبيعة ذكورية خالصة، وهو شديد البعد عني، ومع ذلك أحبه بلطف غير محدود!

وهكذا، كنا نتسكع نحن الثلاثة في الضاحية، في سيدي عبد الرحمان بوخبرية، المقبرة الإسلامية في طريق حسين داي.

ثم تأتي «الحياة الثانية» الغريبة، حياة اللذة والحب، حيث ثمل الحواس العنيفة والرهيبة، قوية وهاذية متناقضة بغرابة مع حياتي كل يوم، الهادئة والمتأملة. يا لها من لحظات انتشاء! ويا لها من سكرات للحبّ تحت تلك الشمس الحارقة! كذاك كانت طبيعتي أنا أيضاً محتدمة، وكان دمي يتدفق بسرعة محمومة في عروقي المنتفخة بفعل تأثير الشغف.

كنت أبذّر بحماقة شبابي وقوتي الحيوية من دون أدنى ندم. وكنت أفكر أحياناً بحكم التجربة أنه سيأتي يوم يجتاحني فيه النفور والتعب، وسيكون كل ذلك قد انتهى بفعل تقلبي الذي ولدت به...

لكن في نشوة الساعة الحاضرة نسيت كل شيء، وعلى الخصوص المستقبل، أو بالأحرى ذلك المستقبل الذي بدا لي كاستمرارية للحاضر لامتنهية... كانت نشوة من دون نهاية، وأحياناً نشوة روحي في ذلك البلد الرائع، تحت تلك الشمس الفريدة والتحليق المذهل للعقل باتجاه مناطق التأمل الهادئة، وأحياناً في النشوة الوديعة الممزوجة دوماً بالحزن، والانتشاء بالفن، جوهر متعة المتع الغامضة.

ملاحظة

كما هي العادة، عندما يتعلق الأمر بالنصوص المنتمية على نحو جلي لما هو سيرة ذاتية، تستمتع إيزابيل إبرهارت بخلط الأوراق، ففي الزاوية تشير إلى ذكريات شبابها وتوجهها، كما تقول فيما يتعلق بالصلاة «تلك الكلمات التي سوف أفهمها بعد

وقت قصير، وأحبها...» غير أنه باستثناء مرور عابر تمهيداً لرحلتها الثانية إلى الواد شهر تموز/يوليو سنة ١٩٠٠ لم تستقر لمدة طويلة في الجزائر إلا بعد سنتين من ذلك، بعد اعتداء بهيمة والمنفى إلى مرسيليا وزواجها بسليمان إهني. (أنظر النبذة التاريخية).

وكانت اهتماماتها في تلك الفترة مثلما سنرى فيما يلي من قصصها مختلفة جداً. هناك جزء من التعلق في هذا النص غير أننا نجد فيه المنظر الساحر لمسجد عبد الرحمن الذي فتن غي دو موباسان قبلها أثناء رحلاته إلى المغرب سنة ١٨٨١، بقي ذلك المكان الذي تمت المحافظة عليه بشكل معجز على مر السنين دوماً ملتقى لنساء القصبة اللواتي كن يأتين للصلاة قرب قبر الولي وتجاذب أطراف الحديث في البساتين ذات الشرفات.

والزاوية من نصوص إيزابيل إبرهارت النادرة التي لم تنشر. اكتشفناه في أرشيفات إكس أون بروفانس، ونشر لأول مرة سنة ١٩٨٦ (ياسمينة وقصص جزائرية أخرى، منشورات ليانا ليفي).

يمكن أن تكون الكاتبة قد وجدت فيه حميمية كبيرة جداً، ولا ريب في أن ناشرها الأول فيكتور باريكون قدّر أنه يمكنه أن يلطخ سمعة (محميته)؟ ودوماً عندما نتحدث عن الأماكن سيئة السمعة والمواخير تماماً كما في ركن الحب (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً) حيث شطط العسكريين في استعمال السلطة، والأمور المتعلقة بالحياة الاستعمارية التي لا ينبغي الحديث عنها، يتدخل فيكتور باريكون بكل حماس...

ياسمينة

تربت في منطقة حزينة حيث طافت الروح الغامضة للماضي السحيق وسط المحيط البائس.

مرت طفولتها هناك في الخرابات الكئيبة بين الأنقاض وغبار ماض تجهل كل شيء عنه.

وأخذت من العظمة الكئيبة لتلك الأماكن ما يشبه حملاً زائداً من القدر والحلم. كانت غريبة وسط بنات عرقها وحزينة. كذلك كانت ياسمينة البدوية.

وكانت قربيات قريتها تقوم قرب الأنقاض الرومانية في تيمغاد وسط السهل الجاف حيث نثرت حجارة مجهولة لا يُعرف عمرها، والبقايا المنثورة في حقول الشوك الحاد ذي المظهر السيّئ والنبات الحشيشي الذي تمكن من مقاومة الحرارة الشديدة لفصول الصيف المحتدمة. وكان ذلك الشوك من كل الأحجام وكل الألوان حيث الكبير منه ذو الزهر الأزرق الكبير الناعم الملمس، وسط الأشواك الطويلة والحادة، والأصغر حيث نجيمات الذهب... وأخيراً الزاحف منها ذو الزهر الوردي الشاحب الصغير. وفي أماكن مختلفة بعض شجيرات العنّاب أو المصطكا وقد دبغتها الشمس.

وكان قوس النصر الذي ما يزال قائماً بانحناء وقح يفتح على الأفق المحتدم، وأعمدة ماردة توّج بعضها بقمم الأعمدة، وكسر بعضها الآخر. عدد كبير من الأعمدة المنتصبة باتجاه السماء كما لو أنها في ثورة غاضبة وغير مجدية على الموت المحتوم...

وكان هناك مدرج مُسحت أدراجه حديثاً. ملتقى صامت وطرق مقفرة. مدينة كبيرة ميتة، وكل المجد المنتصر لقيصر الذي هزمه الزمان، وامتصته الأحشاء الضنينة

لأرض إفريقيا تلك، والتي تلتهم ببطء لكن بثبات كل الحضارات الغربية عن روحها أو المعادية لها.

وعند الفجر، عندما يتقزح في البعيد جبل الأوريس بالأضواء الشفافة، كانت ياسمينة تخرج من قربيها المتواضع، وتذهب ببطء عبر السهل دافعة أمامها قطيعها الهزيل من المعز الأسود والخراف الشاحبة.

وعادة ما تقوده في مضيق متعرج وموحش لأحد الوديان بعيداً بعض الشيء عن الدوار.

وهناك يتجمع رعاة القبيلة الصغار، إلا أن ياسمينة كانت تنعزل من دون أن تشارك أبداً في لعب الأطفال الآخرين.

كانت تمضي كل أيامها في صمت السهل الكئيب من دون هم ومن دون تفكير، تابعة أحلاماً مشوّشة ومبهمة تستحيل ترجمتها إلى أي لغة يتحدثها البشر.

وكانت تقطف أحياناً من باب التسلية بعض الأزهار الغريبة التي أذبلتها الشمس في عمق الوادي الجاف، وتشرع في الغناء أغان عربية حزينة.

وكان الحاج سالم والد ياسمينة شيخاً كبيراً، أما والدتها فلم تكن كذلك، إذ كانت تبلغ من العمر خمساً وثلاثين سنة، وتبدو أشبه بمومياء لا يمكن التكهن بعمرها، وقد عكفت على أعمال القربي الشاقة وحقل الشعير الصغير.

وكان لياسمين أخوان يكبرانها سناً، انخرطا معاً في صفوف الجندية، وأرسلا معاً إلى مكان بعيد جداً في الصحراء. وكانت أختها الكبرى فاطمة متزوجة، وتقطن الدوار الرئيسي لأولاد مريم. ولم يكن بالقربي إلا الأطفال الصغار، وياسمينة الأكبر سناً التي كانت تبلغ من العمر أربع عشرة سنة.

وهكذا ومنذ الفجر المتلألئ إلى الشفق الحزين رأت الصغيرة ياسمينة فصل ربيع ينقضي شبيهاً بالفصول الأخرى التي تختلط في ذاكرتها.

وذات مساء من أماسي بداية فصل الصيف، وبينما كانت ياسمينة عائدة رفقة مواشيها صاعدة باتجاه تيمغاد المتألقة بأشعة الشمس الأخيرة عند انحدارها، كان السهل متألقاً أيضاً في لون أحمر جاف ورقيق على نحو غير محدود... كانت ياسمينة عائدة تغني أغنية صحراوية حزينة حفظتها عن أخيها سليمان الذي قدم في إجازة قبل سنة، والذي كانت تحبه كثيراً:

يا شابة القسطنطينية
ما الذي أتيت تفعلينه هنا
أنت التي لست من بلدي
أنت التي لم تخلقي لتعيشي
في الكثيب المحرق...
يا شابة القسطنطينية
أتيت وأخذت قلبي
وستأخذينه إلى بلدك...
أقسمتِ بأن تعودي
لكن عندما ستعودين إلى بلد النخيل
وعندما ستعودين إلى الوادي
لن تجديني
في بيت الدموع...
ابحثي عني في بيت الخلود...

وببطء حلقت الأغنية الحزينة في المدى اللامتناهي... وببطء انطفأت الشمس المهيبة في السهل...

كانت روح ياسمينة الوحيدة والبريئة هادئة جداً... هادئة وصافية مثل تلك البحيرات الصافية الصغيرة التي تخلفها أمطار فصل الربيع للحظة في المروج الإفريقية المؤقتة، وحيث لا ينعكس شيء باستثناء اللون اللازوردي لسماء من دون سحب...

عندما عادت ياسمينة، أخبرتها أمها بأنهم سيزوجونها من محمد الأعور، صاحب مقهى بباتنة.

بكت في البداية لأن محمداً كان أعور وقبيحاً جداً، ولأن الزواج كان مباغتاً وغير منتظر.

ثم هدأت وابتسمت لأن ذلك مكتوب. مرت الأيام، ولم تعد ياسمينة تذهب للمراعي، وكانت تخيط بيديها الصغيرتين غير الماهرتين جهاز الخطوبة البدوية.

لم تفكر أبداً أي امرأة من نساء الدوار أن تسألها إن كانت فرحة بأمر الزواج ذاك.

قُدّمت للأعور مثلما كانت لِتقدَّم لأي مسلم آخر. كان ذلك طبيعياً، ولم يكن هناك سبب لأن تكون فرحة فوق الحد أو أن تتاسف.

بل إن ياسمينة علمت بأن مصيرها سيكون أفضل بعض الشيء من مصير نساء قبيلتها الأخريات مادامت ستسكن في المدينة، ولن يكون لديها مثل البربريات إلا بيتها لتعتني به وأطفالها لتربيهم.

غير أن الأطفال كانوا يضايقونها أحياناً صارخين أمامها امرأة الأعور![1] كما أنها أخذت تتحاشى الذهاب إلى الوادي مع حلول الليل لإحضار الماء رفقة باقي النساء. وكانت هناك ساقية في باحة برج التنقيب، غير أن الحارس الرومي والموظف من قبل مكتب الفنون الجميلة لم يكن يسمح أبداً لأبناء القبيلة باغتراف الماء الصافي والنقيع من تلك الساقية. ولم يتبق إذن إلا استخدام ماء الوادي شديد الملوحة والمرارة والذي كانت تدوسه القطعان صباح مساء. ونتج عن ذلك الهيئة المرضية لأبناء القبيلة المصابين بشكل دائم بالحمى الخبيثة.

حضر الأعور ذات يوم وأعلن لوالد ياسمينة أنه لا يستطيع دفع مصاريف الزواج ومهر الفتاة قبل فصل الخريف.

وكانت ياسمينة قد أنهت خياطة جهازها فعادت إلى المراعي مجدداً مادام أن شقيقها الصغير أحمد الذي كان قد حلّ مكانها، سقط مريضاً، مستعيدة مهامها كراعية وجولاتها الطويلة عبر السهل.

تابعت هناك أحلامها غير الثابتة كعذراء بدائية، ولم يغير اقتراب الزواج شيئاً منها.

لم تكن تأمل شيئاً، ولم ترغب في شيء. كانت غير واعية، وبالتالي سعيدة.

وكان في باتنة ملازم أول شاب ألحق بالمكتب العربي قد قدم حديثاً من فرنسا. طلب الذهاب إلى الجزائر لأن حياة الثكنة التي أمضى فيها سنتين بعد التخرج من سان سير أصابته بنفور عميق. وكان يتمتع بروح مغامرة وحالمة.

وفي باتنة أضحى بسرعة صياداً مدفوعاً بالحاجة إلى الجولات الطويلة عبر الريف الجزائري، الذي فتنه منذ البداية على نحو فريد.

---

(١) هكذا ذكر في النص مع ترجمة من قبل الكاتبة في النص الأصلي. المترجم.

فكان يذهب كل يوم أحد منذ الفجر وحيداً سالكاً كيفما اتفق طرق السهل الوعرة للسهل، ويمضي أحياناً في ممرات الجبل الخطيرة.

وذات يوم، ولما أرهقته حرارة منتصف النهار، حث حصانه لينطلق في الوادي الموحش حيث كانت ياسمينة تحرس قطيعها.

وكانت ياسمينة جالسة على حجر في ظل صخرة مائلة إلى اللون الأحمر حيث نبتت بعض نباتات العرعر الفواح، وتلعب بشرود بالعساليج الخضراء، وهي تغني أغنية بدوية حزينة حيث يتجاور الحب والموت تماماً مثلما يفعلان في الحياة.

كان الضابط تعباً وأحب شاعرية المكان البرية.

وعندما وجد الظل حيث سيحمي حصانه تقدم باتجاه ياسمينة. ولما لم يكن يعرف أي كلمة عربية، خاطبها بالفرنسية قائلاً:

ـ هل يوجد ماء هنا؟

قامت ياسمينة لتغادر من دون رد قلقة، وتقريباً بفظاظة.

قال وقد بدأ يستمتع بذلك اللقاء:

ـ لمَ تخافين مني؟ لن أصيبك بأذى.

غير أنها فرت من عدوّ عِرقها المهزوم، ورحلت.

تبعتها نظرات الضابط طويلاً.

بدت له ياسمينة ممشوقة القوام ورقيقة تحت أثوابها الزرقاء، وبوجهها الأسمر وبياضها الصافي حيث تتألق على نحو غريب العينان السوداوان الكبيرتان لعرقها البربري، بتعبيرهما المعتم والحزين المتناقض بغرابة مع الحدود اللذيذة والطفولية في الآن نفسه للشفتين الحمراوين الغليظتين بعض الشيء. وكانت تضع قرطين حديدين ثقيلين يمران عبر شحمتي أذنيها اللطيفتين ويؤطران ذلك الوجه الفاتن. وعلى الجبهة، في الوسط تماماً، خطت الصليب البربري باللون الأزرق، وهو رمز مجهول وغير مفسر لدى ذلك الشعب الأصلي الذي لم يكن مسيحياً أبداً والذي أتى الإسلام لينزع عنه كل وحشيته ووثنيته في تفتحه العظيم للإيمان والأمل.

وكانت ياسمينة تضع على رأسها ذي الشعر الغزير وشديد السواد منديلاً أحمر بسيطاً لُفّ على شكل عمامة واسعة ومنبسطة.

كل شيء فيها قُدّ من فتنة تقية لم يستطع الملازم أول جاك أن يفسر طبيعتها.

ولمدة طويلة بقي هناك جالساً على الحجر الذي غادرته ياسمينة، مفكراً في البدوية وفي كل عِرقها.

بدت له إفريقيا التي قدم إليها بمحض إرادته كعالم خيالي ومجهول تماماً. وكان الشعب العربي يدفعه بكل المظاهر الخارجية لسلوكه إلى اندهاش ثابت. ولما لم يكن قد اختلط بعد برفاقه في الدائرة لم يتعلم ترديد الكلام المعاد المألوف في الجزائر والمعادي مبدئياً لكل ما هو عربي ومسلم.

كان ما يزال تحت وقع السحر الكبير ونشوة وصوله الغامرة، وكان يتوه داخلها بلذة.

وكان جاك المتحدر من أسرة نبيلة من الأردين قد ربّي في صرامة الثانوية الدينية في البروفانس، وحافظ على امتداد السنوات التي أمضاها في سان سير على روح إنسان جبلي ومنغلق على «الروح العصرية» المعارضة والشكاكة في الأحكام المسبقة والتي تقود بسرعة إلى الضعف الأخلاقي.

وهكذا كان ما يزال يعرف أن يرى بنفسه ويستسلم بصدق لشعوره الخاص.

ولم يكن يعرف عن الجزائر إلا الملحمة الساحرة للغزو والدفاع والبطولة الدائمة من الجانبين على امتداد ثلاثين سنة.

ومع ذلك، ولما كان ذكياً ومنفتح القلب بعض الشيء، أدرك كيف يحلل مشاعره ويرتب أفكاره نوعاً ما.

وهكذا وعندما قصد يوم الأحد الموالي تيمغاد أحس إحساساً صافياً جداً بأنه لم يكن يذهب إلى هناك إلا لرؤية البدوية الصغيرة مرة أخرى.

ولما كان ما يزال نقياً جداً، ونبيلاً جداً، لم يحاول أن يخدع ضميره. وهكذا اعترف لنفسه على نحو واضح بأنه لم يستطع مقاومة رغبة شراء الحلوى بنيّة خلق تعارف مع الفتاة الصغيرة، التي أسرته رقتها الغريبة بطريقة لا تقاوم، والتي لم ينفك عن التفكير فيها طوال الأسبوع.

وفي تلك اللحظة، وبعد أن انطلق منذ الفجر عبر طريق لومبيز الجميلة، كان يحث حصانه على الإسراع وقد أخذته لهفة فاجأته... لم يكن ذلك باختصار إلا فراغ قلبه الذي خرج لتوّه من حدود المراهقة، وحياته المتوحدة بعيداً عن بلد مولده، وشبه عذرية فكره الذي لم يدنسه فجور باريس أبداً. كان ذلك الفراغ العميق الذي يدفعه إلى

المجهول، والذي يربكه حتى جعله يرى ما هو أبعد من مخطط المغامرة البدوية.

. . . وأخيراً ولج مضيق الوادي الجاف الضيق والعميق.

وفي أماكن متفرقة، وعلى الرمادية الصهباء للعليق، كان قطيع معز يلقي لمسة سوداء قرب أخرى بيضاء لقطيع خراف.

بحث جاك بقلق تقريباً عن قطيع ياسمينة.

ـ ما اسمها؟ كم تبلغ من العمر؟ هل سترغب في التكلم معي هذه المرة، أم إنها ستفر مثلما فعلت في اليوم السابق؟

كان جاك يتساءل كل تلك الأسئلة بقلق متزايد، علاوة على أنه كيف سيتمكن من الحديث إليها ما دامت لا تفهم من دون شك أي كلمة فرنسية، ولم يكن يعرف هو حتى الصابير؟. . .

وأخيراً، وفي أشد مناطق الوادي قفراً، وجد ياسمينة ممددة على بطنها رفقة حملانها ومسندة رأسها بيديها.

ما إن رأته حتى قامت بشراسة مرة أخرى.

ولما كانت معتادة على وحشية واحتقار الموظفين والعمال في الخرابات فقد كانت تكره كل ما هو مسيحي.

غير أن جاك كان يبتسم، ولم يكن بمظهر الشخص الذي كان يريد إيذاءها، إضافة إلى ذلك رأت أنه كان شاباً وسيماً جداً بثوبه الأبيض من نسيج الكتان.

كانت قربها قِربة معلقة وسط ثلاثة أوتاد.

طلب منها جاك أن يشرب مستعملاً الإشارة، ومن دون أن ترد، أشارت إلى القربة بأصبعها.

شرب، ثم مد لها حفنة من الحلوى وردية اللون. وبخجل، ومن دون أن تتجرأ على مد يدها، قالت باللغة العربية شبه مبتسمة، رافعة لأول مرة عينيها صوب عيني الرومي:

ـ وشنو هو؟ (ما هذا؟)

فقال ضاحكاً من جهلها لكن سعيداً بالجليد الذي أذيب بينهما.

ـ هذا لذيذ.

قضمت قطعة حلوى، ثم قالت فجأة بلكنة خشنة بعض الشيء:

ـ شكراً!

ـ لا، لا، خذيها كلها!

ـ ما اسمك؟

لم تفهم بعد محاولات كثيرة. وأخيراً بدأ يقول لها أسماء النساء العربيات التي يعرف، ابتسمت ثم قالت: «سمينة» (ياسمينة).

ولما أراد أن يجعلها تجلس جواره لإكمال حديثهما ارتعبت فجأة وفرّت.

وكل أسبوع، وعندما يقترب يوم الأحد، كان جاك يحدّث نفسه بأنه يتصرف على نحو سيئ، وأن من واجبه أن يترك في سلام تلك المخلوقة البريئة التي يفصلها عنه كل شيء، وأنه لا يمكن فعل شيء إزاءها إلا جعلها تتألم... غير أنه لم يكن حراً في الذهاب إلى تيمغاد أو البقاء في باتنة، وكان يذهب...

وسرعان ما تلاشى خوف ياسمينة من جاك، وفي كل مرة، كانت تأتي من تلقاء نفسها لتجلس قرب الضابط، وتحاول أن تُفهمه بعض الأمور التي كان لا يدرك معناها في أغلب الأحيان على الرغم من الجهود التي تبذلها الفتاة، وهكذا عندما ترى أنه لا يتمكن من فهمها تشرع في الضحك... ومنحت ضحكتها بعد أن مال رأسها إلى الخلف جاك الفرصة لاكتشاف أسنانها ناصعة البياض، فراوده شعور بالرغبة وإدراك مسبق باللذة المشملة...

بذل جاك جهداً كبيراً في المدينة لتعلم اللهجة العربية الخاصة بالجزائريين... وجعلت حماسته رفاقه يضحكون قائلين بسخرية: «لاشك أن هناك عربية خلف كل هذا.»

كان جاك قد بدأ يحب ياسمينة بجنون مع احتدام الحب الأول بالنسبة لرجل حساس وحالم في الآن نفسه، وحيث يغدو الحب روحياً ويغطى بالحنان الحقيقي...

غير أن ما كان يحبه جاك في ياسمينة هو جهلها المطلق لروح البدوية، إذ إنها كانت إنسانة خيالية تماماً أتت من خياله، وبكل تأكيد ليست شبيهة بالواقع...

وكانت ياسمينة تنصت لجاك مبتسمة مع ظل حزن في عينيها يغني لها برعونة كل شغفه الذي لم يحاول مع ذلك تقييده.

قالت بنبرة حزن أليمة:

ـ هذا مستحيل. أنت رومي وكافر، وأنا مسلمة. هل تعلم أنه حرام بالنسبة لنا أن نتزوج مسيحياً أو يهودياً، ومع ذلك فأنت وسيم وصالح. أحبك...

وذات يوم، أمسكت ذراعه، وقالت له بعد نظرة رقيقة طويلة:

ـ كن مسلماً... إنه أمر يسير! إرفع يدك اليمنى هكذا، وقل معي: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»[1].

وببطء، وكلعبة بسيطة، ردد الكلمات البهيجة والمهيبة التي لفظها بصدق، والتي كانت كافية لربطه على نحو نهائي بالإسلام... غير أن ياسمينة لم تكن تعرف أبداً بأنه يمكن للمرء أن يقول شيئاً مثل ذلك من دون الإيمان به. وكانت تظن أن مجرد إعلان الإيمان الإسلامي جهراً من قبل روميّها يجعله مؤمناً... ولما كان جاك جاهلاً بالأفكار الفظة والبدائية التي صنعها عن الإسلام الشعب الأمي لم يدرك معنى ما قام به.



وفي ذلك اليوم، وعندما كانا يفترقان، قبلته ياسمينة مبتسمة بسعادة. وكانت القبلة الأولى... وكانت نشوة جاك من دون اسم، وبلاحدود...

وكان منذ ذلك اليوم ما إن يتاح له بعض الوقت حتى ينطلق مسرعاً على صهوة حصانه إلى تيمغاد.

لم يعد جاك بالنسبة لياسمينة رومياً وكافراً... فقد اعترف بوحدة الله المطلقة، ومهمة رسوله... وذات يوم، وبالشغف المحموم لعِرقها، أسلمت له قيادها بكل بساطة...

حظيا بلحظة تلاشٍ تفوق كل وصف، استيقظا بعدها وقد أشرقت روحاهما بنور جديد، كما لو أنهما خرجا لتوّهما من الظلمات.

... وصار بإمكان جاك في تلك اللحظة أن يخبر ياسمينة تقريباً بكل الأشياء الرقيقة أو الأليمة التي تملأ روحه، ما دام قد حقق تقدماً سريعاً جداً في تعلمه اللغة العربية... وكان يرجوها أحياناً أن تغني فكان يستلقي قرب ياسمينة واضعاً رأسه على ركبتيه ويستسلم مغمض العينين لأحلام مضطربة ولطيفة جداً.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة من قبل الكاتبة في النص الأصلي. المترجم.

ومنذ بعض الوقت أخذت تسكنه فكرة غريبة استسلم لها وألفى بها متعة غريبة، مع أنه كان يعرف أنها صبيانية وغير قابلة للتحقق... أن يترك كل شيء أبداً، وأن يتخلى عن أسرته وعن فرنسا ليبقى في إفريقيا إلى الأبد، واضعاً برنساً وعمامة ليعيش حياة خالية من الهموم وبطيئة في أحد قصور الجنوب... وعندما يكون جاك بعيداً عن ياسمينة يستعيد صفاء ذهنه ويبتسم من صبيانيته الحزينة... لكن ما إن يلفي نفسه قربها حتى يستسلم لنوع من الخدر الذهني برقة لا توصف. كان يضمّها إلى صدره، وتغوص عيناه في عينيها مردداً من دون توقف كلمة الحنان العربي الرقيقة جداً:

- عزيزة! عزيزة! عزيزة!

لم تتساءل ياسمينة قط عن مآل حبها لجاك. كانت تدرك أن العديد من بنات عرقها كان لهنّ عشّاق، وأنهن كن يخفين ذلك عن أسرهن بحذر، غير أن ذلك كان ينتهي عموماً بالزواج.

كانت تعيش، وكانت سعيدة بكل بساطة من دون التفكير، ومن دون رغبة أخرى سوى في رؤية السعادة تستمر إلى الأبد.

أما جاك فكان يرى بوضوح أن حبهما لا يمكنه أن يستمر كذلك إلى الأبد، لأنه كان يتوقع استحالة زواجه من تلك البدوية الصغيرة إذ إن له عائلة هناك في بلده، ولم يفكر حتى في نقلها إلى مكان آخر أبعد وأغرب.

وكانت قد أخبرته بأنهم سيزوجونها من قهوجي بالمدينة عند نهاية فصل الخريف.

لكن نهاية فصل الخريف كانت بعيدة جداً... واستسلم جاك بدوره لسعادة اللحظة...

- عندما يريدون منحي للأعور ستأخذني وتخفيني في مكان ما في الجبل بعيداً عن المدينة حتى لا يجدوني أبداً. أحب أن أعيش في الجبل حيث تنمو أشجار كبيرة هي أكبر سناً وأقدم من الشيوخ، وحيث يتدفق الماء البارد والصافي هناك في الظل... ثم هناك طيور لها ريش أحمر وأخضر وأصفر، وتغرّد...

أحبّ سماعها تغرّد، وأنام في الظل وشرب الماء البارد... ستخفيني في الجبل وستأتي لرؤيتي كل يوم... سأتعلم أن أغرّد مثل العصافير، وسأغرّد لك. وفيما بعد سأعلمها اسمك حتى تخبرني به عندما تكون غائباً.

كذاك كانت ياسمينة تحدثه أحياناً بنظرتها الغريبة الجادة والمحتدمة...

وتقول:

ـ لكنّ عصافير جبل توغور مسلمة... لن تتمكن من تغريد اسمك الرومي... لن تعرف إلا أن تناديك باسم مسلم، وأنا مَن عليها منحك إياه لأعلّمه لها... ستسمّى مبروك، وسيجلب هذا السعادة لنا.

... أضحت اللغة العربية بالنسبة لجاك موسيقى عذبة لأنها كانت لغتها، وكل ما كانت تمثله كان يشمله. لم يعد جاك يفكر. كان يعيش.

وكان سعيداً.

***

علم جاك ذات يوم بأنه قد اختير لِيُنقل إلى أحد مراكز الجنوب الوهراني.

قرأ وأعاد قراءة الأمر المحتوم، والذي كان من دون معنى آخر بالنسبة له سوى الرحيل وترك ياسمينة تتزوج من القهوجي الأعور وعدم رؤيتها مجدداً.

وعلى مدى أيام كثيرة بحث يائساً عن سبيل يجعله لا يرحل، كتبادل مع أحد رفاقه... لكن عبثاً.

ولما احتفظ لآخر لحظة ببارقة أمل ضعيفة أخفى على ياسمينة المصيبة التي كانت ستعصف بهما...

وخلال ليالي السهاد والانفعال وصل إلى قرارات حاسمة، فقد قرر في بعض الأحيان أن يخاطر بفضيحة مدوية تتمثل في الاختطاف والزواج، وأحياناً أخرى فكر في أن يقدّم استقالته ويتخلّى عن كل شيء من أجل ياسمينة، وأن يصير في الواقع مبروك الذي كانت تحلم أن تجعله عليه... غير أن فكرة كانت توقفه دوماً، فهناك في الأردين أب بلغ من العمر أرذله، وأمّ ابيضّ شعرها وستموت بكل تأكيد كمداً على ابنها «الملازم أول جاك الوسيم» مثلما ينادى في بلده، كذاك كانت تمر بعقله المستعر كل تلك الأشياء في ساعات الليالي المزعجة البطيئة.

لحظت ياسمينة حزن مبروك وقلقه المتزايدين، ولما لم يشأ أن يعترف لها بالحقيقة أخبرها بأن أمه العجوز مريضة هناك في فرنسا...

حاولت ياسمينة التخفيف عنه بأن تحمل إليه إيمانها بالقضاء والقدر، إذ قالت:

ـ مكتوب. كلنا بين يدي الله، وسنموت جميعاً لنعود إليه... لا تبك يا مبروك، فهو مكتوب.

فكر بمرارة: «أجل، علينا في يوم من الأيام أن نفترق عمّن نحب إلى الأبد... لماذا إذن سيفرقنا ذلك المصير المكتوب الذي تحدثني عنه قبل الأوان ما دمنا معاً على قيد الحياة؟»

أخيراً، وقبل أيام قليلة من اليوم المحدد نهائياً لرحليه، ذهب جاك إلى تيمغاد... ذهب خائفاً مرتعباً ليخبر ياسمينة بالحقيقة، ومع ذلك لم يرد أن يخبرها بأن فراقهما لربما كان بكل تأكيد إلى الأبد...

أخبرها بكل بساطة بمهمة تستغرق ثلاثة أو أربعة أشهر.

كان جاك ينتظر انفجارها بيأس ممزق...

غير أن ياسمينة الواقفة أمامه لم تتذمر. استغرقت في النظر إليه كما لو أنها أرادت أن تقرأ أفكاره المحجوبة... أصابته سهام نظرتها الطويلة من دون تعبير مفهوم بالنسبة إليه باضطراب كبير... يا إلهي! هل تعتقد إذن أنني أتخلى عنها بمحض إرادتي؟

ما السبيل إلى شرح الحقيقة لها، وكيف يمكن إفهامها أنه لم يكن سيد مصيره؟ فبالنسبة لها كان الضابط الفرنسي شخصاً خارقاً وحراً تماماً في فعل ما يحلو له.

... استمرت ياسمينة في النظر إلى جاك مباشرة، مركزة عينيها في عينيه، ولزمت الصمت...

لم يستطع تحمل تلك النظرة التي كانت تحمل الاتهام في طياتها.

احتضنها، وقال:

ـ يا عزيزة! يا عزيزة! غضبت مني! ألا ترين أن قلبي سيحطم، وأني ما كنت لأذهب أبداً لو كنت أستطيع البقاء!

عقدت حاجبيها الرقيقين.

ثم قالت:

ـ أنت تكذب! أنت تكذب! لم تعد تحب ياسمينة، عشيقتك وزوجتك وخادمتك، وتلك التي أخذت عذريتها. أنت من يريد الذهاب!... وأنت تكذب عندما تقول بأنك ستعود في القريب... كلا، لن تعود أبداً، أبداً، أبداً!

وفي هذه الكلمة التي تكررت بنبرة مهيبة تقريباً بدا لجاك الحزن المأتمي لشبابه.

أبدًا! أبدًا![1] كان في صدى هذه الكلمة شيئاً نهائياً وحتمياً وقدرياً.

ـ أجل، سترحل... سترحل لتتزوج من رومية هناك في فرنسا...

والتمعت عينا البدوية السوداوان الواسعتان بوميض معتم. كانت قد تخلصت من حضن جاك بفظاظة تقريباً، وبصقت أرضاً باحتقار في حركة سخط متوحشة:

ـ كل الروميين كلاب وأبناء كلاب!

ـ آه! يا ياسمينة، كم أنت ظالمة اتجاهي! أقسم لك أني رجوت رفاقي واحداً واحداً ليذهب أحدهم بدلاً مني... ولم يشاؤوا ذلك.

ـ آه؟ أنت ترى إذن أنه عندما لا يريد الضابط أن يرسل لا يفعل!

ـ لكن أنا من رجوت رفاقي ليرحل أحدهم بدلاً مني، وهم غير تابعين لي... بينما أنا أخضع للجنرال وزير الحربية...

غير أن ياسمينة الشكاكة بقيت عدوانية وعصيّة.

وأسف جاك على الانفجار اليائس الذي خشيه كثيراً في الطريق والذي لم يحدث.

بقيا كذلك طويلاً، صامتين مفترقين بهوة مشكلة من كل تلك الأشياء الأوروبية التي تتحكم على نحو ظالم في حياته، والتي لن تفهمها ياسمينة أبداً...

وفي النهاية، ولما ملأت الحرارة قلب جاك شرع في البكاء، وأرخى رأسه على فخذي ياسمينة.

ولما رأته ينتحب بيأس كبير أدركت أنه كان صادقاً... ضمّت رأس حبيبها إلى صدرها باكية هي أيضاً في الأخير.

ـ مبروك! يا حدقة عيني! يا نوري! يا نقطة سوداء في قلبي! لا تبك يا سيدي! لا تذهب يا سيدي. إذا أردت الذهاب سأستلقي في طريقك وأموت، وهكذا سيكون عليك أن تمر على جسد ياسمينتك، أو فلتأخذني معك إذا كان عليك الذهاب، سأكون عبدتك، سأعتني ببيتك وبحصانك... وإذا كنت مريضاً سأمنحك دم عروقي لأشفيك... أو سأموت من أجلك. يا مبروك! يا سيدي! خذني معك...

ولما كان ملتزماً الصمت، ومحطماً أمام استحالة ما تطلبه، أضافت:

---

(١) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

ـ إذن تعال، وضع لباساً عربياً. لنهرب معاً إلى الجبل أو أبعد في الصحراء، في بلاد الشعامبة والطوارق... ستكون مسلماً حقيقياً وستنسى فرنسا...

ـ لا أستطيع... لا تطلبي مني المستحيل. لديّ والدان كبيرا السن هناك في فرنسا، وسيقضيان حزناً... آه! الله وحده يعلم كم أرغب في الاحتفاظ بك قربي دائماً.

أحس شفتي ياسمينة الحارتين تداعبان بلطف يديه في سيول دموعهما الممتزجة... أحيا ذلك الاتصال لديه أفكاراً أخرى، وحظيا مرة أخرى بلحظة فرح عميقة جداً وممتلئة جداً لم يعرفا مثلها أبداً حتى في أيام سعادتهما الهادئة.

قالت متلعثمة وقد استمرت عيناها تذرفان الدمع:

ـ آه! أنّى لنا بالفراق!

عاد جاك مرتين أخريين، وألفيا تلك النشوة التي تفوق كل وصف، والتي بدت تربط أحدهما بالآخر دوماً وأبداً.

لكن في النهاية دقت ساعة الوداع المحتومة... الوداع الذي كان يعلم أحدهما بأنه أبدي، في حين كان الآخر يستشعره كذلك.

أودعا روحيهما في قبلتهما الأخيرة...

بقيت ياسمينة تنصت إلى وقع حوافر حصان جاك الموزون طويلاً... وعندما لم تعد تسمعه وعاد السهل إلى الصمت المطبق المعتاد ارتمت البدوية الصغيرة، ووجهها أرضاً، وشرعت في البكاء...



مر شهر على رحيل جاك، وكانت ياسمينة تعيش في خدر حزين.

فطيلة النهار كانت تبقى نائمة أرضاً بلا حراك، وحيدة في واديها الموحش.

ولم تكن بداخلها أية ثورة ضد المكتوب، الذي اعتادت منذ نعومة أظفارها أن تنسب إليه كل ما يحدث لها سواء كان خيراً أو شراً... غير أن عذاباً كبيراً وألماً استمرا يهدّانها من دون هدنة أو توقف، ذلك الألم الوحشي والظالم للكائنات غير المدركة، الأطفال والحيوانات، والذين ليس لهم حتى العزاء المرير لفهم لماذا وكيف يتألمون...

ومثل كل البدو الرحّل حيث الاختلاط الغامض إذ فُقِد الدم الآسيوي وسط القبائل الأصلية للشاوية والبربر إلخ، لم تكن لياسمينة إلا فكرة مشوشة جداً عن الإسلام. وكانت تدرك من دون أن تعرف تماماً ما يعنيه ذلك أن هناك إلهاً واحداً أحداً خالداً، خالق كل شيء ورب العالمين، وأن محمداً رسوله، والقرآن هو التعبير المكتوب للإسلام. وكانت تحفظ سورتين قصيرتين أو ثلاث سور قصيرة من القرآن يعرفها كل مسلم.

ولم تكن ياسمينة تعرف فرنسيين آخرين سوى أولئك الذين يحرسون الأنقاض والعاملين بالتنقيب. وكانت تدرك كل ما كانت تعانيه قبيلتها جرّاءهم. وبسبب ذلك خلصت بأن كل الروميين كانوا أعداء العرب الألداء. وكان جاك قد قام بالمستحيل ليشرح لها أن هناك فرنسيين لا يكرهون المسلمين... لكنه كان يدرك في داخله أنه كان يكفي وجود بعض الموظفين الجاهلين والأفظاظ ليجعلوا فرنسا مكروهة في عيني القرويين الأميين الغامضين.

وكانت ياسمينة تسمع كل عرب المناطق المجاورة يشتكون من دفع ضرائب منهكة، وأنهم مرهبون من قبل الإدارة العسكرية، وأن ممتلكاتهم تغتصب... وهكذا وصلت إلى خلاصة مفادها أن من المحتمل أن أولئك الفرنسيين الصالحين والإنسانيين الذين كان يحدثها جاك عنهم كانوا لا يأتون إلى بلدها وأنهم يبقون في مكان ما بعيد.

كان كل ذلك مشوشاً جداً في عقلها الأمي الذي تنام قواه الحية بعمق، فضلاً عن أن ذلك لم يكن يهمها أبداً.

ولم تبدأ في التفكير، وعلى نحو مشوش جداً، إلا في اليوم الذي أحبت فيه.

في الماضي، عندما كان جاك يتركها عائداً إلى باتنة، كانت تبقى مطرقة تفكر. ما الذي يقوم به هناك؟ أين يعيش؟ هل يرى نساء أخريات، روميات يخرجن حاسرات وبفساتين حريرية وقبعات، تماماً مثل النساء اللواتي كن يحضرن لزيارة الأنقاض؟ وكانت غيرة غامضة تستيقظ في قلبها.

لكن منذ أن رحل جاك إلى وهران البعيدة تألمت ياسمينة كثيراً، وبدأ يقينها يتقوى.

وكانت تغني أحياناً في وحدتها الحزينة الأغاني الحزينة التي كانت تحب. وهكذا

كانت تأخذ في البكاء، وتقطع بنحيبها المقاطع الحزينة، منادية على مبروك، حبيبها بالأسماء الوديعة التي اعتادت مناداته بها، متوسلة إليه أن يعود كما لو أنه سيسمعها.

كانت أمية ولم يكن بإمكان جاك أن يراسلها لأنها ما كانت تستطيع أن تطلع أحداً على رسائل الضابط ليترجمها لها.

وهكذا بقيت من دون أخبار عنه.

وذات يوم، وبينما كانت تحلم بحزن، رأت فارساً من السكان المحليين قادماً من اتجاه باتنة ممتطياً حصاناً رمادياً مهتاجاً. وجّه الفارس الذي كان يرتدي ثوب ضباط الجيش المحليين حصانه إلى سرير الوادي. بدا كأنه يبحث عن شخص ما. ولما لمح الفتاة الصغيرة سألها:

ـ ألست ياسمينة بنت الحاج سالم؟

ـ من أنت؟ وكيف عرفتني؟

ـ إذن فهي أنت! أنا شريف بن علي الشعامبي، ملازم في الجيش المحلي، وصديق جاك. أنت من كنت عشيقته؟

أرادت ياسمينة الفرار مرتعبة لرؤية سرها يُعرف من قبل شخص مسلم، غير أن الضابط أمسكها من يدها ومنعها من ذلك بقوة.

ـ أين تذهبين يا ابنة الزنا؟ قطعت كل هذه المسافة من أجل رؤية وجهك، وتفرين؟

وعبثاً بذلت جهداً للتخلص منه.

ـ أتركني! أتركني! لا أعرف أحداً، ولم أكن عشيقة أحد!

أخذ شريف يضحك، ثم قال:

ـ أجل، كنت عشيقته يا ابنة الزنا! وعلي أن أقطع رأسك من أجل ذلك، مع أن جاك كأخ لي. تعالي إلى عمق الوادي. لن يرانا أحد. لدي رسالة من جاك سأقرؤها لك.

صفقت بيديها بفرح.

أعلمها جاك بأنه يمكنها أن تثق بشريف ثقة كاملة، وبأنه إذا ما أصابه مكروه عليها أن تتوجه إليه. وأخبرها بأنه يفكر فيها، وبأنه وفي دوماً لها، وأنهى رسالته مقسماً بأن يحبها دوماً وبأنه لن ينساها وبأن يعود يوماً لأخذها.

. . . أقسام جملية وقرارات شابة نهائية سيمحيها الوقت ويزيلها سريعاً مثل كل الباقي! . . .

رجت ياسمينة شريف بأن يرد على جاك بأنها ما تزال تحبه هي أيضاً، وبأنها ستبقى وفية له ما عاشت، وبأنها ستبقى عبدته الخاضعة والمحبة، وبأنها ستحب أن تكون التراب الذي يمشي عليه.

ابتسم شريف ثم قال:

ـ لو أنك أحببت مسلماً لتزوجك بحسب القانون، ولما بقيت هنا تبكين. . .

ـ مكتوب!

امتطى الضابط حصانه الرمادي، وانطلق مسرعاً مخلفاً وراءه سحابة من الغبار.

خشي جاك إثارة انتباه أفراد الدوار فأجّل لمدة طويلة إرسال رسالته الثانية إلى ياسمينة. . . لمدة طويلة جداً حد أنه عندما أراد أن يكتب لها، علم بأن شريف رحل إلى أحد مراكز الصحراء.

وشيئاً فشيئاً، وبعد يأس اللحظة الأولى، عاد الهدوء إلى قلب جاك.

ألفى في القصر الوهراني حيث كان يعيش رفاقاً فرنسيين متميزين جداً، ومثقفين جداً، وكان أحدهم يملك مكتبة كبيرة بعض الشيء. بدأ جاك في القراءة منكبّاً على دراسة المسائل التي كانت إلى ذلك الوقت غريبة جداً عليه. . . وفتحت آفاقاً جديدة لروحه. . .

ولاحقاً غيّر مركزه. وتعرّف في جيري فيل على شابة إسبانية. كانت جميلة جداً، فأغرم بها.

وهكذا، تراجعت الصورة الفاتنة لياسمينة في ذاكرته البعيدة المشوشة، حيث أظلم كل شيء وانتهى بأن يغرق في عتمات النسيان النهائي. . .

وقدم محمد الأعور ليعلن أخيراً أنه يستطيع تحمل مصاريف الزواج.

وحُدّد يوم قريب جداً للزفاف.

ورضخت ياسمينة مستسلمة لقدرها. . .

وبغريزة محبة عاشقة أحست بأن جاك نسيَها، وأضحى كل شيء سواء بالنسبة لها.

غير أن قلقاً كان يعصر قلبها من أمر الزيجة تلك، لأنها كانت تعرف جيداً عادات شعبها، حتى لا تتوقع غضبة زوجها عندما يعلم أنها لم تعد عذراء.

كانت شبه أكيدة من أنها ستكون زوجة القهوجي الأعور عندما نشب شجار مصالح مباغت بين الحاج سالم والأعور.

وبعد أيام قليلة علمت ياسمينة بأنهم سيمنحونها لرجل لم تره إلا مرة واحدة، وهو جندي في الجيش المحلي يدعى عبد القادر بن إسماعيل، وهو شاب وسيم جداً، يوصف بالشجاعة والجموح، وكان يُمنح نقاطاً سيئة في الخدمة بسبب سلوكه، غير أن رؤساءه كانوا يحترمونه لشجاعته وذكائه.

أراد ياسمينة بدافع الحب لأنه وجدها جميلة جداً في تفتح سني عمرها الخمسة عشرة. . . وقدّم للحاج سالم مهراً أعلى من ذاك الذي وعد به الأعور. إضافة إلى ذلك أرضى ذلك كبرياء الشيخ بمنح ابنته إلى ذلك الفتى المنتمي إلى عائلة جيدة من غيلمة مع أنه اختلف مع أسرته بعد ذلك التعاقد.

استمرت حفلات الزواج ثلاثة أيام، بداية في الدوار، ثم في المدينة.

وأطلقت نيران البنادق بالدوار، والمفرقعات، ودفعت الجياد الهزيلة للركض مصحوبة بصرخات عظيمة أثملت الرجال والجياد.

وفي المدينة، رقصت النساء على أصوات البنادير والغيطة البدوية. . .

ولبست ياسمينة أقمصة بيضاء طويلة من النسيج القطني بأكمام طويلة ذات أهداب، وقفطاناً أزرق من المخمل، زُيّن بشرائط ذهبية، وغندورة وردية من الحرير. وغُطّي رأسها بشاشية صغيرة وحادة، بلون كرزي وأخضر. وزُينت بحلي ذهبية وفضية، وتربّعت فوق الكرسي الوحيد في الغرفة وسط النساء، بينما كان الرجال مستمتعين في الشارع على كراسي المقهى المغربي المقابل.

علمت ياسمينة عن طريق النساء بأن شريف الشعامبي قد رحل، وانطفأت بارقة الأمل الأخيرة التي كانت ما تزال تحتفظ بها. لن تعرف أبداً أي شيء بخصوص جاك.

وفي الليل، عندما كانت ياسمينة وحيدة مع عبد القادر، لم تتجرأ على رفع عينيها لتنظر في عيني زوجها. أخذت تفكر مرتعشة في غضبه الوشيك والفضيحة التي ستحدث إذا لم يقتلها في تلك اللحظة.

كانت ما تزال مغرمة برومّيها، ولم يفرحها تعويض الجندي للأعور. . . بل على

العكس إذ كانت تعلم بأن الأعور كان يوصف كرجل طيب، بينما كان عبد القادر معروفاً بأنه عنيف ومخيف...

... عندما علم عبد القادر بما لم يعد بإمكان ياسمينة إخفاؤه عنه غضب غضباً شديداً زاده حبه لها، فبدأ بضربها ثم فرض عليها أن تعلمه باسم عشيقها.

ـ كان ضابطاً... مسلماً... قبل فترة طويلة... ورحل.

ولما ارتعبت من تهديدات زوجها أخبرته باسم الملازم الشعامبي. ما قيمة ذلك مادام أنه رحل؟ لم ترد أن تعترف بالحقيقة، والقول بأنها كانت عشيقة رومي، وهو ما كان سيزيد من حدة خطئها في نظر عبد القادر...

غير أن شغف الجندي كان أقوى من غضبه... فبعد كل شيء، رحل الملازم من دون أن يتحدث إلى أحد من دون شك، ولن يعلم أحد أبداً ذلك السر.

احتفظ عبد القادر بياسمينة، غير أنه صار مفزع دوار الحاج سالم، إذ كان يذهب عادة طلباً للمال من أنسبائه الذين كانوا يخشونه. وندموا أنهم لم يزوّجوها من محمد الأعور الهادئ.

وكانت ياسمينة الحزينة والصامتة تمضي أيامها في خياطة قمصان غير متقنة من الكتان، تأخذها دوجة خالة الجندي العجوز إلى تاجر مزابي (من المزابيط).

وكانت في البيت أيضاً أخت عبد القادر التي ستتزوج في أجل قريب أحد رفاق أخيها.

وعندما لا يكون الجندي سكراناً كان يحمل الهدايا إلى زوجته، من ملابس بل وحتى حلي، وفواكه وحلوى... وكان ينفق في ذلك كل راتبه. لكنه في أحيان أخرى كان يدخل بيته سكراناً فيضرب زوجته من دون سبب معقول.

وكانت ياسمينة لا تبالي بالمداعبات مثل عدم اكتراثها بالضرب، وتبقى صامتة غير أنها كانت تختنق بين الجدران الأربعة البيضاء للباحة المغربية حيث كانت أسيرة. وكانت تأسف بمرارة على المدى الحر الفسيح للسهل الذي ولدت فيه، والأنقاض الكبيرة الخطيرة، وواديها الموحش.

وكان عبد القادر يدرك أن زوجته لا تحبه أبداً، وهو ما كان يثير حنقه.

فيأخذ في ضربها بعنف.

لكن ما إن يراها تبكي حتى يعانقها، ويغطيها بالقبل مواسياً.

واستمرت ياسمينة بعناد في حب روميها، مبروكها... وكان عقلها يحلّق دوماً باتجاه ذلك الجنوب الوهراني الذي لا تعرفه أبداً، وحيث تعتقد أنه ما يزال هناك...

وكانت تتساءل بقلق إذا كان مبروكها عاد يوماً. وعندما لا يلاحظها أحد تأخذ في البكاء طويلاً، في صمت.

وكان جاك قد نسي منذ مدة طويلة الحلم الأبدي الذي قام به فجر حياته في سهل تيمغاد المقفر، والذي لم يدم إلا فصل الصيف.

***

بعد حوالى سنة من زواج عبد القادر حُكم عليه بعشر سنوات من الأشغال الشاقة بسبب عنف مارسه على أحد رؤسائه خارج الخدمة... ولحقت أخته بزوجها في الجنوب، وتوفيت الخالة العجوز.

بقيت ياسمينة وحيدة، ومن دون موارد.

ولم تشأ أن تعود إلى قبيلتها أبداً.

احتفظت بسلوكها الغريب والحزين والصامت الذي اكتسبته منذ رحيل جاك. لم تشأ أن يُعاد تزويجها مرة أخرى ما دامت قد أضحت مطلقة... فقد أرادت أن تكون حرة في انتظار مبروكها.

ومنحها الوقت أيضاً سبيلاً لتهدئة ألم قلبها... غير أنها لم تجد بديلاً آخر لحبها، وبقيت تحب الغائب، الذي لم تعد تجرؤ منذ مدة طويلة أن تأمل في رؤيته مجدداً.

وعندما انتهت آخر قطعة مما تركه عبد القادر جمعت أمتعتها العتيقة في صندوق، وسلّمت المفاتيح إلى مالك البيت.

وعند حلول الليل قصدت القرية ـ السوداء البعيدة عن باتنة بخمس مئة متر فقط، والتي تقع في أرض بور يوجد بها مسجد.

كانت القرية عبارة عن تجمع عشوائي لأكواخ خشبية وطينية قذرة ومتداعية يسكنها شعب من المومسات الزنجيات والبدويات والبربريات واليهوديات والمالطيات كن يعشن هناك متكدسات في فوضى مع أشخاص مشبوهين وقوادين وأغلبهم من ذوي السوابق.

وكانت هناك مقاه مغربية حيث ترقص النساء ويغنين حتى الساعة العاشرة ليلاً، وحيث يُدخّن الكيف الليل كله بعد أن تقفل الأبواب. كان ذلك مكاناً لتسلية جنود الحامية العسكرية.

ومنذ أن بقيت ياسمينة وحيدة تعرفت إلى بربرية تعيش في القرية ـ السوداء رفقة زنجية من واد رير.

وكانت زهرة وسمرا تعملان في ماخور يملكه شخص يدعى علي فرانك، ويدعي أنه مسلم تونسي ويشير اسمه إلى أصل آخر. وكان رجلاً ذا سوابق تراقبه الشرطة.

نصحت المغنيتان ياسمينة كثيراً بأن تأتي لتقتسم معهما غرفتهما، وأغرتاها بالمزايا المفترضة لوضعهما.

وعندما أحست ياسمينة نفسها وحيدة ومهجورة بشكل تام قصدت صديقتيها، فاستقبلتاها بفرح.

وكانت ياسمينة ستحضر في تلك الليلة في المقهى وستغني.

كان ذلك في قاعة منخفضة وطويلة مليئة بالدخان، أرضيتها من تراب تسكنه العقارب، وجدرانها مبيضة بالجير وقد غطتها كتابات ورسوم فاجرة في أغلبها بشكل فظ من صنع الزبائن. واصطفت على طول الجدارين المتوازيين الطاولات والمقاعد تاركة في الوسط ساحة واسعة بعض الشيء. وفي العمق كانت هناك طاولة خشبية تستخدم كمشرب. وفي الخلف كان هناك ما يشبه منصة طينية غطيت بحصائر بالية وممزقة.

كانت المغنيات مقرفصات هناك، وكن سبعاً هن ياسمينة وصديقتاها وبدوية تدعى حفصية وعيشة من بون، واليهوديتان ستيترة ورحيل المتحدرة من كيف، والتي كانت ترتدي لباس راقصات تونس اللواتي يلبسن على الطريقة المصرية، سروالاً أبيض فضفاضاً وسترة قصيرة من الحرير زاهية اللون، وقد حرر شعرها وعقد فقط بشريط أحمر واسع. وكانت تنتعل خفّين من الساتان الأبيض من دون الجانب العلوي، وبكعبين عاليين.

وكن جميعاً متزيّنات بحلي ذهبية، وأقراط ثقيلة في آذانهن، في حين أن البدوية والزنجية كانتا ترتديان اللباس الصحراوي المؤلف من قماش أزرق غامق واسع، شبك من الكتفين مشكلاً قميصاً. وفي رأسيهما تصفيفتان معقدتان تتشكلان من ضفائر كبيرة

من الصوف الأحمر شدت إلى شعريهما من صدغيهما، ومناديل بعضها مخالف للبعض الآخر، وحلي شدّت بسلاسل صغيرة. وعندما كانت إحداهن تقوم لترقص في القاعة وسط المتفرجين كانت الأخريات يغنين فوق المنصة ضاربات بأكفهن وبالطبول، بينما كان يعزف فتى على الناي العربي، ويهودي على المندولين...

وكان غناؤهن وحركات رقصهن تتسم بفحش كبير أخذ يهيج المتفرجين الذين بدأ يزداد عددهم في تلك الليلة شيئاً فشيئاً.

وكان المزاح والمديح الفياض يتدفقان بالعربية وبالفرنسية الممزوجتين بالصابير.

قال مجند، وهو من بيلفيل، نفي إلى الصحراء، وبدا أنه معجب بياسمينة، عندما حان دورها ونزلت إلى القاعة:

ـ لست مكوّرة، أيتها الصغيرة!

كانت ترقص رصينة وحزينة كعادتها مدّثرة بخضوعها وحلمها أمام أولئك الرجال الذين ستكون فريستهم ما إن يقفل باب الماخور.

تعرّف عريف من الجنود المحليين على ياسمينة، وكان يعرف عبد القادر ابن إسماعيل، وسبق أن رآها.

فقال:

ـ هكذا! إنها زوج عبد القادر. الرجل في السجن، والمرأة في البيت، ومع ذلك تجري الأمور بخير!

كان هو من التحق بياسمينة تلك الليلة في الخلوة المظلمة التي كانت تستخدم كغرفة.

*
* *

ارتفع البدر هناك في الشرق خلف القمم المعتمة لجبال الأوريس...

وانزلق ضوء مزرقّ على الجدران والأشجار ملقياً ظلالاً عميقة في كل التحصينات والزوايا التي كانت تشبه هاوية.

ووسط الأرض البور الوعرة التي كانت تصل من جهة إلى سور المدينة الرمادي وبوابة لامبيز، ومن جهة أخرى إلى منحدرات الجبل، كان المسجد ينتصب

وحيداً. . . ومع أنه كان نهاراً من دون ميزة، ومن دون ذوق، إلا أنه في ضوء القمر السحري يبدو شفافاً وتقريباً شفانياً غارقاً في الانعكاسات الملتبسة.

وكانت تتردد من جهة القرية ـ السوداء أصوات مبحوحة للبنادير والقصبات. . . وأمام مقهى علي فرانك كانت امرأة تجلس على مقعد خشبي واضعة مرفقيها على فخذيها ورأسها بين يديها. كانت ترقب المارة لكن بلامبالاة عميقة ومتقززة تقريباً.

كانت نحيلة جداً، وخداها أحمرين بحمرة معتمة، وعيناها غائرتين وملتمعتين بشكل غريب، وشفتاها رقيقتين مزمومتين، فبدت البدوية الصغيرة الفاتنة والنضرة من أنقاض تيمغاد وقد كبرت بعشر سنوات. . .

ومع ذلك، وفي وجه المعاناة والاحتضار تقريباً لحياتها تلك التي تعيشها منذ ثلاث سنوات، لم تترك إلا ظل حزن أكثر عمقاً. . . وعلى الرغم من كل شيء كانت ما تزال جميلة جمالاً مرضياً وأكثر إثارة. . .

وكان صدرها يرتج عادة بسعال طويل ورهيب ومؤلم ينتهي بلون أحمر يصيب منديلها. . .

الحزن والشراب والعديد من الأمور المؤذية التي تعيش وسطها تفوّقت على صحتها المتينة كبدوية صغيرة اعتادت على الهواء النقي للسهل.



بعد خمس سنوات من رحيل جاك إلى الجنوب الوهراني، أعادته تقلبات الحياة العسكرية إلى باتنة.

قدم إليها رفقة زوجه الشابة الباريسية الرقيقة والجميلة. التقيا في كوت دازير وأحب أحدهما الآخر ذات ربيع ذهب فيه جاك المريض حينها إلى نيس في إجازة نقاهة.

تذكر جاك ما أضحى يناديه «حبه البدوي االساذج» حتى إنه حدّث زوجه عن ذلك. . . غير أن كل ذلك كان بعيداً، وأضحى هو رجلاً لا يشبه إلا قليلاً الضابط الشاب الذي كان عليه في الماضي. . .

ـ كنت حينها مراهقاً حالماً ومتحمساً. لو تعلمين يا حبيبتي كم كانت أفكاري

سخيفة وقتها! فكرت أن أتخلى عن كل شيء من أجل تلك المتوحشة الصغيرة... ما كان مصيري لو تركت نفسي أستسلم لذلك الجنون؟ الله وحده يعلم!

آه! كم كان يبدو له في تلك اللحظة سخيفاً ذلك الملازم أول الصادق والمحتدم في البدايات!

لم يعد يفهم كم كانت أناه الواعية أفضل وأجمل من الثانية، تلك التي نتجت عن الروح العصرية المتباهية والأنانية والمعارضة التي اقتحمته شيئاً فشيئاً.

غير أنه عندما خرج ذلك المساء رفقة زوجه التي ألفت الشوارع الأربعة أو الخمسة المستقيمة للمدينة خالية من السحر تماماً، خاطبها قائلاً:

ـ تعالي، سأريك جنة الجنود... لكن كوني متسامحة جداً لأن العرض يبدو أحياناً بطبيعية خالصة.

وفي الطريق التقيا أحد رفاق جاك المرافَق أيضاً بزوجه. راقتهما فكرة الذهاب إلى القرية ـ السوداء فتوجهوا إلى هناك. ولما كان جاك مصيباً في قلقه فقد سبقهم بعض الشيء، ممهداً لهم الطريق، وتاركاً زوجه في ذراع صديقتها.

غير أنه عند مروره أمام مقهى علي فرانك قفزت ياسمينة وصرخت:

ـ مبروك! مبروك! أنت!

كان مجرد ذكر هذا الإسم يكفي ليتعرف جاك على ياسمينة. واجتاحت قلبه برودة قاسية... لم يجد كلمة يقولها لتلك التي أسعدت عودته قلبها بجنون كبير.

لعن نفسه أن جاءته تلك الفكرة السيئة بإحضار زوجه... أية فضيحة ستقوم بها تلك المخلوقة المفقودة في الفجور، عندما تعرف أنها لن تأمل منه شيئاً!

ـ مبروك! مبروك! ألم تعد تعرفني؟ أنا سمينتك! فلتنظر إلي. قبلني! آه! أعلم جيداً أني تغيرت... غير أن ذلك سيمضي، سأُشفى من أجلك ما دمتَ هنا!...

فضّل أن ينتهي من ذلك بسرعة لقطع تلك المغامرة الكريهة في تلك اللحظة حيث كان يتحكم بشكل مطلق تقريباً في اللغة العربية التي علّمته حروفها الأولى، فقال:

ـ إسمعي... لا تعتمدي عليّ. انتهى كل شيء بيننا. لقد تزوجت وأنا أحب زوجتي. ابتعدي عني ولا تسعي لرؤيتي مجدداً. انسيني، سيكون ذلك أفضل بالنسبة لكلينا.

أخذت تنظر إليه بعينين مشرعتين ذاهلة... الأمر صحيح إذن! انطفأ لتوّه الأمل الأخير الذي كان يجعلها تتمسك بالحياة.

نسيها وتزوج وأحب الرومية، زوجه!... وهي، هي التي فتنها لم يعد لها إلا أن ترقد في زاوية وتموت بها مثل كلب مهجور.

اهتاجت روحها المظلمة إزاء الظلم الوحشي الذي أرهقها.

انتصبت فجأة مهددة بوقاحة:

ـ لم أتيت إذن تبحث عني في عمق الوادي، في دواري حيث كنت أعيش هانئة مع معزي وخرافي؟ لماذا تبعتني إلى هناك؟ لماذا استعملت كل الحيل، وكل السحر لتغويني ولتخدعني ولتأخذ مني عذريتي؟ لماذا ردّدت معي بخيانة الكلمات التي تجعل من ينطقها مسلماً؟ لماذا كذبت عليّ ووعدتني بالعودة في يوم من الأيام لأخذي إلى الأبد؟ آه! أحتفظ دوماً في تميمتي بالرسالة التي أحضرها لي الملازم الشمامبي!... (وأخرجت من ثديها ظرفاً قديماً باهت اللون جداً وممزقاً، ورفعته مثل سلاح، كدليل قاطع...) أجل، لماذا أيها الرومي، يا ابن الكلب أتيت في هذه الساعة رفقة زوجتك الملعونة ثلاث مرات لتحتقرني حتى هذا الماخور الذي ألقيتني به، هاجراً إياي لأموت فيه؟

قطع انتحاب وسعال أجش ومبحوح كلامها، وألقت منديلها المدمى في وجه جاك:

ـ خذ يا ابن آوى، اشرب دمي! اشرب وكن سعيداً أيها القاتل!

كان جاك يتعذب... اجتاحه خجل وندم أمام كل ذلك البؤس، لكن ما الذي يستطيع فعله في تلك اللحظة؟ فقد حُفرت هوّة بينه وبين البدوية أعمق من أي وقت مضى.

ولملئها، وفي الوقت عينه من أجل التخلص من تلك المخلوقة البائسة إلى لأبد، ظن بأنه تلزمها بعض القطع الذهبية... مد كيساً إلى ياسمينة قائلاً:

ـ خذي... أنت فقيرة ومريضة، عليك أن تعالجي نفسك. خذي هذا المال القليل... الوداع.

تلعثم فجأة خجلاً جرّاء ما تجرّأ على القيام به.

نظرت إليه ياسمينة جامدة وخرساء لدقيقة كاملة، مثلما فعلت في الماضي هناك

في وادي تيمغاد الجاف ساعة الوداع المحطمة. وفجأة أمسكت قبضته، وضغطت عليها ناثرة القطع الصفراء في التراب.

ـ كلب! جبان! كافر!

رحل جاك مطأطأ الرأس ليلحق بالمجموعة التي كانت تنتظره غير بعيد خلف الأكواخ...

وهكذا سقطت ياسمينة على مقعدها، وقد رجّتها موجات انتحاب منفعلة... وكانت الزنجية سمرا قد خرجت لمّا سمعت الصراخ، فأخذت تجمع بحرص قطع الضابط الذهبية... ثم طوّقت سمرا بذراعيها السوداوين جيد صديقتها، وقالت:

ـ سمينة، لا تبكي يا أختي... كل الروميين كذلك. كلاب، أبناء كلاب... لكن وبالمال الذي أعطاك إياه سنشتري فساتين وحلي وأدوية لصدرك، لكن لا ينبغي إخبار عليّ، وإلا أخذ منا كل المال.

بيد أنه ما من شيء كان ليواسي ياسمينة.

كفّت عن البكاء، واستعادت وضعها لتنتظر بحزن وصمت... من كانت تنتظر؟ وماذا؟

لم تكن ياسمينة تنتظر إلا الموت، وقد رضخت لمصيرها.

كان مكتوباً، ولم يكن من داع للانتحاب. وكان يتعيّن انتظار النهاية بكل بساطة... حُطّم كل شيء بداخلها وحولها، ولم يعد بإمكان أي شيء أن يمس قلبها، لجعله يفرح أو يحزن.

كان حزنها غير محدود... تألمت على الخصوص لمعرفة أن جاك يعيش، وقريباً جداً منها... قريباً جداً وفي الوقت عينه بعيداً جداً، بعيداً جداً!...

آه! كم فضّلت لو علمت أنه ميت، يرقد هناك في مقبرة الروميين، خلف باب القنسطنطينية.

كان بإمكانها أن تعيد من دون إدراك عيش لحظات الماضي الساحرة، لحظات النشوة والحب التي عاشتها في الوادي الجاف.

وكان بإمكانها أن تتذوق هناك مرة أخرى سعادة عذبة وحزينة عوض الشعور بالعذابات المروّعة لتلك الساعة.

ولما كان على الخصوص قد أحب أبداً امرأة أخرى، رومية!

أحست بأنها ستموت من الألم الفظيع، فقد كان الأمل العنيد في رؤية جاك مجدداً في يوم من الأيام حتى ذلك الوقت، وكانت الإرادة الخشنة الوحيدة لتستمر في العيش كي تراه قد منحاها قوة مصطنعة لتصارع السل الرئوي المفترس بسرعة.

لم تعد سمينة في تلك اللحظة إلا مزقة من اللحم هُجرت للمرض والموت من دون مقاومة... وبضربة واحدة كان حافز الحياة قد حُطّم داخلها.

لكن لم تعد تتواجد في روحها المنطفئة تقريباً أي ثورة.

كان مكتوباً، ولم يكن هناك من علاج إزاء ما كتب.

وحوالي الساعة الحادية عشرة مرّ أحد الجنود المأذونين. تفاجأ لرؤيتها ما تزال هناك مسندة ظهرها إلى الجدار وقد مال ذراعاها، وسقط رأسها على صدرها.

ـ هيه، سمينة! ما الذي تفعلينه هنا؟ هل أصعد؟

ولما لم ترد عليه، عاد الجندي الأحمر الوسيم على عقبيه، ثم قال متفاجئاً:

ـ هيه! فيمَ تفكرين يا ابنتي... أم إنك سكرانة؟

أمسك يدي ياسمينة، وانحنى عليها...

تراجع المسلم بسرعة وقد امتقع وجهه قليلاً، ثم قال:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله!

كانت ياسمينة البدوية قد ماتت.

ملاحظة

ياسمينة هي القصة الجزائرية الأولى لإيزابيل إبرهارت التي اختارت أن تُظهر فيها الحياة الإسلامية في علاقتها مع الاستعمار. والفارق الزمني بين مصادر الإلهام والكتابة والنشر يصل عادة إلى سنة أو سنتين في المحاولات الأولى، حيث الكتابة الأولى، وإعادة الكتابة، وعلى الخصوص صعوبة إيجاد جريدة تقبل نشر نصوصها.

تمكنت إيزابيل إبرهارت من الالتقاء بياسمينة وجاك سنة ١٨٩٩ خلال رحلتها الأولى إلى الجنوب الجزائري الذي تقدمه مختصراً في ملاحظاتها «... بعد يومين (الحادي عشر منه)، الرحيل عند الساعة الثالثة صباحاً على متن بغلين رفقة صلاح باتجاه تيمغاد. ضللنا الطريق. الوصول إلى تيمغاد الساعة العاشرة والنصف صباحاً. الغداء ثم القيلولة قرب باب تراجان...» (الأعمال الكاملة، الكتاب الأول، مصدر

ذكر سابقاً) رحلة مضطربة لم تترك أي لحظة للكتابة، ومع ذلك فذكر «باتنة شهر تموز/يوليو سنة ١٨٩٩» يظهر أسفل القصة عند إعادة نشرها في قصص ومناظر وفي بلاد الرمال. (مصدر ذكر سابقاً).

أقامت الكاتبة في باتنة لفترة أطول في ربيع سنة ١٩٠١، فبعد أن طردت من الواد عقِب الفضيحة التي أثارها اعتداء بهيمة، ذهبت إلى هناك لتلحق بسليمان إهني، الذي أُلحق بتلك الحامية العسكرية. ومن دون شك أنه في لحظة كتابة هذا النص قررت الكاتبة ربط حياتها بحياة الجندي الذي التقته بالواد قبل طردها من الجزائر. ولما تزوجت إيزابيل إبرهارت صار بإمكانها العودة هناك بالجنسية الفرنسية وبداية شهرتها.

وكانت في بون (عنابة) في شهر شباط/فبراير سنة ١٩٠٢. وظهرت ياسمينة («قصة جزائرية») ابتداء من ذلك الشهر (الرابع) على حلقات في تطور الشرق، الجريدة المتواضعة التي كانت تقدم نفسها كـ: «راديكالية، اشتراكية، وصوت المصالح الجزائرية والجهوية. تصدر أيام الثلاثاء والخميس والسبت.» وموضوع لقاء الشرق والغرب عبر لقاء عاشقين، وموضوع مصير النساء المكرهات على البغاء... بالحب، يظهران في قصص كثيرة أخرى.

أم زهار

أُلقيت المرأة على حصير في الغرفة الواسعة المنخفضة ذات الجدران غير المتناسقة من الطين الأصفر، وغطيت بقماش أزرق داكن رسم الجسد الجامد في زوايا متيبسة.

كانت ميتة.

وفي الجوار، في مسرجة أرضية صغيرة ذات شكل قديم، كانت فتيلة تحترق، وتنير شعلة المصباح الغريبة بنور مضطرب الأسوار حيث تهتز ظلال مأتمية كبيرة.

وكان العديد من النساء المقرفصات على الحصير ينتحبن محركات أجسادهن الهزيلة على نحو إيقاعي.

كانت السهرة الجنائزية.

وفي صمت الواحة الورع المطبق كان الصوت الحزين يتردد وحده، وكان يسمع من مكان بعيد جداً، مقلقاً أرواح الروارة المتطيرة والغامضة وكانت من بين النساء أم زهار ومسعودة ابنتا المتوفية.

كانت أم زهار الكبرى في الثانية عشرة من العمر. وكان والدها يبحث لها عن عريس.

غير أنها كانت حزينة. كانت طويلة القامة ممشوقة القوام خلف أثوابها الزرقاء، فبدت تجسيداً لتلك الروح المعذبة عل نحو غريب والحزينة لذلك العِرق الهجين لواد رير المكوّن من خليط من البربر والزنوج الصحراويين يلقي عليه الحزن الكبير والروائح المذهلة والمحمومة لبلدهم ظلاً كئيباً.

وكان لأم زهار وجه مدور ومنتظم القسمات شديد السمرة، وكانت عيناها واسعتين، ونظرتها شاخصة وذات احتدام مقلق في آن.

ومنذ صغرها لم تشارك أبداً في لعب مثيلاتها، إذ كانت تمضي أيامها في الظل الحار، وفي الرطوبة المحمومة للبساتين الغارقة بالماء المالح حيث رسم الملح الحجري الزخرفة الفريدة على أرض القنوات الحمراء والمنعزلة.

أما مسعودة الأكثر بياضاً والأكثر رقة فقد كانت في سنتها الحادية عشرة. وكانت دائمة الضحك ومستخفة. وحده الرعب من الموت هو ما أحزنها لبعض الوقت، ذلك أنها كانت تنتحب هناك مرتجفة.

ولم تكن روح الروارة تشبه في شيء الروح العربية. ولم يفلح نور الإسلام الكبير في جعل ظلمات الخرافة والرعب الروحاني تتلاشى في هذا البلد حيث كل شيء يدفع إلى حلم كئيب.

فأمام الموت لم يكن للريري خضوع العربي الهادئ. وبالنسبة إليه، ليس القبر مكان راحة لا شيء يقلقها، وسيرورة مشرقة نحو المستقبل الأبدي.

احتفظ ذلك الشعب من الماضي الوثني بالخوف من الظلمات والأشباح وما يحمله الليل والموت من أشياء مرعبة.

غير أن أم زهار كانت تشعر بذلك الرعب المعتم أكثر عمقاً، واتسعت حدقتاها الذهبيتان المصقولتان على نحو غريب.

ومع ذلك فقد كانتا تشعران معاً بأنهما فقدتا الإنسانة التي أحبتاها، والتي مالت على نحو مشفق وعذب على طفولتهما كبدويتين صغيرتين وفقيرتين. وخضعتا منذ خطواتهما الأولى لأعمال البيت الشاقة تحت السلطة القوية جداً للأب الغامض دوماً والعصي، والذي نادراً ما كانتا تريانه لأنه كان يعمل في الخارج في البساتين، وتعلمتا أن ترتجفا في حضرته مثل أمهما.

وفي الليل الحار، وفي الصمت المطبق، كانت أم زهار ومسعودة تبكيان من دون وعي تقريباً شعاع الشمس الوحيد، ومظهر السعادة الوحيد الذي يمكن أن يمنح لامرأة بدوية، حب الأم المتألمة والمولعة، أعنف وأكثر من النساء الأخريات...

كان والدهما قد رحل في اليوم السابق إلى البساتين، تاركاً للنساء عناية البكاء على الميتة.

هل أحبها؟

لربما لا يستطيع الحاج سعد نفسه أن يقول إن كان قد أحبها أم لا، فعلى امتداد خمس عشرة سنة كانت عبدة خاضعة.

أما هي فقد أحبته بكل تأكيد قبل أن تضع له مولودهما الأول. وفيما بعد تحول كل حبها إلى ابنتها أم زهار العزاء الصغير والرفيقة الذكية التي أضحت امرأة بسرعة في خضم الحزن المحيط، ثم أتت مسعودة لتلقي في البيت الطيني العتيق بارقة سعادة، السعادة البريئة للعصافير الصغيرة السعيدة فقط لأنها تعيش.

صارت أم زهار ومسعودة تخدمان والدهما وحدهما، وسيمنحهما واحدة في أثر الأخرى إلى رجلين سيختارهما بنفسه، وستصيران خادمتيهما. . ثم سيطلع عليهما أيضاً نهار الأمومة العظيم.

وهكذا يستمر الأمر من جيل إلى جيل آخر.

وأخيراً طلع النهار صافياً، وانزلقت أنوار حمراء على القمم المزرقة لأشجار النخيل، وعلى الأسوار الصفراء، وعلى الأرض المالحة المقفرة لواحة أورلانا في واد رير.

وهكذا خرجت أم زهار ومسعودة إلى الباحة تاركتين النساء مستمرات في انتحابهن في الغرفة حيث أنهت شعلة الماضي الصغيرة موتها. وفي المكان الذي تركت فيه والدتهما ركاماً من الرماد أشعلتا نار الموقد، فقد كان عليهما تحضير القهوة لأن الوالد كان على وشك العودة.

ثنت مسعودة بعناية الغندورات البيضاء، وعمامة النسيج القطني والبرنس الجديد لوالدها، ووضعتها على حصير نظيف في الغرفة الصغيرة العالية التي توصل إليها بضع درجات طينية. سيلبس الأب من أجل مراسم الدفن.

ثم أخذتا تنتظران حزينتين.

عاد الحاج سعد. كان طويل القامة، رقيق العظم مثل كل الروارة. وكان يبدو في الأربعين من العمر. وكان وجهه الطويل الجاف ذا تعبير عصيّ وكئيب. جلس على حصير في الباحة. وقدمت له أم زهار القهوة صامتة.

ثم صعد ليرتدي ملابسه. لم تكن هناك من كلمة يتبادلونها في ذلك البيت الذي دخله الموت.

وقبل الساعات المرهقة لمنتصف النهار حمل الرجال جسد الأم المتيبس على

محمل. . . وما إن وصلوا أمام الباب حتى أمر الحاج سعد ابنتيه بأن تنسحبا إلى الغرفة العلوية، وأن تسدلا الستارة. . .

رحلت الأم مصحوبة بالغناء المنظوم للطلبة الذين كانوا يخصونها بكلمات الوعود والخلود غير الواعية.

فيما بعد عاد كل شيء إلى النظام الرتيب. . . تستيقظ الفتاتان الصغيرتان فجراً، وبعد أن تعدّان الغداء المتواضع للأب، تقرفصان أمام الرحى البدائية، وتحركانها بعصا. . . وعلى مدى ساعات تديران الحجر الثقيل وهما تغنيان بصوت منخفض رتيب رتابة حياتهما.

زادت أم زهار هزالاً منذ وفاة أمها، وصار الالتماع الغامض لنظرتها أكثر كآبة. . .

أما مسعودة، التي بكت كثيراً، فبدت كأنها تعودت على الفراغ الكبير للبيت الذي كانت تدرك أن سيدة له ستأتي إليه في القريب من دون شك. . .

وفي إحدى الزوايا القصيّة للواحة، وفي طريق سيدي عمران، كانت هناك منطقة خالية محاطة بالبساتين. وهناك قبة طينية ترتفع في الوسط غير متناسقة وغريبة. كانت عبارة عن مربع مصفر تعلوه قبة حادة وممدودة إلى السماء. وفي الجهات الأربع للجدران وفي قمة القبة رسوم بربرية مقطبة اصطفت في أشكال ورثت عن الماضي الوثني مشوهة ذلك المبنى الإسلامي.

وفي الجوار قبور طينية أيضاً، عُلّمت بأغصان صلبة سوداء وصحراوية وخرق ملونة تنسل بالريح وتبهت بالشمس.

وهناك، عند الظل الحامي، وضِعت علولة والدة أم زهار ومسعودة. وقد عجنتا من الطين الأحمر ما يشبه معلمة فظة وتلة مسطحة انتهت في كل من طرفيها بآجرّتين منتصبتين.

وكل يوم جمعة كانتا تأتيان وقد أمسكت إحداهما يد الأخرى لزيارة أمهما. وكانتا تقرفصان وتنظران بصمت إلى تربة علولة. أين هي؟ هل كانت تراهما؟

وعندما تكونان حزينتين، عندما يضربهما والدهما، كانتا تذهبان إلى هناك لتحكيا ضيقهما بأصوات خفيضة.

وذات يوم، عندما ذهبتا إلى هناك، وجدتا امرأة مجهولة قرب القبر، مرتدية خرقاً

معتمة، وعلى فخذيها طفل يبلغ من العمر سنة لُفّ في أقمشة بالية. كانت تلك المرأة نحيلة على نحو يثير الاستغراب. وكانت ما تزال شابة. وكانت لتكون جميلة لولا تلك النظرة الجامدة من عينيها السوداوين الكبيرتين كما لو أنها محمومة، والفوضى المتوحشة لشعرها الطويل جداً والذي شد فوق رأسها بخرقة سوداء.

التصقت مسعودة المذعورة بأختها، غير أن أم زهار نظرت إلى الغريبة نظرة عميقة وسألتها:

ـ من أنت؟ وماذا تفعلين قرب أمنا؟

لم ترد المرأة واكتفت برفع ذراعيها الهزيلتين فوق رأسها وصاحت بهذه الكلمة الوحيدة:

ـ يتيمة! يتيمة! يتيمة!

همست مسعودة التي أخذت كل أطرافها ترتجف:

ـ المجنونة. هي هذه المجذوبة[1].

يعيش المجانين غير المؤذين في الصحراء حيث يتجولون بحرية. أعدادهم كبيرة ويتمتعون بحب وتقدير الناس.

لم تكن المرأة تنتمي لنوع واد رير، وليس لها لُكنة أهله.

أضافت أم زهار:

ـ من أين أتيت؟

ـ من البعيد.

ـ هل أنت من صوف؟

هزت الغريبة رأسها نافية.

ـ من بيسكرة؟

استمرت في تكرار حركة رأسها النافية.

همست مسعودة:

ـ إنها تشبه سحارية الداية التي تنتمي لأولاد عمور لزيان.

---

(١) ارتأينا أن نعوض كلمة مرابطية أو زاهدة بكلمة مجذوبة لأنها الأقرب إلى المعنى هنا. المترجم.

اقتربت أم زهار. كانت المخلوقة الغريبة والمخيفة تشدها إليها على نحو فريد. وكانت لدى أم زهار قطعة حلوى ربطت عند طرف خمارها فقدمتها إلى الغريبة وجلست أمامها قريباً جداً منها.

قالت المرأة، وقد بدأت تأكل:

ـ الله أكبر!

بعد صمت طويل، سألتها الفتاة:

ـ ما اسمك؟

فهمت المرأة وردت:

ـ كلثوم!

كانت كلمتها قصيرة ومتقطعة، وكان تنفسها لاهثاً. وبدا أن الطفل كان نائماً. وكان شديد الهزال بشكل مخيف. ثم قامت ورحلت بخطوات سريعة لكن غير ثابتة. ومنذ ذلك اليوم أضحت أم زهار أكثر صمتاً وأكثر كآبة، وفي بعض الأحيان، وعندما تكون نائمة ليلاً، تقفز مصدرة صراخاً عظيماً.

وكانت مسعودة تقول وقد أضحت تخاف أم زهار:

ـ لقد سحرتك تلك المرأة.

ولما لحظ الحاج سعد أخيراً مرض ابنته أرسل مسعودة لإحضار ساحرة القرية سحارية. هزت العجوز رأسها، وعندما أخبرتها مسعودة بلقائهما الغريب مع المرأة، قالت:

ـ لقد سحرت الفتاة. إنها الآن هناك في عايلة، وقد ألقت الاضطراب والخوف في الواحة. يقال بأنها تتسكع في المقابر ليلاً مصدرة صراخاً حزيناً، ويقال أيضاً بأن الطفل الذي تحمله توفي منذ مدة طويلة، وأنها تمنع جسده من التعفن بواسطة السحر.. جاءت من الغرب من بلاد المتيليين وحيدة وعلى قدميها خلف قافلة مزابطية.

كانت سحارية عجوزاً قصيرة، لمّاحة جداً، ورقيقة جداً، وحكيمة جداً.. لكن ما إن أخذت تداعب أم زهار حتى شعرت الفتاة الصغيرة بنفور شديد حد أنها رفضت التكلم معها.

وكان الحاج سعد المتأسف بمرارة لعدم حصوله على ولد، شرف ومجد البيت الأبوي، يفضل دوماً أم زهار.

وكان يقول:

ـ تتمتع بذكاء وشجاعة رجل.

وكان حزيناً لرؤيتها مريضة.

غير أن الحاج سعد كان قد قرر أن يتزوج، فلربما في تلك المرة سيبارك الله له ارتباطه، وسيمنحه ولداً.

ومنذ أن علمت أم زهار بأن غريبة ستدخل العائلة زادت كآبتها.

وولد في قلبها الغريب حب غير محدود للأم الميتة، فبدا لها حضور الغريبة كشتيمة. ستلبس فساتين المرحومة، وستأخذ مكانها في مهمة حياكة البرانس، وستحلب المعز، وستجفف التمر، وستضرب أم زهار ومسعودة لأنها ستكون زوجة أبيهما.

وكان قلب أم زهار يمتلئ مرارة عند تلك الفكرة. وعلى نحو غريب أخذت تفكر في كلثوم. وجدت تلك المرأة قرب قبر أمها، وإذن هي من أرسلتها. . ولم تبرح أبداً فكرة المخبولة أم زهار.

سألتها مسعودة ذات يوم بخجل فيما تفكر خلال صمت أيامها الذي يكدّر البيت العتيق.

فردت أم زهار قائلة:

ـ أفكر في أمي كلثوم.

وبقيت مسعودة ذاهلة، فقد كانت المجهولة توحي لها برعب كبير.

طلب الحاج سعد السعدية ابنة أحد الجيران، وحصل عليها. وحُدّد العرس في ذكرى المولد النبوي في شهر آب/ أغسطس، وكان قد بقي خمسة عشر يوماً قبل ذلك التاريخ، غير أن أم زهار أحست شعوراً مؤلماً. وفي المساء، قبل مغيب الشمس، ذهبت إلى القبر.

كانت قد كبرت، ولم يكن عليها الخروج، لكن عندما حاول والدها أن يمنعها من زيارة قبر والدتها سقطت أرضاً مطلقة صرخة كبيرة ودخلت في حالة تشنج فظيعة

لنصف ساعة. وهكذا أخبرت سحارية الحاج سعد بأن ابنته قد أصابها الشر الكبير، ولا يجب منعها أبداً، فقد أضحت مجذوبة.

وكان البصر يمتد من المقبرة الصغيرة بعيداً في السهل المقفر حيث تلقي السبخات المالحة لمسات بيضاء كابية على الأرض الفاترة.

وتحت أشجار النخيل كانت الساقية المالحة حيث القنوات المخصبة للواحة التي تسبب الحمى والرؤى تهمس بهدوء في ظل وغموض الغابة المعتمة المغلقة بالأسوار الطينية...

جلست أم زهار قرب التلة وقد وضعت يدها على خدها جامدة بلاحراك... غير أن همساً لا يكاد يفهم أخذ يحرك شفتيها.

ـ أمي، يا أمي! أيتها الأم الصغيرة الصديقة! أين ذهبت؟ لماذا تركت ابنتك الصغيرة زهيرة يتيمة؟

وكان يُسمع في بعض الأحيان بين وصلات نحيبها، وكلماتها غير المفهومة، إسم كلثوم.

امتزجت صورة كلثوم في مخيلة الطفلة على نحو غريب بصورة الميتة. وكانت أم أزهار عندما تنادي كلثوم تعتقد أنها ترى تلك التي هدهدتها وأحبتها!

وفجأة، ظهرت كلثوم خارجة من السور الطيني، حاملة وليدها الذي يدعو للرثاء. تقدمت نحو كلثوم وأمسكت يدها. وكما لو أنها في قلب حلم قامت الفتاة وتبعت المجنونة التي أخذتها بعيداً عن الواحة في طريق السبخات المالحة العظيمة.



كانت الكثبان الكابية لواد صوف تمتد تحت سماء سوداء تقريباً لفصل الشتاء حيث الغيوم الممزقة بلون رمادي يصيب بالاضطراب، وحيث تتدفق الرمال الميتة من دون أن تشارك في حياة الرياح اللذيذة. وكانت قبة غريبة قديمة ومائلة تقوم وسط فوضى من الجبال ذات أشكال دائرية مثل الظهور الكبيرة لوحوش مقعية.

كانت سوداء تقريباً وضيقة وعالية ومدبّبة، وأخذت اللون القديم الذي يعود إلى بناء صوف. كان هذا قبر وليّ نُسي في ذلك البلد المأتمي. وكانت هذه قبة رزيرزمول القبلاوية.

حل الليل البارد على ذلك المكان الجامد، وعمّ صمت مطبق.

لكن كانت كلثوم وأم زهار جالستين هناك جوار السور. كانت الأولى مقرفصة بقرب الثانية التي كانت مستلقية تماماً. لم تعد كلثوم تحمل الطفل الغريب الذي لم تفصح لرفيقتها عن سره.

أخذت كلثوم التي بدت أنها لم تعد تشعر بالبرد القارس والرياح التي تعوي في الكثيب تواصل حلمها الأسود.

ومنذ عدة أشهر كانتا تتسكعان عبر الصحراء، وتعيشان من إحسان المؤمنين. لكن في صمت وعلى وجه السرعة اجتاح الظلام روح أم زهار. وكانت مشاهد مرعبة قد حدثت في الأماكن المقفرة التي جالت فيها، فقد عانتا معاً من شر فظيع كانت لكلثوم القدرة الرهيبة على نثر بذوره في طريقها. وذات ليلة، في الصحراء الكبيرة المالحة لسبخة ميلريري، أنهى الطفل موته، وحفرت كلثوم بأظفارها حفرة في التراب المالح واللين.

وخلال الأيام الأخيرة لم يكف سعال فظيع عن هز صدر أم زهار الجاف، وحيثما بصقت كانت الرمال تصبغ باللون الأحمر.

لم تعد تسعل، ولم يعد يسمع صوت تنفسها اللاهث الأبح، فقد كانت تستريح هادئة. واستمرت كلثوم التي بدا أنها لم تشعر بهجوم الرياح الشرس في حلمها الأسود.

وفجأة، وبإحدى أفكارها غير المكتملة والعديدة الموجّهة لحياتها التي قلّما تشبه حياة البشر، قامت كلثوم، ونادت:

ـ أم زهار! أم زهار!

بقيت الفتاة صامتة فانحنت المجنونة عليها ومسّتها. كانت أم زهار ميتة.

جثت كلثوم، مثلما فعلت مع وليدها، من دون دموع، ومن دون كلام، وشرعت في الحفر في الرمال بحدة مثل حيوان... وعندما أضحت الحفرة عميقة بعض الشيء قامت وجرّت أم زهار ومددتها داخل الحفرة. وبحركة مباغتة أخذت قطعة قماش أزرق وغطت بها الوجه الرقيق المتألم واللون الذهبي المصقول للعينين المشرعتين على الليل واللتين صارتا وديعتين على نحو غريب، ثم ألقت الرمال سريعاً جداً على الجسد، وسوّتها بقدميها العاريتين.

ثم رحلت حتى من دون أن تلتفت عبر الرياح والليل باتجاه المجهول...

ملاحظة

الفتاة الصغيرة والموت والألم... ثلاثي مأتمي جديد سكن إيزابيل إبرهارت بأشكال مختلفة. وأم زهار هي القصة الوحيدة التي يبدو فيها الموضوع بذلك الشكل الواضح.

وكانت بين دفاترها المحفوظة في أرشيفات أوتر مير مسودة تحمل عنوان «على غير هدى» حكت فيها موت والدتها في بون والدفن الإسلامي بالمقبرة البحرية.

تقع أم زهار التي نشرت بداية في الأخبار الجزائرية في ١٥ و٢١ أيار/مايو ١٩٠٢ (وأعيد نشرها في قصص ومناظر، وفي بلاد الرمال. (مصدر ذكر سابقاً) في واد رير، بلد الحمى والسحر قرب توقورت، وقد عبرتها الكاتبة البدوية كثيراً سنة ١٨٩٩، خلال رحلتها الأولى إلى الواد، ثم سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠١ خلال رحلتها الثانية.



الفوضوي

كان الأب ترينيتي أنطونوف قد فرّ من روسيا حيث كان مضطهداً بسبب قناعاته التحررية واختار المنفى إلى الجزائر باحثاً عن أرض جديدة ووطن اختياري حيث يكون الناس تحت سماء رحيمة أقل تحجراً بالروتين.

ولما كان مايزال ثرياً بعض الشيء فقد أنشأ مزرعة في إحدى مناطق التل الزاهية. وهناك استمر وسط حقوله وكتبه في ملاحقة حلمه بإنسانية أفضل، غير أنه حظي هناك بالاستقبال العدائي عينه من قبل مستعمرين أوروبيين، وهو ما أجبره على أن ينسحب شيئاً فشيئاً، وينطوي على نفسه.

وعانت روح ابنه الوحيد أندريه الذي كان قد أصبح شاباً من ذلك الانتقال المباغت اضطراباً عنيفاً، إذ استوطن التشويش والغموض الجذاب للآفاق النارية روحه المختارة منذ الأزل كرجل من الشمال.

ولما كان يعيش منعزلاً، لم يكن الناس أبداً بل الأرض الإفريقية بحد ذاتها هي ما جعلته يضطرب بعمق.

وكان والده يخاطبه بابتسامة متسامحة:

ـ أنت شاعر الطبيعة مثلما كنت أنا شاعر الإنسانية... يُكمل أحدنا الآخر.

غير أن أندريه كان يجد صعوبة في التأقلم مع الحياة المنغلقة التي كانت تكفي ضجر الشيخ من الحياة. وكانت نفسه تضيق من وسواسه بالمجهول وحنينه إلى مكان بعيد حيث يكفيه الإحساس بالعيش في تناغم من دون طموح لا يشبع أبداً.

ولم يكن يفتح أحياناً ولمدة أشهر أي كتاب، ممضياً أيامه متجولاً في الدواوير البدوية، ومجالساً السكان الأصليين والمعوزين الذين كانوا يذكّرونه بموجيك بلده، أولئك الذين علّمه والده أن يحبهم وأن يفهمهم.

ولم يكن الفيلسوف المسنّ يدين تلك الأخطاء، وتلك الحياة البدوية المرتحلة التي يفهم سحرها وتأثيرها الصحي لأنه أحس ذلك في الماضي.

ـ أنت محق، إذهب، ونزّه روحك. . . إذهب لتأكل الخبز الأسود، ولتشارك في البؤس والجهل بشكل أخوي. . . سيكون ذلك جيداً بالنسبة لك.

وشيئاً فشيئاً انجذب أندريه نهائياً إلى الأرض الحارقة والحياة البدوية. خدرت روحه، غير أنها بقيت حساسة وفضولية، وتباطأت عجلة عيشه، وقطع بازدراء خيلاء كل جهد عنيف وكل نشاط مُضن.

وبعد أن اختار الجنسية الفرنسية التحق بفرقة قنّاصة إفريقيا، وأُرسل إلى مركز مراقبة بالجنوب، وعوّضت عن ملل ونفور كونه جندياً سعادة الرحلة والاكتشاف المفاجئ والبراق للجنوب.

وبدت له الروائح الأكثر عذوبة للضوء التلي شاحبة هناك في بلد الصمت والشمس الحارقة.

كان هناك برج يعلوه بناء مربع مرتفع على تلة جرداء، وسط صحراء قاحلة بشكل مخيف.

ليس هناك من نبات ولا شجرة تلقي لمسة على الأرض الحمراء المتعرجة والحارقة. . . وهناك، في كل يوم، كانت شمس حارقة تنتزع من الأرض رطوبتها الأخيرة بلا رحمة، مانعة إياه من العيش خارج ألعابها المتقلبة في ساعات الصباح المشرقة، وساعات المساء الأرجوانية والذهبية.

وهناك فهم أندريه طقس البشرية القديمة إزاء الأنوار الإلهية وإزاء النار القوية التي تمنح الحياة والموت.

كتب المجندون الساخرون على باب ذلك البرج لقب عصيدة عدن، الذي أحبه أندريه.

انعزل أندريه المحاط ببعض الرفاق المتعطشين للعودة، والذين كان الإبسنت عزاءهم الوحيد للبقاء هناك، ليتذوق على نحو أفضل مسلسل التحول السعيد الذي كان يحسه ينفجر من أعماق روحه.

وشيئاً فشيئاً أخذ القلق والألم اللذان يشقّ وصفهما واللذان عذباه خلال سنوات مراهقته يرحلان مخليان مكانهما لحزن هادئ وعذب وحلم دائم.

لم يعد يقرأ واكتفى بالعيش فقط... ولم يتخل عن قراره بأن يصير ذات يوم شاعر الأرض المحبوبة، وأن يعكس بروحه الحساسة، روح رجل الشمال، حزن وحرقة وروعة إفريقيا.

غير أنه كان يشعر بأنه لا يزال غير ناضج تماماً، وكان يريد عمله كاملاً... فكان ينظر بعينين عاشقتين ببطء إلى المشاعر تتجمع على نحو طبيعي جداً في طبقات رقيقة صغيرة.

وكان صمت وحلم تلك الحياة يغلفان غريزة الحب غير المشبع بحزن ساحر.



أنهى أندريه سنة خدمته وعاد مفعماً بالحنين إلى الجنوب، إلى جوار والده في الوقت المناسب لرؤيته يسقط مريضاً ويموت.

ـ إبق دوماً صادقاً مع نفسك... لا ترضخ لنفاق االتوافقات، واستمر في العيش وسط الفقراء وفي حبهم.

كذاك كانت الوصيّة الأخلاقية التي خلّفها له والده في ساعة صفاء منحته إياها الحمّى.

لفترة طويلة أعتم الألم العظيم لذلك الفقدان الأفق المبتسم لحياة أندريه. توفي ترينيتي، الشيخ المبتسم واللطيف، والعالم المتواضع المجهول الذي علّمه أن يحب ما هو جميل، وأن يكون مشفقاً وودوداً إزاء كل ألم، والمعلّم الذي حرص بعناية ألا تمسّ أية قذارة روح الطفل وروح المراهق، والذي لم يسمح أبداً للنفاق الاجتماعي أن يطبع ختم قلبه الكئيب... وأحس أندريه نفسه وحيداً جداً وممزقاً جداً وسط الناس الذين أحسهم عدائيين أو غير مبالين.

غير أن ضرورة تنظيم شؤون والده كانت بالنسبة له تسلية شافية.

ثم طرح تلك المسألة التي تقلقه، ما الذي سيؤول إليه؟ وهكذا تذكر أندريه حياته في الجنوب، وأسف عليها. وفكر: «الماذا لا أعود إلى هناك إلى الأبد؟»

باع المزرعة ونقل كتب والده إلى صديقة قديمة، وهي لاجئة بولونية تمارس مهنة داية (مولّدة) متواضعة في وهران، وبقي له حوالي عشرة آلاف فرنك لتحقيق حلمه بعد أن سدّد كل الديون.

عاد ليجثو بورع على قبر الشيخ الفيلسوف الذي كان بلا علامة صليب، في المقبرة الصغيرة أعلى تلة صغيرة تطل على خليج مستغانم...

ثم رحل.

فكر أندريه أنه يكفي المرء أن يمتلك هبة الحزن القيمة ليكون سعيداً...

وذهب ليستقر هناك في الظل الحارق لأشجار نخيل تاميرنا الجديدة في السرير المالح لواد رير الباطني.

اشترى بعض أشجار النخيل، ونبعاً مالحاً يبعث الحياة عبر سواقي صغيرة صافية، وبستاناً، ومنزلاً مكعّباً صغيراً مشيّداً من الطوب الأحمر.

سعى المكتب العربي الذي تخضع الواحة له، انطلاقاً من كراهية أعضائه للعنصر المدني والمستقل على الخصوص، لجعل أندريه يعدل عن مشروعه، فخضع لكل الإجراءات، وكل الإقناع الماكر، ولكل تخويف، واصطدم بعجرفة وغرور الموظفين ذوي اللباس المزين بادعاء، غير أن قراره الهادئ انتهى بالتفوق على مقاومتهم.

ومع ذلك كان يعلم بأن جو تلك المنطقة كان قاتلاً، وبأن الحمّى تعمّ فيه وتقتل حتى السكان المحليين. لكن ألم يُقم على امتداد أشهر طويلة في عمق واد رير قرب مصبّه في سبخة ميل ريري؟ لم يمرض هناك، وبالتالي سيقاوم...

كان يحب ذلك البلد الغامض المذهل حيث تنتشر كل كيمياء المواد الخفية على وجه الأرض، وحيث يخط الماء اليودي والمالح زخارف بيضاء فاتنة في الأعشاب النحيلة للسواقي الهامسة، أو تصبغ بلون الصدأ الأحمر أسفل أسوار الطوب القصيرة التي تجعل البساتين كمتاهات حقيقية معتمة.

ويرشح الماء من كل مكان حافراً بركاً عميقة ذات صفحات جامدة وجذابة حيث تعكس سعف النخل وأوراق التين السميكة والثمار الحمراء لأشجار الرمان...

ثم تنفتح الصحراء فجأة ومن دون تمهيد منبسطة وشاسعة ببياض يعمي الأبصار، ويغطى التراب الإسفنجي بطبقة ملح رقيقة مع مناطق رطوبة داكنة واسعة.

كان كل ذلك يتألق ويلتمع في المدى مع لمسات سوداء رقيقة في الأفق البعيد جداً تعود لواحات أخرى.

وفي منتصف النهار في فصل الصيف يحل السراب في السهل الميت حيث رحلت بركة الله...

وتُملأ السبخات في فصل الشتاء بماء صاف لازوردي أو أبيض وتشكل خشونة الأرض في تلك البحار الخادعة أرخبيلات مختلفة الألوان. . .

لبس أندريه لباس السكان المحليين، وعاش حياتهم فقبلوه وسرعان ما أحبوه لأنه كان اجتماعياً وودوداً، وكان يداويهم دوماً تقريباً عندما يحضرون إليه مرضى طلباً لنصائحه.

كانوا يقولون وقد سمعوه يردد دوماً بأن محمداً كان رسولاً مثل عيسى وموسى، وأنهم قدموا جميعاً من أجل إرشاد الناس إلى سُبل قويمة:

ـ سيصبح مسلماً.

وكان سكان تامرنا روارة من عِرق صحراوي أسود، وشعباً صموتاً ذا مظهر حزين وورع كبير ممتزج باعتقادات وثنية بالتمائم والموتى.

وكان السحر المهدد وصمت الصحراء المتعارض مع الغموض والهمس الحي للبساتين الغارقة بالماء قد طبعا ببصمتهما روح السكان وأعتما لديهم بساطة الإسلام التوحيدي.

وكان الروارة طوال القامة ونحيفين يرتدون أثواباً مقلنسة تخفق، واضعين على أعناقهم سبحات خشبية طويلة ويتسللون مثل أشباح في بساتينهم المتشابكة.

ولحماية تمورهم من السحر كانوا يربطون عظاماً وثنية في أشجارهم عند نضجها، ويزينون المنحدرات والمباني الدائرية المرتفعة لقبابهم ولمساجدهم المشيدة بالطوب برسومات مقطبة. وفي زوايا بيوتهم التي تشبه خلايا يضعون قرون غزلان أو ماعز سوداء. . . وفي ليلة الخميس إلى الجمعة، الليلة المقدّرة، ينيرون مصابيح زيتية صغيرة قرب القبور المتفرقة في البادية.

كانوا يخضعون لوسواس العالم الآخر، والأمور المتعلقة بالليل والموت.

فتح أندريه روحه كاملة لكل المعتقدات ومن دون أن يختار أحدها، ولم تجعله تلك الخرافات الساذجة يثور أبداً لأنه أدرك هناك الحاجة ليقترب من المجهول الذي يحبه.

وكانت النساء ذوات البشرة المعتمة جميلات، وعلى الخصوص الخلاسيات في ثوب الصحراويات المعقد، والذي يمنحهن مظهر عشيقات قديمات. كن يلبسن أثواباً حمراء أو سوداء موشّاة بالذهب والفضة، مع تصفيفة شعر واسعة مشكلة من ضفائر

تصل حد الخدين وتغطي قرطَي الأذنين الثقيلين. وكن يتدثرن من أجل خروجهن بأقمشة زرقاء باهتة تجعل بريق حليهن يخبو.

وكان سحرهن الغريب وغموض نظرتهن يثيران أندريه.

وكان أندريه محباً للذّات لكنه يبحث عن اللذات المشرقة المثملة لنور وهم الحب الإلهي من دون فظاظة الاشتهاء. وهكذا لم يجد إلا نكهة خاملة جداً للإشباع الخالي من كل هالة للحلم. وما كان يبعده على الخصوص هو ابتذال وضغينة الصحو المحتوم والفوري.

وكان يحب رؤية الشابات يخطرن في احتراق المساء حاملات جرارهن سائرات في مواكب طويلة بخطوات منتظمة باتجاه السواقي ذات المياه العذبة، عند تخوم الصحراء حيث تُمدّد شمس توشك على المغيب ظلالهن في الرمال المحترقة.

. . . كانت حياة أندريه تمضي في هدوء سعيد ومن دون ملل.

وكان يستيقظ عند الفجر في تلك الساعة اللطيفة ليستمرئ رطوبة النسائم المنعشة الخفية التي تحرك سعف النخل والنباتات العطرة في البساتين.

وكان يمضي إلى الصحراء على حصانه الذي كان ينبع حبه له من رقته المشفقة على الحيوانات الخاضعة والموثوقة الجانب، قاصداً أحياناً الواحات المجاورة المتعددة في الوادي والمتزينة في تلك الساعة بأنوار ذهبية وقرمزية.

كانت رحابة المكان تشمله، ويوسع الهواء النقي صدره، وتجدد سعادة كبيرة ومجهولة شبابه، مبدّدة خمول الليالي الحارّة التي تعقب توهّج النهار.

ثم يدخل البساتين ويتجول بها، متأملاً الفلاحين السمر مقلبين تراب زرعهم الأحمر، ومزيلين الرواسب المالحة التي تعيق السواقي.

كان الفصل صيفاً، وبدت له بساتين النخل في روعة مطلقة. وأسفل القبة القوية لأشجار النخل حيث عناقيد التمر المعلقة المنفوخة بالنسغ والملونة ألواناً زاهية بحسب أنواعها. . . وكان بعضها ما يزال مخضراً مغطى بغبار فضي يجعل الثمار مخملية، في حين كان بعضها الآخر أصفر تِبنياً وأصفر ذهبياً وبرتقالياً وأحمر زاهياً أو أرجوانياً في مجموعة ألوان دافئة كامدة أو متألقة.

وينحني أندريه طويلاً على ينابيع المياه التي تنبثق من الأعماق الغامضة للنهر غير المرئي.

ثم يدخل إلى انتعاش غرفته الخشنة حيث يتمدد على سريره القصبي مستسلماً للقيلولة الطويلة والساحرة والقاتلة.

وعندما تتمدد ظلال أشجار النخيل على الأرض المرهقة، يوقظ الحاج حفيظ خادم أندريه هذا الأخير بلطف داعياً إياه إلى استحمام لذيذ.

وعندما يستحوذ الحنين إلى العمل على روح أندريه كان يكتب أحياناً. ومن حين لآخر، وبعد مرور وقت طويل، يذكّر الباحثين عن الأدب الحساس بقصص من بلدان الأحلام حيث يضع بعضاً من روحه وحياته.

وكانت تعيش في طريق توقورت غير بعيد عن المقابر الكبرى المسوّرة امرأتان، العجوز أماهنية وابنتها السعدية التي طلقها زوجها لأنه كان يشاع في البلد أنها وأمها ساحرتان.

كانتا تعيشان فقيرتين مما تكسبه العجوز التي تعمل كمولّدة وعشّابة ومُجبّرة ماهرة.

كانتا تحظيان بالاحترام ويُخشى جانبهما بسبب الإشاعات التي انتشرت حول سحرهما والموت الغامض لزوج السعدية بعد فترة قصيرة من تطليقه إياها.

كانت المرأتان الخلاسيتان العربيتان تقريباً تتذكران أصلهما السامي وتمجدانه.

وكانت السعدية جميلة، وجهها مدور بلون معتم ودافئ وقد برز حزن عينيها الكبيرتين.

كانت تعيش حياة معدمة لدى والدتها، وعلى الرغم من جمالها، كان يفر الزوارة المتطيرون منها.

رآها أندريه خلال جولاته المتوحدة في العديد من المرات، وكانت العجوز القلقة من نجاح الرومي كمعالج تحرص على عدم إثارة عداوته. وقدمت له قهوة الضيافة من دون أن تخفي عنه ابنتها.

كانت السعدية منتبهة وهي تخدمه صامتة.

وكان أندريه يعرف بأمر الإشاعات الغامضة التي تحوم حول المرأتين وأغرته غرابة حياتهما وفتنته.

وشكّل جمال السعدية وحزنها اكتشافاً لذيذاً بالنسبة له فصار يزور العجوز باستمرار.

كان يرغب في السعدية، ولم يكن يدافع عن نفسه إزاء رغبته.

ألن يزيّن حب تلك فتاة الغامضة حياته المتوحدة جداً، ويحصل اندماج أكثر كمالاً لروحه مع روح الأرض المختارة عن طريق تدخل إنسانة تنتمي إلى العِرق المحلي؟

استسلم أندريه بلذة احتراق رغبته المثمل، ولم تخيّب السعدية فكرته إلا بنظرتها الثقيلة جداً والتي أنهت بها احتضان ذلك الرجل الأشقر صاحب العينين المكفهرتين والوجه العذب الحالم.

نقلت السعدية ثورة شبابها المتوحد، وكل حاجتها الكبيرة إلى أن تُحَب وألا تبقى وحيدة مثل زهرة متفتحة في الصحراء الخرساء إلى ذلك الرجل الوحيد الذي لم يتجنبها.

وسرعان ما تحدثت إليه بعد أن أضحت أقل خجلاً، فأخذت تذكر أسماء الأعشاب الجافة التي تعلقانها في حزم تحت سقف بيتهما ونجاعتها وسمومها.

ـ هذا هو النعنع المعطر الذي يشفي آلام البطن، وهذا هو الشيح الرمادي الذي يوقف دخانه السعال.

كان لصوتها العميق والمرتعش والمقطوع أحياناً لُكنة غريبة في حديثها باللغة العربية التي كان أندريه يتقنها في تلك الفترة.

وفي أحيان أخرى كانت السعدية تخبره بأسماء الحليّ التي تتزين بها، وذات يوم ومن أجل التعرف إليها أفضل، سألها أندريه عن سبب وفاة زوجها.

ـ عندما تحين الساعة لا يستطيع أحد أن يرجئها طرفة عين... ومن يقترف الإثم يستحق غضب الله.

وعبر ظل عيني السعدية.

وذات يوم وجدها وحيدة في البيت، وكان المنزل معزولاً ومحجوباً بتحصين من أشجار النخيل، غير أنها ابتسمت له ودعته إلى الدخول.

ـ هل ستحضر أمك قريباً؟

ـ كلا، لن تأتي... هل تحضر هنا فقط من أجلها، وهي عجوز مضت أيامها؟

وأخذ أندريه ينظر إليها منتشياً بسكرة الحب المعذبة.

كانت تقف أمامه مرحّبة باسمة ترمقه بنظرة لطيفة.

ولأول مرة عرف أندريه كل لذة الحواس التي أعدّها مسبقاً، والتي زينت كل حلمه.

عندما ملأ نور القمر الغرفة أذنت له السعدية بالانصراف بلطف ومن باب الحذر. . .

ـ قم بدورة. . . لست أدري إن كانت العجوز ستسامح. ينبغي أن أجسها قبل كل شيء.

ثم رحل أندريه.

كانت الصحراء الحمراء تماماً تحترق، وكان ظل أزرق يمتد مثل قطعة قماش أسفل أشجار نخيل كانت قممها تشتعل بالنار.

توقف أندريه وقد ضاق صدره بحماسة عظيمة امتناناً للأرض الجميلة جداً والحياة الجيدة جداً.

ملاحظة

من الصعب تأريخ إلهام هذه القصة وكتابتها، إلا إذا تمت العودة إلى منظر البحيرات المالحة الكبيرة وواد رير حيث مرت إيزابيل إبرهارت في سنوات ١٨٩٩ و١٩٠٠ و١٩٠١.

أما بخصوص الموضوع فهو دائم الحضور في عملها، ومنح مادة لرواية المتشرد حيث الجندي الفار الذي سكنه الحنين إلى «البعيد»، والمفتون في «آفاق النار»، وعديم الجنسية (بحسب مصطلح تلك الفترة) والذي يقابل أحياناً في الطريق حباً سعيداً مثل أندريه، والذي تبع تحوله حتى صار كأنه مسلم قديم مثل المتورني، أو يعود إلى تجواله بعد مأساة مثل رجل الفيلق.

وكانت قصة الفوضوي موضوعاً لأحد إصدارات مجلة أصدقاء إدوارد إضافة إلى السجين عمارة سنة ١٩٢٣، وأعيد نشرها في قصص ومناظر، وفي بلاد الرمال. (مصدر ذكر سابقاً).

الناسخ الجليل

اصطفت الدكاكين أسفل القباب الجبسية التي تمنحها الشمس لوناً ذهبياً، صغيرةً وغير متناسقة مثل حُجيرات. وكانت المناضد عبارة عن ألواح خشنة متادعية.

وفي الضوء المتوهج، كان الذباب يطنّ لاعقاً ومستلذاً بِسُكّر التمر المتخمّر.

وقطعت الظلال البنفسجية القصيرة جداً افتتان الأشياء، وأخرس إرهاق تلك الساعة كل الأصوات.

وكان صاحب أحد تلك الدكاكين جالساً على صندوق مستنداً إلى المنضدة، وقد خفض برنسه على جبهته، ينام شبه مغمض العينين في الاستراحة المخدرة، ولكن بيقظة سِنّور يستريح.

وفي الداخل كان السي الحاج حمودة جالساً على حصير منهمكاً في النسخ الذي كان يمضي في دعة الساعات ورتابتها. كان ينسخ، بقلم خبير، كلمات الكتاب، مزيناً بالذهب والزنجفر الأحمر القرمزي الصفحات العطرة بعد أن كتب على الصفحة الأولى بورع «لا يمسّه إلا إذا المطهرون».

وكان الحاج حمودة يلف ببطء وبيد هادئة وبارعة في زخرف حلزوني الأحرف الحالمة، ويؤطرها بالزخارف الدقيقة تعلوها الألوان الحمراء والخضراء والذهبية الباهتة مفرقاً الآيات بنجوم جميلة صغيرة كنقاط.

وكان الناسخ يعمل واضعاً ببساطة ورقة الرق على فخذه، ومِداده في كؤوس مثلومة، على الرغم من ثقل الهواء المرهق ومن مضايقة الذباب.

وكان الحاج حمودة ملتفاً ببُرنس ذي غطاء رأس، وحول عنقه سبحة طويلة. وكان أسمر نحيلاً، بلحية سيئة التشذيب، مستمراً في عمله بأناة. وكانت نظرته هادئة

منطفئة، ولا يكاد يُلمح فيها أثر الطموح. وفي بعض الأحيان كان يعبر طيف ابتسامة شفتيه عندما يعجب بتناسق إحدى الصفحات وأناقة الزخرفة.

كان يعيش من ذلك العمل الساحر في لامبالاة سعيدة في ذلك الدكان الذي يأويه، في ورع الإسلام الكريم. وقد أمضى هناك سنوات كساكن خفي من دون أن يشارك في الحركة اليومية ولا في الأحاديث.

وكان يحضر في بعض الأحيان بعض الطلبة المسنين المتميزين والمؤدبين ذوي الحركات الرصينة ليجلسوا على حصير الناسخ بعد أن يقبّلوا جبهته علامة على الاحترام، وبعد الكثير من السلام من دون استعجال، ثم يتبادلون أحاديث بطيئة عن أمور قديمة جداً.

وحتى الأطفال لم يكونوا ليجرؤوا على اللعب أمام الدكان، وكأن حضور الحاج حمودة كان يطهره تقريباً.

وفي الساعات التي تعلو فيها نداءات المؤذنين الشاكية على الواد، يقوم الناسخ، ويضع برنسه على كتفه، ويقصد مسجد المصاعبة بحركة وقورة وجميلة.

كان يمضي بين منازل القصر الأخيرة والكثبان الأولى حيث تستمر القباب ذات الألوان المتألقة جداً، وحيث قبة رمادية فوق الجدران المنخفضة والمتداعية، في أرض مسيّجة مزروعة بشجيرات نخيل تخفف حدة الضوء في لون أزرق.

وقرب بئر ذات حوتارة تصر دعامتها الثقيلة، وفي حوض من الجبس، كان المؤمنون يقومون بوضوئهم الاعتيادي.

وفي الداخل الخشن والعاري، وعلى حصائر جافة أضحى لونها أصفر، كانوا يسجدون مجتمعين مقرّين بوحدة الله المطلقة.

وكان الحاج حمودة في الصف الأول، يقرأ جهراً الآيات البهيجة. كان الأغزر علماً من بين الحضور، وكان إماماً.

وفيما بعد يعود إلى الدكان بخطواته البطيئة عينها، ويعود إلى قلمه وعمله القديم.

وفي المساء، في الساعة الحمراء حيث تحرق الشمس القصر، يتجول الحاج حمودة الوحيد دوماً، بحلمه المقيّد اللطيف، وحزنه من دون سبب ظاهر، عند قمم الكثبان وفي المسالك الكئيبة وسط القبور المتفرقة.

ويحدث أحياناً أن يتوقف ويرفع يديه ويبسطهما أمامه مثل كتاب، ثم يقرأ الفاتحة أمام بعض القبور المجهولة أو بعض القباب البيضاء المتوحدة في الصحراء.

وبعد صلاة العشاء يدخل إلى الدكان ويكمل على حصيره الصلاة التي بدأها في المسجد، ثم يجلس مطأطئاً رأسه، ناقراً حبات سبحته وقد حُجبت عيناه بحلم ناء.

ثم ينام في الفراش المتواضع، وحيداً دوماً، من دون أسف ومن دون رغبات، ومن دون أسرة ومن دون هم، منتظراً هدوء الساعة المجهولة...

ملاحظة

كانت زيارة إيزابيل إبرهارت إلى الواد في شهر آب/أغسطس سنة ١٨٩٩ زيارة خاطفة وسحرية. وبعد سنة من ذلك بالتمام والكمال، عادت إلى الواد عازمة على العيش هناك. وهناك، في الواحة المفقودة وسط الرمال الشاحبة، عاشت الإيقاع البطيء لقوم الصحراء، وهناك ستقابل ضابط الصف في الجيش المحلي سليمان إهني، وهناك ستقبل في الطائفة القادرية القوية.

ارتابت سلطات الواد من تلك «المجنونة» التي تحب أحد السكان المحليين والذي كان مع ذلك مواطناً فرنسياً. أمر العسكريون بمراقبتها وطردوها في النهاية بعد أن حاول أحد المتعصبين المسلمين اغتيالها.

أكدت إيزابيل إبرهارت أنها لما كانت بالواد في شتاء سنتي ١٩٠٠-١٩٠١ لم تكتب، غير أنها حملت من هناك «أشياء مرئية» وكتبتها فيما بعد في المنفى في مرسيليا ثم في الجزائر.

نُشر الناسخ الجليل في الفاتح من شهر نيسان/أبريل سنة ١٩٠٣، في البرقية الجزائرية. وكان النص الذي يمكن اعتباره قصة أو بورتريه من بين النصوص الأولى التي قبلت الجريدة الجزائرية الكبيرة نشرها، وأعيد نشره في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

رفيق الجنوب

أقيم خارج المدينة وعند سفوح الكثبان الكثيبة مربّع من المباني من دون أسقف بجدران ثقبت بفتحات على شكل نفليات مانحة ظلاً قصيراً شفافاً تحت أشعة شمس عمودية تقريباً، وسط التوهج الفريد لكل تلك الرمال البيضاء حيث تمتد إلى ما لا نهاية في سعير واسع منازل صغيرة ذات قباب في تلك المدينة التي تدير ظهرها للأرض الصحراوية ذات الكثبان الموحشة.

وصعد من تلك البناية الفريدة غناء بطيء وحزين مع الصرير الدائم لعجلة وسلاسل غير مزيتة.

ووسط مجموعة من الظلال الزرقاء كان رجل يرتدي لباساً أبيض وعمامة مرتفعة ذات شرائط سوداء نصف ممدد وبيده عصا. كان يدخن ويحلم. وبين الفينة والأخرى، وعندما يخف الصرير بعض الشيء، ويصير أبطأ، كان الرجل يصرخ:

ـ ضخّوا! ضخّوا!

وفي الداخل كان ثلاثة أو أربعة رجال نحيلين وسمر في ملابس صوفية بيضاء يديرون بعناء ملفافاً صدئاً، وترفع السلسة الماء الذي يتدفق بخرير منعش في السواقي الجبسية الصغيرة.

كانوا يدورون مرهقين وقد التمعت أجسادهم عرقاً. لو كان جندي الحراسة المنتمي إلى الجيش المحلي لطيفاً ومعترفاً دوماً بالأصل الموحد خلف قسوة المهنة لتمكن أولئك الأشقياء المساكين من التوقف أحياناً ولمسحوا عرق جباههم... وإلا ضخّوا! ضخّوا! دوماً!

ويستمر الأمر كذلك طيلة النهار بتوجس في القلب متسائلين هل أحضر لهم بعض أقاربهم بعض الخبز أو الكسكس، لأن الدولة لا تقدم لهم شيئاً سوى العمل المرهق

تحت سماء رصاصية، وفوق الرمال الحارقة... وأولئك الذين يأتون من البعيد ينتظرون بعبوس أكبر الزاد القليل الذي تمنحه إياهم «الجماعة» عبر دار الضياف والذي لا يكاد يكفي للحفاظ على حياتهم.

سأل الجندي قادماً جديداً، وكان طويل القامة رقيق العظم على هيئة أحد الكواسر:

ـ لماذا سجنت؟

ـ غلبني النوم البارحة أمام مقهى حماة علي. مر الملازم أول ولم أحيّه... فضربني بعصاه، واشتكاني إلى المكتب العربي، وحكم علي القائد بالسجن خمسة عشر يوماً وبغرامة خمسة عشر فرنكاً.

تفاجأ الجندي الذي وصل حديثاً من الأراضي المدنية:

ـ هكذا إذن، هل على العرب أن يحيّوا الضباط مثلما نفعل نحن الجنود؟

ـ أجل كل الضباط... وإلا ضُربنا بالعصا وسُجنّا... بل إن هناك ملازماً أول كان يفرض حتى على النساء أن يحيينه... آه، يا لصرامة النظام العسكري وقسوته!

تابع الجندي غير المبالي استجوابه:

ـ وأنت أيها الشيخ؟

كان السؤال موجهاً إلى شيخ قصير القامة وخجول وصامت:

ـ أنا... من أولاد سعود. رحلت عشيقة الملازم أول ديرون، ولما كان لها متاع كثير، أمر الملازم أول القياد، فأمرني قايدي بأن أحضر ناقتي، ولكن لما كانت مصابة في ظهرها لم أستطع منحها. أنا في السجن منذ ثمانية أيام، واستجوبني الملازم أول فصفعني عندما أخبرته بأن ناقتي مريضة ولم يخبرني أحد كم من الوقت عليّ أن أمضي هنا... يشهد الله عليّ بأن ناقتي كانت مصابة...

استمر الشيخ الذي لم يعد أحد يسمعه في شكواه، متباكياً حول أزمته بإطناب.

وقال شخص ثالث:

ـ حضرت إلى السوق حيث بعت جرّة من الزبدة، وكنت سأستلم المال في اليوم الموالي، غير أنه كانت هناك رسالة مستعجلة لشيخ دبيلا... وهكذا فقد أعطوها لي طالبين مني أن أرحل في الحال... ولما رجوتهم هددوني بالسجن. وحتى لا أفقد

مال زبدتي تظاهرت بالرحيل، وبقيت حتى الصباح. عُلم الأمر، يعلم الله وحده كيف. وأنا في السجن لخمسة عشر يوماً وبغرامة خمسة عشر فرنكاً.

قال الجندي بنباهة:

ـ كان الأفضل لك أن تخسر ثمن الزبدة.

لم يكن كل ذلك «إلا حكايات!» وهكذا عاد الجندي ليتمدد في الظل صارخاً على المساجين:

ـ ضخّوا!

وعاد الصرير الرتيب فيما ارتفع غناء المساجين البطيء الشاكي الذي بدا أنه يفرغ إلى ما لا نهاية حزنهم، واحتجاجهم الخجول على الإدارة الاستعمارية الاعتباطية، تلك القوة العاتية التي تدوس وتسحق عِرقهم كله.

ملاحظة

رفيق الجنوب هو الشهادة الأولى على شكل نص لمصير الأهالي الموضوعين تحت السلطة العسكرية لأراضي الجنوب.

نشر النص في الأخبار بتاريخ ٢٢ آذار/ مارس سنة ١٩٠٣، ثم أعيد نشره في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً). وكانت الأخبار التي أدارها فيكتور باريكون بدءاً من سنة ١٩٠٣ قد صارت تصدر بلغة مزدوجة ومدافعة عن العرب، وهو الشيء الذي كان نادراً في تلك الفترة في الجزائر، وتسبب التعاون المنتظم لإيزابيل إبرهارت مع تلك الجريدة «التحررية» في عداوة ضارية من قبل المستوطنين «المتطرفين» الذين سعوا بكل الوسائل لتلطيخ سمعتها.

اليد

ذكرى بعيدة ترقى إلى أربعة أعوام لصوف الحارقة والمتألقة، والأرض المتعصبة والبهية، التي أحببت والتي كادت تبقيني إلى الأبد في إحدى مدن أمواتها من دون سياجات ومن دون حزن.

حدث ذلك ليلاً شمال الواد على طريق بهيمة.

كنا عائدَين، أنا وأحد الجنود، من إحدى الجولات في زاوية بعيدة. وكنا صامتين.

آه! يا لتلك الليالي المقمرة في صحراء الرمال، تلك الليالي الرائعة والغامضة التي لا تقارن!

هناك كان سديم الكثبان والقبور وهيكل المنارة البيضاء الكبيرة لسيدي سالم المطلة على المدينة يتلاشى، ويغرق ويأخذ أشكالاً بخارية وخيالية.

وكانت الصحراء حيث تتدفق أنوار وردية وخضراء مزرقّة، وزرقاء، والتماعات فضّية مأهولة بالأشباح.

ولم يكن هناك من حد واضح ومحدد، أو شكل يمكن تمييزه في بريق الرمال الهائل.

كانت الكثبان البعيدة تشبه أبخرة متراكمة في الأفق، بينما تضمحل الأقرب منها في صفاء السماء اللامحدود.

مررنا بطريق ضيقة لواد كثيب صغير، مليء بالحجارة المنتصبة. كانت مقبرة سيدي عبد الله.

وفي الرمال الحارقة المتحركة كان جوادانا المتعبان يتقدمان من دون أن يصدرا صوتاً.

وفجأة لمحنا جسداً أسود ينزل من منحدر الوادي الآخر قاصداً المقبرة.

كانت امرأة ترتدي ملحفة صوفية داكنة من جوخ إغريقي.

تفاجأنا وقد تملكنا قلق غامض، فتوقفنا وأخذنا نرقبها. كانت هناك سعفتا نخل منتصبتين على تلة صغيرة تشيران إلى قبر حديث جداً. وبعد أن أزاحت السعفتين، جثت المرأة التي بدا وجهها على ضوء القمر ذابلاً ومجهداً لكبر سنها.

ثم أخذت تحفر في الرمال بيديها بسرعة كبيرة مثل حيوانات الصحراء الحفارة. وكانت تقوم بذلك ببعض الحدة.

انفتحت الحفرة السوداء سريعاً على ما ضمّت من نوم وتعفّن مجهولين.

وفي النهاية انحنت العجوز على القبر المفتوح. وعندما قامت كانت تمسك إحدى يدي الميت التي قطعت من المعصم. كانت يداً مسكينة ومتصلبة وداكنة.

وبسرعة أهالت المرأة التراب على الحفرة، وأعادت وضع السعفتين الخضراوين، ثم أخذت الطريق إلى المدينة مخفية اليد في ملحفتها.

أمسك الجندي المحلي الشاحب والذاهل بندقيته ولقمها ووضعها على كتفه. أوقفته قائلة:

ـ لِمَ تفعل ذلك؟ هل ذلك يعنينا؟ فليحاسبها الله!

ردد الجندي المحلي مرتعباً:

ـ آه يا إلهي، يا إلهي، دعني أقتل عدوة الله وخلقه!

ـ أخبرني قبل كل شيء ما الذي تريد فعله بتلك اليد؟

ـ آه، أنت لا تعرف! إنها ساحرة ملعونة، ستعجن خبزاً بيد الميت، ثم ستجعل بعض المساكين يأكلونه. ومن يأكل الخبز المعجون بيد ميت أخذت ليلة جمعة مقمرة سيتصلب قلبه، وسيموت ببطء. سيصير غير مبال بكل شيء، وسيتملكه انقباض روح مروّع. سيذبل وسيموت. فليحفظنا الله من ذلك الشر المؤذي!

كانت العجوز قد اختفت في لمعان الليل اللطيف منصرفة إلى عملها المظلم.

استئنفنا المسير صامتين في طريق المدينة ذات الألف قبة صغيرة دائرية، التي بدا أنها تمد من أفق إلى آخر ظهور المكثبات الموحشة، كمدينة شفافة هائلة من ألف ليلة وليلة، مسكونة بالجن والسحرة.

ملاحظة

ليس الخوف من الجن مقتصراً فقط على واد رير، فشعب صوف البدوي وشبه المستقر، مايزال يحتفظ ببعض التقاليد الوثنية على الرغم من اعتناقه الإسلام.

ظهر هذا النص بتاريخ ٢٠ نيسان/أبريل سنة ١٩٠٤، في البرقية الجزائرية رفقة نصين آخرين يتناولان الموضوع ذاته. جمعت النصوص الثلاثة تحت عنوان «ظلام» السحار والمغربي، وأعاد فيكتور باريكون جمعها في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً) تحت عنوان الفصل نفسه.

«ذكرى بعيدة تعود لأربعة أعوام...» هكذا بدأت إيزابيل إبرهارت ما يُمكّن من التعرف إلى أن الكتابة تمت في بداية ربيع سنة ١٩٠٤ التي أمضت إيزابيل إبرهارت جزءاً منها في الجزائر بعد إقامتين طويلتين في الجنوب الوهراني.

في الكثيب

حدث هذا في نهاية خريف سنة ١٩٠٠، وتقريباً في بداية فصل الشتاء. كنت أعسكر رفقة بعض رعاة قبيلة الربيعية في أشد المناطق قفراً جنوب طيبة القبلية على الطريق المؤدية من الواد إلى ورقلة.

وكان لدينا قطيع معز كثير العدد بعض الشيء، وبعض الجمال البائسة الهزيلة والمنهكة، الناجية من رحلة إلى عين صلاح قلّصت أعداد الجمال لسنوات، لأن الكثير منها لم يعد من المواكب البعيدة بقولية وإيغلي.

كنا ثمانية إذا ما عددت نفسي وخادمي علي، وكنا نعيش في خيمة كبيرة ومنخفضة من جلد المعز نصبناها في واد صغير بين الكثبان. وبعد أمطار شهر تشرين الثاني/ نوفمبر الأولى والقليلة بدأت النباتات الصحراوية في النمو مجدداً. وكنا نمضي أيامنا نصطاد الكثير من الأرانب الصحراوية، وعلى الخصوص نحلم قبالة الآفاق المتماوجة.

وكان هدوء ورتابة تلك الحياة التي لم تكن مملة في الخلاء يثيران في نفسي نوعاً من الخدر العقلي والنفسي الناعم جداً وراحة مفيدة.

وكان رفاقي رجالاً بسطاء ومتصلبين، لكن من دون فظاظة. وكانوا يحترمون حلمي وفترات صمتي، وكانوا صامتين هم أيضاً.

كانت الأيام تمضي هادئة في سكون مقيم من دون مغامرات ومن دون حوادث...

غير أنه في إحدى الليالي، وبينما كنا ننام في خيمتنا ملتفين في برانسنا، هبت ريح جنوبية عنيفة، وسرعان ما أضحت عاصفة، رافعة سحباً من الغبار.

نجح القطيع الذي أخذ يصدر ثغاء بدهاء في التكدس قريباً جداً من الخيمة حد

أننا أخذنا نسمع تنفس المعز، بل إن منها من دخل مكان إقامتنا، واستقر فيه على الرغم منا بالوقاحة العجيبة لذلك الحيوان.

كان الليل بارداً واستقبلت من دون انزعاج كبير جدياً صغيراً أصرّ بعناد على الانزلاق تحت برنسي، لينام في حضني، راداً بضربات خفيفة من جبهته الصلبة كل محاولاتي لطرده.

ولما كنا متعبين لكثرة تجوالنا خلال النهار فقد نمنا سريعاً، على الرغم من عويل الرياح الحزين في متاهة الكثبان والضجيج القليل المستمر لتساقط الرمال فوق خيمتنا.

وفجأة استيقظنا مذعورين من دون أن نتمكن للوهلة الأولى من استيعاب ما يحدث، غير أننا كنا مسحوقين ومخنوقين تحت ثقل كبير، ذلك أن موجة ريح شديدة أوقعت خيمتنا ودفنتنا تحتها. وكان يتعين الخروج زحفاً بعناء في ظلام الليل الحالك، حيث كانت الريح الباردة تزداد عصفاً تحت سماء غير مرئية.

وكان من المستحيل أن نعيد نصب خيمتنا في الظلام الحالك أو أن نشعل مصباحنا الصغير. كانت الساعة حوالي الثالثة، وفضلنا أن ننام عابسين في الخلاء منتظرين طلوع النهار. وكان على عليّ أن يخرج بعناء كبير بعض الأغطية وبعض البرانس من تحت الخيمة، وكان يتعيّن أيضاً إنقاذ قطيع المعز الذي كان يئن ويقاوم بغضب.

لم أستطع النوم، ذلك أني كنت مختنقة في برنسي الذي كانت ما تزال تتساقط عليه الرمال كالمطر، بسبب الحمحمة المرتعبة والرفسات التي يقوم بها حصاني المسكين الذي شُدّ إلى وتد، والذي أخذ المعز القلق يدفعه.

توقفت الريح تقريباً، وكان عليّ منشغلاً بإشعال نار كبيرة من حطب، وجلسنا جميعاً متحلقين حول النار مرتعدين ومنهكين. وحده علي حافظ على مزاجه الاعتيادي الجيد إذ سخر من هيئاتنا واصفاً إيانا بمنقبين عن الكنوز.

طلع النهار صافياً وهادئاً على الصحراء حيث تركت عاصفة الليل آثاراً رمادية صغيرة وكثيرة جداً مثل أخاديد عاصفة على الرمال.

حضرتني فكرة الركض على صهوة حصاني في السهل الذي يمتد خلف شريط الكثبان الذي يغلق وادينا.

بقي عليّ لإقامة الخيمة وتنظيم متاعنا القليل الذي اجتاحته الرمال والمبعثر في الليل، غير أنه نصحني بألا أبتعد كثيراً عن المعسكر.

لكن ويا للعجب! ما إن بلغت السهل حتى أطلقت العنان لصوفي الوفي الذي انطلق بأقصى سرعته، فقد كان غاضباً هو أيضاً بسبب الليلة السيئة التي قضاها.

ركضنا كذلك لفترة طويلة بسرعة مدوّخة ثملين برحابة المكان في الهدوء الصافي للنهار الذي بدأ يطلع.

وأخيراً، بعد أن بذلت جهوداً لجعل حصاني يبطئ في السير، التفتت لأرى أني كنت بعيدة جداً عن الكثبان.

ومن دون استعجال في العودة إلى المعسكر فكرت في المرور عبر التلال التي تسد السهل، وهكذا ولجت متاهة من التلال أخذت تزداد ارتفاعاً شيئاً فشيئاً إلى الغرب.

كانت هناك أودية تشبه وادينا، وحتى لا أضيع الوقت تركت صوف يخب في تلك المناطق الأكثر ارتفاعاً.

وشيئاً فشيئاً عادت السماء لتمتلئ بالسحب، وأخذت الرياح تهب. ومن دون زوبعة الليل التي جففت وحركت كل الطبقة السطحية للرمال ما كان لريح ضعيفة مثل تلك أن تثير أي حركة على سطح الرمال، غير أن الأرض كانت قد استحالت إلى غبار دقيق جداً تقريباً، واستمرت الرمال في الانزلاق بهدوء من الكثبان الوعرة. لحظت أن آثاري اختفت بسرعة كبيرة.

وبعد ساعة تفاجأت من عدم تمكني من الوصول إلى المعسكر. كان قد تأخر الوقت وأضحت الحرارة خانقة، ومع ذلك، كنت أمضي إلى الغرب؟...

وأخيراً انتهيت إلى التوقف، مدركة أني ضللت الطريق وأني قد تجاوزت المعسكر.

غير أني بقيت حائرة... أين ينبغي عليّ التوجه؟ لم أكن أعرف في الحقيقة إن كنت أسفل أو فوق الطريق، أي إن كنت قد مضيت شمال المعسكر أو إلى جنوبه... كنت أخاطر بأن أتوه على نحو نهائي، ومع ذلك قررت بحسم أن أمضي في اتجاه الشمال الأقل خطورة على كل حال.

لكني وبعد مسير ساعة لم أصل إلى شيء هناك أيضاً، وهكذا عدت لأنحدر باتجاه الجنوب.

كانت الساعة الثالثة عصراً، ولم تعد مغامرتي المؤسفة تروقني. لم يكن لدي إلا

بعض الخبز العربي في غطاء رأس برنسي وقنينة من القهوة السوداء. وبدأت أتساءل حول مصيري إذا لم أجد طريقي قبل حلول الليل.

تركت صوفي في أحد الوديان، وصعدت كثيباً هو الأعلى في تلك المنطقة. لم أرَ حولي إلا التموج الرمادي لتلال الرمال في كل الاتجاهات، ولم أستطع فهم كيف أمكنني في وقت قصير أن أتوه إلى ذلك الحد.

وأخيراً، ولما لم أشأ أن أستمر متجولة من دون هدف، وخشيت أن يباغتني الليل في مكان قاحل لن يجد فيه حصاني المسكين ماءً وحتى بعض الأعشاب، رحت أبحث عن واد ملائم لأقضي الليل به.

فكرت: «غداً، منذ الفجر، سأمضي في الطريق باتجاه الشمال وسأسلك طريق طيبة...»

اكتشفت وادياً صغيراً عميقاً وممتداً نمت فيه بعض الأعشاب الخضراء عل نحو يبعث على الاستغراب. خلصت صوف من إسراجه وتركته لأكتشف «جزيرة روبنسون» الخاصة بي.

وجدت وسط مكان خال رماداً غطي بطبقة رقيقة من الرمال، وبعض عظام الأرانب: أمضى صيادون الليلة هناك، هل سيعودون؟

وصيادو الصحراء رجال أشداء وبدائيون يعيشون في الخلاء من دون مأوى قارّ. يترك بعضهم أسرهم بعيداً في القصور، وبعضهم الآخر هم أبناء رمال حقيقيون يتجولون رفقة نسائهم وأطفالهم، غير أنهم قليلو العدد، وحياتهم كلهم حرة جداً وقليلة التعقيد مثل حياة غزلان الصحراء.

ومن بين أولئك الصيادين أفراد «غير نظاميين» فارين إلى المناطق المعزولة من عدالة الناس، غير أن أولئك المنشقين مثلما يطلق عليهم في اللغة الإدارية كانوا قليلي العدد جداً في تلك المناطق القريبة جداً من المدن والقرى. تمنيت أن أرى الصيادين الذين وجدت آثارهم حتى أخرج سريعاً من الوضع السخيف الذي ألقيت نفسي فيه. أي رعب سيكون عليه رفاقي، وعلى الخصوص الوفي علي؟

انتزعتني حمحمة بهيجة من تلك الأفكار، فقد اقترب حصاني من مكان كثيف جداً وشديد الخضرة. مد رأسه وسط الأغصان، وبدا كأنه يشم شيئاً غريباً.

... كان هناك حاسي وسط الدغل، إحدى تلك الآبار الضيقة والعميقة التي لا

يعرفها إلا المرشدون، والمبثوثة في الغالب بعيداً عن الطرقات، والتي تعج بها الصحراء.

فالنباتات الغزيرة نوعاً ما تفسر بوجود تلك المياه على عمق قليل.

أخذت أحفر بقنينتي المشدودة من طرفها إلى حزامي.

وفجأة سمعت صوتاً يقول خلفي مباشرة:

ـ هيه، أنت. ما الذي تفعله هنا؟

استدرت. كان يقف أمامي ثلاثة رجال سمر، شبه سود، في ثياب رثة حاملين متاعهم القليل في أكياس من القماش، ومسلحين ببنادق طويلة.

ـ أنا عطشان.

ـ هل ضللت طريقك؟

ـ أعسكر غير بعيد عن هنا، رفقة أناس من الربيعية، صوافة رعاة...

ـ هل أنت مسلم؟

ـ أجل، بفضل الله!

كان من يكلمني شيخاً تقريباً، مد يده ولمس سبحتي، ثم قال:

ـ أنت من طائفة سيدي عبد القادر الجيلاني... وإذن فنحن إخوة... نحن من القادرية.

قلت:

ـ الحمد لله!

ألفيت سعادة غامرة لإيجاد أولئك المرتحلين إخواناً لي حيث قاعدة المساعدة الأخوية المتبادلة والتضامن للمنتسبين للطائفة نفسها.

ـ انتظر لدينا حبل ودلوٌ، سنروي ظمأ حصانك وستقضي الليلة رفقتنا، وغداً صباحاً سنأخذك إلى معسكرك. ابتعدت كثيراً إلى الجنوب، وتجاوزت معسكر الربيعية، ويتعين قضاء ثلاث ساعات للوصول إليه إذا ما سلكت طرقاً مختصرة.

أخذ أصغرهم سناً يضحك، ثم قال:

ـ أنت حاذق !

ـ من أي قبيلة أنتم؟

ـ أنا وأخي من أولاد السايح لطيبة القبلية، وهذا أحمد بوجمعة، وهو شعامبي

من بير صوف. كان لوالده بستان بالواد في نجع الشعامبة بقرية القباب. فر من هناك، المسكين. . .

ـ لماذا؟

ـ بسبب الضرائب. ذهب إلى عين صلاح رفقة شيخنا سيدي محمد الطيب، وعندما عاد علم بأن زوجته ماتت، أُخذت في وباء التيفوس، وجرّد بستانه من كل زرع. فر إلى الصحراء بسبب الضرائب.

لفت انتباهي السايحي الشاب الذي كان يتحدث ببدائية ملامحه، وألق عينيه العسليتين الكبيرتين المتكتم. كان يشبه العِرق البدوي المرتحل الممزوج بالعرق العربي الآسيوي والذي يميّز أهل الصحراء.

وكان أحمد بوجمعة نحيلاً ورشيقاً وقد بدا أنه أخوه الأكبر إذا ما صدق ذلك لأنه كان يغطي نصف وجهه بغطاء أسود على طريقة الطوارق.

أما الأكبر سناً فقد كان ذا وجه حسن كقاطع طريق قديم، أقنى الأنف مكتئباً.

وكان أحمد بوجمعة يحمل أرنبين جميلين معلقين على حزامه. ابتعد قليلاً عن البئر وبعد أن قال «باسم الله!» أخذ يفرغ طريدته.

*
* *

اختفت الشمس خلف الكثبان، وانسحبت أشعة النهار الحمراء الأخيرة على الأرض ووسط النباتات ذات الأوراق الحادة والعنابيات، وبدت أكوام الدرين ذهبية اللون في ضوء الليل الأحمر الغامر.

ابتعد سالم أكبر الأخوين عن مجموعتنا، وأخذ يصلي بعد أن افترش برنسه البالي على الرمال برصانة، كما لو أنه أضحى عظيماً.

سألت حماة سرير بينما كنا نحفر حفرة في الرمال من أجل طهو الأرنبين:

ـ أليست لك أسرة؟

ـ لسالم زوجة وأبناء في طيبة، وزوجتي في بساتين رميرمة في واد رير عند خالتها.

ـ ألا تصاب بالملل بعيداً عن أسرتك؟

ـ الأمر أمر الله، سأذهب لدى زوجتي قريباً، وعندما سيكبر أبناء سالم سيصيدون مثل والدهم.

ـ إن شاء الله!

ـ آمين.

فتنني كل شيء وشدني في الحياة الحرة الخلية من الهم التي يحياها أبناء الصحراء الكبرى الرائعة والكئيبة.

بعد أن كوّرنا الأرنبين وضعناهما بوبريهما وسط الحفرة تحت طبقة رقيقة من الرمال، ثم أشعلنا ناراً كبيرة من الحطب.

ـ أنت متزوج من الروارة إذن؟

قام حماة سرير بحركة مشوشة:

ـ هي حكاية طويلة! تعلم أننا نحن عرب الصحراء لا نتزوج أبداً خارج قبائلنا.

أثارت قصة حماة سرير فضولي. حبّذا لو يخبرني بها؟ لا شك أنها قصة بسيطة لكنها مليئة بالسحر الحزين كشأن كل ما له صلة بالصحراء.

بعد العشاء نام سالم وبوجمعة بسرعة، وأخرج حماة سرير الممدد إلى جواري مطويه (كيس صغير من الجلد الفيلالي يوضع فيه الكيف) وغليونه الصغير. كنت أحمل أنا أيضاً في جيب غندورتي علامات الصواف الحقيقي، وبدأنا ندخن:

ـ قص علي يا حماة قصتك.

ـ لماذا؟ لماذا تهتم بما يقوم به أناس لا تعرفهم؟

ـ أتبناك كأخ باسم عبد القادر الجيلاني.

ـ أنا أيضاً.

ثم صافحني سائلاً:

ـ ما اسمك؟

ـ محمود بن عبد الله السعدي.

ـ إسمع يا محمود، لو لم أتخذك أنا أيضاً أخاً، ولو لم نكن كذلك من قبل بواسطة شيخنا وسبحتنا، ولو لم أر أنك طالب، لكنت غضبت كثيراً من سؤالك، لأنه من غير المعتاد كما تعلم أن يتحدث المرء عن أسرته، لكن اسمع وسترى أن المكتوب من قِبل الله قوي جداً، وألا شيء يمكنه أن يغيره.

*
* *

كان حماة سرير قبل سنتين يصطاد رفقة سالم في ضواحي برج سطح الحمرية في منطقة السبخات الكبرى في الطريق من بيسكرة إلى الواد.

حدث ذلك في الصيف، فقد لدغت حماة سرير ذات صباح لفعة (أفعى قرنية) فركض إلى البرج. وكانت هناك عجوز هي حماة الحارس، وهي ريرية، تعرف كيف تعالج كل الأمراض، تلك التي يسمح الله بعلاجها.

وكان الحارس قد رحل إلى الواد رفقة ابنه، وبقي البرج تحت حراسة العجوز منصورة وكنّتها تبر الكبيرة. وفي المساء لم يعد حماة يعاني شيئاً تقريباً، فترك البرج ليلحق بأخيه في سبخة بوجلود، غير أنه كان محموماً بعض الشيء، وكان يريد أن يشرب، فنزل إلى الساقية الواقعة أسفل تلة سطح الحمرية المائلة إلى الحمرة والجرداء.

وهناك ألفى أكبر بنات الحارس، السعدية، التي كانت تبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة، فبدت كامرأة جميلة في ثيابها الزرقاء. ابتسمت السعدية للبدوي ونظرت إليه نظرة طويلة بعينيها العسليتين.

فقال:

ـ سأعود بعد خمسة عشر يوماً لأطلبك من أبيك.

هزت رأسها، قائلة:

ـ لن يرضى، فأنت فقير، وصياد.

ـ ومع ذلك سأفوز بك إن شاء الله. إصعدي إلى البرج الآن واحفظي نفسك لحمرا[1] سرير، الذي وعدك الله به.

ـ آمين!

وببطء، ومنحنية تحت ثقل القِربة الثقيلة المصنوعة من جلد التيس المليئة بالماء، مضت في طريق البرج المنعزل.

لم يخبر حماة سرير سالم بذلك اللقاء، غير أنه أضحى كثير التفكير.

قال مؤكداً:

ـ لا ينبغي أبداً الحديث عن مشاريع الحب، لأن ذلك يكون بفأل سيّئ.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، والواضح أن هناك خطأ في النص الأصلي. المترجم.

وكل مساء، عندما تنير الشمس الصحراء الحمراء، وتميل باتجاه واد رير المالح، تنزل السعدية إلى الساقية لتنتظر «من وعدها الله به».

وذات يوم، عندما خرجت السعدية عند منتصف النهار الحارق لإدخال قطيعها من المعز إحدى مناطق الظل كاد أن يغمى عليها، ذلك أنها رأت رجلاً يرتدي غندورة طويلة وبرنساً أبيض، مسلحاً ببندقية طويلة، يقصد البرج.

انسحبت مسرعة إلى إحدى الزوايا حيث كان بيتهم المتواضع، وأخذت تدعو مرتعشة الجيلاني «أمير كل الأولياء» بصوت خفيض جداً لأنها كانت أيضاً من أبنائه.

دخل الرجل إلى الباحة، ونادى الحارس الشيخ، قائلاً:

ـ يا عبد الله ابن الحاج سعد، كان والدي صياداً، وهو ينتمي إلى قبيلة شرفاء أولاد السايح من مدينة طيبة القبلية. أنا رجل بلا نقيصة وبضمير نقي، والله يعلم هذا، جئت أطلب منك الدخول إلى بيتك، وأتيت طلباً لابنتك.

عقد الشيخ حاجبيه:

ـ أين رأيتها؟

ـ لم أرها، أخبرتني بها عجائز من الواد... إنه القدر.

ـ أقسم بالقرآن العظيم أن متشرداً لن يحظى بابنتي ما دمت حياً!

نظر حماة إلى الشيخ طويلاً، ثم قال:

ـ لا تقسم بأشياء تجهلها... لا تلعب مع الصقر، فهو يحلّق في السحب وينظر إلى الشمس. جنب الدموع عينيك اللتين ستغمضان قريباً!

ـ لقد أقسمت.

فقال حماة سرير:

ـ يشوف ربي! (سيرى الله).

دخل السي عبد الله مغتاظاً إلى بيته، وقال متوجهاً إلى السعدية وامباركة:

ـ من منكما أيتها الكلبتان سمحت للمتشرد أن يرى وجهها؟

لزمت الفتاتان الصمت.

ردت الجدة المحترمة:

ـ إسمع يا السي عبد الله، حضر المتشرد الشهر الماضي ليعالج من لدغة لفعة.

وساعدتني ابنتي تبر الكبيرة، ولم ير المتشرد أياً من ابنتي تبر. نحن عجوزان ومضى علينا زمن الحجاب. عالجت المتشرد في سبيل الله.

ـ راقبيهما واحرصي على ألا تخرجا أبداً.

غير أن السعدية استمرت تنتظر بروح حزينة عودة حماة سرير بإصرار، لأنها كانت تعرف أنه إذا كان الله قد قدّره لها فلن يستطيع أحد منعهما من الاجتماع.

كانت تحب حماة سرير، وكانت على يقين.

*
* *

مر شهر تقريباً منذ أن صعد الصياد إلى البرج طلباً للسعدية، ولم يعد للظهور. كان قريباً جداً، ومع ذلك، ولما كان يتأخر في منطقة السبخات، فقد كانت الكلاب الشرسة في سطح الحمرية تنبح كل ليلة...

أقسم هو أيضاً.

وذات مساء، ولما خفف السي عبد الله من مراقبته الشديدة، ولما كانت تبر مريضة، أمر السعدية بأن تنزل إلى الساقية على أن تسرع.

كان الوقت متأخراً، ونزلت الفتاة بقلب مختلج.

طلع البدر الممتلئ على الصحراء الغارقة في شفافية زرقاء، مثل شفافية الليل. وفي الصمت المطبق كانت للكلاب أصواتها المبحوحة الغاضبة.

وبينما كانت السعدية تملأ قربتها، وذراعاها في مياه الحوض، رأت طيفاً وسط أشجار التين بالبستان.

ـ السعدية!

ـ الحمد لله!

أمسكها حماة سرير من معصمها، وجرّها خلفه.

ـ أنا خائفة! أنا خائفة!

وضعت يدها المرتعشة في يد البدوي القوية، وركضا في سبخة بوجلود باتجاه واد رير... وعندما قالت «أنا خائفة، توقف!» حملها غصباً بين ذراعيه، لأنه كان يدرك أن تلك اللحظة كانت ملكه، وأن الحياة كلها كانت ضده.

هربا، وأضحى نباح الكلاب واهناً.

خرج الشيخ المتفاجئ والمتضايق من تأخر ابنته من البرج. ناداها مرات عديدة، غير أن صوته كان من دون رد، وفُقد في صمت الليل المطبق. جمّدت رعشة أطراف الشيخ، وبسرعة تناول بندقيته ونزل.

كانت الصفيحة تطفو فوق الماء، والقربة الفارغة ملقاة أرضاً.

ـ الكلبة! لقد فرت مع المتشرد، فلتحل عليهما لعنة الله.

عاد بقلب منكسر من دون دمعة ومن دون شكوى.

قال وهو يدخل البيت:

ـ على من يلد بنتاً أن يخنقها مباشرة بعد ولادتها حتى لا يطرق العار باب بيته. أيتها المرأة، لم تعد لك إلا ابنة واحدة... هي أيضاً أكثر مما يجب!... لم تعرفي كيف تحافظين على ابنتك.

أخذت العجوزان وامباركة يبكين وينتحبن كما لو أنهن ينتحبن على جثة ميتة، غير أن السي عبد الله أمرهن بالصمت.



... وفي أثناء ذلك، استمر العشيقان في فرارهما عبر السهل القاحل.

رجته السعدية قائلة:

ـ توقف، قلبي قوي، لكن ساقاي تعبتا... أبي شيخ، وهو عزيز النفس، لن يتبعنا.

جلسا على الأرض المالحة، وشرع حماة سرير يفكر. لقد برّ بوعده، وأضحت السعدية له، لكن لكم من الوقت؟

وأخيراً، وفراراً من الملاحقات، قرر أن يأخذها إلى طيبة، وهناك سيتزوجها أمام جماعة قبيلته من دون عقد زواج.

تمددت السعدية المتعبة والمرتعبة قرب سيدها. انحنى عليها حماة وهدأ بقبلة قلبها المتسارع النبض...

سارا أربع ليال، وأكلا التمر وملة حماة السرير، وخلال النهار وخوفاً من الديرة، وجنود الواد المحليين، كانا يختبئان في الكثبان.

وأخيراً، عند فجر اليوم الخامس، رأيا أسوار طيبة القبلية الرمادية والقباب المنخفضة ترتسم في البعيد.

أخذ حماة سرير السعدية إلى بيت والديه، وقال لهما:

ـ هذه زوجتي، اعتنيا بها وأحباها مثل ابنتكما فاطمة الزهراء.

وعندما كان أمام مجلس القبيلة، قال حماة سرير للسعدية:

ـ على والدك أن يسامحنا حتى يبارك الله زواجنا. ومن دون ذلك ستموت أمك وجدتك التي عالجتني بقلب غاضب علينا. سآخذك إلى بلدك لدى خالتك أم العز. أما أنا، فأعلم ما يتعيّن عليّ القيام به.

في اليوم الموالي، ومنذ الفجر، وضع حماة سرير السعدية المحجبة بصرامة على بغلة المنزل وقصدا واد رير.

مرّا عبر مزغارين كدينة تجنباً لتوقورت، وسرعان ما دخلا بساتين رميرمة المنعشة.

كانت أم العز عجوزاً، وكانت تعمل كقابلة مولدة ومعالجة. كان الناس يحترمونها بل إن بعض الرجال من الروارة كانوا يخشونها.

كانت ريرية سمراء بوجه مومياء في تألق حليها الذهبية. وكانت نحيلة وطويلة القامة في أثوابها الحمراء الطويلة. واحتفظت عيناها السوداوان اللتان ألقى عليهما الكحل ظلاً مقلقاً في نظرتها. كانت تنصت إلى حماة سرير بقسوة وصمت، فأمرته بأن يكتب رسالة باسمه إلى والد السعدية.

وقالت بثقة غريبة:

ـ سيسامح السي عبد الله، زد على ذلك أنه لن يعيش طويلاً.

الحمد لله، والصلاة والسلام على المصطفى!

إلى المحترم، ومن تبع السبيل القويمة، ومن يفعل الخير في طريق الله، التقي جداً، ورجل الثقة، الأب والصديق السي عبد الله ابن الحاج سعد ببرج سطح الحمرية، في صوف. السلام عليك ورحمة الله وبركاته! وبعد، اعلم ان ابنتك السعدية حية ترزق، وأنها بصحة جيدة والحمد لله! وألا رغبة لها إلا في لقائك وأمها وجدتها واختها وأخيها السي محمد في ساعة مباركة قريبة. اعلم أيضاً أني أكتب لك هذه السطور بأمر من نسيبتك لالة

ام العز بنت مكوب الريري، وبأن ابنتك تسكن بيتها. واعلم أني تزوجت ابنتك السعدية على سُنّة الله، وأطلب مباركتك لأن كل ما يحدث يحدث بأمر الله. وفيما بعد ليس لنا إلا انتظار الرد السريع والملائم وأمل الخير. السلام عليك وعلى أسرتك من لدن كاتب هذه الرسالة، ابنك وخادم الله الفقير.

حماة سرير بن عبد الرحمن الشريف.

عندما تسلّم الشيخ عبد الله الأمي هذه الرسالة توجه إلى غيمار، إلى زاوية سيدي عبد القادر. وقرأ له أحد المقدمين الرسالة، ولما رآه شديد التردد قال له:

ـ من كان قريباً من ساقية لن يذهب قبل أن يشرب منها. أنت قرب شيخنا، ولاتعلم ما تصنع. اذهب واطلب نصحه.

وهكذا استشار عبد الله الشيخ، فقال له:

ـ أنت شيخ، ويمكن أن يأخذك الله إليه في أي وقت، لأن لا أحد يعلم ساعته. الأفضل أن يترك المرء بستاناً عامراً على أن يخلف كومة من الخرابات.

وهكذا، امتثل السي عبد الله لحفيد الجيلاني، وممثله على الأرض، ورضخ لعقيدته، ورجا المقدم أن يكتب له رسالة صفح عن الخاطف.

... ونعلمك بهذه الرسالة بأننا عفونا عن ابنتنا السعدية! فليهدها الله، وبأننا ندعو أن تحل بركة الله عليها إلى الأبد. آمين! والسلام عليك. من خادم الله الفقير والضعيف:

عبد الله ابن الحاج.

وأرسلت الرسالة.

وكانت أم العز الصامتة والقاسية لا تتحدث إلى السعدية إلا نادراً. وكانت تقضي وقتها في إعداد الأدوية، وقراءة الغيب بوسائل غريبة مستخدمة عظام أكتاف الخرفان المقتولة في عيد الربيع، وثُفل القهوة، وحجارة صغيرة، وأحشاء الحيوانات المدماة حديثاً.

وبعد أن عادت إلى حجارتها الصغيرة، قالت:

ـ لقد سامح عبد الله، غير أنه لن يعيش طويلاً.

وأضحت السعدية كثيرة التفكير، وذات يوم قالت لزوجها:

ـ خذني إلى صوف، عليّ أن أرى والدي قبل أن يموت.
ـ انتظري رسالته.

وصلت الرسالة، ومجدداً وضع حماة سرير السعدية على بغلة البيت، وقصدا طريق الشمال الشرقي عابرين سبخة مروان الجافة.

وفي برج سطح الحمرية قُدّمت الضيافة، وحدث هناك احتفال كبير، ولم يتم الحديث عن أي شيء مما حدث ما دامت ساعة الخصام قد ولّت.

وفي اليوم الخامس عاد حماة سرير حاملاً زوجته إلى ميرمة...

وفي الشهر الموالي في رجب، أعلنت رسالة من سطح الحمرية للعجوز أم العز أن نسيبها قد انتقل إلى رحمة الله.

قال لي حماة سرير مكملاً قصته:
ـ أنزل إلى ميرمة كل شهر لأرى زوجتي. لم يمنحنا الله أبناء.
صمت لحظة مفكراً ثم أضاف بصوت منخفض جداً وبخوف بعض الشيء:
ـ لربما لأننا بدأنا في الحرام. هذا ما تقول أم العز... هي تعلم.



... كان الوقت قد تأخر، ومالت نجوم الخريف نحو الأفق، وعمّ صمت مهيب الصحراء. كنا ملتفين في برنسينا قرب النار التي خبت جذوتها، وكنا نحلم، هو البدوي ذو الروح المحتدمة والمشوشة، وكان مشطوراً بين سعادة شغفه المنتصر وخشيته من الأقدار والخوف من الظلام، وأنا الوحيدة التي هدهدها حبها البريء، وكنت أفكر في الحب القوي الذي يستحوذ على كل الأرواح عبر غموض الأقدار!

ملاحظة

هي إحدى القصص النادرة حيث الكاتبة هي محور النص، ويمكّن نص في الكثيب من فهم طريقة عيش إيزابيل إبرهارت في الواد رفقة البدو. لحظات سعادة غامرة حيث تتحقق رغبتها العنيدة في «العيش في الصحراء!»

ومثل هذه الرحلات حيث يفر محمود من مراقبة العسكريين لم تكن إلا لتزيد من

شكوكهم حوله. فقد وصلت المكتب العربي رسالة من مجهول واصفة إياها كمغامرة «قادرة على أن تقوم بأعمال ضد فرنسا». ونعلم بأن إيزابيل إبرهارت كانت تقوم في تلك الفترة بتحقيق في ضواحي الواد حول أسباب وفاة مستكشف فرنسي قبل أربع سنوات من ذلك، هو الماركيز دو موريس الذي أقلقت تصرفاته الحكومة بشدة.

وفي حدود علمنا، لم ينشر في الكثيب إلا بعد وفاة الكاتبة في مجموعة نصوص تحت عنوان أشياء حول الصحراء. (الأخبار ٧ أيار/مايو ١٩٠٥)، ثم أعيد نشره في في ظل الإسلام القائظ. (مصدر ذكر سابقاً).

الرائد

كان كل شيء في الصحراء اكتشافاً جديداً بالنسبة له. . . ومصدراً للاضطراب وتقريباً للقلق، فالسماء صافية جداً، والشمس متألقة جداً، والهواء الذي يجر خلفه لمسة بطء يوحي بالخمول واللذة البطيئة جداً، ورزانة الناس المتشحين بالبياض والذين لم يكن يستطيع النفاذ إلى أرواحهم، والنباتات شديدة الاخضرار المتناقض لونها مع الأرض الحجرية الرمادية أو الضاربة إلى الحمرة والكئيبة بجفافها وقحطها البيّن. . . ثم هناك شيء يشق وصفه، غير أنه فاتن ومقلق يصدر من مكان مجهول. كل ذلك بلبل أفكاره وجعل ينابيع من المشاعر تنبثق في روحه، التي لم يشك أبداً في وجودها.

ذهب إلى هناك بداعي الواجب، إذ درس الطب ليعين والدته الضريرة وأختيه وأخاه الضعيف. ومثلما عاش وفكر حتى ذلك الوقت كان خاضعاً للحاجة بكل بساطة من دون انجذاب أو إعجاب بذلك البلد الذي كان يجهل كل شيء عنه.

وهكذا لم يشأ منذ أن تم اختياره أن يقرأ شيئاً عن ذلك البلد الذي كان سينقل إليه حياته الصامتة والهادئة، وحلمه الحزين والمحدود من دون أي محاولة للتعبير.

قصده مستقلاً ووحيداً وغير خاضع لأي تأثير.

ومنذ وصوله سمع تحذيرات رفاقه الذين احتفوا به، والذين خمّن أنهم ساخرون وحُماة، ومستخفون بشبابه المفتقر إلى التجربة، ومهتمون على الخصوص بتأثيراتهم وحريصون على إذهاله. . . سمع غير مبال شكواهم ونقدهم، فليس هناك من مجتمع، ولا شيء يفعله المرء حيث الملل الكئيب، وهو بلد من دون سحر، والجزائريون أفظاظ يعنيهم الربح فقط، والأهالي كريهون، وكاذبون ومتوحشون ودون مستوى أي نقد، وسخفاء. . .

لم يكن كل ذلك مهماً بالنسبة إليه، ولم يحظ إلا بمعرفة هؤلاء الرفاق الذين كان يتعيّن عليه العيش بينهم...

وذات يوم، وجد نفسه وهو ابن الألب ذي الغابات والخضرة والآفاق الصافية المرسومة، وقد دخل فجأة إلى السهل الفسيح، والبور، والمتشابه إلى ما لا نهاية، من دون تخطيط سابق، وتقريباً من دون شيء يسترعي الانتباه.

في البداية سبّب له ذلك نوعاً من الضيق والنفور. وأحس كل المدى اللامحدود، وكل غموض هذا الأفق يجتاحه ويخترقه، ويخدّر روحه، وكأنه يكدّرها هو أيضاً بأشياء غامضة يعجز عن وصفها. وأحس فجأة حلمه يتسع ويتمدّد على غرار الصمت المحيط. ثم رأى روعة ذلك البلد حيث يهيمن النور وحده، ويبعث الحياة في السهل والأرض المهجورة التي تكسر الرتابة في كل لحظة... كان النور، روح تلك الأرض الحارقة، ساحراً، وكان على وشك الافتتان به، وبدا له يقظاً في تنوعه الفاتن.

عرف الخفة السعيدة واللامبالاة الهادئة في ألوان الصباح الذهبية والليلكية الشفافة... وقلق منتصف النهار الذي يصيب بالحمى والسحر الآسر والثقيل حد الخوف، حيث تبدو الأرض الفاتنة تئن تحت وقع مداعبة الضوء الممزق الخانق... والحزن الذي يشق وصفه والعذب مثل التخلي النهائي، والمساءات الذهبية والقرمزية المعدّة للغموض المهدد في الليالي المعتمة والمليئة بالمجهول أو الصافية مثل فجر مضطرب والذي يُغرق الأشياء في ضباب أزرق.

وأحب السهل.

وكانت هناك كثبان بلا لون محدّد متكدسة ومتزاحمة ومتموجة تبدّل ألوانها في كل ساعة، وتتعرض لتغيرات الضوء، غير أنها ثابتة وكأنها نائمة في حلم أبدي، تحيط بالقصر عديم اللون، والذي كانت قبابه الكثيرة مستمرة في إلقاء بقعها الكثيرة.

وكانت هناك شوارع صغيرة متعرجة محفوفة بمنازل جصية قديمة تقطع بخرابات مع ظل نحيل أحياناً لنخلة يتقدم على الأشياء، ويخضع أيضاً للضوء، وساحات صغيرة تفضي إلى طرق صامتة تفتح فجأة على نحو مخيب على مدى الصحراء الشاسعة المتأججة... وثمة برج شديد البياض معزول في الرمال يُرى من خلال سطحه تموج الكثبان اللامحدود مع مخمل النخيل الأسود في الحفر العميقة... وفي أماكن متفرقة دعامة بئر بدائية، دعامة كبيرة قائمة باتجاه السماء، مائلة وتنتهي بحبل

مثل خيط صنارة عظيمة... ويُطل على كل هذا من أعلى التلة برج مربع كبير ذو بياض يقطع كل الشفافية المحيطة ويبدو متألقاً في النهار حد أن لونه يكاد يصيب بالعمى، محتفظاً مساءً بأشعة الغروب الحمراء الأخيرة. كانت تلك منارة زاوية سيدي سالم.

وفي الجوار، خلف الكثبان تختفي القرى المنعزلة الحزينة والقديمة، والتي كانت أسماؤها بالنسبة إلى جاك عبارة عن موسيقى غريبة، مثل البياضة وفم السحيم وواد عليندة وبير عراير...

وأول إحساس مؤثر كان لدى جاك حد الخوف هو الإحساس بالسجن وسط كل تلك الرمال، وخلف كل تلك المناطق المنعزلة، والتي عبرها على امتداد ثمانية أيام، واعتقد أنه فهمها وبدأ يحبها...

كانت كل تلك المساحة التي تفصله عن بيسكرة تمتد أمامه في تلك اللحظة، وقد خلّف وراءه كل المناظر المعروفة نوعاً ما، والمألوفة بعض الشيء، فبدا له كل ذلك آسراً ومستبداً وعدائياً حد اليأس تقريباً...

كان هناك ضابط برتبة نقيب وضابطان برتبة ملازم أول للشؤون المحلية، وضابط في فرقة القناصة وملازم في سلاح الفرسان الجزائريين (السباهي)، وشيخ عربي يبدو كمومياء خلف عدة الرحل. كان أولئك رفاقه الجدد... ومنذ وصوله إليهم اجتاحت قلبه برودة كبيرة. كانوا لطفاء، ويشعرون بالملل، وبعيدين عنه، بعيدين جداً... وألفى نفسه وحيداً على نحو يبعث على الرثاء، وصامتاً وممتثلاً دوماً في علاقاته مع الناس عند الانطباع الأول الغريزي الذي كان يحسه صحيحاً، وانطوى على نفسه. وكانوا ينظرون إلى ذلك الشاب الأشقر ذي العينين الزرقاوين والنظرة التي تبدو وكأنها لا تتجاوزه كرجل كئيب وغير ذي شأن. وهو ما انتهى به إلى الابتعاد عنهم، ما جعله يشعر على الفور بتفوقه عليهم بفضل ثقافته المتقدمة وتربيته الجيدة والرقيقة.

درس بوعي اللغة الفظة والبهيجة التي أحب لكنتها سريعاً والتي أدرك تناغمها مع الآفاق النارية والأرض المتحجّرة...

وهكذا كان يتحدث إلى أولئك الناس ذوي العيون المنكسة والقلوب المنغلقة بخشونة، والذين يقفون خاضعين ويحيّونه عند مروره.

وكان النقيب مالي قد قال:

ـ كل الأهالي، أياً كانوا، ملزمون بتحية كل ضابط، حتى لو جعلته المهنة القاسية صلباً ومنهكاً مثل الجندي رزقي.

ـ أدعوكم إلى عدم جعل أولئك الناس يقتربون منكم، ووضعهم حيث ينبغي أن يكونوا، والشدة معهم من دون ضعف دوماً... ذلك هو السبيل الوحيد لترويضهم.

وكان النقيب مالي قاسياً وبارداً، ويمتثل بشكل أعمى إلى الأوامر التي يتلقاها من رؤسائه، ولم تبدر منه أبداً أي حركة عفوية أو طيبة أو فظّة، وكان بلا شخصية. وعلى هذا النحو عاش النقيب مالي مدة خمسة عشر عاماً وسط الأهالي الذين كانوا يجهلونه ويجهلهم، مثل دولاب ممتاز في آلة السلطة الكبيرة. وكان يفرض على معاونيه الجهل نفسه، والبرودة القاسية عينها...

ومنذ أيام جاك الأولى ثار وأراد أن يكون على طبيعته وأن يتصرف وفق ضميره الحي الذي هيأه لخيبات أمل وتحرر من الوهم وشك دائم.

رفع النقيب كتفيه محدثاً مساعده:

ـ هذا مصدر آخر للمتاعب. سلفه كان يسكر ويجعلنا نبدو أهلاً للسخرية... وهذا أخذ يحدث تجديداً، ويقلب كل شيء، ويحكم وينتقد... أراهن أنه متشبع بالأفكار الإنسانية والاجتماعية وما إلى ذلك... من القبيل ذاته. من حسن الحظ أنه ليس إلا طبيباً ولا يتدخل في شؤون الإدارة... لكن هذا محرج مع ذلك... وبالمقارنة بينهما الآخر أفضل... فهو أقل ارتباكاً، ثم لِمَ لا يرسلون لنا إلا فتية! لو كانوا جزائريين على الأقل...

ومنذ ذلك الحين، حرص النقيب على أن يُظهر بوضوح وبرودة عدم رضاه المطلق. أحزن ذلك جاك. لو أنّه كفّ عن الخضوع لأحكام الناس لتألم أكثر من كراهيتهم له أو على الأقل من ازدرائهم.

وأكثر ما كان ينفره في تعامله مع الناس ابتذالهم وحرصهم على أن يكونوا مثل الآخرين، وأن يفكروا مثلهم ويتصرفوا مثلهم أيضاً، وأن يشبهوا الآخرين ويفرضوا على الجميع رؤيتهم غير الشخصية والمحدودة.

ذلك الحجر على حرية الآخرين والتدخل في أفكارهم وأعمالهم فاجأه على نحو مزعج... أراد الرجال الذين لم يكونوا سعداء بكونهم غير موجودين هم أيضاً أن يلغوا شخصيته، وأن يضبطوا أفكاره، وأن يلغوا استقلالية أعماله... وشيئاً فشيئاً

وعوض اللطف الأصلي وخجله بعض الشيء وتلهف طبعه للرقة، أصابه هيجان وضغينة وثورة. لماذا يقبل اختلاف الناس؟ ولماذا أراد هو أن يدعو إلى التفتح الحر والخصب للفردية مشجعاً تطورها الكامل؟ لماذا ليست له أي رغبة في تشكيل الشخصيات مثل شخصيته وسجن الطاقات في الطرق التي يحب أن يتبعها؟ ولماذا هذا التعصب لدى الآخرين ونصرتهم الطاغية للرداءة؟

وبسرعة كبيرة تشكلت تربية روحه وشخصيته في ذلك الوسط المحصور جداً حيث رأى على نحو مصغر كل البشاعات التي لم يتمكن من رؤيتها من قبل متفرقة في الحشد المختلط والمتحرك.

ومع ذلك، فالاضطراب الكبير الذي أحدثه في روحه اكتشاف ذلك البلد من دون تمهيد، والذي لا يشبه في شيء بلده، أخذ يهدأ ببطء لكن على نحو محسوس. فهناك، حيث أحس في البداية بقلق شديد ومعذب بدأ يلمح كنوزاً من السلام مفيدة وحزناً خصباً.

لم يشأ بداية أن يزور البلد حيث كان منعزلاً منذ ثمانية عشر شهراً على الأقل. لم يكن لديه فضول السائح أو استعجاله. فضّل أن يكتشف التفاصيل ببطء وخطوة خطوة في صدفة الحياة والجولات اليومية، من دون هدف محدد ومن دون قصد. ثم من خلال هذه الانطباعات المتراكمة بالتدريج تشكل الكل في نفسه، منبثقاً بمفرده على نحو طبيعي جداً.

وهكذا نظم حياته حتى يتعذب أقل، ويفكر أكثر...

وغداة وصوله قصد المكتب العربي صباحاً لزيارة المرضى المدنيين والأهالي. وعمل رفقته كمترجم جندي شاب ذو جمال أنثوي بعينين واسعتين ظليلتين وفاترتين، وكان يساعده ممرض برتبة عريف أحمر الوجه مبتهج وساخر بعض الشيء.

وكان هناك حوالي عشرين من الأهالي ينتظرون في ساحة ضيقة وطويلة مقرفصين بصبر ومن دون استعجال.

عندما ظهر جاك وقف المرضى، وبعضهم بعناء، وحيوه بطريقة عسكرية خرقاء.

ورفعت خمس أو ست نساء أياديهن فوق رؤوسهن المائلة، بسطن أكفهن بفظاظة كما لو أنهن يطلبن إحساناً.

ميّز في عيني أولئك الناس الخوف والارتياب تقريباً.

كان الرجال يرتدون البرانس الترابية، وكانت وجوههم داكنة، وملامحهم نشيطة وعيونهم محتدمة وثيابهم قذرة وممزقة... أما النساء فكن أكثر جهامة بوجوههن المتغضّنة، وأفواههن الدرداء، وضفائر شعورهن البيضاء وقد خضبت بالحناء فغدت حمراء، وضفائر صوفية حمراء ويضعن أقراطاً ومناديل... وكانت وجوه الفتيات شهوانية ومنغلقة، ذات ملامح قوية بعض الشيء لكنها صافية ومتناسقة بألوان داكنة وبعيون واسعة متفاجئة وخائفة... والتحفن جميعهن بملاحف زرقاء داكنة، وتقريباً سوداء، وكن يلبسن على الطريقة القديمة.

وكان جاك يصحح بنظرة لطيفة مجاملاً، وبالطيبة الرقيقة والمطمئنة لسلوكه، الفظاظة التي كان يمنحها الجندي المترجم لأسئلته، في فحصه للمرضى، وقد أشفق على كل ذلك البؤس وكل الألم الذي كان عليه أن يخفف من حدته. كان الفحص طويلاً... وقد لحظ اندهاش العريف الساخر... أما الجندي فكان هادئاً.

ومع ذلك، وعلى الرغم من السلوك الجديد الذي اتبعه الطبيب مع الأهالي لم ينفتحوا ولم ينكشفوا أمامه. فقد كانت هناك قرون من الارتياب والانقياد بين الطرفين.

أحس جاك عند ذهابه أن المهمة الذي أراد أن يكون خادمها المتواضع كانت عظيمة ومضنية... غير أنه لم يسمح لليأس بأن يتسلل إلى عزيمته، فلو أن كل الأذرع سقطت أمام العمل الذي يتعين إنجازه، ولو لم يقدم أي شخص المثال الجيد، لانتصر الشر دوماً، وعلى نحو مزمن، ثم إن جاك كان يؤمن بالقوة الحية للحقيقة في ميزة العمل المخلّصة.

كان يقابل في الثكنة وفي المستشفى الوجوه المنغلقة نفسها والقاسية الشبيهة بوجوه من هم تحت إمرته المتصلبة والخالية من الإنسانية. وصدم بفقر حياتهم التي كانت من دون ظاهر خادع: الخدمة الآلية حيث عدد صغير من الحركات والأفعال المكررة دوماً على نحو دائم بدافع الخوف بداية، ثم بحكم العادة. وعدا كل ذلك تُرك لهم شيئان في الحياة الواقعية الشخصية: خبل الكحول والمتعة الآنية بثمن بخس في الماخور حيث تمضي سنوات حياتهم النشيطة في حلقة ضيقة...

وكانت هناك ثماني مخلوقات شاحبة مدبوغة تجلس على مقاعد حجرية أمام ما يشبه كباريه... حيث لباس زاه ومبقع وممزق وقذر لكنه معطر على نحو شديد. أجساد رخوة ملئت بالندوب وبليت لفرط ما دعكتها أياد متوحشة في أسرّة صوفي

المقمّلة من أجل قطع قليلة، وعناق فاتر في الغالب تخضع له بدافع الحاجة من دون أي صدى ومن دون أي ارتعاشة من الجسد الآخر... وقوارير من سوائل قوية تمنح دفئاً مستعاراً وسعادة مزيفة، لا يجدونها لديهم. كان ذلك مكان الحياة الشخصية حيث يلجأ أولئك الرجال الذين كانوا من أجل الخبز والفراش يبيعون حريتهم، آخر الحريات البشرية، حرية ذهاب المرء حيث يريد واختيار الحفرة حيث يعاني ألم الجوع ونهش البرد...

اعتقد جاك ببراءة أنه يرأف بألمهم، مانحاً إياهم الأحاسيس التي تمنحها لهم حياتهم... واعتقد أن اعتراضهم الدائم على قدرهم كان نتيجة لوضعهم البائس... ثم تفاجأ واضطرب لكونهم لا يتعذبون من نمط حياتهم ذاك... «المهنة القذرة» و«الحياة الملعونة ثلاث مرات!» كما كانوا يقولون... «ما يزال هناك العديد من الأيام يجرها المرء خلفه»... كانوا يعدّون أيام البؤس... وعندما تمنح لهم الحرية عند نهاية «إجازتهم» كانوا يتطوعون مجدداً من دون تردد... وإذا ما حدث وانطلقوا متجولين في دروب الحياة فإنهم يعودون بعد ستة أشهر متضايقين واضعين رقابهم طوعاً تحت نير العبودية... وكان جاك يشفق عليهم لكونهم كذلك، ولأنهم لا يتألمون من انحطاطهم وعبوديتهم.

حلم جاك بالدور الممدّن لفرنسا، واعتقد أنه سيجد في القصر رجالاً واعين بمهامهم ومنشغلين بتحسين حياة أولئك الذين كانوا يديرون شؤونهم بالكامل... لكن على العكس من ذلك سرعان ما لاحظ أن النظام المعمول به هناك كان يهدف إلى الحفاظ على الوضع القائم.

عدم إثارة أية أفكار لدى السكان المحليين، وعدم الإيحاء بأية رغبة وأي أمل على الخصوص في مصير أفضل. كلا، وليس عدم جعلهم يقتربون منا فقط، ولكن على العكس من ذلك يتعيّن إبعادهم وإبقاؤهم في الظل في مستوى أدنى... البقاء حراساً لهم لا معلمين لهم.

ألم يكن ذلك طبيعياً، ما داموا في وضعهم الطبيعي في الثكنة لم يسع هؤلاء الناس أبداً أن يهبوا إليهم، وأن يجعلوا الحشد الذي كان في مستوى أدنى، والعامة الفاقدين للشخصية أقرب بعض الشيء من النوع البشري، ما داموا معتادين على التواجد هناك لمنع أي تظاهرة للاستقلال وأي ابتكار؟ كيف وهم المدعوون بصدفة

يعتبرونها سعيدة جداً لأنها تخدم في الآن عينه مصالحهم وطموحهم إلى حكم مدنيين غرباء جداً عن حياتهم كبيكان[1] بداية وكسكان محليين فيما بعد؟ كيف لهم ألا يكونوا أوفياء لمعيارهم العسكري بأن يساووا بين الأشخاص وإخضاعهم للتبعية الأشد صرامة، ومنع كل تطور قد يدفعهم إلى انقياد أقل؟

وخلص مفكراً: كلا، ليست مهمتهم حكم المدنيين... كلا، لن يكونوا أبداً معلمين... وعند رحيل أي منهم سيخلف وراءه الأشياء التي وجدها عند مقدمه، من دون أي تطوير لجعل الأشياء أفضل. إنها سيطرة الجمود. وتلك المناطق العسكرية معزولة عن باقي العالم، عن فرنسا الحية والمرتعشة، وعن الجزائر الحقيقية نفسها، بسور أشبه بسور الصين يُعنى به ويُشاء له أن يزداد علواً بحيث يستحيل اختراقه إلى الأبد، والحفاظ عليه كمعقل للجيش مغلق في وجه كل ما لا ينتمي إلى الجيش.

اجتاحه حزن كبير لفكرة تلك المهمة التي كان يمكن لها أن تكون خصبة جداً والتي أفسدت.

وما زاد من مرارة استيائه عجزه الشخصي عن تحسين أي شيء في ذلك الوضع الذي كان يرى الخطر الاجتماعي والوطني كامناً فيه.

ولما كان يحتل مكانة لا شأن لها في النظام المهيمن على كل شيء والذي كان أساس كل شيء، ولما وضِع جوار المكتب العربي ذي السلطة المطلقة، ولما كان بلاسلطة، فقد كان عليه أن يظل يلعب دور المتفرج العاجز.

حاول في البداية أن يتحدث في مطعم الضباط، غير أنه اصطدم بالرأي المسبق الذي لا يزحزح وبالقناعة الصادقة والمعاندة لأولئك الرجال، وأيضاً بسخريتهم التي جعلته يخرس.

«ما تزال شاباً يا دكتور، وتجهل كل شيء عن هذا البلد، وعن هؤلاء الأهالي... عندما ستعرفهم ستقول مثلنا»، قال النقيب مالي هذه الكلمات بنبرة استخفاف ساخرة جعلته يجمد.

* * *

---

(١) بيكانس: مدنيون في المصطلح العسكري. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت). الأصل.

منذ أن بدأ يفهم اللغة العربية ويعبّر بها قليلاً صار يفضّل الذهاب ليتمدد على حصير أمام المقاهي المغربية، ويسمع الناس وأغانيهم الحرة والحزينة بشكل لامحدود مثل صحرائهم ومثله، وأحاديثهم البسيطة، وشيئاً فشيئاً اعتاد الصوافة على ذلك الرومي، ذلك الضابط الذي لم يكن قاسياً ومتعالياً والذي كان يتحدث إليهم بابتسامة صافية جداً، والذي كان يجلس بينهم، والذي كان يوقفهم بحركة عندما كان يدنو منهم مانعاً إياهم من أن يقوموا لتحيته...

لماذا كان كذلك؟ كانوا لا يعرفونه، ولا يفهمونه، لكنهم كانوا يرونه يقدم المساعدة لكل مظاهر بؤسهم، ويقاوم بصبر حذرهم شيئاً فشيئاً، وجهلهم، وأخذ المرضى المطمئنون لسمعة الطبيب الطيب يتدفقون على المكتب العربي، ويتحدثون إليه خلال جولاته، ويشوشون حلمه على حصائر المقاهي... وعوض أن يفقد صبره أدرك أن هناك تقدّماً وفرح لذلك. لم تنفره صعوبة مهمته أو جحود الكثيرين.

وكانت لحظة راحته اللذيذة وحلمه الحزين اللطيف مساءً عند مغرب الشمس. كان يقصد مقهى مغربياً صغيراً، قبالة المكتب العربي تقريباً، وهناك يسمع وينظر إلى فتنة كل يوم تبعث من جديد، الفتنة غير المتشابهة أبداً للحظة الأرجوانية.

وأمامه كانت مباني البرج اللبنية تأخذ لوناً وردياً في البداية، وشيئاً فشيئاً يغدو أحمر تماماً كالجمر، فريداً ويخلب الأبصار... وتبدو كل الخطوط المستقيمة والمنحنية التي ترتسم على أرجوانية السماء وكأنها مرصعة بالذهب... وفي الخلف كانت القباب المحترقة في المدينة والكثبان الكبيرة تتوهج... ثم يأخذ كل شيء في الشحوب تدريجياً ليعود إلى الألوان الوردية المتقزحة... وينزلق ضباب شاحب بلون أصفر فضي على نتوءات المباني وقمم الكثبان. وتزحف الظلال البنفسجية لليل على تحصينات عميقة وممرات ضيقة وسط الكثبان، صاعدة إلى القمم المتوهجة مطفئة الحريق... ثم يعتم كل شيء في ظل أزرق بحري عميق.

وهكذا، ترتفع من منارة سيدي سالم الكبيرة، ومن الأسطح الصغيرة للمساجد الخربة الأخرى أصوات المؤذنين، خشنة جداً وفظة جداً. ومع تلك الأصوات التي تبدو كأنها قادمة من حلم تصمت آخر الأصوات البشرية في المدينة غير المبلطة، والخالية من العربات. وكل مساء ينثر الناي البدوي حزناً غير محدود وأبدياً هناك في شوارع المصاعبة الخربة الصغيرة غرب الواد.

وكان جاك يحلم.

أضحى يحب البلد، وكانت مهمته اليومية تكفي حاجته الفنية للعمل. . وكان كل الحزن الكبير وكل الغموض الذي يمنح ذلك البلد سحره يكفيان حاجته إلى الحلم. . .

بقي جاك عفيفاً جداً بإحساس جمالي أخلاقي نوعاً ما، ويخجل أيضاً، غير أنه أحس في ذلك البلد أكثر مما أحس في فرنسا اضطراب شهواته المتعطشة في خدر تلك الحياة الرتيبة، وفي انعزال روحه. لم يتوقع ذلك. . . وفي تلك الأثناء كانت الرغبة لديه التي هيجت في البداية كل حواسه لذيذة مع أنها غير مرتوية، وحافظ على روحه منفتحة على كل النشوات وكل الرعشات.

غير أنه سرعان ما تعبت أعصابه المهتاجة جداً من كل تلك الحدة غير الطبيعية المرهقة، وأحس اضطراباً مجهول المصدر، واجتاحه غضب لا يقاوم، وأقلق هدوءه العذب.

غضب من نفسه وصارع هيجانه الذي لم يخف طبيعته المادية تقريباً.

وذات مساء أخذ يتجول ببطء، ومن دون هدف محدد، في شارع صغير في أعشيش شمال الواد، حيث كانت كل المنازل خربة وتبدو غير مأهولة. أحب ذلك المكان الصامت والمهجور. كان السكان قد ماتوا من دون ورثة أو رحلوا إلى الصحراء إلى غدامس أو بير الصوف أو أبعد منهما. . . حل الليل، وبقي جاك جالساً على حجر يحلم.

وفجأة لمح في إحدى الخرابات ضوء فانوس خافتاً. . . وسمع صوتاً متناغماً مرفقاً بخلخلة الدمالج. . . كان صوت امرأة تغني برقة. . . بدا ذلك أشبه بسحر لكثرة ما كان في إيقاع الغناء من حزن غامض. . . وكانت رياح صوف الأبدية تصدر حفيفها في الخرابات، وفي أنفاسها الفاترة، وانزلقت رائحة البخور.

توقف الغناء، وظهرت امرأة عند عتبة منزل أقل قدماً من المنازل الأخرى. كانت طويلة القامة ممشوقة القد ملتحفة بملحفتها السوداء، فاستندت إلى الجدار بلطف. رآها جاك في الضوء الشاحب الذي كان ما يزال بنفسجياً على نحو مشوش. كانت ذابلة بعض الشيء، كما لو أنها منهكة، وكانت جميلة جداً جمال تمثال.

رأته فاضطربت، غير أنها لم تدخل البيت... وتبادلا النظر طويلاً فأحس جاك باضطراب يجلّ عن الوصف يجتاحه.

قالت بصوت خفيض جداً:

ـ أروح!... (تعال!).

تقدم من دون تردد.

أمسكت يده وقادته في ظلمة الخرابات باتجاه الضوء الخافت المعلق على قطعة حديدية غرزت في الحائط حيث كان فانوس صغير من طراز قديم جداً مناراً ويتراقص في ما يشبه مجمرة حديدية مربعة صغيرة بها زيت وفتيلة. وكانت هناك غرفتان ما تزالان مأهولتين تفتحان على باحة داخلية صغيرة. وفي إحدى الزوايا، وعلى جمر نار، كان قِدر يغلي فيه الماء. وكان هناك قِطّ أسود كبير متكوّماً برداً، ويحلم على النار الحمراء بمواء سعادة خافت.

أجلست المرأة جاك عند عتبة الغرفة وظلت واقفة أمامه صامتة. أمسك جاك يديها. كانت يداه ترتعشان، وأحس رأسه يدور بلذة، وصعدت من صدره الضائق حرارة لطيفة حتى حلقه، وكانت شبه خانقة. لم يعرف أبداً ثملاً بمثل تلك الحدة، وأراد أن يمد إلى ما لا نهاية ذلك العذاب العذب، لكنه من دون إدراك تلعثم قائلاً:

ـ لكن... من تكونين؟ وكيف توجدين هنا؟

كانت تدعى امباركة، توفي زوجها الذي كان مزارعاً فقيراً من قبيلة أعشيش... وهي يتيمة ليس لها إلا أخ يعمل حاملاً للمياه في إحدى مدن التل الكبيرة، وليست تدري أيها تحديداً. ولما بقيت وحيدة فقد استسلمت للجنود والسباهيين، فخرجت وشربت معهم. ولما لم يردها أحد زوجة له لجأت هناك في بيت أخيها القديم حيث تعيش رفقة خالتها الضريرة. وكانت تعمل كمومس من أجل طعامها، وقد صارت تخشى المكتب العربي... وكان الأمر يتعلق بالطبيب أي به، رجته ألا يدخلها الماخور، والحفاظ على سرها، فطمأنها جاك... كانت امباركة قليلة الكلام، وكان حكيها بسيطاً وسريعاً... وبدت قلقة.

تركت جاك وذهبت لإغلاق المدخل بأغصان وحجارة، فقد كان الجنود يأتون في بعض الأحيان ليلاً...

ثم عادت وحملت المصباح الصغير إلى الغرفة الفارغة والعارية لتضعه على

المائدة التي تشكل أثاثها الوحيد، إضافة إلى حصير وبعض الخرق. أحس هناك فجأة السعادة التي حلم بها تقريباً. . . وبدت الحياة بسيطة جداً ولذيذة جداً.

*
* *

بقيت امباركة صامتة في حميميتهما ورزينة، وبخضوع مطلق لكن من دون أن تنفتح. فُتن جاك بظل الغموض الذي تتدثر به من دون وعي، ولم يقلقه ذلك أبداً. وعندما تراه يحلم تلتزم الصمت، مقرفصة في الباحة الصغيرة أو مستغرقة في أعمال البيت أو مغنية. وكان صوتها البطيء جداً والعذب والأغنّ بعض الشيء كأنه إيقاع حلمه.

كان يأتي إلى هناك كل ليلة، فاراً من مطعم الضباط الممل، وأضحى منزل تلك المومس العربية بيته. هل كانت وفية له؟ لم يشك في ذلك.

فمنذ اليوم الأول قبلت بنمط العيش الجديد ذاك من دون أن تتفاجأ أو تتردد. ولم يكن ينقصها شيء. ولم يعد الجنود السكارى يأتون ليلاً لشراء حبها، وامتلاك الحق في ضربها، وجعلها تتألم مقابل بعض القطع النقدية القليلة. وكانت امباركة سعيدة.

لحظ جاك في الثكنة وفي المكتب العربي تقدماً كبيراً، فلم تعد هناك ريبة في النظرات، ولم يعد هناك خوف ممزوج بالكراهية الفظة، واعتقد صادقاً أنه كسب كل أولئك الرجال.

صحيح أنه كان يوجد بعض الإهمال لديهم اتجاهه، فقد أضحوا أقل إسراعاً لخدمته، وأقل خضوعاً، ومتمرّدين غالباً على أوامره، وفعلوا ذلك من دون خوف، لأنه لم يكن يريد استخدام حق العقاب.

كان جاك ذكياً جداً ليميّز كل ذلك. لكن ألم يكن ذلك طبيعياً؟ فإذا ما كان أولئك الرجال خاضعين لرفاقه حد التخلي المطلق عن كل إرادة بشرية فقد كان الخوف هو ما يرغمهم على ذلك. كانوا يسارعون إلى خدمتهم أكثر من طاعته. . . لكنهم كانوا يقومون بذلك مكرهين. . . أما اتجاهه فحتى خدمات رزقي المتصلب جداً والجامد جداً كانت تشبه مجاملات، بل حتى في صراعه الدائم الذي أخذ يخوضه ضد إرادة الأهالي السيئة الذين لم يكونوا يريدون اتباع وصفاته أو تحسين شروط صحتهم، حقق جاك بعض النصر، وحظي بصداقة أكثرهم ذكاءً، الصوفيين والطلبة، إذ أفلح في كسب

تقديرهم الذي فتح له قلوباً أخرى كثيرة، أكثر بساطة وأكثر غموضاً بفضل احترامه لإيمانهم ورغبته الجلية في فهمهم والنفاذ إلى طريقتهم في رؤية الأشياء وفي تفكيرهم.

لِمَ الحكم بالرعب؟ لمَ الإيحاء بالخوف الذي هو شكل من أشكال النفور والكره؟ لمَ الحرص بشدة على الطاعة العمياء والسلبية؟ طرح جاك هذه الأسئلة على نفسه، وأثاره حقاً كل ذلك النظام الساحق. ولم يكن يرد تبنّيه.

دعا النقيبُ الطبيبَ إلى مكتبه:

ـ إسمعني أيها الدكتور العزيز! أنت شاب جداً، وحديث العهد في هذه المهنة... تحتاج إلى النصح... وإذن أنا آسف لأقول لك هذا، لكنك ما زلت لا تعرف كيف تحدد وجهتك هنا، فأنت تبالغ في التسامح مع الناس... تفهم أنني ما دمت قائد سلاح فإن مهمتي تقضي بأن أحافظ على الانضباط...

«غير أن ذلك أقل خطورة من تعاملك مع الأهالي المدنيين، فأنت متآلف معهم فوق الحد، ولستَ بذلك الهاجس الدائم والضروري لتأكيد وضعك، وسلطتك عليهم. ثق بي، هم متشابهون، وهم محتاجون لأن يُحكموا بقبضة من حديد. قد تكون لسلوكك فيما بعد عواقب وخيمة... بل يمكنه أن يلقي التشويش في تلك النفوس المتوحشة والمتعصبة، وأنت تثق في إخلاصهم والصداقة المزعومة لزعمائهم الدينيين... لكن كل ذلك ليس إلا خدعة... حذار... حذار! أخبرك بكل هذا من أجل مصلحتك، ثم عليّ أن أتوقع عواقب سلوكك... أنت تدرك أني أتحمل كل المسؤولية هنا!»

أحس جاك أنه جُرح جرحاً غائراً، جرّاء ذلك الحديث وأنه كان مملاً على الخصوص، فصدرت عنه حركة غضب، ثم شرح للنقيب مذهولاً في البداية، مكتئباً بعد ذلك، أفكاره وكل ما نتج عن ملاحظاته.

عقد النقيب مالي حاجبيه، ثم قال:

ـ يستحيل عليك يا دكتور القيام بعملك هنا بمثل هذه الأفكار. تخل عنها أرجوك. هذا كله مجرد أدب، هذا أدب محض، لو أننا تبنّينا أفكاراً مماثلة لكنا عجّلنا بوقوع عصيان!

أحس جاك غضباً عارماً ويأساً أمام كل سوء الفهم المحزن ذاك.

ـ اعتقد ما تشاء يا دكتور لكني أرجوك ألا تطبّق مبادئ مماثلة هنا. لن أستطيع

الاستمرار في التسامح معها. نحن قلة من الفرنسيين، ويبدو أنه عوض إثارة انشقاقات مماثلة بيننا علينا أن نتفق...

صرخ جاك:

ـ أجل، من أجل عمل مفيد وإنساني وفرنسي!

رد النقيب بتعال:

ـ نحن هنا من أجل الحفاظ على العلم الفرنسي عالياً وحتى لا يصله أحد. وأعتقد أننا نفعل ذلك بتفان، بواجب الجنود وبواجب الوطنيين... لا يمكننا القيام بذلك بطريقة مغايرة وإلا تخلفنا عن أداء واجبنا. نحن جنود، مجرد جنود. في النهاية، حرصت على تحذيرك...

ترك جاك النقيب وقد أقلق هدوءه السعيد، وأحس مللاً وانزعاجاً اجتاحاه ببرود.

على أنه لما كان مقتنعاً بقوة لم يغير شيئاً من سلوكه.

ويوماً بعد يوم، أحس ازدياد عداء رفاقه. وظلت علاقاته بهم لطيفة غير أنها اقتصرت على ما هو ضروري. فقد كان عنصراً زائداً، وكان يتسبب في الحرج.

* * *

وهكذا انطوى جاك على نفسه أكثر، وأضحى البيت الخرب الصغير أعزّ عليه، فقد كان يستريح هناك في ذلك المنظر الذي كان يحب، بعيداً عن كل ما أضحى يجعل حياته لا تطاق في البرج. لم تسأله امباركة عن الأشياء التي تسبب حزنه، لكنها كانت تجلس عند قدميه، وتغني له أغانيه الحزينة المفضلة، أو تبتسم له...

هل كانت تحبه؟ لم يستطع جاك تحديد ذلك، غير أنه لم يكن يتعذب من ذلك الشك لأن أكثر ما كان يجذبه إليها ويفتنه هو الغموض الذي كان يغلف كل شخصيتها. كانت بالنسبة له تجسيداً لبلدها وعِرقها بعض الشيء بحزنها وصمتها وعجزها المطلق عن الفرح والضحك... فامباركة لم تكن تضحك أبداً.

كان جاك يكتشف في ابتسامتها كنوزاً من الحزن واللذة. ثم إنه كان يحبها كذلك، غامضة ومجهولة، لأنه يجد في ذلك الإمكانية الفاتنة لأن يحب فيها حلمه الشخصي...

ولربما كان جاك سيرى امباركة بطريقة مختلفة في ظروف أخرى لو كان أكثر معرفة بالبلد وبالعرق العربي وعلى الخصوص لو أن حبهما بدأ على نحو أكثر بساطة. . .

وشيئاً فشيئاً أضحى جاك هادئاً وشجاعاً ناسياً تحذير النقيب، الذي لم يشك حتى في تهديده.

واستسلم للحياة بلذة.

كان هناك منذ خمسة أشهر، وأضحى يعرف لغة الصحراء، وعرف أولئك الرجال الذين بدوا له في البداية غامضين جداً، والذين هم في النهاية رجال كسائر الرجال، وهم ليسوا أسوأ وليسوا أفضل، بل هم رجال آخرون فقط. وما جعل جاك يحبهم على وجه الدقة كونهم آخرين، ولم يكن لهم شكل الابتذال الثقيل الذي كرهه في أوروبا.

ولم يعد أفق الرمال الذي يحاصر المدينة الكئيبة يخيف جاك، فقد توحدت روحه مع المدى اللامحدود.



ترك جاك الخرابات في الفجر الصافي والبهيج في انتعاش الريح الخفيفة. وانشرح صدره بسعادة غامرة. كان يمشي بمرح ثملاً بالحياة والشباب في الشوارع التي أخذت تستيقظ، وبدا له الواد في منظر الكثبان الثابت في منتهى الروعة.

آه! البقاء هناك إلى الأبد، وعدم الرحيل أبداً، وإتمام المهمة النبيلة لرسالته المضنية والآسرة في الآن عينه، ثم الاستسلام في لحظات أخرى لعذوبة التأمل الرقيقة، وفي فتور ذلك الحب الذي لم يسع إليه. . . لم يستطع جاك قول ما كان يعتقده حول تلك المغامرة وتلك المرأة، وما سينتج عن كل ذلك الحلم الذي كان في أول ارتسامه. لم يشأ أن يحلل أحاسيسه. وعندما أراد بالصدفة تنظيم مشاعره الجديدة وأفكاره المتزاحمة والكثيفة والمتسارعة حد عدم التناسق فضّل أن يعيش على حزنه ونظرته الهادئة التي لم يقلقها شيء أبداً. . .

بدت له الأيام والشهور تمضي في ذلك البلد بهدوء أكبر وبتناغم أكثر من أي مكان آخر. هدأ غضبه، ورقدت روحه في هدوء الأشياء بلطف كبير ومن دون ألم.

ولحظ جاك أنه أضحى شيئاً فشيئاً وعلى نحو غير محسوس أقلّ ميلاً إلى العمل، واستسلم لذلك بلذة. . .

قرر أن يطلب بقاءه هناك إلى الأبد لأنه لم يعد يشعر بأي رغبة في رؤية أي مدينة وايّ أوروبي أو حتى الأرض الصلبة والرطبة والمخضرّة.

أحب صوفه الحارقة والحزينة، وأراد أن ينهي فيها حياته في هدوء وجمال مقيمين.

***

أحس جاك خوفاً غريباً عندما دعاه النقيب أواسط شهر كانون الثاني/ يناير ليتحدث إليه في مكتبه. كان قائد الملحقة في تلك المرة بارداً وفظاً.

ـ حذّرتك في الكثير من المرات يا دكتور بأن سلوكك لا يتوافق مع وضعك ومهامك، وليس فقط في علاقاتك مع الرجال ومع مرضاك المدنيين، ولم تقم وزناً لنصائحي، بل إنك نسجت علاقة مع إحدى النساء المحليات ذات سمعة سيئة جداً. جعلت منها عشيقة لك، وأنت تعيش في بيتها. وصرت تعلن علاقتك بها حد أنك تتجول رفقتها مساءً. أعترف بأن علاقة مماثلة مستحيلة، وإذن فأنا أرجوك أن تقطع هذه العلاقة السخيفة والضارة بهيبتك وبنا جميعاً. . . أرجوك أن تقطع هذه العلاقة. هذه صبيانية، وعلى كل هذا أن ينتهي سريعاً وإلا سنبدو مثيرين للسخرية. يمكن أن ترى بسهولة كم هو كريه بالنسبة لي أن أكلمك هكذا. . . لكن اعذر قسوتي. لا يمكنني قبول وضع مماثل. . . فكر إذن! تجلس في المقهى المغربي قرب البؤساء الذين عوّدتهم على عدم تحيتك. . . لديك صداقات مشبوهة مع المتصوفين. . . وهذه العلاقة، هذه العلاقة البائسة!

احتج جاك، لم يكن إذن حتى سيّد حياته الشخصية وأفعاله خارج نطاق الخدمة! لماذا لدى الضباط الآخرين في بيوتهم في البرج زنجيات قُدّمن لهم كهدايا من الزعماء المحليين. . . لماذا كان آخرون يحضرون إلى هناك أوروبيات، هن مجرد بغايا سيئات قدمن من أسوأ مناطق الجزائر والقسنطنطينية، ويجلسن بوقاحة في المركز والدائرة بل حتى في المكتب العربي، ويفرضن على الأهالي الأكثر احتراماً منهن أن يحيّوهن، وينصاع الجنود لأوامرهن!

ـ كل ذلك لا يمسّ أبداً شرف أولئك الضباط... فالزنجيات لسن سوى خادمات في البيوت. هذا كل شيء. لا ينبغي جعل الأمر يبدو مأساوياً. أما بخصوص الأوروبيات فربط علاقة مع إحداهن لا يحمل أي شيء قبيح، ومن الطبيعي جداً أن يلتزم الأهالي، المدنيون منهم والعسكريون، باحترام كبير للفرنسيات. يمكنك أن ترى الفرق بين علاقات أولئك الضباط غير المؤذية وعلاقتك الشاذة جداً والضارة كثيراً بوضعك.

ـ علاقتي بكل تأكيد أكثر أخلاقية وأكثر إنسانية حضرة النقيب.

ـ في النهاية عليّ وضع حد لهذا الحديث المنهك، ومادمت تجبرني على ذلك أحذرك بأنك إذا لم تعدّل تماماً طريقة حياتك وتصرفاتك، وإذا لم تتوافق مع ما يقتضيه المنطق وما يستدعيه الاستعمار، سأجد نفسي مجبراً، وهو شيء كريه بالنسبة لي، على أن أطلب من رؤسائي نقلك من هذا المركز.

كان جاك يعرف طبع النقيب الفظ والقاسي غير أنه لم يفكر أبداً في ذلك الاحتمال المروّع في تلك اللحظة. دخل غرفته وبقي فيها جامداً ذاهلاً طويلاً. أن يغيّر نمط حياته، ويصير مثل الآخرين، ويتخلّى عن شخصيته وقناعاته ويصير إنساناً آلياً، ويهجر المهمة النبيلة التي بدأها... أن يطرد امباركة من حياته... وأن يُلغَى في النهاية... ما فائدة البقاء هناك بعد ذلك، في تلك المدينة التي ستصير سجناً.

وبدا له الرحيل كحاجة وحشية تشبه نزع قطعة من روحه ومن جسده.

كلا، لن يرضخ، سيبقى كما هو...

واجتاح ملل كئيب قلبه، غير أنه لم يغير شيئاً من نمط حياته بشجاعة.



وكان ينتظره ألم جديد، فقد لحظ أن أصدقاءه الصوفيين والقادة المحليين بدأو يتضايقون من حضوره، وأنهم لم يكونوا يسعدون بزيارته كما كانوا في السابق، وأنهم لم يعودوا يسعون إلى إبقائه ويقرّبونه منهم، فقد صاروا باردين ومحترمين. وفي المقهى، وعلى الرغم من اعتراضه، كان الناس يقومون ويحيوه، وتتفرق المجموعات عند اقترابه.

مضى سحر حياته... وأضحى غريباً مجدداً... وأيقظ شيء خفي وشرير كل

الارتياب وكل الخوف، وتحطم صنيعه الذي لم يكتمل بعد على نحو فظيع وهوى أرضاً فجأة، وبشكل وحشي. . .

وأصبح الممرضون ساخرين بشكل واضح، وفي سلوكهم، عوض بساطتهم النشيطة التي أدرك كيف يتركهم يتصرفون بها، بدأت تظهر الوقاحة أحياناً والاحتقار تقريباً.

عاد رفاق جولاته البعيدة، الجنود المحليون للمكتب العربي، ليصبحوا صامتين جداً في الخضوع البارد للأيام الأولى.

وبقيت امباركة.

غير أن يقين كل ذلك الحلم الذي سحره لما يقرب من نصف سنة انتهى، وتقوّض كل شيء، وأخذت سعادته تُحتَضَر، وهو ما أزعج هدوء بيته الخرب والفاتن. . .

قضى جاك لحظات مريرة يفكر في أيام سعادته التي انقضت وأسباب هزيمته.

أدرك أنه كان يكفي النقيب ومساعديه أن يقولوا أمام الزعماء المحليين إنهم غير راضين عن سلوك الطبيب، وسوء معشره في نظر رؤسائه، ليجبروهم في خضوعهم المطلق على التخلي عنه. . .

هصر حزن كبير قلب جاك، وعجّل حادث طارئ في التحطيم النهائي لكل ما بناه ليعيش به ويفكر فيه.

فقد كانت امباركة تمضي في بعض الأحيان لزيارة صديقة لها متزوجة في المصاعبة. وكانت تكشف وجهها بلامبالاة شخص غير ذي شأن.

وذات مساء، أثناء عودتها من ذلك الحي البعيد عن حيها، شتمها عمور بن ضيف الله صاحب الماخور. . . ردت عليه امباركة بعنف، ومن دون خوف. . . تدخلت نساء الماخور في الشجار، واقتاد شرطي امباركة إلى السجن.

حُكم عليها بتهمة البغاء غير الشرعي بالسجن خمسة عشر يوماً، وقُيّدت في السجلّ. احتج جاك بعنف أسفاً لرؤية حلمه ينتهي على ذلك الشكل في الوحل.

صرخ النقيب:

ـ آه! يا للعجب، هل كانت عشيقتك؟ لم أعلم أنها كانت تلك!. . . آه! كم هذا

ممل! أنت ترى كم كنت محقاً عندما حذرتك! يا للفضيحة... الكل يتحدث الآن عن عشيقة الطبيب. ما العمل في وضع مماثل؟

لن أستطيع إعادتها لك بعد مشكل كهذا، إذا ما عدت لها ستكون فضيحة مدوية. آه! لو أنصتّ فقط لما قلته لك!...

رد جاك المرتعش تأثراً وغضباً:

ـ ستتركها في السجن إذن... حتى متى؟

ـ أنت تعلم بأن البغاء يعاقب عليه بقسوة... لا يمكن لهذه المرأة أن تخرج من السجن إلا للدخول إلى بيت الدعارة...

ـ لم تكن مومساً ما دامت كانت تعيش معي كزوجة!

ـ وجدت قرب الماخور بوجه مكشوف، وأحدثت فضيحة... وتم اعتقالها... والمعلومات المتوفرة لدينا عنها تفيد أنها لم تتوقف أبداً عن القيام بعملها الشنيع... هل تسمع يا دكتور؟ لا يمكن لتلك المرأة أن تعاد إليك من أجل مصلحتك الشخصية... أرى أنك رومنسي جداً... ما الذي يمكنني فعله؟

غضب النقيب غير أنه أراد الحفاظ على نبرته اللطيفة والمتساهلة.

وفجأة اتخذ جاك قراراً، هو الوحيد المتبقي له بعد ذلك الحديث الذي كان مرهقاً على نحو فظيع.

ـ إذن يا حضرة النقيب، سأرسل برقية اليوم طالباً نقلي... لأسباب صحية...

عبر وميض سعادة نظرة النقيب الذي كان بملامح يشق اختراقها.

ـ لعلّك محق. أفهم جيداً أن الإقامة بالواد كانت شاقة بالنسبة لك، بأفكارك التي لاأشك أنها ستتحسن قريباً... سنحزن كثيراً بكل تأكيد على فراقك، لكن من المفيد بالنسبة لك أن ترحل.

ـ أجل، سأرحل أخيراً بالقناعة الواضحة جداً والثابتة للزيف المطلق والخطر المتزايد الذي يمثّله نظام إدارتكم للقضية الفرنسية.

هز النقيب كتفيه، وقال:

ـ لكل أفكاره يا دكتور... أنت حر في النهاية.

ـ أجل، أريد أن أكون حراً!

وانصرف جاك.

أخذ ينتظر بنفاد صبر الأمر بالرحيل عن ذلك البلد الذي أحب كثيراً، والذي أراد أن يبقى فيه إلى الأبد.

والغريب أنه منذ أن علم جاك بأنه سيرحل بدا له أنه ترك صوف فعلاً، وأن تلك المدينة وذلك البلد اللذين كانا يمتدان أمامه كانا مدينة أخرى وبلداً آخر عاديين، كأي مدينة وأي بلد، ولكنها ليست أبداً صوف المتألقة والكئيبة... كان ينظر إلى ذلك المشهد المألوف بإحساس اللامبالاة الحالمة عينه الذي ينظر به المرء من سطح سفينة خلال توقف قصير إلى مرفأ مجهول، لم يذهب إليه من قبل ولن يذهب إليه أبداً.

*
* *

تمكن من الدخول إلى زنزانة امباركة لفترة قصيرة بعد هدية قدّمها إلى الشاوش... كانت خيبة أمل أخرى بالنسبة له وضغينة فقد استقبلته بسيل من العتاب المرير والدموع والانتحاب. لم يكن يحبها، وهو الضابط القادر على كل شيء والذي تركها سجينة ومقيدة بالسجل... وشتمته بصرامة وبدت عدائية هي أيضاً إلى الأبد.

وتركها جاك.

*
* *

انتهى كل شيء...

ومع ذلك أحب أن يرى على الأقل البيت الخرب الصغير حيث كان سعيداً جداً...

كم كان وحيداً في تلك اللحظة، وكم بدا له في تلك اللحظة كل ما اعتقده صلباً جداً ودائماً إلى الأبد أشبه بتلك الخرابات المشوشة وغير المجدية والكئيبة!

كان جاك يتألم، فرحل خاضعاً لأنه كان يشعر نفسه عاجزاً عن بدء حياة جديدة هناك، مبتذلة وخالية من أي معنى.

*
* *

امتدت كثبان صوف متموّجة ولازوردية في الأماكن البعيدة المشوشة، تحت سماء ربيعية فسيحة وصافية ومشرقة، وتحت الإرهاق الثقيل لفصل الصيف... أحب

جاك ترك البلد المحبوب في الساعة المحبوبة عند مغيب الشمس. ولآخر مرة تأمّل كل ذلك المنظر الذي لن يعود لرؤيته أبداً، فأحس انقباضاً في قلبه.

ولآخر مرة، رأت عيناه الحزينتان سحر الأماسي الصافية الكبير...

عند تجاوز كثيب السي عمر الكبير اختفى الواد خلف السور الرملي الأرجواني الكبير، فأحس جاك انسحاقاً حزيناً يثقل قلبه... أمسى هادئاً في تلك اللحظة، ورأى القرى الصغيرة الحزينة تمر أمام ناظريه، والزرائب الصغيرة المشيدة من أغصان النخيل، والمنازل ذات القباب، والظلال البنفسجية لأحصنتهم، هو وجنديين محليين، تتمدد في غير انسجام، تحت ضوء المساء الأحمر.

وفجأة فكر بأن الأمور تجري كذلك، وبأن كل مشاريعه ستجهض مثل مشروعه ذاك، وبأن كل أحلامه ستنتهي على ذلك النحو، وبأنه سيمضي منفياً، ومطروداً تقريباً من كل الأماكن في الأرض حيث سيذهب، ويحب.

في الواقع، لم يكن يشبه الآخرين، ولم يشأ أن يحني رأسه لنير ابتذالهم الظالم.

ملاحظة

اختارت إيزابيل إبرهارت في هذه القصة الطويلة، حيث توجد مادة رواية استعمارية، على عكس ما فعلت ياسمينة، تفضيلَ وجهة نظر الضابط، لكن هناك تشابه بين النصين حيث الحب المأساوي لامرأة من الأهالي وعسكري شاب.

أحست إيزابيل إبرهارت خلال رحلاتها الأولى إلى الصحراء أنها قريبة من أولئك الملازمين المتخرجين حديثاً من المعاهد، والذين أقحموا في غموض الصحراء، وحضروا إلى البلد من أجل المساهمة في «المهمة الحضارية» لفرنسا. بل إنها أثناء إقامتها في جنيف كانت تراسل أحدهم، ويدعى أوجين لوتور، الذي شاركها شكوكه وخيبات أمله أمام ما يفرضه نظام التراتبية العسكري، المهتم فقط بالحفاظ على النظام الاستعماري.

ومثل الرائد خالفت إيزابيل إبرهارت ذلك الأمر، وعاشت مثله تماماً بالواد حباً غير شرعي شكل فضيحة في نظر الأوروبيين، قبل أن يتم طردها.

الرائد هو أحد النصوص التي لم يسبق طبعها، ونُشر في حكايات ومناظر، وأعيد نشره في في بلاد الرمال. (مصدر ذكر سابقاً).

عبودية

يقع مضيق سيدي لمراني بين كثيبَين رماديين كبيرين، وهو عبارة عن واد ضيق مزروع بأشجار النخيل، وتختفي فيه بعض المنازل الخربة البائسة التي بنيت بالحجارة الخشنة والجص الرمادي بلون الصحراء مع القباب الصغيرة الغريبة عوض السقوف بحيث تختلط رؤية صوف بمنظر الكثبان.

وتقطن بتلك القرية الصغيرة قبيلة بربرية قدمت من الشمال وما زالت تحتفظ بعادات الشاوية ولهجتها.

ومن أعالي الكثبان ينفتح أفق واسع جداً وشديد الزرقة. وباتجاه الشرق بحر متموج وساكن حيث تمتد الكثبان على مدّ البصر، كثبان حادة مثل نتوءات الصخور وكثبان دائرية مثل المدافن التلية. وفي أماكن متفرقة من الرمال الرمادية الشاحبة بساتين تبدو كبقع سوداء. وإلى الغرب سهل كبير كاب تنتشر فيه بعض القباب. وفي غموض المسالك ما لا يحصى من القبور، والمقابر المتفرقة كيفما اتفق من دون جدار ومن دون زخرفة ومن دون رعب.

ولدت تسعديت هناك في الوادي تحت ظل أشجار النخيل، ومرت طفولتها الفقيرة في صمت الرمال العظيم والأبدي الذي لم يكن يزعجه أبداً بعض ضجيج القرية الصغيرة.

كانت تلعب مع الأحصنة والكلاب الصغيرة، وهي أيضاً أطفال لكنها أكثر وحشية وأغزر شعراً. وأحياناً كانت تستلقي أرضاً وتعجن الرمال النقية بيديها مشكلة في حركات خرقاء كثباناً تزرع فيها بساتين بعساليج.

وكانت تحب أيضاً في الأماسي التي تسبق الليالي المقدرة للجمعة أن تصعد عند

مغيب الشمس إلى أكبر كثيب في المكتبة العظيمة لتنظر إلى المصابيح الزيتية التي ينيرها الصوافة بداعي التقوى قرب القبور.

وكانت تلك المشاعل، قناديل الموت تلك، التي تتمايل في تأجّج الغروب الأحمر تبدو لها مثل أرواح مستيقظة لأحياء بعيون نارية تنظر إليها وتطرف. وعندما يحل الليل تفر مسرعة لأنها تتذكر أن هناك قبوراً مسكونة بالأشباح.

كانت صالحة للزواج في سن الحادية عشرة. طويلة القامة دقيقة العظم. ذات طلاوة خشنة بعض الشيء بملحفتها الداكنة التي تنحت شكلها. وكان وجهها المدور شديد السمرة بملامح دقيقة وواضحة وفظة تلطف فقط بابتسامتها الشهوانية في عينيها العسليتين الواسعتين والمظللتين بأهداب طويلة مائلة، وعلى الشفتين المقوستين والغليظتين بعض الشيء.

وكانت تسعديت تنتظر في أعمال البيت البدوية القاسية، وفي الهمس المقطوع والمهدهد لطاحونة الحبوب الثقيلة، ساعة زواجها بصبر متوارث.

منحت تسعديت إلى تاجر بالواد في سعادة من دون صدى لقلبها الخائف. وكان التاجر شيخاً لم تكن تعرفه. أخذتها النسوة مساءً وقد تزينت إلى غرفة، وتركنها وحيدة هناك من أجل الاغتصاب الشرعي أمام مجهول مسن ومترهل.

أحست تسعديت في نفسها الحزينة ثورة مخنوقة غير واعية في البداية، ولدت من الخوف والنفور الجسدي من ذلك الجماع بالإكراه، مع القرع المستمر للطبول في الخارج في ليلة دخلتها القصيرة.

مرت الأيام والشهور، ونقلت تسعديت إلى المدينة لتقيم في بيت كبير كان أحد أطرافه خرباً، ومع حماتها كرفيقة وحيدة لها، وهي عجوز صمّاء وخرفة أضحت وكأنها غير موجودة. وكان البيت يفتح من واجهته على الساحة، وفي الخلف كانت الغرف الخربة قريبة جداً من حي مهجور حيث الخرابات والصمت. وكان الشيخ يغادر صباحاً إلى السوق ويغيب ليلاً في بعض الأحيان.

وأسفت تسعديت على البساتين والكثبان حيث تهمس ريح صوف الأبدية.

كرهت زوجها والعجوز غنوجة والبيت والمدينة المتحدين ضدها بعداء. وأيقظت كراهيتها ذكاءها ووصلت درجة وعي خاص مادامت أخذت تتساءل لماذا حصلت فتيات أخريات أقل جمالاً على أزواج شبان وسيمين، ورجال أقوياء بابتسامة تكشف

بياض أسنانهم وعلى صديقات وحلي بينما كانت هناك تلبس على نحو سيئ ووحيدة دوماً رفقة عجوز مجنونة وجد أدرد مقوّس الظهر كزوج.

سمعت عن الذنب وعقاب يوم الحساب، لكنها وقد وضِعت بانحطاط شعبها خارج القانون الإسلامي عبر زواج غير ملائم، كانت وحيدة أمام كل هبات الشهوة المستيقظة وغير المروية، والتي أخذت تتزين في الوحدة والغضب. تمرد شبابها المتين على العناقات الشحيحة والشائخة وغالباً ما كانت تشعر في ساعة المساء الفاترة بضيق غريب يضغط صدرها.

وذات مساء، وكانت حزينة مثل حيوان أسير، أخذت تنظر إلى جمال محمّلة مرّت وتشوهت هيئاتها إذ كبرت على نحو شديد في الكثيب المنخفض لأفران الجص، وبدت في سواد زُيّن بلون ذهبي أرجواني في كثبان عليندة المنعزلة والغارقة في لون أصفر فضي في رقة لامحدودة، فتحددت الأقدار المعتمة لشرنقة حياتها.

ومر رجل بالقرب. كان جندياً ممتطياً حصاناً كبيراً أسود يتقافز. وكانت تسعديت مختفية خلف قبة غير مرئية حتى أن الجندي لم يدر رأسه ناحيتها. كان الرجل شاباً بوسامة ذكورية أبهجت عيني تسعديت. بدا وكأنه ولد من أجل أعراس مثل تلك التي حلمت بها منذ زواجها. ومنحت السترة الحمراء والمنديل الأبيض ذو الشرائط السوداء هيئة محترمة للغريب الذي استحوذ على عقل تسعديت.

وبإصرار طبيعتها ودهاء المنعزلين قررت أن تعود لرؤيته وتجعل منه عشيقها. وسرعان ما علمت اسم الجندي، عبر طفلة الجيران، وبعض التفاصيل المتعلقة به. كان يدعى عبد القادر من قبيلة أولاد الدراج في هدنة. وكان عريفاً عنيداً ذا جسارة بدأت تبدو أسطورية في صوف. وكان ملحقاً بالمكتب العربي. وكان يعاقب دوماً لمغامراته مع النساء ولسكره. أفرحت هذه التفاصيل تسعديت، فرجل مماثل هو من حلمت به ولن يتردد أبداً في القدوم إليها.

ومع أن تسعديت كانت وحيدة إذ كان زوجها غائباً والعجوز نائمة، إلا أنها ترددت، فقد خجلت من نفسها وأحست الخوف يخنق حلقها، وفي النهاية قالت للطفلة:

ـ إذهبي، وقولي لعبد القادر أن يحضر بعد ساعة خلف المنزل في الخرابات. إحذري أن تخبري أحداً غيره، أخبريه هو فقط.

ثم حاولت أن تنشغل بأعمال بيتها، غير أنها أخذت ترتعش لجرأتها وعذّبها الانتظار. وفي النهاية تسلّقت الجدار الخرِب وتمددت قرب القبّة المحفورة المفتوحة على سواد غرفة مهجورة. وهناك كمنت في وضع ترقّب كهرة. وبدت لها الدقائق طويلة جداً.

وأخيراً سمعت وقع خطوات واهنة في الرمال، وصوتاً يناديها همساً:

ـ هه، أيتها المرأة!

اهتز جسدها.

ـ إصعد من هنا...

ـ هل أنت وحيدة؟ أنت تعلمين، لا خيانة... لدي سكيني، وإذا كان هذا فخاً ستكونين الأولى.

ـ كلا... إصعد.

دخلا ما يشبه حجرة سلّم ودفعا الباب. بقيا في الظلام يرهفان السمع، ثم أشعل عبد القادر عود الثقاب.

وقال بهدوء شديد:

ـ أريد أن أرى إن كنت جميلة.

كانت واقفة مرتعشة وغير معتادة، ومحتقنة الوجه خجلاً.

انطفأ عود الثقاب، واختلجت تسعديت عند سماعها حفيفاً في الزوايا، فهمست:

ـ العقارب!

كان عبد القادر قد لمح التليس[1] ممدداً أرضاً. أمسك تسعديت من معصميها. فرت منه، فسقطت إلى الخلف، غير أن شفاههما التقت. اختلجت. كانت يدا الجندي ترتعشان، وسمعت تسعديت نبض قلبه السريع. ضمها على التليس البالي في غضب رائع أشبه بصراع حيوانات الصحراء في الربيع المخصب. أصدرت تسعديت حشرجة، وبلّلت دموع غزيرة وجهها لفرط ما كان تلقينها الذي انتظرته طويلاً مثملاً. بقيت أرضاً في استسلام هزيمتها.

---

(١) التليس: كيس كبير يستخدم في حمولة البغال والجمال، ويصنع من جلد الماعز بخطوط سوداء وبيضاء. الأصل.

أمضيا الليلة غير المتوقعة في سعادة جسديهما الأليمة والمنتصرة.



أحب الجندي المرتزق والمرأة الخائنة أحدهما الآخر، ودفعا جرأتهما لأخذ الحق في الحياة قريباً جداً من النوم الثقيل للشيخ غير المجدي.

غير أن تسعديت العنيفة والعميقة المشاعر لم تعد تستطيع تحمل العقبات التي يفرضها عليها زواجها. أرادت الاستمتاع بحبها بحرية. وكان الزوج بالنسبة لها دخيلاً ومستبداً لا يطاق. كان شخصاً زائداً يسبب الضيق والملل. وللحصول على حريتها ثارت فجأة وأضحت وقحة وترفض القيام بالأعمال المنزلية، وتعذب العجوز، ولم يستطع الضرب أو التهديد أن يوقفاها. كان زوجها يضربها ويدعو والد تسعديت وإخوتها لمساعدته، لكنها لم ترضخ إذ بقيت متصلبة، ومانحة الجنديَّ جسدها المرضوض. وكانا يستمتعان بحياتهما غير مباليين.

وذات يوم طرد الشيخ التعب تسعديت، وطلقها في اليوم نفسه. ولما تحررت تسعديت بزواجها من السلطة الأبوية انسحبت إلى شرق المدينة القصيّ، إلى المصاعبة لتقيم لدى عجوز ذات سمعة مشبوهة تدعى فاطمة. وهناك استمر حب تسعديت وعبد القادر بحرية. وكان الجنود في صوف لا يقطنون بالثكنة، ويعيشون حياة مدنية حتى لو كانوا عزاباً، وكانت أجرة عبد القادر تكفيهما معاً.

ولم يكن في حبهما لطف متكلف أو أي ظل للتهذب، ولم يتعدّ الجماع الحيواني لشابين قويين، الأداة العمياء للحياة. وفي روحيهما الخشنتين ولدت شاعرية شيئاً فشيئاً وسعيا للفرار من المدينة، ما داما من أبناء الصحراء، لينعما مرة أخرى في صمت الآفاق الرتيبة وفراغها.

حل فصل الصيف وأخذا يمضيان أحياناً على نحو خفيّ خارج المدينة في الليالي المقمرة منحدرين عبر تلة الرمال التي شُيّدت الواد فوقها باتجاه متاهة الكثبان التي تخفي في أوديتها الرمادية بساتين عميقة ضاخة انتعاش المياه الباطنية في عمق الأخاديد الكبيرة الأشبه بحفر كبيرة. كانا يختاران بساتين النخل الخالية والرملية تقريباً والتي تحاذي طريق ديبيلا، ويستلقيان فوق برنس عبد القادر الأحمر الذي يستخدم كسرير ملكي من النسيج الأرجواني، وينظران إلى الظلال الدقيقة والنحيلة لأشجار النخيل

الكبيرة التي تحركها الرياح المنعشة، رياح صوف الأبدية، على الرمال البيضاء، وظلال القمر تتسلل بين الجذوع المشيقة والأغصان المخملية والعناقيد الصفراء، وينصتان إلى الهمس البحري للجريد الصلب وأحياناً الغناء الفياض والبعيد للصوافة صاعدين وهم يحملون بعناء قفافاً ملئت رملاً كان يجتاح زرعهم كل يوم، مصارعين خطوة خطوة، بصبر النمل، الصحراء العنيدة. . . كانت أصواتهم مرتفعة وعذبة تصِف خضوعهم للعناء المحتوم المراد من قبل رب العالمين[١] في بهجة الحياة المتواصلة.

كانا يصعدان قبل الفجر ببطء، يعبران الشوارع الصامتة، وقد ارتدت تسعديت برنساً أبيض يجعلها غير معروفة. وكانا يمران بساحة السوق حيث ينام الرجال والجمال في تجمع معتم حول دعامة كبيرة وثابتة لبئر ذات حوتارة.



عُيّن الملازم أول دو لافو بالمكتب العربي في الواد. كان ابن صحراء قديماً، تخرج في السابق من سان سير، ولكنه تحول بفعل عشر سنوات من عمل الإدارة بالجنوب.

كان رجلاً طويل القامة يبلغ من العمر ثماني وثلاثين سنة، خشناً حادّ الملامح، ذا حركات وأقوال صارمة. كانت نظرة عينيه مشوشة وتقريباً مضطربة من دون أذى. وكان رجل مجتمع ومتأخراً بعض الشيء عن عصره. ومع ذلك وعندما يكون في أحد الصالونات يشعر بالحاجة الماسة إلى أن يكون شخصاً آخر في علاقاته بمن هم أقل رتبة منه، وعلى الخصوص من يعملون تحت قيادته، والذين يعتبرهم بكل بساطة رعاياه. لم يسع أبداً منذ أن تسلم التعليمات من سابقيه إلى معرفة ما هو إنساني في العوامّ المنحنين أمامه والذين كان يحكمهم والعصا في يده. كان معادياً للعرب بحكم مهنته، ومزدرياً للمدنيين العاملين تحت إمرته والخاضعين لإرادته. وكان مصدر رعب لأصحاب البرانس البالية، ولا يعرف الرحمة عندما يتعلق الأمر بمنح بعض القطع النقدية (الدوروهات) حيث يرطّب عرق الجباه رمل الأرض القاحلة.

أما العربيّ المتعلم بعض الشيء، وسواء أكان طالباً أم صوفياً، فقد كان هو العدوّ

---

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة من قبل الكاتبة في النص الأصلي. المترجم.

في نظره، والشخص المزعج الذي يتدخل لفهم الأشياء حيث لا ينبغي إلا الطاعة العمياء.

وكان القائد رئيس الملحقة رجلاً تافهاً وضعيفاً متفرغاً لدراسة علم النباتات وعلم الآثار، ومن شأنه أن يكون صالحاً وكريماً لو تحلّى ببعض الإرادة ولو لم يتخل نهائياً عن القيادة. وبقي دو لوفو القائد الحقيقي الوحيد والحاكم الكبير[1] والذي كان يخشى حد الهلع أن تتم خيانته إذا ما أُتيح ذلك وتمسه اللعنة، وأن تنتظره يوماً إذا شاء الله رصاصة في أحد الكثبان البعيدة.

كانت حرارة الصيف شديدة، وغادر القائد إلى فرنسا، فاستقر دو لوفو في بيت القائد الأبيض الكبير، وحكم الواد وصوف.



هبت رياح الشُّلوق، وعمّ صمت مطبق كئيب صوف النائمة، وانتشر ضباب رمادي في السماء المكفهرّة، وانطلقت زوبعة في الكثبان المصفرة من دون توقف مثل أمواج خفيفة لبحر تداعبه الريح. وارتسمت أخاديد صغيرة على ظهور الدوابّ الضخمة الصبورة والنائمة نوم انتظار قديم.

وكان الملازم أول مسترخياً فوق كنبة واضعاً قدميه على كرسي، في مكتب القائد الباذخ تقريباً والمزين بالزرابي والأسلحة المجموعة من كل مكان، والمهداة من قبل الزعماء الخاضعين. وكان يضع غندورة قطنية فضفاضة. وكان على الطاولة بعض التقارير وقنينتان لُفّتا في قماش مبلول تحتويان عنصري الشراب الصحي في الجنوب: الماء والإبسنت.

وفي المكتب مروحة كبيرة من نسيج الكتان تتحرك بانتظام طاردة الذباب.. ومانحة بعض الرطوبة. وكان هناك حبل يخترق الجدار الخارجي يحرك المروحة.

في الخارج كان رجل مقرفصاً على بلاطة حارقة يسحب الحبل مرة تلو أخرى مثل إنسان آلي في تلك الحرارة المجنونة، تحت سماء محرقة كالفرن. كان نحيلاً متسربلاً في أسمال ذا هيئة وضيعة ومخيفة كدابّة ضُربت وقُيّدت. كان سجيناً اعتقل،

---

(١) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة من قبل الكاتبة في النص الأصلي. المترجم.

ويعمل بالأشغال الشاقة من دون أن يصدر حكم في حقه، وذلك «بتدابير تأديبية» بسبب خطأ صغير إزاء شبح الإدارة الاستعمارية المهدد، ومن دون أجل مُسمّى.

وكان الرجل يقطن رفقة آخرين في البناية الخانقة التي لا يدخلها هواء أو ضوء والتي تشكل الزاوية الشرقية للبيوت البيضاء في المكتب العربي.

دخل أحد رجال الديرة إلى الساحة. كان يرتدي برنساً أزرق، ووجهه مُسطح يدلّ على أنه من أبناء القبايل. ولما كان السجين المرهق قد أبطأ حركة ذراعه أيقظه الديرة بركلة:

ـ إسحب أيها الكلب! يشعر سيدي الملازم أول بالحرارة، وإذا ما نمت سيتولى أمرك. إحذر!

دخل الديرة برصانة إلى المكتب. كان رجل ثقة الملازم أول، وهو خادم سابق عُيّن ديرة بفضل حظوة، وكان يكره رجال الجنوب.

ـ حضرة الملازم أول، هناك السجين أحمد الذي لا يريد دوماً أن يعترف أين أخفى الخضار التي سرقها من بستان المكتب العربي.

ـ حسناً، اجلده هذا المساء. وما أخبرتك عنه حول النساء؟ هل وجدت شيئاً؟

ـ أجل سيدي الملازم أول، هناك امرأة الجندي عبد القادر بن الدراج، وهي جميلة جداً.

ـ وهل ترضى أن تحضر؟

ـ كلا... لكن عبد القادر لم يتزوج المرأة، وهي عشيقته فقط، وتعيش عند فاطمة القوادة، وإذن لم تحصل على ترخيص الطبيب. يمكننا زجّها في السجن.

ـ آه! نعم! البغاء غير الشرعي... أفهم ذلك. غير أنه لا ينبغي الحديث إلى الطبيب بهذا الخصوص، فقد قدم حديثاً من فرنسا وسيحدث ضجة. لكن هل هي جميلة على الأقل كما تقول؟ فأنتم أيها العرب لا تحبون إلا البدينات المترهلات مثل شحم الأمعاء، وذلك ليس ما أحب.

عاد القوّاد ليصيح بجمال تلك الفتاة المنتمية إلى عِرقه، والتي كان يبيعها إلى القائد الرومي.

ـ يجب أن أراها قبل ذلك، هل تخرج؟

ـ مساءً وعندما تنطلق الصوبا تبقى واقفة عند باب البيت منتظرة قدوم عبد القادر.

ـ سنراها إذن هذا المساء، ستجعلني أمر من هناك، ولا تنسَ أن تجلد رجل الخضار ذاك، بالمناسبة من رآه؟

ـ لم يره أحد، لكني وجدت أوراق السلطة في بيته.

ولما أذن له بالانصراف خرج محملاً بقطعة من فئة أربعين قرشاً كعربون لنخاسته.

وقصد والد أحمد، رجل الخضار.

ـ أمرني الملازم أول بجلد ابنك مرة أخرى، إذا كنت حريصاً على حياة ابنك هات مئة قرش، فهو شبه ميت.

ـ لا أملك مئة قرش.

ـ ستشتري له كفناً بثمن أغلى.

ـ ألا تؤمن بالله، صلِّ على النبي واسمعني...

ـ اللعنة! هات مئة قرش وإلا قتلت ابنك، أنت شبه أعمى من سيمنحك طعاماً؟

وهكذا دخل الشيخ متأوهاً ومنتحباً إلى بيته، وأحضر الدوروهات التي تخلّى عنها مكرهاً...

***

وفي المساء، بينما كانت تسعديت واقفة على عتبة بابها بوجهها المكشوف، لأنها أضحت دونية، منتظرة حبيبها، مر الملازم أول الذي كان يقوده الديرة. وفي طريقه كان الأهالي يقومون تماشياً مع كل الأوامر المفروضة من قبل المكاتب العربية، ملقين التحية العسكرية خوفاً من السجن ومن الجلد. ورفعت تسعديت يديها فوق رأسها علامة على الخضوع ودخلت بيتها سريعاً، غير أن رقة جسدها المنحني وذراعيها المرفوعتين جعلت الملازم أول يتخذ قراره... وفي الصباح، ما إن غادر الجندي حتى دخل الديرة بيت فاطمة فأمرها بأن تتحجّب بصرامة، وتتبعه.

امتثلت للأمر مرتعشة خوفاً في حضرة الدركي. وقادها القبايلي عبر طرق ملتوية إلى المكتب العربي. كان يوم جمعة، وكانت مومسات بن ضيف الله القلائل يذهبن للفحص، ومرت تسعديت من دون أن يلاحظها أحد وسط أولئك النساء...

ولما أصبحت أمام الملازم أول، كان عليها أن تكشف وجهها.

سأل الضابط المستلقي على أريكة، واضعاً سيجارة في فمه:

ـ هكذا إذن، يبدو أنك تنافسين نساء بن ضيف؟

كانت يتحدث اللغة العربية بشكل مقبول.

ـ كلا، يا سيدي الملازم أول، كلا. أقسم لك أني شريفة. أنا مطلقة، وحرة بأن أعيش مع من أريد، لكني لا أعرف إلا رجلاً واحداً، الجندي عبد القادر.

ـ هل أنتما متزوجان بطريقة شرعية أمام القاضي، أو على الأقل أمام الجماعة؟

ـ كلا...

ـ كلا؟ وإذن، تمارسين البغاء غير الشرعي، ستذهبين إلى السجن.

أعلنت تسعديت براءتها، وقد ازدادت جمالاً لحدتها وغضبها. التمعت عيناها السوداوان واتسعت طاقتا أنفها.

ـ إخرسي، عليك طلب إذن حتى تكوني قحبة. هيا، خذها إلى السجن. سأستجوبها هذا المساء.

ولما أخذت تقاوم ربط الديرة معصمها بمنديله المفتول، وأخذها بعد أن وضع حجاباً على وجهها بقسوة.

جلست أرضاً وحيدة في زنزانة مظلمة. وفي جهلها وخوفها من الموت أخذت تظن أحياناً أنها هلكت، وتحتفظ أحياناً بأمل مبالغ فيه لتدخّل عبد القادر... وكانت الساعات طويلة.

وفي المساء، بعد انطفاء الأنوار، اقتديت تسعديت إلى إقامة الملازم أول الخاصة.

ـ آه! هي ذي أنت! إجلسي أيتها الجميلة حتى أنظر إليك. أنت جميلة.

تراجعت في حركة دفاع بوجه مكدّر ونظرة شرسة وقد التفّت بخمارها. فهمت على نحو مشوش، غير أنها لم تكن تريد ذلك. كانت جميلة جمالاً غامضاً لإلهة غاضبة، ودافعت عن نفسها بالعض ونشب الأظفار. وعند منتصف الليل، أعادها الملازم أول إلى السجن غاضباً.

***

عاد عبد القادر الذي كان قد أرسل في جولة. وعندما علم بالأمر تملّكه غضب

وحش يصرخ على جثة أنثاه ورفيقة ولائمه الليلية في المناطق المعزولة. كان عاجزاً على نحو مزدوج، فهو من الأهالي وجندي، وخاضع لعبودية مزدوجة وأضحى محطماً.

وكان عليه أن يرضخ. لم ينل من الديرة أي معلومة، فقد كان ذلك أمر الملازم أول، لأن الشاوية كانت متهمة بممارسة البغاء غير المشروع، وأضاف القبايلي بابتسامة وقحة:

ـ بعد كل شيء، هي ليست زوجتك. هل تعلم ما كانت تقوم به عندما تكون غائباً؟ لربما هناك من يعلم أكثر منك ذلك.

وهكذا أضاف الخادم عذاب الشك إلى عذاب الغيرة في نفس الجندي لأنه كان يعلم.

. . . ضعفت تسعديت المتوحشة والممزقة بالسجن الانفرادي، ورضخت لمداعبات الملازم أول مثلما فعلت من قبل مع مداعبات التاجر. . .

ولم يفاجأ أحد من ضباط الحامية العسكرية، فهم يعرفون دو لافو، وبدافع الانضباط صمت المساعدان بالمكتب، وكتما رأيهما الذي كان احتقاراً من دون شك لأنهما حضرا قبل وقت قريب من فرنسا. أما الملازم أول في سلاح القناصة فقد رفع كتفيه، قائلاً:

ـ لا يلزم الأمر الكثير من التعقيد للحصول على امرأة. أنا أذهب عند بن ضيف بكل بساطة، فهناك أنظف.

وحده الطبيب الأشقر الشاحب والحالم والمبتدئ ذو الشريطتين كرتبة اغتاظ من الأمر. أخذ الملازم أول جانباً حتى لا يبدو شريكاً معنوياً في الأعمال الدونية التي جعلت طيفاً مرعباً يمر بروحه البريئة.

ـ قضية زوجة الجندي سيئة أيها الملازم. هذا عمل دونيّ ومن دون فتنة!

ـ آه! لا ألومك على ما تقوله لي، فأنت حديث العهد هنا، ولا تعرف العرب.

كان هناك منذ شهر، وفي كل مرة حاول أن يحتج على أشياء لا تفاجئ شخصاً آخر غيره كان يقابل دوماً بهذا الرد: «نرى جيداً أنك لا تعرف العرب!» ويبقى حائراً. هل يمكن أن يوجد عِرق من المنبوذين، كثير العدد والنسل، لا يلزمهم إلا الحبس الانفرادي والسلاسل والعصا، والذين يتم التخلي إزاءهم عن الحق في كل المبادئ

التي أسست لها البشرية على امتداد قرون من المعاناة؟ ثم يتذكر أن كل الأحاديث التي سمعها من الضباط الأكثر ذكاءً، والأكثر انفتاحاً على الفكر، والذين يؤكدون حقوق العِرق المهزوم في مصير أفضل، وعادة ما كان الرعب يجتاحه: هل من الممكن إذا ما بقي في الجنوب الذي يشمله بسكر فريد أن يصير متوحشاً مثل الآخرين، وأن يرى حساسيته تُنهك ويصبح إحساسه الأخلاقي متبلداً؟ وهكذا رغب في الرحيل، والفرار بعيداً عن ذلك الخطر المحدق.



ومضت الأيام.

حبست تسعديت الكئيبة والحزينة بصرامة في الإقامة الخاصة للملازم أول، وخضعت مستسلمة لكن بالكثير من الكراهية المخفية.

وبقي عبد القادر المتصلب في غضبه في الخدمة التي تعلّم أن يكرهها منذ أن جرحته في قطعة منه، ولزم الصمت. وكان يخفض ناظريه أمام الملازم أول، طارداً ثورته ومفكراً في انتقامه. كان يعلم بأن تسعديت لم تعد في السجن. وبعد سماعه أقوال الذيرة التي هزت قلبه أجرى تحقيقاً دقيقاً. وجد أن تسعديت كانت وفية له طوال مدة إقامتها لدى فاطمة. ولم يكن بإمكانه أن ينظر إلى الملازم أول من دون أفكار قاتلة معذبة.

لم يتبق له إلا شهر ليتعذب فيه ويرى عدوه ويخضع لسلطته التي أضحت هازئة مزدرية، فانخراطه الأول في الجيش لمدة أربع سنوات سينتهي في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، وفراراً من ذلك السعير قرر عدم الانخراط مجدداً.

وأخيراً حل اليوم السعيد، وبدّل عبد القادر بقلب أقل كدراً برنس المرتزقة الأحمر ببرنس البدو الأبيض. وبقي في الواد عاملاً بذراعه ومفكراً من دون انقطاع في الانتقام. غير أن ذلك كان تضحية بحياته، وهو بعد شاب... وزاد احتقار الناس له، لأن امرأته أُخذت منه وصمت حتى بعد أن تحرر من الخدمة العسكرية. كان عليه أن ينتقم. كان ذلك لديه ولدى الرجال من عِرقه صرخة ردة وراثية قديمة، الثأر المستمد من الأسلاف، والدية[1] الدموية...

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

علم عبد القادر ذات يوم بأن الملازم أول الذي ترقّى وأصبح قائداً سيرحل إلى مقاطعة الجزائر، وأخذ ينظر إخوة عبد القادر البدويون والرجال ذوو السترات الحمراء إلى عبد القادر ويبتسمون، وهكذا أخذ قراره.

*
* *

حل الليل الشتائي، وأخذت الظلال الحزينة تنحدر من السماء حزناً على فراغ الكثبان التي تجتاحها الرياح مفتتة التلال ومعدّلة الأشكال في حركة نزوة متقلّبة عبر القرون.

وكان القائد دو لافو يتقدم على صهوة حصانه، وكان الجنود والديرة الوفي يراقبون خلفه العرب الكثر الذين كانوا يدفعون أمامهم خمسة عشر جملاً محمّلة بمتاع الحاكم[1]. وكان دو لافو يفكر في وصوله إلى مشيرية، محطته الأولى، مع امرأتين داخل ملهى مخصص للجنود.

ومنذ غيمار تبع أحد البدو الموكب خلف الكثبان من مكان بعيد وفي يده بندقية.

ولما كان القائد يخرج من مضيق ضيّق بين كثيبين جثا عبد القادر على ركبيته، ووضع البندقية على كتفه. وفي الصمت الشفقي، ترددت الفرقعة في صوت من دون صدى، أُتبع بصفير الرصاصة. استقام القائد على ركاب حصانه الذي شبّ وقفز.

هوى القائد أرضاً بعد هزتين أو ثلاث، ولدقيقة ضغطت أصابعه المتشنجة على الرمال، ثم حوزق قبل أن يغدو جامداً بلاحراك.

ومع أن الأهالي كانوا متضايقين من الاستجوابات التي ستأتي فيما بعد فقد بدا عليهم الارتياح، وألقوا جثة القائد في تليس، هامسين باسم عبد القادر وهم يهزون رؤوسهم علامة الموافقة على فعلته.

اعتقل عبد القادر بعد خمسة أيام في الكثبان، وقد كاد يهلك لشدة جوعه، وانتظر خمسة أشهر في زنزانة وقد قيدت يداه بسلسلة شدت إلى وتد خلف ظهره.

وكل مساء كانت تحضر إلى باب الثكنة امرأة شاحبة وهزيلة بثياب رثة، حاملة خبزاً بلا خميرة، وبعض زاد البدو القليل. وعندما يكون العريف روباح الذي يخشى

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

الله، ويتعاطف مع كل المسلمين، رئيساً للمركز كان الأكل يصل زنزانة عبد القادر مرفقاً بكلمات حب مرسلة من قبل تسعديت، أما في الأيام الأخرى فقد كان الجنود يستمتعون ضاحكين.

أثارت الصحف ضجة كبرى حول تلك القضية. ونشر صحفيون كبار يعرفون الجزائر لخدمتهم في صفوف الزواوة[١] مقالات تدرس التعصب الإسلامي، وروح التمرد. تحدثوا عن السنوسية، وعن المهدي، وطالبوا باتخاذ تدابير صارمة جداً إزاء الأهالي، متهمين المكتب العربي بالضعف. أما بعضهم الآخر من أبناء العاصمة فقد اختلطت لديهم صوف بزكار ووجدوا علاقة مباشرة بين جريمة عبد القادر وانتفاضة مارغريت[٢]. ونشرت إحدى الصحف تحت عنوان «مات في ساحة الشرف» سيرة العقيد دو لافو، أحد روّاد الحضارة الفرنسية في الجنوب الجزائري، وشهيد الواجب، والذي سقط ضحية للتعصب. بل تم الاستشهاد بآيات من القرآن، وأخذ محمد كمسؤول عن «مأساة الواد».

أصيب بعض الضباط الذين حافظوا على نفوس الرجال تحت الزي الداكن لكبار المسؤولين بالخجل. وكانت حكاية دو لافو معروفة في الجنوب، وفكر أولئك الضباط في التشويه والعار اللذين سيلحقان بسمعة الجيش لو عُلمت مثل تلك الأشياء من قبل العامة. ومع ذلك فقد كان الانضباط حاضراً، وظلوا صامتين خاضعين للعيش في الضغينة. فقد اعتاد المرء أن يعيش في عالم تافه أخرس كما لو أنه وسط قطيع.

في المجلس الحربي للقنسطنطينية حيث تمت محاكمة عبد القادر كرجل من الأهالي التابعين لمنطقة القيادة، حَمَل مفوّض الحكومة بشدّة على المتهم. وكان قرار الاتهام بارعاً.

قال منهياً مرافعته:

ـ ينبغي تقديم المثال. ينبغي أن نظهر لرعايانا أننا لن نكون جزءاً من تعصبهم الوحشي. على المجلس أن يكون بلا رحمة إزاء المجرم الذي تجرأ على رفع يد مدنسة على العلم الفرنسي، وذلك من خلال قتله ضابطاً نبكيه كلنا.

---

(١) الزواوي: جندي فرنسي بلباس أهل المغرب والجزائر. المترجم.

(٢) تعرف بانتفاضة عين التركي، واندلعت سنة ١٩٠١. المترجم.

وحكم المجلس بالإجماع على عبد القادر بالإعدام.

ولم يهتز عندما قرأ له المترجم قرار الحكم، فقد كان يعلم ذلك مسبقاً، ولم يحتج، ولم ينبس بكلمة، وحدها يده اليمنى قامت بالحركة المعبّرة عن خضوع المسلم الذي يلغي إرادته أمام المكتوب المحتم.

وخلافاً لكل الآمال خفف رئيس الجمهورية المعادي لكل قتل مشروع الحكم عن عبد القادر الذي كان قد وقّع الطعن بالحكم باللامبالاة عينها عندما وضع أسفل محضر الاستجواب بعض العلامات التي تعني باللغة العربية عبد القادر.

ومضى إلى مكان بعيد جداً من الجهة الأخرى للأرض حيث يعيش أبدية الآلام الأرضية في العبودية حيث يدّعي بعض الرجال بدافع الكبرياء بأن من حقهم أن يعاقبوا رجالاً آخرين يشبهونهم كثيراً.

... وانتهت تسعديت في منزل بن ضيف الله، شاربة الإبسنت مع القنّاصة والجنود المحليين. أضحت عجوزاً ذابلة، ومع ذلك احتفظت ببعض الحنان إزاء المرتزقة ذوي البرانس الحمراء، لأنهم كانوا يذكرونها بالشخص الذي كانت ما تزال تبكيه أحياناً عندما تكون سكرانة، ذلك الرجل الوسيم الذي خلّصها من الشبق الشائخ لذلك الشيخ من أجل عناقات رائعة.

ملاحظة

... قائد وقح وفاسد وديرة تحت أوامر سيئة، ومجلس حرب قمعي بشكل أعمى، وصحافة العاصمة متملقة... الكثير من العناصر التي تذكّر بالشخصيات التي قابلتها إيزابيل إبرهارت أثناء محاكمة الشخص الذي اعتدى عليها في بهيمة في شهر حزيران/يونيو سنة ١٩٠١ بالقسطنطينية.

عبودية هي أشد القصص «السياسية»، وأكثرها حدة. ومن المحتمل أن هذا يقف خلف عدم نشرها بالجزائر، لكن في فرنسا العظيمة ولم يعد نشرها منذ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٠٢.

في تلك السنة قابلت إيزابيل إبرهارت الكاتب روبير روندو المساعد المنتظم لتلك المجلة الأدبية التي تقع بشارع فيونتين والتي كانت تنشر طوعاً أعمال الكتاب «الجزائريين»، لكنها تضمنت أيضاً أعمال غيوم أبولينير وجون رودس المبعوث

الخاص للوماتان في مختلف مناطق العالم، والذي قابلته إيزابيل إبرهارت سنة ١٩٠٣ في الجنوب الوهراني. «فرنسا العظيمة هي الروح النزيهة الخالصة للولايات المتحدة لأوروبا (...) وهي تُعنى بمصالح الشعوب الصغيرة ومطالبها...» كذاك أعلن العدد الأول.

عند ظهور عبودية في شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٠٣ بتقديم عاشق لروبير روندو، كانت قضية انتفاضة عين التركي قد أثارت جدلاً حول الاستعمار في الجزائر وفي العاصمة. كانت ثورة أهلية قُمعت بقسوة وانتهت بمحاكمة غزيرة (أزيد من مئة وستين متهماً) حيث برئت الغالبية المطلقة من المتهمين. وأعربت إيزابيل إبرهارت عن رغبتها في الكتابة حول القضية، غير أنها لم تفعل ذلك مباشرة. وتنتقد قصة عبودية بقلم لاذع واقعاً تدرك كيف تحلله بتجربتها.

الصديق

كان لويس لومبار الجندي المكلّف حمل المؤونة والعتاد ودحمان بوسعيد الجندي القناص مجندين متجاورين.

وصلا إلى الواد في الوقت عينه تقريباً، وشعرا بالغربة نفسها وسط تلك الرمال في الأفق المستعر، وعلى الخصوص لومبار الجبلي القادم من جورا... ومنذ أن ترك بلده للقيام «بخدمته» كان فريسة لما يشبه الكابوس، وكان يمضي مكدّراً بقدر ما تتغير الأشياء المحيطة ليصير أكثر غرابة. وفي إطار الكثبان الثابت، وفي المدينة الغريبة ذات المئة قبة رمادية، وصل الكدر الذي خنق روح البدوي الخشنة درجة حدة قريبة جداً من اليأس. كان ذلك البلد المفقود بعيداً جداً، ولم تجد العين فيه أي شيء معروف، وأي شيء أليف لترتاح من كل ذلك الافتتان الكئيب. وكان الجندي الحمّال يتسكّع في تلك الحياة الجديدة مرهقاً بقلب حزين، بل إن الأمر كان يصل به حد أن يبكي أحياناً ليلاً عندما يفكر في مزرعة أهله وفي والديه.

ولد بوسعيد قرب البحر في بون. وكان هو أيضاً معتاداً على ظل الحدائق الخضراء عند سفح الجبل... ومكّنه والد، وهو صاحب أملاك ميسور، من تعليم ابتدائي في المدرسة العربية الفرنسية وفي الزاوية. غير أنه ما إن صار دحمان رجلاً بشخصية مغامرة حتى ترك بيت أسرته وانخرط في صفوف الجيش. وكان المنفى إلى بلد الرمال، مثلما كان بالنسبة إلى الجندي الحمّال، مؤلماً. وأحس هو أيضاً الاستحواذ المخيف للصحراء... ومع أنه مسلم إلا أن رجال الجنوب كانوا مختلفين جداً عن عرب الشمال ويتجنّبون الجنود القنّاصة الذين يحتقرونهم. وقد انعزل بوسعيد لمّا لم يرد أن ينحدر إلى وحشية رفاقه الذين عرف الكثير منهم، من ماسحي الأحذية في بون أو الحمالين. وقرّبته الصدفة من الجندي الحمال.

لم يتحدث الجنديان في البداية. كانا غير مباليين، لكن ذات مساء، وبينما كان يقود لومبار حصان النقيب إلى المورد، ثارت المطية وألقت الجندي الحمال أرضاً. وهب بوسعيد لنجدته وأوقف الحيوان المهتاج.

وكان لومبار رجلاً أشقر طويل القامة، أمرد الوجه معتاداً على النظر إلى الناس بارتياب وبتعال بعض الشيء على الرغم من صدق قلبه الفطري. تفحّص وجه القناص فأعجب بدقّته وأنفه المعقوف الذي دبغته شمس الجنوب.

ـ أشكرك... إمنحني اللجام لأدخل هذا الحيوان القذر إلى الإصطبل.

كانت المرة الأولى التي يتحدث فيها لومبار إلى أحد العرب. فأولئك الناس من النوع المجهول ذوو اللغة غير المفهومة واللباس الغريب كانوا يخيفونه.

سأله بوسعيد وهما يتقدمان جنباً إلى جنب:

ـ هل قدمت من فرنسا؟

ـ طبعاً... وأنت، ألست من هنا؟

ـ آه، كلا! أنا من بون، وهو بلد جميل حيث الأشجار والماء والجبال... ليس مثل هذا المكان.

ـ أجل، هو بلد قبيح فعلاً.

ومن دون معرفة السبب أحس لومبار سعادة عندما علم أن بوسعيد لم يكن ينتمي إلى ذلك البلد القبيح، وشجعه ذلك للحديث إليه. ومنذ ذلك اليوم، وفي كل المرات التي تقابلا فيها، كانا يتحدثان. وعلى الرغم من الهوّة التي كانت تفصل بينهما سرعان ما أصبحا صديقين. وكان لومبار هو أيضاً قد انعزل عن رفاقه الفرنسيين الممرّضين والمرحين.

وكان الأولون وهم جزائريون يسخرون منه لأنه جندي حمّال «شحم ملكي» مثلما كانوا يقولون. أما المجندون فقد كانت تضايقه أحاديثهم الوقحة، وفضل رفقة بوسعيد، ذلك الفتى الجاد والمفكر مثله.

وعندما يكونان من دون شيء ليقوما به كانا يجتمعان في غرفة لومبار ويخيطان ملابسهما متبادلين السؤال بودّ عن بلديهما.

ويحرصان على أن يتمثلا تلك الأماكن انطلاقاً من أحاديثهما والتي من المحتمل

أنهما لن يزوراها أبداً. كانا يتواسيان كونهما منفيين وأسيرين عندما يتحدثان عن الناس والأشياء التي أحباها.

لم يجرؤ لومبار على امتداد شهر كامل على الخروج من البرج، لأن الشوارع الضيقة المتداخلة التي يتجول فيها العرب لم تبد له آمنة. إضافة إلى ذلك، أين كان بإمكانه الذهاب؟

ومع ذلك فقد اقترح عليه بوسعيد ذات مساء وقد ملّ من سجنه ذاك أن يرى المدينة، فخرجا. تبع لومبار الجندي القناص شبه خائف، وأخذت قدماه غير المعتادتين تغوصان في الرمال البيضاء الدقيقة جداً كما لو أنها غُربلت. ولما بدأ يألف البلد، وأضحى شخصاً يمكنه أن يسر له بمشاعره، اجتاحه فضول لمعرفة كل ذلك المحيط المجهول. كان لا يعرف الكتابة والقراءة إلا لماماً غير أن روحه الغافية كانت قادرة على الاستيقاظ.

وكان العرب يمرون مع حلول الليل في الشوارع بهدوء وقد غطوا رؤوسهم وفي أعناقهم سبحات طويلة، عائدين إلى بيوتهم الغامضة ذات القباب أو ليجلسوا أمام المقاهي المغربية على الحصائر. وكان بعضهم يحيون بوسعيد تحيات سريعة.

وسال لومبار حائراً:

ـ ما الذي قال لك؟

ـ حياني.

ـ إذن فأنت تعرفه؟

ـ كلا، في ديننا عادة ما نحيّي المرء من دون أن نعرفه.

ـ هذا جيد، ينبغي أن يكون المرء مؤدباً. لكن أخبرني، لماذا تخفي النساء وجوههن؟ ولمَ هن قليلات في المدينة؟

ـ ليس من عادة نسائنا الخروج... لكن إذا أردت رؤية المغربيات سآخذك. تعال! آه، لو نرسل إلى التل عندما يتم نقلنا، سترى هناك النساء الجميلات!

ـ أين يوجد التل؟

ـ في الشمال، إنه البلد الذي رأيته عند نزولك أول مرة.

ـ سيكون ذلك ظريفاً...

كان الليل قد حل تماماً، وبدت المدينة خالية. خرج لومبار وبوسعيد إلى طريق

توقورت، وهي طريق رملية، وصعدا إلى منزل يطل على الصحراء، منهياً المدينة من الجنوب الغربي. كانت أبواب ذلك المكان مشرعة، وكان فيه الكثير من الجلبة. وكان بعض الجنود القناصة يجلسون على مقاعد، يشربون ويتشاجرون، غير أن عيني الجندي الحمّال شُدّتا إلى مخلوقات غريبة، كانت ترتدي ملابس تجعلها تبدو كالأشباح، وعلى وجوهها السمراء علامات زرقاء موشومة. وكان بعضهن يشربن مع الجنود القناصة، بينما كان بعضهن الآخر يرقصن متمايلات بغرابة.

وكانت إحداهن تجلس مثل الجنود القناصة، وتضرب طبلاً وتغني بصوت مرتفع أغنية حزينة رتيبة، يتناقض حزنها مع ذلك المكان ومع الموجودين فيه.

قال بوسعيد:

ـ لسن جميلات، لكن ماذا تريد أكثر من هذا؟ لا يوجد غيرهن هنا لأولئك الذين ليست لهم صديقات في المدينة.

أتت إحدى الراقصات التي كانت تتمايل بردفيها المغطيين بقماش أحمر، وجلست قرب لومبار، وأمسكت يده. كانت تتحدث الصابير ويجد لومبا صعوبة في فهمها. وكانت رائحة قوية تصدر من ملابس تلك المرأة، رائحة مثل عطر القرفة ممزوجة بالمسك. تفحّص لومبار بفضول جارته، وشعر بخوف منها كما لو كان أمام كائن من نوع مختلف، وفي الآن عينه أحس نحوها انجذاباً جسدياً... أفرط لومبار وبوسعيد في الشرب ذلك المساء، وانتهى بهما الأمر بأن تأخرا هناك في «حانة» بن ضيف الله.

وكان لومبار وبوسعيد يذهبان ليتمددا في الرمال الصافية والرخوة مثل زربية في قمة كثيب رمادي يطل على الواد، حيث الكثبان دائمة التموّج، وحيث المدن الصغيرة المفرقة حول الواد، الغارة وسيدي عبد الله وتقصبيت، وحيث يتجول المعز الأسود وسط الخرابات المتكدسة تحت قباب المنازل القديمة.

ومن ذلك المكان المرتفع كانا ينظران إلى الالتماع الرائع واللذيذ للضوء متعدد الألوان، وجماعات النساء اللواتي يعدن من الآبار منحنيات تحت جلود التيوس المملوءة أو حاملات على رؤوسهن في حركة لطيفة قِرباً ملتمعة...

وشيئاً فشيئاً بدآ يعتادان على بلد الضوء والصمت، ولم يعد يخيفهما، غير أنهما كانا ما يزالان يشعران غريزياً بحزن عظيم ومحتوم...

قال بوسعيد عند عودته بعد توزيع البريد:

ـ . . . لومبار! هناك رسالة لي!

ـ أنا أيضاً لي واحدة!

وضعا رسالتيهما الغاليتين في سترتيهما بحرص، وحملا الرسائل إلى الضباط، ولما حل الليل، وعند انتهائهما من الخدمة، ركضا ليغلقا عليهما باب غرفة لومبار. وهناك جلسا على السرير، ومزقا بسرعة مغلفي رسالتيهما. وهكذا أخبر أحدهما الآخر، بسعادة طفلين، أخبار بلده، وتقاطعت أسماء فرنسا القديمة مع الأسماء الإسلامية.

ـ هكذا إذن! ستتزوج قريبتي جان ابن بيسون، ذاك الذي يدير البولينغ في كوبرنيكس.

ـ تزوج أخي علي ابنة الحاج الطاهر، نخّاس موريس.

ـ والأخ الذي اشترى من معرض غايار بقرتين سويسريتين، إحداهما حمراء والأخرى سوداء، وقريباً ستلدان. . . الأمور تسير على نحو جيد هذه السنة والداي سعيدان. آه! يا للقدر السيّئ المحيق بالرجل الكسول. . . أريد أن أرى بقرتيهم الجديدتين. . .

وفي النهاية، أضاف لومبار بصوت خفيض كاشفاً سره:

ـ وفرنسواز ابنة موشي أحد الميسورين، تلك التي كنت أكلمها، أرسلت لي تحيتها، وأنها ما تزال موافقة دائماً عندما أنهي خدمتي.

ولما كان بوسعيد ما يزال يقرأ مال لومبار فوق كتفه، وبقي مندهشاً لرؤية الزخارف الصغيرة الدقيقة التي تغطي ورقة كبيرة كانت مطوية:

ـ هكذا إذن، هل هذه هي رسالتك؟ هل تفهم فيها شيئاً؟ يا إلهي!

وكانت أماسي وصول الرسائل لحظات سعادة بالنسبة للجنديين، وكانا يمضيانها في إعادة قراءتها وفي التعليق على محتوياتها من دون انقطاع. وفي النهاية أصبح كل منهما يعرف عائلة الآخر ويسأل عن أخبارها، ويعرف حتى هيئة الأماكن حيث أمضى كل منهما طفولته. وفي ردودهما التي كانا ينجزانها معاً كان أحدهما يتحدث إلى الآخر ناقلاً تحياته حتى بلغ بهما الأمر إلى القول:

ـ لا تنس على الخصوص أن تبلغ سلامي إلى والديك!

. . . وحلّ فصل الشتاء. كان شتاء غريباً ومقلقاً، فبدت الكثبان تحت السماء

السوداء الفسيحة داكنة، وعوت الرياح حزينة مكدّسة الرمال الرمادية عند أسفل جدران البرج. كان الطقس بارداً، ولم يعد الصديقان يتجولان إلا نادراً، واختارا غرفة لومبار الأفضل تقسيماً والأكبر لقضاء سهراتهما الطويلة. ففي زاوية، كان هناك السرير، ثم الطاولة والمقعد الخشبي، وعلى لوحة خشبية على الجدار عُلّقت حقيبة الجندي الحمال وإلى جوارها، البندقية والسيف ـ الحربة. وكانت الملابس معلقة على مسامير. وكان لبوسعيد، وهو جندي قديم أعاد انخراطه، عناية أبوية بصديقه الغشيم إذ كان يقوم «بعمله»، وكان يغسل له ملابسه. وبيّض الجدران وعلّق عليها بمسامير صور جرائد مشهورة ومرآة عربية.

وفوق الطاولة ثبت قرني غزال سُرقا من مطعم الضباط، وأحضر تمائم جلدية وسهام الطوراق المصنوعة من حجارة متعددة الألوان، وزيّن غرفتهما هذه بكل ذلك هاجراً غرفته. وكل مساء، كان يحمل فراشه إلى غرفة لومبار.

وكان لومبار يقول بفخر وهو ينظر إلى غرفتهما:

ـ كم هو جميل بيتنا!

وشيئاً فشيئاً شُفيا، في صداقتهما المتينة، من قلق منفاهما، وأخذا يشعران بالسعادة، ولم تعد الساعات التي يتعين عليهما قضاؤها هناك تفزعهما حد أنهما لم يتحدثا عن تغيير الحامية الذي من المحتمل أنه كان سيفرقهما إلى الأبد.



زاد رفاق لومبار الأوروبيون من احتقارهم للجندي الحمال، فقد أضحى صديق عربي. وعندما كانوا يسخرون منه كان ينظر جانباً مدخلاً رأسه الأشقر بين كتفيه العريضتين، ويرد قائلاً:

ـ ماذا إذن؟ ما السوء في ذلك؟ إذا ما أردت المشي مع العربي، ماذا يضيركم في ذلك أنتم؟

ومنذ أن لكم لومبار «مجنداً» كان قد شتمه، لم يعودوا يحبون الشجار معه. وانتهى رفاقه بأن يتركوه وشأنه، مكتفين بالابتسام عندما كانوا يرونه يمر رفقة الجندي القناص.

وكان بوسعيد يدرك أيضاً كيف يجعل الآخرين يخشونه، فقد كان يستل سكينه

بسرعة لأقل مشادة، وسبق له أن تشاجر كثيراً عند بن ضيف الله، وهكذا لم يكن يجرؤ الجنود القناصة الآخرون على انتقاد صداقته للرومي علناً، والتي كانت تبدو لهم غير لائقة بطالب مثل بوسعيد.

*
* *

وبعد أن عرفا المدينة حظيا ببعض المشاريع الرومانسية مع بعض نساء صوف الجميلات ذوات الأجساد المعطرة والعيون المخملية. وكانا بسيطين وبدائيين ما جعل لديهما طرق الاستمتاع عينها تقريباً. غير أن بوسعيد كان يضفي على مغامراته الغرامية شغفاً وجدية كانا يجعلان لومبار يتفاجأ، فبالنسبة له لم يكن كل ذلك إلا «مزاحاً» لأنهما قبل كل شيء شابين، ولأن ذلك كان لتمضية الوقت. وبالنسبة له لا مجال للحب إلا عندما يتعلق الأمر بشيء جدي مثلما يقول، بمعنى الزواج. ويستغرب كيف أن بوسعيد يقع كثيراً في حب مخلوقات تباع وتشترى. وما كان يفاجئه على الخصوص هو أنه بعد نوبات شغف وغيرة، كانت من الممكن جداً أن تتحول إلى جرائم، كان حبه يمر سريعاً جداً فاسحاً المجال لحب آخر. لكن لومبار العقلاني كان يقول بأن الله لم يخلق كل الناس من مادة واحدة، وأن «الكل بلد طريقته».

*
* *

... وخلال أشهر مضت حياة المجندين المشتركة في خدمة الضباط برتابة مهدهدة، ورغبا في أن يستمر ذلك إلى الأبد.

غير أنه عند نهاية فصل الشتاء سقط بوسعيد مريضاً، وهو الذي كان ضعيفاً، ويعاني داءً في صدره، فقد أصيب بنزلة برد شديدة، ولم يشأ أن يتقدم كمريض، غير أن حُمّى عنيفة تمكنت منه فدخل المستشفى... ومنذ اليوم الأول اعتبره الرائد رجلاً منتهياً.

وبدأ لومبار الحزين يقضي كل أوقات فراغه قرب المريض، متفنناً في علاجه. واجتاح خوف مرعب الجندي الحمال من فكرة أن بوسعيد سيموت. لم يكن الله يحبه ما دام سيأخذ منه صديقه الوحيد!

... وعلى امتداد عدة أيام فقد بوسعيد الوعي ووقع فريسة للهذيان. وفي النهاية، وعند حلول الليل، استعاد وعيه.

أضاء الممرض مصباح السرير، وأخذت شعلته الصغيرة تتمايل ناشرة صفاءً وردياً في الغرفة المملوءة بأربعة أسرة عالية ومتزاحمة، والفارغة جميعها باستثناء سرير بوسعيد. كان لومبار يمسك يد صديقه، وفرح فرحاً عارماً حين رأى المريض يتعرف عليه إذ قال:

ـ لومبار... لومبار...

كان بوسعيد شديد الوهن، وكان بالغ الهزال بعينيه السوداوين المفتوحتين في وجهه المتحلل، والتصقت شفتاه بأسنانه البيضاء، ولم يعد ذلك الشاب الوسيم. وما كان مروّعاً على الخصوص أن تنفسه كان حشرجة وصفيراً.

قال لومبار الذي أضحى يخاف الصمت:

ـ لا ينبغي لك أن تقلق، مادمت قد استرددت وعيك الآن فقد نجوت.

غير أن بوسعيد أخذ يهز رأسه، قائلاً:

ـ لومبار... الوثائق... الرسائل... متاعي... احتفظ بها... إنها لك...

ـ لكن كلا! ما الذي تقوله الآن؟ لا ينبغي أن تكون لديك أفكار مثل هذه لأن هذا يحطم قلبي!

قال ذلك غير أنه كان يرى النهاية، وخشي أن يبكي. وبقي بوسعيد جامداً لمدة طويلة مغمض العينين. ولزم لومبار الصمت معتقداً أنه نائم... غير أن حشرجة المريض أضحت أكثر خشونة، وأخذ يتقلّب رأسه على الوسادة... خلّص يده من يد لومبار ورفع سبابته... همست شفتاه ثلاث مرات بشيء لم يفهمه الجندي الحمال... وبعد ثلاث رجفات مرافقة بحوزقة مخيفة، ترك بوسعيد نفسه يرتمي في حضن صديقه الذي قام مرعوباً.

كرر الجندي الحمال متنحباً:

ـ بوسعيد! بوسعيد! هذا غير ممكن يا إلهي، هذا... مروّع جداً!

بقي كئيباً ورأسه بين يديه المتشنجتين يراقب حتى الصباح الجسد الذي غطاه الممرضون بقماش أبيض.

وعند الصباح حضر رجال يلبسون البياض بهيئة رصينة لغسل جسد بوسعيد في قاعة التشريح. بعد ذلك لُفّ في كفن أبيض كبير، وغطوا وجهه إلى الأبد، ثم أخذوا يستظهرون أدعية بنبرة مهيبة ورتيبة. وفي إحدى الزوايا جلس لومبار ممسكاً قبّعته

بيده، ينصت ويصلي بدوره للرب. لكل دينه، لكن ليس هناك إلا إله واحد. كذاك قال الجندي الحمال محدثاً نفسه.

حمل بوسعيد في نقالة مغطاة بقماش أبيض. تبع لومبار الموكب الذي خرج من المدينة، ونزل حتى الواد الكثيب حيث مقبرة أولاد أحمد، وصلّى العرب من دون سجود مشكلين نصف دائرة حول الجسد المسجى أرضاً. ثم أنزلوه في الحفرة الواسعة والعميقة وغطوه بجريد أخضر، وأهالوا عليه الرمال الجافة بسرعة... راقب لومبار وكان دوماً في المقدمة، ما يقوم به العرب. اجتاحه خدر أليم، ونظر بقلق إلى بقعة أرض المنفى حيث اختفى صديقه إلى الأبد. ووضع عريف القناصة على منديل الجنود بعض قطع الخبز والتين الجاف التي أخذها الطلبة والمتسولون.

عاد الجميع إلى المدينة، وتبع لومبار وحيداً أولئك الرجال المنتمين إلى عِرق آخر. كان حزنه عظيماً ومرهقاً.

عندما عاد إلى غرفتهما بكى بيأس عند رؤية كل تلك الأشياء التي رتبها صديقه على نحو جيد. .عندما حل الليل، وذهب ليجلب رسائل ضابط الصف، فكر أن بوسعيد لن يقرأ أبداً رسائله معه...

وعندما عاد فكر لومبار بأنه لم يتبق له شيء ليفعله في ذلك البلد، إلا عدّ الأيام التي تفصله عن حريته...

ارتمى على سريره، وبكى طويلاً، بينما كانت رياح الشتاء الباردة تسوي في المقبرة الإسلامية الربوة الرملية الصغيرة حيث قبر دحمان بوسعيد.

ملاحظة

يمكن للحب أو للصداقة أن تجمع العرب والفرنسيين. بدت هذه الحقيقة لا تصدق وشائنة لدى أغلب القراء الأوروبيين في تلك الفترة.

كانت تلك قناعة إيزابيل إبرهارت. ولا ريب في أنها استلهمت الصديق وهي نوع من الميلودراما العادية والقصيرة من الواد، من حكايات رفاق سليمان إهني في السلاح، ودافعت (بداعي المشاعر) عن المسلمين الذين كانت تدعوهم إخواناً لها.

لم نجد أثراً لقصة الصديق في الصحافة قبل تاريخ ٧ آب/أغسطس ١٩٠٥ تاريخ نشرها في الأخبار أي بعد عشرة أشهر على وفاة الكاتبة. وأعيد نشر الصديق في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

حنين

لعل سحر الحياة الكبير المؤلم يكمن في اليقين المطلق بالموت. ولو كانت الأشياء تستمر أبداً لبدت لنا غير جديرة بأن نتعلق بها.

هناك تباين ألوان كبير بين السماء والزمن، فالماضي وردي والحاضر رمادي والمستقبل أزرق. وخلف ذلك اللون الأزرق الذي يرتعش تنفتح هاوية دون حدود ودون اسم، هاوية التغيرات للحياة الأبدية.

أجل، فالمبدأ المجدي لرحيل قسري ونهائي يكفي بعض الأرواح لمنح أشياء الحياة سحراً ممزقاً.

وتبدو لنا الأماكن حيث أحببنا، وحيث تألمنا، وحيث فكرنا وحلمنا، وعلى الخصوص، البلدان التي تركناها من دون أمل في أن نعود إليها يوماً، أكثر جمالاً بالذكريات التي تكون عليها في الحقيقة.

والأسف هو السحر الكبير في المكان وفي الزمان الذي ينفذ في كل الظلال.



هكذا تكفي روحه المصطفاة خلال منافيه البعيدة والمتعاقبة كلمة ذات إيقاع عربي، أو موسيقى شرقية، أو حتى صدى بوق خلف سور ثكنة ما، أو رائحة لإثارة عالم من ذكريات الأرض الإفريقية بوضوح لذيذ وقوي جداً حد الألم، والذي كان غافياً ولم يمت أبداً بل بقي مختبئاً في صمت مدينة الأموات التي تنطوي عليها روحه مثل مومياء حزينة وغير ذات جدوى في عمق تابوت تخرج تحت تأثير سيل مجهول وتبتسم مثل «كاهنة قرطاج».

ولم تكن كل لحظة في حياته ثمينة إلا بذلك القلق الفاتن للإحباطات الماضية

والوشيكة. وما إن تطأ قدماه أول مرة تلك الأرض الغريبة حتى يتوقع كل الأحاسيس وكل اللذات التي ستكون مسرحاً لها، وعلى الخصوص الحزينة منها للرحيل المؤكد وللحنين المستقبلي.

ذلك أنه لا يحدد أبداً تخوم الأشياء وأشكال كائنات الحاضر بالمرئي، فهو يحب أن يمددها ويلونها، ويتحد خياله مع قلبه...

يتأمل في جلوسه على برميل فارغ وسط الأشياء السديمية لرصيف لاجوليت الكبير الروعة المنبثقة من شحوب الشمس الشتوية، ويتذكر صباحاً خريفياً بعيداً جداً سبق الإحباطات الكبرى التي جعلت منه بدوياً ومتجولاً.

كان ذلك في عنابة (بون) في ذلك الساحل البربري الذي أحبطه لفرط ما غادره والذي لم يعد يجرؤ أن يأمل فيها مجدداً.

خرج باكراً للذهاب إلى المحطة محاذياً تلك البادية في الضواحي الواسعة جداً والحنينية جداً، وطلعت الشمس خلف كاب روزا مغرقة الخليج الجميل في أنوار خريفية تتمايل بدعة في الصباح المنعش، واستيقظت بعض العصافير المقرورة وراحت تغرد بخجل.

تذكر ذاك الصباح برعشة أوقات شروق الشمس الحميمية في مراهقته وسنوات طفولته الأولى بنضج حساس وحالم، تلك السنوات التي لم يدركها إلا في بعده عنها.

وفي تلك اللحظة، وفي رصيف مرسيليا حيث لم يكن الفجر جميلاً عند ظل الكاتدرائية الكبيرة التي لم تلق في نفسه أي رقة أمل، رأى نفسه في مكان آخر:

كان ممتطياً حصانه الصحراوي، يحذو حذو مرشديه وقد ابتعد عنهم كثيراً إلى الأمام، وصعد تلة جرداء قاحلة في الفراغ الشاسع للصحراء الإفريقية. خلفه كانت أرجاء واد رير المالحة والوعرة. وأمامه أسوار المقار المنخفضة المشيدة بالتراب الأحمر وأشجار النخيل المتشابكة الظليلة والخفيفة، الواحة التي يتعين عليه قضاء النهار فيها بعد ليلة مسير كاملة. وإلى يساره، فوق بحيرة جففها سعير فصل الصيف الصحراوي، كانت الشمس تشرق.

امتدت السبخة على مدى البصر، حيث طريق صلبة وآمنة خلال فصل الصيف تعبرها دون انقطاع قوافل الجمال الطويلة، وحيث تركض المهاري السريعة في الشعامبة التي تتحول إلى سديم من الطين والأوحال منذ التساقطات المطرية الأولى

لفصل الشتاء، وتصير طريقاً قاتلة بالنسبة لكل متهور يغامر بالمرور فيها.

«شربته السبخة العظيمة»، كذاك قال له دليل شعامبي، وهو يحدثه عن أخيه. تذكر تلك الجملة في رعشة خوف ذات ليلة عاصفة كئيبة ومهلكة وسط تلك الفيافي الملعونة عينها في سبخة ميلغير الكبيرة الخادعة والقاتلة.

غير أنه في ذلك الصباح أشرقت الشمس الوديعة فوق السهل الميت، والذي لا شك في أن بركة الله قد غادرته منذ الأصول البعيدة، ذلك أنه لم يظهر فيه أي أثر لحياة، لا شيء سوى الغطاء النباتي المتبلّر على نحو غريب.

ياله من هدوء متألق وباسم!

وفي الخلفية الرمادية المائلة إلى الحمرة لسبخة في منتهى التفاهة، بدا التفتح الناصع البياض للملح البلوري وحده حزيناً مرتفعاً، ناثراً روائح بحرية لاذعة تصيب بالغثيان، فوحان الحمّى والموت.

ومع أن السبخة عدوة للحياة إلا أنها كانت تبتسم بكل بياضها كما لم يبتسم فجر أبداً...

حنين! حنين متناثر في مرسيليا، تائه مثل طيور كبيرة لا تلبث أن ترحل، وكانت تستريح فقط!

ومرة أخرى، ذات مساء حزين، كانت الأمطار تهطل ضاربة بغضب زجاج نافذته، بقي وحيداً في غرفته بلا حراك يتأمل شيئاً مدهشاً «يعود».

وحوله امتد المدى الفسيح المتماوج لكثبان صوف الكبيرة، حيث ظهور الدواب المتوحشة عينها، ذات اللون الأسمر الفاتح بفيض نور المدى، محيط فريد متجمّد في عز العاصفة غير أن سطحه المساهم في حياة الرياح يتدفق من دون توقف في صمت القرون الرتيبة. وأحياناً تبدو أودية صغيرة. وعلى الرمال الناصعة البياض هناك شجيرات قصيرة ذات رقة غير محسوسة تقريباً، تبدو كما لو أنها تزحف وتبذر أنوار غريبة من أغصان ميتة ذات سواد أبنوسي. ومن مكان بعيد إلى آخر تبدو الحدود العسكرية لأرض صوف المتحركة حيث القميرات الرمادية، وهي أهرامات حجرية صغيرة شيدت على قمم الكثبان الكبيرة للإشارة إلى الطريق التي يتعين اتباعها.

وكانت الشمس تميل باتجاه الأفق في سماء من دون سحب ذات شفافية لازوردية غير محدودة، وكانت منازل قصر قوينين الرمادية وأشجار النخيل المعتمة بادية في حُمرة الرمال الشديدة.

. . . وفجأة، بجهد مباغت وبركض لاهث، وصل حصانه إلى قمة الكثيب الذي يفصل قوينين عن الواد.

وهناك رأى منظراً فريداً لا ينسى أبداً يمر أمام عينيه المشدوهتين، منظر الشرق القديم الخرافي.

ووسط السهل الشاسع ذي البياض المتحول إلى اللون البنفسجي مدينة بيضاء كبيرة تقوم وسط نباتات البساتين المعتمة. وسط ذلك السهل الذي كان بلا لون بدت المدينة الناصعة غير حقيقية وشفافة في رحب الأرض وللسماء المتغيرة. وبدت له الواد لأول مرة من دون سقف رمادي، ومن دون مواقد مدخنة مثل مدينة سعيدة وقديمة من مدن الإسلام الأصلي وكجوهرة بيضاء مرصعة في الصحراء التي تبدو كعلبة جواهر من الساتان الصدفي. . .

وما كانت الكلمات تكفيه ليعبّر عن الروعة الفاتنة لذلك المشهد، فاتنة لأنها فانية، وبحزن لا قرار له.

أخذ يقترب بهدوء محاذياً في تلك اللحظة موجة ممتدة حيث تشهد بلاطات رمادية صغيرة قديمة ومائلة في الرمال على مكان راحة المؤمنين الأبدية.

وفي الصمت المطبق لتلك المدينة التي تبدو ميتة وخالية تنزل أصوات كما لو أنها آتية من أعالي الجبال، رصينة ومهيبة، أصوات تتردد في الوقت عينه، وفي النبرة الحزينة عينها حزناً خارقاً، من تخوم السودان الأسود إلى مدى الأطلسي الفسيح، عبر العديد من القارات والبحار مثيرة ذكرى مقدسة لا تموت لكثير من الناس ذوي الأصول المتعارضة. . .

غير أن صوتاً آخر أكثر بطئاً وأكثر تناغماً ارتفع من شارع رملي ملتو، وهناك ظهرت مجموعة من الرجال ببرانس بيضاء وسوداء وبمعاطف الجنود الحمراء، خرجت ببطء شديد وبرصانة وحزن من ذلك المكان المسوّر. وكان في المقدمة شيوخ مهيبون برؤوس شائخة معمّمة حيث لم تدر أبداً أي فكرة للشك أو الثورة على الإرادة الإلهية. . .

ثم ظهرت على الأكتاف القوية لستة صوافة سمر، سود تقريباً، حمّالة عليها جسم ممدد غطي بقماش أبيض، وكان ذلك الجسم جامداً في صلابة الموت الباردة. ثم توالى مرور الأشكال البيضاء والسوداء.

ارتفعت وسط مجموعة من الشيوخ أدعية بطيئة معلنة القدر المحتوم، وتفاهة الأملاك الفانية لهذا العالم، وسمو الموت بوصفه الدخول المجيد إلى الأبدية...

ـ هو ذا يا إلهي خادمك ابن خدامك يرحل في هذا اليوم عن وجه الأرض حيث يترك من أحبوه إلى ظلمات القبر... ويشهد أن لا إله إلا أنت، وأن محمداً رسولك... وأنت الغفور الرحيم...

وفي الواد الجنائزي حفر رجلان حفرة عميقة في الرمال الجافة.

عندما سُجّي الجسد أرضاً، ووجهه باتجاه تلك المنطقة من الأرض حيث توجد مكة المكرمة، وغطي بالجريد الأخضر، تدفقت الرمال البيضاء بهدوء مغطية إلى الأبد ما حوى روحاً مسلمة، روح مزارع صوفي، رجل قليل العلم كثير الإيمان.

ثم تسلك المجموعة البيضاء بهدوء طريق المدينة حاملة الحمالة الخالية، وفي أعماق كل واحد منهم ذلك الانتظار الخاضع تماماً لليوم الذي سيعود فيه محمولاً على الحمالة عينها في ساعة المكتوب المحددة على الحمالة عينها، مصحوباً بالحركات القديمة نفسها، والأدعية عينها، وبالإيمان الذي لا يزحزح.

وجعل ذلك الدفن العابر، حيث لا يلوّث أي ظل حزين الرقة التي تفوق كل وصف، قلبه الغريب يمتلئ بسلام عميق.

وتقدمت ظلال أخرى ملتفة بلباس أزرق معتم نحو بئر ذي دعامة بدائية من جذع نخلة شُدّ إلى عارضة أسندت بركيزتين، وجعلت عومارة تتحرك، وهي سلة جلدية يحفظ توازنها بحجر. كانت نساء الواد يقصدن السقاية حاملات في حركة قديمة جراراً على أكتافهن اليمنى.

وعلى السور الطيني لمنزل صوفي، معقد وفوضوي، مزدحم بسطوح وقباب صغيرة، جلس شاب وأخذ يعزف على ناي قصبي ذي ثقوب ساحرة.

آه، كم كان لذلك القدوم الذي لا ينسى أبداً بالنسبة له من سحر غير محدود، ورقة حزينة شديدة...

وهبت ريح باردة هزت إطارات وزجاج نافذته في مرسيليا. اختلج كما لو أنه خرج من حلم. وحلّ ليل بارد وحالك على تلك المدينة حيث يشعر بنفسه أكثر وحدة وأكثر غربة. ثم أضاء مصباحاً راغباً في العمل.

وقع نظره بالصدفة على الصفحة الرابعة لإحدى الجرائد حيث مواقيت بحرية. وهكذا راوده بغتة شعور قوي ومؤلم تقريباً بالرحيل، والذهاب ليعيش حلمه بصيف كله حرية وشباب، لكن بعد لحظة تفكير تحرر من ذلك.

«ما فائدة ذلك؟... لقد مر ذلك السحر، ولن أجده مرة ثانية... ليس هناك أشد من وهم لا يتحقق مثل الذهاب إلى أماكن أحبها المرء في السابق بحثاً عن مشاعر ماتت. كلا! فلنبحث بالأحرى في صدى الحياة الغريبة عن أراض أخرى، وسعادات أخرى، وأحزان أخرى، وحنين آخر».

وفي اليوم الموالي، رحل محموماً ومتعطشاً للرؤية، والإحساس في منطقة أخرى من إفريقيا تلك التي كانت تشده إليها على نحو لا يقاوم والتي ستكون قبره المبكر!

ولم يعد أبداً الباحث عن اللذات الحنينية...

ملاحظة

لذة الحنين الحقيقية، وتسليط الضوء على الذكريات. تأخذ الراوية مسافة لتكتب مجدداً اكتشافها للواد. أحياناً وعلى نحو نادر جداً يراود المسافر وهو أمام منظر إحساس قوي بالاكتشاف، ويعتقد أنه وصل إلى الهدف.

وهذا النص الذي من المحتمل أنه كتب في المنفى بمرسيليا سنة ١٩٠١، والذي يقترب من في بلاد الرمال (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً) حيث تروي إيزابيل إبرهارت بصيغة المتكلم وصولها إلى «مدينة الألف قبة.»

ومما لا شك فيه أن نصّ حنين كان أدبياً جداً بالنسبة إلى نشره في الصحافة، وهو من بين نصوص إيزابيل إبرهارت التي نشرت فقط بعد وفاتها من قبل فيكتور باريكون بداية في الأخبار (٢٨ أيار/مايو ١٩٠٥) ثم من أجل تشكيل في ظل الإسلام القائظ. (مصدر ذكر سابقاً).

وينهي نص حنين في التراتبية الزمنية للإلهام مرحلة الواد.

صورة أولاد نايل

في كل واجهات المصورين تُعرض أمام أنظار الأجانب الفضولية صورة لامرأة من الجنوب بلباس غريب، ووجه مدهش كمعشوقة من الشرق القديم أو طيف... وجه طير من الكواسر ذي نظرة غامضة. كم من أحلام فريدة ولربما من بصيرة لدى بعض الأرواح المرهفة في ذلك الجنوب الكئيب والرائع أثارتها صورة «أولاد نايل» هذه لدى المارّة الذين تأملوها وأقلقهم رسمها؟

لكن من يعرفون قصتها يفترضون أن في الحياة المجهولة لتلك المرأة، القريبة جداً والبعيدة جداً في الآن عينه، وقعت مأساة إنسانية حقيقية، وأن عينيها الظليلتين وشفتيها المقوّستين كانت قد ابتسمت لشبح السعادة!

بداية، إن إلصاق اسم «أولاد نايل» بصورة عاشورة بن سعيد هو من قبيل الغش، فعاشورة التي ما تزال تعيش من دون شك في بعض القريات البدوية تتحدر من العِرق الخشن لشاوية الأوريس.

وحكايتها المتقلبة والحزينة هي إحدى ملاحم الحب العربي، التي حدثت في البيئة الموغلة في القِدم حيث سادت العادات والأعراف الجامدة والتي ليس لها من رواة سوى الرعاة والحمالين الذين ارتجلوا في حدس فني جداً ومن دون تكلف أغاني حزينة طويلة ورتيبة مثل طرق الصحراء حول قصص الحب والإخلاص والنفزات[1]، والغزوات[2] التي تميّز عِرقهم.

كانت عاشورة ابنة حطاب تبعث طويلاً حلم اللاوعي الذي يشق وصفه قبالة آفاق الجبل الزرقاء المديدة وما فيه من غابات الأرز المعتمة. ثم تزوجت صغيرة جداً

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.
(٢) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

وحملها زوجها إلى باتنة الحزينة والمبتذلة، مدينة الثكنات والأكواخ التي لا ماضيَ لها ولا تاريخ. عرفت عاشورة المسجونة والتي وقعت فريسة الملل المقضّ لحياة لم تخلق لها كل عذابات الحاجة غير المرتوية للحرية. وسرعان ما طُلّقت لتستقر في أحد الأكواخ الحقيرة المتداعية في القرية ـ السوداء، الملحقة قسراً بالحامية العسكرية.

وهناك تأكدت طبيعتها الغريبة، فقد كانت غامضة ومتعالية على مثيلاتها وعلى الزبائن ذوي السترات أو السروايل الحمراء، وكانت تساعد الفقراء والعجزة.

على أنها كانت مثل الأخريات تحتسي الأبسنت وتسكر وتمضي ساعات الانتظار الطويلة جالسة عند عتبة بابها والسيجارة في فمها، شابكة أصابع يديها على ركبتها المرتفعة. غير أنها كانت تحافظ دوماً على طابعها الحزين والرصين الذي كان يتوافق كثيراً مع جمالها الغامض، وكانت تومض في عينيها ذواتي النظرات البعيدة لفرط تفكيرها، شعلة الشغف.

وذات يوم انتبه السي محمد العربي، وهو ابن خيمة كبيرة كان والده يحمل لقب آغاليك في الجنوب، لعاشورة وأحبها. وكان الشريف الشاب الجريء والوسيم، والقادر على الشغف العنيف سبب سعادة الشاوية، سعادتها المتاحة الوحيدة اللاذعة والممزوجة بالألم. وكان السي محمد العربي الغيور والمجروح في كبريائه بالاختلاطات الدونية، يتألم لرؤية عاشورة في القرية ـ السوداء، تحت رحمة الجنود. غير أن إخراجها منها كان سيثير فضيحة، وكان الشريف الشاب يخشى الغضب الأبوي...

ومثلما يحدث لكل كائنات الحب، أحست عاشورة نفسها تولد في حياة جديدة، بدا لها كأنها لم تر أبداً الشمس تحيل قمم الجبال ذهبية اللون، والضوء يغمر بلذة أشجار الجبل الكثيفة. ولأنها كانت سعيدة في قرارة نفسها أحست بسعادة تصعد من الأرض، كما لو أنها فترت في حب خالد.

ومثل كل فتيات عِرقها رأت عاشورة تجارة جسدها كعربون للخلاص المتاح للمرأة. لم تعد ترغب في مزيد من السجن المنزلي، وأرادت العيش في واضحة النهار، إذ لم تكن تخجل أبداً مما كانت عليه، فقد بدا لها ذلك مشروعاً، ولا يضايق حبها لمن اختارته، لأن فكرة تشبيه نشوتها التي تفوق كل وصف بما كانت تسميه بلغة الصابير القديمة «تجارة» لم تخطر أبداً في بالها.

أحبت عاشورة السي محمد العربي، وأوجدت من أجله كنوزاً من الرقة ذات نكهة فظّة بعض الشيء.

لم ينم أحد قط على السرير الصوفي الأبيض المخصص للشريف، ولم يضع أحد قط رأسه على الوسادة المحوكة حيث كان يضع السي محمد العربي رأسه... وعندما كان يتعيّن أن يأتيها كانت تشتري من البستاني الرومي باقة أزهار عطرة، وتضعها على الحصائر وفوق السرير في غرفتها المتواضعة حيث المنظر المألوف للسكر الإجباري، الذي لا يبقي شيئاً... وأضحى الكوخ القذر الذي يشهد عادة الكثير من العربدة والفجور المبتذل معزل حب لذيذ وغامض.

وكانت عاشورة قاهرة الرجال، والشاذة القاسية معهم، لطيفة مع الشريف وخاضعة من دون سلبية. كانت سعيدة بخدمته وبإذلال نفسها أمامه، وتروق لها الأساليب التي يفرض بها سيادته الاستبدادية... وحدها غيرة حبيبها كانت تجعلها في بعض الأحيان تتألم كثيراً. وكان ما يفرضه وضع عاشورة يجرح بعض الشيء رقة الشريف الفطرية، لكنه كان يريد، عن طريق العنف، قبول ذلك الوضع حتى لا يثور علناً على العادات بالإفصاح عن علاقة زواجية تقريباً، لكن ما كان يخشاه، والشك الذي كان يثير لديه غضباً شديد العنف، كان حب الآخرين، والصدق في علاقة عاشورة بالغرباء الذين كانوا يحضرون عندما يكون السيد غائباً. كان لديه ارتياب عِرقه وعذّبه الشك.

وذات يوم، وبسبب علامات مشوشة، اعتقد أن هناك خيانة، وكان غضبه المؤجج بألم صادق مروّعاً. ضرب عاشورة ورحل من دون كلمة وداع أو اعتذار.

وكان السي محمد العربي يقطن برجاً منعزلاً في الجبل بعيداً عن المدينة، فذهبت عاشورة راجلة ووحيدة في الليل الشتوي البارد طلباً لصفحه، فألفاها صباحاً السي محمد العربي جالسة عند باب البرج وسط الثلوج، فرقّ قلبه وسامحها.

وكانت عاشورة الطماعة والشرهة إلى الكسب مع الآخرين نزيهة وغير مبالية مع الشريف، فقد كان حضوره يغنيها عن كل عطية.

وعلم والد الشاب ذات يوم بخبر علاقة ابنه بامرأة من القرية.

حضر إلى باتنة، ومن دون أن يقول كلمة للسي محمد العربي حصل على الطرد الفوري لعاشورة.

لجأت حزينة إلى إحدى الغرف الصغيرة في شارع أولاد نايل في فتور بيسكرة الحار والعابق بالروائح.

وعلى الرغم من والده، أخذ السي محمد العربي يغتنم كل فرصة ليهرع إلى رؤية من يحب. ولما عانيا معاً، أحدهما في سبيل الآخر، فقد أضحى حبهما أفضل وأكثر إنسانية.

. . . وعند ساعات القيلولة المرهقة كانت عاشورة المتكئة على فراشها تشرد في تأمل طويل لملامح الوجه المحبوب في صورة باهتة كانت تغطيها بالقبل. . . وكانت تنتظر اللحظات المباركة لمجيئه إليها حيث ينسيان فراقهما الأليم. غير أن سعادة عاشورة لم تدم طويلاً فقد استدعي السي محمد العربي إلى إحدى القيادات الثرية في الجنوب، فرحل مقسماً لعاشورة بأن يحضرها إلى توقورت لتكون قريبة منه.

انتظرت عاشورة بصبر. كانت رسائل القايد عزاءها الوحيد، لكن سرعان ما أضحت نادرة، فقد استسلم السي محمد العربي في ذلك البلد الجديد، وفي تلك الحياة الجديدة المختلفة جداً عن الحياة السابقة حيث الجمود والحلم، لِمُتع أخرى، وأسرته عيون أخرى. وحل اليوم الذي توقف فيه القايد عن الكتابة تماماً. . . كانت الحياة قد بدأت لتوّها بالنسبة له، ولكن حياة عاشورة أوشكت على الانتهاء.

خبت جذوة شيء في داخلها، منذ اليوم الذي تأكدت فيه أن السي محمد العربي ما عاد يحبها، ومع ذلك الضوء الذي انطفأ غاصت روح عاشورة في العتمات. أضحت غير مبالية وكئيبة فأخذت تسرف في الشرب طلباً للنسيان، ثم عادت إلى باتنة مشدودة من دون شك بذكريات عزيزة. وهناك في مواخير القرية، تعرفت إلى أحد الجنود الذي أحبها والذي سحرها من دون أن تحبه. ولما جرى تسريح الجندي، باعت جزءاً من الحليّ التي كانت بحوزتها، محتفظة فقط بتلك التي قدمها لها الشريف. قدمت جزءاً من مالها إلى حجاج فقراء كانوا ذاهبين إلى مكة، وتزوجت العبادي، المقامر السكير، والذي لما لم يتمكن من الاستمرار في حياته المدنية انخرط مجدداً في الجيش.

عادت عاشورة إلى ظل البيت الإسلامي وعزلته حيث أخذت تعيش حياة مثالية وهادئة.

لجأت إلى هناك لتفكر بكل حرية في السي محمد العربي، الشريف الوسيم الذي نسيها منذ مدة طويلة والذي ما زالت تحبه.

ملاحظة

من لم يسبق له أن رأى صور تلك النساء المزينة والعارية في المنظر الشرقي الخالص حد دفع عشاق الأشياء الأجنبية إلى الحلم؟ أبدت إيزابيل إبرهارت المرأة، على الرغم من لباسها الذكوري، اهتماماً بأولئك اللواتي قادهن حب الحرية إلى الطرق الصعبة، لكنها كانت تريد أن تمحو الأحكام المسبقة، وتحرص على حكاية الآلام والعزلة المختفية خلف الوجوه الثابتة والمغرية على نحو مصطنع.

ولكل أولئك الراقصات والمومسات وأولاد نايل فتيات جبل عمور، حيث كانت الدعارة مسموحة بالنسبة لهن من أجل جمع مال عرسهن، الحكاية المأساوية عينها تقريباً لدى إيزابيل إبرهارت.

صورة أولاد نايل هي القصة الثانية التي نشرت من قبل فيكتور باريكون في البرقية الجزائرية (٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٠٣) وأعيد نشرها في الأخبار بتاريخ ٢٨ آب/أغسطس ١٩٠٥، وتظهر في مجموعة «النساء» في صفحات الإسلام. مصدر ذكر سابقاً.

كان فيكتور باريكون رئيس تحرير نوفيل، والأخبار، والصحفي الأكثر تأثيراً في الجزائر، ودافع عن إيزابيل إبرهارت عند طردها سنة ١٩٠١، وما إن عادت حتى التقته، وبمساعدته فرضت نفسها كصحفية وككاتبة.

تسعديت

بعض المنازل الترابية المغطاة بالديس، وبعض القربيات المسيّجة بكومة من الأغصان الشائكة على هضبة مائلة، وأراض نمت فيها أشجار الصنوبر والعفصيات العطرة، وحقول الشعير والقمح الهزيلة. منظر بدوي حزين وقرية خشنة وبائسة، كذاك كان دوار أولاد مقران حيث كبرت تسعديت.

كانت ابنة الشيخ رزقي، شيخ القبيلة الذي كان منزله أكبر بعض الشيء من المنازل الأخرى، وكان مغطى بالقرميد الأحمر، وهو ما يُعدّ ترفاً غير مسبوق.

وكان رزقي شيخاً طويل القامة رقيق العظم أسمر الوجه، هادئاً وقاسياً. وبعيداً عن أعماله، كان يحب أن يخرج على حصانه الرمادي الصغير العنيد، عبر الجبال، رابطاً بندقيته الطويلة إلى قربوس السرج. كان يصيد وكان يحلم، ولم يكن أحد يعرف ذلك، لأن رزقي كان يؤثر الصمت. ومنحته زوجه العجوز مبروكة مولوداً وحيداً، كان أنثى. ولم تدخل السعادة بيت الشيخ أبداً.

ومنذ أن بدأت تسعديت تلعب وحيدة في شوارع الدوار الصغيرة أخذت تساعد والدتها في أعمال البيت الجبلي المتواضعة. بلغت إحدى عشرة سنة، أي سن الزواج، من دون أن تذهب أبداً إلى باتنة، المدينة الكبيرة التي يقيم فيها الروميون والتي كانت تُرى من قمة الجبل حيث كانت الفتاة الصغيرة ترعى بقر والدها ومعزه.

وذات يوم من أيام فصل الشتاء الباردة، وبينما كانت رياح الشمال تعوي في غابات الصنوبر الغارقة وسط الثلوج، علمت تسعديت بأنها ستتزوج في أجل قريب من صحراوي، وهو تاجر حبوب من قبيلتها.

كانت تحب سماع الحديث عن أرض الجنوب تلك، البعيدة والخيالية تقريباً، أرض الشمس حيث يكون الجو حاراً دائماً مثلما يقال، ومن حيث يجلب التمر الذي لا تعرفه إلا مضغوطاً في المزيودات، جلود الخرفان المدبوغة تلك.

وبدأ خيال الطفلة المتوحدة الخشن يحاول عبثاً أن يتمثل ما ستكون عليه الحياة هناك في ذلك البلد المجهول حيث يتكلم الناس اللغة العربية (لم تكن تسعديت تفهم إلا الشاوية، اللهجة البربرية للأوريس)، وحيث لا تخرج النساء إلا نادراً ومحجبات بينما تتجول الشاويات في دوراها بحرية تقريباً، وبوجوه مكشوفة.

وشاوية الأوريس على الخصوص عِرق فقير وخشن سلوكه غامض وعنيد. ولم يكونوا يحبون أبداً جيرانهم في الهضبة، العرب. وعلى الرغم من أنهم مسلمون فقد حافظوا على تقاليد أجدادهم وأعرافهم.

وكان الشاويون الأقل موهبة والأقل مهارة من القبايليين والمزابيط، مع أنهم من الأصول عينها، رعاة وصيادين ومزارعين لكن على نحو بدائي جداً، وكانت طباعهم متشككة وعنيفة، ولا يسود الأمن بلدهم أبداً.

وعلى عكس المرأة العربية اللطيفة والمطيعة كانت المرأة الشاوية متقلبة وحقودة وحتى مستبدة، وهو شيء غريب، وعلى الخصوص في الحب.

كان كل ذلك يرقد في روح تسعديت. غير أنها كانت مع رفيقاتها متسلطة وقاسية وتفرض عليهن طاعة عمياء، وكان يخشى جانبها ولم تكن محبوبة أبداً.

ومع ذلك كانت تسعديت الأجمل من بين بنات أولاد مقران، وكانت عيناها على الخصوص حَوراوين بسواد مخملي نجلاوين كعيون المها، متألقتين على الدوام، ولهما سحرهما الخاص على الرغم من النظرة الوحشية والفظة تقريباً. كانت تبدو أنيقة في ثيابها الزرقاء، وتسريحة شعرها المغطى بمنديل أسود، إضافة إلى التعبة، القطعة القطنية التي تنزل من الرأس حتى أسفل الفستان مغطية ظهرها ويمكن أن تربط أسفل الذقن بمشبك فضي. ولما كان والدها غنياً فقد كان لديها العديد من الأساور الفضية الجميلة التي تزيّن معصميها وكعبي قدميها العاريتين، وكل حركة تقوم بها تحدث رنيناً متناغماً.

وكان رزقي يحب ابنته الوحيدة، غير أنه لم يكن يداعبها أبداً. وكانت تحترمه وتخشاه مثل أمها تماماً التي كانت طيلة حياتها خادمة الشيخ الخاضعة. ولم تكن مبروكة تشبه أبداً باقي نساء عِرقها، فقد كانت امرأة لا شأن لها، رقيقة ومنزوية.

ولم تكن تسعديت تشبه أمها في الشكل أو في شخصيتها. وكانت الأم تهز رأسها متوقعة أن تحصل مآسي لابنتها إذا لم تغير سلوكها...

ومنذ اليوم الذي رحلت فيه تسعديت عن دوراها المنعزل تابعة زوجها لم تنفك الأشياء المثيرة للدهشة والإعجاب تفاجئها في كل خطوة. أولاً في باتنة التي لم ترَ منها شيئاً في البداية حيث أخفيت لدى إحدى قريبات الخطيب، ثم القطار... وفي زاوية المقصورة المخصصة للنساء وحدهن حيث وضعت بقيت خائفة في البداية، وتقريباً مرتعشة، وكان كل ذلك جديداً بالنسبة لها وغريباً وخارقاً!

نُصحت بألا ترفع الستائر، وألا تنزع خمارها.

وهكذا لم تر شيئاً من الطريق... لكن سرعان ما أفسح برد باتنة القارس المكان لحرارة لطيفة ونافذة...

توقف القطار في محطته الأخيرة ففتح الباب لتلمح تسعديت الشيخ الذي قدموه لها، والذي لم تتبادل معه عشر كلمات خلال أربعة أيام قضتها في حكم زوجته.

ودخلت سريعاً إلى عربة زوجها السي العربي الذي أخفض ستارة من اللبد...

وبينما كانت العربة تتحرك أرادت تسعديت رفع جزء من الستارة غير أنها لم تجرؤ على فعل ذلك، وأحست ثقلاً غريباً يجتاحها مثل خدر ناعم جداً. وسادت الأجواء روائح عطرة قوية من بساتين غير مرئية.

وبعد بضعة ارتجاجات توقفت العربة ودخلت تسعديت ما يشبه ممراً ضيقاً تلتقي عليه سعف النخيل... فوق الجدران المشيدة من الطوب الأحمر... وفي الأعلى كانت السماء ذات زرقة عميقة، وشمس متألقة، وكان هدوء مطبق يعمّ المكان ولا يكدره إلا طنين الذباب الكثير.

أزاحت تسعديت حجابها فألفت نفسها في ساحة ذات أسوار غير متناسقة شقت فيها أبواب ونوافذ أقفلت بستائر، وحيث نمت شجرة تين كبيرة، وشجرة زينتها أزهار بنفسجية عطرة لم تعرفها تسعديت.

أحاطت شابات يرتدين ملابس مغربية القادمة الجديدة، مطلقات صرخات ابتهاج ومقهقهات، وقبلنها مرحبات بها باللغة العربية. لم تفهم وهي الفظة الخائفة فاحمرت خجلاً، وبصعوبة ردت بالشاوية وهو ما ضاعف بهجة الشابات.

بالنسبة للمسلمين المتواضعين والذين لا يملكون بيتاً خاصاً بهم كانت أسر عديدة تسكن في البيت نفسه، وتعيش النساء كأخوات مع أن الشجار أمر شائع، ويعملن متحدات ويتبادلن المساعدة. ومع مرور الوقت لا تُحجَب النساء بين الجيران. في

الأيام الأولى يصرخ الرجال عند دخولهم قائلين الطريق[1] فتفر كل النساء الجارات وكأنهن طيور تحلق بخفة. وكان السي العربي زوج تسعديت مسناً ومحترماً، وهو مالك البيت، ويؤجّر الغرف باستثناء غرفتين حيث يعيش، ومع ذلك لم يكن يكلم النساء الشابات إلا نادراً، وليتحدث إليهن عن أمور الحياة الجارية عندما تجبره الظروف على فعل ذلك.

وكانت تسعديت هناك في ذلك الوسط الجديد مثل زهرة برية أحضرت من الجبل لتزرع فجأة في أرض أكثر خصوبة وسط نباتات الوادي الأكثر غزارة.

كذلك كانت بدايات تسعديت في الحياة الواقعية بعد حُلم طفولتها المشوش الحزين.

ومرت سنتان.

لم تنجب تسعديت، لكن هناك أيضاً، وسط كل أولئك المغربيات الخائفات والمتعودات على التبعية، احتلت مكانة متميزة مسيطرة عليهن وناصحة إياهن بعد أن تعلمت اللغة العربية، مثل امرأة مسنة ومجربة.

ولم تشعر أبداً بأي عاطفة ودودة أو حتى بأيّ حُبّ اتجاه زوجها الذي ظل بالنسبة إليها غريباً تطيعه وتخشاه حتى حدود معينة لأن شخصيتها لم تكن تعرف الخضوع المطلق، غير أنها كانت تحتفظ لنفسها بأفكارها وفيما بعد، مثلما تأكد لاحقاً، بقراراتها.

كان زوجها الشاوي القح يحترم شخصيتها الجادة والصامتة، وطريقتها في فرض نفسها على الجارات ونشر السلام والاتفاق معهن. ولم يحزن السي العربي إلا على عقم زوجته الشابة. كان مسناً، وكان يرغب في الحصول على ابن من صلبه.

تفتحت زهرة أولاد عبدي البرية العطرة بروعة. كان جمالها أكثر وضوحاً وعذوبة. وكان لوجهها تعبير كبرياء وقحٍ لدى امرأة مسجونة بصرامة، وكان بإمكان تلك المرأة أن تفتن حتى أكثر الرجال تهذيباً وأكثرهم تعليماً لأنها لم تكن جسد متعة فحسب. كان رأسها المحجب فكر، وفي روحها عالم من الشغف.

ولم تكن تسعديت الأمية الجاهلة تدرك بكل تأكيد طبيعتها الشخصية، لكنها تعلم بالفطرة أنها لم تولد لتعيش الحياة التي كانت تحياها. خضعت للقدر برصانة ومن دون

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

شكوى، ولم تخبر أحداً أبداً بما كانت تحسه، وما كانت تفكر فيه على نحو مشوش.

توفي والدها ثم أمها. رأتهما تسعديت مجدداً ولم تنسهما، وسرعان ما توفي أحدهما في أثر الآخر، وبكتهما. ومن خلال ما جد في روحها عادت إليها ذكريات الماضي وأحاسيسه، فتألمت مرة أخرى تماماً مثل أيام الحنين الأولى للجبل والحياة الحرة في الهواء الطلق.

وانغلقت على نفسها أكثر من أي وقت مضى... وعند انتصاف عامها الثالث من الإقامة في بيت الزوجية توفي السي العربي، فبقيت تسعديت وحيدة، وكانت تبلغ من العمر ست عشرة سنة.

ولما كان للسي العربي إخوة فإن تسعديت لم تحصل إلا على جزء ضئيل من ثروة السي العربي الكبيرة. وبقيت بضعة أيام لدى إحدى الجارات، ولم تكن حزينة أبداً، ولكنها كانت تفكر.

وكانت عجوز من إحدى واحات بوسعادة البعيدة تأتي أحياناً مزينة بالحلي الكثيرة لزيارة صديقتها التي كانت تسعديت تقطن لديها. وكانت تلك المرأة المومس السابقة ثرية جداً، وتملك بيتاً في شارع أولاد نايل في بيسكرة الروميين.

كانت مرحة وعلى سجيتها ومداعبة وداهية، ولم تكسب مودّة تسعديت غير أن الأرملة الصغيرة أحاطتها بعنايتها.

قالت امباركة:

ـ تعالي للعيش في بيتي. ستكونين بخير، في غرفتك الخاصة ولن يرك أحد، سأبحث لك عن زوج آخر.

هزت تسعديت رأسها، وقالت بلكنة شاوية خشنة:

ـ كلا، لا أريد أن أتزوج... لكني سأذهب معك وسأفكر.

وفجأة تولد في روحها قرار بأن تكون مومساً تتمتّع بالحرية والحب والثراء.

ضربت تسعديت صفحاً عن تأثيرات طفولتها الشريفة، وأدركت أنها إذا تزوجت لن تكون سعيدة أبداً... وذلك ما كانت تريده، أن تكون سعيدة.

استقرت لدى امباركة. لم تضغط العجوز عليها، وبدا أنها لا تؤثر في شيء لدى الشابة لأنها فهمت لمَ قبلت تسعديت أن تأتي للعيش عندها. وذات يوم قالت الشاوية، بجديتها الكبيرة، لامباركة:

ـ احضري لي شخصاً، لكن احرصي في اختيارك، لا أريد إلا شاوياً شاباً، لا تحضري فقيراً أو شيخاً.

ـ حسناً، تعالي فلنخرج. سنجلس على مقعد في المقهى المقابل، وسيمر شبان بيسكرة... وستختارين.

خشيت امباركة الطماعة أن تغضب تسعديت باختيار سيّئ فتفقدها لأنها كانت تنتظر الكثير من الشابة.

جلست من دون أن يزايلها الخجل، لكنها مزينة بعناية، ومحافظة على اللباس الشاوي، على المقعد وسط النساء اللواتي كن يعمرن ذلك الشارع. استقبلنها مثل أخت بفرح وعبارات مجاملة، أما هي الرصينة دوماً فكانت ترد باقتضاب يراودها الإحساس بالعار.

ردت باحتقار طلبات العديد من الجنود، ثم مر فجأة ضابط فرنسي متجولاً بكسل، فتفاجأ من دون شك لأنها كانت صغيرة جداً. نظر إلى النساء، وتبادل معهن بعض الدعابات الفظة بالصابير والعربية التي كان يتحدثها على نحو مقبول. ثم توقف أمام تسعديت مصدوماً بجمال الشاوية. إضافة إلى ذلك فقد كان في سلوكه وفي نظرته شيء مختلف جداً عن الآخرين ويجذبهم إليه.

تحدث إليها سائلاً عن اسمها والبلد الذي قدمت منه، ثم جلس قربها وقدم لها القهوة. أما هي فتكاد لا تبتسم غير أنها بدت ميّالة إلى هذا الشاب بيد أن وسواساً حزيناً أوقفها، فقد كان رومياً.

تحدثت العجوز امباركة مع الضابط الفرنسي بفرنسيتها المضحكة، فانتهت بأن سحرته بعد أن قصّت عليه ماضي تسعديت الشريف، والتي كانت تلك «خرجتها الأولى». ومع ذلك لم يستطع الملازم منع نفسه من لوم العجوز بشدة على الدور الذي تلعبه إزاء الشاوية الشابة. ثم حدث نفسه قائلاً: «يا لي من ساذج! أليست بضاعة تجارة جيدة! هل روت لي الحقيقة؟ فليكن!»

كان الملازم كلير قد انتقل حديثاً إلى سلاح الفرسان الجزائريين (السباهي) عن طريق التبديل، قادماً من فوج الخيالة. وكان ذا طبيعة ذكورية وحادة، لكن متحمسة وشابة. وكان ما يزال يحافظ على الكثير من الأوهام في سن السادسة والعشرين، وكان يعلم ذلك. وكانت الجزائر تفتنه وتسحره. وكان رفاقه ورؤساؤه يثيرون فضيحة

كبيرة إذ يطلقون عليه لقب «مغتصب العربيات»... غير أنه كان مع ذلك متبصراً وصادقاً، ولم يكن يخفي عيوب ذلك العِرق وآفاته. لكنه لا يتمنى، مثلما فعل كثيرون، قهره التام أو حتى تدميره بالتدريج، لأن العديدين منهم طالبوا بطرد الأهالي إلى مناطق صحراوية وانتزاع أملاكهم منهم، والقيام بالكثير من التدابير الاستبداية، والتي لا تمت بصلة إلى الطبع الفرنسي، لكن لحسن الحظ لم يكن ذلك ممكناً. وكان الملازم كلير يتمنى بشدة الارتقاء المعنوي والعقلي للعِرق المهزوم في الإسلام، وهو ما كان شيئاً أصيلاً. ولم يكن مارسيال كلير قادراً على أخذ أمور الحياة باستخفاف بروح الدعابة والسخرية العصرية التي تشوّه، ولنقل الكلمة الصحيحة، تدنّس كل ما يلمس. وهكذا فقد أثارت شخصية تسعديت لديه اهتماماً كبيراً. وكان منذ وصوله، قبل أربعة أشهر، قد عكف بشدة على دراسة اللغة العربية ليمر فيما بعد إلى إدارة شؤون الأهالي، وهو ما كان حلمه. وكانت لديه رغبة في الحديث إلى تسعديت لكن ليس في ذلك المكان، وليس في تلك الحانة التي لم يكن يشعر أنها تصلح إلا ليكون كمتفرج عادي فيها.

قال لامباركة بصوت خفيض:

ـ أرني أين يقع بيتك؟

همست العجوز وقد كان لبيتها بابان:

ـ انعطف عند زاوية الشارع، إنه الرقم...

دخل مارسيال إلى غرفة تسعديت الخالية إلا من سريرها العربي، وهو فراش شديد البياض على حصير، وصندوقين طليا باللون الأخضر وأزهار بسيطة، ومائدة دائرية منخفضة.

كانت تسعديت الشاحبة جداً جالسة على سريرها. وعلى الرغم من وساوسها الدينية، والبربر أقل تشدداً من العرب، إلا أنها سمحت لامباركة باستقبال الضابط، فقد أعجبتها وسامته في البداية، ثم سلوكه بعد ذلك.

قال:

ـ لا تخشي شيئاً يا تسعديت، أردت الحديث معك... أخبرتني العجوز بأنك أرملة منذ وقت قصير، وبأنك لم تري شيئاً بعد من هذه المهنة القبيحة، لِمَ تريدين القيام بذلك؟

وفكر «أنا سخيف، لو رآني رفاقي وسمعوني لانفجروا ضاحكين!»

ـ لا أريد أن أتزوج مرة أخرى أبداً، وأريد أن أقوم بكل ما يحلو لي، وأن أرى كل من يعجبني، وأن أذهب حيث أريد.

ـ لماذا؟ ألم تتربي مثل باقي المسلمات؟

ـ تربيت في قمة الجبل حيث الأفق فسيح، وحيث يذهب المرء حيث يشاء... عدوت هناك بحرية كعنزة، ولا أريد أن أعيش محبوسة في غرفة ضيقة، أغزل الصوف، أريد أن أُحب، وأريد المال!

كانت تتحدث بصرامة فظة على نحو غريب وأحسها مارسيال لا تزحزح. وجد صعوبة في فهمها غير أنه فهم معنى ما كانت تقول، وغيّر ذلك كل أفكاره حول المرأة الجزائرية والبدائية نوعاً ما لقلة التجربة.

ـ هل تريدين أن أستأجر لك غرفة في الواحة؟ ستكونين حرة شرط عدم خيانتي.

هزت رأسها قائلة:

ـ حرة؟ كلا، سأبقى هنا. تعال لرؤيتي، وإذا أحببتك يوماً سأتبعك... هل أنت غني؟

ـ كلا، لكن كل ما لدي أنفقه طوعاً.

ـ هل ستحضر لي حلياً ومالاً؟ أريد الكثير من المال.

كيف لتلك التي كانت تتحدث قبل برهة عن آفاق الأوريس الفسيحة، والحياة البدائية، أن تتحدث بالجدية عينها عارضة ببساطة ووحشية جشعها؟

سأل فجأة:

ـ هل تعلمين بأن ما تريدين القيام به هو ذنب عظيم؟

وصدرت عنها حركة خاضعة:

ـ إن الله غفور رحيم!

كلا، من الواضح أنها لن تتخلى عن مشروعها لتكون مومساً، ثم هل كانت قصتها حقيقية؟ غير أن مارسيال كان يدرك جيداً أنه بطبيعة مثل تلك التي لتسعديت يمكن لقصتها أن تكون قريبة من الحقيقة.

كانت تشده إليها على نحو غريب، فعزى نفسه قائلاً: «من يدري، قد تتعلق بي؟ حينها سأنقذها.»

المستقبل؟ لكنه بعيد جداً. . . وكانت تسعديت جميلة جداً!

كلا، من المؤكد أنه لم تكن لها خصائص مومس. وكلما زاد مارسيال في ملاحظتها اطمأن إلى صدق ما أسرّته له العجوز.

بقيت أثناء ممارسة الحب، مع أنها حساسة جداً، وكأنها غارقة في التأمل، وكانت حييّة جداً. فتن ذلك مارسيال. ومنذ ذلك اليوم أخذ يمر عندها في كل فترات فراغه، وأخذ عشقه للإنسانة الغريبة يتزايد.

وبدأت هي أيضاً تحبه، غير أن حب تسعديت كان ككل شيء فيها فريداً.

وشيئاً فشيئاً أرادت أن تأخذ مارسيال بالكامل، أن تسيطر عليه وأحياناً أن تعذبه، وكانت على الخصوص شديدة الغيرة، وشكاكة، محافظة في الآن نفسه على حريّتها الشخصية إلى أقصى حد.

وكانت تراودها أحياناً شكوك في وفاء مارسيال. . . وذات مساء، غداة ليلة لذيذة بدت له فيها شخصاً آخر، إذ كانت رقيقة وجيدة، تفاجأ مارسيال بألم وهو يجدها جالسة على مقعد المقهى تشرب الأبسنت مع جندي مسلم. تظاهر بعدم رؤيتها. كان عليه، هو المجبر على إخفاء علاقته المثيرة للشبهة إلى أقصى حد بالنسبة لضابط، أن ينتظر وحيداً في غرفة تسعديت البيضاء الصغيرة حتى تحضر إليه. . .

كان مستلقياً على السرير بروح حزينة وضيق مرير. . . لعن نفسه واحتقرها بعمق لأنه لم يقم ولم يرحل إلى الأبد. ومع ذلك، ونتيجة لإحساس داخلي رفض فكرة خيانة حقيقية.

وجاءته له العجوز راغبة في الاعتذار، وأخذت تواسيه فقالت:

ـ إنها مجنونة يا سيدي[1]! سأذهب لأناديها.

طردها بغضب قائلاً:

ـ إذا تجرأت وقلت لها كلمة سأقتلك!

وأخيراً عادت تسعديت بعد أن صرفت بخشونة الجندي الجزائري المذهول. قالت وكأن شيئاً غريباً لم يحدث:

ـ مساء الخير أيها الصديق!

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

وبدفق من الكلمات المريرة وغير المتناسقة أخذ يلومها على وحشيتها المجانية.

قالت بغتة بحزن:

ـ وهل أعلم أنا أين تذهب عندما تتركني؟

وهكذا، ومن دون أن يهتم بكرامته، راح يتوسل إليها، مقسماً لها بأنه يحبها وأنه وفي لها.

وأحست تسعديت، ربما لأول مرة، بالسلطة الكبيرة التي كانت لها على عشيقها. كانت تحبه غير أنها كانت تشعر بحاجة لا تقاوم إلى تعذيبه لتسيطر عليه أكثر.

ويوماً بعد يوم ازدادت تصرفاتها غير اللائقة، فقد كانت تصاب بالملل ما إن تستمتع بسعادة الحب المتبادل الهادئة.

إضافة إلى ذلك، بدأ الشارع الذي كان يخيفها في السابق يشدها إليه بتنوعه الزاهي وبتغيراته.

وبدأت تستمتع بالحديث إلى المارين بالصدفة على مقعد القهوجي.

ومع ذلك، لم تكن قد اكتسبت بعد نبرة الشارع، والمعجم الوقح والدوني الذي تحفظه الأخريات، وكانت تحتفظ بجديتها الكبيرة الفظة بعض الشيء.

وحتى ذلك الوقت كانت ماتزال وفية لمارسيال من الناحية الجسدية، ويعود جزء كبير من ذلك إلى محبتها له، ولأنه لم ينجح أحد آخر في شد انتباهها.

كانت تتعامل بتعال مع الفتيات الأخريات مع أنها ترافقهن، غير أنهن كن يخشين الشاوية.

وفي المجمل، وما دامت تسعديت تحب مارسيال فإنها لم تسقط تماماً. وكان ذلك الحب يحفظها حتى درجة معينة، ولم تكن تريد تدنيسه، إضافة إلى ذلك، لم تقل أبداً كلمة عن علاقتها بالضابط. وكان ظهورها في الشارع نادراً جداً. ومن أجل تبرير رفضها، كانت تقول بأن لديها عشيقاً من دون أن تذكر اسمه، وكان مارسيال حذراً في ذهابه وإيابه.

عرفت تسعديت عن طريقه نشوات الحب، التي لم تشك أبداً في وجودها خلال زواجها، غير أن ذلك التلقين لم يكن كافياً مثلما يحدث في الغالب تقريباً، فقد بقيت كل المناطق المجهولة والمعتمة في روحها غير ممسوسة، بل على العكس أخذت تتطور وتجتاحها بشكل متزايد.

رأى مارسيال كل ذلك وفهمه بشكل أفضل مما كانت تدركه: كان ذلك هو الانحلال البطيء لكن الأكيد لتلك الروح، التي أرادها أن تكون له بشدة. وشيئاً فشيئاً أخذ يفقدها. تألم جراء ذلك وحاول التشبث بها مرعوباً من رؤية التأثير الغريب الذي يمارسه الفجور على تسعديت، غير أنه أدرك أن ذلك الانجذاب السيّئ سينتهي بالانتصار على تأثيره.

«لا تحبني كما ينبغي لها أن تفعل، لأنها لو أحبتني بعمق فعلاً وبطبيعتها تلك لمنحتني نفسها تماماً وما كانت لتتصرف على ذلك النحو.»

كانت تمر عليه أوقات من اليأس المرير تبدو له الحياة فيها من دون لون، وممسوخة، ولا تستحق أن يعيشها المرء. كان حبه الأول يمضي بذلك السوء. ومثل كل العشاق الشباب كان يعتقد بأنه في اليوم الذي ينقطع فيه الأمل لن يستطيع البقاء على قيد الحياة، حتى أنه فكر في الانتحار، لكنه كان يتراجع عندما يفكر في أمه العجوز، أرملة الضابط الذي قتل بتونكان، المحترمة جداً والحزينة جداً والتي لم يكن لها من أحد سواه في الدنيا. وكان ذلك يمده ببعض الشجاعة.

لكنه سيتخلى عن الحب إلى الأبد، وسيكمل مهنته كجندي، وسيحرص على أن يُرسل إلى أقصى الجنوب، إلى المناطق المقفرة الصامتة حيث سيعمل من أجل والدته فقط... وعندما يوافيها الأجل سيرحل إلى مكان القتال، وسيسعى للموت هناك مثل والده، من أجل فرنسا.

رأته تسعديت يتألم، ومع ذلك لم تشفق على حاله.

غير أن تسعديت كانت طيبة وتقدم يد العون للمحتاجين، وكانت تتصدق بجزء كبير مما يمنحها إياه مارسيال...

وكلما فتنتها حياة المومسات قلّ تعلقها بمارسيال وازدادت قسوة اتجاهه. وكانت تمر عليه أوقات ثورة وغضب، لكن ذلك كان يمر سريعاً. وسامحها لمدة طويلة.

وذات يوم، انتهت حكايتهما على نحو موجع...

كان الوقت مساء، وكان الرجال يتحركون، بدو وقناصة ومجندون وفرسان، وسط الحشد المختلف الألوان للنساء الجالسات أمام أبواب بيوتهن وأمام المقاهي.

وكان الجميع يطلقون دعابات بالعربية وبالفرنسية، ويضحكون متلفظين بكلمات فاحشة...

وكانت تسعديت جالسة على مقعدها أمام القهوجي أحمد، وإلى جوارها جندي قناص. كان بدوياً طويل القامة، وعملاقاً تقريباً... مالت تسعديت على ركبتي الجندي السكران، الذي أخذ يسكب الأبسنت بين شفتيها المنفرجتين وقد نال منه السكر، وكان المجند ينحني أحياناً ليقبل شفتيها المبللتين بالشراب. وفي الجوار كان الجنود والنساء يضحكون. وكانت امباركة المرتعدة مخافة أن يأتي الضابط تشتم وتنادي على تسعديت...

مر مارسيال الذي اعتاد منذ أيام على خروج تسعديت...

رآها وأحس كأن شيئاً في أعماق روحه يتمزّق... وفهم أن كل شيء انتهى.

عاد مرة أخرى مدفوعاً برغبة مرضية في تحريك الحديد المسنن في جرحه... وكانت تسعديت السكرانة جداً تجر المجند إلى بيتها.

وهكذا رحل مارسيال.

طلب أن يُرسل إلى الجنوب، وسرعان ما غادر بيسكرة.

حبس نفسه في بيته مخافة أن يعود لرؤيتها، ومخافة أن يعود إلى هناك على الرغم من ألم قلبه.

عندما توفي والده كان في الثانية عشرة من العمر، وكان حزنه العظيم فعلاً حزن طفل، لكن في تلك اللحظة كان ذلك أول حزن له كرجل.

سكنته أشد الأفكار سواداً، ووحدها الرسالة التي كانت ترسلها له والدته كل أسبوع كانت تواسيه.

كره البلد الذي أحب، وأججت المناظر الغريبة وأغاني البدو وآذان المؤذنين عذابه، وأضحت الرؤى الشنيعة تعوده دوماً في الليل...

غير أن ألمه بدأ يهدأ شيئاً فشيئاً هناك في السبخات اللامنتهية لواد إغرغار حيث أرسل إلى المكتب العربي في هدوء الصحراء المتألقة المهيب، وأدرك أنه سيستمر في العيش، وسيحب مجدداً.

*
* *

قضت تسعديت ليلة مشوشة في غِلالة سكرها. ورحل المجند عند منتصف الليل تاركاً إياها مستلقية على سريرها المبعثر غير واعية بشيء.

استيقظت ثقيلة الرأس متألمة.

ابتهجت امباركة الغاضبة، والتي لم تلحظ المرور الخفي للضابط، وفكرت في جهلها العميق بطبع الرجال أنها محظوظة لأنه لم يحضر ولم ير شيئاً!...

تمطّت تسعديت ببطء، وسألت:

ـ ألم يحضر الرومي؟

ـ كلا، لقد نجانا الله!

وأخذت تلومها... غير أن تسعديت التي كانت العجوز تخشاها أمرتها بالصمت.

وحدثت نفسها متسائلة: لم يحضر؟ لماذا؟ وإذا لم يعد أبداً؟... وفجأة، فكرت بأن ذلك سيكون خلاصاً بالنسبة لها، وأخذت تتمنى ألا يعود أبداً...

وفي المساء، ولما كان قناص الليلة الماضية غائباً، رافق جندي من الخيالة تسعديت. كان شاباً أسمر طويل القامة وسيماً، بعينين واسعتين، وبشارب مفتول. كان يدرك أنه وسيم، وكان يضع برنساً أحمر.

كان بدوياً من عين قطار قرب سوق أحراس.

رأى تسعديت فأعجبته. كان محمد الطاهر قد تقدم للتجنيد مرة ثانية، وكان يبذر راتبه.

قال وهو يلقي قطعة ذهبية على ركبتي تسعديت:

ـ خذي! لدي الكثير منها. ستكون كلها لك إذا أحببتني... تعالي وسترين.

رافقته تسعديت. وكانت تعرف سُمعة محمد الطاهر مما سمعته، فهو يوصف بصلابة رأسه خارج الخدمة... غير أنها خمنت ذلك بسرعة.

كانت قد بدأت تصبح ماهرة وبارعة في مهنتها. وفي ذلك المساء قدمت للفارس كل التهذيب وكل الحيل التي علمها إياها الرومي المنسي...

لم يسبق لمحمد الطاهر أن رأى أو أحس شيئاً مماثلاً، فبقي مذهولاً مسحوراً.

وفي اليوم الموالي، ومع أنه كان جندياً جيداً في العادة، تغيب فتمت معاقبته من قبل الضابط الذي كان تحت إمرته. وفي المساء، وما إن أصبح حراً، حتى ركض نحو بيت تسعديت...

كم كان ذهوله وغضبه عندما بقي باب الشاوية مغلقاً بعناد ومن دون رحمة!

وهكذا أراد تحطيم الباب متسبباً في فضيحة كبيرة... غير أنه لم يكن سكراناً، ففر عند وصول الحراس.

وفي اليوم الموالي وجد تسعديت عند القهوجي أحمد. كان محمد الطاهر قد أقسم بأن ينتقم، وبأن يضربها بوحشية قاسية، لكن ما إن رآها حتى بات لا يعرف ما يفعل إلا أن يرجوها أن تستقبله. أحس بالفطرة أنه إذا ما بدا ملحاحاً وفظاً فسيخسرها إلى الأبد.

استقبلته. لم تكن الشاوية قد استهلكت في المرة الأولى كل سحرها، فزادت من فتنة الفارس فألقته إلى الأبد في التعطش الدائم لها.

لكنها لم تعامله أبداً في أي يوم وفي أي لحظة كعشيق. كانت تستقبله عندما تريد ذلك، وغالباً ما تصده من أجل آخرين.

وكانت امباركة قد قامت خفية بمسعى لدى الملازم كلير، غير أن بابه بقي مغلقاً في وجهها بصرامة.

وهكذا فكرت بأن تأخذ من الفارس المال الذي تبقى له، غير أن تسعديت كانت حريصة بطبع عِرقها، فأخذت تكتنز المال، وهو ما ضايق امباركة كثيراً.

فالشاوي مثل القبايلي والمزابيط بخيل ومتلهف للربح.

ومثل كل المومسات المسلمات، لم تكن تسعديت تحتفظ بالمال نقداً أو ورقاً، فقد كانت تحول ربحها إلى حلي من سلاسل للزينة ومشابك وأساور وخلاخيل[1] وأطواق عنق فضية، وعقود من قطع ذهبية...

وسرعان ما أضحت تسعديت غنية، لأنها كانت مقدّرة جداً... وتغيرت كثيراً، وعلى الخصوص من الجانب المعنوي، وأضحت تعيش في الشارع، ذلك المجرى النتن، أكثر وقاحة وأكثر عنفاً من الأخريات.

وذات مساء حدث شجار بينها وبين امرأة أخرى، وهي بدوية صلبة من الجنوب... ووصل بهما الأمر إلى التشابك بالأيدي.

ولما لم يستطع الشرطي موسى، وكان عشيقاً للمرأتين معاً، أن يفرقهما بضربهما

---

(١) هكذا جاء في النص الأصلي، مع ترجمة من قبل الكاتبة كأساور الكعبين. المترجم.

بالسوط، أراد أن يأخذهما معاً. وصل محمد الطاهر، وحضرت بديهته عندما قدم قطعة من عشرين قرشاً إلى الشرطي قائلاً:

ـ من أجل الطويلة، الشاوية!

فأخلي سبيل تسعديت بينما قضت خدوجة الليلة في الحبس تحت رحمة رجال الشرطة.

غير أن كل الشجارات التي كان يتسبب بها في كل لحظة استبداد تسعديت وغيرتها وعنفها لم تنته على مثل ذلك النحو بسلامة.

فقد أُوقفت في العديد من المرات من أجل إثارة المشاكل، وضُربت من قبل رجال الشرطة، وأُوقفت في النظارة وفي المستوصف، بل حكم عليها مرة بالسجن...

وعلى الرغم من كل شيء أعجبت حياة الفوضى تلك تسعديت. كانت تشعر بأنها في بيتها، في تلك الشوارع حيث تستطيع الشرب والغناء والرقص واختيار الرجل الذي يعجبها... وعلى الخصوص لأنها لم تكن تطيع أحداً، ولم تكن تعمل، وليس عليها واجبات تقوم بها. كانت تلك هي الحرية التي رغبت فيها بشدة.

ومع ذلك كانت تسعديت تصاب بالملل أحياناً عندما تتلاشى غلالة السكر، وعندما تكون وحيدة وبعيدة عن الضجيج والاضطرابات التي اعتادت عليها. وبدا لها فراغ حياتها الكبير.

ما الذي كان ينبغي فعله لتجنب ساعات الحزن الكئيبة تلك؟ كانت تحس بأن شيئاً ما ينقصها. لكن ما هو؟

عجزت تسعديت عن تحليل ما كان يحدث في داخلها، فجهلت ما كان يصيبها بالملل لأن كل مباهجها كانت خارجية تماماً، ولأن الفراغ كان في قلبها وسط كل الضجيج وكل النشوات...

لم تأسف على مارسيال لأنه كان يفرض نظام حياة أكثر تنظيماً ورتابة، وعلى الخصوص أكثر انعزلاً... غير أنها لم تحبه بعمق لتعوض به كل ما كانت تريده وتتخلى عن كل شيء ليملأ روحها ويكفيها.

وفي المجمل لم تكن تسعديت سعيدة.

مضت الأيام متشابهة، وانتهت تسعديت إلى الإحساس العميق بالرتابة.

وهكذا تركت بيسكرة، وقصدت باتنة إلى «القرية ـ السوداء».

كانت قد مرت سبع سنوات من دون أن ترى الجبال التي ولدت فيها، وراودها شعور غريب وهي ترى جبل أولاد عبدي الأزرق ينتصب أمام ناظريها مطلاً من الجهة الشرقية للوادي الخصب، الذي تقوم في عمقه المدينة الصغيرة، العصرية جداً والعسكرية جداً.

كانت «القرية» تقع تقريباً عند سفح أولاد عبدي، وكان بإمكان تسعديت رؤية الرعاة البدو يصعدون القمم الغابوية من خلال البيت الأبيض الصغير الذي سكنته. كان دوارها بعيداً من الجهة الأخرى لسلسلة الجبال. ورغبت أحياناً في العودة إلى هناك، ورؤية الضيعة التي ولدت فيها. . . لكن، في ظل وضعها، كان ذلك مستحيلاً. . .

وفي بيسكرة كانت تنظر دوماً بحزن حنيني إلى قمم الأوريس الزرقاء التي تخفي الأفق الشمالي. . . وعندما عادت إلى البلد الشاوي كانت تشعر بإثارة أكثر لأنه لم يكن بإمكانها رؤية الجبل.

كانت تسعديت تعيش رفقة شابة من بلدها تدعى تعليت لزمتها أياماً قليلة فقط لتخضعها تماماً وتحوّلها إلى عبدة.

وكانت تعليت قد أضحت يتيمة وهي بعد صغيرة، فقدمت من ضيعتها إلى «القرية» مباشرة من دون أن يسبق لها الزواج. وكانت في الرابعة عشرة من العمر تقريباً.

استعادت تسعديت في «القرية» نمط حياتها ببيسكرة.

كان قبالة منزلها مقهى مغربي تتجمع فيه النساء مساءً. هناك احتُفي بتسعديت في البداية، وبعد أيام قليلة تولد إجماع لدى الأخريات إزاء الوافدة الجديدة المتعالية جداً، والجميلة جداً، والتي أخذت عشاقهن وبدأت تحتقرهن.

وشكل وصول تسعديت في صفوف زبائن «القرية» حدثاً. كانت أجمل من كل الأخريات، وسرعان ما فاض المال لديها. وكانت تعليت التي كان صغر سنها أمراً مرغوباً تجني المال أيضاً، وانتهت بالتعلق برفيقتها التي كانت تخدمها بانقياد.

وذات يوم قدم السي دحمان ابن قايد بيسكرة إلى باتنة. كان السي دحمان وسيماً

جداً وثرياً جداً وذا سلوك أرستقراطي. ومع ذلك لم يكن يحتقر أبداً المتع البسيطة والمسكرة لمناطق عمور مثل «القرية». انتبه الشاب إلى تسعديت وسط النساء الأخريات. . . ومنذ المرة الأولى أحست هي أيضاً إحساساً جديداً حياله.

جعلت تلك العلاقة، في غضون ساعات فقط، ملل الشاوية وحزنها يتلاشيان، واستسلمت بشدة لذلك الحب الذي استحوذ في النهاية على كل روحها، وأنعشها نوعاً ما من دون أن يطهرها مع ذلك لأن السي دحمان، لم يعتبرها منذ البداية إلا أداة متعة رائعة، ولم يقم بشيء يجعلها تأمل في حياة أخرى، أكثر سمواً وأكثر هدوءاً.

كان السي دحمان قليل الزيارة ومتقلباً. وفي غيابه الذي كان يسبب ألماً فظيعاً لتسعديت، أخذت تبحث عن عزاء خطير في السكر. وكانت أوقات الوحدة لا تطاق.

ولم يكن نتيجة لفراغ الروح والملل بل كان ألماً حقيقياً شديداً تحركه عذابات الغيرة. . . غير أن تسعديت كانت تفضل ذلك العذاب بالفطرة على حالتها الروحية الماضية ولم تبحث عن نسيانه بالشرب.

لم ينجح الأبسنت في محو ألمها وجعلها تذرف الدمع. وهكذا أخذت تبتهج في يأسها.

وما إن يحضر السي دحمان حتى تفرح تسعديت في ثمل شغفها الرائع.

وكان السي دحمان يلبي بسخاء حاجات الشاوية، ومن أجله تخلت تسعديت عن كل العشاق الآخرين لأن كل من كان غير دحمانها لم يكن ساحراً بكل بساطة.

وكان السي دحمان يسكن بيتاً مترفاً يعود لوالده قرب راس الما على طريق بيسكرة. وكان يأتي كل يوم إلى باتنة، وإلى «القرية» ممتطياً جواده الأصيل الأسود الرائع من سطيف، والذي يوحي منظره المذهب بمزيد من اللطف والجمال.

أحب تسعديت هو أيضاً في احتدام شبابه، غير أنه كان يحب الحرية أيضاً. وكانت غيرته شديدة هو أيضاً. ذاقا معاً لذات فريدة، ونشوات يشق وصفها، لكنهما كانا يمرّان بأوقات مضطربة أيضاً إذ نغصت الغيرة حياتهما، التي لم تعدم من مشاهد عنيفة.

شعر السي دحمان بأنه لا يستطيع ترك تسعديت، غير أنه لم يكن يثق بها أبداً، وكان يشك فيها، وأمر بمراقبتها.

كان السي دحمان يتحدر من أنبل عائلات هدنة وأشدها ورعاً، غير أنه في

استمتاعه بحريته لم يكن يتراجع أمام أي متعة مهما كانت ممنوعة... وكان أحياناً يشمل رفقة عشيقته، وكان يظهر ذلك من دون وساوس.

عاد الفارس محمد الطاهر إلى باتنة، وتذكر تسعديت والنشوات المجهولة التي كانت تقدمها له في السابق في بيسكرة، فاستيقظ شغفه.

لكن تسعديت الوفية تماماً لدحمانها صدّت الفارس باحتقار فاحتفظ لها محمد الطاهر بحقد دفين.

لا ريب أنه كان يخشى منافسه الثري والقوي، غير أنه أراد الانتقام وأقسم أمام رفاقه بأن تسعديت ستكون ملكه وله وحده في يوم من الأيام، وبأنه سينتزعها من الكريه دحمان. ولم تنجح وعود الفارس أو تهديداته في جعل تسعديت ترضخ غير أن السي دحمان سرعان ما علم بمساعي الفارس فازدادت غيرته وأضحت أكثر عنفاً.

وكانت في القرية شابة أخرى تدعى بيشريم فطوم وكانت الأثيرة لدى السي دحمان في الماضي. كانت شابة طويلة القامة رقيقة العظم، ذات ملامح قاسية غير متناسقة وسمراء. ولم تكن النساء الأخريات يخشين غضباتها الوحشية فقط، بل كن أكثر خشية لسحرها.

أحبت هي أيضاً دحمان، وفي اليوم الذي أخذته تسعديت منها، كرهت فطوم الشاوية كراهية شديدة.

فقالت لها:

ـ انتظري يا سارقة القلوب، أحبني قبلك وأخذته مني... سأكون شقاءك ودمارك!

وردت تسعديت بالضرب. وكان لا بد من نفوذ السي دحمان لتجنيب تسعديت السجن حيث ترك الشاب ببرود عشيقته السابقة تساق إليه باكية.

ومنذ عودة فطوم إلى «القرية» أخذت تؤجج بمكر كراهية النساء الأخريات وغيرتهن. وباستثناء تعليت الوفية دوماً كانت كل النساء الأخريات يكرهن الشاوية.

كانت حرباً دائمة، ووحشية وخفية، لأنهن كن يعلمن بأن السي دحمان يحمي تسعديت. وأثرت الحياة الفوضوية التي عاشتها الشاوية منذ ترملها، وعلى الخصوص الشراب، على صحتها... فهزلت وشحبت وأخذت تسعديت تسعل.

وأخذ الخوف من الموت يؤرقها.

ولجأت هي أيضاً إلى ساحرات الجبل وشراب المحبة والأدوية آملة في طرد الألم الذي أرجعته إلى سحر فطوم والنساء الأخريات.

وأشد ما كان يخيفها أن ترى جمالها يذبل لأنها كانت تتوقع أن يهجرها السي دحمان هجراً نهائياً.

عاد فصل الشتاء، شتاء الجبال العالية القارس، وبدت الأرض الإفريقية متغيرة في الثلوج وفي الضوء الشاحب للسماء الضبابية، وأعتمت وأضحت أكثر حزناً مثل أي منطقة أخرى من مناطق الشمال.

وسقط السي دحمان مريضاً.

وحضرت أمه وإحدى أخواته من أجل مداواته، وتألمت تسعديت ألماً مريراً لعدم تمكنها حتى من الحديث إليه.

ثم علمت تسعديت من أحد الخدم بأن وضعه خطير. وكان ذلك ذات مساء مكفهر داكن هبّت فيه رياح باردة محنية الأشجار الجرداء المرتفعة وعاوية في الوادي.

لم يكن لدى تسعديت مال، وكانت راس الما بعيدة.

وفريسة لهذيان يأسها مضت راجلة في الثلج ترتعد على الرغم من التفافها بشالها الصوفي.

ركضت طويلاً ثم سقطت منهكة على حافة الطريق. تكوّمت على نفسها هناك مثل دابّة تائهة، وبقيت هناك طويلاً وأسنانها تصطك، وعقلها يغلي. كانت على وشك الموت، ولن تراه مجدداً، وستكون وحيدة إلى الأبد! جعلتها هذه الفكرة تقوم وتركض مجدداً. أين كانت تذهب؟ كيف ستأخذ إذناً من أمه وأخته لتراه؟ لم تفكر في ذلك. كان يتعين عليها الركض، الركض بأسرع ما يمكن لتصل إلى هناك مادام حياً. وركضت الليلة كلها، ثم سقطت سقوطها الأخير على الطريق الصحراوية قبل أن تصل هدفها بينما كانت السماء تستضيء بأنوار الفجر الأولى.

ملاحظة

هذا أحد النصوص غير المكتملة، والذي لم تفكر إيزابيل إبرهارت من دون شك في نشره. كانت تحتفظ به ضمن أوراقها. وجدناه في أرشيفات أوترمير على شكل

ثلاث قطع من الجرائد مع إشارة الأخبار عدد ١٣٩١٢، وتاريخ ١٩١٥ وهذه الملاحظة: «البقية مفقودة». لكن المخطوطة اختفت.

بعد أزيد من عشر سنوات على وفاة إيزابيل إبرهارت كان فيكتور باريكون ما يزال ينبش آخر أعمالها غير المنشورة الموجودة في حوزته.

يظهر نص تسعديت في شكل ميلودرامي الحياة اليومية للمعزولين، والنساء المسلمات الخاضعات للوصاية بفعل العادة. نشرنا هذا النص مرة أخرى في ياسمينة وقصص جزائرية أخرى. (مصدر ذكر سابقاً).

حرية

كانت الشمس الحمراء تتوارى خلف بون مير المذهبة والمتألقة في الأعلى على تلتها البيضاء.

كان الجو هادئاً في مساء الرحيل ذاك. وكانت الحياة تتدفق في رصيف لاجولييت أسفل المنازل السوداء، صاخبة ونشيطة في غنى البضائع المتزاحمة مثيرة رائحة الأشياء الغريبة اللاذعة.

كانت فيليكس ـ تواش على وشك الانطلاق إلى إفريقيا، وكان الحمالون ذوو العضلات البارزة يصعدون الواحد في أثر الآخر راكضين وحاملين أكياس البريد الرمادية.

ثم راح خادم يذرع ببطء سطح السفينة، محركاً ناقوس الوداع... كانت قد أزفت ساعة الرحيل المحتوم، وبدايات مليئة بالأمل في الغد المجهول.

وسقطت حبال السفينة الثقيلة في البحر الفضي حيث كان يتألّق نور ذهبي وردي كأفاعٍ صغيرة، ثم ألقت الصافرة في مهابة المساء صرختها الكبرى الحادة كوحش حالم.

وعلى السطح كان الحشد الأخوي المشكّل من الجنود والعمال والعرب المرافقين لقطعان الماشية والمهاجرين الذين بدأوا يتقاربون ويختلطون في هدوء.

وكان بودولانسكي الصحفي الروسي الذي ارتدى ملابس رثة من الكتان الأزرق والشاشية القبايلية يتابع ملاحظته هناك، في هدوء البسطاء، غير مبال مثلهم، ومحباً حياتهم القاسية واجتماعيتهم من دون نفاق.

وفي بهجة الرحيل غشيه حب للناس فابتسم لفرحهم.

وكان هناك رجل يستند إلى ميمنة درابزين السفينة. كان رجلاً مثل بودولانسكي

لم يودعه أحد. وكان ينظر إلى اليابسة وهي تبتعد وقد عبر عينيه الغائرتين الجفولتين وميض فرح.

كان شاباً ذا وجه بارز الملامح بذقن سيّئة الحلاقة يرتدي لباساً أوروبياً لم يكن يلائمه على نحو غريب، مؤلفاً من سروال أزرق قصير جداً وسترة وقبعة من التبن. وكان ينتعل في قدميه العاريتين صندلاً، وبرز وشمٌ أزرق على يده اليمنى.

ولمدة طويلة بقي الرجل منعزلاً موجهاً نظرة عابرة ومرتابة إلى الركاب، ثم استسلم لحاجة لا تقاوم في الكلام، فدنا من بودولانسكي الذي بدا مطمئناً بوحدته، وجلس جواره، وعلى الفور شرع يروي له حكايته بعفويّة.

كان قد خرج من سجن شيافاري في كورسيكا بسراح مشروط لثلاثة أشهر. وكان قد حُكم عليه وهو بعد يافع بسبع سنوات سجناً مع الأشغال الشاقة من أجل جريمة قتل. وكان عمارة بن محمد ابن فلاحين فقيرين من أولاد علي بين سطيف وبرج بوعريريج.

وكان والده يزرع بعض الحقول الحجرية الصغيرة عند سفح تلة جرداء حيث تنمو أشجار المصطكا والنخيل القصيرة وحدها.

وكان الطفل يرعى قطيع المعز والخراف الهزيل في المرتفعات. وكان يعيش كذلك وحيداً في الصمت الكئيب للبادية ذات الآفاق المشوشة حيث تتألق الشمس الحارة.

وفي الأيام الطويلة التي لم يكن يجد فيها شيئاً جديداً كان يقطع ناياً قصبياً صغيراً، ويعزف ألحاناً رتيبة يرتجلها جالساً على حجر في الظل البارد لبعض أشجار المصطكا أو عفصية العرعر.

وكان يصطاد اليرابيع والعصافير ليشويها في التراب، ويأكلها بخبز أسود كانت تمنحه إياه أمه كل صباح.

وفي البيت كان البؤس البدوي الأبدي، حيث القُربي المعتم، والمرقد الصلب والأكل القليل، وتعب الأم وسط الأطفال الكثر وطغيان الأب الذي لم يداعب من أولاده إلا الصغار جدّاً وقلّما كان يفعل ذلك، والذي ما إن يزرع حقله ويصلح كوخه حتى يترك الباقي بين يدي الله، فيمضي أيامه مستلقياً على حصيرة المقهى المغربي رفقة باقي رجال القبيلة.

كان عمارة يفضل عزلة البادية حيث كان يسترخي في صمتها الموحش.

ولم تكن في حياته إلا لحظة سعادة عندما يعود إلى دواره في ساعة المساء الحمراء، ذلك أن والده الناطور السابق لم يشأ أن يتخلى عن حصانه الرمادي. وكان عمارة هو من يمتطي مسعود مساءً من دون سرج ليقوده عدواً إلى المورد.

وكان عمارة يحب حصانه، وكان موضع رقته الوحيد.

***

كبر الراعي الصغير وأضحى رجلاً بسرعة، وهكذا رأى الفتيات حاملات الجرار ينزلن مساءً إلى الساقية، وكان يشتهيهن. كان صامتاً دوماً ومغتماً فانطلق وحيداً في المغامرات العاطفية الخطيرة في الدوار. وحدث أن حظي عمارة بملاطفة لاكري، عشيقة قريبه علي. ومنذ تلك اللحظة أخذ المتخلّى عنه يبحث عن أقرب فرصة للانتقام.

وذات صباح ألفى مكان حصانه الرمادي فارغاً تحت الزيتونة البرية قرب القربي... ومن فوره شك في قريبه. وبينما انطلق والده ليشتكي لدى القايد بحث عمارة في كل أماكن البادية المألوفة، وفي مكان كثير الأشجار كثيفها كانت تحلق فوقه نسور صهباء وجد مسعود ميتاً بجرح غائر في جيده... صرخ صرخة ألم وغضب. واستلقى أرضاً وشرع في البكاء، ثم قام مقسماً بأن ينتقم.

وذات ليلة حالكة، عوت فيها الرياح مميلة الأشجار، زحف عمارة حتى مشطة قريبه. وكان علي ينام على برنسه في القربي المسيّج بالشوك. لم يكن لعمارة أي سلاح. وبهدوء وببطء، سحب بندقية علي من تحت رأسه، وأفرغها في النائم من مكان قريب. ثم ألقى السلاح وفر إلى الأمام من دون وجهة محددة.

كان قبل القتل قد فكر بأن يعود بعده إلى قريبه ببساطة، ويتظاهر بجهله للجريمة. فقد يكون في ذلك خلاصه، غير أن خوفاً غير منطقي اجتاحه فجأة، وسيطر عليه وأخذه بعيداً عن دواره، وراكضاً دوماً.

عندما استعاد بعض هدوئه في صمت البادية غير المكترثة أمل في الحصول على ملجأ هناك في جبال القبايل المرتفعة التي تحجب الأفق من الشمال.

وهكذا دخل في معاناة كئيبة، فقد كان يختبئ نهاراً في الأودية وفي عمق

الأجمات الكثيفة، وكان يمشي ليلاً مختلجاً لأقل صوت متجنباً أي لقاء مع الناس. وكان يأكل الجذور المرة.

تملكه الجوع والحمّى، وأخذ يعيش ما يشبه هذياناً دائماً مسكوناً بالرعب. ومع ذلك لم يندم، فقد انتقم بكل بساطة ولم يكن قاطع طريق... كان عار الملاحقة هو ما يجعله يضطرب...

وما لبث أن اشتدّ جوعه حد أنه تجرأ على طلب الخبز في ضواحي المشطات عند الشفق... غير أن المتشرد العربي لم يلق لدى الفلاحين القبايليين في أبواب الحديد البلد القاحل والحزين إلا استقبالاً متشككاً وعدائياً تقريباً. وهكذا فهم أن أولئك الناس سيسلمونه فذهب ليختبئ داخل شق الصخور مثل دابة مطاردة ليموت هناك.

فقد إحساسه بالأشياء. كم بقي من الوقت داخل ذلك الشق؟ لا يدري. وجده هناك حراس الغابة، وقيدوا معصميه وأخذوه. ما الذي قاله لهم؟ هل اعترف؟ لم يتذكر أي شيء من الأيام الأولى التي أعقبت اعتقاله.

وحُكم على عمارة. أنكر دوماً معانداً لأنه لا ينبغي للمرء أن يعترف مثلما قال، إذ يمكن للمرء أن يحافظ على أمل ما دام ينكر، لكن عندما يقر المرء ألا ينتهي كل شيء على نحو مطلق؟

أنقذه صغر سنه فقط من حكم قاس، حتى أنه لم يحاول أن يدافع عن نفسه، ولا يذكر من ظروف محاكمته إلا أشياء مشوّشة.

وخلال سجنه بقي خاضعاً مستسلماً. وكان سجيناً نموذجياً لكنه لم يندم أبداً على ما قام به. واحتفظ عمارة من سجنه بذكرى غير مبالية تقريباً. وبدت له السنوات السبع التي قضاها هناك مثل توقف بسيط في مجرى حياته العادي.

لم تغير اللعنة شيئاً مما فعلته سنوات طفولته الصامتة.

وصمت عمارة.

***

اقترب منهما رجل مرِح وقد وضع يديه في جيب بنطاله، وبدا متثائباً من الملل وساخراً.

خاطب الصحفي مشيراً بحركة من ذقنه إلى عمارة:

ـ هل هذا أخوك؟

رد بودولانسكي بعد تأمّل:

ـ . . . أجل.

هل قال ذلك لحاجته إلى الصمت؟

حل الليل هادئاً وناعماً. . . استلقى بودولانسكي جوار القاتل وتحت الغطاء الرمادي نفسه، على الألواح الخشبية الفاترة، وفوق رأسيهما كانت عيون الفوانيس الحمراء ترنو إلى الليل. وأخذت صارية الباخرة التي كانت تتمايل بهدوء تمر من دون توقف أسفل السماء العميقة تحت أنظار حشد من النجوم لا يُحصى.

ملاحظة

استعملت الكاتبة اسمها المستعار الأول، واخترعت شخصية الصحفي الروسي بودولانسكي لتقدم نفسها في القصة الخيالية.

غير أنها وقعت بإسم إيزابيل إبرهارت هذا العمود الذي نشر بتاريخ ١٢ أيار/ مايو ١٩٠٣ في البرقية الجزائرية والذي لم يعد ينشر بهذا الشكل.

وفي يومياتها (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول) نجد ذكراً محدداً لتلك الرحلة: «تركت مرسيليا يوم الخميس ١٣ حزيران/ يونيو ١٩٠١، عند منتصف النهار. ليلة الثالث عشر إلى الرابع عشر منه في البحر. . . الوصول إلى فيليب فيل يوم الجمعة الفاتح منه الساعة العاشرة ليلاً. قضاء الليلة على متن السفينة رفقة عمارة من أولاد علي، المحكوم عليه من قبل سجن شيافاري.»

عادت إيزابيل إبرهارت إلى القسطنطينية من منفاها بمرسيليا بعد اعتداء بهيمة لحضور محاكمة المعتدي عليها ولرؤية قرار طردها. . . يتأكد قرار إبعادِها!

يبدو أن تلك الظروف المأسوية جعلتها قريبة أكثر من مآسي الآخرين. ألهمتها حكاية السجين الشاب نصاً ثانياً هو السجين عمارة (نشر من قبل روني لويس دويون في كتاب أصدقاء إدوارد. مصدر ذكر سابقاً). ثم في قصص ومناظر وفي بلد الرمال. (مصدر ذكر سابقاً) ورواية أخرى حيث حلّ (ضمير المتكلم) مكان بودولاسنكي الذي اختفى.

رواية أخرى: السجين عمارة.

رحت ألاحظ عادات الشعوب البحرية في مرافئ جنوب الجزائر مدفوعاً بالحاجة ولميلي إلى ذلك بعض الشيء.

كنت كمسافر متواضع على السطح، مرتدياً ثوباً من نسيج الكتان الأزرق، ومعتمراً قبعة، فلم أسترع انتباه أحد. ومن دون ارتياب لم يغير رفاقي في السفر أي شيء من سلوكهم الاعتيادي.

والحقيقة أن الاعتقاد بأن إنجاز دراسات عن العادات الشعبية يعد خطأً جسيماً من دون الاختلاط بتلك الأوساط التي تتعين دراستها ومن دون عيش حياتها...

حدث ذلك الرحيل السعيد بالنسبة لي، مثل كل الرحلات إلى أرض إفريقية المحبوبة، بعد ظهر يوم صاف من أيام شهر أيار/مايو.

تم الانتهاء من تحميل التواش. ومرة أخرى بدأت حركات الذهاب والإياب الكثيرة أثناء صعود الباخرة.

وكان على السطح ركاب ينتظرون الانطلاق، أولئك الذين كانوا مثلي بلا مودّعين ولا أقرباء يعانقونهم...

وكان هناك بعض الجند في مجموعات غير مبالية... وعريف زواوي شاب سكران جداً، ما إن صعد الباخرة حتى سقط على الألواح الخشبية المبللة، وبقي هناك بلاحركة كما لو أنه بلاحياة...

وبمعزل عنهم، رأيت شاباً جالساً على الحبال، وقد شد انتباهي بالغرابة التي تحيط بشخصيته.

كان نحيفاً جداً بوجه أسمر وبملامح بارزة. وكان يرتدي بنطالاً من نسيج الكتان قصيراً جداً، وصندلاً وما يشبه صدرية صيد مخططة مفتوحة على صدره الذي برزت عظامه، وقبعة من التبن. وكانت عيناه غائرتين سوداوين يتغير لونهما بنظرة غريبة، تنمّ عن مزيج من الخوف والارتياب.

ولما سمعني الرجل ذو القبعة التبنيّة أتحدث باللغة العربية مع فارس من بون قدم ليجلس قربي بعد تردد طويل.

سألني بلكنة لم تترك لدي أي شك في أصوله:

ـ من أين انت؟

أخبرته قصة ما، عندما قلت له بأني عائد من عمل لي في فرنسا.

فقال لي:

ـ احمد الله انك عملت حراً ولم تعمل في السجن.
ـ وأنت، هل خرجت من السجن؟
ـ أجل، قضيت ثماني سنوات في شيافاري بكورسيكا.
ـ وماذا فعلت؟
ـ قتلت نفساً بين سطيف وبوعريريج.
ـ لكن كم عمرك؟
ـ ستّ وعشرون سنة... أنا في سراح مشروط لثلاثة أشهر... ثلاثة أشهر كثيرة...
وخلال بقية الرحلة، لم تعد لنا رغبة في الحديث أنا وسجين شيافاري.
... هدأ البحر الهائج بعض الشيء. وعند حلول الليل، مع الاقتراب من الساحل الإفريقي، أضحى الجو ناعماً... وطغت رطوبة مثملة في ظل الشفق.
وفي الأفق الجنوبي أشارت مجموعة معتمة وعالم من الأبخرة المضطربة إلى اليابسة.
وعندما حل الليل تماماً بسرعة، ظهرت أنوار ستورة.
نظر السجين المستند إلى ميمنة الباخرة إلى تلك الأضواء التي كانت ما تزال بعيدة وانقبضت يداه على الخشب اللزج.
سألني معيداً ومكرراً بصوت مرتعش تأثراً:
ـ هل هي فيليب فيل هناك؟
... في المرفأ الفارغ، وقرب الرصيف حيث كان بعض الحمالين ينامون على البلاطات، بدت فيليكس تواش بعد النزول منها ساكنة وكأنها تنام هي أيضاً في ضوء القمر الوردي على نحو مشوش والذي أخذ ينزل.
كان الجو فاتراً، وكانت تصدر من اليابسة رائحة يشق وصفها، وتسكر.
آه! يا لتلك اللحظات البهيجة، وتلك اللحظات الفاتنة لأوقات العودة إلى إفريقيا بعد المنافي البعيدة والكئيبة!
قررت البقاء في الباخرة في انتظار طلوع النهار، من أجل الاستمرار في رحلتي إلى القنسطنطينية حيث كان يتعيّن عليّ الحضور الشكلي إلى محاكمة الرجل الذي حاول اغتيالي قبل ستة أشهر هناك في صوف البعيدة.
... مددت اغطيتي على السطح إلى يسار الباخرة قرب المياه التي كانت تصدر خريراً واهناً.
استلقيت في راحة عميقة شبه لذيذة، غير أن النوم جافاني.
التحق بي الرجل ذو السراح المشروط، والذي بقي لقضاء الليلة في الباخرة، وجلس جواري.

قال لي بعد صمت طويل:

ـ فلينجك الله، وليحفظك من السجن أنت وكل المسلمين.

ـ إحكِ لي قصتك.

ـ الحمد لله لأني اعتقدت أني سأموت هناك... هناك مقبرة يدفن فيها المساجين من أمثالي، وقد وُورِيَت فيها أجساد الكثيرين ممن دخلوا السجن بعدي... ليس لهم حتى قبر في الأرض الإسلامية.

ـ لكن كيف قتلت وأنت بعد صغير السن؟ ولماذا فعلت؟

فقال:

ـ إسمع، أنت ترعرعت في المدن ولا تعلم... أنا من دوار أولاد علي، التابع لسطيف. كلنا رعاة، ولدينا ماشية كثيرة وأحصنة أيضاً. وعدا ذلك، لدينا حقول نزرع فيها الشعير والقمح. والدي شيخ طاعن في السن وأنا ابنه الوحيد. وكانت من بين قطيعنا فرس رمادية ولم تكن بلغت سنتها الرابعة بعد. وكان والدي يقول لي دوماً: «هذه الفرس لك يا عمارة.» دعوتها مبروكة، وكنت أمتطيها دوماً. كانت سريعة مثل الريح وشرسة مثل نمر. وعندما كانت تُمتطى، كانت تقفز وتحمحم لتجرّ خلفها كل أحصنة البلد. وذات يوم اختفت فرسي. بحثت عنها لأسبوع، وعلمت في الأخير بأن راعياً من أولاد حسين، جيراننا من الشمال، هو من أخذها. اشتكيت لدى شيخنا وأحضرت له هدية عبارة عن مزيود من الزبدة ليرد لي حقي.

ولما علم أحمد السارق بأن رجال المخزن سيحضرون للبحث عن الفرس، ولما لم يكن يستطيع بيعها لأنها كانت معروفة، أخذها إلى واد وذبحها. وعندما علمت بموت فرسي بكيت وأقسمت أن أنتقم.

تركت دوارنا خفية ذات ليلة حالكة قاصداً أولاد حسين، وكان قربي عدوي أحمد شبه معزول، ومحاطاً بسياج شائك وقصير بعض الشيء. انتظرت صعود القمر، ثم رحت أتقدم. ولتهدئة الكلاب كنت قد أحضرت معي أحشاء خروف ذبح في النهار. وعلى ضوء القمر لمحت أحمد ينام أمام قربيه ليحرس خرافه. وكانت بندقيته موضوعة تحت راسه. كان نومه عميقاً. ربطت غندورتي بمنديلي عند خصري حتى لا تتشبث بشيء. دخلت من المكان المسيّج. كانت ساقاي واهنتين، واشتعل جسدي بحرارة مروّعة. ترددت مفكراً في الخطر. لكن ذلك كان مكتوباً. وأخذت الكلاب تزمجر بعد أن شبعت. وهكذا سحبت بندقية أحمد فجاة من تحت راسه، وأفرغتها كاملة في صدره، ثم فررت. تبعني رجال الدوار وكلابه من دون أن يتمكنوا من الإمساك بي. اقترفت خطأ لأن أحداً لم يرني، وكان علي العودة إلى والدي. غير أن الخوف من حكم المسيحيين عليّ دفعني إلى الفرار في أدغال التلال.

اختبأت لثلاثة أيام وثلاث ليال في الوديان مقتاتاً تين الصبار. كنت خائفاً، ولم أكن أجرؤ على النوم ليلاً. كنت أرتجف لأقل حركة ولحفيف الرياح في الأشجار. وفي اليوم الثالث اعتقلني رجال الدرك، فقد كشفت حكاية الفرس ورحيلي كل شيء. وعلى الرغم من أني لم اعترف أبداً فقد حُكم علي بأني اقترفت ذلك.

جنبني القضاة الموت لصغر سني، وبقيت في سجن سطيف بالقنسطنطينية هنا في فيليب فيل لثلاثة اشهر. ثم اركبوني باخرة واخذوني إلى كورسيكا. لم نكن بؤساء كثيراً بفضل الله وبالسلوك الحسن في السجن حيث كنا جميعنا مسلمين تقريباً. لكنه يبقى سجناً وبعيداً عن العائلة في بلاد الكفار. وبفضل الله تم تسريحي.

ثلاثة اشهر كثيرة!

ـ هل تندم الآن لقتلك ذلك الرجل؟

ـ لماذا؟ كان ذلك من حقي مادام قد قتل فرسي من دون أن اظلمه ابداً! إلا انه لم يكن علي الفرار.

ـ لا ندم في قلبك إذن على ما فعلت يا عمارة؟

ـ لو قتلت من دون سبب لكان ذلك ذنباً عظيماً.

رايت أن البدوي لم يعتبر بصدق ان ما قام به كان جريمة على الرغم من كل الآلام التي عانى منها حتى تلك اللحظة.

ـ وما الذي ستفعله الآن؟

ـ سأبقى عند والدي، وساعمل. سارعى قطيعنا لكن إذا ما قابلت في الدغل فرداً من اولاد علي الذين تسببوا في اعتقالي، فسأقتله.

وعلى كل محاولات تعقيله، كان عمارة يرد:

ـ لم أكن عدوّهم، هم من زرعوا العداوة، ومن يزرع الشوك لا يمكنه أن يحصد القمح.

في الصباح، وفي قطار القنسطنطينية.

كان عمارة ينظر إلى البلد الذي يمر ببطء امام ناظرينا وقد اتسعت حدقتاه سعادة وبنوع من الاندهاش.

وفجأة، قال لي:

ـ انظر، انظر إلى هذا القمح... وذاك الحقل هناك للشعير... آه! انظر يا أخي إلى النساء المسلمات اللواتي يجمعن حجارة ذلك الحقل!

كان فريسة لشعور محتدم. وكانت اطرافه ترتعش، وعند رؤيته للزرع الذي يحبه كثيراً، والمقدس كثيراً لدى البدوي، ولنساء عِرقه، أخذ عمارة يبكي مثل طفل.

قلت له:

ـ عش في سلام مثل أجدادك. سيحل السلام بقلبك، واترك الانتقام لله.

ـ إذا لم يستطع المرء أن ينتقم سيختنق ويتعذب. علي الانتقام من كل أولئك الذين آذوني كثيراً!

... عند محطة القنسطنطينية افترقنا كأخوين. أخذ عمارة طريق سطيف ذاهباً إلى دوأره.

ولم أره مجدداً.

الساحر

التوت شجرة تين عتيقة على جير الجدار المحترق، وسقطت على طين الساقية التركية المزخرف الأخضر الذي كان ما يزال لامعاً في عناقٍ تعِبٍ وأخوي.

وكان الشارع المرصوف ببلاط أسود يصعد ضيقاً بلذة ومخنوقاً وسط الانحناء الشيخوخي للمنازل القديمة المائلة على نفسها بطوابقها كشرفات.

طلعت أشعة النهار حذرة ومخضرّة، وانزلقت عبر شقوق مائلة أحال الزمن لونها ذهبياً، وفتحت كِوىً صغيرة في الجدران شديدة السواد لا تُظهر شيئاً. وكانت الأبواب المليئة بالمسامير شديدة الانخفاض ومحصنة وغامضة.

وإلى الأعلى كان الشارع الصغير يختفي تحت القبة المعتمة المنخفضة.

كل شيء ميت وصامت في ذلك الركن من الجزائر البربرية العتيقة.

وحده دكان ثمار عربية يلقي لمسته السعيدة في خدر الأشياء ذاك. كان متجراً ضيقاً حيث تراكم في سلة كبيرة التفاح الذهبي والأسماك الملتمعة، وعصير عسل ثقيل ومنفوخ، والليمون الأخضر، والطماطم، وعلى الخصوص الهالة القرمزية للطماطم التي كانت تدمى تحت الأشعة المائلة القليلة للشمس المتطفلة...

وإلى الجوار، في حجرة أصغر، أسفل الشارع، كان يسكن الطالب المغربي الحاج عبد الهادي المغربي الساحر والطبيب المشعوذ.

وكان المغربي يبلغ حوالي خمسين عاماً. وكان طويل القامة رقيق العظم يرتدي جلابية داكنة، وعمامة كبيرة تتناقض بغرابة مع نحافة وجهه الأسمر ذي العظام البارزة، وعينيه الثاقبتين واليقظتين. ولم يكن يبتسم أبداً.

وكان أثاثه فظاً مؤلفاً من حصير ومقعدين برسومات صفراء، وغطاء جريدي أحمر وأخضر ككل عدة السرير، ورفّين أو ثلاثة رفوف مغربية ثُقبت وصُبغت على عجل

ووضِعت فيها كتب صفراء قديمة، وقوارير عقارات ومداد وبعض القدور الصغيرة وموقد طيني عربي، وملاط نحاسي ومايدة، وهي مائدة صغيرة دائرية منخفضة.

وكان المغربي منحنياً على مائدته ينتظر بلا مبالاة متأملة زبائنه.

اعتاد سكان الحي منذ عشرين سنة على رؤية الطالب يفتح دكانه قبل طلوع النهار، ويذهب إلى الساقية ليتوضأ ويعود ليصلي، ويعدّ قهوته بنفسه.

ويتوقف أحياناً عابر ويتمنى السلام والرحمة الإلهيين للطالب وينزع نعليه، ثم يدخل ويقرفص قبالة المغربي.

وأحياناً يأتي بعض المغاربة المسنين ذوي الملابس الزاهية، وأحياناً أخرى أحد أعيان الداخل يرتدي لباساً صوفياً أو من الحرير الأبيض ويغطي رأسه بغثُّور ذات شرائط من جلد الإبل، وأحياناً فلاح فقير يرتدي ملابس باهتة أو خادمة عجوز كمبعوثة من قبل سيدة شريفة لا تخرج أو محظية حرة من أعلى المدينة...

ويحافظ المغربي بالنسبة لكل الرجال على الأدب الرزين والحريص عينه، أما بالنسبة للنساء فقد كان مهملاً وأكثر ألفة في بعض الأحيان.

ويحضر أغلبهم إلى الطالب من أجل رؤية المستقبل بالتعطش الغريب وغير المنطقي عينه لكل الناس من أجل الراحة التي يسبّبها كشف ضباب الغد المجهول...

وكان المغربي يستعمل طريقة قديمة جداً وهي الكتابة على الرمل. فقد كان يمنح زبونه القلام ويطلب منه أن يضغطه على مكان قلبه، طالباً هو نفسه سؤاله.

ثم يطلب منه اسمه واسم والدته، ويخط على لوح خشبي أصفر باهت طلاسم مبهمة وهي عبارة عن جدول بحروف عربية ينتهي أسفله بمستطيل، ثم يعمل حساباً يعلمه وحده ومن دون أن يخطئ دوماً تقريباً يقول للزبون طبيعة تمنيه، مالاً أو جاهاً أو حباً أو انتقاماً، ولا يحدد أبداً الموضوع نفسه بل يشير إلى نوعه. وهكذا يتوقع إن كان سيحصل على ما يتمنى أو لا، ويؤكد الزبناء المعتادون أن المغربي لا يخطئ أبداً...

ولازمة توقعاته هي نفسها دوماً سواء أكانت جيدة أو سيئة «اصبر يا بني، لأن الصبر طيب، وهو مفتاح الفرج.»

ويقبل الطالب من دون أن يهمس بكلمة المكافأة التي تقدم له.

وأحياناً يأتون من أجل علمه كحكيم أي كطبيب. وكانت لديه رزم من النباتات

المجففة معلقة على عوارض دكانه الخشبية البيضاء. وكان يخلط تلك الأعشاب بعلم مسبق لكل حالة. وخلافاً لذلك، وفي الجراحة، كانت معرفته محدودة ولا تتجاوز أبداً معرفة مُجبِّر إحدى القرى الفرنسية.

وكان يُخرج أيضاً بعض أنواع الشراب والسوائل ويعدّ التمائم بيقين مطلق في فعاليتها.

وعلى عكس الدجّالين الأوروبيين كان المغربي يفر من الناس ومن الصخب، ولم يكن يكلّف نفسه عناء إذاعة الكلام المنمق. وكان يقضي الحاجات التي يُسألها مقابل بعض القطع البيضاء من دون أن ينزعج ومن دون أن يقوم بشيء لجلب الزبائن.

وكانت رتابة الأشياء اليومية بمثابة الشرط الضروري لحياته. ولا شك في أنه كان ينظر إلى كل تغيير كشيء مزعج ولربما كجالب للنحس.

وكان المغربي كالأخرس عندما يتعلق الأمر بأصله وماضيه وعائلته، ويعلم الناس فقط بأنه يتحدر من وجدة، وأنه يقطن الجزائر منذ عودته من مكة قبل عشرين سنة... عشرون سنة من الجمود والصمت حول كل ما ليس له علاقة بفنه.

وكانت عاداته لا تتغير مثل منظر شارعه الصغير، وتسقط أيامه في الفراغ مثل نقاط الماء في الرمال.

سيستمر التعطش إلى كل ما هو عجيب ومجهول ويحرق القلوب البسيطة ويقلق الأرواح التي لا تزال قريبة من الطبيعة الغامضة ما استمرت حياة المغربي ومنافسيه، وما دام العلم العتيق البالي المحمي في شقوق الظل والصمت في المدن القديمة.

ملاحظة

كتبت إيزابيل إبرهارت في يومياتها (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً) «الجزائر ٤ أيار/مايو ١٩٠٢ حوالي الساعة العاشرة ليلاً. زيارة ساحر هذا اليوم، الذي يستقر في محل صغير بشارع عال عبر الأدراج المعتمة لشارع الشيطان...» تمكن هذه الإشارة القصيرة من تحديد إلهام هذا الوصف.

نشر نص الساحر بتاريخ ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٠٣ في سلسلة «نماذج جزائرية» في البرقية الجزائرية وظهر في صفحات الإسلام تحت عنوان «كتابة الرمل» في فصل «ظلمة».

المغربي

في أحد أحياء القصبة المعزولة، وفي زقاق أبيض وخال، كان الحاج الزبير التازي يسكن في دكان طويل مثل دولاب.

حصير ومقعد فيه رسوم أزهار منسوجة، ورف صغير ممتلئ بكتب عتيقة وقوارير وصندوق أخضر بحوافّ نحاسية مصقولة، وموقد طيني وبعض أواني المطبخ المتواضعة. كان هذا كل شيء.

وكان الحاج الزبير مسناً وأسمر بجسد هزيل ووجه دقيق ككاسر بعينين غائرتين ومعبرتين أسفل حاجبين كثين أشيبين.

وكان يرتدي لباس بلده المؤلف من جلابية من الجوخ الأزرق وعمامة بيضاء صغيرة حول شاشية حمراء.

وكان الحاج الزبير الهادئ والمهذب والمرحّب كثير الصمت عادة، بملامح متأملة ونظرات متفحصة طويلة.

ولد في تازة الكئيبة عاصمة جبالة قطاع الطرق، وتعلم هناك العلوم الإسلامية، وأيضاً الفن الذي يُحافَظ عليه في الأماكن المغربية المنعزلة والمظلمة: السحر.

قطع راجلاً رفقة لصوص متعلمين وقطاع طرق كل المغرب من مليلة إلى تافيلالت، ومن تطوان إلى فيكيك، ومن وجدة إلى موغادور، ثم ذهب إلى الجزائر وتونس وبرقة ليدرس في إحدى الزوايا التي يتعذر دخولها، ثم قصد مصر التي أنصت فيها بورع إلى علماء الأزهر، وبلغ مكة التي عاد منها عبر سورية وإسطانبول.

عندما غدا المغربي صديقي أحب أن يروي لي بواسطة صور مبتكرة ونفاصيل مشوقة رحلاته الطويلة التي قام بها متسولاً باسم الله والتي أخذت ثلاثين سنة من حياته.

وكان التازي يتّخذ أمام زبائنه، المشكلين من أناس من المدينة ومغربيات خاضعات، وعرب من الداخل، هيئة متحفظة وغامضة.

وكان الناس يقصدونه من أجل علاقة غرامية جميلة أو لصنع التمائم أو من أجل السحر أو طرده.

وغالباً ما كان التازي يثير إعجابي.

كان يقول للزبون:

ـ خذ هذا القلام القصبي، اذكر اسم الله تعالى، واضغط بسنّه على قلبك واذكر في سرّك الأمنية التي أتت بك إلى هنا.

وخلال ذلك الوقت يركز الساحر نظرته الثابتة في عيني الزبون، ثم يأخذ ريشة ويخط على لوحة الطلاب العرب جدولاً مربعاً من الحروف والأرقام التي توافق اسم الزبون واسم أمه، وبسرعة، يعمل حساباً مجهولاً يكتب نتيجته أسفل الجدول مضيّقاً خطوطه إلى أن يصير الخط الأخير حرفاً واحداً.

وهكذا، وبيسر وصفاء كاملين ومن دون أن يخطئ أبداً، يخبر الزبون بالأمنية التي تمناها في صمت. ثم يأخذ في حساب آمال النجاح.

إلا أنه عندما يكشف الحساب السحري بعض الاحتمالات شديدة السواد يبدأ التازي في التخفيف منها ويغلّفها بكلمات تشجيع وأمل.

وذات مرة، وعندما خرجت بربرية من الدكان تاركة قطعة نقدية بيضاء، زفر التازي وقال:

ـ هذه يا السي محمود شابة وجميلة، أتت لترى مآل علاقاتها الغرامية، وعوض العناقات التي تحلم بها ينتظرها الدم والكفن. الموت والحياة بين يدي الله!

وكان الحاج الزبير يعيش وحيداً من دون أسرة ومن دون بيت آخر عدا دكانه، ومن دون ثروة سوى علمه القديم.

كان هادئاً وصافياً، وكانت أيامه تمضي من دون ضجيج ومن دون هم، مثل جدول هضبة في زاويته المنسية بالجزائر المحرومة.



عدت بعد غياب طويل، وصعدت الزقاق الأبيض. وجدت الدكان مغلقاً.

أخبرني أحد تجار الكيف المسنين بأن الحاج الزبير مات بهدوء في شهر رجب من السنة الماضية وسط كتب وصفاته الصفراء، وقواريره.

ملاحظة

أين كان لإيزابيل إبرهارت أن تتوقف إن لم يكن ذلك في القصبة عندما كانت تعيش في الجزائر؟ القصبة هي ما يشبه مدينة في قلب مدينة بمنازلها التركية القديمة المغلقة مثل صناديق أسرار... اختارت أن تسكن في البداية بشارع البحرية، ثم بشارع السودان مديرة ظهرها لجلبة الأحياء الأوروبية وزخارفها.

المغربي هي رواية أخرى لنص الساحر، وظهرت أول مرة في البرقية الجزائرية بتاريخ ٢٠ نيسان/أبريل سنة ١٩٠٤ في الوقت نفسه الذي نشرت فيه السحار التي ستلي.

السحّار

للوصول إلى بيتي، كان يتعيّن صعود شوارع وأزقّة مغربية متعرّجة مفصولة بممرّات معتمة أسفل غابة من دعامات المنازل المنحرفة.

وأمام الدكاكين غير المتناسقة حيث تتجاور أكداس الخضار ذات الألوان الناعمة وسلال البرتقال الفاقع، والليمون الشاحب والطماطم الدامية. وكان المرء يمر عبر روائح أكاليل الزهر الخفيفة أو الياسمين العربي المنقوع في الورد، وفي الطرف القصيّ باقات أزهار حمراء.

وكانت هناك مقاه مغربية فيها أُصُص أكاليل الجبل وأسماك بحرية تطفو في جرار دائرية تحت مصابيح ورقية وأباريق فخارية حيث تُبلل حُزم المصطكا.

وفي الجوار مطاعم حقيرة تقدّم فيها سلطات رطبة وزيتون متألق وتعرض منتوجات الحلوانيين العرب المصنوعة من سكّر الشعير وحلوى مبهرة، وأماكن تدخين الكيف حيث يعزف المزمار.

وعلى مقربة بربريات ذوات سروايل فضفاضة ومناديل متموجة الألوان أو زرقاء نيلية، وإسبانيات غرزن في شعورهن السوداء وروداً ورقية.

ويمكن للمرء أن يشتري كل شيء، ويسمع كل اللغات، وكل صرخات الحياة في بلدان البحر الأبيض المتوسط، الصاخبة، وكلها في الخارج، ممزوجة بتكتم الحياة البربرية وهمساتها.

وأخيراً يتم الولوج إلى صحن منعش عبر باب متداع في أقصى زقاق مقفل حيث يوجد ظل قديم.

ويفضي سلّم طيني عتيق إلى باب آخر، يفتح على شرفتي الضيقة المبلطة بمربعات سوداء وبيضاء متناسقة، وتغطي كل شرفات وباحات الجزائر المائلة بعذوبة

باتجاه مرآة المرفأ المتموّجة للمرفأ حيث توحي لي البواخر الكبيرة الراسية بأسفار بعيدة في نهاية فصل الصيف الصافي.

كانت غرفتي صغيرة ومقببة، طُليت باللون الأزرق الباهت وفي جدرانها كوى، بينما تتجمع عوارض السقف الخشبية بأسلوب فني موغل في القِدم وقد صبغت بلون داكن.

هناك لا تصل الأصوات إلا واهنة ومشوّشة، ولا يوحي شيء بالوقت باستثناء أشعة الشمس المائلة التي تتحرك عبر الساحات الغافية على الجدران المقابلة المجهولة.

كان العيش جيداً في ذلك المعتكف البربري القديم حيث الحلم والخدر في لحظات عدم حركة طويلة، وفي رغبة الفناء البطيئة من دون رجات لروح مرهقة.

وفي المساء على الخصوص يعمّ صمت مطبق مسكني، حيث لا يأتي أحد ولا يدور حديث مع.

ومع ذلك كان لي جار في شرفة أخرى، في الأسفل.

انتهى بأن أثار اهتمامي، فقد كان يعود إلى بيته في ساعة متأخرة جداً، ولا يكون ذلك أبداً قبل الساعة الحادية عشرة. وبعد لحظة يصعد من غرفته همس أشبه بصلاة خفيضة كانت تستمر أحياناً حتى طلوع النهار.

وذات ليلة مقمرة، ولما جافاني النوم، خرجت لأتكئ على الدرابزين المطحلب.

وهكذا قادتني نظراتي إلى غرفة جاري عبر النافذة المشرعة. كانت غرفة عادية ذات أثاث غير شخصي وغير متناسق يعلوه غبار يبدو أنه تراكم قبل فترة طويلة على السجاجيد الباهتة.

وفي الوسط وقف رجل في منتصف عقده الخامس. كان أوروبياً. شُدّت جبهته بشريط أبيض وارتدى قميصاً منشى وربطة عنق، وعلى صدره شيء مثل درع الكاهن أسود حيك فيه برج كبير بخيوط فضية.

وكان أمام الرجل موقد طيني عربي صغير بثلاث أرجل ممتلئ جمراً وتوابل وصمغ جاوة. وكان يصعد دخان أزرق على نحو عمودي من الموقد في الضوء المتراقص لشمعة صفراء رقيقة. وكان هناك كتاب مفتوح وضع فوق كرسي عال بعض الشيء جعل مستحضر الأموات ينظر إليه في بعض الأحيان.

ثم يعود إلى وضعه ماداً ذراعيه فوق الجمر المعطر مردداً أدعية عبرية.

وشيئاً فشيئاً شحب وجهه واتسعت حدقتا عينيه الخضراوين وهزت رجفة كل جسده.

انتفش شعر رأسه ولحيته، وأضحى صوته مقطوعاً وأجش.

سقط في النهاية على الكنبة العتيقة التي صرّت نوابضها وبقي هناك لفترة طويلة مغمض العينين.

. . . أضحى الدخان الأزرق القليل أكثر رقة ثم تلاشى. وسالت الشمعة الصفراء، وانطفأت.



رحت أستعلم عن جاري في اليوم الموالي. لم أعرف شيئاً إلا ما هو عادي جداً، فالرجل ذو البرج والتعازيم كان من أصل ألماني، وكان يمتهن مهنة معدل آلات البيانو.

هذا كل ما عرفته عنه.

تعليت

كانت تتذكر، كما في حلم جميل جداً، أياماً أكثر بهجة في تلال باسمة تحيل الشمس لونها ذهبياً عند سفوح الجبال الراسخة التي تتخلّلها وديان عميقة مشرعة على رطوبة الأفق الزرقاء... كانت هناك غابات صنوبر وبلوط كبيرة وصامتة ومهدّدة، ومنسفات كثيفة تصعد منها هالات حارة في شفافية فصول الخريف وفي نشوة فصول الربيع الأخاذة...

وكانت هناك شجيرات خضراء عطرة وورود الغار المتوجة عند جوانب الوديان الهادئة، وعبر بساتين التين وأشجار الزيتون الرمادية... وكانت السرخسيات الشفافة تلقي غلالتها الخفيفة على اللون الأحمر القاني للصخور المشقوقة قرب شلالات الجواهر والسيول المتدفقة التي تبدو بهيجة تحت الشمس أو تصرخ في فراغ ليالي فصل الشتاء.

كانت راعية صغيرة حرة وكثيرة الضحك. لعبت هناك تحت الشمس الدائمة تقريباً حيث الضوء الحي والأطراف القوية شبه عارية.

ثم تشرع في التفكير مرتعشة في حفلة الزواج الرائعة عندما قُدّمت لرزقي أوسعيد الصياد الوسيم الذي أحبت.

ثم يبدو لها في رجع الذكريات أن تلك الأيام الماضية كانت جميعها بلا قلق ولا حزن، وأن كل شيء كان يصاب بفتنتها.

ثم حلت اللحظات الحزينة...

تحطم كل شيء فجأة، وتلاشى واختفى مثلما تشتت الرياح زوبعة تمضي في طريق مشمسة. فقد قتل سارقو أحصنة رزقي ذات ليلة برصاص بندقية... تألمت لذلك ألماً فظيعاً وانتابها جنون تمزيق ثيابها خادشة خديها الداميين تحت شعرها

المنفوش. صرخت مثل إناث الجبل البرية إذ يخترقها الرصاص... توفي والدها بعد ذلك خلال شتاء بارد من المأساة والفجيعة مثلما تراكم العاصفة الثلج على القربي المتداعي... وبعد أشهر من ذلك تزوجت زوينة والدة تعليت تاجراً فأخذهما معاً إلى الجزائر.

صارت تعليت في تلك اللحظة أسيرة هناك في تلك الباحة البربرية المغلقة مثل سجن بجدران عالية صُبغت بلون أزرق باهت، والمحاطة بصف من أعمدة الرواق وسط الضيق المقلق للجزائر التركية والبربرية العتيقة، حيث الظلام والارتياب الفظ... كانت تختنق هناك في ذلك الظل وسط نساء يتحدثن لغة أخرى، ويدعونها القبايلية ساخرات.

وهناك بدأ عذاب جديد، فقد أراد زوج أمها تزويجها، وتقديمها إلى شريكه المسن والمترهل.

تمرّد جسد تعليت المحب على العلاقة الشائخة ورفضت بفظاظة.

وهكذا ردت على والدتها عندما أخذت تحدثها عن شبابها وجمالها لتجعلها توافق.

ـ أحب رزقي!

وكان ذلك صحيحاً، فقد أحبت الزوج العشيق الهالك الذي يحتفظ جسدها بذكراه الأليمة العذبة.

لكن أمام إصرار أمها الغاضب ووحشية زوج أمها الذي ضربها بشدة، أحست تعليت بلاجدوى معركة من دون مخرج. ثم ألم تكن تحب الهالك؟ ألم تكن وفية له؟ ألم تشعر نفسها وحيدة وعاجزة عن حب جديد؟

تصلب وجهها الأسمر ذو العينين الواسعتين والنظرة الحزينة والجبهة الموشومة والفم الناعم، وتقلّص في هزال مرضي، والتمع نور غريب في نظرتها المعتمة.

وذات يوم، قالت لزوج أمها:

ـ أنا أقبل ما دام ذلك مكتوباً.

ثم أخذت تنتظر أكثر صمتاً وأكثر شحوباً على الدوام.

*
* *

حدث ذلك عشية اليوم الذي كانت ستبدأ فيه احتفالات العرس. وفي الليل هدأت قليلاً جلبة الأطفال المساكين في البيت. وكانت تعليت وزوينة وحيدتين.

قالت تعليت بابتسامة حزينة:

ـ أريد أن تلبسيني وتزينيني مثلما سأكون غداً، لأرى إن كنت سأبدو جميلة على الأقل، أنا التي ماتت عيناي لفرط ما بكيت!

هرعت زوينة المسرورة لما اعتقدته سعادة طفولية جديدة إلى إلباس تعليت القمصان الرقيقة الفضفاضة والغندورات الحريرية الزاهية والمناديل اللماعة، ثم حمّلتها بكل حليها القبايلية، فقد وضعت على رأسها ذي الشعر المصبوغ الطويل تاجاً فضياً زيّن بالمرجان، وعلى جيدها العاري والصافي علقت عقوداً بلورية ومن القطع الذهبية والمرجان فوق مجنّ العنق المصقول. ولفّت خاصرتها الرشيقة بحزام فضي واسع وملأت معصميها بالدمالج الدائرية، وكاحليها الرقيقين بالخلاخيل الرنانة، وغطى عقد معطر بعطر دافئ ويابس جيد تعليت.

ثم قرفصت زوينة أرضاً، وأخذت تتطلع إلى تعليت مفتونة، فأخذت تقول مرددة:

ـ كم أنت جميلة يا عين الغزال!

أخذت تعليت مرآتها وشرعت في النظر إلى نفسها طويلاً كما لو أنها منتشية، طويلاً جداً حد أن زوينة نامت.

وهكذا نزعت تعليت خلاخيلها الرنانة، وخرجت إلى الباحة ناصعة البياض في ضوء القمر المائل وانسلّت على البلاط تاركة صف الأعمدة في الظل الأزرق.

همست تعليت كما لو أنها في حلم:

ـ لا شك أن الوقت تأخر!

وضعت جبهتها المستعرة محمومةً ومرتعشة على رخام عمود بارد... انقبض حلقها في ألم لا يحتمل، وأخذها انتحاب أخرس جعل كل جسدها يهتز من دون دموع. وأصدر مرجان تاجها صوتاً خفيضاً عند اصطدامه بالأرض... وهكذا اختلجت تعليت، ثم انتصبت شاحبة جداً.

كانت في إحدى الزوايا بئر بربرية مظلمة وضيقة وعميقة.

مالت تعليت للحظة فبدت كذلك مستقيمة في هالة القمر مثل تمثال فضي.

أغمضت عينيها وحركت شفتيها بهمس إسلامي ورع، ثم تركت نفسها تسقط في الظلام السفلي بحفيف الحرير وطقطقة الحلي. وحدث اصطدام بلا صدى، وهدير بعيد. لعقت المياه السوداء كمسخ الجوانب الداخلية الدبقة... ثم صمت كل شيء.

اختفت تعليت المزينة كعروس. اتهمها الجميع بالفرار لتمارس البغاء في مواخير القصبة.

غير أن زوينة العجوز التائهة خمّنت الحقيقة، وتوسلت أن يتم إنزالها إلى البئر بحبل. وأمام ذلك الرجاء الملحّ الذي بدا كأنه جنون بُني جدار على البئر بأمر سلطوي. وهكذا أخذت زوينة تحفر الحجر حد انتزاع أظفارها وسلخ جلد يديها هاتفة لأيام بالاسم العزيز: تعليت!

أجري البحث في الخارج لكن عبثاً، وهكذا أعيد فتح الهوّة، ونزل رجل فوجد تعليت طافية....

وضعت الجثة على البلاط الأبيض، وألقت شمس المساء الخجلى أنواراً وردية على الحلي التي ضغطت على اللحم المنتفخ والمخضر، كل العفونة النجسة التي كانت تعليت....

ملاحظة

«وعلى الرغم من الوحل الذي أقحمته هنا «الحضارة» العاهرة والمتسببة في العهر، لا تزال الجزائر بلداً لطيفاً، ومن اللطيف جداً العيش فيها.

ومع ذلك، تسببت رؤية جثة زهيرة امرأة القبايل تلك، والتي ألقت نفسها حديثاً في بئر بممر المدية فراراً من زواج مقيت، والتي حملت على نقالة غطيت بنسيج رمادي سميك، في إلقاء شيء مثل حجاب من الحداد الثقيل والمعتم، والذي يصعب وصفه، على هذه الجزائر المتألقة ولأيام طويلة.. أما الآن فقد مر كل ذلك... وحدها بعض المناطق المحيطة احتفظت بشيء من ذلك الظل، ولم أعد أحب المرور بها أبداً...» الجزائر ٤ أيار/مايو ١٩٠٢ (اليوميات، الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً).

نشرت القصة بعد ذلك بسنة (الفاتح من شهر حزيران/يونيو ١٩٠٣) في البرقية

الجزائرية، وأضحت زهيرة تعليت. وتخلصت إيزابيل إبرهارت من ذكراها الثقيلة لقصة الشابة القبايلية التي رفضت المصير المشترك للنساء المسلمات.

لم تقم الكاتبة سنة ١٩٠٢ بلقاءات سيئة فقط في الجزائر، فقد قامت بزيارة فيكتور باريكون «روح عصرية، رقيقة وبارعة لكنها خاضعة لأفكار قديمة (. . .) مولعة بالفكر، وعلى الخصوص بالإحساس، وعدمية أخلاقياً (. . .) أما في الحياة العملية، فهي شخص إيجابي جداً وتعرف كيف تعيش. . .»

ومنذ تلك الفترة أضحت إيزابيل إبرهارت تنشر على نحو منتظم في صحافة الجزائر «التقدمية».

وصول المستعمر

أراد جيل بيرار وهو ابن ملاك صغير في الجورا، هذَّبته الإقامة بالمدينة حيث عمل كبستاني، مشرب بأفكار تحررية، أن يحمل إلى أرض جديدة الرصيد القليل الذي خلّفه له والده. ومن البعيد تصوّر بيرار فكرة عن تجمعات فرنسيي الجزائر وفتنتها. لا شك أن تلك التجمعات كانت أشبه بعائلات فرنسية قوية هاجرت إلى الأرض العذراء حاملة إليها طاقتها وتضامنها المزدهر بعيداً عن الإطار الضيق والرتيب للحياة العاصمية.

كان هناك العديد من الصعوبات بكل تأكيد حيث الجو القاتل في بعض الأحيان، والأرض المجهولة، والجفاف، وريح الشلوق، والجراد، والأهالي... كانت الكتب التي قرأها بيرار قد ذكرت كل ذلك غير أنه سيُلفي هناك مستعمرين آخرين ذوي خبرة سيضعونه على الطريق الصحيحة وسينصحونه وسيحمونه.

وبعد شكليات طويلة ومكلفة حصل بيرار على امتياز في «مركز» مورو الذي كان يتسع، والذي يعود إلى مدينة ***[1] الصغيرة في التل القسطنطيني.

وصل بيرار إلى مورو ذات مساء خريفي حزين وغائم. كان الجو مظلماً وبارداً وجعلت رياح لاذعة أشجار الأوكاليبتوس الباردة في الشارع الكبير تتمايل.

ـ هل أنت فرنسي امتياز واد خمسة؟

بهذه الكلمات استقبلته صاحبة الفندق الإيطالية البدينة التي كانت ترتدي قميصاً فضفاضاً.

كان بيرار متلهفاً للتواصل مع مواطنيه الجدد، فدخل إلى قاعة الفندق.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

كانت جلبة كبيرة تعمّ المكان، ففقدت فيها «تحية للجميع!» التي ألقاها بيرار. وميّز بعض بقايا الكلمات التي ألقيت بصوت مرتفع بلكنة بدت له غريبة.

ـ وعندما أخبرتك أنه مع سانطوس رئيس ب. . . !

ـ هكذا إذن، سيكون لنا عمدة قواد[1]؟

. . . أضاف شخص ثالث بغضب:

ـ كلهم أناس بيعوا، أوغاد ولصوص!

ارتفعت الجلبة.

جلس رجل في حوالي الثلاثين من العمر أسمر مفرط الحيوية قبالة بيرار، ومن فوره بدأ الحديث:

ـ هكذا إذن، وصلت لتوّك؟ هذا واضح. . . علينا ألا ننخدع ما دمنا فرنسيين. . . نعلم أنهم سيسعون من فورهم إلى تشويشك، رجال النائب. . . فاحذر. . . كلهم أنذال ومن دون وطن. . . هم الذين يأكلون المستعمرة. فكر في هذا، ففي انتخابات الشيوخ انتخبوا ماشان الذي يدعم العرب على حساب المستعمرين. نحن مع العمدة، عليك ألا تسمح لهم بتشويشك. أنت تفهم.

ـ لكني لم أحضر إلى هنا من أجل ممارسة السياسة. . . الأمر سيّان، أريد أن أنغمس في العمل.

نظر إليه المتسعمر بعدائية متفاجئاً.

ـ آه، هكذا. . . هذا معروف. تمنح الحكومة امتيازات لأناس من فرنسا لا يهتمون بمصالح المستعمرة، ولا يريدون الاتفاق مع المستعمرين بينما يجبر أطفالنا على العمل مثل عمال جنباً إلى جنب مع الأشقياء. . .

ثم قام المستعمر. . .

وحلّ مكانه مستعمر آخر. تحدث طويلاً إلى بيرار عن مزايا العمدة المحب للبشر الذي. . . كان إنساناً صالحاً! والذي كان على الأقل مع المستعمرين. وفي الوقت نفسه لم يخل حديثه من شتم وتهديد من باعوا أنفسهم، والماسونيين، واللصوص، ورجال النائب موليننا. وكان بيرار ينصت ضجِراً. أراد أن يسأل عن بعض المعلومات

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

النافعة عن الجو وجودة الأرض والعمال، لكن المستعمر كان يرد على كل تلك الأسئلة مغتاظاً:

ـ سترى... الجو؟ جيد، ليس سيئاً... ستتدبر أمرك... ستقوم بذلك مثلنا...

وفي الحال يسقط في اجتراره «السياسي»، بثرثرة عجيبة.

قام بيرار بكل شيء ليتخلص من ذلك المتحدث الثرثار وخرج.

كان الشارع خالياً ومظلماً. وبعد جولة قصيرة دخل بيرار إلى مكان آخر. وهناك أيضاً كان الرجال يصرخون ويتجادلون.

لمح بيرار مجموعة من المستعمرين هادئين بعض الشيء. كانوا يلعبون الورق، فجلس إلى طاولتهم في إحدى الزوايا.

ـ إذن أيها السادة، هل تسير الأمور هنا وفق ما يلائمكم؟ أنا مثلكم منذ وقت قريب... أنا مستعمر.

ومباشرة بعد ذلك، أحس بيرار بعض الانزعاج في تصرفات اللاعبين:

ـ أين تقيم؟

ـ في الفندق الأول إلى اليمين على طريق ***[1].

تبادل اللاعبون النظر، كما لو أن بيرار قال شيئاً فادحاً.

ـ آه، سحقاً! يجندون رجالهم الآن هكذا، بالقوة؟ ألا تعرف أيها السيد عند من نزلت؟ إنه مكان تجمع اللصوص وقطاع الطرق... إنه اجتماع عصابة العمدة عند المرابي جيرو!

ـ لا يهمني الأمر، نزلت هناك في انتظار أن أستقر، أن أبني بيتاً!

ـ ألا تدرك أنك ستفقد شرفك إذا ما بقيت مع أولئك الناس، سيلتفون حولك، من الواضح أنك لا تعرف جيرو.

ومرة أخرى، أكد بيرار استقلاليته السياسية غير أنه تمت مقاطعته:

ـ هذا غير مقبول، نحن هنا مع المواقف الواضحة. على المرء أن يكون مع

---

(١) هكذا ذكر في الأصل. المترجم.

الشرفاء أو أن يكون مع اللصوص... لا يستحق الأمر تعقيداً أكثر.. هكذا هو الأمر.

قال بيرار محاولاً الفرار:

ـ سأكون دوماً مع الناس الشرفاء.

وقال مستعمر آخر، تحدث إليه بيرار طالباً منه بعض التوضيحات، شيئاً آخر، إذ كان عدائياً على نحو واضح، واكتفى فقط بالرد على أسئلة الوافد الجديد:

ـ نحن أبناء المستعمرين نكدّ، ونتدبّر أمرنا بقدر ما نستطيع، إفعل مثلنا إذن ما دمت قد مُنحت امتيازات... إذا حضرت إلى هنا فلأنك لا تستطيع تدبّر أمرك في ديارك... هذا ما لا تريد الحكومة أن تفهمه، عندما تصرّ بعناد على أن ترسل إلينا الكثير من الناس الذين يجهلون كل شيء عن البلد، والذين يحسبون أنفسهم أذكياء. عندما سيُرى عملك سنحدثك... أما الآن فلا جدوى من ذلك.

خرج بيرار.

تجوّل في ظلام الليل، ولمّا مرّ أمام حانة مضاءة بمصباح مدخّن توقف. كان هناك عرب يشربون القهوة. وعلى سبيل الاستطلاع، دخل وطلب فنجان قهوة.

جلس في زاوية وأخذ يتطلع إلى أولئك الرجال المنتمين إلى عِرق آخر قيل له إنه عدوّ لعِرقه.

كانوا يرتدون ملابس أوروبية رثة، فبدوا بؤساء وكئيبين.

عند دخوله تهامس بعضهم بكلمات وهم ينظرون إليه... وكانت تلك النظرة متحفظة وعدائية...

فكر بيرار في التحدث إلى صاحب المقهى الذي كان يفهم اللغة الفرنسية.

ـ لا يبدون سعداء... أعتقد أنهم لا يحبوننا...

ـ كلا، لماذا؟ كيف كيف[1]... غير أن مِن بين هؤلاء مَن كانت لهم أرض وقمح قبل التوسع. هم لا يملكون شيئاً الآن... وهذا الأمر لا يسرّهم. أنت تفهم. لكن لا بأس.

شرب بيرار قهوته وانصرف، وفهم أنه كان دخيلاً. الكل اشتكى من وصوله،

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، وتقصد الكاتبة، متساوون. المترجم.

أبناء المستعمرين لأنهم رغبوا في الحصول على امتيازه لأنفسهم... والعرب لأن أراضيهم انتزعت منهم...

وأولئك الذين استقبلوه ببرود أقل لم تكن لهم رغبة أخرى سوى تجنيده لصالح هذا الطرف أو الطرف الآخر... حزن قلبه حزناً شديداً لخيبته ولتلك القرية العدائية والكئيبة التي كانت تنام في تلك اللحظة في الليل البارد.

ملاحظة

توحي خيبة المستعمر بيرار بالخيبة التي عرفتها من دون شك إيزابيل إبرهارت عند وصولها في شهر تموز/يوليو سنة ١٩٠٢ إلى فندق ديزار بتينيس رفقة زوجها سليمان إهني. تشير شهادة شاهد إلى أنه راقب باهتمام الرجلين من «الأهالي» وعجب كيف أن يدي أحدهما كانتا ناعمتين...

شكلت تينيس التي أقامت فيها إيزابيل إبرهارت بضعة أشهر ذكرى سيئة جداً بالنسبة إليها، فقد ألفت نفسها ضحية حملة افتراءات خبيثة، تُذكيها مواقفها المؤيدة للعرب، وغموض شخصيتها وتحررها. روى روبير روندو صديقها في تينيس الحيثيات الدقيقة لتلك المؤامرة. (إيزابيل إبرهارت، ملاحظات وذكريات إ. شارلو ١٩٤٥. أعيد نشره سنة ١٩٨٩ في (لابواط آدوكيمون).

لا شيء مفاجئ في كون نص وصول المستعمر نشر في الأخبار في الفاتح من شهر كانون الثاني/يناير سنة ١٩٠٣، فقد كانت المعركة السياسية بتينيس في تلك الفترة محتدمة.

توجد هذه القصة في صفحات الإسلام. مصدر ذكر سابقاً.

فلاح

حياة الفلاح رتيبة وحزينة مثل طرقات بلده المغبرّة والمتعرّجة إلى ما لا نهاية بين التلال القاحلة المحمرّة تحت الشمس. وهي مشكّلة من أشياء بائسة متعاقبة لا تنتهي ومن آلام صغيرة، ومظالم صغيرة. المأساة نادرة فيها، وعندما تحل بالصدفة موقفةً رتابة الأيام تتقلّص هي أيضاً إلى حدود واضحة جداً وقليلة جداً في الخضوع اليومي، وتكون مستعدة لكل شيء.

إذن لن يكون في حكايتي الواقعية أي شيء مما هو مألوف في الحكايا العربية، لا تخييل، ولا حبكة، ولا مغامرات. ليس هناك إلا البؤس يسقط قطرة قطرة.



دفع محمد عيشوبة تحت لسع رياح البحر اللاذعة والقارسة، على الرغم من طلوع الشمس، محراثه البدائي المربوط إلى دابتين صغيرتين هزيلتين من عِرق هجين بلون أصفر متسخ. كان محمد يبذل جهداً كبيراً من أجل إدخال سكة المحراث المنفرجة في الأرض الحمراء المليئة بالحصى. وبحكم العادة، وأيضاً لقلة الأدوات والشجاعة، كان محمد يكتفي بالالتفاف على شُعب المصطكا والحجارة الضخمة من دون أن يحاول إزالتها عن حقله البائس، الملك المتوارث والمشاع لعيشوبة.

وكان معمّر الصغير، ابن محمد، يتشبّث بغندورة والده الباهتة، يتتبّع في عناد خط المحراث حيث من المحتمل أن يدفع بدوره ذات يوم المحراث العتيق.

كان محمد يوشك أن يبلغ الخمسين من العمر. وكان طويل القامة ضامراً، قوي البنية، وجهه مستطيل بيّن التقاطيع، مؤطر بلحية سوداء قصيرة. عيناه العسليتان تنمّان عن المكر والارتياب والانغلاق في الآن نفسه. ومع ذلك عندما كان معمّر الصغير

يقترب كثيراً من المحراث كان الوالد يرده بلطف، تتغيّر عيناه وتعبرهما ابتسامة مفعمة بغموض متراكم، عبر قرون من الخدمة.

وكان غطاء ممزق موضوع ببساطة على رأس محمد ذي الثياب الرثة يكمل منحه صورة فلاح من القرون الماضية...

وكان الحقل يقع عند منحدر تل قاحل وسط سديم من الهضاب التي تطل من كل جانب على حاجز أزرق لجبال ذات مسالك معقدة.

وفي المقابل، على الضفة الأخرى من أحد الأودية، كانت ترى قربيات قسم ربتة من قبيلة معين.

أما قسم عيشوبة فكان منعزلاً بعض الشيء عند سفح شاطئ صخري أحمر يقطع الجبال فجأة. وكانت هناك أربعة جدران من الحجارة الجافة ذات شقوق ملئت بالطين والأعشاب وسقف من الديس، والفتحة الوحيدة هي الباب المنخفض جداً مثل مدخل مغارة، وثمة حاجز من الشوك وأغصان المصطكا يصلح نهاراً لإخفاء النساء وليلاً لحماية القطيع.

وكان محمد الأكبر سناً زعيم العائلة. وكان شقيقاه الأصغر سناً يقيمان في بيته. وكان شقيقه الأول محجوب متزوجاً. ولم يكن مهتماً بالعمل في الحقل، فقد كان يربي النعاج والمعز ويذهب إلى الأسواق. ولم يكن بنعالية أصغرهم يشبه أخويه. كان يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة، وكان يرفض الزواج.

كان يحرس القطيع، ويصيد في الجبل. وكان سارقاً عندما تتوفر له الإمكانية لذلك، وكان شخصاً سيئاً لا يقوّم على الرغم من تأديبات شقيقيه. كان يزجي سحابة يومه جالساً على صخرة مقابلاً الأفق الذهبي الكبير، وعازفاً على الناي البدوي أو مرتجلاً أغاني شعبية حزينة. كان الوحيد لربما في كل قبيلته الذي يرى روعة الطبيعة المحيطة، وطيف الغيوم في قمم الجبال المعتمة وابتسامة الشمس في الأودية.

وفي القربي كان بنعالية يلزم صمتاً ساخراً تقريباً. لم يكن يتدخل في شجارات المصالح بين أخويه الكبيرين أو في أحاديث النساء التي لا تنتهي.

وكانت النساء كثيرات العدد في القربي الكبير شبه المظلم. كان لمحمد اثنتان، وللمحجوب واحدة. وكانت هناك أيضاً الأخوات القاصرات أو المطلقات، والخالات

العجائز، والأم عيشوبة، الجدة العاجزة للصغار المتزايدين والمحمولين على ظهور النساء المنحنية قبل الأوان. كانت عشيرة متشددة وماكرة مع أن أفرادها كانوا وجِلين.

وفيما يكون الرجال في الخارج تسحق النساء القمح الصلب في طواحين صغيرة وعتيقة وثقيلة، ويطهين الخبز في فرن طيني يشبه حفرة خلد كبيرة ويُسدّ بقدر مُلئ نصفه بالماء.

وعندما لا تتطلب أعمال الحقل والقطيع البدائية جهودهما يذهب محمد ومحجوب مثل باقي رجال القسم الآخرين ليجلسا على حصائر بالية قرب كوخ حيث يبيع رجل ذو صدرية وعمامة القهوة والشاي.

وهناك يجري الحديث ببطء وعلى نحو لا ينتهي حول المصالح مع انشغالات البدو المتعلقين دوماً بحياة الحقل، فتقدّر المحاصيل، ويتم التذكير بآخر سوق، وتقارن السنوات.

ويلعب السوق دوراً كبيراً في الحياة البدوية، ويمارس ما يشبه السحر على الفلاحين الفخورين جداً بسوق قبيلتهم، فيقال عن الرجل الذي بلغ سن الرشد «لقد بدأ يذهب إلى السوق.»

ويحكي أحدهم أحياناً قصة بسيطة وفظة عن اكتشاف الكنوز المخبأة في الجبل والمحروسة من قبل الجن، وأساطير الأزمنة الغابرة أو حكايات عجيبة عن النمور التي ما تزال موجودة بأعداد كبيرة، إضافة إلى الأسود.

وورع تلك القبائل البربرية الجبلية، التي يتحدث الكثير منها بلهجتها الشلحة، قليل وجهلها بالإسلام عميق. والمسنون وحدهم من يؤدون الصلوات المعتادة. وخلافاً لذلك فالأولياء مبجلون، وهناك العديد من القباب أو أماكن مقدسة يتم التوجه إليها من أجل الحج في ذكرى بعض التقاة المنعزلين.

ولدى آل عيشوبة، كان محمد وحده يصلي، ويضع حول عنقه سبحة الطائفة الشادولية[1]...

وتمضي الأيام في خدر مستسلم، وفي رتابة البؤس الذي كانوا يعانونه منذ زمن بعيد.

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، ولعل الكاتبة تقصد الطائفة الشاذلية. المترجم.

. . . كانت السنة تبدو سيئة. وفي وقت الزرع الشتوي تُبلّل الأمطار الأرض وتحيل الطرق العربية والمسالك الوعرة والمتعرجة إلى سيول. . . والواقع أنه على الرغم من ثقل الضرائب العربية كانت الدواوير محرومة من طرق المواصلات، ولم يقدم شيء من أجل رفاهيتها أو تطويرها أو صحتها. وكان الفلاح المحروم يدفع ويصمت.

وكانت أراضي قسم ربتة بائسة ومرهقة بالزرع السيّئ من دون سماد، واجتاحتها الأدغال المجاورة.

وكان الخبز الأسود والمعاش، الكسكس الخشن، مهددين بالاختفاء تلك السنة، وسيكون من العسير جداً أداء الضريبة، وبدأت شكوى خرساء وصرخة حزينة فزعة تترددان في التلال والأودية.

ومع ذلك لا أثر للتمرّد في سلوك الفلاحين وأحاديثهم، فقد كانوا فقراء دوماً، وكانت أرضهم وعرة دوماً وحجرية، وكان هناك دوماً بيلك ما يتعيّن دفع الضريبة له. ولا يذكر البدو أي فترة ذهبية.

كانوا يعيشون آمالاً قصيرة وانتظارات لأحداث قادمة تحمل الأمل في بعض التحسن للقربي. سيكون المحصول جيداً، إن شاء الله. . . أو ستباع بعض الأبقار والخراف وسيُجنى بعض المال. وكل ذلك، وحتى لو أضيفت أشياء أفضل، لا يغير شيئاً من المجرى الأبدي المتشابه لحياة الدوار، لكن الأمل يجعل الوقت يمضي واليأس محتملاً.

. . . والبدوي نزّاع بطبعه إلى الخصام، محبّ للدعاوى، ويعتبر الدعاوى الجارية وإدخال السلطات في شؤونه حتى الشخصية منها حاجةً من حاجات الحياة وشيئاً مشرّفاً تقريباً. وأرجع محمد عيشوبة وشقيقه محجوب في الكثير من المرات خلافاتهما إلى القايد وحتى إلى الحاكم مستمرين مع ذلك في الحياة معاً.

وفي القربي كانت عودة أكبر زوجتي محمد سناً من تفتعل الخصومات. كانت ثرثارة وشرسة. وكانت تشعر بالحاجة الدائمة إلى الشجار والصراخ، وأن تنقل ما قيل من طرف إلى آخر، متفاجئة بمهارة. وعندما تتجاوز الخصومات بعض الشيء الدرجة المعتادة يأخذ محمد عصا ويضرب زوجته واضعاً حداً للشجارات بعض الوقت، غير أن دهاء عودة وشراستها كانا بلا حدود. وكانت تعادي العالية على الخصوص،

ضرّتها الشابة الوديعة والجميلة التي بلغت لتوّها سن الزواج، والتي كانت تصمت متحملة إحراجات عودة، وتذهب حد مناداتها لالة[1].

ومع أن محمداً لم يكن بادي الرقة إلا أنه كان على شيء من الضعف إزاء العالية، ولم يكن يعود من السوق من دون أن يجلب هدية إلى زوجته الجديدة، ممعناً بذلك في زيادة كراهية عودة وغيرتها. وكانت لعودة بنتان وهي تعتمد على أمومتها تلك لمنع زوجها من تطليقها، غير أن الطفلتين كانتا كبيرتين. أما معمّر المفضّل لدى محمد فكان ابن خديجة زوجة محمد الأولى المتوفاة. وهكذا فقد كانت الروابط التي تجمع محمد بعودة واهية جداً.

ومثلما هو معتاد لدى بربر الجبل كان أهل عودة يثيرونها ضد زوجها، ويدفعونها للوصول إلى طلاق يأتي منه لأنه بذلك سيفقد صداق زوجته، التي سيزوجها والداها مجدداً حاصلين على مبلغ آخر.

***

... انتهى حصاد محمد، وأحصى البذور فانقبض قلبه لأنه لم يكن لديه ما يكفي لزرعه. كان يلزمه حوالي خمسة عشر فرنكاً. من أين سيحصل على ذلك المال؟ هل سيذهب مثل السنوات الماضية ليقصد السيد فاغي أو القبايليين القاطنين في «مركزي» مونتونوت وكافينياك؟ وكان مديناً له ولهم على حد سواء بمئات الفرنكات. وكان حقله وقطيع المحجوب هما الضمانة.

وكان قد شهد من قبل بيع حقل شعير وثلاث أشجار تين جميلة اشتراها السيد فاغي عبر أحد خمّاسيه.

المرابون وحدهم من كان بإمكانهم تخليصه من الأزمة. كان عليه أن يزرع. وكان محمد يجري حسابه متسائلاً إن كان سيتوجه إلى رومي تينيس أو قبايليي القرى. سيقرضه السيد فاغي البذور عيناً بضعف الثمن الحالي، بينما لدى القبايليين ومن أجل الحصول على قرض لخمسة عشر فرنكاً عليه أن يوقّع صكاً بثلاثين...

سار محمد ببطء بمحاذاة حقله مفكراً في المرابين. دخلت الرياح الباردة في

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، مع ترجمة من قبل الكاتبة في النص الأصلي. (سيدتي). المترجم.

البرنس العتيق الممزق وفي الغندورة الرثة، وبكى حزنه الكبير على ذلك الحزن البشري.

***

. . . «مركز» تروا بالمييه[1]، بوزراية بالعربية، قرية أنشئت بقرار رسمي. وكانت أراضي المستعمرين تقع في أفضل مناطق قبيلتي حميس وبغدورة عن طريق نزع الملكية. ومع ذلك لا تدين القرية الأوروبية برخائها إلا لسوق الجمعة العربي الكبير.

فتحت أشجار الأوكاليبتوس ذات الأوراق الحمراء بفعل فصل الشتاء وعلى منحدر ذرور يتزاحم حشد متلاحم من أصحاب البرانس الرمادية والبرانس الداكنة والحجابات البيضاء. ووسط صراخ الرجال والدواب يتحرك البدو في غدوهم ورواحهم. يصل بعضهم ويستقر بعضهم الآخر. ويرتفع صياح شديد، وصراخ شرس لأولئك الناس الذين لا همّ لهم سوى الربح، والبيع بأغلى ثمن ممكن، والخداع عند الحاجة، والشراء بثمن بخس، ذاك هو هدف ذلك الحشد المتباين، حيث مزيج مختلط من الأوروبيين والعرب والقبايليين واليهود، وكلهم متشابهون في تعطشهم للكسب.

. . . نزل محمد ومحجوب إلى السوق منذ الفجر. سارا جنباً إلى جنب على امتداد الطريق مرافقين بأخيهما الأصغر بنعالية، الذي كان يدفع أمامه المعاز الثلاث التي أراد محجوب بيعها. كان محمد ممتطياً فرسه الصغيرة مردفاً محجوب، بينما كان بنعالية راجلاً. كان يغني «كان الراعي في الجبل. كان صغيراً. كان يتيماً. كان يعزف على الناي. كان يحرس خراف ومِعاز بلقاسم. أتى النمر مع حلول الليل إلى طرف الغابة، فأكل الراعي الصغير والقطيع. . . بكى أبناء بلقاسم القطيع الجميل، والمعاز الجميلة. . . لم يبك أحد الراعي الصغير لأنه لم يكن له أب. . .»

كان بنعالية يرتجل، وكان صوته الشاب والقوي يتردد عند الغابة، وفي الجبل المليء بما يثير الخوف في النفوس. كان شاعراً غير واع، وكان يروي واقع عِرقه ويغني واقع حياة الدواوير. . . لكنه، لمّا كان سارقاً وشخصاً سيئاً، لم يحظ أبداً بانتباه رجال قبيلته وتقديرهم.

---

(١) النخلات الثلاث. المترجم.

. . . عند وصول الإخوة الثلاثة إلى السوق تفرقوا بحسب العرف العربي. لم يكن لمحمد إلا جرّة زبدة صغيرة ليبيعها، وسرعان ما ذهب ليبحث عن القبايلي الذي يقرض المال قاسي أوسعيد.

كان الزواوي يرتدي صدرية زرقاء وعمامة صفراء. وكان طويل القامة ونحيلاً. وكان يعرض رِزمة كبيرة من المناديل والأقمشة القطنية الزاهية. ابتسم لرؤية محمد عيشوبة:

ـ أنت هنا؟ ألا تسير الأمور على نحو جيد؟ ماذا هناك؟

ـ الحمد لله على كل حال! ليس هناك إلا الخير.

ـ هل أنت محتاج إلى المال؟

ـ أجل، تعالى لنتحدث جانباً.

ـ لي عندك مئتا فرنك، وأنت مدين لآخرين، بل حتى إلى السيد فاغي.

ـ سأدفع الفوائد. لا أعمل إلا من أجلكم، ومن أجل الضرائب.

ـ لن أقرضك بالفائدة نفسها، ذلك قليل جداً مادام علي الانتظار طويلاً.

ـ لستَ مسلماً! حرّم الله عليك أن تقرض حتى بقرش فائدة.

ـ سنقتسم الذنب. نحن نقرض لكنكم تستدينون أيها العرب. لمن سنقرض من دون طمعكم؟

ـ اليهود هم الذين علموكم هذه المهنة.

ـ كفى. هل تريد المال أم لا؟ وكم يلزمك؟

ـ من أجل القمح والشعير، يلزمني ستة عشر فرنكاً.

ـ ستة عشر فرنكاً. . . ستكتب لي وصلاً باثنين وثلاثين فرنكاً.

ـ هذه تجارة اليهود! بماذا سأدفع فائدة مماثلة؟

ـ تدبّر أمرك.

كانت المساومة طويلة وحارقة. دافع محمد عن نفسه على أمل ربح بعض الفرنكات، وأدرك قاسي أوسعيد أنه يمسك فريسته، وأخذ يسخر هادئاً. وفي النهاية تمت المعاملة من دون أن يتنازل المرابي على أي قرش. وفي اليوم الموالي سيتم الذهاب إلى المترجم وسيوقع الوصل. وحتى يتم الأمر وفقاً للقانون سيحمل هناك الكلمة الحميدة «القيمة المحصّلة بذوراً» لإزاحة فكرة الربا. وسيحصل محمد عيشوبة

على ستة عشر فرنكاً من أجل إكمال بذوره، وبعد الحصاد سيعيد ذلك مضاعفاً.

قضى الليلة ملتفاً ببرنسه قرب المقهى المغربي. كان قلقاً: كيف سيدفع كل ما عليه من ديون في مواعيدها الحتمية بعد الحصاد في شهر آب/أغسطس بالمحصول القليل الذي ستيوفر عليه بكل تأكيد، ما دامت السنة قد بدأت ببرد قارس والكثير من الأمطار؟ غير أنه عزّى نفسه قائلاً: «سيدبّر الله ذلك.» ونام.

... خلال غياب الرجال حضرت إلى قربي عيشوبة عجوز ذات وجه ملأته التجاعيد بأنف معقوف، وبعينين صغيرتين من دون أهداب، يقظتين وثاقبتين. كانت تلك أم عودة زوجة محمد.

عزلت ابنتها في زاوية، وأخذت تحدثها بصوت هامس بحدة، وعند كل حركة مباغتة كانت تتردد أصوات دمالجها الفضية في معصميها النحيلين.

ـ أنت حمارة. لمَ تبقين عند زوجك؟ تعلمين جيداً بأن النساء الأخريات في مثل سنك يلبسن جيداً. لمَ تبقين؟ إلجئي إلى والدك. إذا أراد زوجك استردادك بالقوة ستكشفين وجهك للروميين، ولن يريدك بعد ذلك... وهكذا سنجد لك زوجاً آخر أفضل.

ـ أنا خائفة.

ـ إذهبي أيتها الدابة! ألست قطعة مني؟ هل سآذيك؟ ممَ تخافين؟ أليس لك والدك؟ وأخواك، أليسا مثل أسدين؟

أخذت عودة تفكر واضعة خدها في باطن كفها. لم تكن تشعر بأي عاطفة اتجاه زوجها، وكانت تخشاه. وإذا ما كانت تغار من الغالية فلم يكن ذلك أبداً بفعل شعور المرأة المجروحة في حبها وفي كرامتها، كانت تفعل ذلك فقط لأن محمداً كان يقدم للغالية هدايا وحلياً، وكانت عودة تحسدها.

وقررت عودة.

ـ سيكون يوم الإثنين في سوق مونتينوت. أخبري والدي وأخويَ بأن يحضروا لأخذي بالبغلة الرمادية.

ـ بداية افتعلي مشكلة مع زوجك. أخبريه بأن يمنحك الأشياء نفسها التي هي للغالية، وأن يتركك تأتين عندنا لتقضي بعض الأيام. سيرفض، وأنت أصرّي. سيضربك، ومنذ يوم الثلاثاء سنذهب لنشكوه إلى الحاكم إذا لم يطلقك.

دخلت امرأة تبكي. كانت الجارة عيشة. قرفصت في زاوية، وأخذت تنتحب. كانت ما تزال شابة، وكانت لتبدو بوجه جميل لولا الأوشام التي غطت جبهتها وخديها وذقنها.

سألت العجوز:

ـ ماذا بك يا ابنتي؟ هل أبناؤك مرضى؟

ـ آه! يا أماه، يا أماه! في ذلك اليوم، ولما كان زوجي يزرع عند القايد مر زواوة من هنا. أروني مناديل حريرية وردية جميلة بأربعة فرنكات. اشتريت اثنين لأن القبايلي وعدني أن ينتظر حتى نهاية الشهر. كانت أمي ستمنحني المال. يدعي القبايلي الآن بأني مدينة له باثني عشر فرنكاً، ودعاني أمام القضاء. ضربني زوجي، ويريد تطليقي. لست أعلم إن كان يملك ما يكفي ليدفع... الرحمة، يا الله!

قالت عودة:

ـ أنا لا أشتري أبداً قرضاً. احتفظت بصوف يساوي أزيد من ثلاث فرنكات، وعندما أصنع الزبدة أخفي بعضها وأبيعه للأطفال. والقمح أيضاً أبيعه سراً... وهكذا أحصل على مال أشتري به ما أريد.

غير أن فاطمة أخت محمد أخذت تقترب، وأخذت النساء ترثي لحال الجارة عيشة.

ـ احرقي شيئاً من قرن حمل العيد الكبير، وضعي القليل من الرماد في أكل زوجك. لن يتمكن من تطليقك أبداً. احذري أن تتذوقي من ذلك، لأن ذلك يمنع النساء من الحمل.

كانت المرأة تعرف أمور السحر.

عقدت عيشة أصابع يديها، وقبّلت الطرف المتسخ من ملحفة الداهية.

ـ أرجوك يا أماه، تعالي معي. لقد رحل زوجي. أعدّي لي القرن بنفسك. فلي اثنان منه.

ـ بعد أن أقوم بذلك، عليّ تبخير قربيَ بصمغ جاوة لأربعة أيام، وأن أشعل شمعتين لسيدي مروان. امنحيني ستة قروش وسأرافقك.

وتحولت القروش الستة من ثنيات منديل رأس عيشة إلى جزء من ملحفة العجوز التي قامت وأخذت حايكها وعصاها.

ـ الإثنين عند منتصف النهار. خصوصاً لا تنسي الصوف...

كذاك همست في أذن ابنتها.

عاد محمد منهكاً ومبللاً بالأمطار في اليوم الموالي ليلاً بمال القبايلي الذي تسلمه في غرفة المترجم بعد أن وقّع الوصل.

وجد طفله الصغير معمّر محموماً جداً على فخذ العالية التي كانت تهدهده.

قالت عودة المنهمكة في أعمال البيت متذمرة:

ـ أنا من عليّ العمل دوماً! والأخرى أبداً. جلبتَ لها الهدايا، أراهن على ذلك، وأنا لا شيء دوماً!

استدار محمد المصدوم المتألم بمرض ابنه الصغير المفاجئ وقال:

ـ بماذا تدمدمين أيتها الكلبة؟

ـ أسأل الله أن يرأف بي...

نثرت حبات السبحة في احتجاجها بوقاحة غير مألوفة.

قالت لاليا موفّقة بينهما:

ـ اصمتي. ألاترين؟... الصغير مريض، والرجل متعب.

ـ ليس لك ما تقولينه لي يا ابنة الأفعى. أنت فخورة لأنك تلبسين جيداً أيتها الحية!

رفع محجود[1] كتفيه فاقداً صبره، ثم قال:

ـ لو كنت لي لطردتك من البيت بركلة. أما هذا فهو صبور أكثر مما يجب.

كان محمد يرغب في أعماقه في تطليق عودة، غير أنه كان يتأسف على مال المتأخر واكتفى كعادته بأن يسكتها بضربها.

وفي اليوم الموالي زاد وضع الطفل سوءاً، وأخذ محمد يعتني به أسِفاً حزيناً. لم تفلح وصفات العجائز في إراحة الصغير. وفي الليل مات. عندما سقطت اليدان المتشنجتان بلاحراك، أمسك محمد بيديه الجثة الصغيرة وعانقها، وبقي هناك باكياً منتحباً بمرارة ومصدراً أنيناً مثل طفل.

وحول الخرق الكثيرة التي كانت تستعمل كفراش للصغير معمر تجمعت النساء

---

(١) كما جاء في الأصل، ولعل الكاتبة تقصد محجوب. المترجم.

مقرفصات، وهُنّ ينتحبن، خادشات وجوههن. وكانت عودة بفعل الحاجة وبفعل العادة توجه الأخريات، لكن كان في عينيها السوداوين بريق سعادة شريرة.

وكان محمد يبكي هناك بؤسه الأخير، موت طفله الوحيد معمّر الجميل جداً والمفعم بالحياة، والذي كان يتبعه في كل مكان، وكان يداعبه، وكان سعادته الوحيدة.

وشيئاً فشيئاً توقف الفلاح عن البكاء، وبقي هناك مقرفصاً، وجامداً ينظر إلى جثة طفله... ثم رفع اليدين المتشنجتين الصغيرتين، اللتين فارقتا الرأس الصغير ذا العينين المغمضتين... وبصرخة طويلة أشبه بصرخة دابة مجروحة، وقع على الخرق وبكى. بكى حتى طلع النهار عندما أخذت النساء منه الطفل الصغير لتغسيله ولفه في الكفن الأبيض الصغير مثل منشفة.

ووُرِيَ جثمان معمّر في التلة في الأرض الحجرية. وجمع محمد الكئيب والصامت حجارة وأغصاناً وبنى ما يشبه كوخاً أسفل شجرة تين حيث كان يلعب كل يوم رفقة ابنه. أحضر إلى هناك بعض الثياب، وتمدد على حصير عتيق، غير أن أسبوعاً آخر بدأ، ولم يكن هناك مال، فكان يتعيّن بيع الزبدة والعسل وشراء البذور بمال القبايلي، ثم كان ينبغي زرعها. ونادى محجوب على أخيه الأكبر.

قال محمد وهو يقوم بحزن من دون قوة ومن دون عزيمة من أجل العمل المفروض:

ـ لمن سأعمل الآن يا أخي، وقد توفي ابني؟

ـ إنها مشيئة الله. لا شك أنه سيمنحك ابناً آخر...

خلال غياب محمد حضر والد عودة وأخواها لأخذها، فرحلت بعينيها الجافتين حاملة معها متاعها البسيط من دون وداع أولئك النسوة اللواتي حاولن إبقاءها.

عندما رحلت قالت الأخريات وقد ارتحن: «فليغرقها البحر! يا لها من شريرة!»

ذهب محمد إلى القايد يشكو زوجته، غير أن الزعيم المسن نصحه بتطليقها مشيراً عليه بالعديد من المتاعب التي ستتسبب له فيها إذا ما أعادها إلى بيت الزوجية. فطلق محمد عودة مقيماً بعض السلام في القربي الحزين على الصغير معمر.

زرع محمد حقله بعد ذلك. كان يمشي عبر الأثلام ملقياً البذور، وكان يتألم وهو ينظر إلى تلك الأرض الحمراء التي يشقّ العمل فيها، والتي رواها بالكثير من

العرق... وهي ذي قد أخذت منه طفله الوحيد، صغيره معمر الذي كان يعدو في السابق مثل حمل سعيد في تلك الأخاديد عينها.

توقف محمد فجأة، فعلى الطين الأحمر وجد أثراً شبه ممحي ما يزال يصر على الظهور، وكان أثر قدم صغيرة عارية.

فرفص الفلاح هناك تاركاً عمله، وانفجر مرة أخرى باكياً بألم. وكانت المرة الأخيرة لأنه بعد ذلك خضع للقدر. أخذ الطين حيث أثر القدم الصغيرة بعناية، وفتتها بأصابعه، وعقدها في مكان ما بغطاء رأسه. وفي الليل وضع قطعة التراب في زاوية من قربيه مثل تعويذة، ثم طأطأ رأسه للمكتوب الذي لا يُردّ، وأخذ يعمل من أجل خبز عائلته.

... انتهت الريح والصقيع إلى جعل المحصول سيّئاً جداً، وانطلقت الصرخة الكبرى، شكوى الفلاحين التي ترددت في فصل الربيع في الأودية والتلال، وامتدت من أفق إلى أفق آخر، من سهل الشلف إلى البحر مثل إعلان فزع من الجوع الوشيك.

وكان الدائنون بلا رحمة، فبيعت الحقول وقُسّم المنتوج بين السيد فاغي والقبايليين والبايلك من أجل الضرائب.

ومن دون أرض محروثة، ومن دون قمح، انكفأ آل عيشوبة إلى بستانهم الصغير المزروع بالشمام والبطيخ الأحمر. وألفى محمد الذي كان بلا أرض نفسه عاطلاً فجأة وبلا نفع مثل طفل أو مسن عاجز، فراح يتجول حزيناً على امتداد الطرقات. أما المحجوب فعمد من أجل إطعام عائلته إلى بيع دوابه شيئاً فشيئاً. كان صامتاً هو أيضاً، خاضعاً لمشيئة القدر، وأضحى زعيم العائلة لأن محمداً كان يكثر من الغياب عن القربي ليتسكع.

وذات يوم رأى بنعالية أخاه يمشي مطأطأ الرأس في الحقل الذي كانوا يملكونه. بدا كأنه يبحث عن شيء هناك.

قصد بنعالية بخجل، وقد أحاق به الخوف، أخاه محجوب ليعلمه، فقدم إلى الحقل:

ـ ما الذي تفعله هنا يا السي محمد؟ لم تعد الأرض ملكنا، هذه مشيئة الله. تعال، لا ينبغي أن يراك أحد هنا.

ـ أتركني.

ـ ما الذي تبحث عنه هنا؟
ـ أبحث عن أثر أقدام ابني.
وأدرك محجوب أن أخاه قد أضحى درويشاً[1]...
بعد أيام كان محمد جالساً أمام كوخه صامتاً كما أضحت عادته، وكان محجوب قد أخذ المواشي إلى المورد، وفجأة عاد محجوب عدواً.
ـ السي محمد! رجال الدرك قادمون باتجاه القربي!
كان عادة ما يطلب مساعدة أخيه الأكبر وحمايته، غير أن محمداً رد:
ـ ما الذي سيأخذونه أيضاً مادام ابني قد مات، وبيع الحقل؟
ترجّل الدركيّان اللذان كان يقودهما الناطور أمام القربي، ودخلا معاً. كان أحدهما يحمل أوراقاً في يده.
ـ أين عيشوبة بنعالية بن أحمد؟
امتقع وجه بنعالية، فهمس:
ـ إنه أنا...
تقدم الدركي منه وقيده بالأصفاد. ولما بقي محمد صامتاً بعينيه المشرعتين، تقدم محجوب مرتعشاً.
وسأل الناطور:
ـ لمَ يعتقل أخي يا السي علي؟
ـ هل كان غائباً الليلة الماضية؟
ـ أجل...
ـ لقد ذهب إلى تيمزراتين وسرق بندقية من المستعمر السيد غونزاليس، وعندما فاجأه المستعمر أطلق أخوك النار عليه. أُصيب السيد غونزاليس وحُمل إلى المستشفى، وتعرّف على أخيك.
اقتيد بنعالية بينما أخذت النساء يولولن كما لو أنهن يفعلن ذلك أمام جثة ميت.
لم ينبس محمد ببنت شفة.
وبعد لحظة التقط محجوب الصفيحة وأمسك رسن الأحصنة وساقها إلى المورد.

---

(١) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

ومع أن محجوب كان كئيباً بطبعه وقاسياً ومتعطشاً للربح ولا يوجّه أي كلمة لطيفة لأي من أفراد عائلته إلا أنه كان يحمل في داخله حباً للبيت وللعائلة، حباً يغار على من هم من دمه، فأحزنته مصيبة أخيه. لم يكن يشعر بالعار، فقد كانت السرقة تُعدّ عملاً شجاعاً، وهي محظورة بكل تأكيد، لكنها ليست مخجلة. تألم لألم أخيه فقط لأنهما خرجا من البطن عينها، ورضعا من الثدي نفسه.

لماذا انقلب بنعالية على ذلك النحو السيّئ، وقد كان كل آل عيشوبة مزارعين هادئين؟ وكيف وصل إلى جرأة مماثلة؟

وبدا هلاك العائلة وقد حَلّ في نظر محجوب.

يا لها من سنة! فقد مات الطفل، وبيع الحقل، وأضحى الأخ الأكبر مجنوناً، والأخ الأصغر معتقلاً، وسيُدان بكل تأكيد! حلّت لعنة الله على عرقهم، وليس هناك إلا الخضوع لها: «الحمد لله على كل حال!»

بدا أن محمداً أضحى أخرس. كان يأخذ الأكل الذي يقدّم له من دون أن يقول كلمة.

وكانت العالية تبكي مأساتها في الزوايا المظلمة. وكانت أخوات زوجها يلمنها لأنها جلبت معها الشؤم والمصيبة، غير أنها كانت تنتظر بصبر. ولم ترد أن ترحل، فقد تولّد في قلب الطفلة الذي كانت تملكه ما يشبه تعلقاً بالسي محمد، الذي كان طيباً معها. وكانت تتألم.

وبعد عدة أشهر من الصمت، وعندما حمل محجوب نبأ إدانة بنعالية بخمس سنوات سجناً مع الأشغال الشاقة، لم يقل محمد شيئاً. لكن في اليوم الموالي، وعندما أحضرت له العالية جفنته، لم تجده في كوخه، فقد رحل منذ الفجر حاملاً عصا من شجرة زيتون ومضى باتجاه الغرب متسولاً خبزه في سبيل الله.

أضحت العالية ذلك اليوم أرملة فجمعت متاعها العتيق. وكان داخل الصندوق الخشبي الأخضر، إضافة إلى الملاحف، فستانان وزوجا أحذية كانا للصغير معمر. ألقت العالية نظرة عليهما ثم وضعتهما بين ملابسها دامعة العينين هامسة: «منذ موتك أيها الحمل الصغير حلّت المصيبة على هذا البيت...» ثم رحلت إلى ذويها.

... أخذ البؤس يتفاقم يوماً بعد يوم لأنه من الصعب على الرجل الضعيف تجاوز المصيبة. وذات يوم باع محجوب بكدر آخر مواشيه وبستانه.

ثم طلق زوجته التي كانت بلا أولاد، ورحل إلى المدينة، حيث عمل كصبي اصطبل لدى بائع خمور بالجملة.

. . . وذات يوم كان محجوب جالساً عند باب اصطبله يُعمل سكّينه في قبضة عصاه. كان فصل الشتاء يوشك على الانتهاء، وكانت قد مرت سنة على تفرّق آل عيشوبة. كان محجوب قد تغير كثيراً، وتعلم كيف يتحدث الفرنسية بعض الشيء. وكان يلبس لباس أهل المدينة النظيف، بل إنه ارتدى البذلة الأوروبية مع شاشية فقط، وكان يشرب الأبسنت مثل أي شخص آخر في مقاهي أورليانزفيل.

. . . مرّ مُتسوّل. كان ذا شعر رمادي طويل تحت غطاء بال مبرقع، وقد غطي جسده بالخرق وفي يده عصا طويلة بيده.

ـ تصدقوا باسم الله ورسوله!

اختلج محجوب فقام تاركاً عمله.

ـ السي محمد! السي محمد! أنا أخوك. . . محجوب. . . أين تذهب؟

غير أن الشيخ مر. لم تومض عيناه الكابيتان بأي ومضة ذكاء. قدم له محجوب كل ما كان لديه من قطع نقدية ووضعها في يده، وقبّل جبهته، ثم دخل إلى الاصطبل، وهناك أخذ يبكي مستنداً إلى دعامة.

مر الشيخ راحلاً إلى البعيد في ظلمة عقله المنطفئ طالباً باسم الله الرحمن الرحيم الخبز الذي رفضت أن تمنحه إياه أرض بلده الحمراء الحصوية.

ملاحظة

إبراز الحياة العربية من الداخل لفهمها. . . والمضي أبعد من الأفكار المحصّلة والصعود حتى الأصل. . . وحده محمود السعدي كان بإمكانه ملاحظة «القصص الواقعية» وجمعها بفضل الزي الذي لم يكن يميزه عن رجال الدواوير.

إقامة إيزابيل إبرهارت في تينيس متنكرة باسم محمود السعدي مكنتها من اقتسام قلق الفلاحين الواقعين تحت وطأة وضع اليد على أراضيهم من قبل الوافدين الجدد، وألهمها هذا الموضوع بعض القصص، منيرة بضوء أكثر فيضاً أسباب انتفاضة عين التركي، في قرية استعمارية تقع في التل جنوب تينيس.

نشرت قصة الفلاح أيام ٢٤ و٢٥ و٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٠٢ في الأخبار ثم في ملاحظات الطريق. (فاسكيل ١٩٠٨).

ليالي رمضان
ـ في الدوار ـ

يدفع الفلاحون كل يوم بعيون كئيبة ورؤوس مطأطأة مكاشطهم ومحارثهم الخشبية حاثّين دوابهم الهزيلة المربوطة بصيحة جشّاء.

كان المساء يدنو، ومالت الشمس الوردية باتجاه التلال الطينية المحيطة بالوادي. ومدت أشجار العرعر ظلالاً سوداء طويلة مرصعة باللون الأحمر على الأرض المتقزحة. وعاد المزارعون النشيطون إلى مشطاتهم الرمادية حيث ترتفع أعمدة من الدخان الأزرق رقيقة عالية ومائلة قليلاً. كانوا حفاة يلبسون غندوراتهم ذات اللون الترابي مشدودة بحزام جلدي أو حبل وسط أجسادهم ومرفوعة عالياً على سيقانهم البارزة العضلات، والمليئة بالشعر. وعلى رؤوسهم الحليقة كانوا يضعون أغطية من القماش الأبيض المثبت بشرائط صفراء تحمي وجوههم السمراء وكانوا شاحبين بأنوف معقوفة وعيون صغيرة.

وكانوا يقولون:

ـ الحمد لله، فقد اقتربت الساعة!

كانوا يجتمعون على التراب بين قربيين اسودّ ديسهما بفعل فصل الشتاء، وكانوا ينتظرون وقوفاً في أشعة الغروب الذهبية الوردية.

غابت الشمس وانطفأ كل شيء، وأخذت الأشياء ألواناً شديدة وحجبت الأماكن البعيدة بالضباب، وامتد الخيط الأسود[1] لليل على الشرق.

---

(١) من الخطأ الاعتقاد بأن الصيام ينتهي عندما لا يستطيع المرء تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فالخيط الأسود الذي يتحدث عنه المسلمون هو خط من الظل يمتد إلى الشرق عند بداية الليل. (ملاحظة إيزابيل إيرهارت). الأصل.

عندئذ ارتفع من كل مكان بالأفق في الأرض البدوية صوت مديد ومنتحب. فارتعشت البرانس وانشرحت الصدور الواسعة. وبعد صمت قصير أعاد الصوت العظيم تذكيره بالوحدة الإلهية. وهكذا دخل الرجال سريعاً تحت سقوف قربياتهم الواطئة. وهناك، وحول نار من خشب أخضر تعكس تقزّح عيونهم الغائرة، تقدم النساء الشابات ذلك الأكل الذي انتُظر طويلاً منذ الفجر في تعب العمل الشاق، وقد كُسرت الأصلاب، وغاصت الأقدام في الأوحال.

كانوا يدخنون ويشربون القليل من القهوة ويأكلون. ويلطّف وميضُ سعادة وجوههم الصلبة، ويتولّد الأمل في قلوبهم المعتادة على القلق من سوء الحظ المتوالد من دون سبب بالنسبة إليهم، وهم أكثر الناس حرماناً، فلربما يرحمهم الله تلك السنة، ولربما يكون المحصول جيداً، والأعباء أقل ثقلاً... إن شاء الله!

بعد وجبة المغرب، يخرج الرجال مجدداً ليجتمعوا في قربي كبير متداع يستخدم كمقهى مغربي. وهناك يشرع أصاغرهم سناً في الغناء وقوفاً في مجموعتين متقابلتين تحت وقع الأصوات المتناغمة والخشنة للكلال... وفي أماكن متفرقة يصدر همس مزمار قصبي لمسته الرقيقة للحزن الأثيري والمنتحب أو الدعاء الحر للحياة المتجولة والذي يُعدّ غناء البدو.

وعند منتصف الليل يعمّ الفرح، فيضيء النور الشاحب لنجوم فصل الشتاء المجموعات الرمادية والمخدرة على نحو مشوش. ثم يقومون ببطء، ويعودون صامتين إلى بيوتهم حيث تنتظرهم البدويات الموشومات بمظاهر عشيقات الماضي، واللواتي يقدمن لهم الوجبة الأخيرة، السحور. وتطيل بعض السجائر ما يشبه خدر تلك الساعة وينام الجميع. ولا تلبث أصوات أبناء آوى المنتحبة في الجبل، والزمجرة الخشنة للكلاب المتيقظة، وبين الفينة والأخرى الصياح الأبح للديكة، أن تأتي لإزعاج الصمت المطبق لليل الأكثر برودة والأشدّ ظُلمة.

وفي الغد، ومنذ الفجر الكئيب، ومن دون شرب، ومن دون أكل، وحتى من دون تدخين، يبدأ العمل الشاق، والرؤوس تحت الأمطار التي تنفذ إلى الثياب الرثة والأقدام في الطين اللزج والبارد.

ليالي رمضان
ـ الدرويشة ـ

كانت الغيوم المتناثرة تمضي تحت سماء سوداء مدفوعة برياح تعوي. وفي البعيد، خلف الجبال حيث تبدو ظلمة موحشة، وكأنها تفتح أبواب الظلام اللامنتهي، كان البحر يتموّج ويهدر، بينما كانت الوديان الموحلة تجأر جارة أشجاراً اجتثت وصخوراً نزعت من الخاصرات الممزقة للتلال الحمراء المرتفعة. كان البلد مخدداً ومحفوفاً بسلاسل جبلية متشابكة، متورماً بسديم من التلال حيث تلقي الأشجار بقعاً ظليلة.

كان الجو بارداً، وكان مكفهراً، وكانت تمطر...

وكانت امرأة تمشي بعناء على الحجارة الناتئة في نُقع المياه الباردة على الطريق التي لا تحمل اسماً، طريق دوار ظهرة. وكانت ثيابها البالية الرمادية تنتزع وتنفخ مثل أشرعة في مهب الريح. كانت نحيفة ومنحنية الظهر مثلما تصير عليه البدويات الحاملات للأطفال سريعاً. وكانت تتوكأ على عصا من زبوج. وكان وجهها الذي لا يشير إلى عمرها بارز العظام، وكانت عيناها الكبيرتان والجامدتان كامدتين بلون المياه الراكدة والنتنة. وكانت خُصل من شعرها الأسود تسقط على جبهتها. وكان خداها وشفتاها المزرقة بفعل البرد تزم وتلتصق على أسنان حادة وصفراء.

كانت تمشي إلى الأمام، مثل الغيوم التي كانت تمضي مدفوعة بالرياح... لربما كانت تمشي من دون أن تدرك ذلك.

وعندما تقابل الفلاحين القلائل المتوجهين إلى أعمالهم أو الرعاة كانت تمر غير مبالية وصامتة.

بعد ساعات طويلة، وفي البرد القارس، تصل إلى باب البرج في عمق واد تعلوه جبال شديدة السواد حيث تطفو سحب كابية.

ثارت الكلاب على المتسولة بزمجرتها البحاء التي لا علاقة لها بالنباح السعيد للحراس الطيبين في أوروبا. كانت الكلاب صفراء بوبر منفوش وعيون صغيرة شرسة منيرة بضوء قوي خطومها الحادة، المخلوقة لتقليب الأجساد الدامية. وحمت المتسولة بعصاها ساقيها النحيلتين.

دخلت الباحة من دون أن تنادي، ومن دون أن تطرق، وعبرت من باب منخفض إلى قربي كان يصدر منه دخان حارق وتدمدم فيه أصوات النساء.

وحول موقد من الخشب المبلل، اشتعل بين أربع حجرات، كانت نساء بملاحف بيضاء يعملن بنشاط، ويعددن الوجبة الأولى لنهار الصيام الطويل.

ـ أهلا بك يا أمي خيرة!

كذاك قالت النساء بلمسة احترام في أصواتهن. ثم فسحن مكاناً للغريبة قرب النار.

ردت الأم خيرة بكلمة ذات مقطع واحد، وقد حافظت قسمات وجهها على جمودها المقلق. ولم يبد في الماء المضطرب لعينيها أي التماع يوحي بالراحة المفاجئة التي وجدتها في القربي الفاتر.

أضحت المجموعة أكثر التحاماً. كن خمساً أو ستاً أحطن امرأة في حوالي الثلاثين من العمر، ذات ملامح صلبة تحت شاشية الوهرانيات المسنّة. كانت مثقلة بالحلي، ترتدي ثياباً أكثر نقاءً من ثياب الأخريات. وكان صوتها وحركاتها حاسمة. هي بهتة زوجة القايد الزاهد البدوي المسن والحليم المبتسم.

كانت زوجة القايد تدير حركات النساء حول الموقد والقدور بأوامر قصيرة.

غير أن المرأة المتكبرة كانت أكثر ظرفاً ولطفاً إزاء الدرويشة الأم خيرة. فقد كانت شفتاها المقوستان في ثنية شريرة تنفرجان وتبتسمان.

ـ كيف تمكنت من الحضور في جو بمثل هذا السوء يا أمي خيرة؟ ومن أين أتيت؟

ـ من مكان بعيد... غسلت البارحة ابنة الحاج بن حليمة، وكفنتها في المين... ثم رحلت ليلاً... الجو بارد... الحمد لله!

ـ الحمد لله!

رددت النساء زافرات وهن ينظرن إلى الدرويشة بإعجاب، فمنذ ليلة أمس سارت تلك الإنسانة المتجمدة والمسنة في الجو البارد والعاصفة، وحضرت مدفوعة بقدرها الغامض باحثة عن خبزها على بعد ثمانين كيلومتراً من المكان حيث مارست مهنتها الحزينة كمغسلة أموات.

سألت النساء:

ـ ألم تخافي أيتها الأم خيرة؟

ـ الله يجعل خدامه يسيرون. تفر الضباع والغيلان عندما يمر المصلي. الحمد لله!

في ذلك العقل المنطفئ وحده الإيمان بالله بقي حياً.

ولم يتبق للأم خيرة مما هو إنساني إلا حاجة في الملجأ السماوي، تجعل أكثر القلوب غلظة ترق، وتلخص لدى البسطاء كل شاعرية الروح.

حل الليل فجأة، ودخل الرجال معلنين أن ساعة الإفطار قد أذنت. لم يحترسوا من الأم خيرة، وهي امرأة بين النساء. قُدم لهم الطعام، وهم يتحدثون... وعندما سألتُ أحدهم قصة الدرويشة رواها لي مختصرة:

ـ كانت جميلة عندما كانت شابة يافعة. وكان والدها خمّاساً فقيراً جداً، وكانت تحب حراسة القطعان في الجبل. وكانت تضع أكاليل من الأزهار البرية، وتعطر ثيابها من الرند وتيمزريت المدكوك بين حجرين. وعندما كبرت عرفت الحب المحرّم، وأخذت تغيّر الرجال الذين كانوا يذهبون ليلاً لترصّد الفتيات والزوجات عند أطراف الدوار، والذين كانوا يغامرون بحياتهم من أجل سعادة محرمة.

أحبها العديدون. وكان قد أحبها فَتيان كانا ينتميان معاً إلى أسرتين كبيرتين. كانا شبيهين بأسدين. وذات ليلة تبادلا من أجلها طعنات سكين... توفي أحدهما، وانخرط الآخر في سلاح الفرسان الجزائريين فراراً من انتقام أهل الضحية.

ثم زوّجها والدها الخجل من فعل ابنته، والشريف والبسيط والذي كان يخشى الله، من خماس أشد فقراً منه وكانت له زوجتان شابتان. وفُرضت كل الأعمال المضنية على خيرة التي تمت مراقبتها بشدة، وأُرهقت بالعمل والضرب. وهكذا فقد هرمت بسرعة. توفي زوجها فلجأت إلى والدها الذي رقّ لحالها واحتفظ بها.

وذات يوم حملت عصا، وذهبت طالبة الصدقة في سبيل الله على امتداد الطرقات.

أضحت درويشة تصلي لله. وراحت تتوه هكذا. وهي مسالمة وحياتها طاهرة. تغسل الميتات وتتسوّل. وعندما تُمنَح شيئاً تقتسمه مع كل المساكين الذين تقابلهم، وغالباً ما لا تحتفظ بشيء لها. وأضحت كذلك لطيفة مثل حمل يلعب جوار أمه، ووضعتها براءة حياتها بمعزل عن كل الشرور. الله يغفر ذنوبنا وذنوب كل المسلمين!

صمت الشيخ، غير أن النظرة المتأملة لعينيه الغائرتين، ركزتا على الدرويشة. لربما كانت تقول ما أخرس لسانه. . .

عنما أكلت الأم خيرة وحمدت الله حملت عصاها وخرجت في الليل المخيف والعاصف على الرغم من إصرار النساء، خرجت بروحها المطفأة التي ما عادت تشعر بما يحرك الناس ويثير شغفهم مثل جلد الرياح وتهديد الظلمات.

ملاحظة

لأول مرة يقع تزامن بين إلهام نص وكتابته ونشره، فليالي رمضان المشكل من نصين، هو أول مساهمة لإيزابيل إبرهارت في الأخبار. ظهر في الدوار بتاريخ ١٤ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٠٢ في العدد الثالث للجريدة (السلسلة الجديدة) وتبع بالدرويشة يوم ٢٨ منه.

كتبت في الفاتح من شهر كانون الأول/ ديسمبر في يومياتها «بدأ رمضان هذا اليوم (. . .)هو رمضان الثالث منذ أن اتحد مصيرانا أنا وويحا (سليمان إهني) نحن سعيدان جداً كوننا معاً ويحب أحدنا الآخر (. . .) وفي هذه اللحظة، حياتنا هادئة ومن دون قلق الآن.» (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً). . .

لما أضحت إيزابيل إبرهارت معروفة كصحفية بسبب ما كان ينشر لها في الأخبار وبعد مدة قصيرة من ذلك، في البرقية الجزائرية، أخذت تقسم وقتها بين العاصمة والقرية الاستعمارية، وفي كلتيهما تفرض شخصية محمود السعدي على الرغم من التشهير، وكان يوقفها أحياناً لقاء متشرد أو فلاح على الطريق أو في القطار أو في عربة أو على حصان. وكان باريكون القلق «بإنهاء» العدد ينتظرها معيداً قراءة المسودات. وعندما يظهر محمود يتم ذلك عادة وهو حامل نصاً لم يجف حبره. . . وينشر سريعاً.

نشر في الدوار في صفحات الإسلام (مصدر ذكر سابقاً) تحت عنوان سهرة رمضان واحتفظ نص الدرويشة بعنوانه الأصلي.

المخدوعون

لامس دفء شمس الخريف الصافية أشجار الدلب الصفراء والأوراق المتناثرة على الرمال المعشوشبة لساحة دي روشيه، الأجمل في تينيس المتصدعة. وفي صفاء الهواء ترددت أصوات الأبواق الجذلى والمثيرة متبوعة بلمسات النوبة العربية الأكثر حزناً والأكثر إفريقية... ومر الجنود عارضين كل الأبهة العسكرية الزائفة مرتدين ستراتهم الأقل قدماً وشاشياتهم الأقل نصولاً... كان مسموحاً لهم أن يكلموا شبان عِرقهم الفضوليين أو المشدودين غريزياً إلى تلك اللوحة الزاهية تابعين مرور الجنود.

وكان المرتزقة يعكسون بطاعة وأيضاً بمتعة ماكرة في أعين الفلاحين المزايا الخارقة للحالة العسكرية، مقدمين تفاصيل عجيبة عن حياتهم.

وكان الزياني الجيلالي بن قدور من بين أولئك التابعين المنتبهين لما يقوله الجنود، وهو حطاب من قبيلة شعارير يتميز بطول قامته، وأنفه الأقنى ووجهه الرقيق، وهيئته الفخورة.

وأكثر ما شدّه في أقوال الجنود تأكيدهم أنهم لايدفعون الضرائب. كان غير مصدق في البداية، فقد دفع العرب الضريبة دوماً إلى البايلك... غير أن القهوجي مصطفى أكد له أن العسكر يقولون الصدق... وأخذ الجيلالي يفكر.

شاخ والده، وكان إخوته مايزالون صغار السن، وبعد وقت قصير سيتحمل وحده أعباء المشطة، ومسؤولية الحفاظ على العائلة، والضريبة، وأداء المبالغ التي أقرضت من المرابي الثري فاغي والزواوة...

ماذا سيفعل؟ كان حقلهم صغيراً جداً ويقع في مكان سيّئ، ويجتاحه من كل جانب انهيار الصخور والأعشاب الزاحفة... وحل موت زوجه وهي تضع ليجعل من إقامته بقُربيّه لا تُحتمل...

سيعيش من دون أن يقلق، وسيلبس ملابس جيدة، وسيأكل على الأقل جيداً، ولن يدفع الضرائب، وستكون له أسلحة. كل ذلك سحر الجيلالي وانخرط في الجندية رفقة شبان آخرين وساذجين مثله، ومتعطشين للمجهول وللظهور...

وكان الشيخ قدور المحطم بكبر السن والألم، والوالد الشيخ ذو الأسمال البالية، قد رافق باكياً المجندين الجدد القاصدين مخزن الجنود في البليدة... ثم عاد أكثر انكساراً وإنهاكاً ليأوي تحت سقف قُربيّه من الديس، وليموت هناك خاضعاً لأنها مشيئة الله.

وسرعان ما خاب أمل الجيلالي في الثكنة، فكل ما أظهروه له عن الحياة العسكرية قبل انخراطه لم يكن إلا عرضاً وخديعة، فقد ترك نفسه يخدع مثل عصفور تم اصطياده في الشبكة. كان يمر بلحظات تمرّد غير أنه خضع خوفاً من الألم والموت... وشيئاً فشيئاً أذعن للطاعة العمياء، وللعمل غير المجدي، ومن دون فائدة حقيقية، وللرتابة القاسية والسهلة في الآن نفسه التي تميّز حياة الجندي حيث المسؤولية المادية للحياة الواقعية تعوّض بمسؤولية أخرى مزيفة.

وعوّض الشراب والفجور في المواخير الفاجرة بالنسبة له حب البادية الحرة والخطيرة حيث كان يلزم المرء الجرأة والشجاعة لتعشقه البدويات ذوات العيون الغائرة والوجوه الموشومة.

تصلب قلب الفلاح وسكن، وتوقف عن التفكير في مشطة مولده ووالده وفي إخوته الصغار، فقد أضحى جندياً.

ومضت ثلاث سنوات.

وعاد فصل الخريف، الخريف الإفريقي الذي لا يقارن بتجدّده الشاحب وأعشابه الخضراء وأزهاره العطرة المحتفية في الدغل البري. وفي ظل الجبال اخضرت تلال شعارير المطلة على طريق مستغانم والمنفذ البحري المتناغم للخليج الأزرق الكبير، الهادئ جداً والموحد جداً مع بعض الأخاديد الوردية فقط.

مر الجنود العاملون على الطريق المبللة بفعل التساقطات المطرية الأولى الباعثة على الحياة، كئيبين وملوثين بالطين. وامتزج على وجوههم السمراء والصلبة العرق والطين، وغالباً ما يمر كمُّ القماش الأبيض ليمسح بحركة ساخطة جبهة مبللة... وتُغير الأكتاف التعبة بشتيمة أو تجديف أو كلمة بذيئة النهشَ الواخز لحمّالات البردعة الثقيلة.

ومنذ أن حضرت فرقته العسكرية في صدف «العمليات» إلى ذلك المكان في المنطقة الجبلية والمخددة لتينيس شعر «الزياني» الجيلالي بقلق غريب وخجل وندم. . . .

غير أن الفرقة مرّت عند سفح تلال شعارير فنظر الجيلالي إلى التل حيث كانت مشطته قرب القبة، والمقبرة حيث يرقد والده الشيخ الذي هجره. . . لقد تفرق الإخوة وصاروا عمالاً لدى المستعمرين يلبسون ثياباً أوروبية رثة وقد تغيروا متقلين من مزرعة إلى أخرى. وبيع القربي. رمق الجيلالي فلاحاً بنظرة غريبة. كان ينتزع الأشواك من الحقل الذي كان يملكه في الماضي، حقل «الزيانيين» القديم. وكان في تلك النظرة اليأس المروّع لداية وقعت في الفخ، والكراهية الغريزية لدى القروي الذي أخذت أرضه منه، وحزن المنفي. . .

آه! دوت في تلك اللحظة الموسيقى الكاذبة التي ما عادت تخدع الفلاح، وما عادت تشده. أحس ثقلاً في قلبه وأدرك أنه كان ساذجاً في ما أقدم عليه، وأن مكانه ليس تحت لباسه المقنّع، ولكن على الأرض المغذية تحت ثياب المزارع الرثة في الحياة الفقيرة، لكن الحرة، لأجداده!

وبحركة مهتاجة، ويطرف كمّه مسح عرق وغبار جبهته ودمع عينيه. . . ثم طأطأ رأسه، وأكمل طريقه، لأن ما من أحد يستطيع أن يصارع مكتوب الله.

ملاحظة

يمنح نص المخدوعون المستوحى من الموضوع نفسه لنص الفلاح رؤية مختلفة عن تجنيد الجنود المحليين، وانعكاساته بالنسبة لأولئك الرجال المعتادين على البؤس، ولكن على الحرية أيضاً.

والتصق اتجاه القصص المتسمة بطابع سياسي أكبر في حرصها على إلقاء الضوء على البؤس الذي يخفيه المستعمر بإقامة إيزابيل إبرهارت في ميتيجا والتل حيث يمارس قانون «المحتلين» على نحو أكثر قسوة.

نشر هذا النص في الأخبار بتاريخ ٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٣، ثم في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

رجل الفيلق

كانت الوصفة المعنوية التي وصل إليها تجوال ديمتري أورشانوف وقلقه وأبحاثه أن يخلق عالماً شخصياً ومنغلقاً، يحاط بجو حالم، ويُبعد كل ما هو عدائي في الخارج، وألا يرى أو يحس من الناس والأشياء إلا ما يمتعه. فعلى امتداد خمس سنوات في الفيلق الأجنبي، وفي وسط محصور ورتيب وبعيد عن الصراعات من أجل إرضاء الحاجات المادية، تمكن أورشانوف من تحقيق جزء كبير من برنامج الأنانية الجمالية ذاك.

غير أن انخراطه كان يوشك على الانتهاء وطرحت القضية المقلقة للمستقبل القريب، واضعة روح أورشانوف في اتصال مباشر وأليم مع الحقائق التي أراد الفرار منها.

ومع ذلك، فقد كان هادئاً في التزامه التفكير ببرود تقريباً وأن يحذر على الخصوص من أي قرارات متسرعة. لم يذكر إلا الكثير من سديم الأفكار والأحاسيس، ومحاولات الحركة التي عبرت فكره كمُنظِر.

كان ابن الشعب، تيتّم وهو بعد صغير السن فرباه عمه، وهو شماس إنجيلي فقير لقرية شبه أمّية. ومع ذلك تمكن ديمتري بفضل التضحيات الجمّة لعمه من أن يكمل دراسته الثانوية، ولما حرمه الموت من كل دعم، أخذ يكسب قوت يومه كمعيد دارساً الطب في موسكو. لكن سرعان ما نفر من دراسته، ولما كان متحمساً ثائراً فقد انخرط في الحركة الثورية الروسية، وكان عليه الفرار إلى الخارج.

استُقبل في جنيف من قبل جمعية دعم الطلاب الروس. وكان بإمكانه ولوج الجامعة، لكن عوض أن يكمل دراسته انهمك في «البحث عن طريقه». جرّب ديمتري

كل شيء، فقد كان خطيباً في النادي، ومهتماً بالأدب ورساماً وموسيقياً غير أنه لم يثبت في شيء. كان يشعر أن في نفسه منابع طاقة خصبة وحيوية، وكل الميادين التي بدأ فيها بدت له شديدة الضيق.

وكانت لديمتري الميزة النادرة للقدرة على النجاح في كل محاولاته، وكل ذلك من دون عناء تقريباً. وكانت تلك الميزة ثمينة لما يتمتع به من إرادة حازمة وتفكير منظم، غير أنها كانت كارثية على صعيد القلق المعنوي والعقلي حيث كان يتخبط ديمتري، ومكّنته تلك الميزة من تجاوز نقائصه، فوعد نفسه بأن يربح الوقت الضائع، فيما بعد. . .

وهكذا مرت ثلاث سنوات. تعب رفاق ديمتري من تقلبه الذي لا يشفى، وفكروا بأنهم لربما أخطأوا في دعم ذلك الطبع غير المنظم مادياً في وقت يعاني فيه الكثير من العمال العاديين في الشدة والبؤس. وعند بداية تلميحات رفاقه اعتقد ديمتري أنه لم يُفهَم، فثار وأحس نفسه شخصاً زائداً، فرحل.

كان من دون موارد، ومن أجل تعزية نفسه فكر في المبادئ التولستوية حول جودة العمل اليدوي، فأضحى عاملاً بمحض إرادته، إذ عمل فلاحاً وحداداً، ومبيّضاً متجوّلاً، فساح في سويسرا والألزاس والسافوا الجبلية البائسة رفقة مبيّض آخر كان يدعى جيل بيران.

غطت الثلوج الطرق الخالية، وهبت رياح الشمال في عاصفة جمدت أقدام العمال المتجولين. وشح العمل والخبز، فعمّ قلبيهما أسى عارم من القمم البيضاء والوادي الأبيض الميت. وذات يوم، وبعد حديث مع متشرد آخر في المقهى، أعلن بيران لديمتري أنه سيذهب مع الرفيق لينضم إلى الفيلق الأجنبي ليأكل كفاية ولينعم بالهدوء.

الذهاب إلى مكان بعيد جداً في إفريقيا، وبدء حياة جديدة. ابتسم ذلك لروح أورشانوف التواقة إلى المغامرة، فضلاً عن أنه بدأ يشعر منذ بعض الوقت أن عملاً تلقائياً ما يزال غامضاً كان يحدث بداخله، وشعر بحاجة متزايدة إلى الانكفاء على ذاته، وأن يحلل نفسه، ويتبع روحه التي كانت تعبر كما يقول «فترة تفريخ». وهكذا تبع أورشانوف المتشردين إلى سان جون دو مورين حيث مكتب التجنيد.

ومن دون علم منهم اختاروا عملاً بنصيحة مجند سابق شجعهم «الفيلق الأجنبي الثاني».

*
* *

تذكر ديمتري الرحلة السريعة والذهول اللذيذ تقريباً الذي شعر به عندما ألفى نفسه في فصل ربيع معطر عند وصوله إلى وهران.

ثم أُلبس كجندي، وأُعطي رقم قيد، وتدرب على روتين المهنة. وكان يمر بلحظات تمرّد ونفور... غير أنه كان مستعجلاً لينغلق على نفسه، ويتخدّر نوعاً ما، وانتهت تلك «العملية» براحة فريدة في أفكاره ومشاعره.

وغاب خوفه الذي أثار خلال سنوات رغبته العارمة في الحركة والمظاهر واستحالة إرضاء الحاجة المفرطة لقواه. ترك ذلك الخوف الفظيع مكانه لهدوء كبير، ولمظهر روح متأملة جداً. انعزل تماماً ذلك الرجل الذي كان محاطاً دوماً من الناحية المادية بأشخاص مربكين ومثرثرين وبروح معارضة وشريرة كانت تولد من الاتصالات الطارئة مع الناس. وبلغ ذلك الرجل الذي لم يكن وحيداً تقريباً أبداً حدّ أن يعيش مثل معتكف حقيقي، ولم تعد حياته أكثر من حلم.

وكان يخرج كل مساء تقريباً بعد العشاء، ويذهب خارج المدينة متجولاً على امتداد الطرقات الترابية، ثم يجلس على قمة إحدى التلال الحمراء حيث زرعت أشجار المصطكا والنخيل القصيرة. وكان ينظر إلى النهار ينقضي مضيئاً سعيدة والوادي والجبال بلون قانٍ وذهبي... ويبدو كل ذلك محترقاً لفترة قصيرة، ثم تصعد ظلال زرقاء كبيرة من الأسفل باتجاه القمم، وينطفئ كل شيء. وبسرعة تقريباً تضيء النجوم الشاحبة السماء الصافية التي ما تزال خبازية اللون.

وشعر ديمتري بكل حزن تلك الأرض الإفريقية يقتحمه كبيراً لكن بعذوبة غير محدودة.

وكان ذلك التأمل الهادئ لحياته منذ أن اعتقد أنه فهم أننا نحمل سعادتنا في داخلنا، وأن صورتنا هي ما نبحث عنه في المرآة المتحركة للأشياء.

... وكان عليه في تلك الفترة إيجاد حل لذلك المشكل العاجل. هل سيبقى ويمدّد تلك الحياة البطيئة التي يحب لخمس سنوات أخرى، وعندئذ يبدأ شبابه في

الانحدار لأنه سيبلغ السادسة والثلاثين، أم سيذهب حراً ليُبعث متخلصاً من جنونه القديم؟

كان عقله يخبره بأنه لم يعد محتاجاً إلى البقاء هناك، فقد تأقلم لأن الآخرين اهتموا به، وبالتالي يمكنه البقاء في تلك الجزائر، التي يحب ويسمو بها إلى وطن بالتبني.

خرجت روحه منتصرة وقوية من كل الصراعات التي خاضتها. واخترق السر الثمين ليكون سعيداً، وشعر بأنه يقع تحت وطأة حاجة ملحة إلى الحرية، وحياة التسكع.

*
* *

. . . ضرب الألمان السكارى بقبضاتهم الرخام الدبق للطاولات في مقهى درابو بعد العشاء، وغنوا ملء أصواتهم قاطعين غناءهم أحياناً ليتشاجروا.

وكانا هناك طالبان تشيكيان كعريفين تحت التدريب أجبرا ديمتري على اتباعهما إلى تلك الخمارة، وكانا يتحدثان عن النظريات الاشتراكية. ولم يكن أورشانوف المستند إلى الطاولة يسمعهما. كان يتألم، فإذا ما كان سيجدد انخراطه فقد بقي له يوم واحد، ولم يكن قد اتخذ قراره بعد. وأضحت حرارة وثرثرة الحانة لا تطاقان بالنسبة له. قام الألمان، ودفعوا ديمتري والتشيكيين تحت ذريعة الشرب معهم. . . وللمرة الأولى لربما منذ سنوات عديدة شعر ديمتري بكل القبح المحيط به. . . فخرج.

خارج المدينة، وفي انعكاس شمس الغروب، وعلى الطريق البيضاء، كان بدو يرتدون أثواباً بالية ألقت الشمس عليها مزقاً أرجوانية، دافعين أمامهم الإبل، ومغنين برتابة وحزن. وأمامهم، أعلى تلة منخفضة، كانت تبدو وكأنها تنتهي، ينفتح الأفق ذهبياً تماماً.

كانت الحرية جيدة، وكانت الحياة مرحِّبة وجميلة لمن يعرف أن يفهمها ويحبها. . .

قرر ديمتري الذي هدأ أخيراً أن يرحل، وأن يوسّع حلمه، وأن يمتلك كعاشق ومحب للجمال الحياة الجميلة جداً التي تقدّم نفسها له.

*
* *

ـ الوداع أيها الرقيب شميتز!

ـ الوداع أيها الروسي! وتبع ضابط الصف الجندي الذي رحل حراً إلى الأبد بنظرة متأملة ولربما غيورة.

كان الجو صافياً، فقد مرت أيام فصل الشتاء الفظيعة، وكانت الشمس محتدمة وباسمة في السماء الشاحبة. وشعر ديمتري في أعماق قلبه بفرح كبير يغمره حيال تجدد الأشياء، وللحرية التي حصل عليها أخيراً.

ابتعد سعيداً لكن من دون ضغينة عن الثكنة الكبيرة حيث تألم كثيراً، وحيث تجددت روحه.

ذهب ديمتري أورشانوف من مزرعة إلى مزرعة، عاملاً لدى المستعمرين... ألفاهم مختلفين عن قرويي فرنسا، وغالباً ما أسف على الوقت الذي اقتسم فيه الحياة الصعبة مع الناس الطيبين في السافوا، غير أنه أحب البلد الحارق والرائع، ولم يرد أن يرحل عنه.

وعند نهاية حصاد فصل الشتاء الأخير بقي ديمتري كعامل مداوم لدى السيد موري الذي كان راضياً عن ذلك الخادم النزيه والصموت، والعامل البارع المكتفي بأجرة زهيدة جداً، تعادل تقريباً أجرة عامل من الأهالي.

وكانت مزرعة السيد موري الكبيرة جداً تقع بين أشجار الأوكاليبتوس والفلفل الشفاف على تلة منخفضة تطل عليها هضبة ميتيجا. وفي البعيد كانت جبال الأوارسينيس الكبيرة تلتمع بلون أزرق، وتطل على أورليانز فيل بأسوارها التي تجاوزتها البساتين، ومجرى الشلف المتعرج.

بنى دميتري قربي منعزل على ضفة واد اجتاحه الغار، وزرع بعض الأوكاليبتوس لينعزل. وكانت أكوام التبن الكبيرة المصفرة بفعل فصل الشتاء تخفي مباني المزرعة، وأضحى الكوخ البدائي بالنسبة لديمتري مسكناً حقيقياً حيث استقرت حياته الجديدة الهادئة جداً وغير المعقدة على الرغم من كل ما كان فيها من أشياء متكلفة ومبتكرة.

بدت الحاجة المادية لديمتري كأحد شروط الحرية حد أنه توقف منذ مدة طويلة عن شراء الكتب والصحف مكتفياً بحسب تعبيره بقراءة الجمال في كتاب الكون الكبير المشرع تماماً أمامه...

وهكذا تمكن ديمتري أورشانوف من العيش وفق صيغته بأن يتحكم في نفسه، ويتحكم في الأوضاع... ولم يكن يفهم أنه إذا ما تحقق له ذلك النصر فلأن الأوضاع لم تكن معادية له حتى ذلك الوقت، وأن سلطته عليها لم تكن إلا خديعة...

*
* *

وكانت طاطاني خادمة السيدة موري فتاة جميلة ممشوقة القد، سمراء البشرة، عيناها كبيرتان متباعدتان بعض الشيء لكن بشكل جميل، وفمها صغير وابتسامتها عذبة ناعمة. وكانت ترتدي ملابس البربريات المدنيات، ومنديلاً عقد خلف شعر رأسها المفروق، وغندورة شدت على خاصرتها بمنديل، وقميصاً أبيض بكمين فضفاضين واسعين. ولم تكن تضع خماراً مع أنها كانت تبلغ من العمر ست عشرة سنة. ولربما كان لباسها الذي يشبه كثيراً لباس قرويات بلده نقطة انطلاق ديمتري لشعور سيتطور فيما بعد على نحو غير متوقع.

وكلما زاد اختلاط ديمتري مع الرعاة والمزارعين العرب ألفاهم أكثر تشابهاً مع الموجيك الفقراء والبؤساء في بلده. كانوا يتصفون بالجهل العميق نفسه، ومستنيرين فقط بإيمان بسيط وثابت بالله وبآخرة حيث يعمّ العدل الغائب عن هذا العالم... كانوا فقراء أيضاً، وبؤساء أيضاً، وخاضعين خضوعاً سلبياً لسلطة الإدارة القوية التي كانت هنا كما هناك، سيدة مصيرهم. وكانوا يطأطئون رؤوسهم أمام الظلم بالانقياد الحتمي عينه... وتعرّف ديمتري في غنائهم الذي هو عبارة عن شكوى حزينة ورتيبة أو ما يشبه صراخاً حزيناً في بعض الأحيان، على الحزن العميق للأغاني الشعبية الحزينة التي هدهدت طفولته. ولما كان ابن الشعب، فقد أحب البدو متجاوزاً نقائصهم لأنه لم يكن يعرف أسبابها... وبدت له طاطاني الخادمة اليتيمة كتجسيد ساحر لذلك العِرق. وشعر في البداية بمتعة جمالية بسيطة في النظر إليها تروح وتجيء في الباحة أو في المنزل. وكانت لطيفة جداً ورشيقة جداً.

وكانت طاطاني تبتسم في وجه ديمتري في كل مرة تراه فيها. أثار ذاك الشاب الوسيم من نوع مجهول، بشعر رأسه الكستنائي اللون والطويل بعض الشيء والمتموج، وبعينيه الرماديتين الواسعتين الوديعتين جداً والمتأملتين جداً، الخادمة الصغيرة. كانت قد فقدت قبل وقت قصير خالتها العجوز التي كانت تراقبها بصرامة،

وتجعلها تتصرف بتعقل. ولم تكن طاطاني وقحة مثلما هو حال الخادمات البربريات عادة. تعلمت مبكراً جداً أمور الحب، وأضحت تشعر باضطراب لذيذ في حضوره. وعندما يكون غائباً تفكر من دون أن تسعى إلى محاربة تلك الرغبة، كم سيكون الأمر جيداً أن تكون له، غير أنها لم تكن تجرؤ على القيام بمقدمات له، واكتفت بالسعي إلى رؤيته كلما أمكنها ذلك.

لم تكن السيدة موري البدينة شريرة، غير أنها لما كانت تعتقد صدقاً بأن الأهالي ينتمون إلى عرق أدنى، فقد كانت متشددة اتجاه طاطاني، وعادة ما كانت تعنفها بل كان يحدث أن تضربها. وكان ديمتري يشعر بنوع من الشفقة نحو الخادمة الصغيرة صارت أكثر رقة. وسرعان ما حدثها، سائلاً عن عائلتها. لم يكن لطاطاني إلا أخ، كان عاملاً في تينيس، ولم يكن يهتم لأمرها، ولم تكن تفكر فيه. وكان ديمتري عفيفاً عن قناعة، ولمدة طويلة لم يفكر حتى في إمكانية حب طاطاني. سعى ديمتري الهادئ إزاء ضميره إلى الاختلاط بالخادمة. . . غير أنه أتى اليوم الذي أحس فيه فعلاً بأنها لم تعد بالنسبة له مجرد رؤية لطيفة تزين حياته فقط، فقد شارك طاطاني الاضطراب الذي كانت تشعر به عندما يكونان وحيدين.

لكن هناك أيضاً، ولما لم يكن في إحساسه الجديد شيء شنيع أو منحرف، فقد كشف ذلك لها. كان ذلك الإحساس لذيذاً فاستسلم ديمتري له. وكانت طاطاني الأقل خجلاً تفحصه بدورها. كانت تتحدث اللغة الفرنسية بعض الشيء، وأضحت اللغة العربية مألوفة لديمتري. أنصتت طاطاني إلى حكاياته متفاجئة ومفكرة.

قالت له يوماً:

ـ أنظر إلى قدر الله، ولدت بمكان بعيد جداً لا أعرف حتى أين يقع، لأن ذلك البلد الذي تتحدث عنه يبدو لي عالماً آخر. . . ثم قادك الله إلى هنا، قربي أنا التي لا أعرف شيئاً، والتي لم أذهب أبداً أبعد من الأسنام أو تينيس!

وكانت لطاطاني أوقات من الحزن المتأمل الذي كان يفتن ديمتري. وبالنسبة له، وعلى الرغم من كل البساطة الطفولية وسلوك المرأة، فقد كان هناك حجاب من الغموض يكتنف تلك الفتاة من عِرق آخر مضيفاً إلى جاذبيتها.

ولما كان ديمتري صادقاً لم يلم نفسه على الفكرة التي خطرت في باله، والتي

فتنته بأن يجعل طاطاني صديقته وعشيقته. ألم يكونا حرين بأن يحب أحدهما الآخر فوق كل الحواجز البشرية وكل الأخلاق المتكلفة والمنافقة؟

*
* *

... غابت الشمس الحمراء خلف الجبال الحادة التي تطل على البحر الأبيض المتوسط، من تينيس إلى مستغانم، وكانت أشعتها المائلة تمضي عبر ميجاجا[1] كموجة من نار، وبدت الأشجار القليلة، أشجار الأوكاليبتوس الهزيلة والفلفل المتموجة مثل نبات الصفصاف النائح، والمباني القليلة لمزرعة موري، وكأنها كبرت وأضحت عظيمة وزينت بهالة أرجوانية. وكان يعمّ صمت مطبق البادية حيث توقف عمل الرجال.

كان ديمتري وطاطاني جالسين خلف الأكوام الحامية صامتين ويد أحدهما في يد الآخر، لأن الكلمات كانت ستزعج عبثاً السحر العميق، والرقة التي يشق وصفها لتلك اللحظة.

أخيراً، وقبل أن تقصد طاطاني المزرعة، وعدت ديمتري هامسة بأنها ستأتي ليلاً إلى قربيه.

بقي ديمتري وحيداً متفاجئاً أن السعادة أتت إليه على ذلك النحو وحدها في الحياة التي بدت له في بداياتها البعيدة جداً عدائية وقاسية ليعيشها. مُنح له الهدوء والتأمل وثمل الحب الفاتن بسخاء، وعاد بامتنان إلى سنواته الخمس في العمل النفسي هناك في أرض سعيدة... سعيدة! السعيدة... من المؤكد أن تلك المدينة الصغيرة المفقودة حيث تعلم أن يكون سعيداً، وسط «عديمي الجنسية» الحزانى لقسوة الأشياء، كانت مباركة.

*
* *

ومنذ تلك اللحظة لم تعد حياة ديمتري أورشانوف إلا مجرد حلم عذب إلى جوار الخادمة البدوية الصغيرة. وكانت تلحق به تقريباً كل ليلة في ظل قربيه. وكانت تعنى

---

(١) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

بمتاع العامل المتواضع وثيابه القليلة مثل زوجته. وفي سكينة حبهما، وفي الصمت المطبق لليل، كانا يتبادلان كلمات صبيانية، كلمات الحب المهدهدة دوماً.

ما كان مستقبلهما؟ لم يفكرا في ذلك إلا ليتصوراه كتتمة غير محددة لسعادتهما، التي بدت لهما باقية ببقائهما.

ومع ذلك، كانت توجد هوّة غموض كبيرة بين روحيهما شديدتي الاختلاف. فقد كان ديمتري يراها بسيطة جداً، وتقريباً أكثر تعقيداً من عصافير الهضبة.. لكن تلك العصافير كان ضاحكة وقافزة حيناً، وحيناً آخر حزينة فجأة، ولا تشبه عصافير بلد الشمال البعيد حيث ولد ديمتري، فقد كانت فيها كل الموروثات القديمة للعِرق السامي التي زادت رسوخاً في الطبيعة الإفريقية الملائمة في الظل الحزين للإسلام. وكان ديمتري بالنسبة لطاطاني لغزاً، وكانت تحبه بكل القوة التي تستطيع أن تحب بها مع أنها كانت تأسف على كونه كافراً. ومع ذلك فقد قدّرت بغريزتها أنه عالم إذ كان يرد على كل أسئلتها. قالت له يوماً بإعجاب:

ـ أنت عالم، وتعرف كل شيء...

وبعد صمت قصير أضافت بحزن:

ـ أجل، أنت تعرف كل شيء، إلا شيئاً لا أجهله حتى أنا الجاهلة تماماً...

ـ وما هو؟

ـ ألا إله إلا الله، وأن النبي رسول الله.

وبعد أن نطقت اسم النبي المبجل، أضافت بورع:

ـ صلّى الله عليه وسلّم!

أمسك ديمتري يديها، وقال:

ـ حبيبتي طاطاني، صحيح أني لست مسلماً.. لكني لست مسيحياً، لأنه لو سعدت بالإيمان لفعلت ذلك بكل تأكيد على طريقة المسلمين...

بقيت طاطاني متفاجئة، ذلك أنها لم تفهم لماذا لا يتحول ديمتري ليصير مسلماً ما دام ليس رومياً... لأنها لم تكن تتصور أن ثمة إنساناً لا يمكنه الإيمان بالله...

دامت سعادتهما طيلة فصل الصيف وشهرين من فصل الخريف من دون يأتي ما ينغصها.

لكن ذات يوم جاء الأخ الذي تخلى عن طاطاني والذي نسيته إلى المزرعة معلناً أنه وعد بتزويجها لأحدهم.

حاولت الاحتجاج غير أن القانون كان ضدها، وكان عليها الامتثال. وكان عليها حتى من دون أن تتمكن من رؤية ديمتري مجدداً أن تغطي وجهها لأول مرة في حياتها وأن تركب دابة بطيئة تابعة أخيها إلى دوار مجاور حيث كان أهل زوجته.

استقبلت باحتقار تقريباً.

ـ لا شك أنك سعيدة جداً كون رجل شريف يريد أن يتزوجك، وأنت وضيعة وخادمة رومي، رآك الجميع تفجرين مع العمال.

كذاك حدثها أخوها.

مُنحت طاطاني إلى بن زيان، خمّاس السيد موري. وهكذا عادت إلى الإقامة بأراضي المزرعة قرب ديمتري.

عندما علم أورشانوف برحيل طاطاني تملّكه إحساس بالثورة أقرب إلى الهيجان. كان ألمه شديداً ولا يحتمل، لكنه كان عاجزاً أمام الأمر الواقع الذي يفرضه القانون.

فكل مسعى من قلبه كان سيزيد مصير طاطاني سوءاً.

وبعد عناء العمل اليومي كان أورشانوف بقضي لياليه متجولاً حول قربي بن زيان المنعزل.

تزوج ذلك الرجل الميسور بعض الشيء والغريب عن القبيلة طاطاني لأنها أعجبته من دون أن يأبه لما كان يقال، فاحتفظ بها بغيرة.

وكان بن زيان يُجبَر أحياناً على الذهاب إلى الأسواق البعيدة وقضاء الليل فيها. وكان يترك طاطاني تحت حراسة قريبة عجوز، ما إن يحل الليل حتى تنام، وكان كل شيء سيّان بالنسبة لها ما دام لا يزعجها أحد.

وما إن علمت طاطاني بأن ديمتري يرقبها حتى تجرأت وخرجت. تناديا في الظلمة الحالكة هامسين.

احتضنها ديمتري مختلجاً بين ذراعيها، وبكيا حزن فراقهما.

ومنذ تلك الليلة بدأ عذاب مجهول بالنسبة لديمتري. لم يعد يعيش إلا بالرغبة الحانقة وأمل معاودة رؤية طاطاني، غير أن الفرص كانت نادرة، وأنهك ديمتري

قضاؤه الليالي في الترقب، نائماً بضع ساعات في العشب المبلل تحت الأمطار والرياح التي أضحت باردة. كان ينتظر هناك بعناد، مضطرباً لأدنى صوت، منادياً في بعض الأحيان بصوت هامس. وأضحى كل ما ليس طاطاني غير مهم بالنسبة له.

وكان ينجز كل عمله كعامل بفعل العادة، وتقريباً من دون وعي. أضحى قربيه خرباً ولم يصلحه، وأهمل نفسه، وكان بإمكان الجميع أن يخمّنوا سر علاقته الغرامية مع طاطاني، بالنظر إلى ذلك التغيير فقط. وفي بعض الأحيان، وبعد ليال من القلق، الليالي الفظيعة التي لا تأتي فيها، تقلق أفكار ديمتري ويضطرب... أحس بالحيوان الذي يرقد داخل كل إنسان يستيقظ داخله... أراد البحث عن الراحة في القتل، قتل بن زيان، ذلك المغتصب، واستعادتها لأنها كانت له!

وكان بن زيان يمر أحياناً أمام المزرعة. كان طويل القامة، وقوياً بوجه كاسر وبعينين صهباوين كبيرتين وبنظرة قاسية وهمجية وجريئة...

... وهكذا، وبضربة واحدة، وعند أول دفعة وحشية للواقع، حطم كل البناء الجميل الذي كان ديمتري يسميه سلامته الأخلاقية على نحو بائس. بدأ يرى خطأه، ويفهم أنه ما من أحد، هو أو غيره، يمكنه تجاوز القوانين المجهولة، القوانين المستبدة التي تحدد مصائرنا في الأرض. غير أن ضيقاً كبيراً اجتاحه حد أنه ما كان يستطيع أن يتعقل.

... حظيا ببعض اللقاءات العابرة... كما لو قرَّ بينهما الألم المشترك! وكما لو كانا يتفاهمان ويتحابان على نحو أفضل وأكثر نبلاً منذ أن حُطّمت سعادتهما الهادئة الماضية!

*
* *

غابت الشمس، وعاد ديمتري من الحقول. كان الليل يوشك أن يحل ليرى طاطاني. وعدا ذلك لم يكن يوجد شيء بالنسبة له. ولما كان يقود الأبقار إلى المورد سمع في البعيد طلقتي بندقية متتابعتين... بعد ذلك بلحظات مر رجال يعدون في اتجاه الطريق صارخين. دخل صلاح الناطور إلى الباحة مسرعاً طالباً السيد موري:

ـ هناك بن زيان قتل زوجته طاطاني بنت قدور بطلقتين من البندقية...

بقي ديمتري جامداً، وغارقاً في خدر مشوّش، وفي رعب حزين. ثم أحس ألماً

حاداً عندما فكر بأنه هو الجاني، وأنه قاد طاطاني إلى الموت تحت ذريعة حبها، وأن ذلك كان في الواقع إرضاءً لشغفه الأناني!

تبع ديمتري أناس المزرعة الذين كانوا يعدون إلى القربي عبر الحقول، كما لو أنه في قلب حلم. وفي الخارج كان بن زيان الوسيم جالساً على حجر، وقد قُيّد معصماه، تحت حراسة الناطور وبدويين. كتب القايد محضره بسرعة. وفي القربي حيث دخلت الحشود كانت النساء ينتحبن حول الجثة المسجاة أرضاً. أزاحت السيدة موري الغطاء عن وجه طاطاني. كانت شاحبة بعينين مغمضتين، وبفم شبه مفتوح، فبدا كأن الشابة نائمة. وعلى غندورتها الوردية أشارت بقع حمراء إلى الجرحين في صدرها. روت القريبة الواقعة بسرعة. عاد بن زيان على نحو مباغت من سوق كافينياك قبل اليوم الموعود، وكان خمّاس آخر قد حذره من أنه رأى زوجته في الليلة السابقة تخرج لتقابل رجلاً في الحقول. لا شك أن ذلك الرجل كان عشيق طاطاني السابق، العامل الروسي. وعند عودته فحص بن زيان ملابس زوجته وحذاءيها، وكانت كلها تحمل آثار الطين. وهكذا دفعها إلى حائط القربي وأفرغ بندقيته في جسدها.

كانت عينا بن زيان جامدتين تحدّقان بعناد أمامه مباشرة، والتمع فيهما كبرياء حزين. فكر ديمتري بأن من واجبه أن يقول الحقيقة أمام الحاضرين حتى لا يُحكم على ذلك الرجل بقسوة... لم يقو على البقاء هناك لفترة أطول، فرحل وقد أحس بأن كل شيء لم يعد ذا أهمية، وأنه ما عاد يرغب في شيء... انهار كل شيء محطماً إياه، ولم يتبق له شيء إلا ألمه الحاد وندمه.

... تتعرج الطريق وسط التلال الحمراء الخالية حيث تنمو المصطكا السوداء وأشجار النخيل الصلبة القصيرة.

كان ديمتري أورشانوف يتجول ببطء شديد تحت معطفه الأزرق في الطريق الرمادية، وينظر وقد هدأ إلى الأبد إلى شمس الغروب الحمراء والأرض التي بدأت تعتم.

بعد انهيار محاولته الأخيرة للعيش الحر أدرك ديمتري أن مكانه لم يكن بين الناس، وأنه سيكون دوماً ضحيتهم أو جلادهم، فعاد إلى هناك، إلى الفيلق، برغبة

وحيدة في أن يبقى هناك إلى الأبد، وأن يرقد في يوم من الأيام في ركن «من كانوا بلاجنسية» بمقبرة سعيدة. . .

ملاحظة

مرة أخرى ها هي تيمة «البوهيمي الروسي» و«على غير هدى» التي أضحت المتشرد، الرواية غير المكتملة عند وفاة الكاتبة. فالمخطط متاشبه تقريباً (يحمل البطل الإسم نفسه مع اختلاف حرفين فقط، إذ كان أورشانو في المتشرد). غير أن الكاتبة تمضي أبعد من ذلك، ففي الرواية لم يكن لدى ديمتري الوقت لاستمراء لذاذات الحياة المدنية في الجزائر.

كتبت إيزابيل إبرهارت هذه القصة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٠٢ في تينيس قرب مناظر ميتيجا وأوارسينيس التي اختارتها لتضع فيها محاولة تأقلم بطلها.

توجد في ديمتري صورة منها وشيء من أخيها أوغستان الذي انخرط مرتين في الفيلق، وبطبيعة الحال، ذكرى الطلاب الروس الذين عرفتهم بجنيف.

رجل الفيلق هي «المساهمة» الأولى المنشورة بالبرقية الجزائرية بتاريخ ١٢ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٠٣، وأعيد نشرها في الأخبار في ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٠٥، وظهرت قصة رجل الفيلق تحت عنوان الروسي في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

مجرم

في المنحدر الرطب المحاط بالجبال الجرداء العالية والصخور الحمراء شُيّد حديثاً «مركز» روب بيير.

اختيرت أراضي المستعمرين في تراب أولاد بوناقة، حيث كانت الحقول مع ذلك حجرية حمراء وبائسة... غير أن «المسيّرين» و«المفتشين» وموظفين آخرين بالجزائر، المكلفين «بإعمار» الجزائر والذين كانوا يحصلون على مرتبات من المقاطعة، لم يحضروا هناك أبداً.

وعلى امتداد شهر جمعت الأوراق المكلفة وغير المجدية لمنح ما يشبه شرعية لما كان في الواقع خراب قبيلة كبيرة ومسعى ظرفياً للمستعمرين الجدد.

ما الذي يهم؟ فلم يزعج أحد راحته سواء من القبيلة أو من المستعمرين للذهاب إلى مكاتب الجزائر...

وفي منحدر الجبل الغربي، كان قسم بوعاشور يحتل منذ زمن بعيد أجود أراضي المنطقة. وكانت بينهم قرابة، ويعيشون في أرضهم من دون أن يهتموا أبداً باقتسامها.

غير أن نزع الملكية حضر، وتم الشروع في تحقيق مطوّل ومشوّش حول الحقوق الشرعية لكل فلاح، وحول الأرض التي يحتلها. ومن أجل ذلك تم البحث في العقود الصفراء البالية والمدعوكة للقضاة القدامى، ووضعت درجة قرابة بوعاشور بينهم...

فيما بعد، واعتماداً على تلك النتائج، قسمت التعويضات الموزعة، وهناك أيضاً حملت السخرية البيروقراطية نتائجها السيئة...



صبغت شمس فصل الخريف غير الحارة تقريباً باللون الذهبي الباهت البنايات

الإدارية القبيحة والمتداعية. وفي الجوار أضحت المنازل المبنية من خثارة الجص خربة، ونمت الأعشاب في القرميد الباهت والحائل.

تكدس أولاد بوناقة قبالة المكاتب في مجموعة حزينة. كانوا مقرفصين ملتفين في برانسهم ذات اللون الترابي الموحد منتظرين وخاضعين ومستسلمين.

واجتمعت هناك تنويعات العِرق التلي حيث الملامح البربرية ذات القسمات الدقيقة، والعيون العسلية أشبه بكواسر، ووجوه أثقلت بالدم الأسود هدلاء ومرداء، ووجوه عربية معقوفة الأنوف وشرسة.

وكانت الأغطية الملفوفة بشرائط صهباء والملابس المصفوفة تتماوج بحسب الأوضاع والحركات مانحة الأفارقة تمازجاً قديماً، ولولا المباني «الأوروبية» القبيحة المقابلة لكان المنظر يوحي بالقدم.

وكان محمد العاشوري، وهو مسن طويل القامة ونحيف بوجه ناسك وبملامح قاسية وعينين قلقتين، ينتظر منعزلاً بعض الشيء ناقراً بين أصابعه التي برزت عظامها حبات سبحته الصفراء. كانت نظرته شاردة في الأماكن البعيدة حيث تهتز عاصفة بلون ذهبي باهت.

وكان الفلاحون المشغولون بمظهرهم الخاضع والمتحفظ قليلي الكلام.

سوف يقبضون ثمن أراضيهم، وستبرر لهم المزايا التي جعلت عيونهم الشرهة، عيون الفقراء والبسطاء، تتقد قبل الضغط النهائي.

وكانوا قلقين بسبب طول انتظارهم... فقد استدعوا للقبض يوم الثلاثاء، وها هم في صبيحة يوم الجمعة، ولم يقدم لهم أي شيء.

كانوا يأتون إلى هناك كل صباح وينتظرون بصبر، ثم يتفرقون في مجموعات إلى المقاهي المغربية لس[1]... ويأكلون قطعة من الخبز الأسود المجلوب من الدوار، والذي أصبح صلباً، ويشربون فنجان قهوة بقرش واحد... وعند الساعة الواحدة يعودون فيجلسون على امتداد الجدار وينتظرون... وعند المغرب يرحلون حزانى ومحبطين هامسين بأصوات خفيضة جداً كلمات مستسلمة... ويُضفي تموّج أشعة الشمس الغاربة بهاء على ملابسهم البالية ويُجمّل معاناتهم البطيئة.

---

(١) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

وفي النهاية لم يعد لدى العديد منهم خبز ولا مال للبقاء في المدينة. وكان بعضهم ينامون أسفل الجدار ملتفين بأثوابهم الرثة...

وأمام المكاتب وقف فريق من الرجال يتحدثون ويضحكون. كانوا فرساناً ونواطير متدثّرين ببرانسهم الزرقاء الكبيرة، ويتحدثون عن مغامراتهم مع النساء وحتى عن سكرهم.

في بعض الأحيان يتقدم فلاح بخجل ليشاورهم... وبحركة يد متهرّبة معتادة لدى المسلمين، يرد المخازنية والشنابيت[1] الذين كانوا لا يعرفون هم أيضاً:

ـ اصبر... اصبر!

فيحني الفلاح رأسه ويعود إلى مكانه هامساً:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي!

كان محمد عاشوري يفكر، وبدأ يرتاب في تلك اللحظة، وندم على تخليه عن أرضه. كان قلبه البدوي يتألم عند تفكيره بأنه أضحى بلا أرض...

المال؟

بداية كم سيمنحونه؟ ... ثم ماذا سيفعل به؟ وأين سيذهب ليشتري حقلاً آخر، بعد أن باع قطعة الأرض التي تمنح الغذاء؟...

أخيراً، حوالي الساعة التاسعة، حضر قايد أولاد بوناقة، كان شاباً أسمر طويل القامة ذا نظرة قاسية ومنغلقة ليبدأ النداء على أفراد قبيلته بالإسم... كان يحمل ورقة في يده، ويقف تحت الشمس على عتبة المكاتب. كان الفلاحون قد قاموا مثيرين تموجات بحرية ببرانسهم المنشورة... أرادوا تحية قايدهم... قبّل بعضهم عمامته، والآخرون كتفه. غير أنه أزاحهم بحركة منه، وبدأ في النداء. ودفع ناطوره، وهو رجل مسن قصير القامة أشيب ومتحفز، إلى اليمين أولئك الذين استجابوا لنداء أسمائهم سواء بـ«نعام»[2]... المعتادة، أو بـ«إنه أنا»[3]... حتى إن بعضهم قال

---

(١) الشنابيت جمع عربي لكلمة شمبيط باللغة الصابير والتي تعني الحارس والناطور (ملاحظة إيزابيل إيرهارت). الأصل.

(٢) نعم. المترجم.

(٣) هكذا ذكر في الأصل مع ترجمة في النص الأصلي من قبل الكاتبة. الأولى (نعم) باللغة العربية والثانية (إنه أنا) باللغة الفرنسية. المترجم

«بريزون!»[1] عسكرية.

بعد ذلك قادهم القايد أمام المكاتب المشار إليها بالاسم النوعي «المجال» (الدخل، المساهمات، الأراضي، إلخ).

دخل القايد فقُدم له كرسي.

وكان على العتبة فارس ينادي أفراد أولاد بوناقة، ويدخلهم واحداً تلو الآخر.

دخل محمد عاشوري مع آخر الداخلين.

وأمام مكتب أسود شطب بمدية كان يجلس موظف أوروبي ببذلة رثة، وكان الخوجة الشاب وضعيف البصر بنظارته يترجم واقفاً.

ـ عاشوري محمد بن حمزة... أنت حفيد قريب من أحمد الجيلالي بن الجيلالي الذي كان يملك الأراضي الملقبة «واد النور» قسم بوعاشور. لديك إذن حقوق شرعية في الحقول التي يطلق عليها اسم زبوجة ونفرة... وفي المجمل، وبعد أداء كل المصاريف، حصلت على تعويض بيع ومقداره أحد عشر سنتيماً ونصف... ولأنه ليس هناك سنتيم، خذ.

ووضع الموظف قطعتين في يد الفلاح الممدودة.

بقي محمد عاشوري جامداً، منتظراً دوماً.

ـ هيا روح[2]! بلاك[3]!

ـ لكنني بعت أرضي، عربة ونصف من الحقل والكثير من هكتارات الدغل. أعطني مالي!

ـ لكنك أخذته... هذا كل شيء! هيا، الآخر! عبدالله بن الطيب جلولي!

ـ لكن هذا ليس ثمناً، قرشان!... يشهد الله...

ـ بحق الله أيها الغبي! بلاك في سع[4]!

---

(١) بالفرنسية حاضر. المترجم.

(٢) إذهب. المترجم.

(٣) تنح. المترجم.

(٤) تنح بسرعة. المترجم.

دفع الفارس الفلاح خارجاً، وما إن أضحى في الطريق حتى طأطأ رأسه، مدركاً كم كان الجدل غير مجد.

بقي أولاد بوناقة في حشد متلاحم، كما لو أن هناك بارقة أمل في قسوة الأشياء. كانت نظراتهم مشدوهة وبليدة على نحو حزين كخراف في المذبح.

اقترح محمد عاشوري:

ـ ينبغي الذهاب والشكوى لدى الحاكم.

ثم ذهب عدد قليل منهم إلى مكاتب الجماعة المختلطة وسط المدينة.

صدرت عن الحاكم، الرجل الطيب، حركة مواربة من يده...

ـ لا أستطيع فعل شيء... أخبرتهم في الجزائر بأن ذلك يسبب دمار القبيلة... لم يريدوا معرفة شيء، هم يأمرون ونحن نطيع... ليس هناك شيء نقوم به.

خجل لقوله ذاك، وخجل من العمل السيّئ الذي يجبرونه على القيام به.

وهكذا، ولما لم يقم الحاكم شخصياً أبداً بأي عمل سيّئ اتجاههم، فقد رضوا حين أخبرهم بأنه لا يستطيع أن يفعل لهم شيئاً، قبلوا دمارهم فرحلوا إلى الوادي حيث ولدوا، وحيث لم يعودوا إلا فقراء.

لم يستطيعوا أن يفهموا، وبدا لهم من الظلم أن بعضهم قبض أثمنة مرتفعة مع أنهم عملوا دوماً على أرض أقل بكثير من تلك التي كان يملكها آخرون، والذين لم يحصلوا إلا على سنتيمات مثل محمد عاشوري.

أراد فارس وهو ابن فلاح أن يشرح لهم سبب عدم تساوي الأداء.

فقال عاشوري:

ـ لكن ماذا يهم في درجة القرابة مع موتى هم تحت رحمة الله؟ مادمنا كنا نعيش مجتمعين، كان ينبغي إعطاء مال أكثر لمن كان يزرع أرضاً أكثر!...

ـ ماذا تريد؟ إنهم الحكام... وهم يعلمون أكثر منا... تلك مشيئة الله...

عندما أنهى محمد عاشوري ما حصل عليه من بيعه ماشيته، ولما لم يجد ما يعيش منه، عمل كأجير في مزرعة السيد غايار المستعمر الذي حصل على الجزء الأكبر من أراضي أفراد بوعاشور.

كان السيد غايار رجلاً طيباً، مع أنه كان فظاً بعض الشيء، ونشيطاً وحسن النيّة ومستقيماً.

كان قد لحظ موقف خادمه المتحفظ بوضوح والمتكتم، وكان الخدم الآخرون المتحدرون من القبيلة نفسها عدائيين أيضاً، غير أن محمد عاشوري أظهر انعزالاً أكثر صرامة وأكثر وضوحاً عن المستعمر، ولم يكن يرد أبداً على مزاحه الطيب.

وغداة الحصاد تألمت قلوب الفلاحين كثيراً وهم يرون كل ذلك الثراء الجميل يولد من أرضهم. واشتعلت النار في محاصيل السيد غابار ومخزنه الذي انتهى من بنائه حديثاً ذات ليلة حالكة وحارة.

جُمعت دلائل دامغة ضد عاشوري. لكنه أنكر بهدوء وبعناد كآخر حجة دافع به بها عن نفسه... وأُدين.

كان عقله البليد كرجل بسيط وقلبه كفقير جُرّد من ملكه وخُدع باسم قوانين لم يستطع فهمها، قد حرّكا ضغينته وكراهيته للعمل ضد المستعمر المغتصب مع استحالة انتقامه من البايلك، ولربما المستعمر هو من سخر من الفلاحين ومنح عاشوري القرشين الزهيدين كتعويض عن كل الأرض التي سلبت منه! كان هو على الأقل في متناول الانتقام...

اقترف ذلك الفعل الذي استمر محمد عاشوري في اعتباره عادلاً، وتساءل المستعمر بذهول مؤلم ما الذي فعله لذلك العربي الذي منحه عملاً ليكرهه إلى ذلك الحد... لم يشك أي من الطرفين أنهما كان الضحايا المتضامنين للقلق الحزين الساخر عينه!

دفع المستعمر، القريب واللّين الجانب ثمن ما اقترفه الموظفون البعيدون الهادئون في قصورهم بالجزائر... وقام الفلاح المفلس، لأن الجرم يقع في الغالب وعلى الخصوص من قِبل المقهورين، بآخر ضرب من ضروب الحرية.

ملاحظة

أكدت الكاتبة أن تعويض الأحد عشر سنتيماً ونصف المقدم لعاشوري من أجل «بيع أرضه» حكاية حقيقية فعلاً. «قصة واقعية» أخرى استلهمت من الإقامة في تينيس، ولربما مباشرة من قبل الخوجة سليمان إهني، الذي شاهد من دون شك مآسي الفلاحين هذه.

من اليسير تصور ردة فعل سياسيي الجماعة المختلطة المهتاجين عندما قرأوا في

الأخبار الصادرة بتاريخ ٨ شباط/فبراير ١٩٠٣ بقلم إيزابيل إبرهارت هذه القصة التي تبدو غير مؤذية في الظاهر والمُدينة مع ذلك.

وكان عنف الرد أشد وحشية من عنف الهجوم، فقد نشرت رسالة موقّعة من قبل «أوطو موبيل عن مجموعة من المستعمرين!» في الاتحاد الجمهوري بتاريخ ٢ نيسان/أبريل من السنة نفسها توسع إيزابيل إبرهارت شتماً وإهانة. وهو ما أجبر سليمان المشهّر به بطريقة غير مباشرة على تقديم استقالته (إيزابيل إبرهارت، ملاحظات وذكريات. روبير روندو. مصدر ذكر سابقاً).

أعيد نشر المجرم في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

مآثر الأهالي

كانت بيلاجي البدينة خادمة لدى السيد بيريز المستعمر في «ألفريد دو ميسي» متفقة مع جوزيف، خادم المزرعة، على القيام بنزهة في اليوم الموالي الموافق ليوم الأحد. لكن كان يتعيّن «تأكيد» الأمر، وكان يلزم المال... غطت ماريكيتا بمكر إوزّة جميلة من الفناء السفلي للمستعمر بكيس ولوت عنقها. وكان الخباز صديق جوزيف سيشويها في الفرن ليلاً. ستكون لذيذة ولن يشك أبداً آل بيريز في العمال الأوروبيين.

عندما لحظت السيدة بيريز اختفاء إوزّتها الأجمل، أخذت تنتحب وعدت لتخبر زوجها الذي كان مشغولاً بمراقبة المغاربة الذين كانوا يشقون قطعة أرض قرب الواد.

ـ سُرقت يا جوزي هذه الليلة الإوزة الكبيرة، أنت تعرفها، تلك الرمادية والسوداء.

ـ آه يا إلهي! بكل تأكيد إنهم العرب مجدداً.

كان بيريز الضخم وصعب المراس والقوي يرتدي بذلة من المخمل المضلّع، وقبعة دائرية كبيرة من الفلّين الأبيض. وكانت حركاته عنيفة، وصوته جهورياً، وكان سريع الغضب ومرتاباً، ويجد دوماً أن الأمور لا تمضي على ما يُرام. ومع أن بيريز كان ثرياً فقد كان قاسياً، وخاصة مع الفقراء من الأهالي، وكان مستشاراً بلدياً، وكان يدعي أنه خطيب لأنه كان يصرخ أكثر من الآخرين في المقهى، حيث يعبّر دوماً عن الأفكار الأكثر عنفاً.

وفي ساعة شرب الأبسنت روى بيريز الذي كان وسط مجموعة من المستمتعين بالأوضاع الخلابة حكاية سرقة الإوزة، الثانية منذ ستة أشهر. وإذا ما استمر الوضع على ذلك المنوال فعلى الاستعمار السلام، ولن يبقى هناك أي حل سوى الرحيل،

فقد كانت اللصوصية الأهلية تزداد يوماً بعد يوم... وكان هناك ما يثبط عزيمة أشد الرجال طيبة.

قال ديرون، أحد رفاق المستشار:

ـ أجل، لكنهم لا يهتمون هناك في فرنسا! ليس هناك إلا مناصرون للعرب، قتلة مارغريت[1]، أفرجوا عنهم، يريدون أخذ المحاكم القمعية منا، وتمكين الأهالي من القضاء علينا...

ـ أجل، يمكننا أن نهلك، يمكنهم أن يسرقونا، وأن ينهبونا، بل وألا يحترمونا مثلما يفعلون الآن، لا بأس بهذا، هناك أنذال يقولون بأن لهم حقوقاً...

صرخ بيريز ضارباً الطاولة بقبضة يده:

ـ آه، لكننا لن نسمح لهم بذلك. سنسهر على شؤوننا، وسندافع عن أنفسنا، سنطلق الرصاص على جسد أول من يتحرك. لن يمر الأمر مثلما حدث في مارغريت. آه، سيدفعون ثمن ذلك الحكم غالياً أولئك العرب. عليهم أن يحاولوا ألا يبدوا سعداء جداً، وإلا سنلزمهم بأعمال شاقة.

قال بيريز:

ـ ما داموا يسرقونني، سأقوم بدور الشرطي بنفسي. سأحمل بندقيتي.

غير أن ديبون القهوجي، الذي كان قد اقترب، كانت لديه فكرة إذ قال:

ـ لا ينبغي للمرء أن يفكر في نفسه فقط. عليك يا بيريز أن تحكي الحادث وترسله إلى الجرائد لإظهار أننا ضحايا الأهالي.

وافق ديرون قائلاً:

ـ أجل، أجل. ينبغي القيام بذلك، فذلك سيسعد نائبنا في البرلمان. فكرت في أنه يجمع وثائق مماثلة للرد على أولئك الذين يشتمون المستعمرين. يمكن لإوزتنا أن تكون ذات قيمة.

قال بيريز متردداً:

---

(١) تقصد انتفاضة عين التركي، التي اتهم المشاركون فيها بقتل معمرة فرنسية تحمل اسم مارغريت. المترجم.

ـ أجل، لكني لست جيداً في الكتابة.

ـ لا بأس، «ستدبر» الأمر. لديبون ما يقوم به في هذا الشأن!...

ووضع ديرون نظارتيه وبدأ «يحرر». مُزّق العديد من الأوراق، وفي الأخير وضِع النص النهائي، وأُرسل في ظرف مختوم إلى الجرائد السياسية في شمال إفريقيا مع عبارة «الرجاء نشرها لمصلحة الاستعمار، ومن أجل الدفاع عن الشرفاء.»

وقّعت الرسالة من قبل الحاضرين والعديد من الأصدقاء من القرية، ووقّع قايد بني مخاوفين، الناطور السابق والمرتعد دوماً خشية فقدان منصبه، من دون أن يفهم.

غير أن بعض المستعمرين رفضوا الزج بأنفسهم في تلك «المشاكل»، ورد جاكي المنتمي إلى منطقة السافوا على إلحاح ديرون قائلاً:

ـ ماذا يهمني في ذلك؟ كان هناك دوماً لصوص وعلى أي شخص أن يحرس نفسه. هناك رجال درك من أجل هذه الغاية... ثم إني مشغول بجعل قمحي وكرومي تنمو، ولست أهتم بجرائدكم وسياستكم. لا أقرأ أبداً جرائدكم لأنها مليئة بالأكاذيب... ثم إن ذلك يصيب رأسي بالصداع.

بعد أن قرأ المتحمسون لحزب ديرون رسالتهم الجماعية، وأعادوا فعل ذلك بإعجاب دوماً، تفرقوا متصافحين متفقين. ولخّص القهوجي ديبون الوضع قائلاً:

ـ هكذا، يمكن أن يُحسب لنا حساب في الانتخابات.

هزّ جاكي كتفيه.

غير أن القضية أضحت جادة.

فبعد العشاء ذهب بيريز ليجلس على سلّم في زاوية مظلمة من الباب قرب الخم، واضعاً بندقيته بين ساقيه، بعين مترقبة، وأذن راصدة. حتى أن بيريز تجنب أن يدخن في البداية حتى لا يُرى. ثم اجتاحه الملل وغالبه النعاس، ففكر بأنه يمكنه أن يدخن في قبعته، وبأن ذلك لن يُكتشف.

خلال نزهة الخادمين، أكلا الإوزة المشوية، وعادا ليلاً. وعندما نام الجميع، ذهب جوزيف ليلحق ببيلاجي في غرفة السلّم المخصصة لها.

فقالت مبتسمة:

ـ هل تعلم أن ربّ العمل حمل بندقيته لحراسة دجاجه؟

ـ يمكنه أن يحرس، سيكون الأمر جيداً بالنسبة له، فالجو منعش...

ضحك الخادمان كثيراً من فكرة أن ربّ العمل يتجمّد في الخارج.

بعد يومين وصل ساعي البريد كلودينيون إلى المقهى متأثراً جداً.

فصرخ:

- هل تعلمون أنهم نشروا الرسالة؟ انظروا، إنها في جريدتين! أنت محظوظ يا سيد ديرون، وأنت يا بيريز، يوجد اسمك على الورق!

ثم فتح ساعي البريد الورقة الكبرى في البداية، بطريقة احتفالية احتراماً للحجم، فبرز العنوان بأحرف كبيرة.

مآثر الأهالي

أُرسلت إلينا من ألفريد دو ميسي:

«العرب في وضع جيد أيها السادة، فمنذ الحكم الوحشي لمونبولييه، ومنذ هجومات الأهالي على المحاكم القمعية المفيدة جداً، والتي كانت ضعيفة من وجهة نظرنا، تزايدت لصوصية الأهالي بسرعة مثل وقاحة الأهالي إزاء المستعمرين. يبدون وكأنهم نسوا أنهم مدينون لهم. يرتعد المستعمرون المساكين من أجل ممتلكاتهم ومن أجل حيواتهم، لكن لا ينبغي دفعهم إلى أقصى حد لأن غضبهم يمكنه أن يصيب العاصمة بالندم جراء هجوماتها الشنيعة على الجزائر.

فليحكم على الوضع في مركزنا من خلال هذا الحادث الذي تسبب في قلق كل السكان الأوروبيين. ففي ليلة الجمعة إلى السبت الماضية سرق لصوص مجهولون إوزة جميلة تعود للسيد بيريز المستعمر في «ألفريد دو ميسي». فجرأة تلك السرقة في حد ذاتها تبرهن أن مقترفها أو مقترفيها يعتبرون نماذج سيئة لذلك العِرق ذي العقلية السيئة تماماً.

هذا تحذير لأصدقاء يعقوب وبني جنسه والمدافعين عنهم.

كان أسلوب ذلك الهذيان غير المجدي قد صُحّح بعض الشيء من قِبل محرري الأوراق المعادية للعرب، غير أنه دغدغ غرور الكتاب، واتسع نفوذهم.

- ما الذي تريدونه؟ لا يمكننا أن نترك أنفسنا نقتل...

وعلى سبيل الخلاصة قال ديرون الذي أحس نفوذه يزداد، كلمة ذات مغزى فهمها الجميع:

- ليست هناك أشياء صغيرة في السياسة.

ملاحظة

ما يزال ظل انتفاضة مارغريت يخيم، غير أن الكاتبة اهتمت هذه المرة بوجهة نظر المستعمرين، فحكم البراءة المعلن في مونبولييه (إذ إن السلطات القضائية الفرنسية رغبت في ذلك «الفصل»). وفي فرنسا الحضرية اتهم سيل من الآراء المستعمرين بالوحشية والخروقات، وأجج ذلك الجدل والأحقاد.

ظهر هذا النص في الأخبار في ١٧ أيار/مايو ١٩٠٣ قبل فترة قصيرة من رحيل إيزابيل إبرهارت متقززة من الجو الخانق.

أعيد نشر نص مأثر الأهالي في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

الستـرة الزرقاء

ببطء، وفي فتور الليل، نشر البوق الألحان الحزينة لإطفاء الأنوار. وامتد اللحن الأخير في شكوى قبل أن يتوقف.

كان كل شيء ينام في ثكنة الجنود، واستغرقت الأجساد في خدر النعاس.

لم ينم قدّور الشبنوي تلك الليلة. كان مستلقياً على ظهره، وقد جعل ذراعيه العاريتين أسفل رأسه المحموم. كان يحلم في اضطراب روحه كرجل أميّ. كان سيتحرر في اليوم الموالي. لقد رغب بشدة، وطيلة أربع سنوات، ودوماً في ذلك اليوم المبارك. غير أنه في تلك اللحظة، وفي ليلته الأخيرة في الثكنة، لم يعرف إن كان ما يجعل قلبه يخفق بشدة سعادته أو قلقه.

هجر قدّور من عمر الخامسة عشرة إلى العشرين المشطة والحقل الذي يعود لوالده في ظهرة، الدوار الذي ولد فيه، ماضياً في الأدغال العميقة، حاملاً بندقية عمه العتيقة. وكان يمضي سحابة نهاره في الصيد، وليله في ملاحقة الجميلات ذوات الجباه الموشومة. ويحفظ بكبرياء على صدره المنفوخ وعضلاته البارزة آثار طعنات السكاكين والحجارة وحتى الرصاص التي حصل عليها من أجل عشيقات ما عاد يفكر فيهن.

لم تتمكن سلطة الأب القاسية وهو الفلاح الفقير من إخضاع ولده. وكان قدّور يذهب أحياناً إلى أورليانز فيل أو تينيس ليبيع أحمال الخشب أو الفحم. وهكذا كان ينظر بحسد إلى أولئك الجنود، ويعجب بأولئك الرجال الشجعان جداً الذين لم يكونوا يخشون شيئاً أبداً، حتى الله، والذين كانوا يمضون ضاحكين حتى أقذع أنواع الفجور حد إراقة الدماء. اعتقد أن الحرية تكمن تحت السترة الزرقاء.

وذات يوم ضربه والده ففر إلى تينيس حيث تجنّد.

وسرعان ما ردع السجن وحتى الضرب ثورات خيبته. أدرك فيما بعد أن الجندي عبد في الثكنة، ولربما هو سيّد بالخارج، يرعب المدنيين، ويشرب ويلعب ويلاحق الفتيات. وقد اعتاد على تلك الحياة، ولم يكن جندياً سيئاً بل كان لطيفاً في الثكنة ووغداً مخيفاً في الخارج سيّئ السُّكر.

ومع ذلك لم يتجرأ على تجديد تجنيده في الجيش، فقد اجتاحه الحنين إلى الدوار، والجبال المعتمة الكبيرة، والبحر كأفق يبدو أنه يرتفع أعلى من القمم... وفي تلك اللحظة قُبيل أن يتحرّر تملّكه القلق وتقريباً الخوف.



- إرحل في سلام، وسامحنا!

عانق الجنود من دون تأثر من كان يرحل. ولما غادر كان رأسه يدور ويبدو كالثمل.

ومن فوره ترك تينيس التي أمضى فيها أشهره الستة الأخيرة عند العودة من لغوات. وأسفل بوابة أورليانز استدار لينظر مرة أخرى إلى الثكنة الكبيرة التي يطل سورها الرمادي على الوادي العميق لواد علالة... تذكر قدور ساعات الليل المبهرة التي أمضاها أسفل تلك البوابة منتظراً النساء، الخادمات البربريات أو الإسبانيات اللواتي كنّ مفتونات بكتفيه العريضتين ووجهه الأسمر ذي الملامح الجيدة، والبريق الذهبي المحتدم لعينيه الواسعتين... وقد انتهى ذلك.

مضى في طريقه.

وكانت النسور السمراء المصفرة تحلّق فوق الشعاب بخفقان أجنحة دقيق جداً. كانت مثل مسامير ذهبية معلقة في السماء المتأججة. ثم ظهرت البادية الحقيقية، وخلفيات التلال القاحلة الدائرية المطلة على الهضبة الجرداء حيث كانت قرية منتينوت الفرنسية المزينة بأشجار الأوكاليبتوس تلقي لطختها السوداء.

كان ذلك في شهر تموز/يوليو، ولم تكن هناك لمسة خضراء في مجموعة الألوان المثيرة للحنق. وكانت أشجار الصنوبر والمصطكا والنخيل القصيرة تبدو بلون أسود أصهب على الأرض الحمراء.

وبدت الوديان بحوافّها القانية مثل جروح مفتوحة، وفي داخلها أكوام الحجارة

الرمادية وورود الغار النجمية المحتضرة، وألقت الحقول المحصودة ظلالها الصفراء على سفوح التلال. وكان كل شيء يحترق تحت السماء الكامدة. وفي الأفق المرعب بدت الشرارات تعدو تحت أدخنة صفراء.

قطع قدّور عصا من شجرة زيتون برية، ووضعها على كتفيه ممسكاً طرفيها بيديه، دافعاً صدره إلى الأمام. كان ذلك جيداً، أن يسير وحيداً وحراً من دون حقيبة ومن دون بندقية، عائداً إلى الديار...

وفي البعيد مرت فرقة عسكرية كانت تتقدمها أصوات الأبواق المرتفعة وغير المبالية، ثم النوبة الإفريقية الحزينة والفاتنة على نحو غامض.

كل ذلك انتهى أيضاً، ولن يمتثل أبداً للخطوة العسكرية! وللحظة أيضاً انقبض قلبه.

***

بدت أشجار الخرّوب الكبيرة للجماعة على هضبة جرداء، وكذلك القربيات المشيدة من الديس الأسود والمسيّجة بأشواك رمادية.

كانت فرقة أولاد بو مدين.

تقدم الجندي نحو قريبهم بخجل تقريباً، وانطلقت الكلاب نابحة بتهديدها الوحشي. وفرّت شابة مغطية وجهها.

عندما لمح الأب الطويل القامة والنحيل ذو الأنف الأقنى قدور حمد الله بهدوء ومن دون سعادة. وكان الأخوان الأصغر سناً قد أضحيا رجلين ممشوقين وفخورين بلحيتين دقيقتين حديثتي العهد، وجسارة قاسية تطل من عيونهما العسلية.

بقي محمد وعلي غير مباليين ومتحفظين. وحدها العجوز خيرة، الأم، بكت فرحاً على رأس ابنها البكر الحليق.

حصلت له على غندورة عتيقة وبرنساً وعمامة من والده. كان قدور خجلاً في تلك اللحظة من لباسه العسكري.

لمح الجندي في إحدى الزوايا فاطمة زوجة أخيه محمد التي بقيت منعزلة مغطية وجهها.

وكان محمد المرتاب يتجول حول قريبين يعودان للعائلة. وما كان ليجرؤ على أن

يخفي زوجته عن أخيه، فقد كان ذلك مخالفاً للعادات، غير أن كراهية خرساء تملكته اتجاه ذلك الرجل الذي لم يعد يعرفه، والذي قام بأسوأ مهنة، وشرب الحساء القذر، وشرب الخمر.

هكذا تبدّت المشطة في استقبال قاس كأنه أسف.

يمضي الفلاحون في المقهى المغربي نهارات طويلة من الخمول ما إن ينهوا أعمالهم الضرورية جداً. وعندما دخل قدور نظروا إليه باحتقار غامض. لربما بدوا أكثر تسامحاً معه لو كان قد خرج من السجن فقد كان الناس يجبرون على الذهاب إلى السجن بينما يتجندون طواعية.

وهكذا غابت كل سعادة العودة. أحس بأنه سيكون في نظرهم على الدوام تقريباً ذلك العسكري[1]، وتقريباً المتورني، الكافر.

بدت له الحياة قاسية في القربي. كان ينام أرضاً، ويأكل الخبز الأسود، وكان يتعين عليه قطع الأخشاب في الدغل الشائك، والذهاب به إلى المدينة، بعيداً جداً، وإشعال الفحم في الجبل، وإصلاح الأكواخ.

حاول قدور استعادة جولاته الليلية المغامرة التي كانت تشغل شباب الدواوير، لكن الساقطات وحدهن، أولئك اللواتي ما كان المرء يختفي من أجلهن، يردن حب جندي...

وفي القربي كانت فاطمة زوجة محمد الجميلة والكسول ذات العينين الخاضعتين والحانيتين.

استعاد قدور وسواس عِرقه، فبدا له زنى المحارم في البداية جُرماً شنيعاً جداً لا يمكن لمسلم أن يقترفه.

غير أن عدائية الوسط والكراهية المتزايدة لمحمد والرغبة العنيفة لقدور حطمت مقاومته.

كان محمد يمضي، رغم أنه متزوج، إلى المشطات المجاورة، هاجراً فاطمة دوماً... ولاحظت هذه حب نسيبها الجندي الذي كان يبدو لها بطلاً نوعاً ما لأنه كان بذنوب كثيرة.

---

(١) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

وذات ليلة تبع محمد ضبعاً كان يحوم حول القطيع.

فتسلل قدور بسكين في يده إلى قربي أخيه، واستسلمت فاطمة من فورها ومن دون مقاومة.

ومنذ ذلك الحين، وتقريباً كل ليلة، وبجرأة غير مسبوقة، كان قدور يذهب إليها مهتبلاً أدنى غياب لأخيه.

***

مر فصل الشتاء، وبقي قدور غريباً بمشطة الشناوة، وصار فلاحاً يرثى له، يقضي الساعات وهو يدخن مستلقياً في الدغل بينما تنام الأبقار في الأخدود المشطور. تزوج علي، وكان مثل محمد يرتاب من قدور مظهراً له عداءه بوضوح. وكان الشينوي الأب الصامت والقاسي يبدي عدم رضاه دون أن يحدّث قدور أبداً.

إضافة إلى ذلك كان الجندي محتقراً في الفرقة وكان يؤخذ عليه سبابه وشتائمه في بعض الأحيان.

كان يشعر بأن الآخرين يضيقون به وأنه مكروه وموصوم بالعار إلى الأبد، كما لو أن جسده احتفظ إلى الأبد بوصمة السترة الزرقاء التي لا تمحى.

***

أحرقت شمس فصل الربيع الساخنة التلال. لم تسقط قطرة مطر واحدة منذ أربعين يوماً. وفي الحقول الباهتة تشكلت بقع دكناء واسعة مثل جُذام وحروق خبيثة.

وارتفعت صيحة عظيمة من كل الدواوير المنتشرة في البادية حيال سخرية السماء المبتسمة. مرة أخرى حلّ الجفاف الذي أرهق الفلاحين منذ سنتين!

ولدى الشناوة أثار البؤس القلوب، وتوفيت العجوز خيرة. وكان الجندي العنصر الزائد.

وذات يوم ألقت الكراهية الخفية التي كانت بين قدور ومحمد أحدهما في مواجهة الآخر بسكينين في يديهما. فرقهما الشينوي المسن بضربات العصا، فبقيا يرتعدان غضباً.

وعلى الرغم من دموع فاطمة الخفية رحل قدور ذات صباح من دون أن يودع أهله، وقد تصلّب قلبه وأغلق إلى الأبد.

. . . سار قدور على طول الطريق. كانت الرياح جافة تشقق وجه الأرض، وتجلد ساقي البدوي المفتولتين تحت غندورته البالية، وبرنسه الترابي. كان نحيفاً ووبعينين محتدمتين. وكان يعود إلى المدينة ليستعيد السترة الزرقاء والشاشية القرمزية.

وعلى خاصرة التلال المحروقة، وعبر المحاصيل المحتضرة، قدمت مجموعة من الأطفال. كانوا يمشون مُعتمّين وفخورين ببرانسهم، وقد ارتدت الفتيات الصغيرات ملاحف وكانت جباههن موشومة ونظراتهنّ شرسة، وكانوا يحملون دمية طويلة هي عبارة عصا رقيقة ألبست بغرابة غندورة حمراء ومنديل رأس أسود. كانوا يغنون برتابة وحزن متوسلين هطول المطر.

مر البدو الصغار في هالة الشمس الملتهبة، وهم يقومون بطقسهم القديم، الذي حُفظ عبر قرون الإسلام.

مروا، ورفع المنبوذ في الطريق المغبرة كتفيه، قائلاً:

ـ فليحترق كل شيء هنا! فهناك، في الثكنة، سوف يتوافر الحساء دائماً.

ملاحظة

«أرادت إيزابيل إبرهارت المصدومة بصعوبات إعادة اندماج الجندي في قبيلته كتابة رواية حول العادات التلية في الموضوع عينه.» ملاحظة فيكتور باريكون حول السترة الزرقاء في الكتاب الذي نشره بعنوان صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

نشرت هذه القصة التي استلهمت كما يبدو من جولاتها حول تينيس في الفاتح من شهر آب/أغسطس سنة ١٩٠٣ في البرقية الجزائرية.



عين حَبوب

كان مواطنو السي عبد الرحمان بن بورنان من تلمسان يبجلونه، على الرغم من صغر سنه، من أجل علمه وحياته المتقشفة والطاهرة. ومع ذلك كان يسافر بتواضع راكباً بغلته البيضاء رفقة خادم وحيد. وكان العالِم يمضي كذلك من مدينة إلى مدينة أخرى طلباً للعِلم.

وصل فجر ذات يوم إلى الشعاب الموحشة لواد علالة قرب تينيس.

أوقف السي عبد الرحمان بغلته عند منعرج مفاجئ في الطريق، فحمد الله بملء صوته إذ كان المنظر أمام عينيه جميلاً.

اتسعت الجبال فاتحة في واد جوانب متناسقة. وكان واد علالة يتدفق في العمق متعرجاً باتجاه البحر الذي يحجب الأفق.

وإلى اليمين كان جبل سيدي مروان يتقدم وسط البحر بأنفه العالي والجميل.

وعند سفح الجبل، وفي منعطف الواد، بدت تينيس المسلمين متدرجة وناصعة البياض في حمرة الأرض الحارة، وخضرة أشجار التين الشديدة.

أحاطت سحابة خفيفة من ضباب بنفسجي الجبل والوادي بينما أحرقت أضواء برتقالية وحمراء الأفق الشرقي ببطء خلف جبل سيدي مروان.

وعمّا قريب تتسلل أشعة الشمس الأولى إلى آجرّ السقوف الأصفر وإلى المنارة وجدران المدينة البيضاء.

وأضحى كل شيء وردياً في الوادي وعلى الجبل. وبدت تينيس للسي عبد الرحمان في أجمل لحظاتها بألوان بكر.

وفتحت قرب الأسوار العتيقة السوداء والمتآكلة بفعل الزمن، ووسط المنازل القديمة الخربة في أكفانها المنسوجة من الجير الأبيض، ساحة صغيرة لا يبعث فيها

الحياة سوى مقهى مغربي متقشف ومدخّن، تتقدّمه عريشة قديمة ذات أغصان طويلة غليظة التفت حولها قضبان حملت عناقيد العنب، وكنبة واسعة من الجبس غطيت بحصائر بالية تستخدم كمقعد.

ومن هناك كان يُرى مدخل الشعاب وغابات الصنوبر وجبل سيدي عبد القادر وقبته البيضاء، وخرابات المدينة العتيقة التي يطلق عليها اسم سمالة. وفي الأسفل، وسط الصخور المقوضة وورود الغار، كانت مياه واد علالة تتدفق صافية.

كان السي عبد الرحمان يعلّم القرآن والشريعة في المسجد أثناء النهار. وكان يُعدّ عالماً كبيراً ومحاطاً بهالة من التبجيل المزعج كان يتجنبها.

كما أنه كان يحضر كل مساء، وقبل لحظة احمرار شمس الغروب، ليسترخي تحت العريشة.

وهناك كان يمضي وحيداً لحظات لذيذة في ذلك المنظر البسيط والهادئ.

فبعيداً عن بيت الزوجية، كان يتجنب بحذر كل الأفكار، وعلى الخصوص كل المناظر التي تخاطب الحواس وتوقظها.

غير أنه استسلم ذات مساء للرغبة في الذهاب لرؤية مجموعة من الفتيات يغترفن من ماء الساقية.

كانت مظاهرهن وحركاتهن لطيفة. ولما كن صغيرات السن فقد كن يلعبن ملقيات الماء على بعضهن البعض صائحات ضاحكات.

غير أن إحداهن بدت رزينة.

كانت أكبر من رفيقاتها، وكانت تحجب جمال وجهها وروعة عينيها بحايك عتيق من الصوف الأبيض تمسكه بيدها. صعدت فوق كومة من الأنقاض حاملة بيدها قربتها المصنوعة من الطين، وبدت كأنها تتأمل بريق الشفق الذي كان يغمرهن بلون أرجواني، والذي بدا كأنه يضع شيئاً مثل هالة شفافة حول جسدها المشيق.

ومنذ تلك اللحظة عرف السي عبد الرحمان مباهج الحب وعذاباته.

هجره كل تحكّمه في نفسه، وكل تعقله المتحفظ، فشعر بأنه أضعف من طفل.

ومنذ ذلك الحين أضحى ينتظر بشغف حلول المساء ليرى العالية التي أدهشه اسمها.

وفي النهاية، لم يستطع ذات يوم مقاومة الرغبة في الحديث إليها وسؤالها شربة ماء على استحياء.

وبرزانة مدت العالية قربتها إلى الطالب، مديرة وجهها عنه.

ثم، ولما كان السي عبد الرحمان وسيماً، ولما كان يحدّث الفتاة الصغيرة كل مساء، فقد تجرأت وأضحت تبتسم له ما إن تراه.

علم بأنها ابنة خمّاس فقير، وأنها موعودة لإسكافي من المدينة، وقريباً لن تستمر في الحضور إلى العين لأن أختها الصغيرة عيشة ستشفى من جرح ألزمها الفراش، وسيكون عليها أن تخرج لأنها لم تبلغ سن الرشد بعد.

وذات مساء، ولما كانت نظرات وضحكات رفيقاتها تجعل وجهها يحمر، قالت هامسة للسي عبد الرحمان:

ـ تعال عندما يحل الليل إلى الساحل على طريق سيدي مروان.

وما إن حل الليل، وعلى الرغم من كل جهود إرادته، وتوبيخ ضميره، نزل السي عبد الرحمان إلى الوادي، .

وحضرت العالية مرتجفة لتلجأ إلى حضن الطالب.

*
* *

وكل ليلة، عندما تستغرق أمها في النوم، كانت العالية تفر، فتذهب خفية ملتفة في برنس شقيقها الغائب لتلحق بالسي عبد الرحمان في الساحل وسط ورود الغار الكثيفة، وأشجار الطرفاء الرقيقة.

وأحياناً أخرى، وفي الليالي المقمرة على الخصوص، يذهبان إلى تلال شعارير ليناما على اليزير والأكاليل المعطرة، والخزامى الرمادية الكبيرة، وأكاليل الجبل البرية. . . كانا يشعران وأحدهما في حضن الآخر، وفي عدم استقرار علاقتهما وهشاشتها، بسعادة حزينة، ولذة مريرة تقريباً، تجعلهما يبكيان في بعض الأحيان.

*
* *

استمتع العشيقان لبعض الوقت بتلك السعادة الخفية.

ثم وضع القدر نهاية لها على نحو وحشي، إذ إن والد عبد الرحمان كان يحتضر. وكان على الطالب أن يعود إلى تلمسان.

وفي ليلة الوداع، اجتاحت العالية موجة من اليأس والانتحاب، ثم هدأت مستسلمة، غير أنها أخذت عشيقها إلى عين صغيرة وقديمة علاها الزبد أسفل سور.

قالت وقد اصطبغ صوتها بنبرة مهيبة:

ـ إشرب، إشرب لأنها مياه عين جبوب المعجزة، والتي لها ميزة إجبار من ذاقها على العودة إليها. إذهب الآن يا حبيبي، إذهب في سلام، لأن من شرب من عين جبوب سيعود، وستجف دموع حبيبتك العالية.

ـ سأعود إن شاء الله، ألا يقال بأن القلب هو من يرشد خطونا؟

ورحل الطالب.

أحس السي عبد الرحمان الذي سحرته الأسفار في السابق وفتنه تنوّع الأماكن بأن كل شيء يبدو له باهتاً وبلا لون منذ أن غادر تينيس. أصابه السفر بالملل وبدت له الأماكن التي أعجبته فيما مضى قبيحة ومن دون لطف.

فكر قائلاً:

«للأسف، ليست الأشياء هي ما تغيّر، بل روحي الحزينة.»

*
* *

توفي والد السي عبد الرحمان، وضغط أهل تلمسان نوعاً ما على السي عبد الرحمان لشغل منصب والده المتوفى، المدرّس الكبير.

أحيط بالتكريم لعلمه ولحياته في الطهارة القريبة من القداسة، وحظي بزوجة شابة وفاتنة، فتمتع بالرخاء من أوسع أبوابه.

ومع ذلك بقي السي عبد الرحمان حزيناً وقلقاً، فقد كانت روحه الحنون تسكن تينيس قرب العالية.

غير أنه حظي بشجاعة البقاء خمس سنوات في مهامه كمدرّس. وعندما تساوى معه شقيقه السي علي علماً وأهلية من كل جانب تنازل له عن مهامه، وطلق زوجته ورحل.

سيجد العالية، وسيتزوجها.

كذاك فكر السي عبد الرحمان مثل طفل صغير، ناسياً أن الإنسان لا يستمتع أبداً مرتين بالسعادة نفسها.

*
* *

وفي تينيس التي وصلها مثلما يصل الإنسان إلى وطنه وقلبه يقفز فرحةً لم يجد السي عبد الرحمان من العالية إلا قبراً رمادياً صغيراً في الظل اللطيف لشجرة أوكاليبتوس في الوادي.

توفيت العالية بعد أن انتظرت الطالب في الدموع أكثر من سنتين.

وهكذا رأى السي عبد الرحمان نفسه على حافة هوّة من دون قرار، والتي كانت فناء كل الأشياء.

أدرك بطلان إرادتنا والجنون المشؤوم لقلوبنا المتعطشة التي تدفعنا إلى أشد الأشياء استحالة: عودة اللحظات الميتة.

تخلّى السي عبد الرحمان عن ملابسه الحريرية، والتف في لباس صوفي خشن. وترك شعره ينمو ومضى في الجبل حافي القدمين حيث بنى قرباً بيديه غير الماهرتين. انعزل في قربيه هناك وأضحى يعيش على إحسان المؤمنين الذين يبجلون المنعزلين والمساكين.

وترددت أصداء مجده الصوفي، فقد كان يعيش في الصلاة والتأمل هادئاً جداً ومسالماً جداً حد أن حيوانات الغابة التي يخشاها الجميع كانت تنام عند قدميه مطمئنة.

ومع ذلك كان الناسك يرى بعيني الذكرى تينيس تسبح في لون ذهبي أرجواني، والطيف المكلل بهالة للعالية التي لا تنسى، والظل المتواطئ لأشجار التين في الساحل، والليالي المقمرة في تلال شعارير، فوق الخزامى الفضية، وعلى البحر، في الأسفل غافية في همسها الأبدي.

ملاحظة

كانت إيزابيل إبرهارت تتجول ممتطية زيزا فرس صديقها روبير روندو الخليفة الثاني في الجماعة المختلطة فراراً من وضاعة الناس في تينيس!

وفي الدواوير المجاورة جمعت أسرار فلاحيها البسطاء وقيادها. فقد كان الفلاحون يعتبرون محمود السعدي طالباً، أما القياد فقد كانوا يعرفون في بعض الأحيان هويتها الحقيقية. شرحت ذلك إيزابيل إبرهارت في يومياتها حيث تقول: «الشيء الغريب، والمتناقض على الأقل من الناحية الظاهرية مع كل طبعهم، هو أن المتعلمين من السكان المحليين يأخذون بسهولة امرأة مثلي كمؤتمنة على الأسرار،

ويتحدثون معها كما لا يفعلون بكل تأكيد مع أي منهم.» (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً).

وقصص من قبيل عين جبوب أو الزاهد تظهر تقدم كاتبتها في معرفتها بالحياة الإسلامية، فقد أخذت هذا الدرس: «وعلى الرغم من كل نقائص البدو، وكل العتمة التي يعيشون فيها، إلا أن أقلهم شأناً أسمى، وعلى الخصوص أنه يمكن تحملهم أكثر، من الأوروبيين الأغبياء، والذين يسممون البلد بحضورهم.» دوار معين، بتاريخ ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٠٢. (اليوميات. الأعمال الكاملة. الكتاب الأول.)

ظهرت قصة عين جبوب في البرقية الجزائرية بتاريخ ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٣ (بعنوان فوقي «حكاية»)، ونشرت في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً). بعنوان الطالب.

الزاهد التي ستلي هي قصة «سياسية» أكثر، حيث تشير إلى قضية مارغريت، ونشرت في الأخبار بتاريخ ١١ كانون الثاني/يناير ١٩٠٣، وأعيد نشرها في صفحات الإسلام.

الزاهد

تحاصر حواجز الجبل الحمراء الوادي العميق ويغطي الدغل المعتم الشعاب والخدود المشقوقة التي تحفرها الوديان الصاخبة شتاءً في الصخر. وتلقي أشجار الزيتون البرية الملتوية ذات الهيئات الحزينة، والمصطكا الكبيرة ذات الأغصان المتصلبة والجامدة والأوراق اللامعة، ظلها الأزرق على الأرض الوعرة والصلبة. وفي عمق الوادي انبثقت عين الدم من حفرة مظلمة في ركام من الحجارة المحطمة، ومن رواسب متكلسة ذهبية حيث تترك المياه الباطنية جدولاً صدئاً بين الطحالب السوداء والسرخسيات الضامرة. وعند الفجر يجد الرعاة في العشب المداس وضفة الجدول المبللة آثار النفرة الليلية القوية، فالنمور والضباع تأتي لتشرب هناك، وتندلع شجارات مروّعة وماكرة بين متجولي الظلام الكبار.

وعلى المنحدر الغربي للجبال التي تحجب الوادي تقع فرقة تعيش في فقر على بعض الحقول الصغيرة الهزيلة المحتلة على الجبل الوعر.

كان سكان المنطقة يتحدثون اللغة العربية، غير أن الوادي كان يحمل الاسم البربري تاوريرت وفرقته الإسم الغريب جداً أولاد الفكرون (أبناء السلحفاة).

وحتى أكبر الفلاحين سناً كانوا يجهلون أصل ذلك الاسم الغريب... غير أن ذلك لم يكن يعنيهم، فقد كانوا مشغولين جداً بزرع حقولهم الجاحدة ورعي قطعانهم الهزيلة، وصنع الفحم، وقطع الطريق أحياناً عندما تتوفر المناسبة لذلك.

وكان قُربي سيدي بوشاكور الزاهد المسن المبجل كثيراً في المنطقة يطل على أكواخ القسم عند قمة تلة صخرية جرداء. وكان أكبر ومشيداً على نحو أفضل. وقرب القربي نمت نخلة دوم تشبه شجرة. وكان تحت المظلة الكبيرة حصير من الأوراق

كمروحة حيث يحب الناسك المسن الجلوس من أجل التأمل أو التسبيح أو استقبال الحجاج.

ومع ذلك لم يكن سيدي بوشاكور يحتقر كد الفلاح الوضيع والقاسي، فقد كان يحرث بنفسه حقله ويزرعه، ويحرس قطيعه الذي كان أطفال يرعونه في الجبل.

وكان البدوي يطلق على ماشيته لقباً مميزاً، المال... وهو تقليد لحياة البدو الرعوية البعيدة جداً.

وكان سيدي بوشاكور شيخاً طويل القامة رقيق العظم، ومع ذلك فقد كان قوياً، وكان وجهه الدائري وسيماً وسامة عربية حقيقية، وأسمر ومناراً بشعلة نشيطة دوماً من نظرته. فقد كانت عينا الزاهد السوداوان تبرقان تحت حاجبيه الأبيضين مثلما كانتا تفعلان أيام شبابه.

وعندما أحس سيدي بو شاكور دنو الشيخوخة سرّح زوجتيه الأصغر سناً من دون خصومات ومن دون قسوة، محتفظاً بعودة المتعقلة والهادئة.

ـ الرجل المسن مثل جذع شجرة شابة لا ينحني أبداً وإن وصل أرذل العمر.

وقال «لن نعود لنصعد أبداً مجرى النهر الذي يجعلنا الله ننزله، ولا يمكن للكائن الهرم أن يعود شاباً. أزفت الساعة بالنسبة لي لأترك كل ما ليس ضرورياً فعلاً للحياة في هذا العالم، وأن أوقف نفسي على حب الله العلي، وأخدمه في الخير وفي الطريق المستقيم.»

غير أن فلاحي أولاد الفكرون أجبروا زاهدهم على عدم التخلي نهائياً عن الأمور الفانية، فقد كانوا يثقون به ثقة كبيرة، وكانوا يذهبون لاستشارته في كل الظروف الصعبة.

والواقع أن الشيخ لم يكن خاضعاً لأحد، حتى للحكام أنفسهم، وعندما كانت تبدو له قضية عادلة يأخذ بكل شجاعة الكلمة للدفاع عنها، وعانى في العديد من المرات من روح الاستقلال لديه، ولو كان هناك مشابهون كثر لكان ضماناً أكيداً لإعادة الحياة لعِرقه.

وكان لسيدي بوشاكور عادة اختلاف الرأي مع مختلف القياد الذين تعاقبوا على امتداد ثلاثين سنة على بني بو عبد الله، القبيلة التي يتبع لها أولاد الفكرون. غير أن أولئك الرجال البدو هم أيضاً كانوا يحملون في أعماقهم الاحترام للزاهد، وفي الوقت

عينه الخوف من حكمته وحرية تعبيره، وكانوا يفضلون الحفاظ على علاقات ودودة مع سيدي بو شاكور.

وذات يوم أُرسل شاب ابن عائلة مرموقة إلى بني بو عبد الله كقايد. وكان يدين بتعيينه ذاك لخدمة أهله الطويلة. وبدا ذلك الرجل الذي كان دنيئاً ذليلاً أمام السلطة أكثر قسوة إزاء الفلاحين الذين كانوا بلا دفاع والذين كان يدير شؤونهم.

كان ابن رجل مجنّس، وتعلم في ثانوية وهران حيث كانت دراسته تدعو للرثاء، فعيّن قايداً وهو بعد شاب بفضل حمايته رفيعة المستوى. وكان القايد صلاح طموحاً، وكان يكنّ احتقاراً شديداً لعِرقه، ومن دون قلق.

لم يكن القايد يرى في أولئك البدو ذوي الثياب الرثة والمتشددين عندما يتعلق الأمر بتقديم الدوروهات، والثرثارين عندما يدافعون عن أنفسهم، والمترددين لكن المعاندين، إلا قطيعاً حقيراً لا يصلح إلا لقيادته بقسوة واستغلاله ما أمكن. ولم يشعر نحوهم بأي شعور أخوي، وكان بلغ من السذاجة حدّاً يدعو للاستغراب والسخرية نوعاً ما باعتباره إياهم متوحشين وأناساً من عرق مختلف تماماً. . .

وكان القايد صلاح الذليل والدنيء إزاء السلطات متعالياً على الفقراء الخاضعين لإرادته، وقاسياً اتجاه أولئك الذين كان يدعوهم باحتقار وبجهل مطلق «العرب»، وبدناءته كان يأمل الحصول على ما يسمى خطأ شرفاً وأوسمة. ومن يدري لربما يصير ذات يوم آغاليك.

ومنذ بدأ القايد مهامه، ومن أول لقاء له مع سيدي بوشاكور، أحس بأن الزاهد سيكون منافسه القوي. وبحسب عادته سارع إلى الوشاية بالزاهد لدى رؤسائه، بل لدى من هم في الجزائر منهم، على أساس أنه «يحمل روحاً سيئة جداً اتجاه إدارتنا.»

غير أنهم كانوا يعلمون بقابليات القايد البوليسية، وهكذا فقد ترك الزاهد في سلام.

وفي كل مرة حاول القايد التدخل في شؤون فرقة أولاد الفكرون كان يصطدم بتفكير الزاهد السديد وحماسته وعدم سماحه بأن يُخدع الفلاحون الخائفون والبسطاء.

بل إن الصوفي قال للقايد ذات يوم في وسط الجماعة بعد أن دفع الفلاحين إلى

التخلي عن أراضيهم للاستعمار بكلمات مراوغة تضمّنت تهديداً: «جرّدنا مما نملك، لكن لا تقل أبداً بأنك تحسن لنا».

زادت كراهية القايد صلاح للصوفي من كل تلك الإخفاقات، فعلى الرغم من «باريسية» القايد المزيفة كان الصراع المستمر منذ اليوم الأول بينه وبين سيدي بوشاكور بدوياً جداً وخفياً ومليئاً بالمكائد.

غير أنه كان يسود الفرقة نظام محكم، فسلوك الزاهد الذي لم تكن تشوبه شائبة، وإدارة القايد، على الرغم من كل التسلط والوشايات الحقودة، لم يكونا يستدعيان أي عقاب قاس. إضافة إلى ذلك أخطأ القايد صلاح بغرابة تحت وقع سلوكه وتصرفاته، فقد كان يظن أنه محترم بينما كان محتقراً في الواقع. وكان يُستخدم ببساطة في الأعمال القذرة التي لربما لم يكن من الحذر أن يُعهد بها إلى آخرين، غير أنهم لم يريدوا خلق أعداء مجانيين من أجل إرضائه.

ومن سوء الحظ أن حلت قضية مارغريت الحزينة والكئيبة لتلقي الاضطراب والفوضى في كل النفوس، فوشى القايد السعيد بتلك الفرصة بسيدي بوشاكور كمتطرف وخطير. وهكذا رحل الشيخ ذات يوم والأصفاد في يديه إلى تعدميت البعيدة، والتي كان اسمها فقط يجعل أبدان عرب الجزائر تقشعر.

رد الزاهد الفخور والمستسلم على اتهامات القايد الغادرة باتهام واضح ولا يدحض ضد متهمه، ومن أرسلته فرنسا إليهم لتجعلهم يحبونها ويحترمونها، والذي جعلها على عكس ذلك تُكره باقتراف تصرفات مقلقة باسمها.

وضاع صوت الزاهد في الجلبة التي أثارتها قضية مارغريت فقبل مصيره بخضوع عادي، ومن دون ضعف، كمسلم حقيقي.

عمل سيدي بوشاكور الذي لم تقض أي محكمة بحكم ضده أو تدينه هناك في الجبال المشرفة على الهضاب العليا رفقة معتقلين آخرين كسجين محكوم بالأعمال الشاقة، ونام أرضاً في الصقيع وحتى من دون ما يغطي قدميه، مقتاتاً على نصف رغيف فقط كل يوم. . .

وعندما رحل زوج العجوز عودة إلى المنفى الأليم لوحقت المرأة التي أضعفها الحزن بوحشية من قبل القايد العصري ذي الثرثرة الباريسية والتصرفات المتميزة بغرابة شديدة، فسُلبت ملكها البائس تحت ذريعة أن سيدي بوشاكور لم يكن يتوفر على رسم

ملكية شرعي. وهكذا لجأت عودة بعجزها إلى الفلاحين. وتهامس أفراد أولاد الفكرون وكل القبيلة غير أنهم لما كانوا يخشون انتقام القايد الرومي صمتوا وأحنوا رؤوسهم.

مرت الشهور، وسرعان ما قضت العجوز الورعة من دون أن تجد من يواسيها. وعندما أُطلق سراح سيدي بوشاكور بفضل تدخل موظف في الجزائر، وكان رجلاً طيباً ونزيهاً، عاد إلى تاوريرت شائخاً جداً بخطوات مترددة وبنظرة تائهة. ألفى أرضه الصغيرة مملوكة من قبل أناس آخرين، وقريبه خرباً، ورفيقته العجوز ميتة، واقتلعت من الدوم نخلته التي كان يحب الجلوس في ظلها.

قرفص الشيخ الزاهد بهدوء وخضوع ومن دون ثورة تحت شجرة المصطكا التابعة للجماعة، وأخذ ينتظر داعياً الله وطالباً الصدقة باسمه حتى دقت الساعة المحتومة.

مات سيدي بوشاكور بعد وقت قصير من عودته من تعدميت، فأحيط بتبجيل الفلاحين الفقراء والبسطاء في فرقة أولاد الفكرون، ودُفن قرب عين الدم، وأضحى قبره مزاراً لبدو المنطقة، لأن الرجل المقدس أحبهم ونصحهم من دون تكبر.

على الهامش

كانت غابة البلوط تتمايل معتمة بحرية تحت وقع مداعبة الرياح على امتداد البصر من تموجات تاوريرا الخفيضة إلى جبال بني هواوة الزرقاء.

وعلى المنحدر الدائري للتلال المطلة على الهالة الخضراء في الأسفل كان الدغل الكثيف والغابة الإفريقية العظيمة حيث اللون الفضي للخزامى والأفنستين المر في المخمل الغامق، والمصطكا السوداء تقريباً، واللون الذهبي الباهت للعناب الشائك، واللون الرمادي الداكن لأشجار الزيتون البرية، واللون الزمردي للرند، واللون الأصفر المعتم لأكاليل الجبل، والأغصان البرونزية المبقعة بلون الصدأ، ونخلات من الدوم وسط شُعب الحلفاء الرمادية... وفي أماكن متفرقة مساحات جرداء ومناطق طبشورية فصلت بنتوءات حمراء حادة ووديان جافة اجتاحتها ورود الغار فوق حصى أبيض مثل عظام ميت.

وتحت مداعبة الشمس الحارقة كانت تصعد رائحة قوية للحياة والخصوبة من تلك الأرض اللاهثة حرارة...

ووسط فرجة كبيرة قامت قربيات وأكواخ من الجذوع سيّئة القطع، وخِيم بيضاء وقطعة أرض مسيجة. كان ذلك معسكر الأشغال العمومية للفرقة التي أرسلت من مشغل أورليانز فيل إلى ورش في غابة بلوط بيسة.

كانوا يعيشون هناك منتعشين بالهواء الطلق والشمس المفيدة الحارة قبل الأوان لفصل الربيع الذي محا شحوبهم الكثيب لكونهم معتقلين معزولين. وكانت الأغاني تصدر من الغابة في ساعات العمل، وحتى القهقهات... ومع ذلك كان الرجال ذوو الوجوه السمراء التي يتعذر سبرها والذين يرتدون سترات زرقاء، والممنطقون والمعتمرون بأقمشة قرمزية، والقساة ببنادقهم الملقمة على أكتافهم، ومسدسات

الشواش الشرسين، والذين يتحركون في الجوار، هؤلاء كانوا يشكلون تهديداً مضاعفاً دائماً.

*
* *

وكان لجون هوسير رجل الحامية العنيد ثلاث عشرة سنة ليمضيها هناك. فذات مساء من الحمى التافلالية في بلعباس، وكان حينها رجل فيلق، شتم وهدد رقيب الوحدة... وكان طويل القامة بارز العضلات ناتئها، قوي البنية، بنظرة كئيبة ومتحمسة تحت مقدمة خوذته. وكان هوسير فخوراً جداً بالأوشام المرسومة على جسده حيث مشاهد من تاريخ فرنسا، وصور لشخصيات عظيمة وشعارات وطنية.

بعد أن أحرق جلده بحسب تعبيره، خلال سنتين في هضبة الشلف الحارقة، أرسل إلى بيسة. وعلى الرغم من النحس الذي كان يلازمه فقد بُعث تحت سماء سعيدة. والحقيقة أنه إذا ما كان هناك دوماً عمل مضن وقاس، وحتى لو لم تغدو معاملة الشواش أفضل، فقد كان هناك الهواء على الأقل، وفي كل القلوب يكمن أمل في إمكانية الفرار، ثم إن أي تغيير يعتبر فرصة مؤاتية، حتى ولو كان يزيد الوضع سوءاً بالنسبة للمعتقل.

وكان هوسير يحتقر رفاقه، ولم يجد من بينهم مَن يستحق أن يكون أخاه. كان يكد صامتاً ووحيداً، وكان يشمل وحيداً أيضاً.

... كان كل شيء قد تقرر منذ وصول الحامية إلى الورشة. فقد قدّر هوسير كل شيء مبكراً، ووزن كل شيء... وفيما بعد أخذ ينتظر الفرصة هادئاً ومن دون استعجال.

وأتت الفرصة. فقد أرسله الرقيب ذات مساء لملء الصفائح من عين طيبة خارج المعسكر. وكان يرافقه رجل وحيد، مجنّد. وقد تحدث هوسير مع الجندي ممازحاً.

رد الآخر، الذي كان شاباً وساذجاً ومتردداً في مهنته كسجان في الهواء الطلق، مبتسماً. تظاهر هوسير بالانحناء على الخزان حيث كانت تتدفق ماء العين.

ـ ما الذي يوجد في القعر؟

انحنى الجندي بدوره... فأمسكه من حنجرته، وصرعه، وكممه بخرقة مبللة أُعدّت سلفاً.

أوثق الجندي بحزامه، وبقي ممدداً قرب بندقيته غير المجدية. فتشه هوسير، وسلبه نقوده والتبغ ثم فر في الغابة، مغيراً اتجاهه وداخلاً في الدغل. لم يشأ قتل الجندي، من يدري؟ لربما اعتُقل وعندئذ سيكون في وضع سيّئ جداً.

استلقى هوسير في الدغل على بعد كيلومترات من المعسكر منتظراً حلول الليل. كانت لديه خطته التي جعلته يبتسم لحريته.

وعندما حل الليل تقريباً هبط إلى واد عند طرف غابة البلوط. وضع أوراقاً جافة من الدغل القصير على العلّيق الصمغي وأشعل النار بها، فهكذا ستبقى النار لمدة طويلة، لأن الدوم مثل الصوفان[1]، وسيكون لديه الوقت الكافي للابتعاد. «هذا عمل لسنونات المشنقة! أكثر مما سيجرون خلفي... الآن!»

ثم ذهب باتجاه الشرق بحذر ويقظة بينما صعد خلفه بحر أحمر سرعان ما اجتاح نصف السماء. وحملت الرياح المنعشة موجة من النار في الغابة وفي الدغل.

*
* *

بعد أيام من شدة الجوع في الوديان، وليال من السير، وصل هوسير إلى ضواحي شرشيل.

وفي النهاية وجد في غسيل عُلّق على سياج بالصدفة صدرية وبنطالاً وقميصاً.

وأكملت قبعة غير صالحة للاستعمال التقطها من كومة قاذورات «لباسه المدني»، أما بخصوص لباس السجين، فقد ألقاه في عمق واد مليء بالعليق، ولا من رأى ولا من سمع!

وهكذا، دخل هوسير سعيداً إلى شرشيل، فقد غدا في تلك اللحظة حراً على نحو نهائي.

*
* *

عمل هوسير على مدى أشهر لدى المستعمرين في هدوء تام، ونسي بعض الشيء السنوات الثلاث عشرة من سجن الأشغال الشاقة التي كانت متبقية له ليمضيها، والتي

(١) مادة إسفنجية تستعمل في الجراحة. المترجم.

كانت تترصده في كل لحظة. ومن كان يتعرّف إليه وقد أعفى لحيته وأضحى قوياً ورشيقاً وادعى أن اسمه بيير غودار؟

بل إن جرأته وصلت حد قبول العمل كسائق عربة في ديبيري... القريبة مع ذلك من أورليانز فيل.

وهناك سرعان ما ضاع هوسير بسبب إحدى الصدف الساذجة والقاتلة التي تحطم الحياة فجأة.

كان وقت الثرثرة والسكر بمناسبة الانتخابات البلدية. فقد ترشح رب عمل هوسير كمستشار، وكان يقدم الشراب بسخاء.

وانخرط هوسير بعمى في تلك الأشياء مع أنه ما كان يستطيع حتى أن ينتخب، إذ كان يعيش باسم مزور، وشرب. واختلط بمجموعات وأخذ يخطب... وفي الليل، وفي السكر المطلق، اندلع شجار. ضرب هوسير العملاق بقبضتيه مصيباً بعض الرجال... ثم حُمل ككتلة لحم سكراناً وشبه مغمى عليه إلى السجن.

كان الاستيقاظ كئيباً، فإذا ما تخلص من ذلك المأزق فسيحدث ذلك بمعجزة!

أراد هوسير عندما كان أمام المفتش أن يقاوم حتى النهاية. اسمه غودار وقد فقد أوراقه، والكل يعرفه جيداً في المدينة... أجل، لكن أين أدى خدمته العسكرية؟ رد من دون أن يضطرب بأنه أعفي كونه يعاني مرضاً في رئتيه... ثم أتى سؤال ثان أكثر رعباً، أين أمضى مجلس مراجعته؟ امتقع وجه هوسير شيئاً ما. في لوريون...

هذا بعيد... ومع ذلك، كان هناك تلغراف، ويمكن أن يتم التأكد من الأمر... ما العمل؟

أخذ المفتش يبحث منذ وقت في ذلك النهار المكفهر الكئيب المخفف بقضبان النوافذ القذرة، وسط الأوصاف القديمة للأشخاص الذين يجري البحث عنهم. عمّ صمت مطبق في مكتب الشرطة البائس والكريه. وفي الخارج كان طفل عربي يغني.

رفع المفتش رأسه، وتأمل هوسير، ثم استدار فجأة نحو الحاجب، قائلاً:

ـ جرّد هذا الرجل من ثيابه.

وابتسم المفتش، فقد انتهى الأمر.

وهكذا، أخذ هوسير ينزع ثيابه بنفسه بفخر.

فقال له المفتش:

ـ عندما يكون للمرء يا بني ثلاث عشرة سنة ليمضيها في العمل، وعلى الخصوص عندما يكون مزخرفاً مثلك، لا يتعاطى السياسة. . . هذا سيّئ!

بقي هوسير هادئاً. عزّى نفسه مفكراً بأنه عرف مع ذلك كيف يفر وكيف يعيش حراً لما يقرب من سنة، ثم لن يعودوا إلى إرساله إلى أورليانز فيل أبداً. سيحكمون عليه بالأشغال الشاقة تلك المرة لأنه فر مستعملاً العنف في حق موظف، وأضرم النار.

اعتدل في وقفته، وقال ساخراً:

ـ ماذا يا سيدي المفتش؟ أجل، هذا صحيح، أنا هوسير، وماذا بعد؟ كل ما في الأمر أن هناك العديدين مثلي؟ لربما أنت أيضاً المزين بالشرائط وكل شيء، وأنت تـ. . . في العموم، في هذه اللحظة، لن تهتم بما قمت به، ثم اعلم شيئاً، لو لم نسكر ما كنت أنت بطبيعة الحال من سيوقعني في الفخ!

ـ إخرس! إذهب مع العميل الذي سيأخذك إلى مركز الدرك. إلى الأمام!

ـ حسناً. . . حسناً! هيا بنا. ولا داعي للعجلة بما أن ذلك سيكون طويلاً.

ملاحظة

ما كانت شخصية جون هوسير باختلافها الجذاب، وبالرؤية الأخرى والحياة الموازية لتفوت إيزابيل إبرهارت، فقد شغفها ذلك الفار بما يكفي لتشتغل عليه في العديد من الروايات. نشرت قصة على الهامش تحت هذا العنوان في البرقية الجزائرية بتاريخ ٥ نيسان/ أبريل سنة ١٩٠٤، والرواية الأخرى التي تلي والمعنونة بالفار هوسير قدّم لها فيكتور باريكون مع الرواية الأولى في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

رواية أخرى: الفار هوسير

... ذات يوم، وفي كباريه الأفرون، دعاه رجل جمعهما حديث إلى نصف لتر من النبيذ الابيض، واقترح عليه أن يعمل لديه كسائق عربة، مادام أنه كان يعرف كيفية معالجة الدواب والقيادة. اما هو فقد كان لديه مخزن شحن في ديبيري.

بقي هوسير يفكر. كان المرء يقضي جوعاً بطبيعة الحال، ولم تكن تلك حياة، لكن ديبيري كانت قريبة جداً من أورليانز، ماذا لو تعرفوا عليه؟

تردد طويلاً، ثم أخذه الإعجاب بنفسه فجأة. هل كنت ساذجاً مثل الآخرين هناك؟ ألم يعرف كيف يختفي ويموّه، ويجعل الآخرين لا يفهمون شيئاً؟ فوافق...



بعد سنتين، وقد أضحى أسمر وملتحياً، بات سائق العربة غودار يكاد لا يذكر من كان يلقب بـ«الضخم» الفار هوسير.

من كان يستطيع أن يتعرف عليه؟

وذات مساء من أماسي الانتخابات البلدية، ولما أسرف الرجال في الشرب، انخرط هوسير وسط المجموعات في المقاهي مع انه لم يكن يستطيع الانتخاب طبعاً، ثم اندلع شجار حوالي الساعة التاسعة. كان الرجال يتحدثون عن العمدة المعاد انتخابه.

ـ لكني أخبركم أنه نصّاب ولص ومراب...

ـ لا تقل هذا وإلا نزعت جلدك!

كانوا سكارى وتشاجروا، وكان هوسير مدفوعاً بعناده الغبي للاهتمام بتلك الأشياء التي لا تعنيه. وكان الأكثر عنفاً... عندما حضر الناطور ورجال الدرك احتج وشتم القوة العمومية... وعندما كان أمام مفتش الشرطة أحس فجأة أنه قد وقع في الفخ بكل بساطة، وأنه كان أكثر سذاجة من الآخرين.

ـ أوراقك؟

ـ فقدتها...

وهكذا تمت محاصرته بالأسئلة: أين ولد؟ وأين أمضى خدمته العسكرية... وكان مستجمعاً وعيه عندما قال بأنه أعفي منها، غير أن المفتش قاطعه من فوره: أين كان مجلس مراجعته، ومتى؟ وهكذا اختلط كل شيء في رأس هوسير، وأضحى أخرس.

وفجأة خاطب المفتش الذي أخذ يقلب منذ بعض الوقت أوراق سجل أمامه، وحيث كانت بعض الأوصاف، العميل الذي كان في الخدمة قائلاً:

ـ جرّد هذا الرجل من ثيابه.

لم يفهم هوسير في البداية... وعندما رأى المفتش يبتسم، شعر بقشعريرة، فقد خانته أوشامه المشهورة، وحُدِّد وصفه.

قرأ المفتش بصوت مرتفع:

ـ هوسير جون، ثلاث وثلاثون سنة، مجند في الفرقة الأجنبية الأولى في... محكوم عليه بخمس عشرة سنة من الأشغال العمومية في... فر بتاريخ ١٥ آذار/مارس ١٩.. من

ورش أورليانز فيل، ملحقة بيسة، بعد أن أحرق الغابة التي تحمل الإسم نفسه. هيا، جرّد نفسك من الثياب يا بني. لا ينبغي للمرء تعاطي السياسة في حين يتوجب عليه قضاء ثلاث عشرة سنة من الأشغال! هذا سيعلّمك. هيا، هيا!

اعتدل هوسير:

ـ أجل، هذا صحيح. ثم ماذا بعد؟ لا يستطيع كل الناس الفرار مثلما فعلت، لا تحتاجون للعب دور الأذكياء... لو لم أشرب لما تمكنتم من اعتقالي.

ـ إخرس.

ـ اص...

ثم تبع هوسير بانقياد العميل الذي اقتاده إلى مركز الدرك.

المتسكع

كانت الطريق متعرجة وطويلة وبيضاء، باتجاه الأماكن البعيدة الزرقاء، حيث الآفاق الجذابة.

وكانت الطريق المغبرة تشتعل تحت الشمس بين اللون الذهبي الكامد للحصاد، واللون الأحمر للتلال التي حجبها الضباب المتأجج ولون الدغل الأخضر الغامق.

وفي البعيد تبدو المزارع الثرية والأبراج الخربة، والقربيات الفقيرة في إرهاق النهار. وكان كل شيء ينام.

ارتفع غناء من الهضبة. كان ممدوداً مثل طريق بلاملجأ، ومثل فقر من دون غد سعيد، ومثل شكوى غير مسموعة. كان ذلك غناء الحصادين القبايليين.

كان القمح باهتاً مصفراً، والشعير أصهب، يتجمعان على الأرض المرهقة في عملها المخصب.

غير أن كل ذلك اللون الذهبي الفاتر المنثور تحت الشمس لم يشعل أي وميض في عين المتسكع المضطربة.

كانت ثيابه رمادية... وبدت مغطاة بالغبار الكامد الذي يجعل الأرض الترابية عند قدم المتجول العارية لطيفة.

كان طويل القامة نحيفاً ذا وجه حاد محمي بطرف الغطاء الرث، ولحية رمادية فظة، وعينين كامدتين وشفتين تشققتا بفعل العطش. وكان يمضي.

وعندما كان يمر قرب مزرعة أو مشطة يتوقف ويضرب الأرض بعصا شجرة الزيتون البرية الطويلة.

مزق صوته الأجش صمت البادية، طالباً خبز الله.

كان محقاً، فالمتسكع كان بجسد يثير الشفقة، والخبز المقدس الذي يطلبه من دون استجداء يعود له، والصدقة ليست إلا إعادة قليلة مثل اعتراف بالإثم.

لم يكن للمتسول مسكن أو عائلة. كان حراً يتجول، وكانت نظراته المضطربة تجعل ذلك المنظر الإفريقي الكبير ملكاً له يزيح حدوده بحسب رغبته إلى ما لا نهاية.

وعندما كان يريد أن يستريح بعد أن يتعب من السير وترهقه الحرارة تمنحه أشجار المصطكا الكبيرة في التلال والأوكاليبتوس النائحة في الطرق ظلالها، وهدوء نوم من دون أحلام.

لربما عانى المتسكع فيما مضى من كونه من دون بيت ولا يملك شيئاً، ومن دون شك أيضاً أن يتسول ما كان يدرك بالفطرة أنه من حقه.

لكن في تلك اللحظة، وبعد سنوات طوال متشابهة دوماً، لم تعد له رغبات وخضع للحياة غير مبال.

أوقفه دوماً رجال الدرك وأُدخل السجن... غير أنه لم يفهم أبداً... إضافة إلى ذلك لم يشرح له أحد لمَ يحرم على المرء السير وسط مداعبة الضوء المخصب وعبور تلك المنطقة من الكون التي تبدو له ملكه. لم يفهم لمَ يمنعه أولئك الناس الذين لم يمنحوه ملجأ وخبزاً من الحصول عليهما.

وعندما كان يتهم بسوء كان يرد دوماً: «أنا لم أسرق، ولم أقم بأي شيء سيّئ...» غير أنهم كانوا يخبرونه بأن ذلك لم يكن كافياً، ويبقى دفاعه البسيط غير مسموع...

وبدا له ذلك ظلماً مثل العديد من الأشياء المكتوبة على الأميّين في شريط الطريق الكبيرة.

* * *

غير أن قامة المتسكع الطويلة تقوّست، وأضحت خطواته مترددة، فقد حلت الشيخوخة والتعب قبل الأوان بلا عناية.

وذات يوم سقط المتسكع المريض على قارعة الطريق بأحد أمراض الشيخوخة الحزينة تلك، والتي لا تهدئها العلاجات السريعة.

وجده مسلمون تقاة هناك، وحملوه إلى المستشفى، فوافق صامتاً.

غير أن رجل الآفاق الواسعة عانى هناك من حصار الجدران البيضاء والمساحات المحدودة. . .

وبدا له ذلك السرير الليّن أقل نعومة وأقل أماناً من الأرض، الأرض الطيبة التي اعتاد عليها.

تملكه الملل مع حنينه إلى الطريق الحرة. وأحس أنه إذا بقي هناك سيموت حزيناً من دون عزاء الأشياء التي اعتادتها عيناه.

أعيدت له ملابسه الرثة القذرة باحتقار. . . غير أنه لم يتمكن من السير طويلاً، فبقي مقيماً في المدينة.

اقترب منه شرطي وعرض عليه مساعدته، فرد المتسكع:

ـ أتركني إذا كنت مسلماً، رجاءً. . . أريد أن أموت في الخارج. . . في الخارج! دعني.

وباحترام عِرقه للمساكين والمجانين ابتعد الشرطي.

وهكذا، وفي الليل الفاتر، جر المتسكع خطواته خارج المدينة المعادية، ونام على العشب الناعم على حافة واد لا يكاد يصدر همساً.

وفي الظلمة الحالكة، وفي الفراغ الكبير المحيط به، ذاق المتسكع لطف الراحة التي لا تُزعج.

ولما أحس نفسه أكثر قوة، رحل مجدداً إلى الأمام، عبر الحقول والدغل.



انتهى الليل، وارتفع نور شاحب راسماً باللون الأسود جبال القبايل البعيدة، وكان صياح الديكة المبحوح ينادي الضوء في المزارع.

كان المتسكع قد نام على منحدر من عشب جعلته الأمطار الخريفية الأولى ينمو.

وعلت برودة نافذة في النسيم مع الرائحة النفاذة للزنابق وبخور مريم غير المرئية.

كان المتسكع ضعيفاً جداً، واجتاح خدر تام أطرافه، غير أن السعال الذي جعل كل جسده يهتز منذ بداية البرد هدأ.

طلع النهار، والتمع خلف الجبال فجر أحمر ملقياً سحباً قانية على الخليج الهادئ، حيث صبغت بعض الأمواج المرتعشة الماء بظلال ذهبية.

وحجبت الضبابة الطبيعية بهالة متناثرة تلال مصطفى، وبدا المنظر كبيراً وناعماً ولطيفاً وصافياً. لم تكن هناك خطوط متصادمة ولا تنافر للألوان. وكانت هناك أيضاً ابتسامة مؤثرة وحزينة تطفو فوق النوم المبدد الأشياء على نحو سيّئ، واسترخت أطراف المتسكع.

لم يفكر في شيء. كان من دون رغبة ومن دون ندم. وفي وحدة الطريق، وبلطف رقدت داخله الحياة التي كانت من دون تعقيدات، لكنها غامضة مع ذلك، والتي حظي بها منذ سنوات، رقدت في سعادة الموت التي تفوق الوصف من دون مواعظ، ومن دون فقاعات.

زينت أشعة الشمس الفاترة الأولى المتسللة عبر الحجابات الرطبة لأشجار الأوكاليبتوس باللونين الذهبي والأرجواني الجسد الجامد بعينين مغمضتين، وثياب رثة مشدودة، وقدمين عاريتين ومغبرتين، وعصا الزيتون الطويلة. كل ما كانه المتسكع ذو الروح البريئة لفظ أنفاسه في همس قديم للإسلام الخاضع، وفي تناغم بسيط مع حزن الأشياء.

ملاحظة

نهاية سنة ١٩٠٢، وبداية سنة ١٩٠٣ كان «الحق في التشرد» موضوعاً ملحاً في كتابات إيزابيل إبرهارت (انظر نص الافتتاح (الاستهلال) في الأعمال الكاملة. الكتاب الأول)، وهو يعبر عن حنين الكاتبة البدوية للأماكن البعيدة، وهي المقيمة منذ عدة أشهر في الجزائر بالشمال.

كانت رحلة جديدة إلى «الآفاق المغربية» وشيكة. نشر نص المتسكع بتاريخ ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٣ في الأخبار، وفي اليوم الموالي رحلت إيزابيل إبرهارت إلى بوسعادة، ونشرت القصة في ظلال الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

إلى مكسيم نواري، رسام الآفاق
النارية وأشجاراللوز الدامعة.

دموع اللوز

ترقد بوسعادة، الملكة الشقراء المكسوة ببساتينها المعتمة والمحروسة بتلالها البنفسجية، بلذة في ضفة الواد الوعرة، حيث يسمع خرير المياه المنسابة على الحصى الأبيض والأحمر. وكانت أشجار اللوز المائلة، كما لو أنها غير مبالية، على الأسوار الترابية القصيرة، تذرف دمعها الأبيض تحت هدهدة الرياح، وتطفو رائحتها الناعمة في فتور الهواء الرطب مثيرة حزناً ساحراً...

كان قد حلّ فصل الربيع تحت تجلّياته الحالمة وفي منتهى رقة الأشياء تكمن الحياة عنيفة مترعة بالحب والحدة، ويصعد نُسغ النباتات القوية من مخازن الأرض الغامضة.

وكان صمت مدن الجنوب يعم بوسعادة. وفي المدينة العربية نادراً ما كان يشاهد المارة، ولكن في الواد تتحرك أحياناً مجموعات النساء والفتيات في أثواب زاهية.

ملاحف بنفسجية، وأخضر زمردي، ووردي زاه، وأصفر ليموني، وأحمر رماني، وأزرق سماوي، واللون البرتقالي، والألوان الحمراء أو البيضاء، طرزت بأزهار ونجوم مختلفة الألوان، ورؤوس تعتمر نماذج من التصفيفة الصحراوية، على شكل ضفائر وأياد مذهبة أو فضية وسلاسل صغيرة، ومرايا صغيرة وتمائم، أو متوجة بأكاليل مزينة بريش أسود... يمر كل ذلك مهدهداً بالشمس فتتشكل المجموعات وتتغير في قوس قُزح يتغير باستمرار مثل أسراب فراشات فاتنة. وهناك مجموعات من الرجال الذين يغطون أجسادهم ورؤوسهم بأثواب بيضاء، ينطلقون بوجوه سمراء صارمة في الأزقة الترابية صامتين...

ومنذ سنوات، وأمام كوخ بني بالطين المجفف تحت شمس لطيفة، تجلس

عجوزان من الصباح إلى المساء. كانتا تلتفان في ملحفتين حمراوين قاتمتين يشكل صوفهما السميك ثنيات عظيمة حول جسديهما الناتئين. وبحسب عادات البلد كانتا تعتمران ضفائر من الصوف الأحمر وضفائر شعر رمادي صبغ بالحناء في لون برتقالي زاه، وتضعان أقراطاً ثقيلة في آذانهما التعبة، التي تحمل سلاسل فضية صغيرة ثبتت في مناديل حريرية للرأس. وكانت عقود ذهبية ومشابك عطرة ومبيسة وصفائح فضية مرصعة تغطي صدريهما التعبين. وعند أقل حركة نادرة وبطيئة تقوم بها إحداهما ترن كل تلك الزينة والدمالج المشدودة إلى كاحلَيها ومعصميها الهزيلين.

كانتا ساكنتين مثل عشيقتين عجوزين منسيتين تنظران عبر دخان سجائرهما الأزرق إلى مرور الرجال الذين لم يعودوا ينظرون إليهما، والفرسان ومواكب الأعراس، وقوافل الجمال أو البغال، والشيوخ الطاعنين في السن الذين كانوا عشاقهما في الماضي، كل حركة الحياة هذه التي لم تعد تمسهما.

وكانت عيونهما الكامدة الموسعة بالكحل، وخدودهما المخضبة مع ذلك على الرغم من التجاعيد، وشفاههما الحمراء، كانت كل تلك الزينة تلقي ظلاً حزيناً على وجهيهما النحيلين والأدردَين.

. . . في شبابهما كانت السعدية ذات وجه رقيق أسمر مائل، وكانت حبيبة بيضاء هزيلة. وكانتا تسحران البوسعاديين البدو في أوقات الفراغ.

هما الآن ثريّتان، ومزيّنتان بنتاج شرهِهما الماضي، تتأملان في هدوء المنظر المدغدغ للمدينة الكبيرة حيث يلتقي التل والصحراء، وحيث تختلط الأعراق القادمة من الصحراء وتبتسمان للحياة - التي تستمر ثابتة من دونهما - أو لذكرياتهما. . . من يدري!

وفي اللحظات التي تدعو فيها أصوات المؤذنين البطيئة والمنتحبة المؤمنين للصلاة، تقوم الصديقتان، وتغتسلان، ثم تسجدان على حصير نقي بطقطقة حلي كبيرة، ثم تعودان إلى مكانيهما وتأملاتهما كما لو أنهما تنتظران أحداً لم يأت.

ونادراً ما كانتا تتبادلان الحديث.

ـ انظري يا السعدية، هناك السي بنعلال، القاضي. . . هل تذكرين الوقت الذي كان عشيقي فيه؟ كان حينها فارساً أنيقاً! كم كان ماهراً في امتطاء فرسه السوداء! وكم

كان سخياً مع أنه كان وقتها عدلاً بسيطاً. والآن، ها هو ذا قد أضحى شيخاً... يلزمه خادمان ليركب دابته الهادئة مثله، ولا تجرؤ النساء على النظر إلى وجهه... هو من كنت أقضم عينيه بالقبل!

ـ أجل... والسي علي الملازم أول الذي كان جندياً بسيطاً في سلاح الفرسان، والذي حضر مع السي بنعلال، والذي أحببته كثيراً؟ يا لها من ذكرى! هو أيضاً كان فارساً مقداماً وشاباً وسيماً... كم بكيت حين رحل إلى مداح! كان يضحك، فقد كان سعيداً لأنه كان قد رُقيَ حديثاً إلى رتبة عريف... كان قد نسيني... كذاك هم الرجال... توفي السنة الماضية... فليرحمه الله!

أحياناً كانتا تغنيان مقاطع من أغاني الحب التي تتردد بغرابة في فميهما بصوتيهما المرتعشين والمنطفئين تقريباً. وكانتا تعيشان غير مباليتين وسط أشباح الأيام الماضية، منتظرتين أن تأزف الساعة.

... تصعد الشمس الحمراء ببطء خلف الجبال المكسوة بضباب خفيف، ويمر نور أرجواني على واجهة الأشياء مثل حجاب خفر، وتعلق الأشعة التي ظهرت حديثاً قنزعات نارية في قمة أشجار النخيل، وتبدو قباب الأولياء الطينية بلون ذهبي شديد. وتشتعل للحظة كل المدينة الصفراء العتيقة كما لو أنها أحرقت بنار داخلية، بينما تبقى أعماق البساتين وسرير الواد والأزقة الضيقة غامضة في الظل، وكما لو أنها ملئت بدخان أزرق أذاب الأشكال، وخفف حدة الزوايا، فاتحاً أماكن غموض بعيدة بين الأسوار القصيرة المنخفضة، وجذوع النخيل المحفورة... وعلى ضفة الوادي يصبغ نور النهار المورد الدموع المتناثرة والمتحجرة في لون أبيض واضح لأشجار اللوز المتأملة ذات اللون الوردي.

وأمام بيت الصديقتين العجوزين تنهي الرياح الباردة كنس رماد الموقد المطفأ، حاملة إياه في زوبعة صغيرة، غير أن السعدية وحبيبة ليستا في مكانيهما المعتادين.

ففي الداخل كان النحيب يصعد مبحوحاً تارة، وتارة أخرى ثاقباً. وحول الحصير كانت حبيبة ترقد مثل كيس أقمشة حمراء مشوّه، وعلى الجمود المتصلب الذي كانت تلتمع الحلي فيه بغرابة كانت السعدية وعشيقات سابقات أخريات ينتحبن، ممزقات وجوههن ناشبات أظفارهن بقوة. وكانت صلصلة الحلي تصاحب انتحاب الباكيات في تناغم.

وعند الفجر توفيت حبيبة العجوز جداً، والمنهكة جداً من دون احتضار، بهدوء كبير لأن نابض الحياة تحطم شيئاً فشيئاً داخلها.

غسّل الجسد، ولُفّ بأقمشة بيضاء، ورُشّ بالطيب، ثم سجّي، وقد وُجّه وجهها إلى الشرق. وحوالي منتصف النهار حضر رجال وحملوا حبيبة إلى إحدى المقابر غير المسيجة حيث تمد رمال الصحراء بحرية أمواجها الكثيرة والأبدية على الحجارة الرمادية الصغيرة.

انتهى الأمر... وأخذت السعدية الوحيدة منذ تلك اللحظة مكانها، وبدخان سيجارتها الأبدية الأزرق، تنهي زفر القليل من الحياة المتبقي داخلها، بينما كانت أشجار اللوز على ضفتي الواد المتألقتين وفي ظل البساتين لا تتوقف عن ذرف دموعها البيضاء، في ابتسامة ربيعية حزينة...

ملاحظة

تؤرخ الكاتبة شخصياً كتابة هذه القصة في بوسعادة بـ٣ شباط/فبراير ١٩٠٣. تقع المدينة التي تعد ما يشبه مركزاً متقدماً للصحراء، وذات الطابع الصحراوي على بعد حوالي ٢٥٠ كيلومتراً جنوب الجزائر، وتظهر فيها الرمال ظهورها الأول، وهو المنظر الذي أعجب به كثيراً الرسام إيتيان ديني، الذي ما تزال قبته البيضاء ظاهرة بالمقبرة العربية.

أهدت إيزابيل إبرهارت قصتها إلى رسام آخر من رسامي الجزائر يدعى ماكسيم نواري، وهو ابن العاصمة أرسلته الحكومة الفرنسية، ولعدم توفر مكان اقتسمت معه غرفتها بالفندق بعد أشهر من ذلك في بني ونيف بالجنوب الوهراني.

نشرت القصة بتاريخ ١٥ شباط/فبراير سنة ١٩٠٣ في الأخبار، وأعيد نشرها في ملاحظات الطريق. (مصدر ذكر سابقاً).

المدّاح

في مقصورات الدرجة الثالثة الضيقة والخربة كان حشد الرجال ذوي البرانس الترابية اللون يتزاحم بصخب. انطلق القطار وراح يمضي بانقياد على خطوط السكة الحديد الحارقة والبدو لم يجلسوا بعد. وكانت ضوضاء كبيرة وسعيدة... كانوا يمرون مراراً وتكراراً فوق الحواجز المنخفضة، ويثبتون أكياسهم ورزمهم الرثة، وينتظمون كما لو أنهم يقومون بسفر طويل... ولما كانوا معتادين على المساحات الواسعة الحرة راحوا يتنادون بأصوات عالية، ضاحكين متمازحين ومتبادلين التدافع الودود.

وأخيراً استقر الجميع في الاختناق المتزايد للأقفاص الصغيرة المجتاحة في كل لحظة بزوابع من الدخان الثقيل والمملوءة بالصدأ الأسود والدبقة.

وحل هدوء نسبي.

رزم مختلفة وأكياس ملئت بالجواق والقصبات والبنادير والغيطة، كل الأوركسترا الضرورية للحج العربي.

وهكذا، نهض في مقصورة في الوسط رجل شاب طويل القامة قوي البنية يرتدي بفخر برنساً أبيض متناقضاً مع الهيئة الترابية للآخرين... كانت ملامح وجهه أكثر انتظاماً، وأكثر وسامة لرجل من الجنوب أسمر مدبوغ بالشمس والريح. وكانت عيناه الواسعتان والشديدتا السواد تلتمعان بوميض فريد أسفل حاجبين مقوسين.

أمرهم بالصمت بيده المشيقة كخامل.

هو الحاج عبد القادر، المداح، وكان يهمّ بالغناء، فمال الرجال الجاثمين على المقاعد المنجدة على الحواجز المنخفضة لينصتوا له.

وهكذا، بهدوء وعلى نحو هامس، بدأت الجواقات والقصبات تسكب حزناً بطيئاً ورقيقاً غير محدود، فيما أخذت البنادير تدق نغمتها الرتيبة.

توقفت القصبات السحرية، وبدأ المداح يغني بلحن غريب أغنية عن سلطان الأولياء، سيدي عبد القادر الجيلاني من بغداد.

إشفني يا الجيلاني، يا نور الظلمات!
إشفني يا أفضل الخلق!
قلبي فريسة الخوف
لكني جعلتك حصني.

كان صوته السريع في الكلمات الأولى من كل بيت ينتهي ممدوداً مثل أنين. وفي الأخير يتوقف على صرخة حزينة طويلة يتلوها صوت الغيطة الحاد آخذة في النحيب مهتاجة ومضطربة كما لو أنها يائسة... ومجدداً ينطلق صوت الجواقات والقصبات التي عادت كخرير ماء أو حفيف رياح في القصب عندما توقف صوت الغيطة الوحشي... ثم الصوت الجهوري المنتحب للمنشد العربي.

وتسترعي بعض المقاطع انتباه المنصتين المتحمسين فيتصايحون بإعجاب: الله! الله!

ويمضي القطار كأفعى سوداء عبر الريف المحروق حاملاً الزوار، وموسيقاهم وبهجتهم البسيطة باتجاه بعض قباب الأرض الإفريقية.



باتجاه الشمال كانت الجبال الشاهقة التي تنهي ميجوة تحجب الأفق، ومن قمة إلى أخرى باتجاه الجنوب تنخفض شيئاً فشيئاً حتى هضبة هدنة القوية.

وعلى قمة تلة مرتفعة، فوق ما يشبه سطحاً متصدعاً أحمر اللون، خالياً من الأشجار والأعشاب، ارتفعت قبة ناصعة البياض منعزلة في سديم فراغ التلال الوعرة واللاذعة حيث يلقي الضوء المتأجج لفصل الصيف انعكاسات خريفية.

وتحت عين الشمس كان حشد كبير صاخب مؤلف من جماعات تتغير من دون

توقف ويلون أصفر موحد صاف جداً. . . كان البدو يروحون ويجيئون بأدعية مرتفعة حول المقام المشيد هناك تكريماً لسيدي عبد القادر، سيد المقامات العليا.

وفي خيم ممزقة من الكتان كان قبايليون بصدريات وعمائم يوزعون قهوة سيئة في أكواب مشقوقة. وكان الذباب الذي أغراه السائل الحلو ينقض على وجوه الشاربين المتعرقة وأياديهم وعيونهم مهتاجاً بالحرارة.

وكان الذباب يطن والبدو يتحدثون ويضحكون ويتشاجرون من دون أن يتعبوا كما لو أن حناجرهم كانت من البرونز. كانوا يناقشون أمور قبيلتهم، ويتحدثون عن أسواق المنطقة، وأثمان المواد الغذائية، والمحصول، والتجارة الصغيرة بالمواشي، والضرائب التي ستدفع عما قريب.

وفي خيمة كبيرة منخفضة ومخططة نُصبت في مكان منعزل كانت النساء يتحدثن مزقزقات، غير مرئيات لكنهن مغريات دوماً، فاتنات شباب القبيلة بجوارهن فقط.

وكان هؤلاء يتجولون أقرب ما أمكنهم من بيت الشعر البهيج، ويتم في بعض الأحيان تبادل نظرة محملة بالكراهية مع تهديد لفظي أخرس أو حركة تكشف حكاية عشق غامضة قد تتحول قريباً إلى مأساة دامية.

. . . وكان المداح يستريح شبه مستلق على حصير وعيناه نصف مغمضتين.

ولم يكن الحاج عبد القادر المحترم جداً بسبب صوته الجميل، ومخزونه الغنائي الذي لا ينضب يستسلم للمنصتين. كان طيّعاً ولطيفاً غير أنه كان يعرف كيف يصيح مخيفاً عندما تتم مضايقته. وكان يعتبر نفسه شخصاً مهماً، ولا يغني إلا عندما يروقه ذلك.

وكان يتحدر من قبيلة أولاد نايل، الفاسدة بالوراثة بالبغاء القديم. تشرّد منذ طفولته مرافقاً المداحين الذين علموه فنهم، فنجح في القيام بحج المدن المقدسة تابعاً صوفياً ورعاً كبيراً. وكان مستقيماً وأنانياً لكن بروح فضولية، فعاد سالكاً طريق الطلاب، فقد عبر سورية وآسيا الصغرى ومصر وطرابلس وتونس جامعاً من أماكن متفرقة حكايات عجيبة وأغاني تقوية وحتى الأغاني الشعبية الغرامية والنفرات التي يجيدها البدو. . . كان يعرف كيف يروي قصصه وذكرياته الشخصية بأسلوب فني عفوي. كان أمياً لكنه يتمتع بين الطلبة أنفسهم باحترام كبير ويقدّرون تجربته وذكاءه. كان خاضعاً وراضياً بالقليل ومؤثراً رفاهيته فوق كل شيء. ولم يرد المداح أن يدنس

نفسه في قضايا السرقة المريبة، والتي جاورها في بعض الأحيان. ولم يكن له ما يلوم نفسه عليه إلا بعض المغامرات الخطرة دوماً، والتي كانت طبيعته كمستمتع تدفعه إليها وطبيعته كعاشق تفرضها سمعته.

وفي القبيلة كان هو الديك المطلق، وزير النساء المخاطر برأسه من أجل الحسناوات اللواتي يشق الوصول إليهن، ويتمتع بشهرة متملق. وعلى الرغم من العادات، ومن الغيرة الفظة، يُغضّ النظر نسبياً عن ذاك النوع من الأعمال شريطة اجتناب المواجهات مع ذوي الصلة، وعلى الخصوص ألا يمسك متلبساً وهو الأمر القاتل دوماً تقريباً. وبالنسبة إلى الغريب فإن ذلك التسامح النسبي هو أقلّ بكثير، كما أن هالة مجد المداح تعظم كلما كان هناك مزيد من الخطر والجسارة.

وهكذا تبحث عيون البدو بشغف خلال الاحتفال لعلها تكتشف تحت غطاء خيمة النساء الغامض بعض الإشارات التي لا تكاد تُدرك، والتي تبشر بالمغامرة.

... وبعد الرقص والصراعات يأتي التوقف الطويل حول المداح، الذي لا يتعب صدره القوي بعد بعض قروش الزيارة المقدمة إلى الوكيل الذي يرد بالتبريكات فينام البدو المتعبون في وقت متأخر جداً ملتفين في برانسهم على الأرض الطيبة التي تعد الملجأ المعتاد لبؤسهم الموثوق. وشيئاً فشيئاً يعم صمت مطبق، فيما ينشر القمر ضوءه الوردي على الجموع النائمة على الأرض الجرداء...

وذاك هو الوقت الذي يمكن فيه رؤية طيف عابر ينزل سرير الواد الجاف حيث ينتظر المداح جالساً على حجر في الشك الساحر... كيف ستكون تلك المجهولة التي قامت من تحت قماش الخيمة السميك بحركة من يدها مع غروب الشمس؟

*
* *

... ويرحل زوار سيدي عبد القادر على العربات أو على الدواب أو على أقدامهم دافعين أمامهم حميرهم المحملة. وعند وصولهم إلى سفح التلة، يتفرقون قاصدين دواويرهم المتوارية في الريف الكئيب المتوقد.

أما المداح فيسلك طريقاً كيفما اتفق، حاملاً رزمة ملابسه العتيقة المشدودة بحبل على كتفه. ويمضي مستقيماً رافعاً رأسه بخطوات بطيئة قاصداً قباباً أخرى، باتجاه مجموعات زوار آخرين، سيفتنهم بصوته، وستحبه بناتهم في الليالي المتواطئة...

كان الحاج عبد القادر غير مبال، فينام في المقاهي المغربية أو في المضيفات، وحيث يقدم له الطعام من أجل بعض المقاطع الغنائية أو بعض القصص. ويرحل عبر القبائل البدوية أو القبايلية المقيمة أو المرتحلة. ويصعد في فصل الصيف باتجاه الشمال، ويعبر في فصل الشتاء الهضاب العليا الباردة من أجل الذهاب إلى مرافئ الصحراء الباسمة حيث بيسكرة وبوسعادة وتياري...

وهكذا يتجول من سوق إلى سوق، ومن طعام إلى طعام، سعيداً في المجمل تلك السعادة العابرة وقليلة التعقيد لمن ولدوا متشردين...

غير أنه يحل يوم ماكر ومحتوم حيث يتوقف كل ذلك التقدم عبر سعادات صغيرة متتابعة، تدفع إلى نسيان الأمور المخفية.

تقوّس جسد الحاج عبد القادر، وأصبحت خطواته مترددة، وانطفأ وهج عينيه، فقد أضحى المداح الوسيم شيخاً.

وهكذا يستمر في التسكع ببطء شديد متسولاً وأعمى، يقوده صبي جنّد من الجيش كثير العدد المتفرق في الطرقات الكبرى... يسأل الشيخ الصدقة، ويمد الصغير يده.

وأحياناً يؤخذ الشيخ المتشرد بحزن مجهول، فيشرع في غناء بعض المقطوعات بصوت مرتعش، أو في ترديد حكايات الماضي الجميلة، مشوشة وضبابية في عقله المنطفئ...

... وذات يوم ألفى بدو كانوا يقصدون السوق جسد المتسوّل المتيبّس على حافة طريقهم. كان نائماً تحت الشمس، مبتسماً في لامبالاة سامية... الله يرحمو! كذاك قال المسلمون الذين مروا من دون أن تهتز أبدانهم...

انتهى الجسد بأن تيبس تحت آخر مداعبة للنهار الذي بدأ يطلع، مبتسماً في السعادة الغامضة عينها للحياة الخالدة، والموت الخالد لأزهار الطريق ولجثة المداح.

ملاحظة

في الطريق يولد الإلهام على نحو جيد. من المرجح أن إيزابيل إبرهارت قابلت المداح، وهو متشرد آخر، في الطريق نحو بوسعادة، حيث تؤرخ كتابة قصتها «شباط/ فبراير ١٩٠٣».

كتبت بتاريخ ٢٩ كانون الثاني/ يناير في يومياتها: «يبدو أنني، في حياتي، لا أذهب إلا مرتين إلى المكان عينه، تونس والساحل وجنيف وباريس وصوف... من يدري، لربما هذه رحلتي الأخيرة لبوسعادة؟» (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً).

لم تعد أبداً إلى «مدينة السعادة» غير أنها حملت منها سلسلة من القصص حيث وضعت كل شخصيتها في منظور موتها، وتظهر الميول الصوفية للكاتبة في تلك النصوص، المستمدة ربما من لقاءاتها مع صوفية زاوية الهامل ليلى[1] زينب.

نشرت قصة المداح بتاريخ ١٣ آذار/ مارس ١٩٠٣ في البرقية الجزائرية، وأعيد نشرها في الأخبار بتاريخ ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٠٥، ثم في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

---

(١) لعل المقصود لالة. المترجم.

في الفجر

في مداعبة شمس تزيح ببطء بخار الليل البنفسجي امتدت الهضبة شاسعة ووردية مبقعة باللون الأسود، مثل جلد نمر منثور، وقد غُطيت ببعض الأشجار الرمادية الصغيرة اليابسة والزاحفة، من الشيح والتيمزغيت التي فاحت روائحها بعد أن غُسلت بالندى.

هي لحظة مباركة، لحظة خفيفة من لحظات الفجر في الهضبة الحرة حيث يلقي النور الباعث على الحياة موجة ناره من دون حاجز من سماء إلى سماء أخرى... هي الساعة التي ينسى المرء فيها نصبه، ويصيب خدر الطريق الليلية الطويلة والرتيبة في الجو البارد الرجالَ والجياد بالاسترخاء والنعاس الذي لا يقاوم... اللحظة التي تنفذ فيها سعادة الأشياء المستيقظة إلى الأرواح.

وهناك باتجاه الجنوب تمتد الهضبة غير المنتهية والمغرية... وحيث مايزال الأفق مصحوباً بضباب خفيف... إنها السبخات الزرقاء الصافية والسبخات الخادعة، والرمال الصفراء والجبال الغريبة للسلسلة الصحراوية ذات القمم المسطحة، ثم الصحراء بكل ألقها الرائع والكئيب... في ربيعها الأبدي والمثبط للهمة وحياتها الحرة والمتسكعة وصمتها المفيد.

وإلى الشمال تحجب جبال شاهقة الأفق، زرقاء وذات قمم بيضاء تسبقها تلال شاحبة مائلة إلى البياض حيث تتسلل أشعة الشمس الحمراء... وهناك التل بمدنه وخط سكك الحديد التابع له، والكراهية والنفاق والضجيج المقضّ والملل الثقيل والمغيظ للحياة «المتحضرة».

كانت الطريق من بوغاري إلى لغوات خالية... ونادراً ما يصادف المرء فيها بعض العربات الثقيلة التي ربطت إليها ست أو سبع دواب بعقودها الثقيلة المجلجلة. وينام

الحوذيون جلوساً على جانب مقدمة العربة واضعين سياطهم حول أعناقهم. . . ويغني بعضهم ممن حافظوا على روح البداوة عبر تلاحقات الصنيع الأوروبي، أو يعزفون على جواق قصبي صغير الحاناً بحزن أثيري بطيء تعبّر عنه زفرة أو خرير مياه جارية.

لكن باتجاه الشمال تشكلت زوبعة من الغبار الأصفر مثل دخان أصهب. وأخذ ذلك يقترب، وسرعان ما ظهرت مجموعة سوداء من الراجلين الذين يسيرون وسط فرسان حمر.

كان موكب سجناء. . .

كان الجنود بزي موحد رث وملطخ حاملين بعناء أكياساً، من بينهم عدد كبير يحمل كل منهم بندقيتين تتأرجحان على ظهره، وشُدّت أكتاف سجناء آخرين بقيود صنعت من قطعتين خشبيتين تمران فوق الذراعين. وكان معهم عرب مقيدون بأقدام عارية أُجبروا على المشي وسط الطريق على الحجارة المسنّنة.

وكان السجناء من الجنود يمضون من دون شك إلى مراكز الانضباط في لغوات، والأهالي إلى تعدميت، إلى سجن الأشغال الشاقة الإداري، المخفي بغموض بين قمم الهضاب العليا الأكثر برودة وقسوة، والذي يجعل اسمه وحده الأبدان تقشعر.

لم تقض أية محكمة بحكم ضد أي من أولئك الرجال، المدنيين أو العسكريين، الذين يُتركون لنزوات الرؤساء الأعلى رتبة أو المديرين الذين يحكمون عليهم بقسوة خارج كل الأشكال المعمول بها بالقوانين، فيرحلون كئيبين بعيون حزينة ووجوه مغبرة ملأى بالعرق إلى جحيم الجنوب المعتم حيث ما من شاهد على آلامهم وشكاواهم التي لا صدى لها. الإنكار الصارخ يلقى في وجه تبجّح الحضارة وغطرستها ونفاقها!

يتبادل المسلمون مع المارين تحية السلام. . . ويستدير بعضهم باتجاه أولئك الغرباء الذين يمضون أحراراً، وينظرون إليهم كما لو أنهم يبحثون عن مساعدة من قِبلهم.

غير أن المجموعة الحزينة تمر وتبتعد، وسرعان ما تختفي في ضوء الصباح الأحمر، ولا يظهر منها مرة أخرى إلا ما يشبه زوبعة صغيرة من بخار أصفر تتلاشى وتختفي.

رؤية حلم سيئ!

ملاحظة

تُتبع الكاتبة على طريق العودة إلى الشمال. هذه القصة التي غيّر فيكتور باريكون عنوانها فيما بعد بـسجناء على الطريق، كتبت في بوغاري في شباط/فبراير سنة ١٩٠٣، ونشرتها الأخبار في الفاتح من شهر آذار/مارس من السنة نفسها، ونشرت أيضاً في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

زهور وياسمينة

١

أحرقت الشمس بلاط الشوارع الشاحب، ومال الظل الأزرق مدحوراً تحت الأقواس وخلف الأعمدة.

سارت زهور وياسمينة ممسكة إحداهما يد الأخرى تحت نور الشمس عارضتين لطفهما كقطتين صغيرتين مِغناجَتين.

وكان مجالهما باب الزون والشارع العريض، والضوء الغامر لساحة الحكومة. وهما تعيشان هناك حيث تبقيان في الليل أيضاً وسط الصفاء المتعاقب للأنوار الكهربائية البيضاء، ولقناديل الغاز الحمراء.

وكانت زهور طفلة في السادسة من العمر، سمراء جداً ذات وجه صغير ودقيق بملامح رقيقة يعلوه شعر مجعد ومشعث شديد السواد. وكانت تغطي جسدها النحيل بقماش وردي باهت. وكانت ذات دلال وتعرف مبكراً كيف تخفي تمزق فستانها بثنيات متقنة. وبابتسامة من شفتيها المكتنزتين، وبعينيها الواسعتين المداعبتين، تمد يدها الصغيرة ذات اللون العنبري مثغثغة وكأنها لا تكلم أحداً:

ـ اعطني سوردي! سيدي، سيدتي، سوردي!

وتلاحق المتنزهين، قافزة أمامهم مثل عصفور دوري في مدينة مألوف وماكر.

وتغطي ياسمينة الأطول قامة، والشاحبة كشمعة، شعرها الأسمر الكثيف ذي الانعكاس الأصفر وجسدها الهزيل بملحفة خضراء واسعة.

كانت ياسمينة حزينة من دون أن تعرف السبب، وتتسول صامتة مكتفية بحركة متوسلة.

التقتا ذات مساء عند زاوية شارع. كانت والدة زهور، وهي ابنة القصبة، في السجن، ففرت الصغيرة إلى مدينة الروميين. وكان الفصل شتاء، وكنست ريح باردة قوية البلاط الصلب للشارع الخالي... جذبت ياسمينة اليتيمة وزهور المتخلى عنها إحداهما الأخرى إلى دعامة باب طلباً لدفء أكبر ومن أجل النوم هناك.

لكن في اليوم الصافي تزيّن الشمس المأساة بألوان رائعة في الجزائر، وتلقي ألواناً ذهبية وأشعة أرجوانية على الأسمال البائسة، فأحزان وهلع بؤس الشمال مجهولة هنا حيث تسود الشمس، المواسية الكبيرة...

تعلمت زهور وياسمين مبكراً جداً الألعاب المنحرفة مع ماسحي الأحذية البذيئين، الحصاد الخطير الذي ينمو في الشارع تحت الألق الأحمر للشاشيات الملطخة بالشحم.

وعندما يكون العائد جيداً تجلس زهور وياسمينة في بعض المطاعم العربية الحقيرة بشارع لامارين، وتستمتعان بالأطباق المبهرة والشوربات الحمراء الدهنية جداً. وفي الأيام الأخرى تأكلان الخبز الجاف تحت الأقواس. وهكذا أخذتا تكبران سريعاً جداً في الشارع غير المبالي، كوردتين فاتنتين نبتتا في تخمر الجداول الدافئة.

٢

في واجهة متصدعة لبيت عتيق، وأسفل سقيفة رخامية نحتت بنعومة، باب منخفض وسميك مايزال يحفظ رسمه المعقد وفسيفساءه من مسامير نحاسية.

وما إن يحل الليل حتى يتسلل من منظار باب مشبك نور إلى الشارع المعتم، ويتدفق على البلاط الأسود حيث تتشابك الظلال المتناثرة والركام المائل الذي أحال الزمان لونه ذهبياً.

وظهرت زهور وياسمينة خلف السياج. وبدا رأساهما غريبين من دون جسديهما في ضوء فانوس غازي غير مرئي.

وكانت زهور تغطي رأسها بمنديل حريري أحمر حيكت فيه طواويس خضراء زمردية، وقد أحاطت جيدها بأكاليل من الياسمين، وعلّقت في أذنيها قرطين ذهبيين عريضين محتفظة بابتسامتها السابقة على شفتيها الشهيتين وفي عينيها الفاترتين.

وخلفها بدت ياسمينة وكأنها تحلم ملتحفة بغطاء أزرق شاحب شد إلى رأسها

بمشبك فضي سميك مع زينة من المرجان تسقط على الجبهة الشاحبة مثل قطرات الدم...

أخفت زرقة عيني ياسمينة دوماً الحزن الغامض والصمت عينه. أما شفتاها الشاحبتان، اللتان يبعث تجميلهما باللون الأحمر بعض الحيوية فيهما، فلم تفترّا عن ابتسامة أبداً.

ويمر الرجال، روميون ويهود وبدو معتمّين، ومجموعات من الزواوة الصاخبين، وملاحون وفرسان جزائريون بسترات حمراء، فتدعوهم زهور بغنج، متملقة كما في الماضي عندما كانت متسولة صغيرة.

وتجعل حليها ترنّ، وتقهقه بصوت تدرك أنه يصيب بالاضطراب ويرفع بلذة القماش الساتان الأصفر لقميصها المثني.

وأحياناً يستسلمون للدخول، فتجتاح جلبةُ الشارع المنزلَ العتيق حيث ألقت القرون الماضية وشاحاً من الغموض والصمت.

وفي السلّم الحجري الضيق ذي الدرجات العالية جداً يسمع صليل مهماز وسيوف وصوت قوي لأحذية حديدية ثقيلة.

وتتبعهم ياسمينة ببطء وارتخاء غير مبالية بغنغنات زهور المستمرة، ومزاح وشتائم ومداعبات المجتاحين وكلامهم البذيء.

تطلب زهور وياسمينة المال من كل أولئك الرجال مثلما كانتا تتسولان في السابق من المتنزهين المستمتعين. ولم يعد أحد يمنحهما ذلك إحساناً، فقد كانتا جميلتين جداً.

تفتحت الوردتان الفاتنتان في التخمر الأكثر احتداماً للشوارع المدخنة والمواخير المعطرة.

٣

في غبار الطريق الأصفر، وبأقدام عارية، ومنحنيتين تحت وطأة كيسيهما من العشب الجاف، رحلت زهور وياسمينة إلى الجزائر، في ألق شمس الغروب الحمراء. كانتا مرهقتين بفعل العمر، خلف ثيابهما الباهتة، وقد تغضّن وجهاهما، وبدت عيونهما غائرة محمرّة، وخلا فماهما من الأسنان، تجران سيقانهما الجافة والتي صارت متيبسة.

عند مرورهما أمام الفيلات المزهرة تنادي زهور بعشبهما من أجل الأرانب وكزبرهما وقد أضحى صوتها مرتعشاً ومبحوحاً.

وتمر ياسمينة غير مبالية وصامتة، وعندما يصير الكيسان فارغين، تصعد العجوزان باتجاه القصبة، فتجلسان في غرفة مهجورة في عمق دهليز مظلم حيث تتكدس الأكواخ وتتداعى، متساندتين بود في عجزهما الأخوي.

وتطهوان العسلوج الجاف وبقايا الخضر التي انتقتاها بعناية صباحاً من صناديق القمامة، ثم تستلقيان فوق العديد من الخرق وتنامان متأوهتين.

كانتا صامتتين لأنهما بدأتا تنسيان، وتسقطان شيئاً فشيئاً في الخضوع الكئيب للطبيعة الحيوانية المنتهية... ومع ذلك تتحدث زهور أحياناً محاولة إثارة ذكريات القصبة وليالي السكر والحب المحتدمة.

إلا أن ياسمينة بعينيها المنطفئتين تحتفظ بذلك الصمت الأبدي الذي عزلها طيلة حياتها عن الناس والأشياء.

وما إن يحل الليل حتى تناما لانعدام الضوء، ولأنه يتعين عليهما الاستيقاظ والنزول بكيسيهما الباليين باتجاه الشوارع الحية عند شروق الشمس هناك خلف ماتيفو الغارقة في ضباب أبيض على الخليج الكبير الوردي والمثير.

ملاحظة

تذكّر هذه النظرة إلى حياة النساء بدمع اللوز، لكن الأمر يحدث هذه المرة في الجزائر حيث استقرت إيزابيل إبرهارت رفقة صديقها ومساعدها فيكتور باريكون بعد مغامراتها السيئة بتينيس بينما عُيّن سليمان خوجة في سطيف بالقسنطينية.

ومنذ نشرها في البرقية الجزائرية بتاريخ ٢٥ آب/أغسطس ١٩٠٣ بعنوان فرعي «نماذج جزائرية» اختفت هذه القصة، ولم يعد باريكون أو دويون نشرها في كتبهما المتعاقبة من دون أن نعرف السبب. وهذا نص لم يسبق نشره تقريباً.

في سبيل الله

تشققت الحقول تحت الشمس. وحجبت التلالُ الصفراء الجرداء، المفصولة بمنحدرات صخرية شاهقة تُضرِّج التراب الصلصالي، وبنات الشقران، الأفقَ حيث ترتفع أبخرة مضطربة.

وتظهر في أماكن متفرقة ظلال الخروب السوداء الجامدة أو تلك الملتوية والضامرة لأشجار التين البرية.

وباتجاه الجنوب، خلف التلال المنخفضة والأودية الجافة، يمتد خط بلون أزرق معتم وبحري تقريباً: تلك هي هضبة هدنة الكبيرة، البعيدة جداً والعالية جداً في السماء الكئيبة، والمسدودة بسور أزرق مدخن يشكله جبل أولاد نايل.

كانت البادية المحترقة تنام نوماً عميقاً، ونمت بعض العنابيات والمصطكا القصيرة في الظل البارد لأشجار الزيتون الرمادية، وتاهت أعشاب فصل الربيع الدقيقة الجافة وسط الأشواك المجتاحة.

وكان شيخ طاعن في السن مستلقياً هناك وملتفاً في ثياب ترابية اللون وحيداً وسط ذلك الفراغ وذلك الصمت. كان نحيفاً جداً ذا وجه بارز العظام أسمر بلون الأرض المحيطة به، ولحية شعثاء طويلة، وعينين مغمضتين، فبدا كميت لفرط ماكان تنفسه ضعيفاً وجسده متيبساً.

وعلى قطعة من الطين بقربه كانت بقايا خبز فطير تشهد على إحسان بعض مؤمني الدواوير المجاورة المتوارية خلف الأودية العميقة.

وغطى سرب من الذباب المهتاج وجه الشيخ ويديه المعقودتين فيما كانت الشمس تحرق قدميه العاريتين. وكان ينام باطمئنان ومن دون اكتراث.

وعلى الطريق المتعرجة عند سفح التلال ظهر ثلاثة فرسان، أوروبي يضع قبعة

الحكام المطرّزة، ورجلان من الأهالي يلبسان برنسين زرقاوين خاصّين برجال المخزن.

مروا جوار الشيخ الذي لم يستيقظ. ظنوا أنه ميت. أوقف الرومي جواده، وسأل الشيخ، فرد بصوت مبحوح ومنطفئ تقريباً بلامبالاة:

ـ أنا عبد القادر بن معمّر من أولاد الدراج من البريقة، لم أقم بأي شيء سيّئ، وبما أني لا أملك إلا الخوف من الله، فالله هو من يدبّر الحياة التي منحني إياها حتى تحين الساعة الموعودة.

غير أن الحاكم الرومي المتأثر بالفقر المدقع للشيخ المشرّد أراد أن يجعل أيامه لطيفة، فعدا مخازني إلى الدوار ليجلب دابة ورجلين.

طمأنوه مخبرين إياه بأنهم سيحملونه إلى برج بوعريريج، إلى المستشفى حيث سيأكل جيداً، وسيحظى بسرير جيد.

بقي المتشرد صامتاً.

استعاد الشيخ المتشرد قواه، وهو ينام على السرير الأبيض الضيق، وقد غسلت عنه قذاراته، وأُلبس لباساً نظيفاً.

ومع ذلك احتفظ بصمته النفور. وكان يدير بعناد عينيه الكئيبتين المشوشتين على الفجوة الواسعة المشرعة على فراغ السماء المتأججة. وفي الرفاهية النادرة أسف البدوي ابن البدو على البؤس الكبير والسير الطويل المضني تحت شمس حارقة باحثاً عن العطايا الشحيحة في سبيل الله...

وسرعان ما أضحت تلك القاعة البيضاء الطويلة موحشة، وذلك السرير ناعماً أكثر مما ينبغي، وذلك الهدوء وذلك الرخاء لا يطاقان...

أخبرهم أنه شفي، وتوسل إلى الأطباء باكياً بأن يدعوه يرحل. اتهموه بالجحود، وأخبروه بأنه ليس إلا متوحشاً، وليتخلصوا منه تركوه يخرج.

وذات صباح رائق في سعادة النهار الكبيرة استعاد ثيابه الرثة وعصاه الطويلة المتخذة من غصن شجرة الزيتون، وهرع من دون أسف وبمرح تقريباً إلى بوابة المدينة، وسخاً ورائعاً تحت الشمس المشرقة.

وكانت تقوم على قمة تلة جرداء، قبالة هدنة الزرقاء والعظيمة والرتيبة مثل بحر، قبة بيضوية الشكل تمد ظلال جدرانها البيضاء بلون الثلج وذات الزوايا القائمة.

ولم تكن جوارها شجرة أو ظل على الأرض المحترقة التي ضرجتها الشمس الملتهبة.

وإلى الشمال كانت التلال تتدرج مثل أمواج جامدة لمحيط هائج. وكانت تمضي صاعدة شيئاً فشيئاً حتى الجبل الأضخم بين جبال القبايل.

وكانت مجموعة من القبور الصغيرة المبنية بحجارة خشنة تتزاحم تحت حماية سيدي عبد القادر البغدادي، سيد القبة وإمام المقامات العليا...

كان الشيخ المتسكع مقرفصاً مستنداً إلى الجدار المتصدع قرب الباب المنخفض الصغير يحلم بعينين شبه مغمضتين، واضعاً عصاه بين فخذيه الهزيلتين.

ومنذ أن غادر المستشفى الكريهة حيث أحس نفسه سجيناً كان الشيخ يتسكع من دوار إلى دوار.

وفي تلك اللحظة انطفأت حياته المترنحة، وخدّر بطء كبير أطرافه، وبدا له أن برودة تصعد من الأرض التي تناديه.

حضر ليتوقف هناك قرب القبة المقدسة. وكانت عجوز ذات وجه نحيل ترتدي ملحفة بالية من الصوف، تحرس وحيدة المكان المقدس، وتقطن قريباً قديماً من الحجارة الجافة. هي أيضاً كانت مقلة الكلام، وقد أرهقها الزمن. وكانت تشعر بأنها أفضل حالاً قرب الصمت الأبدي.

وكل صباح ومساء تضع الزاهدة الوحيدة أمام المتشرد، ضيف الله، فطيرة من الشعير وقُلّة ماء بارد، ثم تلج القبة حيث تحرق الجاوي وتدندن صلواتها.

ومن دون أن يتحدثا تشاركا عجزهما منتظرين الساعة من دون استعجال أو رعب، وعندما يحضر بالصدفة بعض البدو ليصلوا تحت السقف المنخفض للقبة المعجزة يرفع الشيخ صوته المرتعش في إنشاد رتيب بحكم العادة:

ـ تصدقوا أيها المؤمنون في سبيل الله، من أجل سيدي عبد القادر الجيلاني البغدادي، سلطان الأولياء!

ويخرج المسلمون برصانة من أغطية رؤوسهم بعض الخبز الأسود أو بعض التين الجاف.

مضت الأيام رتيبة في خدر فصل الصيف الذي كان على وشك الانتهاء...

وفي بداية برودة فصل الخريف كنست رياح الشمال سُحب الضباب المضطربة في الأفق، وأضحى الضوء الكامد للنهارات المرهقة ذهبياً على الأرض المستريحة وفي السماء الصافية.

زاد تيبّس الشيخ، وبدا جسده كما لو أنه انكمش، وكما لو أنه تضاءل، وحجبت ظلال الليل النهائي الأولى عينيه الغائرتين، وانطفأ صوته في صدره الضامر.

كان ينتهي ببطء من دون هزات ومن دون خوف مع آخر قيظ فصل الصيف.

أيقظ صياح الديكة الجاثمة على سطح القبة الحارسةَ قصيرة القامة التي كانت تنام على حصيرها البالي العتيق. قامت بعناء، ثم أخذت جرة طينية مليئة بالماء، وتوضأت وضوءها الاعتيادي. ثم في صمت، وبحسب العادة، بدأت تصلي ساجدة أمام عظمة الله، سيد الفجر.

صلت ببطء، ثم قرفصت وأخذت أصابعها المتخدرة التي برزت عظامها تنقر حبات سبحتها. لم يفصح وجهها النحيل المتقلص والأسود عن أي تعبير كأنه وجه ميتة أسفل العمامة الصوفية الحمراء واللباس الداكن الخاص بالبدو. قامت مصدرة أنيناً، وأخذت صحناً خشبياً كبيراً من الخبز البارد، وملأت قربة حمراء صغيرة من جلد التيس بالماء، وخرجت.

طلع النهار ليلكياً وورديا على إرغاء التلال اللامتناهي وعلى فراغ السهل البحري.

وكانت ظلال بنفسجية كبيرة تزيد في ظلمة أعماق الأودية بين التلال المشرقة بينما كانت القبة المنعزلة تتوهج حمراء تماماً.

كانت الحارسة العجوز تقصد باب المزار بخطوات بطيئة، حاملة الهبة اليومية للشيخ ضيف الله.

ومنذ الليلة الماضية لم يتحرك المتشرد إذ بقي متكوّماً ومستلقياً في مكانه المعتاد من دون أن يتخلى عن عصاه الرمزية.

بدت ملامحه وكأنها تلطفت. واعتقدت العجوز أنها رأت صفاءً فريداً يتسلل إلى الوجه الذي كان من دون حياة، ومن دون رجة احتضار، ومن دون شكوى. عاد

الشيخ إلى التراب خلال ساعات الليل الهادئة. مدت الحارسة من دون رعب الجسد الذي كان بارداً، موجهة وجهه إلى الشمس الحمراء التي كانت تشرق من الأفق. ثم غطته بأطراف بُرنسه المطوية ذاكرة الله.

ومن دون استعجال، وكما تفعل كل يوم، نظفت أرضية القبة الجبسية، ونفضت غبار الأثواب الحريرية الحمراء والخضراء البالية التي تغطي المقام. وعندما أنهت أعمال اعتنائها التقية عادت إلى قريبها وغطت جسدها بحايكها الأسود، وقصدت الدوار المجاور، حاملة عصاها في يدها.

حضر رجال ذوو وقار وحشمة في برانس صهباء وقد عصبت جباههم بشرائط سوداء من أجل تغسيل جسد المتشرد وتكفينه بكفن أبيض. وصلوا وقوفاً في روعة شمس فصل الخريف، بينما كان اثنان منهم يحفران حفرة بمعولين بدائيين صغيرين، ومددوا الشيخ في الحفرة المفتوحة، وغطوه بأغصان الرند العطرة، ثم أهالوا عليه التراب الأحمر.

وحملت العجوز قماشاً صوفياً صغيراً فيه خبز وتين مجفف أخذت توزعها على بعض المتسولين المعتادين على الجنائز.

رحل البدو برصانة وعدم اكتراث أمام الموت الواجب من دون قبح أو فزع، وبقيت العجوز وحيدة قرب القبر الجديد، لتنتظر بخضوع الساعة الوشيكة التي ستنزل فيها هي أيضاً إلى الظلمة الأبدية.

ملاحظة

«صباح يوم أحد، وقبل الفجر بقليل، تركت تينيس رفقة إيزابيل إبرهارت، ودو ريمون ماريفال والعديد من النساء ومتعلمين أو ثلاثة...» كتب روبير روندو في إيزابيل إبرهارت، ملاحظات وذكريات (مصدر ذكر سابقاً). دخلت المجموعة الصغيرة كوخاً فاكتشفت فيه إيزابيل شيخاً يحتضر، ينخره الدود، ولم تتوقف عن إقناع روندو بأخذ الشيخ إلى المستشفى وقد أشفقت عليه. بكت في طريق العودة مفتونة بتخليه عن كل شيء، وغطت كتفيه ببرنسها. تابع روندو. «اختفى الشيخ في الليل، وعندما سألت عنه أخبرني صاحب بغال أنه اكترى بفضل مال الصدقة مطية للعودة إلى بلده الموحش جداً...»

أضحت الحكاية المعاشة قصة، وكتبت مثلما تؤكد الكاتبة ذلك في بني ونيف المدينة الصغيرة التابعة للحامية والواقعة على الحدود مع المغرب. ونشرت بتاريخ ٥ كانون الثاني/يناير ١٩٠٤ في البرقية الجزائرية. وقدم لها فيكتور باريكون في صفحات الإسلام، غير أن روايته تختلف بعض الشيء عن الرواية الصادرة في البرقية حيث أضيفت نعوت وتفاصيل نادرة. لربما كتبت إيزابيل إبرهارت روايات كثيرة في الموضوع نفسه؟

المتورني

كوخ من الحجارة المفككة، وحقل بائس مملوء بالحصى في الجبل الوعر ببيدمونت، وبؤس البيت حيث كانوا اثني عشر طفلاً.. ثم تعلُّم مهنة البناء الشاقة لدى معلّم قاس.

والقليل من ضوء الشمس على القمم الزرقاء وبعض المناطق الهادئة في الغابات المعتمة حيث تنمو بعض السرخسيات الرائعة عند ضفاف السيول، كما رسم في ذاكرته كأميّ على نحو أكثر تشويشاً.

هنا تتوقف ذكريات روبيرتو فروجي عندما كان عاملاً متجولاً وقصد الجزائر رفقة بعض الرفاق.

سيعمل هناك في إفريقيا لحسابه الخاص، وسيجمع بعض المال، وعندما سيتقدم به العمر سيغادر إلى سانتا روبارتا، وسيشتري حقلاً جميلاً، وسينهي أيام حياته زارعاً الذرة والشيلم الضروريين لغذائه.

وعلى الأرض المحتدمة، وفي الآفاق الحزينة الكبيرة، أحس نفسه غريباً ومذعوراً تقريباً، فقد كان كل شيء هناك مختلفاً جداً عن الأشياء المعتادة!

أمضى بعض السنوات في مدن الساحل حيث كان بعض أبناء بلده، وحيث ألفى أيضاً بعض المناظر المألوفة التي طمأنته.

أوحى له الرجال ذوو البرانس، وذوو الحركات البطيئة واللغة غير المفهومة، بالبعد والارتياب، وجاورهم في الشوارع من دون أن يعرفهم.

وذات يوم، لما قل العمل في الجزائر، قدّم له زعيم من الأهالي بتخوم الصحراء أعمالاً كبيرة ينجزها في برجه. كانت شروط العمل تفضيلية فانتهى روبيرتو موافقاً بعد

طول تردد، فقد كانت فكرة الذهاب إلى مكان بعيد جداً في الصحراء والعيش لأشهر وسط العرب تصيبه بالذعر.

رحل شديد القلق.

وبعد ساعات ليلية مضنية أمضاها روبيرتو في عربة سريعة تصدر صريراً ألفى نفسه في امسيلة.

كان فصل الصيف، وكانت الجزائر غريبة، وبدا أنها تصعد من الأرض مجتاحة روبيرتو. وكانت رائحة يشق وصفها تطفو في الجو، فأحس فروجي ما يشبه انقباضاً غريباً لشعوره أنه وحيد هناك، في الليل وسط ساحة مضاءة على نحو مضطرب بنجوم كبيرة شاحبة.

وبعيداً في البادية كانت زيزان الحصاد تغني، وكانت أصواتها تملأ الهدوء الذي لم يكدره سوى نقيق الضفادع المنتشرة في السواقي الحارة.

وارتسمت في الأفق الأخضر المزرق ظلال سوداء لأشجار نخيل صغيرة.

وعلى الأرض تمددت أجساد بيضاء غامضة، فقد كان بعض العرب النائمين فارين إلى الخارج من الحرارة والعقارب.

في اليوم الموالي، وفي صفاء الفجر الوردي، أيقظ بدوي طويل القامة بعينين سوداوين، فروجي الذي كان ينام في غرفة الفندق الصغيرة، قائلاً:

ـ تعال معي، أنا خادم القايد.

وفي الخارج كانت البرودة ناعمة، وصعد عطر منعش غامض من الأرض التي عادت لتبرد، وحلق هدوء مريح على المدينة التي كانت ما تزال تغط في نومها.

ركب فروجي بغلاً، وتبع البدوي الممتطي حصاناً رمادياً صغيراً بشعر طويل منفوش كان يهتز بسعادة مع كل خطوة.

تجاوزا الواد بسريره العميق، ومنح النهار الذي أخذ يطلع لوناً قزحياً للبيوت الطوبية القديمة والقباب الصحراوية ذات الأشكال الغريبة.

وعبرا بساتين عربية لذيذة في غرفالة، ودخلا هضبة حمراء تماماً امتدت جرداء ولانهائية.

وبعيداً جداً، باتجاه الجنوب، بدت قمم أولاد نايل ذات زرقة شفافة.

قال البدوي شارحاً:

ـ هنا هضبة هدنة. . . وهناك، أسفل الجبل، بوسعادة.

وبعيداً جداً، في الهضبة، وداخل منخفض مالح، تجمعت بعض الأكواخ الرمادية حول قبة خشنة ذات استدارة ضيقة.

وفي الأعلى، على أرض حجرية، يقوم برج القايد، وكان عبارة عن حصن مربع بجدران متصدعة طليت قبل وقت طويل بالجير. وكانت هناك بعض أشجار التين الضامرة في وهدة حول فسقية فاترة يتدفق ماؤها المالح جداً في الساقية حيث يتجمع الملح المائل إلى الحمرة والملح الصخري الأبيض في تكدس عفوي.

مُنح البنّاء غرفة صغيرة فارغة ناصعة البياض كل أثاثها حصير ومطرة جلدية معلقة على مسمار.

عاش فروجي هناك ستة أشهر بعيداً عن كل اتصال أوروبي وسط أولاد مدبي السمر ذوي الوجوه والعيون الكاسرة، المعتمرين غنورات عالية ذات شرائط سوداء.

كان صدّيق الخادم الذي أحضر فروجي رئيس فرقة من العمال يساعدونه في البناء، مواكبين عملهم البطيء بأغانٍ شعبية طويلة وحزينة.

وفي البرج المنعزل كان الصمت الذي لا يعكره سوى بعض الأصوات كوقع حوافر حصان، وصرير بئر، ورُغاء الجمال التي تأتي لتبرك قرب البوابة.

وفي المساء، عندما يصمت كل شيء، كانوا يصلون على مرتفع بحركات وقورة وتوسلات مهيبة، وعندما يرحل القايد يقرفص الخمّاسة والخدم، ويتحدثون أو يغنون بينما يهمس الجواق أحزانه الغريبة.

وفي البرج كان الناس ودودين وطيبين إزاء فروجي وعلى الخصوص غير ملحاحين. وشيئاً فشيئاً، وفي رتابة الأشياء اللطيفة كفّ عن الرغبة في العودة إلى البلد، فقد اعتاد على تلك الحياة البطيئة من دون هموم ومن دون استعجال. ومنذ أن بدأ يفهم اللغة العربية ألفى الأهالي اجتماعيين وبسطاء، وكان يستمتع برفقتهم.

وأضحى يجلس معهم على التلة مساءً، ويسألهم أو يحكي لهم قصصاً عن بلده.

ومنذ معمودية فروجي الأولى لم يؤد أي صلاة بسبب لامبالاته. ولما رأى أولئك الرجال مؤمنين بهدوء كبير سألهم عن إيمانهم، فبدا له أكثر بساطة، وأكثر إنسانية من

الدين الذي تعلمه، والذي أصابته أشياؤه الغامضة بصداع كما قال.

***

وفي فصل الشتاء، ولما كانت الأعمال في البرج قد انتهت، وأزف وقت الرحيل، أحس فروجي ضيقاً وأسفاً صادقاً.

وأسف الخمّاسون والعمال عليه أيضاً، ذلك أن الرومي لم يكن متكبراً أبداً، ولم يحتقرهم أبداً، فقد كان وليد باب الله، ورجلاً صالحاً.

وذات مساء، وبينما كانا مستلقين أحدهما جوار الآخر في الباحة قرب النار ينصتان إلى مدّاح ضرير، ذلك المغني الورع القادم من أولاد نايل، إذا بالصدّيق يقول للبناء:

ـ لماذا تذهب؟ لديك بعض المال، والقايد يقدّرك، اكتر منزل عبد القادر بن حمود، الرجل الذي ذهب إلى مكة. هناك أشجار تين وحقل. وأفراد القبيلة توافقوا على بناء مسجد وإعداد قبة سيدي برابير، ستمكنك تلك الأشغال من العيش، وسيكون كل شيء كما في الماضي.

«ولكي يكون كل شيء كما في الماضي.» وافق فروجي.

وفي فصل الربيع، عندما عُلم نبأ موت عبد القادر في جدة، اشترى فروجي الملكية المتواضعة حتى من دون أن يفكر أن ذلك كان بمثابة نهاية أحلامه الماضية، وأنه وقّع عقداً أبدياً مع الأرض القاسية والرائعة التي ما عادت تخيفه.

استسلم فروجي بعذوبة لبطء الأشياء حد أنه لم يعد يقصد امسيلة، منعزلاً في عين منيديا.

اهترأ لباسه الأوروبي. وذات يوم ألبسه صدّيق الذي صار صديقاً له الزيّ العربي. بدا له ذلك في البداية مثل تنكّر، غير أنه ألفاه مريحاً فاعتاد عليه.

مرت الأيام والسنوات رتيبة في هدوء الدوار المخدر، ولم يعد موجوداً في قلب فروجي أي حنين لبيدمونت حيث ولد. لماذا الذهاب بعيداً ما دام يشعر أنه سعيد جداً في عين مينيديا؟

أضحى يتحدث اللغة العربية، بل يعرف حتى بعض الأغاني الشعبية التي يدندن بها أثناء العمل بحركاته التي أصبحت أبطأ شيئاً فشيئاً.

وذات يوم، وبينما كان يتحدث شهد أن لا إله إلا الله فصرخ الصديق:

ـ يا روبير[1]! لمَ لا تتحول إلى الإسلام؟ نحن صديقان، وسنصير أخوين، سأعطيك أختي، وسنبقى معاً شاكرين الله!

بقي فروجي صامتاً، لم يعرف كيف يحلل مشاعره غير أنه أحس أنه كان مسلماً مادام أنه وجد الإسلام أفضل من دين أجداده... فبقي مفكراً.

بعد أيام من ذلك، وأمام الشيوخ وصدّيق، شهد فروجي بعفوية أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

حمد الشيوخ الله، وعانق صدّيق، المتأثر جداً على غير عادته الجادة، البنّاء.

أصبح روبيرتو فروجي محمد قصد الله.

وأضحت أخت صدّيق فاطمة الزهراء زوجة المتورني، وأخذ محمد قصد الله يؤدي دينه من صلاة وصيام ببساطة ومن دون حماسة دينية.



لم يعد روبيرتو فروجي أبداً إلى سانتا روبارتا دو نوفار حيث تم انتظاره هناك عبثاً.

وبعد ثلاثين سنة أضحى محمد قصد الله شيخاً ورعاً ولطيفاً حامداً الله باستمرار مكتوبه الكلّي القدرة أنه كتب له أن المنزل الصغير والحقل الذين حلم بأن يشتريهما في السابق في سانتا روبارتا كان عليه أن يلفيهما تحت سماء أخرى، وفوق أرض أخرى في هدنة المسلمة، وعند الآفاق الكثيبة الواسعة...

ملاحظة

هل يستحيل التأقلم في الأرض الإفريقية التي «تبتلع كل الحضارات الغربية»؟ ترد قصة المتورني بالإيجاب، فهناك حيث أخفق ديمتري رجل الفيلق، نجح «العامل المتجول» روبيرتو فروجي، وأصبح محمد قصد الله فلاحاً قرب امسيلة.

---

(١) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

نشرت المتورني مع عنوان فرعي «مقالة» في البرقية الجزائرية بتاريخ ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٠٣، وأعيد نشرها في الأخبار بتاريخ ٦ آب/أغسطس ١٩٠٦، ثم في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

الليل

حل مساء فصل الخريف سريعاً على الهضبة الحمراء التي كانت تحجبها سلاسل تلال وعرة.

وارتسم السطح المحدد الكبير والقوي لجبل عنتر بلون ذهبي في الأفق الأحمر.

وخلال لحظة قصيرة انتشرت هالة أرجوانية عبر الصحراء الجرداء، وتوهجت كثبان زوسفانا الصفراء وأضحت حمراء.

وفي البعيد حملت رياح الشُّلوق التي هدأت بعض الزوابع الرملية الصفراء الصغيرة، ومضت وحيدة باتجاه الغروب المشتعل.

بدا المعقل والمعسكر والثكنات الصغيرة المشيدة بالطوب في جنان الدار صغيرة وبائسة، وكأنها محاولة عيش وهدوء خجولة في عظمة الضوء اليومي.

وفي عقم الجوار الكبير انتصب بعض أشجار النخيل في الدائرة موزعة في مجموعات متزاحمة على نحو ودود، بقممها الحادة السوداء تماماً حيث يلقي النهار المنتهي بعض اللمسات الذهبية.

كان ستولز يتجول وحيداً خلف أكواخ التجار الغشاشين البائسة والمتداعية، وكان المعطف العسكري الكبير الخاص برجال الفيلق يثقل جسده الهزيل، وألقت مقدمة قبعته ظلاً أزرق على وجهه الفتي الجاف والأسمر والذي يقطعه شارب أشقر.

ومثل كل رفاقه بالفيلق كانت لستولز حكايته التي أحضرته مأساتها إلى ذلك المكان.

كان ستولز ابناً طبيعياً لرجل صناعة غني من ديسلدورف ومعلّمة، وعانى منذ نعومة أظفاره الألم وما كانا يظنان معاً أنه عار أمه.

وفي المدرسة عانى من الاحتقار القاسي، والوحشية الكبيرة من قِبل زملائه. وفيما بعد أصبح معيداً في إعدادية، فبقي خجولاً وغليظاً، وظن قلبه المكلوم أنه وجد الاحتقار في تصرفات كل أولئك الذين كان يقترب منهم، أو الشفقة المهينة.

كان ضعيفاً ولطيفاً وفي منتهى الرقة، ولو كان قوياً لما تحول إلى المتمرد الذي سيكون عليه تحت وطأة ظلم الناس البليد.

لم يتخل عنه والده مادياً، فقد كان هو من تكفل بمصاريف تعليمه. وعندما توفيت والدته احتفظ ستولز، بسبب هذا الموقف شبه الأبوي، بأمل أن يتم تبنيه ذات يوم في سبيل الحصول على اسم مشرف.

وبقي الوالد المسنّ صامتاً وعصياً إزاء تلميحات ابنه الشغوفة.

وهكذا فكر ستولز بأن والده سيتأثر إذا ما اقترف عملاً يائساً، وسيسعى إلى إنقاذه من الانحدار النهائي، وسيمنحه الرعاية التي كان يتمناها.

قصد فرنسا، وتجند في الفيلق الأجنبي. وما إن وصل إلى سعيدة حتى كتب إلى والده مخبراً إياه بأنه لم يعد يستطيع العيش في ألمانيا أبداً، مادام أنه كان هناك موضع احتقار وإبعاد من طرف الجميع.

ضحى ستولز بخمس سنوات من حياته على ذلك النحو، فقبل بشجاعة مهنته الجديدة القاسية، وكان جندياً مثالياً بمرح وصبر نادرين، وكان يعيش أمله بكل حدة.

أُرسلت فرقته العسكرية إلى الجنوب، ففرح لأن هناك قتالاً. وسيعلم والده أنه في خطر... وسيرقّ قلبه.

وهكذا، وخلال أشهر، كتب ستولز رسائل أودعها قلبه، متوسلاً إلى ذلك الرجل الذي بدا له أنه يتحكم في حياته من مكان بعيد جداً.

حظي بأوقات ثبطت فيها عزيمته عندما لم ير شيئاً يأتي... وكانت تلك اللحظات أيضاً الأكثر صفاءً غير أن ستولز عاند في انتظاره.

في ذلك المساء سلمه ساعي البريد العسكري رسالة من والده، فانهار كل شيء فجأة. كان رفضاً نهائياً لا رجعة فيه، بل حتى أنه منعه من معاودة الكتابة له.

اجتاح روح ستولز ما يشبه الخدر الثقيل، فراح يتجول من دون وجهة محددة في باحة المعقل القديم. وخرج لما شعر بحاجة كبيرة إلى الوحدة.

عاد له كل صفاء روحه. وفهم أن مأساته لا شفاء منها بسبب تربيته وقناعاته.

ولما أضحت العودة إلى بلده البعيد غير مجدية، ورأى أنه سيكون دوماً منبوذاً ومحتقراً من المجتمع، وجد من الأفضل له البقاء هناك والاختفاء إلى الأبد وسط هيماتلو[1] الفيلق.

وهكذا وقّع عقداً مع تلك الحياة العسكرية، ومع تلك الأرض القاسية التي لا يمكنه أن يحبها لأن طبيعته الضعيفة جداً واللطيفة جداً لم تدرك فيها الحزن الرائع والعظمة الفريدة.

وفجأة، عندما حل الليل تماماً مغرقاً الصحراء في الظلام والصمت، أحس لأول مرة الضيق الشديد الذي يتسبب فيه ذلك البلد لروحه كرجل من الشمال. ورأى الوعيد الذي يحلق في تلك الآفاق الفارغة على الأرض الجافة حيث لن تنمو أية حياة أبداً.

كان ضيقه عظيماً، فحجاب المستقبل المجهول الذي يُعدّ المفيد الوحيد، والذي يجعلنا نعيش، قد تمزق أمام ناظريه. بدا أنه يعانق بنظرته كل ما سيكون حياته، حيث تعاقب كئيب للأيام، ولسنوات رتيبة وأعمال من دون هدف أو فائدة!

حل الليل واطئاً ومعتماً أسفل سماء بنفسجية، وألقت النجوم الصافية نوراً مشوشاً على الصحراء السوداء النائمة في الصمت المهدّد.

وخرست الأصوات البرية المبحوحة للجمال الباركة أمام أكواخ المكتب العربي الحزينة.

راح ستولز يتسكع ببطء على امتداد السور الغربي للمعقل العتيق حاملاً بندقيته على كتفه. كان يجر رجليه بعناء. ومس تعب غير محدود أطرافه، وشلّ نفور كبير من الأشياء عقله.

نثر البواقون في الليل الشكوى البطيئة والناعمة جداً لإطفاء الأنوار، وبدا اللحن الأخير يحلق في الصمت، ثم توقف...

وتوقف ستولز.

كان هادئاً في تلك اللحظة، خاضعاً أمام ما يشق إصلاحه، وطأطأ رأسه.

---

(١) الهيماتلو: «من دون وطن» كلمة ألمانية مألوفة في الفيلق. (ملاحظة إيزابيل إيرهارت). الأصل.

لم يفكر قط ولو لمرة واحدة في كل حياته أن ما اعتقده تعاسة عظيمة لم يكن إلا وهماً، واتفاقاً وحشياً وباطلاً على نحو بليد. خضع دوماً للفكرة التي كانت لديه منذ ولادته كمنبوذ.

وبدا له في تلك اللحظة كل جهد غير مجد، وأحس أنه لن يعرف من أين يأتي بالشجاعة ليعيش في الظلام الحالك حيث سقط.

وفجأة عبرت فكرة خاطره. كانت حزينة جداً ولطيفة جداً، فهناك منفذ بسيط وفوري، ونهاية كل ألم...

لم يرفق ستولز بنفسه، ولم يخضع مشفقاً على حياته المدمرة.

غمره هدوء عظيم، وأحس نفسه قوياً في حزن تلك اللحظة الوحيدة العظيم.

وفجأة بدا قراره ثابتاً من دون تردد، ومن دون خوف.

وهكذا، ولما لم يكن مستعجلاً، ولما لم يكن يخشى أي تغيير لإرادته، اهتم بأشياء دقيقة حيث الانعكاس الأحمر لمصباح معلق يتبع سور المعقل الجديد، والضوء العالي جداً والأبيض جداً الذي أنير في مكان بعيد في الكثيب.

فكر قائلاً: الليل جميل... لن تكون هناك ريح غداً...

ثم ابتسم... فبالنسبة له لن يأتي الغد أبداً.

وعلى نحو نمطي، وكجندي جيد يهتم بالتفاصيل، وضع عقب بندقيته أرضاً جاعلاً فوهتها إلى صدره: كانت اللحظة التي سيتم استبداله فيها.

ويسنّ سكّينه ضغط على الزناد. ودوت الفرقعة الجافة والقصيرة في الصمت، ثم صمتت.

وببطء سقط ستولز على حافة السور.

عاد رجال الفيلق في مجموعة صامتة بوجوه معتمة وعيون جافة من المقبرة المفقودة وسط المدى الترابي الفسيح. كانوا يحملون حمالة الموتى.

أنهى النهار الخريفي طلوعه صافياً ومتألقاً على الجبال البعيدة ذات الحدود الصلبة، وعلى الصحراء الغارقة في صفاء وردي، وعلى القبر الصغير الحديث جداً لستولز وسط القبور الحزينة الأخرى المعزولة في فراغ الأرض المحرومة.

ملاحظة

عاش ستولز مأساة مصير شخص وضيع، إذ كان «منبوذاً منذ ولادته» مثل تلك التي لا تحمل إلا لقب أمها إبرهارت، وهو يشبه أخ إيزابيل إبرهارت أوغستان رجل الفيلق الفاشل، والذي أغرق كآبته في وضاعة حياة بورجوازي صغير في مرسيليا، والذي انتهى منتحراً بعد ست عشرة سنة على وفاة أخته. كان شخصاً موهوباً جداً، وخلافاً لها لم يحظ بطاقة اختلاق مصير لنفسه.

عند ظهور هذه القصة أول مرة (١٣ كانون الاول/ديسمبر ١٩٠٣) في البرقية الجزائرية كانت كتابتها مؤرخة في بني ونيف في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٠٣، ولما كانت إيزابيل إبرهارت مبعوثة خاصة للصحيفة فقد جمعت شهادات جرحى موكب عسكري تعرض لكمين، ثم أقامت قرب تلك الحامية، المركز الرئيسي عند الحدود الجزائرية المغربية. تبعت إيزابيل إبرهارت تقدم الفرق الاستعمارية نحو الجنوب، وعلى الرغم من تقلبات الحياة البدوية وسط كوم المخازنية فقد كتبت على التوالي قصصاً وتحقيقات. («أشياء من الجنوب الوهراني» في الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً).

أعيد نشر الليل في صفحات الإسلام تحت عنوان قلب ضعيف، ونشر فيكتور باريكون في الملحق رواية مختلفة حاملة العنوان نفسه، ونعيد نشرها هنا كرواية أخرى.

رواية اخرى: قلب ضعيف.

هبت رياح الغرب عاصفة منذ ليلة أمس، حاملة عبر الهضبة أمواجاً من الغبار الاصفر. وفي تلك اللحظة انقضى النهار وهدأت الريح. وحدها بعض الزوابع كانت تقوم معزولة في احمرار المساء. وفي الشمال حجبت جبال فيكيك بظل بنفسجي.

وباتجاه الغرب، خلف الهضبة الجرداء، ارتسم جبل عنتر قوياً، وبحدود مرسومة ذهبياً في أرجوانية الافق.

وكانت جنان الدار تتزاحم هناك صغيرة جداً في القفر الفسيح والمحزن للجوار، كمحاولة خجولة للحياة.

وإلى اليسار، في المرتفع، كان المعقل الجديد رمادياً وكئيباً ومنعزلاً، ثم الأشكال المخروطية البيضاء التي أضحت حمراء بفعل شمس الغروب، حيث الخيم التي يقطنها الجنود والفيلق الأجنبي... وعلى مستوى منخفض كانت البنايات البيضاء لدائرة الضباط مستأثرة باللمسة الخضراء الوحيدة حيث بعض أشجار النخيل المبعثرة، في مجموعة خضراء قاطعة خلفية الأرض المحمرّة.

وإلى اليمين، باتجاه الغرب، كان المعقل العتيق و«القرية» حيث الأكواخ المنخفضة والخشنة المتكدسة والمساهمة في صبغة المنظر الحمراء.

وكانت هناك جياد تقصد المورد برؤوس مطاطأة، وبعض رجال الفيلق السكارى مبكراً يسقطون وينادي بعضهم بعضاً من أماكن بعيدة.

وخلال لحظة مر جملان في نار الأفق بجسديهما السوداوين الهزيلين.

وكان ميلر يتسكع وحيداً، عاطلاً عن العمل خلف أكواخ التجار الغشاشين، ولم تجذبه رائحة الكحول. تقوس جسده الهزيل تحت المعطف العسكري الأزرق الكبير. كان ذا وجه دقيق، وعينين غائرتين وشديدتي الزرقة أسفل مقدمة قبعته. وكان سيبدو شاباً لولا التعب غير المحدود الذي تعبر عنه نظرته.

وكان أحياناً يقبض يده الجافة والسمراء على جيب معطفه، ويدعك رسالة فيها. عرف مرارة تلك اللحظة عندما انطفأ كل أمل النهار الأحمر.

فتحت عيناه كرجل من الشمال على المروج الخصبة والغابات الغارقة بالضباب في بالاتينا، واستحضرت ذاكرته الحزينة صور الترف.

ولأنه كان يعاني رأى، لأول مرة منذ الأشهر الثمانية التي كان فيها في الجنوب، كل الخشونة البرية وكل القفر المزمن لذلك البلد القاحل دوماً، وحيث لا تبعث أية حياة أبداً.

ولأول مرة لمح الغموض الكئيب يحلّق فوق الامتدادات الفارغة.

وهناك، في شعاب التلال الممزقة، حيث تتقدم النتوءات القاحلة الجبلية في السهل، كان البدو في ملابسهم الرثة الباهتة يتجولون ويزحفون ما إن يحل الليل متسللين مثل ظلال حتى الحراس المنعزلين. ثم تُرديهم طلقة بندقية تدوي حزينة في الصمت المطبق.

رافق ميلر في العديد من المرات رفاقاً قتلوا على ذلك النحو إلى المقبرة المقفرة.

تركه ذلك بارداً ومن دون خوف، هو الذي لم تكن هناك من فكرة تجذبه.

أحس في تلك اللحظة تهديد الليل الذي حل، ودنو الموت الذي كان يأتي متجولاً حولهم ما إن تحل بدايات الظلام.

انقبض قلبه في ضيق عزلته الكبير.

وكان إلى جواره جندي من القنّاصة ورجل فيلق جالسين أرضاً أسفل سور متصدع شيد من الطوب. وكانا يتحدثان باللغة الفرنسية.

قال الجندي الذي عاد من الجنوب بنبرة مبحوحة:

ـ مررت أمام ساحة المنقار حيث كان القتال الشهر الماضي. ماتزال جثث العرب ملقاة هناك وعارية تماماً على الحجارة... وبعضها ما يزال اللحم يكسو عظامها. أما الأخرى فهي شديدة البياض مثل عظام الجمال التي يصادفها المرء على الطريق. وفي النهار تحط العقبان على الحجارة جائعة، وفي الليل تعوي الضباع وبنات آوى... إذهب إلى ذلك البلد، لم تنته الحيوانات من أكل الرجال الموتى.

وأخذ ميلر الصامت يتصور المكان الحزين والحيوانات آكلة الجيف تقلب الصديد بين العظام البيضاء.

أرعبه ذلك البلد.

تذكر أنه ما تزال لديه أربع سنوات يمضيها في اللواء، ولربما سيمضيها في الجنوب، وهكذا اعتراه الغضب نفسه...

فجأة، وبرجة أليمة هزت كل جسده، قبضت يده مجدداً على الرسالة الموجودة في جيب معطفه.

بعد هذا، ألم ينته الأمر؟ ألم ينته قطعاً؟ أليس الأمر سيان في الفيلق، سواء في بلد الموت ذاك أو في مكان آخر، في تلك اللحظة حيث دمرت حياته وحيث لم يعد له ما ينتظره؟

كان والده، الصناعي الثري في برلين، هو من كتب له تلك الرسالة.

ولد طبيعي، كان ثمرة علاقة طويلة بين الصناعي ومعلمة فقيرة تدعى ماري ميلر. رأى الشاب على امتداد طفولته عارَ والدته وندمها. وبرعونة من المعلمة وضع الصبي على نفقة والده في مدرسة يرتادها بورجوازيون صغار أرهقوه بسخريتهم واحتقارهم. وأضحى ميلر ثائراً بإرادة قوية ومزاج مقاتل. ولما كان ضعيفاً ولطيفاً، فقد نفذت إليه شيئاً فشيئاً القناعة الأليمة حد اليأس بأنه كان منبوذاً ومستبعداً من قبل المجتمع.

أضحى معيداً في المدرسة التي تعلّم فيها، فاستمر في ألمه. وجعلته حساسيته المفرطة يعتقد أنه موضع احتقار من قِبل التلاميذ أنفسهم أو على الأقل يعاملونه بتنازل متعجرف.

وهكذا، ولما توفيت والدته، سعى إلى جعل والده يعترف به، ليحصل على لقب وليجعل أخيراً الكابوس الذي كان يعيشه منذ أن عقل يتلاشى.

ولما رفض الصناعي اعتقد ميلر أنه سيؤثر فيه إذا ما قام بعمل يائس، ففر وترك ألمانيا وذهب ليتجند في الفيلق.

ومن سعيدة كتب العديد من الرسائل إلى والده، متوسلاً إليه أن يقوم بإصلاح سيغير كل مجرى حياته، وسيجعله يدخل المجتمع مرفوع الرأس. سيعود إلى البلد بعد خمس سنوات باسم مشرف، ويمكنه أن يعيش ناسياً كل آلامه الماضية.

افتتن ميلر بذلك الأمل طيلة اشهر. وكان جندياً مثالياً مليئاً بالمرح والشجاعة في رتابة المهنة.

وأخيراً وصل الرد الذي انتظره طويلاً. ولا تسل بأي قلق هذياني مزق الظرف.

لكن كل شيء تحطم فجأة. كان رفضاً قاطعاً وقاسياً، بل إن الصناعي منعه أن يكتب له رسائل أخرى...

ما العمل في تلك اللحظة؟ ما فائدة العمل مادام ليس هناك شيء ينتظره، ومادامت العودة إلى البلد أضحت غير مجدية؟

وكان أن وقّع مع الفيلق عقداً من أجل سنوات الشباب المتبقية له، عقداً مع أرض إفريقيا الخشنة والمرعبة والتي لم يكن يفهمها، وكانت تخيفه.

*

كانت الليلة حالكة من دون قمر، وكانت الصحراء ترقد في ضوء النجوم الكبيرة المضطرب.

كان الصمت المطبق يعمّ القرية الصغيرة والهضبة. وفي البعيد كانت الجبال تتلاشى في الظلام.

وكان ميلر يمشي كعادته على امتداد السور وبندقيته على كتفه.

وكـ ن يفكر.

منذ أن توقف عن الأمل أضحى يعي كل رتابة ولا جدوى مهنته كمرتزق. ومع ذلك كان يرفض رعب فكرة العودة إلى الحياة المدنية. بدا له ذلك كأنه غوص في العار والإذلال الدائم كما في السنوات الماضية...

وشيئاً فشيئاً أحس ميلر الفراغ يجتاح دواخله والأشياء من حوله.

أدرك أن كل شيء أضحى سواء بالنسبة له وانه ما عاد يرغب في شيء.

لم يبق له إلا حاجة عظيمة للنسيان وللراحة.

ومنذ تلك اللحظة في الظلام والهدوء عظمت تلك الحاجة.

حضرته فكرة بسيطة جداً وواضحة جداً، فما دامت حياته قد دُمّرت، وما دام يشعر

بنفسه محطماً منذ خطواته الأولى، ومادام الناس لا يعترفون به، ما فائدة العناد؟

الموت. كرر الكلمة بصوت منخفض جداً، وبرقة غير محدودة.

توقف، واستند إلى السور. أحس هدوءاً عارماً في داخله. لم يشفق على نفسه، بقي بسيطاً جداً وصادقاً جداً مثلما كان دوماً في ضيقه وأمله المجنون في الأشهر الأخيرة.

كان الأمر أفضل في هذه الحال. وعليه أن يقوم بذلك.

وبهدوء كبير وضع عقب بندقيته أرضاً وفوّهتها مصوّبة إلى صدره. وبهدوء وبعناية، بحث بسنّ سكينه عن الزناد.

وترددت الطلقة جافة وباردة من دون صدى في الصحراء الفارغة.

انزلق ميلر ببطء أسفل السور، وسقط.

*

طلع النهار. كان رجال الفيلق عائدين إلى المعقل مولين ظهورهم إلى بعض القبور الصغيرة المفقودة في الرمال الحمراء، حاملين حمالة الموتى.

كانوا جادين وقد أخفت وجوههم السمراء الهزيلة المقطوعة بشوارب شقر كل الأحزان المخفية، وكل العاهات وكل الأسى الذي أحضرهم إلى هناك والذي أثاره موت الصغير ميلر.

ابتعدت مجموعة المرتزقة الصامتين ذوي الثياب المعتمة في هالة الصباح الذهبية، ثم انعطفت عند زاوية الأسوار المبقعة. وأنهى النهار الخريفي الصافي صعوده على الصحراء الحجرية، وعلى الأرض الحمراء التي أشارت إلى مكان رجل الفيلق.

الفُجارة

بعد أشهر أمضاها في سعيدة حيث أنهى تدريبه كجندي نُقل ويس إلى فرقة كانت تقصد الجنوب الوهراني.

كان القتال يدور هناك وكانت الحرب وحياة المعسكر وكل الأشياء غير المتوقعة في ذلك البلد البعيد الذي يشده. وهكذا رحل ويس سعيداً.

ومع ذلك ففي الأكواخ الرمادية المتداعية لمعقل بني ونيف حيث استقرت فرقته لأشهر، وفي ذلك المنظر الذي لم يلحظ فيه أولاً، وهو ابن المروج الخضراء وغابات الألزاس، إلا قفراً شاسعاً، أحس نفسه غريباً ومكدراً.

وكانت الفترات الأولى بالنسبة له أشبه بكابوس ثقيل وشعر بالخيبة.

بل إنه استسلم لرفاقه الذين أخذوه إلى جلسات شرب طويلة في قاعات «الحانات» الصاخبة بالقرية.

بحث في الفرح العابر عن نسيان الملل الكئيب وقضاء أماسيه في «العودة من بشار» و«نجمة الجنوب» و«أم الجندي» نديماً لرجال الفيلق السكارى...

ثم جعله نفور عظيم ينعزل. وفضل التسكع وحيداً في البلد المقفر.

وشيئاً فشيئاً ميّز روعة الآفاق النارية، ونزوات الضوء المتغيرة دوماً على الأرض الحجرية الحمراء وعلى الجبال القاحلة.

أحس الصمت الذي يفوق كل وصف، والهدوء الحزين والعميق لتلك الأرض الثابتة، وكان ذلك يكفيه.

أضحى ويس يحب الجنوب الوهراني حيث تألم كثيراً في أيام الاغتراب والكدر الأولى...

تبع رجل الفيلق سرير الواد الجاف ملتفاً على أسوار القصر البالية.

تسلل الضوء الأحمر بين جذوع النخيل ذات الأشكال المغزلية معظماً الخرابات الترابية العتيقة والمتكدسة في فوضى ساحرة.

وفي منحدر ظليل تحت أوراق زرقاء تبدأ فُجارة، وهي إحدى العيون الباطنية في قصور الجنوب الغربي يُنزل إليها عبر بعض الدرجات الطوبية العالية. وفي الأسفل كان جدول صاف يخرج من الأرض الإسفنجية المزينة بالسرخسيات المشيقة، ليفقد في الظل الأبدي والغامض لرواق ضيق.

وكان ويس يجلس على صخرة مفتتة، ويشعل غليونه العتيق.

كان هادئاً. وكان صفاء الأشياء في عظمة النهار المنتهي كافياً لسعادته.

وظهر جسد امرأة خفية في ظل الفُجارة. كانت طويلة القامة ومشيقة ارتدت بروعة ثياباً زرقاء، وكانت تصعد منحنية تحت ثقل قربة من جلد تيس يلتمع.

لم تلمح ويس. وخلال لحظة تمكن من تأمل وجهها الذي كان مايزال طفولياً تقريباً، وكان بيضاوياً تماماً بعينين عسليتين كبيرتين تضيئان بشرتها السمراء. وخفف تقوّس شفتيها اللذيذتين الرقيقتين ما كان من شأنه أن يجعل ذلك الوجه الأسمر يبدو جافاً.

بيد أنها رأت الرومي، وبرجفة خائفة أعادت خمارها فأخفت ملامحها، ورحلت مهرولة وفارة.

وكان ويس الذي سمت به تربيته الماضية فوق الأحكام المسبقة الوحشية للعِرق يسعى إلى الاختلاط بالأهالي. وكان معجباً ببساطتهم الشديدة واجتماعيتهم الودودة السريعة. وكان يحب قضاء سهرات فصل الصيف شبه مستلق على حصائر المقاهي المغربية، محاولاً التحدث باللغة العربية، ومنصتاً إلى الأغاني الشعبية الممدودة والطويلة والحزينة التي يغنيها البدو. وكان رفاقه المفضلون من الجنود ومن الفرسان الجزائريين ومن المخازنية، ومن الفرسان غير النظاميين في خدمة المكتب العربي.

ولإعادة الشابة صاح ويس بهدوء بلغته العربية المكسرة:

ـ لا تخافي يا أختاه، لن أؤذيك.

غير أنها لم تلتفت.

عاد ويس في الأيام الموالية إلى الفجارة خفية ومحاذراً أن يخيف بحضوره البدوية التي تتحجب عند اقترابه.

سُحر رجل الفيلق سريعاً في عزلته الكبيرة بذلك الحب البريء الذي ما كاد يبدأ.

وذات مساء تمزقت رباطات ألياف النخيل التي تمسك القِرْبَة فسقطت.

حاولت البدوية عبثاً قطع العقد بحجر حاد من أجل إصلاح قربتها.

وفي صمت، ومن دون أن تتمنّع، ساعدها ويس. كانت واقفة محجبة، وتنتظر صامتة انتهاء الجندي. وعندما رفع القربة مدت كتفيها، وأعادت وضع حملها الثقيل ورحلت بكلمة امتنان وحيدة: صحة! (شكراً).

وفي اليوم الموالي حيّاها فردت عليه، كاشفة بعض الشيء وجهها الذي أشرق بابتسامة خفية.

وشيئاً فشيئاً، وكل مساء قرب الفجارة، اعتادت رؤية الجندي الرومي الشاب جداً واللطيف جداً ذي الوجه الواضح الملامح والشاحب بفعل السمرة بعينيه الحزينتين الكبيرتين اللتين ما عادتا تخيفانها.

وبدآ يتحدثان.

كانت تدعى امباركة، وكانت زوجة مخازني، أرسل في مفرزة إلى بن زيرق في الجنوب الغربي.

كانت تحرس خيمة في دوار المخزن وحيدة رفقة أمها العجوز.

أخبرها ويس بأنه يحب المسلمين وأنه يختلط بهم ويفضلهم على الأوروبيين ولا يشعر اتجاههم بأي سوء.

وروت له امباركة أحزان حياتها المتجولة القاسية.

كانت من عمور من قبيلة بدوية من دائرة عين صفرا، وعندما تجند زوجها بمخزن جنان الدار كان عليها أن تتبعه في الفقر وانعدام أمن المعسكرات في قلب بلاد البارود المليئة بالجيوش النهّابة.

زوجوها منذ أشهر قليلة، ومنذ ذلك الحين، لم تكد ترى زوجها عبد القادر بن حمزة، المخازني الشاب جداً، والذي كان القتال يأخذه دوماً. كانت لا تكاد تعرفه، ولم تستطع أن تحبه...

***

مضت الأيام رتيبة ومهدهدة.

وكان ويس ينتظر بنفاد صبر ساعات المساء الحرة القليلة واللقاء العابر مع العمورية في الظل المنعش لبستان النخيل.

أحب امباركة واشتهاها بكل احتدام شبابه. وكان الفجور المفروض في حياة الطالب لم يمسه، وسرعان ما ألقي هناك في الحرمان القاسي والتام لبضعة أشهر.

وكانت تلك المرأة التي رآها في تناغم جيد مع المنظر الصحراوي الذي أحبه مثل طيف غير حقيقي بالنسبة له، وما يشبه تجسيداً لسحر الصحراء الخلاّب الذي أخذه إلى الأبد.

ملاحظة

لن نعرف أبداً نهاية قصة حب الجندي ويس مادامت الفُجارة تتوقف فجأة. وكان الأمين على المخطوطات، فيكتور باريكون، قد نشرها مع بعض القطع والروايات المختلفة في صفحات الإسلام. (مصدر ذكر سابقاً).

المعسكر

طلع النهار الشتائي شاحباً ومكفهراً على الحمادة الحجرية. وفي الأفق الشرقي، وفوق كثبان زوسفانا الصفراء، كان ضوء كبريتي يصيب الأبخرة الرمادية الثقيلة بالشحوب. وتميزت الحدود الجافة، والأسوار الخشنة الماثلة للجبال، بألوان محايدة في كثافة السماء المتجهمة.

امتلأ بستان النخل في بني ونيف المرتعدة ذات القمم الشعثاء بالتراب الأصفر، وغرقت بيوت القصر القديمة المشيدة بالطوب الباهت.

وحوّم حزن عظيم على الصحراء الكامدة والمحرومة من زينة الضوء الرائعة.

وفي الوادي، حول الأحصنة المشكولة المغطاة بأغطية رثة بالية وحول الجمال الباركة، استيقظ الكوميون والسخّار. وصعد همس من تجمع ذوي البرانس الترابية المستلقين على الأرض وسط الخروج السوداء والبيضاء والتليس الصوفي، وكل اختلاط المتاع البدوي الفقير. وغطى رُغاء الجمال الشاكية على الأصوات البشرية في الاستيقاظ الكئيب.

وقام بعض الرجال في صمت ومن دون مرح لإشعال النار. وفي الرطوبة الباردة أصدر الجريد الجاف دخاناً من دون بهجة اللهيب.

كان البدو الذين هجروا دواويرهم يمضون على هذا النحو منذ أشهر في الصحراء رفقة القوافل والمستعمرين دافعين جمالهم الهزيلة في انعدام أمن البلد المستمر، المملوء بالجيوش الجوعى وعصابات قطّاع الطرق السابغة اللابدة مثل بنات آوى المتحفزة في شعاب الجبل الوعرة.

نسوا منذ أشهر السكينة المخدرة لحياتهم الماضية، ولا همّ لهم إلا غذاؤهم

القليل، والشجار الأزلي بين قبيلة وقبيلة والذي يفرغ بعض طلقات البنادق من دون صدى...

آنذاك كان فصل الشتاء والبرد القارس والليالي من دون ملجأ قرب نيران الجمر المدخنة في انتظار رحيل جديد غير مؤكد.

اعتادوا على تلك الحياة باستسلام عِرقهم الكبير، وقد أخضعتهم لأنها تأتي من الله مثل كل الأشياء في الحياة الدنيا.

ومن الجيرة الطارئة ولدت صداقات، من أخوة السلاح السريعة تلك والتي كانت بلا غد.

وثمّة جماعات صغيرة من الرجال الذين يربطون جيادهم معاً أو الذين يدفعون جمالهم باتجاه الزاوية نفسها من المعسكر ويأكلون معاً من القصعة الخشبية الكبيرة، ويتقاسمون مصالح حياتهم غير المعقدة، حيث شراء السلع الغذائية وعلاج دوابهم، ثروتهم الوحيدة. وفي الليل يحيون سهرات طويلة حول النار يمضونها في ترديد الأغاني الشعبية الطويلة لبلدان مولدهم البعيدة في غالب الأحيان، وفي العزف على الجواق القصبي الصغير. وكان بعضهم من عمور عين صفرا، والآخرون من حميان ميشيرية وترافيي جيري فيل. وكان بعضهم، أمّيون وشعراء بالفطرة، يرتجلون أغاني حول الأحداث الحديثة، مخبرين عن حزن المنفى، والأخطار المتجددة باستمرار وخشونة بلاد البارود، والمناوشات الكثيرة جداً، والتي لا تفاجىء أو تقلق أحداً، والتي أضحت شيئاً معتاداً...

وفي عمق كل تلك الأغاني هناك اللامبالاة الكبيرة، التي كانت كامنة في قلوبهم البسيطة، والتي تجعلهم شجعاناً.

وأحياناً تندلع النفرات بين القبائل أو حتى بين الخيام المختلفة، وهكذا يراق الدم في الغالب.

... وفجأة هبت الرياح الباردة في معسكر «الترافيين» مثيرة زوابع من الرمال ومن الدخان، وصافقة قماش الزاهد الأبيض المشدود الذي يرتديه رئيس الكوم، والمزين بألوان العلم الفرنسي.

مر الضابط الفرنسي... هادئاً ويداه داخل جيبي سرواله المصنوع من الكتان الأزرق، وغليونه في فمه. كان يراقب الرجال والدواب خفية.

كان هناك ثلاثة كوم وسخّار من حميان يتحدثون بحدة حول نار لكن بأصوات منخفضة. وكانت وجوههم الأشبه بوجوه السناقر، ذات العيون الظليلة والأسنان البيضاء، تنحني بانتباه وأذرعهم الهزيلة تتحرك بغضب. ففي مساء أمس تشاجر أحدهم ويدعى عبد الله بن الشيخ مع أحد الجمالين المغاربة من «دوي مينيا» المعسكرين في مرتفع قرب القرية.

همس حمو حسين، وهو رجل مسن بلحية بيضاء تغطي وجهه المحروق والهزيل، قائلاً:

ـ الليالي حالكة ومن دون قمر يا عبد الله. . . في أيامنا غالباً ما كان البارود ينطق بمفرده. . . ولا يمكن للمرء أن يعلم ما يحدث.

وفجأة اختفى اهتياج البدو، وعلت ابتسامات كاشفة أسنان بيضاء أضاءت عتمة وجوههم.

انتهوا من شرب القهوة، ثم قاموا نافضين الغبار الذي أثقل برانسهم. وببطء وكسل تفرغوا لأعمال العناية بالمعسكر الدقيقة، من وضع الأكياس الصوفية الحمراء العتيقة في أعناق أحصنتهم، ومد وجبة التبن المنعش أمام دوابهم، وتنظيف سريع لحصان الضابط الرمادي. ويشرع بعضهم في رتق برانسهم، ويصعد آخرون إلى القرية من أجل مساومات لا تنتهي لدى اليهود وجلسات شرب الشاي المغربي الطويلة في قاعات المقاهي المغربية الفظة.

لم يكونوا يشعرون بالملل في جمودهم الإجباري عليه. وأخذت بعض الجمال تهدر وتتبادل العض، وتحرّر حصان من وثاقه وراح يعدو بعصبية عبر المعسكر، وتشاجر رجلان حول حفنة من التبن. . .

كان ذلك كل شيء، مثل سائر الأيام في رتابة الساعات الفارغة.

ومضى عبد الله بن الشيخ والسخار عبد الجبار ولد حادة ببطء، ويد أحدهما في يد الآخر، باتجاه سرير الواد الجاف.

كانا جالسين خلف كومة من ورود الغار، وكانا يتحدثان هامسين ويتفقان على الانتقام. أضحى عبد الله وعبد الجبار صديقين لا يفترقان. كانا شابين جداً

وجسورين، وكان قد سبق لهما أن انساقا خلف مغامرات عشق خطيرة في دوار المخزن ولدى عموريات زناغة الجميلات.

بقيا معاً بقية النهار يراقبان بعناية معسكر «دوي مينيا» من دون أن يعطيا انطباعاً بذلك.

بعد شفق قانٍ مضطرب وتحت قبة أضحت سوداء سريعاً بسبب السحب حل الليل ثقيلاً وكثيفاً. وهدأت الريح وسرعان ما عم الصمت فراغ المحيط الواسع.

وفي المعسكرات كان الغناء ما يزال مستمراً حول النيران التي كانت تنطفئ ملقية في بعض الأحيان أضواءها الحمراء الأخيرة على البدو المستلقين والملتفين في برانسهم السوداء أو البيضاء.

ثم صمت كل شيء. وحدها الكلاب أخذت تهرّ بين الفينة والأخرى كما لتظل مستيقظة.

مزقت طلقة الصمت، ثم علت جلبة كبيرة، وحُمل الجريد المشتعل بالأيادي المضطربة. وجد «المنياعي» قرب جماله، ملقى أرضاً، وقد ثقب صدره.

وفي معسكر «الترافيين» كان عبد الله بن الشيخ يسأل شأنه في ذلك شأن رفاقه، بينما كان عبد الجبار يقصد في الظلام جمال والده المتزاحمة حول جمرات مطفأة.

لم يفض التحقيق إلى شيء. دفن «المنياعي» في الرمال الصفراء، وكدّست بعض الحجارة السوداء على الربوة المنخفضة والتي ستسويها الرياح مع الأرض في بضعة أيام.

توقفت رياح الشلوق عن الهبوب. وجعلت نداوة الليل الباردة شيئاً يولد في البساتين أشبه بفصل ربيع شاحب. وكانت أعشاب شديدة الاخضرار أسفل أشجار النخيل التي جُرّدت من تموج رمالها الرمادية.

وسادت المعسكرات والقرية حركة كبيرة، فقد وصل قرار الرحيل. ذهب كوم «الترافيين» و«العموريين» إلى بشار مع رتل عسكري. ونزل السخار باتجاه الجنوب مع قافلة بني عباس.

قرفص المخازنية في برانس زرقاء، والفرسان الجزائريون ذوو الثياب الحمراء، والبدو في أغطية رأس صفراء، مشكلين دوائر في شوارع القرية وسط مواد البناء والجبس مقتسمين بجلبة الزاد والمال قبل أن يفترقوا. كانوا يتخلصون من الحياة المشتركة المؤقتة.

دفع السخار والباش آمرون الجمال إلى المكان الخالي الذي يفصل محطة السكة الحديد وأسوار المعقل الرمادية والمكتب العربي.

أحياناً يمر فارس عدواً ملقياً الذعر والفوضى في مجموعة الجمال المتزاحمة التي يطغى رُغاؤها الأجش على كل ضجة أخرى.

وكان البدو يتنادون ويتحادثون من أماكن بعيدة جداً بصيحات طويلة غنّاء وحركات صاخبة.

كان سديماً من الجمال والأحصنة المسرجة والعربات المصرّة والأكياس والصناديق والبرانس التي تصفقها في الريح في زوابع الغبار الذهبية تحت شمس متألقة. . .

ثم التف موكب كوم «ترفاوة» بأعلامهم الفرنسية الصغيرة الخفاقة فوق الفرسان حول المعقل ومضى باتجاه الغرب.

وخلال لحظة بدا الموكب مغموراً بالضوء في عمق الجبل المعتم. . . ثم اختفى.

وهبطت الجمال المحملة الهضبة ببطء في خط أسود طويل مدفوعة بالسخار.

ومالت فرقة من الجنود إلى اليسار في دوس خالطة اللون الأحمر للشاشيات والأحزمة بلون البادية الرمادي المسمرّ.

اختفت الجمال الأخيرة في الضباب الأحمر في طريق جنان الدار باتجاه الجنوب، وعادت بني ونيف لصمتها المخدر في الوادي الوعر.

رحل البدو من دون نظرة حزن على تلك المنطقة من البلاد حيث عاشوا بعضة أسابيع.

وفي مكان المعسكرات الذي بات خالياً كانت أكوام الرماد والقاذورات المكدّسة تشهد وحدها على إقامة كل أولئك الرجال الذين افترقوا، لربما إلى الأبد، بقلوب خالية من الهموم، بعد أن ناموا وأكلوا وأحبوا وضحكوا وقتلوا مجتمعين.

ملاحظة

كتبت المعسكر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٠٣ ببني ونيف. كانت إيزابيل إبرهارت في تلك الفترة تعبر أحياناً وحيدة خطوط الحدود المحددة على نحو سيّئ بين المغرب والجزائر لتشهد على حقيقة الثوار. وفي خريف سنة ١٩٠٣ تعرّفت على ليوطي الذي كان قد عين قبل فترة قصيرة جنرالاً على رأس منطقة عين صفرا العسكرية. قدّر ذو الرتبة العليا في تناقض ممتع حرية «محمود» المجنونة، واحتقاره «للمثقفين والأعيان وكل أنواع الرقباء...». أسالت تلك الصداقة فيما بعد مداداً كثيراً حد أن البعض اتهم الكاتبة بالتجسس في المغرب لفائدة ليوطي. نعرف الآن بأن الأمر يتعلق بسوء نية.

نشرت هذه القصة بتاريخ ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٠٣ في المراقب الجزائري، وفي حدود علمنا فإن هذا النص مع «جيش» (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً) هما مساهمتا الكاتبة الوحيدتان في تلك الجريدة الوهرانية. أعيد نشر المعسكر في صفحات الإسلام.

مريامة

أقامت مريامة خيمتها السوداء ذات الخطوط الحمراء الواسعة في معسكر «العموريات» بنات قبيلتها، أسفل أسوار أودارير[1] الصفراء العالية.

كانت في السادسة عشرة من العمر، طويلة القامة رقيقة البنية خلف ملحفتها الزرقاء المعتمة. وكان جسدها بلون العنبر، رشيقاً ومشدوداً. وكان وجهها المؤطر بضفيرتين داكنتين معتماً وجميلاً. وكان قوسان يزيدان من جمال ألق عينيها الحمراوين الكبيرتين بأجفانها المصبوغة. وفي جمود ملامحها الجادة كانت ابتسامة الشفتين الشهيتين الطفولية تفترّ عن أسنان بيضاء كبيرة. ومر قرصان ذهبيان في شحمتي أذنيها المرتخيتين. وكانت دمالج فضية واسعة تلتمع لمعاناً كامداً في معصميها الهزيلين، يزيّنهما الدمع الدامي المطعم بالمرجان.

وكان في خيمتها صندوق أخضر بال بزخرفة حديدية ثقيلة وفظة، وأواني بيت بدوي متواضع، وسرير هو عبارة عن زربيّة كبيرة من أفلو مطوية، وبعض الوسائد الصوفية القديمة.

وسط ذلك البؤس الوحشي الكبير لحي مومسات فيكيك كانت مريامة «العمورية» الوحيدة التي تحسدها كل الأخريات.

كانت تعنى كل يوم بيديها البطيئتين بتدبير خيمتها، ثم تمضي مدة طويلة تتزين، مرتدية ملابس الفقيرة على جسد الملكة.

وكانت مريامة تجلس في الظل الأزرق لخيمتها، مخلفة رجلاً فوق رجل تاركة يديها بإهمال على فخذيها.

---

(١) قصر من بين سبعة قصور تجمع فيكيك. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت). الأصل.

وتنتظر على ذلك المنوال لساعات.

وكان يمتد أمامها حقل قاحل مغبر وباهت حتى الأسوار الحمراء لبستان النخل الرطب في زناغة. وهناك، أسفل أشجار النخيل المشيقة، كانت السواقي الهامسة والبرك المعتمة حيث تعكس الجذوع الملتوية والأوراق المزرقة الكبيرة والعناقيد الذهبية خصوبة رائعة لأرض وعرة، وحيث الغبار الأصفر الذي يظهر أقرب وقد أحرقته شمس ملتهبة...

وكانت الجمال البطيئة تمر...

ملاحظة

مجرد نظرة عند المرور، لكن يا لها من نظرة محكمة... هذه اللوحة القصيرة لم تنشر في حدود علمنا إلا في صفحات الإسلام (مصدر ذكر سابقاً). ومريامة هو عنوان نص آخر من الجنوب الوهراني. الجزء الأول. (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول).

حِداد

وُضع خِمار بنفسجي شفّاف طويل مزركش بالفضة على حجاب حريري أخضر ناعم يؤطر وجهاً مدوراً، ويُظلّل بعض الشيء الجلد الناعم، جاعلاً العينين الواسعتين الحزينتين تومضان. وفي شحمتي أذنيها الرقيقتين وضِع قرطان زُيّنا بجوهرة تهتز ببريق رطب لقطر ندى وردية. وعلى الرشاقة النزقة للجسد المرن فستان من المخمل البنفسجي بانعكاسات أرجوانية دافئة. ومن أجل تلطيف البذخ الكبير، كان هناك قميص من الموسلين الأبيض المنسوج. وهناك رقة المعصمين المحملين بدمالج مرصعة بالمرجان. حركات رصينة، وابتسامات خفية، والكثير من الحزن غير المدرك عادة، وحركات بطيئة ومتناغمة، وميلان شهي للأرداف، وصوت رخيم وصاف ومنظم. كذاك كانت فاطمة الزهراء الراقصة من جبل عمور.

كانت فاطمة الزهراء تقطن بيتاً صغيراً مشعّثاً في زقاق أوروبي بأفلو قرب منارة المسجد الجديد الكبيرة والرشيقة. كان مثوى شاذاً وخرباً لجمالها، فيه سرير فرنسي بكرات مصقولة أعيد له الاعتبار بفراش ناعم من الصوف الجيد ذي ألوان زاهية، وخزانة بشعة بمرآة مغطاة بأقمشة مدغدغة، وصناديق مغربية صبغت باللون الأخضر وزينت بنقوشات من النحاس السميك، ومائدة صغيرة منخفضة زخرفت بأزهار، وإبريق بعروة ذو عُنق مرتفع رقيق ومشيق مضيئاً بأنوار صفراء في الظليل البنفسجي... والستارة البيضاء الموشاة بأغصان وزهور خفيفة على خلفية سماء زرقاء منفرجة.

نقل التهامي ولد محمد، ابن قايد أولاد إسماعيل، فاطمة الزهراء إلى هناك، ثمرة شهية لتلال الحجارة الحمراء في جبل عمور.

ولدت فاطمة الزهراء في الدغل حيث العفصيات المعتمة والعرعر الفضي، وفي

العطر النافذ والمنعش للزعتر والخزامى، وفي خيمة سوداء وحمراء. وترعرعت كراعية غير مبالية، وكوردة تفتحت قبل الأوان تحت شمس ملتهبة.

وذات يوم من أيام فصل الصيف رآها ابن الجواد قرب غدير حيث كانت تملأ مطرتها الجلدية فأحبها. كان يصطاد في المنطقة رفقة خمّاس والده، والكلاب السلوقية الصفراء الرقيقة. عاد التهامي وامتلك فاطمة الزهراء لأنه كان وسيماً جداً وشاباً جداً على الرغم من اللحية السوداء الرقيقة التي كانت تمنح وجهه ذا الملامح المنتظمة بخطوط داكنة، طابعاً رجولياً، ولأنه أيضاً كان كريماً جداً مزيناً جمال العذراء البدائية. ثم إن الأمر كان مكتوباً.

تبعته إلى فساد المدينة المومس الصغيرة. وكانت بلا ندم، إذ إنها لم تترك في خيمة والدها إلا زوجة أب شرسة، والشقاء البدوي الأزلي.

كانت فاطمة الزهراء طيّعة في البداية بحكم طبيعتها الموروثة، ثم أضحت عشيقة محتدمة حريصة على حواسها المتناغمة التي خُلقت من أجل المتع.

ومن أجلها تخلى التهامي على زوجته الشابة والجميلة، التي ذبلت وحيدة في سمالة القايد محمد. تصدّى لغضب والده وأعمامه ونبذ كل المسلمين التقاة. كان يمضي أياماً وأسابيع من الخدر اللذيذ في حضن فاطمة الزهراء غير مبال بأي شيء، منغمسين معاً تحت سطوة الشهوة الظامئة والمفرطة في جمودهما ووحدتهما. هكذا عاش بكثير من اللامبالاة التي يتصف بها عِرقه، مفرطاً في التبذير مستديناً من اليهود ومعتمداً على والده على الرغم من كل شيء.

ثم تبدّد كل شيء ذات يوم وتكسر واختفى. فقد كان القتال يدور في الجنوب الغربي، وكان البايلك محتاجاً إلى كوم من كل القبائل البدوية في المنطقة. واغتنم القايد محمد تلك الفرصة إذ تذرع بشيخوخته واختار ابنه البكر لقيادة كوم أولاد إسماعيل.

انتحبت فاطمة الزهراء. وأضحى التهامي كئيباً ومقسماً بين أسفه على النشوات المفقودة والسعادة الفخورة بالذهاب إلى الحرب.

الحرب! كانت في نفس التهامي أشبه بمهرجان كبير للفرسان وخطير جداً، حيث

يمكن للمرء أن يموت، لكن الرجال يعودون منها حاملين المجد والأوسمة. وكان يراهن على حظه.

كان يتعين الرحيل على الفور، واستسلم العاشقان للأمر المحتوم. وكانت ليلتهما الأخيرة تفوق كل وصف حيث النشوة الأليمة المنتهية في الدموع والأقسام الشابة جداً والساذجة جداً والمستحيلة جداً...

سبح قرص الشمس القرمزي الواسع من دون أشعة في محيط الفجر الأرجواني. وفرّت سحب صغيرة خفيفة ذات أهداب ذهبية تحت وقع الريح الباردة لبدايات صباحات فصل الخريف. ومضت موجات ضوء لبنية كبيرة في السهل على الحلفاء المتموجة.

عبر كوم في برانس بيضاء وسوداء مغطين رؤوسهم القرية بهيئاتهم العتيقة على ظهور أحصنتهم الهزيلة الصغيرة والعصية والتي كانت تثيرها المهاميز الحديدية الطويلة بمتعة. وكان في مقدمتهم التهامي ممتطياً جواده الأسود الأصيل. كان مهيباً ببُرنسه وحايكه من الحرير الأبيض، وسترته الزرقاء المزركشة بالذهب، وسرجه من جلد النمر المغشّى بالفضة. كان سعيداً في تلك اللحظة، ومتألقاً، فقد كان يسود الرجال ويقودهم إلى القتال.

فتحت الشابات أبوابهن لتوديع الفرسان الذين كانوا يمرون. كان من بينهم العشاق السابقون، وعشاق الليلة الماضية، الذين كانوا يبتسمون لهن بفخر كبير هم أيضاً.

انتظرت فاطمة الزهراء منذ ساعة على عتبة بيتها، مزينة وجامدة مثل تمثال، بخديها الشاحبين وجفونها المتورمة من البكاء منذ أن أخذ قدر الله التهامي من آخر عناق لها.

تبادلا وداعاً خفياً وسريعاً ومؤثراً... تكدرت عينا التهامي، فحث حصانه بغضب. وتبعه كل الكوم في عدو مبعثر مصحوب بصراخ سعيد، وزغاريد نسائية أضحت بعيدة.

مضت الشهور رتيبة وكئيبة بالنسبة لفاطمة الزهراء الوحيدة، والمليئة بالخيبات في ما يتعلّق بالتهامي.

فعوض الحرب التي حلم بها، ومثلما يفهمها أبناء عرقه، وعوض الاشتباكات

الجسورة والمعارك الكبيرة، وعوض المناوشات الجريئة، كان هناك مسير طويل عبر الحمادة القفراء في مسالك للجنوب الوهراني الحجرية.

كان الكوم يرافقون أحياناً قوافل الجمال البطيئة التي تحمل المؤونة إلى مراكز الجنوب، وينطلقون أحياناً في ملاحقة جيش يتعذر الإمساك به، أو حركة لايستطيعون اللحاق بها أبداً. . . ونادراً ما يقع تبادل لإطلاق النار مع العصابات الجائعة المخبأة، وبعض الاستيلاءات السهلة على خيم رثة وبائسة يسكنها شيوخ عاجزين وأطفال جوعى ونساء يصرخن مقبلات أفخاذ الكوم وضباطهم الفرنسيين طالبات الخبز. ولم تكن هناك معركة واحدة أو حتى مواجهة جادة بعض الشيء. ثمة تعب مضن وما من مجد.

أصاب الملل التهامي. وأخذ يفقد صبره متمنياً العودة إلى أحضان فاطمة الزهراء.

وكان هناك معبر وعر أسفل سماء مكفهرة وسط جبال ذات صخور سوداء ملتمعة مسطحة وبحدود مستقيمة، وبعض العفصيات النادرة والحلفاء الشعثاء الرمادية. وعوت ريح محزنة قوية تعصف في الصمت والفراغ. كان الليل وشيكاً، وأخذ الكوم يستعجلون كئيبين تحت مطر رقيق. كانوا يعانون الإمساك القاسي لشهر رمضان في الطريق وفي برد قارس.

وفجأة فرقع الرصاص متردداً وجافاً وواضحاً وقريباً جداً. وصفرت رصاصة فصرخ الضابط «اجروا!» هرع الكوم ليتمركز في تلة ويدافع عن نفسه. ودوّت رقعة أخرى، ثم لعلعة مستمرة خلف تسننات جرف يهيمن على المعبر. سقط حصان، وعدا الرجل على قدميه. تدحرج آخر أرضاً. ثم صرخة مبحوحة وذراع مكسورة تركت عنان حصان جامح.

كان عمل الموت سريعاً، ومن دون حماس أيضاً إذ لم تكن هناك أية حركة من قبل الكوم. عندما ذهبوا لإخفاء أحصنتهم خلف الصخور رقد أولاد إسماعيل في الحلفاء. وأخيراً ردوا الهجوم. أخذوا يطلقون النار بغضب باحثين عن مصدر الطلقات، وصارخين بالشتائم في حق الجيش غير المرئي. والتمعت سعادة طفولية ووحشية في عيونهم الحمراء. كانوا في احتفال.

أراد التهامي البقاء على جواده قرب الضابط الهادئ والقلق الذي كان يروح ويجيء مفكراً في الرجال الذين فقدهم، وفي وضع الكوم المنعزل الباعث على اليأس. لم يكن خائفاً. وكان الكوم معجبين به لأنه كان جسوراً جداً وبسيطاً جداً، ولأنهم كانوا يحبونه كثيراً.

وعلى خلافه كان التهامي يضحك ويمزح مطلقاً الرصاص من حصانه، ومتحكماً في مطيته التي كانت تهتز مع كل طلقة، بعينين جاحظتين وفم مرغي. لم يكن يفكر في شيء آخر سوى سعادة إخبار ذويه فيما بعد بأنه قاتل.

ـ هل تسمع يا حضرة الملازم أول ذباب العسل الذي يطن حولنا!

كان التهامي يمزح بالرصاص جاعلاً القائد يبتسم. لقّم بندقيته وأطلق باتجاه دغل بدا له يتحرك... وفجأة ترك سلاحه ووضع يديه عل صدره ثم مال بغرابة على سرجه. ترنح للحظة ثم سقط ببطء، متمدداً على ظهره في اختلاج أخير. بقيت عيناه مفتوحتين تماماً كما لو أنهما متفاجئتين وسط وجهه الهادئ جداً.

ـ يا للفتى المسكين!

وحزن الملازم أول على الفتى البدوي الذي رغب أن يقاتل بشدة، والذي لم ينجح في ذلك.

فر الحصان الأسود في الوادي حيث أحس وجود الأحصنة الأخرى.

تحت الأقواس المنخفضة المبيضة بالجير نثرت المصابيح المدخنة ضوءاً خافتاً تاركاً زوايا القاعة مظلمة.

اصطف بدو لبسوا ثياباً صوفية بيضاء، وجنود ارتدوا لباساً أحمر رائعاً، ومخازنية ببرانس سوداء، على طول الجدران مقرفصين على المقاعد. كانوا صامتين ومنتبهين ينصتون وينظرون. وأحياناً، تومض عين، ويطرف جفن، وتصيب الرغبة وجهاً بالشحوب.

ناحت الغيطة البدوية وأنّت حزينة وممزقة ومبهرة وصارخة مثل تشنج لذة. ومثل قلب مكدر سرّعت الطبول من قرعها، وأضحت مسعورة ومبحوحة... وأثقلت أدخنة التبغ وعطانة صمغ جاوة الجو الفاتر.

كانت فاطمة الزهراء مزينة مثل عروس، في قماش مخملي أحمر بزركشة ذهبية،

تحت خمارها الأبيض الطويل. كانت ترقص، بطيئة ومتمايلة بلذة. وكانت قدماها تنزلقان على البلاط بطرطقة صافية للخلاخل الفضية الثقيلة، وتحرك ذراعاها النحيلتان منديلين أحمرين من الحرير مثل جناحين. وألقى ضوء المصابيح المضطرب بقعاً قانية وأمواجاً من الياقوت الأحمر في ثنيات قميص الراقصة.

بيد أن فاطمة لم تكن تبتسم. كانت شاحبة وصامتة، وكانت نظرتها حزينة. كانت ترقص مشعلة رغبات كل أولئك الرجال الذين سيكون أحدهم عشيقها تلك الليلة. غير أن لا شيء كان يتحرك داخلها، ولا شيء يتأثر في أعماقها. فذات صباح مشوش أواخر فصل الخريف، وتحت المطر، عبرت القرية مجموعة من الرجال بثياب رثة، ممتطين جياداً ملتهبة الحوافر. وكانوا كئيبين وصامتين...

وحكى لها أحدهم كيف مات التهامي ولد محمد ذات مساء مشؤوم من مساءات شهر رمضان في معبر مقفر بالمغرب البعيد.

ملاحظة

نشرت هذه القصة التي كتبت بأفلو في شهر كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٠٣ بتاريخ ٢٥ كانون الثاني/يناير ١٩٠٤ في البرقية الجزائرية، وسيختار فيكتور باريكون صيغة أخرى عدّلت على نحو خفيف من أجل كتاب ملاحظات الطريق (مصدر ذكر سابقاً). وغيّر عنوانها فصار (الراقصة). وأخيراً ظهرت صيغة ثالثة، ومختلفة نوعاً ما، التي نشرت في صفحات الإسلام (مصدر ذكر سابقاً) وهذه المرة تحت عنوان الخطيبة، وأكدت الناشرة في سنة ١٩٢٠ أن «الراقصة هي صورة القصة الأولى». نعيد نشرها كرواية أخرى.

رواية أخرى: الخطيبة

مرّر محمد يده اليمنى على لحيته الرقيقة النابتة حديثاً.

قال محتفياً:

ـ فلتحلق لحيتي هذه ولأصر شبيهاً بالمرأة إذا لم أفِ بكلمتي، وإذا لم ادخلك خيمة والدي يا امباركة! وإذا نسيتك فلتصر عيناي ضريرتين، ولأنهِ حياتي متسولاً باسم الله!

بكت امباركة المستلقية فوق الفراش الثقيل متعدد الألوان طويلاً.

كان جسدها بنضارة الشباب الرشيق، وكان وجهها المدور ذا بشرة عنبرية ناعمة بنضارة فاتنة، وكانت عيناها النجلاوان الحوراوان قد احمرتا بسبب الدموع التي لم تكفّ عن ذرفها منذ ليلة أمس عندما أتى محمد ليعلن لها رحيله إلى الجنوب الوهراني رفقة كوم قبيلته.

ـ أجل، أنت تقول هذا الآن، ثم سترحل إلى الحرب، وحتى لو أعادك الله حياً ستكون قد نسيت امباركة، امباركة المسكينة التي لا تعني شيئاً!

انحنى محمد عليها وعانقها ماسحاً بلطف دموعها، قائلاً:

ـ لا تبكي، فالحياة والموت وقلب الإنسان بيد الله. أما أنا فليست لي إلا كلمة واحدة، وليلعنني الله إذا ما نسيت وعود هذا اليوم! هجرت زوجتي وأم أولادي من أجلك، وأزعجت دوماً من قبل والدي... ابقي في سلام يا امباركة، وانتظري عودتي، معتمدة على الله وعليّ!

ولما كان محمد على وشك أن يضعف فقد قام وخرج فجأة. فلم يكن ملائماً لرجل الجواد أن يبكي أمام امرأة.

وبقيت امباركة وحيدة في غرفتها البائسة، الغرفة الصغيرة المبيضّة بالجير، في أحد ازقة أفلو الطينية المقفرة.

وكان محمد ولد عبد القادر، وهو ابن إحدى أكبر عائلات جبل عمور، قد قابل امباركة قرب غدير حيث كانت تملأ قربتها الطينية قبل شهور بينما كان يصطاد في الجبل. وكانت امباركة حديثة البلوغ في ثيابها البدوية الرثة. ومع ذلك كانت جميلة فاشتهاها محمد. واستسلمت بخضوع بنات عِرقها. وكان محمد وسيماً وشاباً ومن أسرة شريفة وكريماً، ذلك الكرم العربي غير المكترث والذي يوشك أن يكون تبذيراً.

ولما عاد إلى أفلو تبعته مقيمة بين بنات الهوى ذوات الفساتين الزاهية الألوان تلقي لمستها الفرحة على خلفية الحجارة الرمادية والأرض الحمراء والاخضرار المعتم لتلك العاصمة الصغيرة للبغاء التقليدي.

ترك محمد خيمة والديه منتحلاً ذرائع لا يمكن تصورها، ليستقر معها بعناد على الرغم من غضب والده ولوم كل الأعيان المسلمين.

ولد بين محمد وامباركة أحد أغرب أنواع الحب العنيف واللطيف في الآن عينه، مثلما كان حال العديد من قصص الحب بين العرب من دم نبيل وفي وضع مشرف والمومسات الكئيبات.

أغرق محمد عشيقته بالهدايا، مستديناً من أجلها، ومتحدياً بجرأة نادرة تبعات سلوكه.

صدر أمر رحيل محمد لمرافقة الكوم عن عمه القايد ففاجأه ذلك وهو في قلب حلم.

وامتثل للأمر مكرهاً. ولو كان ذلك قبل أشهر لمضى سعيداً مفعماً بالمرح والفخر، فقد كان للحرب بالنسبة له مظهر جذاب مثمل كمهراجان للفروسية الخطيرة.

*

... كانت الشمس البازغة شديدة الحمرة فوق التلال الحجرية المصطبغة بألوان بكر حمراء شاحبة وصافية جداً. وهمست رياح فصل الخريف الباردة الأولى في أشجار الحور الفضية على امتداد الشوارع الفرنسية.

مر البدو في برانسهم السوداء والبيضاء مغطين رؤوسهم وممتطين جيادهم المتحمسة الهزيلة.

كان الكوميون فخورين بكناناتهم وبنادقهم. وعبروا من دون داع كل المدينة مثيرين النساء المستيقظات على نحو سيّئ والواقفات على عتبات بيوتهن. وكان وداعاً من دون نهاية ومزاحاً عابراً متبادلاً مع الموشومات الجميلات.

وكان محمد يحث باستمتاع حصانه الكميت الجميل الذي كان يهتز بسعادة على رأس الكوم. وكان البدوي أنيقاً جداً بسترته الزرقاء السماوية المزركشة بالذهب وحذائيه الأحمرين العاليين وبرانسه الحريرية البيضاء الرقيقة. وأطّرت ليتواه القطنية البيضاء وجهه الصافي ذا القسمات المتناسقة وبشرة سمراء مصقولة تلطف بظل خفيف الألق الرائع لعينيه العسليتين.

توقف أمام باب امباركة، ومال على سرجه المصنوع من جلد النمر والمزين بالفضة فودع امباركة وداعاً مؤثراً وخفياً، وكانت تقف هناك منتظرة منذ الفجر، وقد تزينت وتسمرت في مكانها مثل تمثال في ثيابها القطنية الشفافة ومناديلها المقصّبة بخيوط الحرير والذهب.

ابتسمت له شاحبة وقلقة. وتبعته بنظراتها، ثم استدار وسط رجاله على الهضبة الرمادية التي القت العفصيات عليها بقعاً سوداء.

*

مضت الأيام والأسابيع رتيبة بالنسبة لمباركة ومليئة في البداية بالأمور غير المتوقعة لمحمد، ثم مدّثرة بملل ثقيل فيما بعد.

والواقع انه سرعان ما شعر بخيبة امل كبيرة. فعوض المناوشات التي حلم بها وطلقات البنادق وأمجاد الحرب، كان مجبراً على مسيرات طويلة وبطيئة من دون سحر في الطرقات المقفرة للجنوب الأقصى تابعاً قوافل الجمال.

لم يكن هناك من هجوم أبداً. وكانت بعض طلقات البنادق تسمع أحياناً من أماكن بعيدة.

نزل الكوميون بنفاد صبر حتى بني عباس من دون حوادث، ثم أُرسلوا إلى بشار. وهناك سينطق البارود بكل تأكيد. غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث فعادوا حزانى ومتعبين. ثم أرسلوا إلى عيش وعطاسيال. وكان الحديث يدور حول حركة مهمة من بني غيل عليهم مطاردتها... ووجد الكوميون بعد مسير شاق في الجبل والدغل حوالي خمس عشرة خيمة رثة ومغبرة كان فيها بعض الشيوخ العاجزين ونساء ارتمين عند أقدامهم منتحبات وطالبات خبزاً.

وفي المساء أخذ فرسان جبل عمور المتحلّقون حول نيران صافية في معسكراتهم الطارئة يتهامسون. من المؤكد أن الروميين يخشون عصابات الغرب أو إنهم لا يعرفون القتال ما داموا لا يهجمون، ويضيعون الوقت في مسيرات غير مجدية!

لم يكن البدو البدائيون يفهمون شيئاً من تلك الحرب العصرية الممزوجة بالسياسة، وتلك «الشرطة» السلمية وسط التراب الأجنبي. لو تركوا ليقوموا بالأمر كما يريدون لكان الوضع مختلفاً جداً ما دام يتعيّن عليهم قتال بني غيل ودوي مينيا المنشقين وأولاد جرير المروعين والبربر الذين يتعذر الإمساك بهم، ولكانوا بحثوا عنهم وأبادوهم حتى عمق تافيلالة!

*

ولما كان يتعيّن على الكوم العودة إلى بشار في نهار كثر ضبابه وبرده فقد سلكوا معبراً صخرياً محاطاً بتلال قليلة الارتفاع وعرة.

كانت الأحصنة التعبة تتقدم ببطء مطأطئة رؤوسها. كان شهر رمضان، وكان الكوم الذين جعلهم الصيام كئيبين وصامتين، قد التفوا في برانسهم المغبرة.

وفجأة ترددت طلقتان أو ثلاث طلقات في الصمت، وسقط حصان.

أوقف الضابط الموكب، وأدار الكوميون وجوههم صوب التل الناتئ حيث يفترض تواجد العدو غير المرئي.

عاد الرصاص مجدداً أكثر دقة وقاتلاً. رد الكوميون بابتهاج، غير أن رصاصهم كان يضيع عبثاً في الصخور بينما كانوا مكشوفين، وبالتالي كانوا عُرضة لإطلاق النار بشكل أوضح.

نجحت قلة فقط من كوم جبل عمور الخمسين مع ضابطهم الفرنسي المصاب في النفاذ من ذلك المعبر المشؤوم.

لم يترك بوحفص قريبه محمد أبداً. كان قلب البدوي يخفق سعادة واهتياجاً. فأخيراً ها هي الحرب، الحرب الحقيقية حيث سيطلق النار مثل الآخرين كيفما اتفق شاتماً بصوت عال رجال العصابات الجبناء الذين لا يجرؤون على الظهور.

وعندما اخترقت رصاصة صدر محمد تدحرج على الأرض الحجرية. فر الكوم، فقفز بوحفص أرضاً، وحمل جسد قريبه، وألقاه فوق سرجه، ثم امتطى حصانه ملتحقاً بالكوم الذين عدوا خبباً تحت وابل من الرصاص.

قال بوحفص:

ـ لن يسخر الكلاب من ابن عبد القادر!

نام محمد نومه الأخير في طريق بشار في الأرض الحمراء.

*

حل الليل الشتوي قاتماً على أفلو، ومر حوالي عشرين فارساً بثياب رثة خبباً فوق أحصنتهم التعبة. كانوا حزانى وبصعوبة ردوا على أسئلة النساء اللواتي هرعن محتشدات مثل تحليق لطيف لفراشات متعددة الألوان.

سألت امباركة التي أصابها الشحوب والهزال بوحفص بحركة من يدها. كان يمر صامتاً وملتفاً في برنس أسود ممزق بالكامل.

ـ فليرحمه الله!

وتابع بوحفص طريقه حتى من دون أن يستدير عند صرخة امباركة القوية كدابّة أصيبت. كانت تمزق وجهها، وقد هوت أرضاً أمام باب بيتها، دافعة النساء اللواتي حاولن تعزيتها...

*

كانت امباركة المزيّنة بحرير وردي ومناديل موشاة بالذهب تحت اغطيتها المحاكة من الموسلين تنزلق على البلاط ووِركاها يتمايلان بلذة.

وعلى مقعد كانت غيطة صداحة تعزف لحنها البري الحزين جداً، والمرافق بقرع طبول قوي. وأخذت امباركة تجمع القروش التي كان يجود عليها بها بعض الرجال.

عادت إلى مقعدها في انتظار أن يدعوها جندي أو بدوي لقضاء ليلة حب، غير أن نظرتها كانت معتمة وشفتيها من دون ابتسامة، فقد كانت تذكر دوماً محمد الوسيد العشيق الذي اختارته، والذي يرقد هناك في المغرب البعيد.

المتسكّع

ذات صباح توقفت الأمطار الكئيبة عن التساقط، وأشرقت الشمس في سماء صافية تخلصت من ضباب فصل الشتاء الداكن ذي الزرقة القاتمة.

وفي البستان الخفي مدت شجرة أرجوان كبيرة أغصانها المحملة بالأزهار الوردية المخملية.

وإلى اليمين كان المنحدر البهي لتلال مصطفى يمتد ويبتعد في شفافية لامتناهية.

وكانت بقع ذهبية تزيّن واجهات الفيلات البيضاء.

وفي البعيد كانت أجنحة الأكواخ النابولية الباهتة تمتد على الالتماع المتموج للخليج الهادئ. ومرّت هبّات نسيم مهدهدة في الجو الفاتر فارتعشت الأشياء. وهكذا استيقظ في روح المتسكّع وهَمُ الانتظار وأن يستقر وأن يكون سعيداً.

انعزل مع تلك التي أحبها في منزل أبيض صغير حيث كانت الساعات تمضي غير محسوسة ومخدرة على نحو شهي خلف المشربية المصنوعة من الخشب المنحوت وخلف الستائر ذات الألوان الذابلة.

وإلى الأمام كان منظر الجزائر الكبير الذي يغويهما في سكرة عذبة.

لمَ الرحيل؟ ولمَ البحث عن السعادة في مكان بعيد مادام يجدها المتسكّع هناك غير محدودة في حدقتي الحبيبة المتغيرتين حيث يغوص بناظريه طويلاً حد القلق الذي لا يوصف للذة تضغط بشدة عليهما؟

لمَ البحث عن المساحة بينما ينفتح معزلهما الضيق على الأفق الكبير، ويشعران بأن الكون مُختزَل فيهما؟

اختفى كل ما لم يكن حب المتسكع من أمامه وتراجع إلى الأماكن البعيدة الغامضة.

تخلّى عن حلمه في عزلة فخورة، وأنكر سعادة البيوت الفانية، والطريق الودودة، تلك العشيقة المستبدة التي أخذته ثملاً بالشمس ومفتوناً بها.

ترك المتسكع ذو القلب المحتدم نفسه يُهدهَد على امتداد ساعات وأيام على إيقاع السعادة التي بدت له أبدية.

بدت له الحياة والأشياء جميلة، وفكر أيضاً أنه أضحى أفضل لأنه كان أكثر رقة في القوة المتوحشة جداً والسليمة لجسده المحطم، وفي طاقة إرادته الخاملة والفخورة جداً.

... وفي الماضي، في أيام المنفى في الملل الضاغط لحياة المدينة الساكنة، انقبض قلب المتسكّع بألم في تذكر سحر الشمس على الهضبة الحرة.

وفي تلك اللحظة كان يمكنه أن يخبر عشيقته هامساً، وهو مستلق على سرير فاتر، وفي أشعة الشمس التي تدخل من النافذة المشرعة، عن رؤى بلد الحلم مع الحزن الوحيد الرقيق جداً، والذي كان مثل عطر الأشياء الميتة.

لم يعد المتسكّع يأسف على شيء أبداً، ولم يعد يرغب إلا في استمرار ما كان عليه إلى الأبد.



حلّ الليل الحارّ على البساتين، وعمّ صمت مُطبق إلا من زفرة بحر ينام في الأسفل تحت النجوم، وزفرة الأرض الحارة حباً.

التمعت نيران كما لو أنها سعيدة في ردف التلال الليّن، وأخرى تناثرت مثل سبحات ذهبية على امتداد الساحل، وأخرى تومض مثل عيون حائرة في الظل المخملي للأشجار الكبيرة.

خرج المتسكع وعشيقته إلى الطريق حيث لم يكن يمر أحد. أمسك أحدهما يد الآخر، وابتسما في الليل.

لم يتحدثا، لأنهما كانا يتفاهمان أفضل في الصمت.

صعدا ببطء قمم الساحل، بينما كان القمر الذي طلع متأخراً ينبثق من غابات الأوكاليبتوس على أولى تموجات ميتيجا المنخفضة.

جلسا على صخرة.

تدفق نور أزرق على البادية المظلمة، وارتعشت ثمار فضية على الأغصان الرطبة.

نظر المتسكع طويلاً إلى الطريق، الطريق الواسعة والبيضاء التي تمضي بعيداً. كانت طريق الجنوب.

وفي روح المتسكع التي استيقظت فجأة، تحرك عالم من الذكريات.

أغمض عينيه ليطرد تلك الرؤى، وضغطت يده على يد حبيبته.

غير أنه فتح عينيه رغماً عنه.

وأخذته مجدداً الرغبة في عشيقته السابقة، ثملاً بالشمس.

وألقى لآخر مرة وهو يقوم نظرة طويلة على الطريق، فقد وُعد لها.

... دخلا في الظل الحي لبستانهما، وناما صامتين تحت شجرة كافور كبيرة.

وكانت شجرة أرجوان تمد أغصانها فوق رأسيهما، محملة بالأزهار الوردية التي بدت بنفسجية في الليل الأزرق.

نظر المتسكع إلى عشيقته التي كانت جواره.

لم تعد إلا رؤية ضبابية متقلبة توشك أن تتلاشى في صفاء القمر.

كانت صورة العشيقة مشوّشة لا تكاد تبين، وبعيدة جداً. وهكذا فهم المتسكع الذي كان ما يزال يحبها أنه سيرحل عند الفجر، فانقبض قلبه.

أخذ إحدى ورود الكافور العطرة وقبّلها خانقاً بها انتحابه.



غرقت شمس حمراء في محيط أحمر خلف خط الأفق الأسود.

انطفأ النهار سريعاً، وغرقت صحراء الحجارة في شفافية باردة.

وفي زاوية الهضبة اشتعلت بعض الأضواء.

حرّك بعض البدو المسلحين بالبنادق ثيابهم البيضاء الطويلة حول نيران صافية.

وحمحم حصان مربوط.

وكان رجل يجلس القرفصاء على الأرض مغمض العينين كما لو أنه يحلم قد

شرع يغني أغنية شعبية قديمة تتجاور فيها كلمتا الحب والموت...

ثم صمت كل شيء في المدى الأخرس.

*
* *

قرب نار شبه مطفأة، كان المتسكع نائماً ملتفاً في برنسه.

كان رأسه مستنداً إلى ذراعه المثنية، وأطرافه مرتخية، مستسلماً لعذوبة النوم غير المحدودة، وحيداً، ومجهولاً وسط الرجال البسطاء والجفاة، على وجه الأرض، تلك الأرض الطيبة المهدهدة في مكان من الصحراء لا يحمل اسماً، والتي لن يعود إليها أبداً.

ملاحظة

كانت إيزابيل إبرهارت تقول إجمالاً: أنا حزينة دوماً عندما أرحل عن مكان تألمت فيه. وقد تركت هذا النص كرسالة وداع بينما كانت في طريق رحلتها الأخيرة.

لربما اقترب بحثها الصوفي الطويل في قنادسة إلى هدفه.

نشرت قصة المتسكع المؤرخة في ٤ نيسان/أبريل ١٩٠٤ بعين تاغة في الشهر الموالي (٣ أيار/مايو) في البرقية الجزائرية. أعاد فيكتور باريكون نشرها في الأخبار بتاريخ ٢٨ كانون الثاني/يناير ١٩٠٦، ثم في صفحات الإسلام (مصدر ذكر سابقاً). تحت عنوان المنافسة.



جُنّة المياه

كانت زنجيات ذوات أجساد رقيقة ومرنة يرقصن غارقات في أضواء زرقاء. وكان بياض أسنانهن يلتمع في وجوههن شديدة السواد في ابتسامات فريدة.

كن يغطين أجسادهن الهزيلة في ثياب طويلة حمراء وزرقاء وصفراء كبريتية، كانت تنقبض وتنبسط وفقاً لإيقاع الرقصة، وتهزها الريح لتبدو أحياناً شفافة مثل الدخان.

وكانت أياديهن السوداء تحرك الصناجات الحديدية المزدوجة الخاصة بالاحتفالات السودانية.

وكانت الصناجات ترنّ أحياناً في إيقاع وحشي، وتتصادم أحياناً أخرى من دون صوت.

. . . غير أن الزنجيات أخذن ينفصلن شيئاً فشيئاً عن الأرض، ويقفزن في الهواء. تمددت أجسادهن وتصلّبت، وتغيّرت أشكالهن ودرن مثل زوبعة الصحراء تحت وقع رياح الشلوق. وفي النهاية تلاشين في ظل الروافد المدخنة أسفل السقف. . .

فتح المتسكع عينيه بعناء، وجال ببصره على الأشياء باحثاً عن المخلوقات الغريبة التي كانت ترقص أمامه قبل لحظات.

رآها، وسمع قهقهاتها الشبيهة بقرقرة مبحوحة، وأحس الهبّات الحارة التي أثارتها ثيابها في جبهته المحترقة.

اختفت تاركة للمتسكع ذكرى قلق يتعذر تفسيره.

أين كانت في تلك اللحظة؟

سعت روح المتسكع التعبة ليخرج من المدارات التي يسبح فيها منذ ساعات أو منذ قرون. لم يعد يدري.

بدا له كأنه عاد من هوة سوداء حيث تعيش كائنات، وحيث تطفو أشياء تخضع لقوانين مختلفة عن تلك التي تحكم عالم الواقع...

جاهد عقل المتسكع المحتدم بألم لطرد الرؤى المشوشة.

كان الصمت المطبق يعمّ الزاوية المخدَّرة بالنوم. وكانت ساعة منتصف النهار القاتلة، ساعة السرابات والحمّى المسكرة. وارتفعت الحرارة في الأسطح المتأججة المشيدة بالطوب، وفي الكثبان التي كانت تلتمع في البعيد. مُدد جسد المتسكع المريض على حصير، في معتكف يفضي إلى سطح شاهق. كانت الغرفة الصغيرة تنتفتح تماماً على السماء الرصاصية، وعلى الصحراء الحجرية والرملية التي كانت تحترق تحت الشمس.

... وفي روافد السقف المقطوعة من أشجار النخيل عُلّقت مطرة من جلد التيس. كان الماء يتدفق ببطء على صحن نحاسي كبير وضِع أرضاً. وكانت القطرات تسقط كل لحظة مترددة في الصحن فترن بصوت واضح ومنتظم وبرتابة ساعة مستشفى أو سجن.

تسبّب ذلك الصوت للمتسكع في ألم حاد، كما لو أن القطرات المعاندة كانت تسقط على رأسه الملتهبة.

وكان عبد سوداني يجلس مقرفصاً جوار المريض، بخدين زيّنا بشطبات عميقة، محركاً في صمت طاردة ذباب من عُرف صُبغ بالحنّاء.

نظر المتسكع إلى العبد. وخلال لحظات طويلة كأنها سنوات تصوّر اللذة التي سيشعر بها عندما يزيل العبد الصحن بأمر منه، وعندما تسقط قطرات الماء على التراب بصوت كامد.

غير أن المتسكع ما كان يستطيع أن يتكلم، واستمرت القطرات في التساقط بقسوة على النحاس المصقول.

غير أن روافد السقف تلاشت، وصار جريد النخيل أزرق فضياً في تلك اللحظة يتمايل ويهمس فوق رأس المتسكع.

وحول جذوع النخيل المقصوصة، وأسفل الأوراق المقوّسة، التفت أغصان خضراء جداً محملة بعناقيد، ودميت أزهار أشجار الرمان في الظل.

كان المتسكع يرقد في الساقية فوق أعشاب بحرية طويلة، مرتخية ومتشابكة مثل شعر النساء.

وتدفق ماء نقيع على امتداد جسده واستسلم بلذة للمداعبة المبللة.

وكانت ساقية أخرى تتدفق في متناول فمه. و كان يتلقى الماء البارد بين شفتيه أحياناً، ومن دون أن يقوم بحركة.

أحس الماء ينزل إلى حلقه الجاف وإلى صدره حيث أخذ يطفئ شيئاً فشيئاً احتراق العطش الذي لا يرحم.

... الماء! الماء الجيد، الماء المبارك للأحلام الشهية!

... استسلم المتسكع للرؤى المتعددة وللانتشاءات البطيئة لجنة المياه حيث كانت بحيرات خضراء مزرقة عظيمة أسفل أشجار نخل مشيقة، وحيث تتدفق الكثير من الجداول الصافية، وحيث تنبثق شلالات صغيرة من بين الصخور مغطاة بالزبد الكثيف، وحيث تصر الآبار من كل مكان ناثرة في الجوار كنوز الحياة والخصوبة...

وصعد من مكان ما بعيد جداً صوت. كان صوتاً غير مبين يصرخ في الصمت.

كان الصوت يأتي من آفاق مجهولة، عبر خضرة وظلال جنة المياه الأزلية. أزعج الصوت المتسكع. ومجدداً انفتحت عيناه على غرفة المنفى الصغيرة.

وارتفع الصوت الذي بدا حقيقياً، فقد كان رجل المسجد يعلن عن صلاة منتصف النهار.

رفع العبد سبّابة يده اليمنى وشهد بصوت مرتفع بوحدة الله ومهمة محمد الرسولية.

ثم قام وجسده الأبنوسي الضخم مغطى بثيابه البيضاء.

أخذ يصلي. وعند كل سجدة، كانت كوميته، خنجره المغربي الطويل ذي النصل المعقوف، ذات الغمد النحاسي المصقول، تصطدم بالأرض.

كان يقول «الله أكبر». وكان يسجد، واضعاً جبهته على الغبار وقد أدار وجهه نحو القبلة.

تبع المتسكع بعينيه حركات العبد البطيئة. وعندما انتهى السوداني من الصلاة عاد إلى مكانه قرب المريض، وراح يهز مجدداً طاردة الذباب ذات الوبر الطويل.

ارتفعت أبخرة صفراء من السطوح التي أخذت تتشقق. وفي الهواء الجامد والثقيل مثل معدن يصهر لم تمر أية نسمة أو هبّة. وكانت ملابس المتسكع البيضاء مبللة بالعرق، وأحس ثقلاً محطماً يضغط على صدره.

كان يتأكله عطش حارق وفظيع لا يستطيع أي شيء تخفيفه. وكانت أطرافه محطمة ومؤلمة. وكان رأسه الثقيل يتقلّب على الكيس الذي كان يستعمل كوسادة.

بلل العبد خرقة من النسيج القطني في وعاء مليء بالماء، وأخذ يرطّب وجه المتشرد وصدره، ثم قطر في فمه بعض قطرات الشاي المنعنع المبهّر الفاتر. زفر المتسكع ومطط أطرافه التعبة. كان صوت المؤذن قد صمت في القصر المرهق بالحرارة.

ومجدداً حلّقت روح المتسكع في المناطق المشوشة المسكونة بالرؤى الغريبة، حيث تتدفق المياه المباركة...

***

انقضى النهار المحتدم في الإشعاع الكبير للهضبة وللتلال.

وخلف سبخات الملح التمعت أشجار النخيل مثل شموع سوداء كبيرة. ومجدداً نادى المؤذن نداءه الحزين. وكان المتسكع مستيقظاً تماماً في تلك اللحظة.

انفتحت العينان ذواتا الجفنين التعبين والثقيلين بتعطش على روعة المساء.

وفجأة حل حزن عظيم بقلبه، واجتاحه أسى صبياني. كان وحيداً، وحيداً في ذلك المنعزل من الأرض المغربية، ووحيداً حيثما عاش، وحيثما سيمضي إلى الأبد.

كان بلا وطن وبلا بيت، وبلا أسرة ولا أصدقاء حتى. مر كغريب ودخيل ولم يُثر إلا النبذ والإبعاد.

في تلك الساعة كان يتألم بعيداً عن كل مساعدة وسط الناس الذين يتفرجون بعدم

تأثر على خراب كل ما يحيط بهم، والذين يعقدون أذرعهم أمام الموت والمرض قائلين: مكتوب.

لا يفكر فيه أحد في أي بقعة من الأرض، ولا يتألم لألمه أحد.

انقبض قلب المتسكع بألم، وملأت عينيه الدموع.

ولما أضحى أكثر صفاءً وهدوءاً احتقر ضعفه وابتسم. إذا ما كان وحيداً فلأنه تمنّى ذلك في لحظات الوعي حيث ارتقى عقله فوق عاطفية قلبه وفوق الجسد العاجز أيضاً؟

أن يكون وحيداً يعني أن يكون حراً. والحرية كانت السعادة الوحيدة الموافقة لطبيعة المتسكع. وهكذا حدّث نفسه بأن الوحدة كانت شيئاً جيداً، وحل على روحه هدوء حزين كبير وعذب.

***

هبّت ريح حارة باتجاه الغرب. كانت ريح حمّى وقلق.

عاد رأس المتسكع الذي كان لا يزال تعباً ليسقط على الوسادة.

انمحى جسده في خدر لذيذ تقريباً، وأضحت أطرافه خفيفة ومشوشة كما لو أنها كفّت شيئاً فشيئاً عن الوجود.

وجنّ ليل صيفي غامض ومليء بالنجوم على الصحراء. ورحلت روح المتسكع عن جسده، وحلّقت إلى الأبد باتجاه البساتين البهيجة والأحواض الزرقاء الكبيرة لجنة المياه.

ملاحظة

انعزلت إيزابيل إبرهارت في حزيران/يونيو سنة ١٩٠٤ لدى صوفيي وطلبة الزاوية المغربية في قنادسة، وحظي محمود السعدي في حاضرة الصحراء تلك بثقة شيخ الزيانية، سيدي إبراهيم بن بوزيان.

وتشير صفحات الجنوب الوهراني الجزء الثاني (الأعمال الكاملة. الكتاب الأول. مصدر ذكر سابقاً) بالتفصيل إلى فتنة تلك الإقامة، والانغماس في «ظل

الإسلام القائظ». تثير الحمّى الرؤى. وفي المجمل تبلغ جنّة المياه الذروة. وهذه الصيغة الخيالية، الحلم الأخير المنذر والتي أرسلت إلى البرقية الجزائرية ولم يعد نشرها أبداً، تعلن موت المتسكع...

نشرت بتاريخ ١٧ تموز/يوليو ١٩٠٤، وعند نهاية فصل الصيف، عادت إيزابيل إبرهارت إلى عين صفرا في حالة من التعب أجبرتها على دخول المستشفى العسكري.

أفراح سوداء

يعلو الصراخ أحياناً من مواخير القرية حيث تقع شجارات بين أفراد الفيلق أو يسترسلون في أغانيهم.

. . . انطفأت، في «القرية السوداء»، آخر الأصوات.

وألقى البدر المكتمل أمواجاً من الضوء الأزرق على المنازل المشيدة بالطوب الرمادي، وعلى الشوارع الخالية، وعلى الكثيب القريب جداً الذي يبدو شفافاً.

وتسلل من باب مقهى مغربي ما زال موارباً شعاع أحمر من الضوء امتد على الرمال حتى الجدار المقابل.

وانبعثت من ذلك الكوخ القذر المبيضّ بالجير أصوات صاخبة - أصوات الطبول الإفريقية الصغيرة والأغاني.

دخلنا أنا والزنجي سعدون.

. . . كان يتعيّن عبور القاعة الكبيرة مثل زنزانة ثم الدخول إلى الباحة عبر ثقب يكاد المرء لا يستطيع المرور منه.

وسط الأنقاض، وفي الضوء المنتشر المتساقط من الأعلى، كانت مجموعة من النساء منهمكات.

وكانت هناك عجوزان تقرفصان في الظلام وتقرعان طبلين وتغنيان في لهجتهما غير المفهومة أغنية شعبية ممدودة على نحو لا ينتهي قطعت بما يشبه لهاثاً متوحشاً وصراخاً مبحوحاً ومتقطعاً.

وكانت ثلاث زنجيات أخريات يرقصن.

وكانت إحداهن شابة جميلة.

كان جسدها الطويل المرن يتلوى، ويتماوج وينقلب ببطء بارتعاشات مصطنعة، بينما ترسم ذراعاها المكتنزتان باللحم المتيبس عناقاً شغوفاً.

أدارت رأسها في ذلك الوضع على كتفيها، وتقلصت عيناها الحمراوان الواسعتان، وافترّت شفتاها عن ابتسامة فاترة كاشفة البياض المثالي لأسنانها.

ونشرت ظلالاً على الثنيات الصلبة المتكسرة لقميصها الحريري الأزرق السماوي الطويل والذي خفق حول كتفيها مثل جناحين كبيرين شفافين.

ورنّت الحلي الفضية الثقيلة متناغمة.

وأحياناً، عندما تصفق براحتي يديها، تتصادم دمالجها محدثة رنين سلاسل.

وكانت هناك امرأتان ذابلتان بوجهين مجعدين تحركان قميصين حمراوين على جسدين بدينين.

. . . وفي المقابل كان الرجال الجالسون على امتداد الجدار ينظرون إلى رقصة المومسات الزنجيات تلك التي تعود مثل طقس أُحضر من الوطن السوداني، كل شهر عند اكتمال البدر.

كان هناك أربعة أو خمسة زنوج، اثنان منهم سودانيان من العرق الخالص حيث الوسامة الزنجية النادرة والمخيبة، بملامح دقيقة وعيون عسلية نجلاء كعيون العرب، وزينت خدودهما بشُطب حمراء طويلة وقرط فضي يمر عبر شحمة الأذن اليمنى.

كانوا متسمرين وهادئين مفتونين بالرقص ينظرون من دون أن ينطقوا بكلمة.

أما الآخرون، وكانوا حرطانيين وخلاسيين، فكانوا يضحكون ويقومون بحركات وتكشيرات تجعلهم أشبه بالقردة.

. . . وكان بينهم شخص أبيض وحيد، وهو جندي من الفرسان الجزائريين ذو قسمات عربية تدل على انتمائه للهضاب العليا، وكان عشيق الزنجية الجميلة.

كان مستنداً على برنسه الأحمر المطوي، وكان ينظر صامتاً هو أيضاً.

وكان تغضّن حاد يقطّب حاجبيه المقوّسين، ويخفضهما على عينيه السوداوين حيث تعبر انعكاسات أحاسيسه المتغيرة.

وأحياناً، عندما كان يُغشى على الزنجية التي تنظر إليه وتبتسم له بين الفينة والأخرى، يتمدد كل جسد الفارس الجزائري المفتول العضلات . . . وأحياناً أخرى،

عندما يبدو أنها تولي ضحكات وممازحات الزنوج بعض الانتباه، تنقبض يدا البدوي اللتان لم تتأثرا أبداً بأي عمل مضن وتتشنجان.

أودع كل روحه في تأمل تلك المرأة التي جعلته ينسى بيته وأبناءه وأصدقاءه والتي امتلكته واحتجزته في ماخورها المتداعي حد أنه لم يتنبه لدخولنا.

وعلى مقربة غرفة صغيرة مقببة، وفي حفرة في السور العاري الأبيض كانت شمعة تحترق.

وعلى الحصير، وعلى أثواب مبقعة، كان حوالي عشرة زنوج شبه ممددين.

وعلى صينية نحاسية بينهم كانت أكواب الشاي وغليونات الكيف الصغيرة.

كانت خرق بيضاء على أجساد سوداء ذات عضلات بارزة مثل حبال، وحجابات من الموسلين ترابية اللون حول وجوه دقيقة ذات أسنان بارزة و وشفاه هدلاء، وفي أماكن متفرقة يبرز لون الشاشيات الأحمر القرمزي...

تبعنا السودانيان اللذان كانا في الباحة.

جلسنا جنباً إلى جنب في أقصى الغرفة.

أمسك أحدهما بنديراً، ذلك الدف العربي، والآخر شبابة.

وهكذا أحضرت إحدى الزنجيات مجمرة عطور طينية حيث يحترق الفحم ومسحوق صمغ جاوة ولحاء القرفة.

صعد الدخان الأزرق الدقيق تحت القبة، وسرعان ما ملأ المعزل حيث تضغط حرارة شديدة.

بدأ الزنجيان موسيقاهما، بطيئة في البداية، كما لو أنهما يعزفان بكسل.

ثم أخذا يهتاجان شيئاً فشيئاً، والتمعت حبات العرق في جبهتيهما، واتسعت حدقات عيونهم المعتمة، بل إن أنفيهما أخذا يرتجفان. ثم مالا إلى الخلف متدحرجين على الحصير كما لو كانا سكرانين.

رفع حامل الدف آلته بذراعيه الممدودتين فوق رأسه، وأخذ يضرب ويضرب برجّات مبحوحة متزايدة من دون توقف حتى الوصول إلى نسق مجنون.

وكان العازف على الشبابة يميل رأسه المعتمرة عمامة عالية ذات شرائط على عادة البدو العرب مغمضاً عينيه.

وكان الآخرون يغنون من دون توقف كما لو أنهم يفعلون ذلك من دون أن

يتنفسوا. ثم كان الغناء اللاهث، والغناء المدهش الذي كان يحرك من قبل أجساد الزنجيات النديّة بحماسة همجية.

ودارت غلايين الكيف.

وشيئاً فشيئاً، ومع الشاي بالنعنع المتبل، والدخان المعطر، وروائح الزنوج، والموسيقى، واختناق الغرفة، بدا الزنوج وكأن هبة جنون لفحت جبهاتهم المتألقة.

وأخذت هزات مختلجة تحركهم جميعاً.

وفجأة بدا وكأن السوداني الوسيم الذي كان يضرب الدف تملكه الهيجان، فألقى بكل ما أوتي من قوة البندير على قرون المبخرة الثلاثة الصغيرة.

وذاب الجلد الرقيق.

وهكذا علت القهقهات، ومزق الزنوج الآلة في ما يشبه هيجاناً.

... وناحت الشبابة نواحاً غير محدود بلحن حزين ممزق.

خرجت ورأسي يغلي.

كانت النساء قد أشعلن في الباحة ناراً من الجريد اليابس الذي أضاء بصفاء وحشي التواءاتهن الشهوانية.

وتأمل الفارس الجزائري المتكئ على برنسه الأحمر عشيقته التي أضحت حركاتها أكثر التواءً وهيجاناً كلما تقدم الوقت. لم يتحرك، وزاد تغضّن حاجبيه الشديد.

كانت تصدر من ذلك الكوخ الأسود شهوانية عنيفة ومفرطة حد الجنون، انتهت بأن أصبحت مبعث اضطراب شديد.

... صمت كل شيء في الخارج، وكان الكل يحلم ويستريح في صفاء القمر البارد.

وكان من الجيد الذهاب في جولة على متن الحصان في هواء منتصف الليل المنعش على الطريق المقفرة، والفرار من الثمل الغامض لذلك السكر الأسود المدهش.

ملاحظة

يبدو أن زنجيات جنة المياه بعثن في أفراح سوداء، وأن عيني الكاتبة أغمضتا على هذه الرؤية. أفراح سوداء هو آخر نص لها، ونشر بتاريخ ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر

١٩٠٤ في البرقية الجزائرية، بعدعشرة أيام بالتحديد على سيل الفيضان الذي دفن إيزابيل إبرهارت تحت أنقاض بيتها.

تأثرت الصحافة بموتها، وفي العاصمة بلغت الكاتبة البدوية شهرة لم تعرفها أبداً خلال حياتها.

المتشرد

رواية

القسم الأول

الفصل الأول

في زاوية الغرفة المغطاة بالألواح الخشبية الرقيقة الباهتة كان قنديل فضي مشتعل معلّق أمام الفاصل الإيقوني، وهو عمل رائع من الفن البيزنطي القديم. وكانت ألوان الصناديق الذهبية الكابية تلتمع بخفوت جاعلة هالة غريبة حول الوجوه الهزيلة للمسيح ومريم وحوارييه.

ووسط الغرفة أضاء مصباحان كبيران الطاولة ذات الغطاء الأحمر، وكؤوس الشاي والغلاية الروسية النحاسية التي كانت تنهي غناءها المنتحب.

وكان هناك حوالي عشرين شخصاً يتحدثون في جلبة بتلك الحماسة العنيفة تقريباً للأحاديث الروسية.

ومع ذلك كان هناك إحساس بأن نفساً موحّداً يحرّك أولئك الشبان ذوي الثياب الرثة، مع بعض السترات المزركشة الخاصة بالفلاحين بالنسبة التي يرتديها بعضهم، وأولئك الشابات المرتديات فساتين سوداء بسيطة من دون زينة، والمجاورات برود للرجال.

وكان صاحب البيت الفيلسوف المسيحي أنطون أوسيبوف يبتسم إلى أولئك الأولاد المنتمين إلى جيل آخر وأفكار أخرى، والذين يجمعهم لديه في أمان مطلق. ولم يكن أوسيبوف الهادئ جداً وذو الجسد الرياضي واللحية البيضاء الخفيفة المسترسلة فوق بوديوفكاه الخاص بالموجيك يشارك في الحوارات أبداً. بيد أن وميضاً كان ينير أحياناً حدقتيه الزرقاوين الواسعتين مضفياً عليهما صفاء فريداً بالغ الرقة.

كان أوسيبوف ذو العادات التولستوية، والتابع لمسيح خاص به، والفوضوي

اللطيف، قد وزع خلال سنة مجاعة ثروة كبيرة على الفلاحين. ثم ذهب ليستقر في ذلك المنزل العتيق في ضاحية بيترسبورغ مستمراً في أعماله كمفسر للكتاب المقدس، وكاسباً قوته من مهنته المتواضعة كمجلّد للكتب.

أحب الشباب الثوري من دون مشاركتهم قناعاتهم. فما أهمية المبادئ ما دام أولئك القادمون الجدد يبحثون مثله تماماً عن الحقيقة بشغف حالمين بعدل مثالي؟

وكان طالب الطب ديمتري أورشانو منعزلاً وصامتاً. فقد أضحت الحوارات ترهقه أكثر فأكثر، وأصبحت رفقة رفاقه مضجرة، وكان عندما يوجه إليه الحديث مباشرة يبذل جهداً حتى لا تصدر عنه حركة تدلّ على ملله.

كان من بين أشد ثوار بيترسبورغ حماسة. وأسّس مع شخصين أو ثلاثة لجنة عمل لتيسير هروب المنفيين السياسيين. كان روح المجموعة. وكل ذلك كان حديثاً جداً. غير أنه في تلك اللحظة فقد كل رغبة في العمل وكل طاقته من دون أن تتغير قناعاته. أحس حاجة معذبة إلى الانعزال والركود والصمت. وتسببت له فكرة أن يُتّهم بالخيانة بكدر شديد. هل سيتحول الفوضويون إلى طغاة ويرغبون في إبقائه بالقوة؟ ألم يكن حراً في الذهاب مثلما كان حراً في المجيء، وحراً في ولوج عالم الظل والصمت؟

وكان أورشانو المنتمي إلى عِرق روسيا الشرقية القوي طويل القامة وصلباً في سن الرابعة والعشرين، غير أن صحته أخذت تتدهور منذ بعض الوقت، وأخذت تتمدد ملامحه ذات البهاء السلافي الشاحب والروحاني. وتحت شعره الكستنائي الغزير الذي كان يسقط على جبهته أخذت عيناه الداكنتان تلقيان نظرة حزن قلقة.

كان مستنداً إلى دعامة النافذة يحلم دون أن ينصت لما كان يقال حوله. كان يرغب في الرحيل إلى الأبد.[1]

دخلت شابة. كانت طويلة القامة ممشوقة القد ومتينة البنية في فستانها الأزرق. وكان وجهها جميلاً مفعماً بالطاقة الهادئة والطيبة، وشعرها الأسود القصير يظلل جبهة عالية بيضاء ملقياً ما يشبه الظل على التماع العينين الرماديتين الواسعتين.

قبّل الشيخ أوسيبوف الشابة بحنو، وقال:

ـ أقدّم لكم يا أولاد فيرا غوريفا، ابنة أختي.

---

(١) لم تتضمن رواية الأخبار سنة ١٩٠٣ هاتين الجملتين الأخيرتين. (ملاحظة الناشرين). الأصل.

كانت معروفة بسمعتها. تزوج والدها، وهو أحد الأعيان وموظف مرموق في الجنوب الشرقي، بداعي المصلحة تاجرة ثرية تدعى أغرافينا أسيبوف أخت المسنّ أنطون. واحتفظ غوريفا طيلة حياتها بالأسف على تلك الزيجة غير المتكافئة والمصلحية. لم يحب أبداً أغرافينا وأبقاها في بيتها دون أن يدخلها إلى المجتمع. وقد توفيت وهي بعد شابة مخلفة له فيرا. وكان غوريفا يريد أن يربي ابنته وسط أفكار طبقته، غير أن معلمة أنارت في روح فيرا شعلى التفكير بأفكارها، وروت لها العذابات الفظيعة التي يعانيها الشعب الذي أتت منه، وشكلت بداخلها روح مقاومة قوية ومتحمسة.

أتت فيرا في سن الثامنة عشرة إلى بيترسبورغ ضد رغبة والدها وقد أقامت مع خالها وبدأت دراسة الطب. ثم تزوجت رفيقاً يدعى ستويلوف من أصول بلغارية. كانا شابين معاً، وحلما حلماً جميلاً بالعمل والمهمة المشتركة، غير أن ستويلوف الضعيف والمتردد سرعان ما انخرط في الحزب المتطرف، والشغوف بالدعاية عبر العمل، ومن دون إيجاد القوة لعمل جريء. ومنذ ذلك الوقت أضحت السلامة العقلية الهادئة التي تتمتع بها فيرا عذاباً لزوجها. وكان ذلك أشبه بلوم دائم على الرغم من رقة فيرا ولطفها. وذات يوم ألح ستويلوف على طلب الفراق من زوجته متذرعاً بتباين طبيعتيهما، وكان الدافع في الواقع هو تأنيب الضمير في جعلها تتألم من دون جدوى. وافترقا كرفيقين من دون ضغينة أو كراهية.

ونتيجة للاضطرابات التي عرفتها الجامعة تم نفي فيرا إلى الحدود السيبيرية.

وهناك أفلحت في الحصول على أمر إرسالها كممرضة إلى تيومين، محطة المهاجرين الروس إلى أراضي سيبيريا الشاسعة المقفرة. وبعد سنتين، عادت من أول احتكاك لها مع الشعب مرتعشة رأفة وحماسة. وكانت تعتزم متابعة دراستها المتوقفة.

قام الجميع، ومدت كل الأيادي. كانوا يقدمون أنفسهم بأسمائهم. وكان الأمر أشبه بتكريم لفيرا غوريفا لأن إخلاصها المجرّد من المصالح وبطولتها الهادئة هناك في الجحيم السيبيري كانا معروفين.

صافح ستويلوف الحاضر فيرا بمودة.

وعندما عاد الجميع إلى أماكنهم دعيت إلى الحديث ورواية انطباعاتها. أخذت تحكي ببساطة شديدة وبتواضع عن الحشود المتزاحمة في العزبات المدخنة التي تفتقد

الهواء وحيث يختلط الرجال والنساء والأطفال والمرضى في تزاحم وقذارة حد انتشار الأوبئة في كل لحظة. حكت عن التهاون الإجرامي، وسوء نية الإدارة وعدائها الخادع أحياناً والعنيف أحياناً أخرى ضد بعض المثقفين، مثل فيرا، الذين كانوا يحاولون القيام بأعمال جيدة وإصلاح بعض الأمور.

لم تكن هناك مستشفى ولا أدوية، وألفى الأطباء القلائل أنفسهم عاجزين وقد اكتظ المرضى حولهم، فامتلأت المقبرة وامتدت إلى الحقول المجاورة رافعة حصادها من الصلبان السوداء الصغيرة...

عمّ صمت مطبق وعبر حزن شديد الغرفة المضاءة كما لو هبّت نفثة ضيق وغمّ أمام هذا الانغماس في الظلم والبؤس والموت.

غير أن فيرا هزت شعرها الأسود بحركة غير مبالية، وهي تقول:

- لا ينبغي للمرء أن ييأس، فهناك يعيش الناس في توتر عصبي دائم بفضل الإرادة! الكفاح جيد. هذه بيئة صحية وباعثة على الحياة.

كان أورشانو ينظر إليها منذ دخولها، وبدا كأنما اجتاحه الإعجاب وتقريباً الرغبة بتلك الإنسانة الجميلة واللطيفة والقوية جداً.

وعلى الرغم من طبيعته الحساسة فقد احتفظ بعفة تفكير كبيرة تمت رعايتها بالوسط الذي يعيش فيه حيث المرأة المتساوية مع الرجل تعامل كرفيقة وتحترم على هذا الأساس.

أحس نفسه منجذباً بكل بساطة إلى فيرا، لأنها كانت تجسيداً للقوة واللطف، ولأنه كان يشعر بأنه ضعيف على نحو يُرثى له، وكثير التردد، ويكنّ احتقاراً مريراً لنفسه.

نظر إلى ستويلوف متفاجئاً ومشفقاً، كان شاحباً جداً وهزيلاً جداً بنظرته المحمومة والصفراء. كيف لم ينقذه الحب، والحضور الحنون الدائم لامرأة كهذه؟

ثم فكر في عزلته، وفي الهجر الذي كبر فيه والذي ما يزال يعيش فيه. وحلت شفقة على نفسه، مع صور ماضيه.

كان والد ديمتري، نيكيتا أورشانو، نائباً في حكومة سامارا. وكان حالماً ومشبعاً بالأفكار الإنسانية. وأفلس في تجارب مكلفة لزراعة جديدة بحسب أنظمة متطورة لم تؤت ثمارها.

تزوج من ليزا مامونطوف، وهي معلمة متواضعة من أصل تاتاري. وقد توفيت وهي تضع طفلها الثاني ديمتري.

أُرسل فاسيلي، الابن البكر، المتعقل جداً كرجل صغير منذ سنته العاشرة، إلى موسكو ليقيم عند عمّاته، وبقي ديمتري وحيداً تحت رعاية الخادمات.

أضحى حالماً منذ وقت مبكر في هدأة البيت الكبير ذي الحديقة الكبيرة في الفناء، والتي أضحت غابة حيث كان الطفل يحب أن يتوه لساعات. شكلت أشجار البندق والغبيراء والبهشيات الحزينة دغلاً معقداً تحت الأشجار الضخمة، أشجار البلوط القوية، والزيزفون العالية، والسندر الرقيقة ذات الجذوع البيضاء. وكانت هناك بحيرة ترقد في الظل وقد اجتاحها القصب مع كل الغموض المحيّر للمياه الراكدة.

كانت الأشجار تتدرّج على منحدر لطيف حاجبة الرؤية لتختفي فجأة ويظهر نهر الفودكا العظيم، واسعاً وبطيئاً ومتدفقاً تحت الشمس.

وعلى الضفة اليسرى حيث تقوم مدينة بيشال الصغيرة كان السهب اللامتناهي، السهب الحر الذي يبسط تموّجه العشبي من أفق إلى أفق.

وفي الضباب الشفاف للأماكن البعيدة كانت الضفة المقابلة تمد نتوءاتها من التلال الغابوية.

وكان نيكيتا أورشانو يمضي شهوراً في أراضيه البعيدة، تاركاً ديمتري وحيداً. وكان الطفل عند خروجه من المدرسة يتوارى في الحديقة أو السهب. وهناك عاش أفضل لحظات طفولته العامرة بأحلام يتعذر وصفها. كان صمت مهيب يخيّم على ذلك المنظر الشمالي العظيم ذي الحزن الناعم. وأحياناً كان يحلق فوق السهب نسر ثم يتوقف في السماء، وينظر ديمتري بإعجاب إلى الاهتزاز المتواصل للجناحين الأصهبين للطائر السابح تحت الشمس.

عندئذٍ تجتاحه رغبة شبه مؤلمة بأن يشمل هو أيضاً في المدى، وأن يعدو عبر السهب بعيداً جداً باتجاه بلاد الأحلام التي كان يشعر بوجودها خلف سور الأفق الأزرق.

وفيما بعد شغف بالنهر، وأضحى صديق الملاحين والبورلاكي (ساحبي حبال المراكب) في المرفأ النهري.

أحب الورش الصاخبة ورائحة أخشاب الشمال الصمغية القوية، المقطوعة

والمنجورة، والتي تستخدم في صنع المراكب الكبرى التي ما إن يحل فصل الربيع حتى ترحل باتجاه مدن الجنوب على امتداد الفولكا المغذّي!

وكان ديمتري يتهجى بافتتان تلك الأسماء البعيدة، ساراتوف وتساريتسين وأستراكان...

وكان عليه أن يبكي في تأثر مجهول عندما حضر أول مرة رحيل البورلاكي المرافق بمراسم الصلوات والأغاني الاحتفالية التي يقوم بها الكهنة...

كان البورلاكي يغنون هم أيضاً على مراكبهم المزينة... آه! يا لأغاني الحرية تلك، المفعمة بحزن غير محدود وبجرأة برية! كانت توقظ عالماً من الأحلام العجيبة في روح ديمتري المنعزلة، وكانت تفتنه وتمنحه التعطش إلى التجوال الأبدي. الرحيل، الرحيل، والذهاب أبعد ما يمكن في بقاع الأرض النائية، ليس كسائح أو كبارين[1] ثري وعاطل بل كملاح صلب وفقير.

الرحيل، الرحيل دوماً وأبداً!

لم يحسد ديمتري الماريشال النبيل بيير إيفانوفيت والذي زار كل أوروبا كما يقال. فأولئك الذين كانت مصائرهم تجذبهم هم السترانيكي المتشردون الذين لا يُحصَون عدداً، والحجاج المتجولون الروس، والغجر والبحارة والبورلاكي.

*
* *

ما إن دخل ديمتري إلى المدرسة حتى كره ذلك الانعزال، وتلك العبودية الكئيبة. وقام بثورات متوحشة أوجبت طرده أكثر من مرة.

درس من دون رغبة حتى لا يزعج والده الذي كان يحبه حباً غريباً، وأليماً على نحو غير محسوس تقريباً.

عرف وهو بعد صغير الرحمة الرقيقة حد القلق لكل ألم، وعلى الخصوص، ألم الفلاحين الفقراء والدواب.

وفيما بعد قرّبه سخطه العنيف على الظلم من رفاقه المتشربين بالأفكار الفوضوية.

وخلال تلك الفترة وجد في جناح مهجور في بيت العائلة قاعة واسعة مليئة

---

(١) لقب كان يمنح في روسيا القديمة لمالك أراض. المترجم.

بالرفوف حيث تكدست الكتب والمخطوطات تحت غبار النسيان الكئيب. كانت هناك كنوز في علم السلالات البشرية.

وكان عم ديمتري، الدكتور فلاديمير أورشانو، قد نفي إلى سيبيريا قبل عشرين سنة بسبب أفكاره التحررية. وتوفي هناك مخلفاً لأخيه نيكيتا كتبه ودراساته الشخصية.

أخذ ديمتري يقضي الليالي في جناح عمه يقرأ ويدرس مفتوناً بذلك المظهر القديم، وتلك البساطات الباهتة، والألوان التي ذبلت بفعل عشرين سنة من الهجر والظلمة...

وهناك خصص طقساً شغوفاً لذلك العم الشهيد الذي لم يعرفه. وقرر أن يقلده وأن يصير مثله طبيباً ومبشراً.

واعتقد صادقاً بأنه اكتشف دعوة الرسالة الإنسانية.

التحق بكلية الطب بيترسبورغ مليئاً بالحيوية والأمل.

عمل في السنتين الأوليين بجد واجتهاد ساعدته عليه سهولة غريبة في استيعاب الدروس.

ومنذ يومه الأول، شارك في الاجتماعات والمشاريع الثورية.

غير أن المثل الأعلى الاشتراكي لم يكن يوافق طبيعته، فعدّل ديمتري موقفه وتوسع، وانصرف كلياً إلى الفكر الفوضوي، مطالباً بحرية الفرد الكاملة.

وخلال بعض الوقت، وعلى الرغم من صغر سنه، أصبح أحد الزعماء، فوجه العديد من اللجان، ومن بينها اللجنة السيبيرية التي أعدت وقامت بالعديد من أعمال الفرار التي بقيت مشهورة.

كان سعيداً خلال فترة حياته كطالب، فقد رويت حاجته إلى الحياة الكاملة، إذ كان يعيش بكل أعصابه وبكل إرادته من دون أن يعرف خطورة الثمل المستمر حيث كان.

ثم أصابه التعب شيئاً فشيئاً، وعلى نحو غير محسوس... الارتواء والشبع وارتخاء الأعصاب بعد شد قوي جداً وطويل جداً.

أحس حياته أقل احتداماً وأقل حدة... ولما اعتقد أن الأمر يتعلق بإرهاق وتعب أمل أن يمر الأمر إذا أخذ فترة راحة.

لجأ خلال إجازة فصل الصيف إلى بلدة سيبيرية صغيرة.

وهناك انتهت الحيرة فجأة، إذ تملكته الهضبة المشمسة والغابات والأفق الحزين، ذلك أنه ألفى بها كل قلق طفولته العذب، وتوقه إلى الأماكن البعيدة المجهولة...

وهكذا عاد إلى بيترسبورغ مذعوراً، فحاول أن يجبر نفسه على العمل، غير أن حياة الطالب، والحركة الثورية والاجتماعات، فقدت سحرها، وحلّ ملل كئيب محل هيجان الماضي.

وما إن عاد أورشانو إلى بيترسبورغ حتى أراد أن يدرس أوضاع البؤساء الذين يعيشون في قاع المدينة بل حاول أن يبث فيهم أفكاراً سليمة. وانحدر كأخ صيّاد ومبشّر في الجحيم المروّع الذي اكتشفه.

لكن عند عودته من الريف دفعته رغبة غامضة في الألم أن يعود إلى هناك، إلى أحياء البؤس والخمر والبغاء. ومنذ ذلك الوقت كان يقصدها من دون هدف، متوقفاً عن الدراسة، ومن دون أن يحاول القيام بأي دعاية. كان الوحل المؤلم يجذبه بكل بساطة، وأحس في تلك اللحظة رغبة معذبة في أن يستسلم للسقوط إلى أبد.

ظن نفسه أحد المحرومين الذين يجاورهم، وأحد أولئك المقهورين الذين يمضون هناك في العالم السفلي بثياب رثة، أولئك المنبوذين والمداسين بالأقدام.

وأحياناً كان يصارع. تلك كانت الثورة الأخيرة لكل ما دفعه للعيش خلال ثماني سنوات، وما كان سبب وجوده.

لم يرد أن يقر بأن المهمة التي آمن بها لم تكن موجودة، وأن شخصيته كرجل علم وعمل كانت مزيفة...

قدم إلى ذلك الاجتماع في تلك الحالة النفسية المشوشة والأليمة، أو بالأحرى. كان مجبراً على القدوم إليه، على الرغم من النفور الذي يتسبب له فيه كل ذلك.

غير أنه لما سمع فيرا استحيا من ضعفه ومما أسماه جبنه، فتلك المناضلة الهادئة الجميلة والواعية والسعيدة بقوتها أعادت إحياء حماسة ديمتري ورغبته في العمل.

*
* *

تفرقت الجماعة في الشارع حوالي الساعة الواحدة. كانت ليلة الصيف البيضاء تلك مثل فجر حائر، فاترة بعطر الليلك الخفيف. وكان الجو جميلاً ولطيفاً في هدأة الشوارع الخالية.

ترك أورشانو رفاقه من فوره، وذهب وحيداً بخطوات بطيئة.

غمره نوع من الراحة الرقيقة، وأحس ارتياحاً مباغتاً كما لو أن أحد أزاح عن صدره ثقلاً عظيماً.

كيف حدث له ذلك؟ كيف وصل إلى خمول مخجل وتباك جبان على قدره الذي كان يستطيع أن يجعله جميلاً، وهو بعد في سن الرابعة والعشرين متمتعاً بالطاقة التي طالما هزت كيانه، والتي كانت تجعل كل روحه ترتعش وبذكائه الذي كان يدركه يقظاً وثاقباً؟

كلا، عليه أن ينتفض ويروّض أعصابه التي تشبه أعصاب امراة مريضة، وأن يعود ذلك الإنسان الذي كانت إرادته صلبة وجرأته هادئة حد مفاجأة رفاقه قبل وقت قريب.

إضافة إلى ذلك، أليست هناك فيرا المساعدة والصديقة المقدّرة له والتي سينهل إلى جوارها الشجاعة والسلامة العقلية؟

دخل أورشانو غرفته العارية التي اجتاحتها الفوضى والغبار، سعيداً تقريباً تحت سقيفة بيت أسود مغطى باللبلاب المعتم...

الفصل الثاني

اجتمع أعضاء اللجنة السيبيرية عند آرسيني ماراكوف الذي كان يعيش في استوديو تصوير سابق ذي سقف زجاجي.

كانت الكتب وأدوات جراحة ملقاة كيفما اتفق على الطاولات والكراسي.

كان فتور المساء يتسلل عبر النوافذ المشرعة. وكان ماكاروف المارد تقريباً وذو العينين الزرقاوين الواسعتين والشعر الأشقر الكثيف يمشي وسط الغرفة بعصبية، واضعاً يده في حزام الفلاح الأزرق.

وكانت هناك فيرا غوريفا التي التحقت قبل وقت قصير باللجنة، وماري غارشينا القصيرة القامة على نحو مشوّه، وهي معلمة في التعليم الابتدائي، وإيميلي هيميلشاين اليهودية الجميلة جداً ذات الشعر الأحمر والوجه الهادئ والجاد، وهوسبوديان وهو أرميني أسمر عيناه حمراوان كالجمر، كان دائم الحركة بأشكال مأساوية متكلفة، ودافيدوف المسلول ذو العينين القلقتين والكئيبتين، والصغير ريومين الذي تخرج لتوّه

من المدرسة، والذي كان مايزال أمرد بوجه قاس ومتحفظ وبعينين رماديتين جميلتين يتألق فيهما الذكاء والإرادة. ولم يكن هذا الأخير يبتسم أبداً.

صرخ ماكاروف الغاضب جداً:

ـ فليأخذكم الشيطان! هذا سخيف! أورشانو خائن! هذا غباء. أنظري يا غوربيفا وأنتَ يا ريومين وأنتما الأكثر هدوءاً، وأنت أيضاً يا هيميلشاين التي تعرفين أورشانو جيداً، هل يعطيكم الانطباع بأنه خائن؟

ابتسمت فيرا التي كانت تدخن صامتة:

ـ لم أعرف عن أورشانو إلا كوني رأيته مرتين أو ثلاثاً. ثم إنه كان ممتنعاً عن الكلام، وكل ما أستطيع قوله هو أن ليس به ما يثير الشبهات سواء في مظهره أو في سلوكه[1]...

وعقبت إيميلي هيميلشاين التي بدت متأثرة جداً قائلة بحزم:

ـ أو حتى في تصرفاته.

احتج دافيدوف الداعي إلى ذلك الاجتماع قائلاً:

ـ لكني لم أقل أبداً بأن أورشانو خائن! فليحفظني الله، قلت فقط وأكرر أنه ينفصل تماماً عنا.

تدخلت غارشينا بصوتها النحيف كعاجزة:

ـ أجل، هذا صحيح، وهو يعرف كل أسرار اللجنة وأسراراً أخرى كثيرة! دافيدوف محق، وأضحى الأمر خطيراً.

التصق هوسبوديان بمقعده وأعلن بحكمة:

ـ معنا أو ضدنا.

ألقت إيميلي سيجارتها بغضب، وقالت:

ـ الله يعلم ما تقولون! ألا ترون أن أورشانو يعاني، وأن حزناً نجهله كلنا ينخره؟ استعرتم من متطرفي الجيل الماضي هوس الآلية العاطفية حد اتهام رفيق هكذا لمجرد تغيير في طباعه؟

ـ لكن ألا تدركون أنه على عكس ذلك إذا أراد خيانتنا ما كان ليظهر بعداً مفاجئاً؟

---

(١) هنا تنتهي المخطوطة الأولى. (الملف الأول) أنظر ملاحظة النهاية. الأصل.

كان ماكاروف في قمة الغضب. لم يكن صديق أورشانو، ولم تكن تجمعه به أية روابط خارج اللجنة، غير أنه كان يثور كذلك في كل القضايا التي كانت تبدو له عادلة.

صرخ متوجهاً إلى كل أولئك الذين بدا أنهم يتهمون ديمتري:

ـ وإذن ما العمل في نظركم؟ هل يتعيّن قتل أورشانو مثلما يحدث في الروايات العدمية؟

امتقع وجه دافيدوف:

ـ آه يا ماكاروف، كم أنت ظالم! من قال ذلك؟ ينبغي توضيح الأمر، هذا كل شيء.

قال زيومين بجفاء ومن دون شغف، وبهاجسه في العدل الصارم:

ـ إذا كان أحد من بيننا متأكداً من خيانته فينبغي قتله أجل، لأنه ليس هناك من وسيلة أخرى لمنعه من تدميرنا جميعاً نحن وعملنا والبؤساء الذين يأملون فينا هناك، والذين توجد حيواتهم بين أيدينا. لكن أي يقين مطلق ينبغي توفره للتجرؤ على نطق قرار مماثل! ليس هناك دليل واضح حتى الآن. ينبغي التحري والتقرير فيما بعد.

ـ يتعين إجباره على شرح الأمر بوضوح. سأتكفل بالأمر!

قال دافيدوف بعفوية محافظاً على نبرة عدائية حد أن فيرا ابتسمت مجدداً، وهي تقول:

ـ إذا ما أردت اتباع نصيحتي يا دافيدوف، دعني أكلّمه. في حالتك النفسية الحالية لن تحصل على شيء منه... لا ينبغي الاهتياج.

*
* *

عند عودة أورشانو إلى بيته بعد رحلة كئيبة عبر الشوارع ألفى قطعة ورقة دفعت أسفل بابه من دون توقيع:

«الساعة العاشرة في بيتي. عاجل.»

كان هناك مصطلح في الورقة يعني ماكاروف.

ارتعش ديمتري ثم صدرت عنه حركة ساخطة، فقد كان ذلك هو الاستجواب والعذاب الذي توقعه منذ فترة طويلة.

فالخيانة تجر مآسي لا تعوّض. وهي مسألة حياة أو موت.

ارتمى أورشانو وهو بعد بكامل ملابسه على السرير، وفكر في أعضاء اللجنة. . . دافيدوف وغارشينا وهوسبوديان، سيتهمه هؤلاء بسبب طبعهم. أما الآخرون. . .

لكن كيف يعرف؟ ألم يكونوا مقتنعين، متعصبين تقريباً، وكان الخطر الذي بد لهم فظيعاً ومسؤوليتهم كبيرة جداً! إذا ما تم الاعتقاد بامتلاك القناعة بخطئه فسيقتل.

أحس أورشانو بأن ليس لديه ما يقوله لهم، لا شيء سواء من أجل شرح سلوكه أو من أجل الدفاع عن نفسه. أحس أنه سيكون قاسياً وعنيفاً وبأنهم ينفرونه.

ومن دون امتلاك الشجاعة للذهاب إلى فيرا سقط مجدداً في صراعه المعذب والعبثي. . .

أضف إلى ذلك أنه كان يعاني منذ فترة من الحرمان، وبدأت أعراض فقر الدم تبدو عليه. كان قد بقي من دون موارد تقريباً، فوالده الذي أفلس تماماً لم يعد يستطيع إرسال شيء له. . . ولم يحرص ديمتري حتى على كسب بعض المال مثل الآخرين عبر إعطاء دروس أو القيام بالترجمة.

ومن دون أن يأكل نام في العتمة منتظراً الساعة.

وتملكه التفكير في فيرا بحزن غريب. كان التفكير في أنها ستقول، من ضمن الآخرين، كلمة في تقرير مصيره، يكتسب عذوبة فريدة. . . مضت ثورته وغضب عندما فكر في أن أمره قضي وبأنها ستساهم في موته. . .



في الساعة العاشرة دخل أورشانو غرفة ماكاروف. ومن فوره أحس الضيق والخوف يحلقان حوله. تمت مصافحته بصمت.

بقيت الوجوه شاحبة وقلقة.

وظل أورشانو واقفاً.

ومجدداً، احتدم الغضب والمرارة في نفسه، فقال بعنف:

ـ طلبتموني! ها أنا ذا، ماذا تريدون مني؟

قالت فيرا بهدوء:

ـ إجلس يا أورشانو. أنت لا تجهل خطورة المصالح التي تربطنا معاً، مصالح

ومصالح الآخرين. ومن غير المجدي الإلحاح على المسؤولية المتوجبة علينا، غير أننا لحظنا جميعاً تغييراً في تصرفاتك حد دعوتك لتشرح لنا.

ـ فلتقولوا بكل بساطة إنكم تتهمونني بالخيانة!

ارتعش صوت أورشانو وأعتمت نظرته. كان يعاني معاناة فظياعة.

وأحدثت جملته برودة قاسية.

غير أن ماكاروف سارع إلى القول:

ـ لا أحد يتهمك! كنت الأكثر شجاعة والأكثر نشاطاً من بيننا جميعاً. من يجرؤ على شتمك على هذا النحو؟

لم يستطع دافيدوف التحكم في أعصابه، فقال:

ـ أجل، لقد كنت الأكثر استحقاقاً من بيننا جميعاً. لكن الآن، أنت تعيش حياة غريبة. لم تعد تحضر الاجتماعات أبداً تقريباً، ولم تعد تهتم بأي شيء. ثم إنك تختفي لعدة أسابيع. قصدنا بيتك كثيراً من أجل أعمال على جانب كبير من الخطورة ولم تكن هناك أبداً، أو أنك كنت هناك وكنت تراوغ. إعترف بأن هذا يبدو غريباً.

وفجأة ثار أورشانو ثورة كبرياء مثلما كان يحدث في الماضي في المدرسة:

ـ بأي حق تزعمون التحكم في حياتي الشخصية؟ تدّعون أنكم فوضويون وتريدون ممارسة أسوأ أنواع الاستبداد والتجسس ومحاكمة الناس على حياتهم الشخصية! أنا أنكر عليكم هذا الحق، هل تسمعون؟

دنت إيميلي هيميلشاين وقالت:

ـ لا تغضب يا أروشانو أيها العزيز. أنت تعرف دافيدوف جيداً وهو لا يعرف كيف يتحدث بهدوء، نحن نطلب منك بكل بساطة أن توضح سبب الإهمال الذي تترك فيه شؤون المجموعة.

لربما هدأ ديمتري، غير أن غارشينا تدخلت مجدداً قائلة:

ـ ليست لدينا حياة خاصة، نحن منخرطون تماماً في العمل الجماعي، عليك أن ترد.

قام ديمتري، وقال:

ـ إذن كلا، لن أقول شيئاً. ليس لدي ما أقوله. إن اعتقدتم أني خائن اقتلوني، لأن هذا ما عليكم أن تقرروا بشأنه، أليس كذلك؟ إذا كان ذلك يثقل عليكم تجسسوا

عليّ إذن، واعلموا بأنفسكم ما أنا عليه، إذا كنتم بارعين. أرفض أن تكونوا قضاة، وأنا راحل إلى الأبد.

منع ريومين الباب عنه بهدوء. ثم وقفت فيرا وأجبرت أورشانو على الجلوس مجدداً تاركة يدها على كتف الطالب.

نظر إليها من الأسفل فبدت له بعيدة جداً، وحل به نوع من الانتشاء.

رأى ماكاروف الدموع في عيني ديمتري، وألقته رأفة مفاجئة ضد الآخرين:

ـ أنتم غير إنسانيين! الرفيق يعاني، لربما هو يُحتضر... ماذا تعلمون؟ وأنتم تعذبونه باسم أحكامكم المسبقة الحقيرة!

رأت فيرا في عيني أورشانو أنه كان بعيداً عن الأفكار التي تلصق به، وأنه كان يعاني.

التفتت ثم قالت:

ـ على من يتهم أروشانو أن يقولها الآن!

وعمّ الصمت.

ـ أنت ترى ألا أحد تحدث. سأشرح لهم سلوكك. روحك بعيدة في مكان آخر، ولديك حزن وهمّ شخصيان يبعدانك عن شؤوننا. أنت محتاج إلى الراحة، هذا كل شيء... وإذن لن نزيد في عذابك. ولإنهاء هذا المشهد المضني، نحن نضمنك، أنا وهيميلشاين وماكاروف. إذا أردت الابتعاد عن اللجنة لبعض الوقت افعل ذلك. أنت محق في المطالبة بحريتك.

قام أورشانو ثم قال:

ـ شكراً لك لأنك امتلكت شجاعة التصرف كإنسان حر... اسمحوا لي الآن بالذهاب. إذا ما استطعت العودة سأعود، وإذا لم أستطع الوداع!

غادر أورشانو بارتباك، ومن دون أن يصافح أحداً.

رضخ بقية أعضاء اللجنة أمام ثقة فيرا الهادئة، احتراماً لطبعها واستقامتها المعروفة والمقدّرة من قبل الجميع.

وعمّ الصمت. بعد ذلك فكّر ماكاروف بصوت مرتفع:

ـ إنه محق، ينبغي للمرء أن يتصرّف كإنسان حر. ما فائدة كل هذه المظاهر التي

تشبه الأب ديماس، وكل هذه اللجان مع رئيس ونائب رئيس إلخ إلخ... كل هذا التقليد السخيف وغير المنطقي للمظاهر الحكومية التي نحاربها؟

*
* *

عاد أورشانو إلى بيته مستعراً بنار حُمّى شديدة، وفريسة لغضب مرير، وثورة عميقة اجتاحت كيانه. لمَ حاولوا تعديل حياته الشخصية، واقتحام أسرار قلبه الأليمة؟ أغاظه ذلك. أخذت وجوه دافيدوف وغارشينا الأرمني المتهمة والمتحذلقة تتغضن في هذيانه الصافي.

غير أن أربعة من أولئك الناس كانوا يتصفون بشجاعة خففت ألمه... وعلى الخصوص فيرا. انتهت هذه الصورة بأن تهدئ من روعه. لم يكن وحيداً مادامت فيرا موجودة. سيذهب إليها عاجلاً أو آجلاً عندما يستطيع ذلك.

الفصل الثالث

بعد شبه نوم مضطرب لليلة سيئة أمضى أورشانو كل النهار تقريباً في الحيرة القلقة. هل يذهب إلى فيرا؟ غير أن الخجل منعه من ذلك. كيف يمكنه أن يقول لها إنه يعيش منذ أكثر من ستة أشهر في أقذر الكباريهات وأنه يسكر مع المومسات وذوي السوابق ويتمرغ عن علم في القذارة وأن ذلك يمتعه؟

وما دعم قراره بالبقاء هو هذه الفكرة الواضحة جداً حتى لو اضطر إلى أن يقول كل شيء لفيرا وأن يبحث عن ملاذ جوارها. ولكن كان عليه في الساعة الخامسة أن يعود إلى جزيرة غوتوييف، أفقر الأحياء البحرية ليلتقي عشيقته بوليا... وعندما سيكون برفقتها سيذهبان حتماً إلى الكباريه وسيسكران.

وبالتالي، ما فائدة الذهاب والقيام بما أسماه بمرارة «الكوميديا» لدى فيرا، مادام سيبقى ذلك الكلب التائه والقذر، ومادام يجد الوحل الأسود في المجرى جيداً ومبهجاً؟

*
* *

... كانت بوليا في العشرين من العمر. وكان شعرها الأشقر يتوج وجه المعاناة

الدقيق بعينين رماديتين واسعتين، عينين روسيتين حقيقيتين تنفتحان كأنهما متفاجئتان ومذعورتان تقريباً على الكثير من القبح والبؤس.

دخلت في سن الثامنة عشرة إلى معمل الورق لأصحابه الإخوة كوزلوف. وكان والدها وزوجته يشربان دون أن يوليا الفتاة أية أهمية.

خضعت بوليا مبكراً للمجون المؤذي في البيت والمعمل، فاغتُصبت من قبل العمال مثل كل شبيهاتها. كان ذلك اندفاعاً وحشياً للذكور غير المبالين، فاختلت صحتها الهزيلة إلى الأبد. بقيت مستسلمة كما لو أنها بلهاء، ورقدت حواسها في خضوعها للرجال باستكانة كما لو أنها أحد أشكال البؤس. وكان الكاهن الأرثوذكسي يردّد في الكنيسة أن الفتيات المنحرفات سيحرقن في الجحيم إلى الأبد، غير أنه لم يشر إلى أية وسيلة لتفادي الذنب العظيم والموجة العاتية التي تصعد من كل جانب.

شربت بوليا مثل كل الأخريات، واكتسبت عادة البغاء من أجل المال بعد عناء النهار.

وعندما كانت تخرج من شرودها عادة ما كانت تشتم حياتها الحقيرة قائلة بأنه ستفعل مثل أختها ليوبا التي كانت في بيت الأم شميت. على الأقل كانت الفتاة تأكل هناك عندما تجوع، وتلبس الحرير، وكان هناك دفء في فصل الشتاء في حين أنه كانت تعاني الحاجة الدائمة منذ أن رحل الأخ كوليا إلى الجيش.

وذات مساء كان أورشانو يتجول في الجزيرة فنادته بوليا.

كان فريسة لإحدى أزمات الحساسية الدورية، وكان محتاجاً أيضاً ألا يكون وحيداً فتبعها إلى مخزن خرب حيث نمت الأعشاب.

لم تكن بوليا مستيقظة، وجعلها احتدام ديمتري تبتسم متفاجئة، إضافة إلى ذلك لم يتمكن ديمتري لاحقاً من معرفة إن كانت تحبه.

تعلق بها لأنها كانت بالنسبة إليه تجسيداً للألم وللانحطاط حيث كان يستمتع بالعيش.

وكانت بوليا تلقّب في الجزيرة برثة الثياب لفرط ما كانت ثيابها ممزقة دوماً وقذرة. وكانت تنفق في ماء الحياة كل ما كانت تكسبه كعاملة ومومس.

وشيئاً فشيئاً، ولما وجد أورشانو في السكر ارتياحاً ممزوجاً بلذة غامضة وغريبة، أخذ يشرب مع بوليا ذات النظرة المشوشة والبعيدة. بدت وكأنها تنصت للأشياء غير

المفهومة بالنسبة لها، والتي كان يحدّثها بها أورشانو في السكر. وكان يحدّث نفسه عندما تشرع بوليا عند رؤيته يبكي في الانتحاب بيأس قائلاً: «تفهمني بقلبها.»

. . . وفي اليوم الموالي لليوم الذي مثُل فيه أورشانو أمام اللجنة تراجع عن قرار الذهاب إلى فيرا، وعاد مساءً إلى القفر القبيح لجزيرة غوتوييف عبر متاهات المعامل الخربة والمخازن ذات الزجاج المكسور، الحزينة مثل عيون مفقوءة. . .

الفصل الرابع

في البداية نُظر إلى أورشانو بارتياب في الأوساط الشعبية وظُنّ أنه بارين متنكر في الثياب البالية التي كان يرتديها. وشيئاً فشيئاً، وبالاجتماعية الفطرية لدى الشعب الروسي، وروح المساواة التي لم تنجح قرون الظلم في محوها، تم قبول الطالب السابق.

ومنذ اليوم الذي سكر فيه حزناً أضحى واحداً منهم، وحصل على الحق في دخول مدينة البؤساء.

وجد في ذلك سعادة وارتياحاً عظيماً.

وذات مساء، لما لم يجد بوليا، راح يتجول على غير هدى عبر المدينة، عائداً من دون أن يدري إلى ساحة سيينايا، سوق التبن الذي عُدّ ساحة المعجزات بيترسبورغ، وملتقى وملجأ كل الحثالة المعذبة حيث مومسات ومجرمو العاصمة.

دفعت قطرات المطر أورشانو ليختبئ في كباريه حيث قاعة فسيحة ذات جدران مدخنة وملتمعة، تشبه النحاس المصقول. وأمام المشرب الخشبي المسمر على نحو سيّئ جلس صاحب الكباريه، وكان شاباً طويل القامة قوياً ذا وجه جاف وأسمر وعينين سوداوين مائلتين. كان من التتار. وكان حليق الجبهة تحت قبعة من جلد الخروف. وكان جسده المرن مشدوداً في قفطان أزرق عتيق ممنطق باللون الأحمر.

كان يدعي أنه من قازان ويلقب بأخماتوف، وكان اسمه الحقيقي أحمدكا، وكان مايزال مسلماً.

كانت سعادة كبيرة تعم كباريه أخماتوف على أنغام البلالايكا والهرمونيكا، وكانت الفتيات يذهبن ليشربن هناك واضعات خمار القرويات وجارّات قباقب مبتذلة.

أخذ أورشانو الذي جلس في إحدى الزوايا يرقب بفضول زبائن الكباريه. وكان

أولئك الرجال يبدون عند النظرة الأولى إليهم كعمال غير أن عيني أورشانو الخبيرتين لم تخطئا، وسُرّ لأنه دخل ذلك المكان. فالدراسات التي يمكنه أن ينجزها والصداقات التي يمكنه أن يقيمها هناك ستقطع رتابة حياته وجولاته في أوساط العمال.

صرخ أحدهم وكان في مجموعة قرب أورشانو:

ـ فلنبدأ مَيدان!

رأى أورشانو في البلد الكثير من البروادياغا الفارين من سيبيريا وقد أصبحوا متشردين.

كشفت كلمة ميدان المميزة، والتي تشير في سيبيريا إلى لعب الورق، لأورشانو من فوره ما كان عليه كباريه أخماتوف، فقد كان ملتقى البروادياغا المبحوث عنهم.

كان يدرك أن أغلب الفارين من سيبيريا هم متشردون بالفطرة، ورجال لا يكونون سعداء إلا في الطرقات الكبيرة والذين يرون أن حياة التشرّد وحدها هي الحياة المرغوب فيها والحياة السعيدة.

وأحس بالارتياح بينهم ورغب في التعرف إليهم والتحدث معهم.

ومن بين أولئك الذين كانوا يلعبون الورق لمح أورشانو رجلاً في مثل سنه يرتدي قفطاناً رثاً ويعتمر قبعة من فرو الثعلب البالي. على أن اللاعب بدا متأنقاً على الرغم من أسماله. وكان طويل القامة ممشوق القوام، بوجه ذي ملامح متناسقة ومقوسة، وعينين مشروحتين صهباوين وشعر شديد الشقرة، ولطيف على نحو جذاب.

وكان رفاقه يدعونه أوريول (العقاب) أو المجنون.

أفرط العقاب في الشرب. وعند نهاية السهرة نشب شجار بينه وبين صاحب الكباريه من أجل تسديد ما عليه.

صرخ العقاب:

ـ يا رأس الثور! يا ذا الجبهة الحليقة!

ـ أجل، لربما كنت كذلك، وأنت؟ تصدر منك رائحة الأعمال الشاقة!

ـ إنها طريقك!

ـ الله يعلم إن كنت سأذهب إليها ! أما أنت فمن المؤكد أنك أتيت منها!

فجأة وبنظرة مائلة نحو أورشانو صمتا، ودفع العقاب ما عليه من دون تذمر.

وفي اليوم التالي عاد أورشانو إلى كباريه أخماتوف رفقة بيتروف، وهو عامل سابق في غوتوييف، والسكير الذي يمكن أن يطلق عليه في الأماكن الدونية الولد بمعنى السوقي.

كان بيتروف يشعر ببعض الود حيال ديمتري. ولما كان معروفاً في سيينايا فإن اصطحابه أورشانو لم يعد يثير أية ريبة. كان بارينا وطالباً سابقاً، غير أنه أخذ يشرب بداعي الحزن، وهو يفضّل مجتمع الموجيك على مجتمع أشباهه الأعيان المتعلمين.

كل ما كانوا يطلبونه ألا يكون شُرطياً، وكانت توصية بيتروف كافية لإزالة أي شك من ذلك القبيل.

وبخلاف ما يحدث في الغرب يكنّ الشعب الروسي الرحمة والمودة للمنبوذين الذين يقصدونه.

وكان العقاب يبدي احتقاراً شديداً تقريباً لكل زبائن أخماتوف وحتى لهذا الأخير الذي ينبزه كل لحظة بالوثني والمسيح الدجال.

غير أن العقاب دنا في تلك الأمسية من أورشانو وأخذ يحدثه سائلاً إياه عن ماضيه بجمل قصيرة جافة. وكانت عينا البروديا‌غا مركزتين على عيني ديمتري وكأنهما تقولان «هل تكذب، أم إنك لا تكذب؟»

من الواضح أن العقاب احتقر مسألة سؤال بيتروف عن الوافد الجديد.

وكان أورشانو يقول الصدق دوماً حول شخصيته وحول حياته، إلا أنه كان يقول إن قراره بأن يعيش في «الفيلق الذهبي[1]» كان نهائياً.

من جهة أخرى كانت تلك الفكرة تروقه، وكان يغذيها بحزن أحلامه المتوحدة.

ومضى العقاب في أدبه حد دعوة أورشانو لشرب ماء الحياة. ولعبا الورق، ولما كان ديمتري يخسر ألقى العقاب الأوراق على الطاولة بإهمال، قائلاً:

ـ هذا يكفي، إذا كان لديك المزيد من الكوبيك احتفظ به.

وعندما خرجا، حيّا بيتروف أورشانو قائلاً:

---

(١) «الفيلق الذهبي» البؤساء الذين يعيشون بالخداع والجرائم والتسول. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش).

ـ لقد نجحت في الحصول على مودة العقاب. أنت محظوظ! قلة فقط يمكنهم أن يتفاخروا بكونهم شربوا ولعبوا معه.

وروى العامل السابق لديمتري ما كان يعلمه عن ماضي أورلوف، اسم العقاب الحقيقي، كما يدعي هو نفسه.

كان يتحدر من قوقازيي الأورال، حيث اقترف وهو بعد صغير السن جريمة قتل عاطفية، فأرسل إلى سيبيريا، وفر ليصبح برودياغا. أعيد اعتقاله بعد جريمة ثانية، كان قد قطع الطريق تلك المرة. وفي كل فصول الربيع كان أورلوف يفر مشدوداً بالحنين إلى الحرية في الغابات والسهب. وفي السنة السابقة فر من نيرتشينسك رفقة برودياغا سابق. وقبل الوصول إلى تيومين بقليل اختبأ الفاران في أحد الكباريهات في قرية نيوبلاتيموفكا. وفي الليل سمعا حديثاً دار بين الخمّار وابنه، فقد كان الموجيك يرسل ابنه الشاب طلباً للشرطة لاعتقال البرودياغيين. وهكذا، ذبح أورلوف ورفيقه الشيخ وابنه، وأحرقا القرية قبل أن يفرا.

ومع ذلك فأورلوف نفسه أنقذ امرأة من النهر كانت على وشك الغرق، وكان يعفو عن الفلاحين الذين كانوا يعربون له عن كرمهم ويحفظون سره. وكان بداخله خليط فريد من الكبرياء والحنين والوحشية والرقة. فقد كان يسكر أحياناً مثيراً جلبة تصير مروّعة، ويبقى أحياناً لأسابيع في أحد الكباريهات غارقاً في نوع من الفتور الكثيب والحزن غير المحدود.

زادت كل هذه التفاصيل الفضول والود اللذين أوحى بهما أورلوف لأورشانو منذ اليوم الأول.

وصارا صديقين.

وعندما اعترف أورشانو للبرودياغا بأنه يعرف جزءاً من ماضيه، كان لهذا الأخير ردّ خشن:

ـ إحذر بحق شيطان الليل ! فأوريول لا يمزح.

رفع أورشانو كتفيه، وحدّث العقاب عن نيوبلاتيموفكا والسهب والغابة.

فقال البرودياغا:

ـ إسمع، كل هؤلاء الموجودين هنا عمال وخدم مستعدون دوماً للعق أحذية

الأقوياء ومن يعرفون كيف يجعلون الآخرين يخشونهم. أغلبهم بؤساء ولصوص. سرقت أنا أيضاً. . لكن ليس من الجيوب.

هم جبناء على الرغم من أن وجوههم لا تشبه صورة الله. أنت ترى أني لا أكلمهم. كلّمتك لأنك حزين. أنت لا تقهقه مثل دابة سخيفة عندما لا يكون هناك شيء ظريف، وعندما يكون الرجال محتاجين للكلام. لكن يا ميسكا، إذا رأيت أني أحترمك فلا تفكر أني أفعل ذلك من أجل علمك. . . قلب المرء هو ما يهمّ وليس علمه. كلنا أناس حزينون بأرواح مسكينة. . . لكن أولئك الذين لهم قلب يمكنهم أن يستغنوا عن العلم. لا تنسَ هذا.

ـ عندما فررت، هل كنت سعيداً في السهب؟

التمعت عينا أورلوف، وابتسم:

ـ آخر مرة على الخصوص. كان ذلك في بداية فصل الربيع. كنت رفقة جزار سابق من بينو كان يلّقب بسكين الذهب. نصحنا الأكبر سناً بألا ننزل إلى الجنوب عند المانزي (الصينيين) فهم يلاحقون البرودياغا ليسلموهم إلى الشرطة الروسية. تركنا نيرتشينسك وبقينا مختبئين لثمانية أيام في مستنقع، يأكلنا البعوض ونرتعش بالحمّى. وفي الليل كان صوت الرياح في القصب يجعل أبداننا تقشعر لأنه كان يمكن أن نعتقل، ثم دخلنا الغابة. آه، كان الأمر مختلفاً هناك، فقد كنا ننام على الطحلب أسفل أشجار البلوط الكبيرة، وكنا نقتات على السمك المصطاد بأشواك معوجّة وخيوط من العشب المفتول، وعلى الطرائد التي نمسكها بالفخاخ التي كنا نصنعها.

اعتدل البرودياغا والتمعت عيناه الصهباوان عند استحضار ذكرياته.

ـ كنا نسير حرّين حيث نريد في أرض الله. نمنا على الأوراق الجافة وعلى العشب الرقيق الذي كان يصدر رائحة طيبة. وعندما يكون الجو حاراً في غابات التنوب كانت رائحة البخور تشبه رائحة الكنيسة.

أصدر البرودياغا إيماءة، وأضاف:

ـ كان كل شيء ملكنا هناك يا أخي، في الغابة وفي السهب والأنهار والوديان الكبيرة. . . وكنا أحياناً نصعد شجرة ضخمة ومنها ننظر إلى الغابة من كل الجوانب حتى المكان حيث تلتقي السماء بالأرض. كانت الريح تنوح ليلاً وتعوي مثل الذئاب في فصل الشتاء، وأحياناً يلتصق أحدنا بالآخر، يعلم الله لمَ.

اتسعت طاقتا أنف البرودياغا وانتفخ صدره القوي باستحضار ذكرياته تلك.

ـ أحببت البقاء، غير أن المسنّين مثل رفيقي سكين الذهب كانوا يعلمون أفضل مني، ونعتني بالغبي وهو يسألني كيف سأفعل في فصل الشتاء. وهكذا أخذنا طريق روسيا... وعندما اقتربنا من تيومين أغوانا الشيطان، فقد كنا مجبرين مرة أخرى على حمل الذنب فوق رأسينا.

ـ أجل، أحرقتم نيوبلاتيموفكا...

صوّب البرودياغا نظرة طويلة وثاقبة على أورشانو...

ـ من يعرفك؟... ومع ذلك أرى جيداً أنك لن تذهب عند القواد لتخبرهم... كلا، لن تذهب.

ـ كيف تعرف أني لن أذهب؟

ـ أنا مثل الثعلب أو الحيوان ذي القوائم الثلاثة[1] أشم كلاب الصيد من مكان بعيد.

ـ هل أحرقت نيوبلاتيموفكا؟

ـ أجل... أنت تفهم. عندما قتلنا الشيخ وابنه أردت الرحيل فراراً، غير أن سكين الذهب قال لي: كلا، يتعيّن إحراق القرية الملعونة، ليس لهم صورة الله في قريتهم هنا. ينبغي إحراق من يشي بالأشقياء...

ـ لكن من أين أنت، وما اسمك؟

ـ من أين أنا؟ ما عدت أعلم. من مكان بعيد، واسمي؟ يدعونني أورلوف، وأوريول وساشكا ذا العين المحتدمة... الكثير من الأسماء!

فجأة ظهر الحزن على وجه البرودياغا، ولم يلح أورشانو.

ومنذ ذلك المساء أضحى العقاب صديق أورشانو ورفيقه. كان هو مَن علّمه أسرار سيينايا. وكان العقاب هناك كما لو أنه في بيته. كان يعرف الجميع، وكان محترماً بل موضع إعجاب حتى. وكان الجميع يعلمون أنه برودياغا فار من سيبيريا، وكان ذلك يزيد من هيبته.

---

(١) الحيوان ذو القوائم الثلاثة: الذئب. من عادة تلك الحيوانات الجري رافعة إحدى قائمتيه الخلفيتين. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت في الهامش).

أحبّ أورشانو سينايا. كان عالماً آخر تُرى فيه كل الأنواع وكل الألبسة، وتُمتهن فيه كل المهن حتى أكثرها غرابة. وكان يباع فيه كل شيء. ومنذ الفجر كان الناس يجتاحون الساحة، ويأخذ الباعة أماكنهم على طاولات وعلى مقاعد وعلى الخشب وأرضاً. وكانت بائعات، يرتدين كاتسافيكات[1] مخرّمة وقفازات، يبعن الطعام المجفف حيث البيض الطري والكبد المشوي والأسماك المملّحة المدخّنة والمجفّفة والمصلّبة... كن يقطعن الأجنحة والبصل النيء والخبز الأسود مع الطبخ الذي يعددنه على المواقد الصفيحية.

وكان العمال والمتسكعون يحضرون ليأكلوا هناك ببعض الكوبيك.

وتمضي نساء حاملات على رؤوسهن ألواحاً عليها خبز وسط الحشود صارخات بأصوات مرتعشة وجادة: زلاتشي! زلاتشي! (خبز أبيض).

وكان العزاب يقيمون في مكان قريب جداً في مراقد كبيرة حيث تحل المقاعد محل الأسرّة. وهناك طاولة فظة ممتلئة بالدهن وبعض أواني المطبخ المكدسة في إحدى الزوايا، وصناديق خشبية مطلية ضمت أسمال العمال. وفي زاوية أخرى الموقد الروسي الكبير المصنوع من الآجرّ والذي يستخدم للطبخ وللتدفئة في الآن عينه... وفي النوافذ حلّ الورق والزنك والخرق محل الزجاج المكسور.

وكان العمال يتكدسون هناك في عطانة التزاحم من دون هواء ومن دون ضوء.

وفي الخارج كان الأطفال الهزيلون المهجورون والعراة إلا من قمصان من الكتان يتجمهرون بأعداد كبيرة وقد كبروا قبل الأوان.

وكانت النساء ذوات جمال هزيل شاحب وقد أصبحن عجائز قبل البلوغ بسرعة وقبيحات بأجساد مترهلة وملامح مشدودة.

وكان البغاء والشراب يلخصان كل شيء. كانت جموع الشغيلة الروسية البائسة ترزح تحت وطأة العمل المضني بأجور زهيدة وفي أسوأ الظروف المادية والمعنوية.

كانت القذارة وانحطاط شعب بأكمله.

ما عاد أورشانو يذهب إلى هناك كمبشّر. ولم يحمل إلى هناك مثلما فعل في

---

(١) كاتسافيا: نوع من السترات النسائية القصيرة من القماش أو الفرو (ملاحظة إيزابيل إبرهارت على الهامش).

سيينايا أيام العقاب، إلا ملله القاتم، والذي جعله يغوص في ذلك العالم الهائل والأبدي حيث الكائنات المسحوقة والأشياء القبيحة.

أحس نفسه أفضل وسط أولئك الناس وأقل وحدة. لم يلمه أحد على خموله وتوقفاته التي لا تنتهي بالكباريهات حيث اعتاد الشرب مثل الآخرين.

وكان يحدث أن يمضي أسابيع كاملة كذلك من دون أن يعود إلى بيته، فينام كيفما اتفق في المواخير، حيث يرقد ثملاً بالشراب والخمول وغير مبال.

الفصل الخامس

مر شهر تقريباً منذ أن مثل أورشانو أمام اللجنة ولم يجد الشجاعة ليذهب إلى فيرا.

غير أنه كان يفكر كل يوم تقريباً في ذلك، وفي الارتياح الكبير الذي سيشعر به إذ ما استطاع أن يعترف بكل شيء وأن يعري قلبه أمامها، وإذا ما أرادت أن تكون صديقته وأن تمد يدها له. ثم كان يمنعه احتقار كئيب لنفسه. ما فائدة الذهاب إلى هناك ما دام يشعر بأنه مرتاح في الوحل؟

غير أنه كان في لحظات الصفاء يحسّ أنه لم يكن سعيداً، ولا يمكنه أن يستمر على ذلك النحو. كان يشرب غير أنه لم يتحول إلى سكير، وكان يعيش مع الرعاع وذوي السوابق غير أنه كان يشعر بأنه لا يستطيع أن يصير مثلهم.

وما كان يلزمه، وما كان يصبو إليه في غلالة حياته في تلك الفترة الرمادية من كل روحه، ومن كل الشد الأليم لأعصابه الساخطة، كان قراراً نهائياً.

أن يتخذ قراره في نهاية المطاف فيعود طالباً أو يغرق إلى الأبد في القعر، ويصبح عاملاً أو متشرداً، لكن ألا يبقى هناك معلقاً وسط كل أولئك الذين هزمتهم الحياة.

كان ما يزال يحب الحياة أكثر، وكان ما يزال محتاجاً إلى النور والهواء الصافي واتساع الأفق.

شعر بذلك جيداً بغموض وعبر يأسه المتزايد، وكان ذلك ما دفعه باتجاه فيرا بشكل لا يقاوم.

*
* *

استيقظ أورشانو فجراً في مشغل مقفر حيث كان نائماً.

كانت الشمس تشرق حمراء تماماً وبألق وردي يمر على واجهة الأشياء مثل ظل حياء.

كان الجو فاتراً ولطيفاً. وفي صمت الشوارع التي كانت ما تزال خالية استيقظت الطيور البرية، وشاعت بهجة هادئة في ذلك المكان المعزول من الضاحية.

خضع أورشانو دوماً بحدة شديدة لتأثير المظاهر الخارجية، فالأيام الممطرة والمكفهرة تدفعه إلى ملل كئيب بينما كان يشعر بأنه يعود للحياة عند أقل شعاع للشمس.

وفي ذلك اليوم أحس أورشانو في ضوء الصباح المائل سعادة بلا سبب، ورقّة خرساء تقريباً في داخله.

لمَ يستسلم لليأس؟ لمَ يبحث عن القبح المعذب لدى الناس وفي الأشياء عندما يتعيّن عليه بخلاف ذلك أن يثمل من كل ما هو جميل وأن يتنفس ملء رئتيه الهواء والنور الدافئ والباعث على الحياة؟

قصد فيرا مبكراً جداً.

كانت غرفة الطالبة كبيرة جداً، صبغت باللون الأزرق الباهت مع ستائر بيضاء متواضعة ذات أزهار حمراء صغيرة، ولا تضم إلا سريراً صغيراً ضيقاً وطاولة من التنوب ومكتباً وخزانة أدراج ورفوفاً في الحائط ملئت كتباً. وكانت هناك نافذتان تفتحان على بهجة حديقة أزهار حيث كانت أشعة الشمس تتألق عبر الأغصان وتدفق إلى داخل الغرفة.

كانت فيرا ترتدي قميصاً معتماً أزرق وكانت تصحح مقالاً حول هجرة القرويين إلى سيبيريا وعدت به صحيفة. كانت تدخن سيجارتها الدائمة، وتكتب بسرعة وأحياناً شاطبة بغضب النص بمداد أحمر.

عندما دخل أورشانو لم يبد أن فيرا تفاجأت.

ـ مرحباً بك يا أورشانو، لكن على شرط أن تجلس وتبقى هادئاً لخمس دقائق، فأنا متأخرة جداً!

نظر إليها أورشانو وهي تعمل. منح التركيز وجهها شيئاً طفولياً وحاداً. كانت

تستعجل منحنية على مخطوطتها فيسقط شعرها الأسود عل جبينها مانحاً إياها جمال مراهقة لذيذاً.

عندما انتهت، ابتسمت لديمتري قائلة:

ـ كنت أعلم أنك ستأتي في يوم من الأيام. أين كنت منذ آخر مساء لنا هناك؟ ذهب ماكاروف وهيميلشاين إلى بيتك عدّة مرّات فألفيا الباب مفتوحاً والغرفة فارغة... زد على ذلك أنك بحال مزرية... ما الذي حدث لك؟ لست محتاجاً إلى الوحدة والصمت فذلك خطير عليك! هيا، تحدث، أخبرني ماذا حدث لك منذ ذلك الوقت؟

كانت تخمّن واستبقت الاعتراف. أراح ذلك أورشانو كثيراً وعاده الشعور بالخجل، إذ اعتقد نفسه سخيفاً لمجيئه كي يحكي حياته لتلك المرأة التي لا يكاد يعرفها.

وهكذا، وبعنف الخجولين العفوي، روى كل شيء منذ أحلام الماضي على ضفة الفولكا حتى علاقته ببوليا وسكره. لم يحذف شيئاً، ولم يسع إلى إخفاء الحقيقة الحزينة أو حتى الاعتذار.

قالت فيرا مفكرة:

ـ فهمت كل شيء... بقي شيء واحد غامض. ما الذي نفّرك سريعاً من حياة الطالب؟ وما الذي جعلك تنكر مبدأنا الأخلاقي الذي كان مبدأك حتى وقت قصير؟ إذا شرحت لي ذلك بوضوح فقد أتمكن من الإجابة عن سؤالك: ما المصير؟

ـ كانت رتابة هذه الحياة هي التي أصابتني بالضيق في البداية... وبشكل غير محسوس بدأت أثور على التزام أن أكون رجل حركة اجتماعية كان يفرضها علي الوسط حيث كنت أعيش، أنا متعطش إلى الحرية يا غوربيفا ولم أجد الحرية لدى فوضويينا.

ـ لكننا لسنا أحراراً بكل تأكيد. لسنا سوى العمال الخفيين للحرية المستقبلية.

ـ اعتقدت الأمر كذلك في ما مضى. أما الآن فيبدو على عكس ذلك أن من الأفضل أن يأخذ كل منا من الآن فصاعداً كل حريته المعنوية والفكرية والمادية الممكنة، من دون أن يلغى من المجتمع العصري. فلينعتق الناس بأنفسهم! لن تنعتق العامة بطريقة أخرى. لاحظي أنها المرة الأولى التي أحرص فيها على تنسيق ركاه

المشاعر والأفكار هذا. وأيضاً هي المرة الأولى التي أحدث فيها شخصاً عن هذا.

بقيت فيرا مفكرة.

ـ لكن ماذا تسمي انعتاق الفرد بنفسه؟ هل هو اتباع ميوله من دون أن يعرقل بأي تضامن مع الآخرين، وأن يعيش كما يحلو له وأن يدير ظهره بحسم لكل التعاقدات ولكل الأكاذيب وأيضاً لكل تعاون مع العالم القديم؟ إذا كان الأمر كذلك، من الممكن أنك فكرت في تحقيق هذا الحلم بأن تعيش مثلما فعلت لما يقرب من ستة أشهر؟

ـ كلا، ألف مرة! لكن لديّ تعلّق عاطفي كبير بحياتي الماضية. ما زلت طالباً إلى حد يمنعني من الرحيل نهائياً وأن أصبح متشرداً كما كنت أريد، لكن ليس المتشرد الكئيب المحروم الذي أنا عليه الآن، بل المتشرد الذي يثمل بشتى أنواع الجمال، ويرحل عبر الكون الفسيح المتألق والحر، فهذه الحيرة والندم على الماضي والصراع الذي لا يحتمل مع الحاضر هي ما دفعني إلى السقطات المتالية التي حكيتها لك.

ـ لكن لمَ تسألني ما الذي ينبغي فعله؟ الأمر بسيط! اضغط على نفسك وخذ قراراً. أشك كثيراً، بالنظر إلى حالتك النفسية الحالية، أنك تستطيع أن تتخذ قراراً نهائياً. إذن استعد سيطرتك على نفسك. عد إلى بيتك وحاول بكل ما أوتيت من قوة وبكل طاقتك وبكل صدق أن تعود طالباً ورجل حركة، وإذا ما أحسست أن قلبك لا يطيعك في ذلك من دون ضعف ومن دون استسلام، وأن هذه الحياة أضحت لا تطاق بالنسبة لك، تخلّى عنها بشجاعة وارحل، وكن بورلاك أو متشرداً أو أي شخص آخر بحسب ما تريد. لكن لا تسمح للفوضى بأن تقتحم حياتك، ولا تترك نفسك تمضي عبثاً فهذا هو الضمان الأكيد لشقاء وألم دائمين.

أنصت أورشانو لفيرا بانتباه. كم كانت محقة! كان الأمر بسيطاً جداً. الخلاص! امتثل للأمر. ثم إنها كانت هناك، وذلك يُيسّر كل شيء.

ـ شكراً يا غوربيفا، شكراً! لكني أحتاج إليك لمدة طويلة.

ـ سأكون هنا، لا تخجل مني، ولا تفكر أنك تستطيع أن تصيبني بالملل أو التعب، وفي كلمة واحدة، لا تعتبرني غريبة. إحذر من أن تتحمس فذلك خطير جداً أيضاً. أخبرني ماكاروف بأن غرفتك كئيبة وحزينة، لم تعش فيها مؤخراً إلا أياماً مروّعة. إذهب في الحال وابحث عن غرفة أخرى. اخترها في الضاحية، ولتكن نظيفة

ومشرقة، مشرقة على الخصوص، ثم اجعلها قابلة للعيش فيها. ألقِ ثيابك الخاصة بالولد في النار، وكرّس وقتك للعمل، وكلما كان الأمر صعباً أو شاقاً، تعال نهاراً أو ليلاً، لا يهم. فبين الرفاق هناك ماكاروف وهيميلشاين، إذ يمكن لكل الآخرين أن يكونوا مزعجين لك من الناحية النفسية في هذا الوقت. وصية أخيرة، توقف من اليوم عن تشردك، قم بنزهات كثيرة، لكن ليس إلى غوتوييف أو إلى سيينايا. إذهب تحت الشمس إلى الجزر وإلى الضاحية.

ـ فيروتشكا! أنت تعظين أورشانو... لكن ما فائدة ذلك؟ فالعمل على انعتاق الشعب، والقيام بإنجازات وتأمل روعة الكون على امتداد الطرقات، أو الصلاة إلى الله داخل دير، ذلك أمر واحد. لا يهمّ، شريطة البحث عن النور بصدق وببساطة.

كان على ديمتري أورشانو أن يذكر طيلة حياته كلمات رسول الرقة المسن. أخذت فيرا تضحك.

ـ آه! يا عمي لا تعظ الحياة التأملية لأورشانو، فلا حاجة به إلى ذلك لأنه نزاع إليها بما يكفي!...

أدركت بكل تأكيد الفكرة الواسعة والجميلة التي أعاد عمها التذكير بها، غير أنها فكرت في شيء آخر.

تبع أورشانو نصائح فيرا بحذافيرها. اكترى غرفة مشرقة وبهيجة، ووضع فيها الأشياء القليلة التي جلبها في السابق من بيشال، وصفّ كتبه ودفاتره.

وفي كل محاولته لإعادة بعث حياته السابقة كان شيء واحد يمنعه فعلاً وبعمق هو صداقة فيرا المكتسبة. كان ذلك كافياً ليجعل كل شيء يشرق وتعود الحياة إليه.

ومع ذلك فقد أرجع أورشانو بصدق شديد وبراءة شديدة الهدوء النفسي الذي استعاده سريعاً جداً، وصفاء الأيام التي تلت، إلى أنه اتخذ قراراً وأنه خرج من الظلام.

ومنذ ذلك الحين ازداد توهمه في تلك النقطة، وانتهى بأن يعيش في حلم كبير.

وكانت فيرا المساعدة دوماً والقادرة على تقدير القيمة حتى المخفية منها، بنظرة واحدة للأشخاص الذين يدنون منها، مستمتعة بتلك المهمة الصعبة والفاتنة التي يتعين عليها القيام بها، وهي أن تخرج أورشانو من الظل المرضي الذي ترك نفسه يسقط فيه.

لم يكن ذلك الرجل قوياً بكل تأكيد، غير أنه لم يكن سوقياً أو جباناً. كان متقلباً لكنه قادر على أن يشعر بعمق. بل إن حدة ألمه، وأهمية البؤس النفسي الذي سقط فيه، تدلان على مثاليته السامية، وتعطشه إلى الجمال والصفاء. «كلما كان الليل شديد الظلمة كان الله قريباً»... تذكرت فيرا هذه الجملة التي ألفتها في الماضي في سيرة دوستيوفسكي شاعر انحطاط الإنسانية وآلامها.

الفصل السادس

توقف أورشانو تماماً عن التسكع والذهاب إلى الأعماق السفلى. ومع ذلك بقيت لديه حسرة، فقد كان له بعض المال الذي قدمته له لجنة الدعم بطلب من فيرا، وهجر بوليا الحزينة من دون كلمة وداع ومن دون منحها بعض الروبلات لمساعدتها ولو قليلاً.

ولما لم تعد العتمات التي عرفها أورشانو في السابق تغويه أبداً قرر ذات يوم أن يذهب لزيارتها وليقول لها وداعاً متذرعاً بالسفر، وليقتسم معها دعم اللجنة.

سيقوم بذلك فيما بعد، بعد عدة أيام، عندما يكون أكثر ثقة بنفسه.

ولما خشي أن يقلق فيرا لم يحدثها عن مشروعه.

كان يراها كل يوم، وفي كل مرة كان يشعر بسعادة تفوق الوصف وبلطف غير محدود حين كان يسمعها تتكلم، وحين كان ينظر إليها.

كانت قوية جداً ومتسامحة كثيراً مدركة كل الضعف شريطة مقاومته بصدق والسعي إلى هزمه...

وكانت لفيرا الكلمة المتخيلة والجذابة والحركة اليسيرة والواسعة. وكانت بمزاج جيد دوماً، وكانت هالة فرح تخفف الجد العميق لتلك الروح الواعية والمستقيمة.

نسي أورشانو إلى جوارها كل عذاباته وكل ملله الحزين.

وعلى الرغم من حساسية أورشانو الشديدة فقد كان يكنّ لتلك المرأة المتحررة والمفكرة تقديراً عفيفاً وقدرة على الصداقة المحرّرة من المصلحة والصافية على نحو مطلق. ومثل كل مجايليه وكل أبناء حزبه كان يفتقد حسّ الغزل في التعامل مع المرأة، والذي لم يكن متطوراً بصفة عامة لدى الروسي الحقيقي.

فقد كانت المرأة التي تعيش إلى جواره جنباً إلى جنب، وتقتسم معه كدّه

وطموحاته، كائناً بشرياً بالنسبة إليه وكائناً مختلفاً وليس جنساً آخر. وهكذا يحس نحو فيرا لطفاً أخوياً ووداً فيه الكثير من الامتنان.

ولم يفكر أورشانو أنه سيكون يوماً شيئاً آخر غير ذلك أو أن يحب فيرا ذلك الحب...

هدأت روح أورشانو. وأضحى يعيش في تلك الفترة وحيداً تارة في غرفته التي أحبها، وحيث يعمل مستفيداً من العطل لتدارك الوقت الضائع، وتارة أخرى في منزل الشيخ أنطون رفقة فيرا وغالباً مع ماكاروف وإيميلي.

وكان ريومين يأتي في بعض الأحيان، غير أن نموذج المتعصبين ذاك لم يكن يعجب أورشانو.

كان ريومين قد قتل عميلاً بدرجة عالية في الشرطة بطلقات مسدس. حدث ذلك أمام الملأ في يوم احتفال. لم يُرَ وهو يطلق النار وسط تجمهر الناس، ولم يتهم بسبب صغر سنه إذ كان ما زال في الخامسة عشرة من العمر. وكان طالباً قصير القامة ذا مظهر بائس وخجول.

ومنذ ذلك الحين، ومن أجل قضايا مجموعته واللجنة السيبيرية، خاطر ريومين دوماً بحياته، أو على الأقل بحريته، ببرودة دم نادرة، وبلامبالاة بسيطة ومن دون كلمات.

أوقف كل حياته على القضية الثورية ولم يكن له هدف آخر أو سبب آخر للحياة.

وما كان لرجل مثله أن يفهم أورشانو الحالم صاحب الأفكار الرحبة والمشوشة والعاشق لمثال أعلى للجمال.

وكان أورشانو يحمل عادة كتبه إلى بيت فيرا حيث كانا يعملان معاً مثل طالبين كما كانا من دون أن يحدث ما يكدّرهما.

ومضت الأيام بالنسبة لديمتري هادئة ولطيفة ومشرقة بوجود فيرا.



كان أورشانو وحيداً ذات مساء، وفكر أنه كان قوياً بعض الشيء في تلك الفترة للقيام بزيارته الحزينة إلى غوتوييف ولقاء بوليا.

ولج أورشانو متاهة الشوارع القذرة، وسط الأكواخ الخشبية أو الآجرّية من دون رعب التذكر وبتقزز تقريباً.

كان هناك العديد من المعامل حيث البنايات الطويلة المتصدعة والمنخفضة والقبيحة. كانت معامل تشحيم ودباغة الجلود ومعامل الورق ومصانع غزل. وكانت الجلود الرطبة المبللة المملوءة بالدود في الشارع وداخل براميل، والعديد من العظام والخرق القذرة متكدسة، وكانت شمس الغروب تلقي أشعة أرجوانية وذهبية على صفحة المستنقعات المضطربة العطنة.

ألفى أورشانو بوليا جالسة على رافدة قرب المعمل الذي تشتغل فيه. شاخت وترهل وجهها السقيم الكئيب، وبرزت تجاعيد مبكرة حول عينيها التعبتين.

ـ آه يا ميتيا! وأنا التي اعتقدت أنك لن تعود مجدداً!

ـ كنت مريضاً. وجدت الآن عملاً في الإقليم، وسأرحل غداً صباحاً. أتيت لتوديعك يا بوليا.

ـ إذا كنت سترحل غداً عليك أن تقضي الليلة معي على الأقل.

ـ لا أستطيع، ينتظرونني من أجل وثائق ستسلم لي. الوداع يا بوليا. سامحيني ولا تتذكريني بسوء![1]

تركت نفسها تسقط على الرافدة، ونظرت إلى أورشانو، ثم قالت:

ـ سترحل إذن... هكذا؟

وببطء، سالت الدموع على خدي بوليا الذابلين.

لم يكن أورشانو يتوقع ذلك الذي رجّ أعماقه. كانت بوليا السلبية دوماً ومن دون أية يقظة حواس تحبه إذن!

والواقع أن رحيل ديمتري كان في نظرها الرحيل الأبدي لشعاع الشمس الباهت الذي أضاء ظل حياتها الكئيب لفترة... فمثل هذا العشيق، الطيب جداً، واللطيف جداً، والذي لم يكن يضربها، كان شيئاً نادراً وجيداً جداً بالنسبة لها، وهي ذات الثياب الرثة المنبوذة والمحتقرة. وها هو ذا سيرحل!

ـ ميتا، يا ميتا! هل من الممكن أنك سترحل؟

---

(١) صيغ روسية (شعبية) للوداع. (ملاحظة إيزابيل إيرهارت على الهامش).

وهكذا وبيأس احتضنها أورشانو وقبلها على شفتيها الباهتتين. كان يبكي هو أيضاً، مغمغماً:

ـ يا لبوليا المسكينة. المسكينة!

وفي تلك اللحظة كان الكائن الوحيد الذي كان يحب ديمتري هو بوليا ذات الثياب الرثة والبائسة جداً والمسحوقة جداً، باستثناء والده الغريب جداً والبعيد جداً!

وكانت تلك الفكرة بالنسبة لديمتري لطيفة جداً وحزينة جداً في الآن عينه.

ـ هيا يا ميتا، حباً بالمسيح، أشفق علي ! فلنشرب كأساً لآخر مرة ولنذهب إلى بيتنا في المخزن، منذ أن رحلت ذهبت إلى هناك لأبكي وحيدة. نبت العشب هناك واجتاحت شجرة غبيراء الباب، وأضحت مثل غرفة حقيقية.

تبعها. لمَ لا يتصدق عليها بالقليل من الشراب والحب مادام الأمر قد انتهى، وبما أنه لن يعود أبداً؟

دخلا كباريه أخيبور.

كان هناك عمال يشربون وسكروا مبكراً، فعرفوا بوليا.

ـ آه، يا للقحبة ! ما إن يكون لديها مغازل حتى تبدأ بماء الحياة! فم أبله مسن، لا تشربين إلا مثل سائق عربة.

صرخوا بذلك مازحين من دون عداء، غير أنها استدارت قائلة:

ـ ما الذي يضيركم أنتم؟ هل أنتم من يدفع؟

ـ أختك في بيت الدعارة!

ـ ليوبكا فتاة جيدة!

ـ أجل، هي ليست مثل هذه الفرس الضامرة.

تدخل ديمتري بهدوء وهو المعتاد على مثل تلك المشاهد، قائلاً:

ـ دعوها وشأنها، أتيت إلى هنا لأستمتع وليس لأتشاجر.

وافق صاحب الخمارة البدين ذو الوجه المعرض للسكتة قائلاً:

ـ أجل، معه حق يا ميتري نيكيتيتش، لا ينبغي إزعاج الناس هكذا...

جلس ديمتري وبوليا. وفجأة ضغط قلق مبهم قلب أورشانو، وكان قد شرب كأساً كبيرة من ماء الحياة، فقد كان على وشك السكر في تلك اللحظة، وهكذا سيترك نفسه يؤخذ مجدداً! كانت لحظة رقة تكفي.

جر بوليا إلى الخارج حتى لا يستمر في الشرب.

كانت تدفعه برقة في ظل مخزنهما.

وفجأة، عندما أمسك أورشانو بوليا في حضنه ارتعش بعنف، وضغطها بشدة في عناقه حد أنها تأوهت.

وخطرت في باله فكرة. كانت رؤية مفاجئة وخاطفة جعلته يفقد عقله، وتركته محطماً في خدر لذة كبير حد أنه ما عاد يفكر: فعوض أن يضم بوليا البائسة ضم فيرا كذلك في حضنه وامتلكها.

وعندما تمالك نفسه شيئاً ما، بدا له ذلك مثل انتهاك في ذلك المكان وذلك المنظر رفقة تلك الفتاة البائسة. قام ومنح بوليا نصف ما كان يملك ورحل بعد أن قبلها في جبينها.

وعلى الرغم من نداءات بوليا فر من دون أن يستدير حاملاً في أعماقه عبر الليل الحار والكامد الاحتراق الذي لا يطاق والنار التي اشتعلت فجأة والتي ما كان أحد يستطيع إخمادها أبداً.

كان يعدو تقريباً من دون هدف ما دام أنه كان بعيداً عن غوتوييف. كان يجلده غضب شديد من نفسه وهو يُسرع الخطى.

كان ملعوناً إذن! فعندما لا يكون مزاجه كفاشل ومتشرد ومتوحش هو ما يبقيه بعيداً عن الناس كانت حواسه هي التي تجعله مجنوناً ومقيتاً في نظر نفسه!

وما كان يعذبه، ويبدو له أمراً وحشياً، هو المكان والظروف التي ولدت فيها رغبته في فيرا. كيف يكون ذلك ممكناً؟ أن يرغب فجأة في فيرا، وهو في حضن بوليا، بغريزة وبعنف حاد جداً حد أنه ظنّ أن سيقتله؟ كان هناك استبدال تقريباً في داخله. لم تكن بوليا بل شبح فيرا هو من منحه تلك النشوة.



عندما دخل أورشانو لم تكن له الشجاعة حتى لإضاءة مصباحه. خلع ملابسه وألقاها كيفما اتفق على الأرض.

ثم نام.

كانت النافذة مشرعة، ومر هواء فاتر حاملاً عطوراً نافذة هي الروائح الدافئة لحدائق الضواحي.

تسلل نور شاحب مثل ابتسامة نقاهة على الأرضية الملبسة بخشب التنوب وعلى الطاولة حيث تكدست الكتب المفتوحة والدفاتر.

نظر أورشانو الذي كان ما يزال نعساناً إلى قمة أشجار السندر التي جعلت شمس شروق ذهبية توهم أنه في الريف هناك في البلد.

ولأول مرة منذ كابوس الليلة الأخيرة في غوتوييف أحس أورشانو بالهدوء وسعادة العيش تولد مجدداً في داخله.

كان يعمل في تلك اللحظة بشغف مثلما يفعل كل شيء.

ومع ذلك لم تعد دراسته تهمه. بذل مجهوداً ليستمر في الإيمان في مهنته وتمكن من ذلك في لحظات.

لكن كانت هناك فيرا...

وتسللت صورة فيرا في نور الصباح اللطيف الذي اجتاح الغرفة.

كانت القوة وكانت الحياة. كانت تحيط بجبهتها هالة تألّق جمالها العظيم بالعقل.

تحداها ديمتري تقريباً، هي التي كان يشتهيها بكل جسده. ومع ذلك كان احتراق الرغبة الظامئة لذيذاً بالنسبة له في بعض الأحيان، فاستسلم لها.

ومن دون أن يدرك ذلك، لأنه كان يفضل كل شيء حتى المعاناة، على فراغ الأيام الكامدة.

بقي أورشانو نائماً لفترة طويلة مستمرئاً حساسية خدره.

ثم قام. أحس حيوية خرساء جديدة في داخله، وشعر بالسعادة تقريباً.

ومن دون سبب جلي استيقظ فجأة بعد أحلام الأسابيع الأخيرة المضطربة.

استند إلى النافذة.

كانت الحدائق المفصولة بالألواح الخشبية النخرة، حيث كانت الطحالب ترسم زخارف سوداء ضيقة، مجتاحة بنباتات ذابلة بعض الشيء. وأضاءت ورود خطمى بري أنواراً حمراء وسط كؤوس ناعمة للدودية الأرجوانية بلون أحمر بنفسجي. وكانت أزهار عبّاد الشمس الطويلة تحني رؤوسها الصفراء ذات الهالات الذهبية.

صعدت ريح قوية من النباتات ومن الأرض السوداء الخصبة بعد نوم الليلة المنعشة. كانت الأشياء تحيا، وكانت الأشياء تبتسم.

وأحب أورشانو الحياة.

*
* *

عادت فيرا إلى البيت مساءً ولحظت على الفور أن أورشانو قد تغير منذ الليلة الماضية، فأحست بالسعادة.

كانت حواسها نائمة، ولم يوقظها زواجها السابق من ستويلوف. اعتقدت فيرا نفسها في هدوئها الكبير وفي فكرها وعملها غير شقية تقريباً.

وكانت تشعر نحو أورشانو برقة أخوية لطّفها الكثير من العناية.

اعتادت أن تراه قريباً جداً منها دوماً، وأن تقتسم معه آلامه وتقلق لقلقه.

ـ أنت بلون النهار اليوم يا أورشانو! الشمس تشرق وأنت تتألق، كم تغيرت! بالأمس فقط كنت كئيباً جداً. هل فاجأك حدث سعيد وغيّرك؟

ـ آه، كلا! عندما غصت في حالة الاكتئاب النفسي، التي رأيتني عليها منذ بعض الوقت، كان يعتمل في داخلي صراع صامت وغير مبال بالحياة والصحة ضد ذلك الخدر المرضي. وذات يوم، وعندما انتصرت الصحة فجأة، صرت شخصاً آخر.

نظر أورشانو إلى فيرا التي بقيت واقفة قرب النافذة.

اجتاحه شعور حاد ولذيذ، وحماسة كل روحه اتجاهها.

ثم عبرت خاطره فكرة، فتكدر:

ـ إسمعي يا غوريفا، إنها أنت. فحضورك المستمر جواري كان الجو الصحي والسليم الذي جعلتني أحيا داخله هو ما غيّرني... لكن هناك لحظة حزينة في رفقتنا وصداقتنا كطالبين، لحظة الفراق... سيحل يوم علينا معاً... وأرى أني سأعود لأهوي في الحيرة والقلق.

كان يتحدث من دون وعي، ومن دون أن يدري معنى ما كان يقوله.

نظرت إليه فيرا. التقت عيونهما، ولم يعد أورشانو يستطيع أن يكتم الأمر. أمسك يدها وبقيا كذلك صامتين أمام النافذة، قبالة الحدائق التي ما عادا يريانها.

امتقع وجه فيرا. أحست باضطراب كبير. ثارت روحها على اللاوعي الذي

عاشت فيه منذ أسابيع. . . ولأول مرة أحست رغبة شديدة في الحب، وثارت حواسها كعذراء.

الفصل السابع

بقيا صامتين في قلق اللحظة اللذيذ. وأحس أورشانو بأنها كانت له، وأنها هي أيضاً لم تعد كما كانت.

حطمته سعادة عظيمة. أمسك يدي فيرا وضمّهما إلى صدره.

وهكذا تمالكت فيرا نفسها مستمرة في النظر إليه. كانت نظرتها جادة جداً، ورقيقة جداً. كان وعداً.

وأخيراً قالت:

ـ فليكن، سنستمر في العمل والعيش معاً.

غير أنها تراجعت ببطء، فقد غدا عناق أورشانو عنيفاً. كان يرتعش وقد بهتت شفتاه.

تراجع خجلاً.

ألم تكن السعادة؟ ألم تكن له، مادامت قد وعدته؟

لم يجرؤ أوروشانوف على الكلام. لم يجد الكلمات، فكل شيء كان من شأنه أن يغدو سخيفاً وغير ذي جدوى.

رحلت فيرا بسرعة تقريباً بعد أن صافحته مع ابتسامة مداعبة في نظرتها.

ترك أورشانو نفسه يجثو على ركبتيه قرب النافذة، واضعاً رأسه بين يديه.

كان شعوره يشبه العذاب والسكر.

لقد أُنقذ في تلك اللحظة بعد كلّ يأسه وببساطة شديدة ويسر كبير!



قابلت فيرا ماكاروف في الشارع.

كانت تربطهما منذ سنوات صداقة حميمة جداً مليئة بالصدق وحنان الرجال.

وهكذا روت له فيرا تلك الأشياء الجديدة التي اجتاحت حياتها قبل وقت قريب.

ـ غورييفا! علمتُ وقد راقبتكما معاً أن الأمر سينتهي هكذا. لكن أنصتي لي،

أعرف أورشانو جيداً، وأقول لك الآن بكل إدراك، إذا أردته أن يجتاز الدكتوراه، وإذا لم تريدي أن يعاود السقوط في الخمول، لا تمنحي نفسك له.

توقفا عند الشارع الخالي. كانت فيرا المتفكرة جداً تنصت:

ـ هل تعتقد أن تأثيري وإرادتي لا يكفيان؟

ـ كلا، فأورشانو من النوع الحساس قبل كل شيء، هو يعيش من أجل المتعة بكل أنواعها. لم يكن واعياً دوماً بهذا لكن هذا هو عمق طبيعته. وبالتالي فكل ذلك العمل الكبير الذي كرّس نفسه له منذ أن عرفك هو من أجلك، ومن أجلك وحدك. وغداً، إذا ما كنت له، سيمنح كل نفسه شغفه وشهوته الجديدين، ولن تجعله أية قوة خارجية يصعد التيار... ثقي بي يا فيرا، لا تقومي بذلك. عندما يجتاز الدكتوراه ارحلا معاً إلى مكان ما بالشرق في عمق السهب.

أحست فيرا أن ماكاروف كان محقاً. كان يتعيّن إيجاد القوة من أجل المقاومة وإبقاء أورشانو معلقاً لإنقاذه من نفسه.

الفصل الثامن

ثار أورشانو في البداية أمام ضرورة الانتظار، ثم أخذ يثمل مفتوناً بالحزن والرغبة، ملفياً لذة مريرة في تلك الحياة القلقة، وتلك الحيوية المستمرة لروحه اتجاه فيرا.

* * *

انتهى فصل الصيف شاحباً ومتألقاً مثل ابتسامة. كانت الإجازة، ولم يكن أورشانو يخرج أبداً تقريباً، مستمراً في عمله من دون أن يضعف. غير أن فيرا كانت تأتي إليه كل مساء فيتجولان حتى ساعة متأخرة في طرق الضاحية الحزينة. كان أحدهما يمسك يد الآخر مثل طفلين متعقلين. وكانت لأورشانو بعض الأزمات العنيفة، ولحظات صحو مباغتة للرغبة ودفعات لكل ما كان ينام داخله من شيء وراثي، ووحشي تقريباً. غير أن فيرا الهادئة جداً والصارمة جداً والرقيقة جداً مع ذلك كانت تسيطر عليه ولم تستسلم. وهكذا عاد إلى أحلامه اللذيذة والحزينة لكن الخالية من العذاب.

كانا يتحدثان قليلاً بضع كلمات حول المستقبل الذي كان يبدو لهما معاً مليئاً بالسعادة التي تفوق كل وصف.

*
* *

وذات يوم انقلب كل شيء على نحو وحشي. فقد تلقى أورشانو نبأ وفاة والده الشيخ الحالم نيكيتا من أخيه فاسيلي. دعاه ذلك الأخ الذي لم يره أورشانو منذ كان صغيراً جداً إلى بيشال لتسوية أمور والدهما المشوشة جداً حتى يبقى اسمه عظيماً محترماً.

أحزنت وفاة الوالد الذي أحبه أورشانو حباً غريباً وأليماً هذا الأخير حزناً عظيماً وتملّكه إحساس بالوحدة عميق ونهائي.

أجل، سيذهب، وسيعود إلى بيشال من أجل زيارة حزينة.

سمحت فيرا لأورشانو بالذهاب معتقدة أنه سيجد راحة في ذلك بعد كل إرهاق الشهور الأخيرة.

في يوم الرحيل أحس أورشانو بالخجل كونه لم يشعر بالتمزق الذي توقعه عند افتراقه عن فيرا... وبدت له فكرة أنه سيجد هناك قبر والده سوداوية وعذبة جداً من دون ما هو مؤسف أو محزن.

وعندما مضى قطار موسكو عبر الريف المقفر والحزين الذي أخذ لوناً ذهبياً بفعل الشمس، أحس أورشانو ارتياحاً عارماً فجأة وشعر بالسعادة تقريباً.

وبقي مشوّشاً.

حاول أن يشيح بناظريه عن الطبيعة، وصارع المرح النزق الذي بدأ يعتمل داخله كلما ابتعد عن بيترسبورغ.

خشي أن يستسلم لتلك الأحاسيس التي يعرفها جيداً: وسواس الأماكن البعيدة وفرح الرحيل.

وفي مقصورة الدرجة الثالثة، كان المسافرون يتغيرون عند كل محطة تقريباً. كانوا قرويين محملين بالحقائب والصناديق، وقد فاحت منهم رائحة جلد الخرفان والقطران، وقرويات بالسارافانات ذات الألوان الزاهية.

وكانت جماعة من الدجاج تقرق تحت مقعد، وتجرأ ديك على الصياح صافقاً

جناحيه، وصدرت قهقهة في المقصورة في بساطة ذلك الشعب الاجتماعي جداً من دون تحفظ.

فاجأ أورشانو نفسه يعيش مع أولئك الناس ويسألهم، واحتقر نفسه بفظاعة لأنه ما إن ترك فيرا والعمل حتى عاد سريعاً جداً إلى الحياة، بينما كان يقصد بيشال ليرى خرابات كل ما أحبه كثيراً، الأب المدفون والحديقة والمنزل اللذين بيعا.

وأخذ بعض القرويين الذين انعزلوا في إحدى الزوايا يغنون «لا تصدري فحيحاً يا غابة البلوط الخضراء الأم! لا تمنعي الرجل الحر من اتباع عقله»... أغنية حزينة قديمة لقطّاع الطرق السابقين وقراصنة السهب.

وهكذا كان بالنسبة لأورشانو نداء الحرية الذي لا يقاوم والحياة المتسكعة باتجاه الأفق الشاسع.

تابع القطار سيره باتجاه الجنوب الشرقي حاملاً عبر صمت الأرياف حيث كانت تهب أولى نسمات فصل الخريف صوتَ عجلاته والغناء الفخور والبري الذي بدأ شيئاً فشيئاً يتملك أورشانو ويسحره.

الفصل التاسع

في محطة القطار تعرف أورشانو على تيرنيتي الخادم المسنّ الذي هرع باكياً بقبعته القصيرة مقبّلاً كتف ابن سيده. وعلى نحو أخوي عانق أورشانو الشيخ.

ـ ميتري نيكيتيتش! من كان سيعرفك لو لم تشبه كثيراً البارين الفقيد فلاديمير نيكولايتش!

ودنا شاب طويل القامة رقيق العظم وأشقر بشعر طويل متموج وعينين رماديتين. كان طويلاً جداً ومستقيماً جداً. تقدم ماداً ذراعيه.

ـ أنا أخوك فاسيلي، فلنتعارف يا ديمتري! يجب أن يحب أحدنا الآخر... لم نعد إلا اثنين الآن...

تهدّج صوته، فبكى الثلاثة، الأخوان والخادم المسن.

أحس أورشانو عاطفة شديدة، وهو يعبر شوارع المدينة الصغيرة المستقيمة والخالية.

وكان الفولكا يلمتع في البعيد واسعاً وفخوراً بانعكاسات نحاسية تحت الشمس

التي كانت تغرب. والتمعت القباب الذهبية للكاتدرائية أرجوانية على التلة... وفي الخلف امتدّ أفق السهب الكامد غير المحدود والمدخن.

ـ آه يا فاسينا! أن نرى كل هذا مجدداً بعد الكثير من السنوات، والكثير من التغييرات التي طرأت علينا!

ـ أنا أيضاً يا ميتيا، لم أعتقد أني سأشعر بعاطفة شديدة جداً عندما سأجد كل هذه الأشياء التي تركتها وأنا بعد صغير.

توقفوا للحظة أمام السياج الخشبي العتيق. أضحت الحديقة أكثر كثافة وأكثر برية. كانت الأشجار قد نمت بحرية كبيرة مغطية بأغصانها الصلبة السقف الذي كان من القرميد الباهت.

كان فصل الخريف قد ألقى هناك مجموعة ألوانه الغنية، فبدت أشجار الزيزفون وكأنها غطيت بقطع ذهبية لفرط ما كانت أوراقها ملتمعة. وكانت الكمثرى حمراء بانعكاسات بنفسجية، واختلطت أوراق السندرات التي كانت ماتزال خضراء بأخرى بلون أصفر باهت. وحدها أشجار البلوط القديمة كانت ماتزال خضراء بلون أخضر معتم وعميق.

قال فاسيلي:

ـ لدي خبر سعيد لك يا ميتيا. صديق والدك القديم بودغان أوستابوف هو من اشترى كل شيء، لن يغيّر شيئاً ذلك الرجل!

كانت سعادة كبيرة لديمتري الذي كانت تعذبه فكرة أن يهدم غرباء ذلك المنظر العزيز.

ـ أجل، لقد تدبّرت الأمر... حتى إن أوستابوف وعد بأن يبقي تيرنيتي.

دخلوا. لم يتغير شيء في المنزل. ألفى أورشانو الأشياء التي كان يعرفها، وقد بليت وبهتت، لكنها بقيت في أماكنها المعتادة.

عبر فاسيلي وديمتري كل المنزل صامتين. أثار ديمتري ذكرياته التي عادت متدفقة في تلك اللحظة، واحترم فاسيلي تأثر الأخ الذي عرفه لتوّه وقد وحّدتهما المأساة. ثم إن فاسيلي كان يتتبع مصير ديمتري عبر أصدقاء مشتركين في بيترسبورغ.

كان يعرف كل شيء، ويشعر بتعاطف كبير مع ذلك الكائن المختلف الذي بدا أن الأب نيكيتا اللطيف والتعيس كان يعيش داخله.

رفض تيرنيتي بعناد الجلوس إلى مائدة السيدين، وبقي متكتماً ومحترماً.

ـ كان بإمكاني يا ميتيا أن أسوّي كل الأمور من دونك... لكني دعوتك من أجل رؤيتك ولترتاح أيضاً. أعرف كل شيء عن حياتك، وأعترف أني كنت قلقاً جداً عليك عندما كنت تائهاً في أجواء البؤس والانكسار المعنوي. يا لميتيا المسكين! لم يكن بإمكان أحدنا أن يزور الآخر... أما الكتابة لك... فكنت أدرك أن ذلك لن يجديك في شيء. أما الآن، ولما علمت أن غوريبفا قربك، فأنا أكثر اطمئناناً. أعرفها لأني رأيتها في موسكو، وأنا أحترمها كثيراً بل إني معجب بها تقريباً. اتبعها، وسلّم نفسك لها، سأعتني بك من البعيد. والآن سأحمل كل شيء على عاتقي هنا، أما أنت فارتح وتسكع كما يحلو لك، ولا تقم على الخصوص بأي عمل.

منذ أن أضحى أورشانو قرب أخيه تفاجأ أنه ألفاه مختلفاً جداً عما اعتقده كرجل علم بارد وثوري قوي، ومن دون رحمة مثل الصغير ريومين.

ثم قال كل ذلك بصوت مرتفع:

ـ صحيح أني بالنسبة للجميع مثل ما كنت تعتقد، لكني لست كذلك معك. أليست بيننا الرابطة الغامضة للدم ووحدة الأصول والتي لا يمكن لشيء أن يمحيها والتي لا يستطيع شيء أيضاً أن يعوّض عنها؟ سأكون بالنسبة لك دوماً مثل ما تراني الآن سواء أكنت قريباً أم بعيداً.

حلّ الليل الصامت، وهزت الرياح الباردة الأغصان القريبة جداً.

سهر فاسيلي وديمتري حتى وقت متأخر جداً وتحدثا عن حياتيهما المختلفتين جداً ساعيين إلى التقارب.



وكل صباح كان فاسيلي وديمتري يقصدان المقبرة رفقة تيرنيتي.

كانت تقع عند سفح التلة، على مدخل السهب، حث حقل صغير زرعت فيه صلبان سوداء تعلوها سقيفة مخروطية الشكل بألواح خشبية.

كانت الكنيسة الخشبية العتيقة والمعوجة المائلة على الأرض المملوءة بالبقايا البشرية تغفو في صمت زاوية النسيان التي اجتاحتها أعشاب السهب الكبيرة على نحو مفرط حد شبهها بالأشجار.

جثا الشقيقان الكافران قرب القروي الأمي الذي كان يصلي ويبكي راسماً إشارة الصليب بتقوى، وقد أمسك أحدهما يد الآخر. ومرّت صورة الفقيد الحزينة واللطيفة في ذاكرتيهما.

جعلت تلك اللحظات التي كانت من دون مرارة التعلّقَ الذي نشأ قبل وقت قريب بين فاسيلي وديمتري أكثر لطفاً وعمقاً، وكانت مخلّصة بالنسبة لهما.

وخلال النهار كان ديمتري مشغولاً بالعرض غير المنقطع للدائنين الذين كانوا يقفون عند درج المدخل.

كانوا يهوداً بقفاطين دبقة وكولاكي[1] بدينين بنظرات ثاقبة شدت أجسادهم في بوديوفكاتهم المصنوعة من القماش الجديد، وقبعاتهم جميعاً في أياديهم، ومحترمين، لكنهم صارمين. كانوا يبدأون بذكر فضائل البارين الفقيد، إذ كان رجل الله اللطيف جداً واللين الجانب مع العامة وغير المتكبر... وبعد أن يحكوا أقفيتهم، ودون أن يغادروا أماكنهم، ينتهون بإظهار بعض الأوراق الملطخة بالشحم وحساب نزوي شيئاً ما.

وكان فاسيلي يرد عليهم ببرود وهدوء على نحو لا يتغير: «انتظروا حتى يباع البيت، وسأدفع مال أولئك الذين يثبتون حقهم».

غضب ترينيتي الذي لم يكن يخاصم إلا الروس، ويأنف أن يتجادل مع اليهود:

ـ أنت لا تضع علامة الصليب على جسدك، أنت تحمل علامة المسيح الدجال! أيها القساة! لا تتركون للبارين الفقيد الوقت ليبرد في تابوته ولا الوقت لابنيه لكي يبكياه، وتسقطون على البيت كما تفعل الغربان على الجيفة! فأبعدكم الله!

وكان ديمتري يعيش أوقاتاً سعيدة في الحديقة حيث كلما كان فصل الخريف يقترب كانت أرجوانية الأوراق وذهبيتها تزداد حدة.

كان يستلقي على ظهره وسط الأعشاب الرقيقة والألوان الذهبية المشتتة لأشجار الزيزفون. وكان يمضي ساعات طويلة جامداً في سعادة عظيمة.

---

(١) كولاكي: مستغلون قرويون متحدرون من العامة يمارسون الربا واحتكار الأراضي، وتعني كولاك حرفياً القبضة بمعنى القوة. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت). الأصل.

وكان يخرج كل نهار قبل الفجر ليذهب إلى أشجار البلوط عند مدخل السهب. كان ينظر إلى الشروق على الهضبة الغارقة في الضباب المتقزح، ثم كانت الشمس التي تشرق. وفي الأفق، في مستوى منخفض، كانت أبخرة بلون رمادي تزداد كثافة. وفي مكان أكثر ارتفاعاً كان شريط كبريتي مائل إلى الخضرة يشبه منفذاً لبحر هائج. وإلى الأعلى كان الأفق يمر من اللون البرتقالي الغامق إلى القرمزي، وتغرق الشمس الحمراء الحزينة التي كانت دون أشعة كل ذلك المكان بالأبخرة.

وهكذا ينقشع الضباب بسرعة، فينظر ديمتري في البعيد إلى تموجات الأرض المنخفضة، والنباتات الشبيهة بالأشجار المتفرقة والبقع السوداء المشوشة في عمق السهب الفسيح الأزرق.

وكانت الولادة الباسمة للنهار في السهب تبعث البهجة في نفس ديمتري وما يشبه السكر. كان يشعر بأن صدره يمتلئ بفيض القوى الحيوية المتجددة...

ومع ذلك، كانت ذكريات بيترسبورغ وصورة فيرا تسكنه دائماً.

كان يعلم أنه سيعود إلى هناك، وسيستمر في دراسته، وسيتزوج فيرا، وسيعود ليصبح بالنسبة إليها رجلاً عادياً ومجدياً.

كل ذلك كان منطقياً وجيداً، لكن، عدا حب فيرا، كان كل شيء يبقي ديمتري بارداً وغير مكترث. سيكون كذلك بكل تأكيد، وكانت تلك صورة المستقبل.

لكن خلف ذلك الأفق المصطنع طلع فجر آخر، وأشرق نور آخر... حب الحياة المتسكعة والحرة وحب الأماكن البعيدة الساحرة.

واستسلم أورشانو، كما لو أن الأمر يتعلق بخطيئة غير مميتة، لحلم اعتبره بصدق مستحيلاً أبداً وهو أن يخرج ذات صباح ويرحل إلى الأبد وحيداً وفقيراً مكتشفاً الأرض... وأن يصبح متشرداً حراً ينام على قارعة الطرقات. وألا يملك شيئاً ولا يطمح إلى شيء، ولايصارع نفسه أو الناس. وأن يرحل سعيداً بحريته، سيداً على الأشياء التي لم تعد تسيطر عليه أبداً، وسيداً على الآفاق اللامحدودة.

كان ديمتري في تلك الأوقات يذهب حد تمثل وداعه لفيرا وفاسيلي الذي كان يحبه في تلك اللحظة. كان ذلك المشهد توقفه الأول الحزين جداً واللطيف جداً أيضاً في طريق الانعتاق...

وفي مرات أخرى كانت الرغبة في فيرا تعود لإحراقه. كان يفكر حينها أن حلمه المحقق سيكون هجر فيرا، وفقدان الأمل الذي جعله يعيش لأشهر.

أخذ ديمتري يلعن نفسه، ويتهم السهب المغري، ففر إلى صمت المنزل في غرفة العم فلاديمير الخالية. وأخذ يقرأ ويعمل، وكتب إلى فيرا.

غير أن أشعة الشمس دخلت متدفقة من النوافذ حاملة إلى خشب التنوب الأحمر على نحو مضطرب الظل الأخضر للأشجار الكبيرة القريبة.

وعلى الرغم من وعد ديمتري لفيرا «ألا يذهب إلى العامة» أبداً، سرعان ما نزل إلى المرفأ النهري، وجدّد صداقاته القديمة مع البورلاكيين وجعل من صيادي ورجال الضاحية رفاقه وأصدقاءه.

راقه أن يكون الناس سلبيين، بقوة خمول لا تقهر تحت قسوة الأشياء، وفي قساوة عدم الأمل في حياتهم. كانت أغانيهم تعبّر عن كل حاجتهم الفطرية إلى الشعر وكل ألمهم، وكل عذابات أرواحهم الخشنة وأبدانهم الصلبة، وأحياناً، وعلى نحو غير محسوس تقريباً، كانت تعبّر عن نفحة ثوري أكثر ذكورية وجرأة، كانت تلك أغاني الفولكا البديعة التي فتنت ديمتري منذ أن كان صغيراً فتوناً فريداً.

شعر أورشانو بأنه يعود مجدداً قوياً وفرحاً، وترك نفسه من دون وعي عرضة لكلّ تخمّر موجّه لحل كل ما راكمه بعناء من أشياء متكلفة في حياته...

ستكون فيرا سعيدة إذ تجده وقد تغير كثيراً وأضحى قوياً جداً وسعيداً جداً.

بل إن ديمتري لم يلم نفسه على الإغواء الذي لا يقهر الذي تمارسه عليه مرة أخرى أوساط العمال والبسطاء، أولئك الناس الذين يعيشون تحت الشمس، والذين كانوا ذوي عضلات حديدية وصدور نحاسية، والذين لم يكونوا البقايا البشرية الشاحبة لأحياء البؤس في بيترسبورغ. صحيح أنهم كانوا فقراء، ويعانون، ويشربون ويسعون إلى الحب البسيط والهمجي... الغناء والشرب والتوالد، تلك كانت سعادتهم الوحيدة، غير أنهم كانوا طاهرين وضاحكين، وكان هناك الهواء الصافي والباعث على الحياة والضوء الجميل الصحي.

وفي تلك الاختلاطات نسي أورشانو ما كان مؤلماً وظالماً في قدر أولئك الناس الذين كان يحسدهم، حيث القرى المهجورة والنساء اللواتي يذبلن على الأرض الجاحدة، وفي دفع العربة الخشبية العتيقة المحراث التقليدي، وحيث يموت آلاف

الأطفال بؤساً ومرضاً، وفي عمل الرجال المضني الذي يعوضون عنه تعويضاً هزيلاً يدعو للسخرية، وفي العبودية الدائمة للفقير والخاضع.

***

أضحت رياح فصل الخريف أكثر برودة في الشفق المتسارع، ونثرت أوراق الحديقة الجميلة المتعددة الألوان على الأرض المبللة، وحلّق حزن كبير وابتسامة سكرة صافية ومضطربة وأخيرة في الجو الضبابي على نحو مستمر.

وذات يوم هبّت عاصفة عبر السهب وحملت من الصحراء السلافية أشواك البيريكاتي المصقولة[1] إلى أماكن بعيدة.

وعوت الرياح طيلة الليل، وزفرت حول المنزل المتداعي.

وفي الصباح كانت الأرض قد غطيت بكفنها الثلجي الذي يدوم عدة أشهر.

قال فاسيلي:

ـ علينا أن نرحل أيها الأخ الصغير ميتيا، فقد صرتَ قوياً ومفعماً بالمرح والحيوية. إذهب. عد إلى عملك مثلما سأعود إلى عملي. ولا تنسَ في الأوقات الكئيبة أن لك، إلى جانب غورييفا، أخاً وصديقاً أقل حساسية وأكثر صلابة منك من أجل الصراع القاسي الذي هو عليه وينبغي أن تكون عليه حياتنا كمبشّرين ومنوّرين. اعتمد عليّ ولا تخشَ شيئاً، لكن احذر أن تتصلب وتصبح غير حساس. فكّرْ دوماً في المثال الطيب والرقيق الذي قدّمه لنا والدنا نيكيتا الذي لا يُنسى.

***

افترق الشقيقان في موسكو، وعندما تعانقا لآخر مرة بكيا فجأة.

أحس ديمتري بحدس صاف وفريد أنه لن يرى مجدداً ذلك الأخ الذي دخل حياته فجأة.

انتهى ذلك الانطباع بإحزانه. طبعاً سوف يكون سعيداً بعودته لرؤية فيرا، لكن

---

(١) البيريكاتي ـ المصقول نوع من الشوك ذي الشكل الكروي والصلب جداً ، والذي يفصل عن الأرض في الخريف إذ تدفعه الرياح عبر السهوب. (ملاحظة إيزابيل إبرهارت). الأصل.

كانت هناك أيضاً بيترسبورغ التي بات يكرهها في تلك اللحظة وهناك العمل أيضاً. وأحدث كل ذلك في نفس أورشانو ضيقاً شديداً ونوعاً من الغضب الأخرس.

كان القطار يتحرك محدثاً صوتاً كامداً كما لو أنه مخنوق عبر الهضاب اللامتناهية المغطاة كلها بالثلج، وبدت السماء الخفيضة والملبدة كما لو أنها تضغط على ذلك الخلاء العظيم.

كم كان ذلك السفر لا يشبه الآخر، حيث التقدم المتألق نحو الحرية والراحة في صمت السهب!

*
* *

كانت فيرا وإيميلي وماكاروف ينتظرون أورشانو. بدا لهم وقد كبر لفرط ما أضحى قوياً بوجه وعنق دبغتهما الشمس، وسقط شعره الأحمر على جبهته الواسعة والصلبة برقة غير مبالية.

كانت رؤية فيرا بالنسبة إليه شعوراً ساحراً في البداية.

ولأول مرة عانقها وطبع قبلة عاشق على شفتيها. واجتاح فيرا المتفاجئة بسلوكه الجديد اضطراب فريد.

وكان أورشانو السعيد والمفرط الحيوية تقريباً قد استسلم لسعادة تلك اللحظة.

وعندما كانا يقصدان ببطء ضاحيتهما المعزولة، انتهى كل شيء فجأة. فقد ذكّرت فيرا ديمتري بكل مخاوفها وكل ما يجعلها تتراجع، من دون أن تدري، وببراءة، إذ قالت:

ـ يمكنك الآن وقد صرت قوياً وأصبحت صحتك جيدة أن تكرّس نفسك للعمل... لأن عليك أن تعمل بصرامة في فصل الشتاء هذا.

أثار ذلك التذكير بكل ما كان يرهبه أورشانو منذ أن ترك بيشال غضباً أخرس لديه. لم يردّ، وأصرّ على أسنانه لاعناً في نفسه التعصب الأعمى لأولئك الناس والعبودية التي يفرضونها على أنفسهم والتي يتهمهم بأنهم يريدون فرضها عليه.

كره فيرا للحظات بكل رغبته الظامئة وبكل حاجته إلى الانعتاق أيضاً.

أحست فيرا الممتقعة بأنها تفقده مجدداً وإلى الأبد تلك المرة، ولامت نفسها بمرارة لأنها تركته يرحل، ولأنها فرحت في حماقة بأمر ذلك السفر.

كانت فيرا تعاني صامتة. كانت هوّة تفرقهما. وهكذا أرادت أن تبرهن لأورشانو كل ظلمه فأمسكت رأسه وطبعت قبلة على جبهته.

ـ إذا كنت تؤمن يا ميتيا بكل ما يجعلك الغضب تقوله فأنت مخطئ. أنا لك أياً كنت، بل إني أرغب في التضحية بكل ما حلمتُ به من أجلنا على أن أحس أنك تكرهني.

ضمّها أورشانو إليه، وبقيا كذلك صامتين. كانت لحظة حزينة تفوق كل وصف.

وفجأة فكر أورشانو أنه إذا قبل تضحية فيرا فسيقيّد إلى الأبد، ولن يكون أبداً قوياً بما يكفي لاستعادة حريته، وأن كل حياتهما ستشبه أيام الملل القاتلة والثورة التي أعقبت عودته. وستفتح أمامهما عذاباً دائماً.

الفصل العاشر

مضت الأيام حزينة ورتيبة، ولم يحاول أورشانو حتى أن يتوقف في ذروة ضياعه.

ولم يعد يعمل إلا في أوقات متقطعة.

وعندما كانت فيرا توبّخه بلطف كبير كان في بعض الأحيان يمرّ بلحظات غضب شديد فيعكف على العمل بحنق.

أخاف فيرا العنف المتزايد لتلك الطبيعة غير المنضبطة، وشيئاً فشيئاً أدركت عجزها.

غير أن الوقت كان يضغط، فقد دنت فترة الامتحانات، وحاولت فيرا مرة أخرى أن تستعيد أورشانو.

وبنبرة جادة ولطيفة أخبرته بأنه لن يكون مقبولاً، وسألته ما الذي ينوي فعله في ما بعد، واقترفت الخطأ غير الحذر عندما أضافت أن صندوق دعم اللجنة لن يعينه أبداً إذا لم يعمل.

وهكذا رد أورشانو بجفاء قائلاً إنه غير محتاج إلى المساعدة ولن يبيع حريته بجبن مقابل طعامه، وسيعمل كأجير أو متشرد، أو أي شيء لكنه لن يكون عبداً.

ثم ارتمى مرهقاً على سريره وقبض يديه. كان فريسة لأزمة غضب، ولام فيرا على ما سمّاه عدم حساسيّتها.

ـ آه يا فيرا! يا فيرا! لِمَ تعذبينني هكذا؟ لست أنا ذلك الرجل من اللحم والدم الذي تحبين، بل إني كيان وصيغة ! بعد أن وعدتني بأنك ستكونين لي عذبتني على مدى أشهر. استفدت من شغفي في تعصبك كمبشرة. أنت غير حساسة ومتوحشة!

وفجأة، دفع أورشانو فيرا. وفرّ من دون كلمة ومن دون حتى أن يجرؤ على توديعها.

قامت فيرا مذعورة وعدت خلفه وهي تناديه.

تابع أورشانو عدوه في الشوارع من دون أن يردّ أمام المارة الذين أخذوا يستديرون متفاجئين وحتى قلقين.

خرجت فيرا مرتعشة. كان لا بدّ من إيجاده مهما كلف الأمر.

كانت لديها فكرة وحيدة، وإرادة وحيدة باقية ألا تفقد أورشانو وأن تعود لرؤيته وأن تستعيده. لكن أين ذهب؟

تذكرت فيرا رفقة أورشانو السابقة وتفضيله للسيينايا وجزيرة غوتوييف.

مشت بخطوات واسعة ومن دون أن تشعر بالبرد القارس. حلّ الليل، وأوشكت فيرا في العديد من المرات أن تضل في تلك الشوارع الصغيرة التي كانت تعرفها على نحو مشوش.

بدأت تفقد شجاعتها عندما خطرت ببالها فكرة مروّعة جعلتها تعدو مجدداً، فقد رأت أن أورشانو سيلقي بنفسه في إحدى الفتحات المعتادة في الجليد في القنوات ونهر النيفا.

عندما وصلت إلى غوتوييف كان قد حل الليل. كان ليلاً معتماً وكامداً لذوبان الثلج. توقفت فيرا بعد أن نالها تعب قاتل. أين تذهب للبحث عن ديمتري وسط متاهة المعامل والأراضي الغامضة والمخازن، وسط كل ذلك البؤس وذلك التزاحم حيث لا تعرف أحداً في هذا المكان الذي لم تسبق لها زيارته أبداً؟ هل ستفقد عقلها؟ وكيف وصلت وهي النشيطة جداً والهادئة جداً عادة إلى قلق نفسي مماثل؟ كيف لم تفكر حتى في المناداة على ماكاروف وأن ترسله هو أيضاً في البحث عن أورشانو؟

غير أنها كانت هناك، وكان ما يزال بإمكانها أن تأمل في لقاء مفاجئ. وهكذا أخذت تمشي بهدوء على غير هدى.

توقفت فجأة، وأخذ كل شيء يتراقص مجدداً أمام ناظريها، فقد فُتح باب كباريه،

ورأت أورشانو عبر دخان الغلايين الرمادي جالساً إلى طاولة بأقصى الحانة. كان يضع رأسه على خشب الطاولة الدبق، بينما كانت فتاة ذات أسمال بالية تحاول أن توقظه ممرة يدها الخشنة البائسة كعاملة في شعره.

دخلت فيرا من دون شعور، وقصدت أورشانو، وأخذت تهزه من ذراعه.

ـ إنهض يا ديمتري.

كان أورشانو قد حظي بوقت شرب فيه الكثير من ماء الحياة. كانت عيناه مضطربتين ووجهه شاحباً كابياً. وقرأت فيرا في نظراته هلعاً يفوق كل وصف. وعلى الرغم من ذلك قام وتبعها بانقياد من دون أن ينبس بكلمة. وكان يتعثر بالكراسي ولا يرى أحداً أمامه.

في البداية عندما دخلت فيرا عمّ صمت مطبق. نظر صاحب الحانة والزبائن مذهولين دون أن يفهموا شيئاً، ثم انطلقت القهقهات. سُخر بصوت مرتفع من ذلك المشهد الغريب.

نادى صاحب الحانة أورشانو عندما رآه يقصد الباب:

ـ هه يا ميتري نيكيتيتش! والمال؟

خرج أورشانو الذي لم يسمعه، وكان على فيرا أن تدفع، بينما كان من بالقاعة يتلوّون ضحكاً.

اعتدلت بوليا التي كانت سكرانة جداً عندما رأت أورشانو يرحل. ثارت وشتمت فيرا قائلة:

ـ ما الذي أتيت تفعلينه هنا يا آنسة؟ هل حضرت لأخذ عشاق الأخريات لأنك تلبسين أفضل؟ عندما يكون لفتاة فستان مثل فستانك عليها أن تخجل على الأقل من التسكع بالكباريهات... لأنها مناسبة لنا نحن الفاشلات!

استلقى أورشانو خارجاً على كومة من الحجارة في الثلج. ففي سكره لم ير ولم يفهم إلا شيئاً واحداً، وهو أن فيرا تواجدت فجأة في كباريه الأب آركيبتيتش في غرتوييف. كيف أمكن ذلك يا إلهي؟

ـ إنهض يا عزيزي!

كلمته فيرا بصرامة لما رأت أنه سكران، ولما خشيت ألا يتبعها إذا ما بدت رقيقة.

أطاع فيرا التي كانت تمسك يده، وتبعها مرة أخرى صامتاً. كانت تمشي من دون أن تعرف أين كانت تتجه محاولة تلمّس طريقها في تشابك الجزيرة المضاءة ببعض المصابيح الغازية الحمراء، والتي كانت أضواؤها المتراقصة تنعكس على الثلج. وكانت قطرات الماء تسقط من الأسطح بصوت المطر المنتظم. وكانت أغانٍ حزينة تتسلل من الكباريهات في الصمت الكئيب.

وفجأة انفتح أمامها مدى أسود خال. كان البحر. وكانا قد عبرا الجزيرة في الاتجاه المعاكس للمدينة.

ضعف أورشانو ودار رأسه. وأخذ يترنح وانتهى بأن انزلق وسقط على الثلج.

لم يستطع أن يقوم. كان رأسه يتقلّب على الثلج، وكان يقول كلاماً بلا معنى.

وهكذا أخذته فيرا بذراعيها القويتين وأنامته على روافد جافة بعض الشيء. وخلعت معطفها وغطته به.

ثم جلست قربه، وبطريقة آلية لفت سيجارتها.

كان ذوبان الثلوج مستمراً، ولمدة طويلة سُمع صرير وصوت بلّور يتصدع وتناهى القنوات والبرك صوت جليد يتشقق. وكان ضباب كثيف يجثم على البحر في الظل، ويجعل الجو فاتراً.

كانت فيرا تتوقع فشلها في تعب عظيم. انتهى الأمر في تلك اللحظة، ولم يعد هناك من وهم ممكن، فبعد أن رأى أورشانو كل ما اعتقده ينمو بداخله كان في تلك اللحظة سكراناً وفاقداً وعيه... وسيكون كذلك دوماً.

أما فيرا فلم تكن تملك القوة لتقوم وترحل لاستئناف مهمتها وتترك أورشانو يكمل طريقه المؤلم وحيداً.

احتقرت نفسها بسبب ضعفها الشديد، فهي لم تعرف كيف تروّضه، وتجعله لها، وكانت في تلك اللحظة تذعن له.

***

كان الاستيقاظ حزيناً في ضوء الفجر الرمادي. تذكر أورشانو كل شيء، وبالتالي تساءل مجدداً كيف تواجدت فيرا ليلاً في كباريه آركيبتيش.

لكن أورشانو لزم الصمت معذباً بالندم وبخجل يشق وصفه.

قام متجنباً النظر إلى فيرا.

رأت ذلك الألم الذي لا حدّ له، ولم تلمه أبداً. ما فائدة ذلك ما دام كل شيء قد انتهى؟

مضت فيرا وأرشانوف جنباً إلى جنب من دون أن يقولا أية كلمة، عبرا الجزيرة القبيحة الحزينة حيث كان البؤس يستيقظ بعد سُبات الليل واجتازا شوارع بيترسبورغ الكئيبة.

بيد أن أورشانو كان يفكر، وكان يعاني الثقل الذي اجتاح روحه مصيباً إرادته بالعجز. كان عليه اتخاذ قرار. لماذا كان يتبع فيرا مجدداً؟ أين كان يمضي كذلك؟ كان يتعين التوقف هناك، في تلك اللحظة، ومصافحتها، وتوديعها، والرحيل.

غير أن أورشانو استمر في المشي، لأنه لم يكن يجرؤ.

أصابه يأس كئيب عندما ألفى نفسه في باحة منزله.

قالت فيرا عندما توقف:

ـ إصعد!

ثم صعد ببطء وعناء، فمنذ لحظة هزّت جسده رعشة باردة، أثقلت أطرافه، فاستند إلى النافذة.

كان يعاني. أراد أن ترحل فيرا، وأن تتركه وحده.

وفجأة تراقص كل شيء أمام ناظريه فسقط. ومجدداً رفعته فيرا ووضعته على سريره.

قالت:

ـ إنزع ثيابك فأنت مبلل بالكامل!

وساعدته.

ومنذ تلك اللحظة، سقط أورشانو في ما يشبه هذياناً معذباً.

وبقيت فيرا هناك قربه، جادة وهادئة من دون ثورة على الأمر المحتوم.

ما جدوى كل ذلك الانحطاط وكل ذلك العذاب وحتى كل ذلك الضعف! ستحتفظ بديمتري رغم كل شيء، وستعتني به كل حياتهما مثلما اهتمت به تلك الليلة.

*
* *

مرض أورشانو. أصابته حمّى قوية بهذيان ثقيل ومؤلم، وعذبته لثمانية أيام.

وكان يستيقظ كل ليلة بشكل منتظم تقريباً ويفتح عينيه... وكان يرى دوماً فستان فيرا الأزرق وجسدها الطويل المرن وهي تروح وتجيء في ضوء الغروب الأحمر. وهكذا، وحتى لا يتكلم، كان يغمض عينيه، ويتظاهر بالنوم. ماذا سيقول لها؟ ولماذا كانت هناك معاندة رغماً عنه؟

لم يتكلم أورشانو لأنه لم يجد الشجاعة لقول الحقيقة فهو لن يعمل مجدداً، وسيهجر حياة الطالب، وسيصير عاملاً ومتسكعاً، وسيتخلى نهائياً عن كل ما حلمت به من أجله ومن أجلها. ومع ذلك كان يشتهيها دوماً، وكان يريدها أن تكون له.

كان ماكاروف وإيميلي يحضران أيضاً كل مساء. ولم يكن أورشانو يحبهما أو يكرههما. ومع ذلك، ولما كان يعرف ماكاروف، فقد كان يعتمد عليه في أن يقول لفيرا كل ما لن يستطيع أبداً وبكل تأكيد قوله لها.

مضت الأيام، وأحس أورشانو نفسه يعود للحياة.

تأكد انتصار الحياة ذات صباح شاحب من شهر نيسان/ أبريل.

كان الجو فاتراً حد أن فيرا فتحت النافذة تماماً، ودخلت أشعة الشمس متدفقة ملقية نورها بزخرفة لذيذة على الأرضية البيضاء من خشب التنوب، وعلى حدّ السرير الحريري الأحمر القصير.

كانت فيرا تقرأ مولية ظهرها لأورشانو وهو ما أراحه.

استيقظ متغيراً تماماً، وأحس قوة جديدة ترفع أطرافه التي عادت لتصير مرنة.

كم كان الجو فاتراً وجيداً! جلس من دون إصدار صوت ليبقى وحيداً في لذة تلك الساعة.

لِمَ شك في الحياة كثيراً؟ ولِمَ عذّب نفسه كثيراً؟

نظر أورشانو إلى الأشياء بعينين مصالحتين.

أما فيرا... فكانت هناك في كامل جمالها الذي كان يصيبه بالاضطراب، بشعرها الذي بدا في الضوء أكثر نعومة وأشد سواداً، ونزل خط أكثر صفاء وأكثر تموجاً تحت قماش فستانها من كتفها حتى ردفها.

اشتهاها. لكن ألم تكن من بين الأشياء الجميلة والجذابة التي كانت تبتسم للشمس ذلك الصباح؟

ثم استلقى مجدداً على الوسادات البيضاء.

أحس شيئاً حارقاً ومريراً ينهش قلبه. عاد إلى الحياة وقد ألفاها جميلة مجدداً، لكن ما دامت بينه وبين فيرا هوّة ألا ينبغي له أن يصمت ويخفي سعادته، ويرحل؟

***

مد أورشانو فترة نقاهته بجبن لذيذ، مدعياً أنه ضعيف ومتعب عندما كانت فيرا تسأله. ألا ينبغي له حين يعترف بأنه شفي وأضحى قوياً بما يكفي ليخرج أن ينهي الأمر بكلمة ويرحل؟

استسلم لسحر ذلك التجديد واللذة المريرة للرغبة في فيرا، القريبة جداً والبعيدة جداً.

سعدت فيرا لرؤيته وقد شفي تقريباً وهي تفاجأ أحياناً بابتسامة في شفتيه وفي عينيه. أرجعت الصمت الذي حبس ديمتري نفسه داخله إلى الخجل والندم فقط، وكان يرد بهدوء ولكن باختصار على أسئلتها، ولم يكن يحدثها أبداً عن نفسه.

حدّث أورشانو نفسه بأنه يمكنه أن يستمتع كثيراً بأيامه الحزينة الأخيرة مع فيرا التي بدت له برقة تفوق كل وصف. وفي ما بعد سيودعها بشجاعة وسيرحل إلى أي مكان حتى يلقى مصيره... لكن لمَ الاستعجال؟

الفصل الحادي عشر

فوجئ أورشانو وسط ذلك الهدوء الحزين بعذاب جديد غير متوقع تماماً، وربطه مجدداً بفيرا لمدة أشهر.

فذات ليلة، وبينما كان أورشانو غافياً قبل وقت قصير بعد سهرة طويلة وعذبة أمضاها مقلّباً صفحات شاعر يحبه، أيقظته فيرا.

وبهدوء، ومن دون أن يرتعش صوتها، طلبت إليه أن يلبس ثيابه في الحال.

ـ باعنا أحد منا، يجري البحث عنا أنا وأنت والآخرين. إنهم عندي الآن، أسرع أسرع.

تردد أورشانو للحظة. ماذا يهمه في السجن؟ هل سيربط بهم وبفيرا إلى الأبد ربما؟

ـ لكني. . . لا أريد أن أفر.

صدرت عن فيرا حركة عنيفة مروّعة:

ـ تعال وإلا بقيت أنا أيضاً!

كانت السماء تمطر، وكان الليل بارداً ومعتماً. ولم يكن يسمع إلا صوت انهمار الأمطار على السطوح وعلى الأرصفة الخالية. وفي أحد المنازل المجاورة كان مصباح مضاء يبعث نوراً خافتاً ومضطرباً خففته ستارة حمراء في الليل.

سلكت به فيرا دروباً، وعبرا الحدائق قافزين فوق سياجات وحواجز ومنزلقين في الوحل.

ـ لكن أين نذهب؟

لعن أورشانو نفسه لاستسلامه لخدر نقاهته ولأنه كان جباناً جداً، وصار عليه في تلك اللحظة أن يختبئ في مكان ما مع فيرا ومع الآخرين، ويحيا حياتهم خلال أشهر طويلة ولربما إلى الأبد.

ردّت فيرا دون أن تتوقف.

ـ ينتظرنا ماكاروف لدى عجوز قروية، والدة عشيقته في الريف ليس بعيداً من هنا. من حسن الحظ أني أعرف أين يقع. . .

ـ لكن لمَ لم يتم اعتقالنا كلنا في الوقت نفسه؟

ـ وجدت عند عودتي إلى البيت حوالي الساعة الحادية عشرة بروخور دفورنيكنا مختبئاً في طريقي فقال لي: «إرحلي يا فيرا، فالبوليس في بيتك. يقول لك البارين أن ترحلي وألا تقلقي عليه لأنهم لا يريدونه هو، سيرسل لك المال عبر السيد ريومين». وهذا كل شيء. عدوت من فوري عند ماكاروف، وكانت إيميلي هناك ثم رحلت بدورها. وقدمت أنا. هذا كل ما أعرف.

من خان اللجنة؟ لمَ لم تحاصرهم الشرطة جميعاً؟

طرد أورشانو بغضب تلك الأسئلة التي أرهقت روحه. ماذا يهم في كل ذلك؟

ألم يكن ما يحدث له سخرية شرسة؟ أن يُضطهَد من أجل قضية لم يعد يؤمن بها، ولم يخدمها أبداً!

. . . عندما كانا يعدوان دائماً استمرت فيرا في الحديث إليه.

ـ سترى، لن نكون تعساء هناك، هي ابنة أرملة وخادمة عجوز تعيشان وحيدتين وسط متنزه كبير في رواق تخلّى لهم أصحابه عنه، وهم يقطنون بالخارج. سنكون في قلب الريف بأمان وهدوء مقيم. . . ستنهي نقاهتك وستهدأ. . .

رغب أورشانو أن يضحك بخبث. كان يكره فيرا تقريباً في تلك اللحظة. بأي حق تريد أن تبقيه على ذلك النحو رغماً عنه؟ لكن كلا، لن ينجح ذلك معه، فحالما يمكنه الرحيل سيرحل على الرغم من الأخطار المحدقة. . . آه، أن يكون وحيداً، وحيداً وحراً!

الفصل الثاني عشر

في صمت عزلتهم، محاطين بالعناية المقدسة تقريباً للقرويتين المتكتمتين، استمرت فيرا وماكاروف في تجاهل هدوء حياتهما المشكلة من الفكر والدراسة من دون أن يستسلما للرجة القاسية التي فاجأتهما في سكينتهما والتي ألغت إلى الأبد إرادتهما كمبشرين روسيين.

انعزل أورشانو عنهما في صمت فظ.

كان يمضي الساعات مستلقياً على سريره أو مستنداً إلى النافذة.

لم يكن يحلم، وكان ينتظر فقط.

وكانت دونا فاسيليفنا الأرملة، القصيرة القامة والنشيطة تحت فستانها الأسود وشال حزنها الكبير، تخدم قضيتهما بحيوية هادئة. وعبرها تواصلا مع ريومين الذي كان يعيش متخفياً كعامل في أحد المعامل. وكل أسبوع كانت تأتي الرسالة السرية من قبل الرفيق اليقظ. أمرهما ريومين بالانتظار.

حدث أورشانو نفسه بأن ريومين محق، إذ سيسود الاعتقاد بأنهم رحلوا إلى الخارج، وستتوقف المراقبة. . . غير أنه قد لا ينتظر طويلاً مثل الآخرين.

أحس أورشانو بحزن، لكن من دون إرادة المقاومة، أن كل ما كان داخله من شيء جيد ورقيق قد فتر، لتحل مكانه رغبة عنيفة في الحياة الحرة والوحدة.

ومن أجل تفادي شروحات أليمة لم يتحدث أبداً عن المستقبل، وإضافة إلى ذلك

أحس بمراقبة عين ماكاروف المتفحصة والمتبصرة، وكان ذلك يضايقه بل يغضبه أحياناً.

وكان ماكاروف وفيرا يتحدثان دوماً عن أورشانو. أرادت فيرا أن تتركه حراً وألا تدفعه إلى أقصى ما لديه، وكان ماكاروف يتوقع أنها لن تنجح في استعادته.

قال ماكاروف ذات يوم:

ـ ما دام يبحث عن طريقه في الألم، ويصارع ضد الفطرة الممتعة وغير المنضبطة التي تهيمن عليه الآن، يبقى أورشانو شخصاً ودوداً بالنسبة لي. لكنه تغير كثيراً، ولم أعد أنتظر منه شيئاً...

وكانت فيرا تحب، وأرادت أن تأمل.

وما كان يغضب أورشانو أكثر هو عناء فيرا تحديداً بالثقة في عودته الممكنة إلى الحياة السابقة.

ولما طالت إقامتهم لدى القرويتين في رتابة ثقيلة شك أورشانو في بصيرة ريومين. كانت له فكرته بأن يساوم بالمال أحد أصحاب المراكب الشراعية البلطيقية للذهاب إلى أحد المرافئ الاسكندنافية أو الألمانية.

وذات يوم، ومن دون إعلام رفيقيه، كلّف دونا فاسيليفنا بنقل خطة فراره إلى ريومين معيّناً له خمارة مشبوهة في غوتوييف حيث سيجد الفنلنديين.

وبسرعة كبيرة، انتهى كل شيء ودبر.

خلال شهر أيار/مايو كانت ماريا السفينة الكبيرة المجسرة ستقوم برحلتين إلى الساحل الألماني. وتفرق الفارون إلى مجموعتين وصعدوا ماريا. وكان أورشانو وفيرا وماكاروف يشكلون المجموعة الأولى، وتألفت المجموعة الثانية من ريومين وإيميلي وغارشينا. وحددت القرعة المجموعة التي سترحل أولاً فاختار الحظ مجموعة أورشانو.

وكان يتعيّن انتظار شهر آخر. كان ذلك طويلاً لكن حدّد على الأقل موعد الرحيل. انتهت الحيرة المعذبة التي عاناها أورشانو، فعادت إليه بشاشته.

ومع ذلك استمر في تجنب رفيقيه راغباً في ألا تُبقي فيرا الأوهام التي كانت ما تزال تحتفظ بها اتجاهه على الأقل، أو مواجهة الشرح الذي كان يتخوف منه.

انقبض قلبه لفكرة الرحيل عن روسيا إلى الأبد. لن يتحقق أبداً حلمه بالتشرد

الروسي إذن! ثم هناك فاسيلي... كان يتعيّن الرحيل دون رؤيته مجدداً، وحتى من دون أن يكتب إليه، خشية تعريضه للخطر.

ومع ذلك كان الرحيل خلاصاً ونهاية للحيرة وللعذاب.

*
* *

اقترب الموعد المحدد من قبل الفنلنديين.

ومن المرفأ الذي ستأخذهم إليه ماريا سيرحل الفارون إلى جنيف لإكمال دراستهم وحركتهم الثورية.

تساءلت فيرا بقلق: ما الذي سيفعله أورشانو هناك، ما إن يصير حراً، وبالتالي خارجاً تماماً عن تأثيرها... هل سيبقى معهم على الأقل؟

ولما كان أورشانو معتصماً بالصمت، فكرت فيرا بأن عليها أن تقترب منه عوض تركه وحيداً إلى أفكاره التي تبعده أكثر عنها وعن رفاقه، مثلما كانت تشعر.

دخلت فيرا على أورشانو. كان المساء، وألقى المصباح الأحمر ضوءاً خافتاً على الغرف الصغيرة البسيطة حيث طاولة العمل التي لم يحرّك فيها شيء منذ مدة طويلة، والسرير الأبيض الأحمر الصغير، سرير الطالب.

كانت النافذة مفتوحة، وكان انتعاش المتنزه البارد يدخل في هبّات محمّلاً بروائح السندر والتنوب.

كان أورشانو جالساً عند طرف السرير واضعاً رأسه بين كفيه وغارقاً في تفكير عميق.

دخلت فيرا، وكان ذلك إلهاءً لأورشانو، فاستسلم لها من فوره بارتياح.

بقيت فيرا واقفة قربه تاركة يدها في يده.

ابتسمت وهي تقول:

ـ مادمت قاسياً جداً وعنيداً جداً، وما دمت تفر مني، كان عليّ أن آتي إليك...

ـ فلنتجنب الحديث عن هذه الأشياء من فضلك... سيكون ذلك سيئاً بالنسبة لي. ما فائدة الحديث عن المستقبل ما دمنا هنا محتجزين في الشك؟ أريدك يا فيرا أن تمنحي نفسك للحظة العابرة وأن تسعي قبل كل شيء للمتعة دوماً وأبداً!

ـ ما قيمتها إذا كانت ستدوم للحظة، وتتركنا فيما بعد غارقين في الفراغ الحزين!

ـ ما تقولينه الآن صبياني... لكن ما تطلبينه يا فيرا وما تأملينه هو المطلق، وهو المستحيل إذن! تطلبين من الحياة ما لا تستطيع تقديمه وهو رهن أكيد للخيبة والألم.
ـ ينبغي إذن العيش يوماً بيوم، واقتناص اللذة التي تمر من دون القلق على الغد؟
ـ لربما أنت محقة...
ـ فلنترك الغد من دون التفكير فيه. سيمر كل شيء، ومن يدري، لربما سنبقى معاً.

لم يعد أورشانو ينصت لها، إذ اجتاحه اضطراب شديد. فقد اشتعلت الرغبة بغتة ضاغطة على صدره. جر فيرا ووضعها على ركبتيه رغماً عنها. قال كلمات غير مفهومة.

ـ آه يا فيرا يا فيرا الحبيبة! لمَ تأجيل السعادة؟ أنت لا تعلمين... لا تعلمين شيئاً! أنت ساذجة مثل طفل وناصعة البياض ونقية جداً... لا يدري أحد ما سيكونه الغد...

قاومت فيرا بالغريزة. ومع ذلك أدارت رأسها، وعبرتها عاصفة مشوشة من الأفكار، واجتاحت حمّى مفاجئة جسدها الذي استيقظ أخيراً. ضغط أورشانو بعنف على شفتي فيرا بشفتيه. ارتعشا معاً خائرين، واستسلمت فيرا في تلك اللحظة لذلك العناق المحموم الذي بدا أنه سيحطمها.

احتفظ أورشانو بها طويلاً في حضنه جسداً لجسد في خدر سعادتهما الغامرة. كان ذلك بالنسبة له، بين الكبرياء غير الواعي، لذة جديدة أكثر بطئاً وعمقاً، لذة أن تكون هناك رقيقة جداً وأن يغوص بناظريه في حدقتيها المفعمتين بالمداعبة والغموض. كانت فيرا تنظر إليه ذاهلة صامتة... ومع طول تلك النظرة، أحست بالاضطراب.

في النهاية قالت مرتعشة:
ـ كم أنت متغيّر!

تراجع قليلاً ليستمتع بضوء المصباح الأحمر الذي يداعب الجسد الأبيض ووجه فيرا الشاحب في الخلفية الباهتة للغطاء الحريري الأحمر الباهت.

داعب شعرها الأسود، وعض الشفتين الشاحبتين بعض الشيء... واستمرت فيرا في صمتها.
ـ تكلمي معي! هل تعلمين أنك تخيفينني هكذا!

وبعنف تقريباً، عادت لتحضنه، وقد استعادت قوتها المرنة:
ـ أصمت! أصمت! لم يعد هناك ما يقال.



عاد ماكاروف بعد نزهة قصيرة في المتنزه المظلم. وحول المائدة المستديرة حيث كان ينتهي أنين الغلاّية كانت دونا وابنتها تخيطان صامتتين بعيون منخفضة منهمكة وهادئة...

ـ أين هي فيرا؟
رفعت دونا وجهها الشاحب كراهية بيزنطية، وقالت:
ـ ذهبت فيرا نيكولايفا عند ديمتري نيكيتيتش.
ـ منذ مدة طويلة؟
ـ منذ مدة طويلة...
كانت الساعة الحادية عشرة.
صمت ماكاروف واتكأ على النافذة. كان المتنزه غافياً، وكانت أنفاسه القوية تصعد فاترة في العتمة.
اجتاح حزن وكدر أخرس ماكاروف. أغمض عينيه. وعبرت رؤية روحه وأحرقته: أورشانو، فيرا...
احتقر ماكاروف نفسه قائلاً:
ـ إلى الجحيم! هل هي شؤوني؟ ستتألم... فليكن! لكني لست أقل قذارة، خفت على نحو كريه، كأن شيئاً مثل حيوان ليلي مجهول عض قلبي... أجل، أجل هي غيرة حيوانية!
بصق وابتعد عن النافذة. أخذ دفاتره وكتبه وشرع في العمل باحتدام عصبي بعض الشيء.



لم يختبئ أورشانو وفيرا غير أنهما صمتا. تألق وجهاهما الشاحبان صباحاً بسعادة داخلية، ولم يفترقا للحظة.

وظهر التغيير خصوصاً على أورشانو، فقد أضحى أصغر وأوسم، واعتدل شعره المداعب بالرياح، وانتعشت نظرته.

ولأول مرة منذ أن بدأوا يعيشون هناك تكلم أورشانو وضحك، وأطلق الدعابات مرتجلاً أبياتاً عن ماريا، حبيبته التي ستأتي ببطء لتأخذه.

وكانت فيرا السعيدة تنظر إليه وتبتسم.

تعلمت منه أن تستسلم لسعادة اللحظة العابرة، وألا تفكر أبداً في الغد الذي لا ينبغي أن يوجد بالنسبة لها.

ومع ذلك، وفي سكرة الوهم، لم يعرف أي منهما ذلك.

القسم الثاني

الفصل الأول

كان الضباب الرتيب يعلو الأمواج الكامدة، وعوت رياح شديدة على البلطيق الحزين. مرفأ مدخن ومستودعات هائلة، ومنظر قوي وقاس تحت سماء لا تبتسم، ثم أرض منبسطة رملية وخصبة... وأخيراً الجبال الشاهقة والأودية الشاعرية وسط ألمانيا...

كان الربيع في جنيف.

كان حاداً من دون حزن في واديه ذي الجبال البعيدة من دون خطوط التقاء أو ألوان مع مرآة بحيرته الهادئة والسيل العميق لنهر الرون. كانت جنيف تبتسم في زينتها من أشجار الكستناء والدلب.

كانت جنيف جميلة، ونقية وبسحر خفي من دون ألوان زاهية ومن دون ألبسة مبقعة ومن دون فرح ظاهر.

وعلى ضفاف نهر الأرف السريع والطيني تقع ضاحية بلان بالي، حي الطلاب عند سفح تلة شامبيل ولاروزري.

وهناك كانت تقطن روسيا شابة ومليئة بالحياة، مع أنها ميتة قبل الأوان. وهناك، بعيداً عن العتمات والرعب، وتحت الشمس المتألقة، تفتحت الجرأة والآمال الثورية، حرة ومحتدمة.

كانت هناك تجمعات صاخبة، ونواد مدوية، ونشاط محتدم، وعلى الخصوص الكثير من الصدق الفتيّ.

ومنذ اليوم الأول، وفي ذلك الجو الملائم، تنفس ماكاروف وفيرا بارتياح وبتألق تقريباً على الرغم من فشلهما هناك.

ولم تعد حواس فيرا المهادنة تصيبها بقلق كبير. وكانت تأمل كمناضلة، إضافة إلى السعادة التي أملت بها في الحب، أن تعيد بناء حياة وأن تعود لإيجاد السحر الصحي للعمل وهدوء الروح.

واستسلم أورشانو بالكامل لسعادة الشمس، وقد فتن بالمظاهر المبتسمة للأشياء العديدة.

فقد كان يخرج مثلما كان يفعل هناك في بيشال منذ الفجر إلى الطريق، ويتجول على غير هدى وسط الحقول، حيث يهتز الزرع تحت وقع الريح الخفيفة وسط الحواجز الحية المتوجة جميعها بالأزهار، ووسط غابات البلوط المتشابكة مع الأدغال الكثيفة.

وفي بعض الأحيان كان يمضي مستكشفاً المدينة وحيداً من دون مرشد، مخمناً أماكن الجمال أو الهدوء.

ووجد هناك أيضاً أحياء جنيف كالفان العتيقة، وكاتدرائية سان بيير الكبيرة المحرومة من جمالها الداخلي، بسبب البروتستانية المحاربة للأيقونات لكنها ما تزال جميلة بكل الحلم الغامض للماضي المتجمع بين جدرانها القوية الداكنة والمصفرة. تحولت الأسقفية إلى سجن في صمت وهجران الشوارع الصغيرة الميتة، وعتيقة جداً حد أن جدرانها الفاقعة الاحمرار أخذت تغذي طحالب كثيفة بلون أخضر ندي.



وحظي أورشانو ذات يوم بأول اكتشاف للجنوب.

حدث ذلك في شارع كور سان. كانت نقاط من أشعة الشمس تهطل على البلاط المسودّ، وأخذت المنازل العتيقة المعتمة ألواناً بنية دافئة وذهبية.

وكانت ألوان حمراء كامدة تجاور اللون الأزرق المخضر والأصفر الكناري قرب اللون القرمزي... وكانت مظاهر القبح الأسود أو الرمادي نادرة...

وكان الناس يتحدثون بأصوات مرتفعة ويغنون. وتعزف أنغام المندولين في محل إسكافي بائس مرافقة الطرق المبحوح للمطرقة الخشبية على جلد النعال الجديدة...

***

لم يعمل أورشانو أبداً مستسلماً لملاذ أيام التسكع والليالي المحتدمة حيث كان يكبت بقوّة من خلال مداعباته تبكيت فيرا له.

ولد بداخله كبرياء وغيرة لامتلاكها. وعندما كان يراها تمنح جزءاً من حماسها حياة الطالبة التي أضحى يكرهها كان يتألم.

وكانت تتأخر أحياناً في الاجتماعات بينما كان ينتظرها محموماً معذباً.

إلا أنه عندما كانت تدعوه إلى تلك الاجتماعات كان يرفض بعنف.

وحدها أيام الوحدة والصمت واللذة البطيئة من دون صدامات ومن دون تعب كانت تهدئه، وكانت لطيفة فعلاً...

ومنذ أن ملك فيرا، وعوض العبودية النهائية التي توقعها وخشيها، أحس نفسه حراً.

وشيئاً فشيئاً تأكدت لديه الرغبة في الرحيل وأن يصير متشرداً فخوراً مستكشفاً الآفاق في داخله. وتملكته تلك الرغبة.

وانتهى بأن يتحسّس كل اللذة الحزينة للرحيل وهجر فيرا.

لن تموت جراء ذلك، فهي تعرف أين تلجأ وما الذي يبهجها.

استسلم أورشانو لحلمه العزيز بلذة وفخر.

وعجّل الرفاق وفيرا أيضاً النتيجة الحتمية.

حاولوا مجدداً استعادته وإخضاعه. تحدثوا إليه ببرود وبحدة.

حدث ذلك لدى فيرا ذات مساء. نظرت إليه شاحبة وقلقة، وقد تكدرت عيناها باللوم، إذ قالت:

ـ هل ستكون جباناً إذن يا ديمتري؟ عليك أن تعمل وأن تقاوم وأن تكون رجلاً. كلا، لا يمكنك أن تكون جباناً، إذهب غداً وسجّل نفسك بالجامعة واعمل.

قام أورشانو، ثم قال:

ـ جبان؟ كلا، أنتم الجبناء، يا أنبياء حرية مشكوك فيها منذ ألف سنة، ولم تملكوا الشجاعة لتخلعوا نير عبودية المجتمع التافه والأشياء الفانية! جبان يا فيرا من جعلته ملكك، وحركت شيئاً في روحه بأعمق ما في جسدك! فليكن، سأختفي. سأرحل. لكنك ستبقين لي يا فيرا، ولا شيء سينزعني منك أبداً. اتركوني وحيداً!

قصد النافذة، ووضع جبهته على زجاجها. كان يتألم، وعلى الخصوص كانت تعصف في داخله ثورة.

سمع غارشينا تقول:

ـ لو أنه رحل منذ الوقت الذي كان يهدد فيه بالرحيل لكان بعيداً الآن!

وبغضب، رفع أورشانو كتفيه.

غادر الرفاق، ثم حاولت فيرا أن تتحدث إليه بهدوء. وهكذا، ومجدداً أخذها ودفعها إلى السرير فثارت، وقاومت.

كان أورشانو أعمى بالغضب والرغبة. التويا في صراع عاصف.

صرخت فيرا ممتقعة الوجه مقطّبة حاجبيها، وقالت:

ـ حيوان! جبان!

وفي النهاية، تدحرجا معاً أرضاً.

ملأت تلك النزوة الخشنة والوحشية قلب فيرا بالنفور والخجل.

قام أورشانو، وكان معصم فيرا ينزف تحت يده. كانت شاحبة ولم تتجاوب مع عناقه. وكانت تحقد عليه.

انكسر شيء ما.

ومن دون كلمة، خرجت.

استلقى أورشانو على سريره، وطرد كل ذكرى، وكل فكرة، وشعر بحاجة ماسّة إلى الراحة. وفي اليوم الموالي، ولما رق وهدأ، ذهب وجثا أمام فيرا التي كانت تقرأ في غرفتها. وأمسك يدها.

وفجأة لحظ الجرح الذي تسبب لها فيه الليلة الماضية، وهكذا بكى بيأس.

قالت بحنو حزين:

ـ يا لك من مسكين، يا لك من مسكين يا ميتيا، لن تكون أبداً واحداً منا...

ـ تعلمين أني أحبك.

ـ حبك مثل كل شيء فيك، متقلب ومجنون، ومع ذلك كم أنت غال على قلبي!... فلنبق هكذا، أحدنا قرب الآخر من دون قول شيء، ومن دون أمل في شيء...

مضت بقية اليوم في حزن عميق ولطيف... وتسلل المساء الوردي إلى الأشجار الذهبية وجدار الغرفة الأبيض.

خرجت فيرا، وأحس أورشانو سلاماً كبيراً يحل على قلبه الهادئ.



بقيت النافذة مشرعة، وتدفق نور أزرق على خشب الأرضية. وفي صمت الضاحية المطبق ارتفعت صيحات الديكة معلنة استيقاظاً مبكراً، واصطكت أحذية العمال المبكرين على الرصيف.

استيقظ أورشانو قافزاً متذكراً أنه كان عليه أن يقوم بشيء مهم ذلك الصباح.

تذكر. فقد انتهى الأمر، وسيرحل.

انقبض قلبه قليلاً للحظة، ثم قام قافزاً. كان سعيداً، وكان يرغب في الغناء.

ومع ذلك، وبينما كان يرتدي لباسه القديم كعامل من بيترسبورغ هدأ، وغاص شيئاً فشيئاً في الصفاء الذي توقعه في الليلة الماضية...

خط بعض كلمات الوداع لفيرا. وكانت كلمات بسيطة وصادقة ولطيفة مثلما كانت روحه في تلك اللحظة.

ثم خرج.

كانت الشمس تشرق من وراء التسننات الحادة لقمم فوارون... وغلف ضوء مائل الأشياء، وهبّت نسمة خفيفة على أغصان الأشجار وهزت نقاط الندى الباردة.

سلك أورشانو طريق سافوا التي كانت تمضي بيضاء وسط الريف الأخضر باتجاه التموجات اللينة لقمة سيون.

كان الجو صافياً وسعيداً. ابتعد أورشانو بخطوات واسعة مستشعراً مصادر حياة مجهولة وقوة خرساء في داخله.

تناغمت قوته ومرونته مع تلك السعادة الداخلية، وشعر بأنه قادر على السير على ذلك النحو دوماً لإكتشاف العالم والآفاق الأكثر بعداً.

وأخيراً انتهى كل شيء. كان يملك الشجاعة ليهجر كل شيء حتى فيرا، ويرحل ويجعل نفسه حراً...

رحل أورشانو صباح يوم مشمس من شهر أيار/مايو...

الفصل الثاني

في قمة جبل كوبونيكس كانت شجرة بلوط كبيرة تلوي أغصانها القوية ذات البراعم المتفتحة. وكانت شجرة تفاح برية قد نمت عند جذعها مادة أغصانها المزينة بالأزهار البيضاء على الطريق، مع لمسة قانية فوق كل بتلة.

وألقت زهرات الربيع ألوناً حامضية، ومدّت شقائق النعمان القرمزية لمساتها الزاهية علي مخمل الطحالب المعتم.

وفي مكان أبعد يبدأ سياج نباتي مع الإزهار الواضح للبرقوق الجبلي الشائك.

وعلى الهضبة، عند أقصى أحد الحقول، ينتصب بناء مزرعة كبيرة. كانت إحدى مزارع السافوا المربعة المنخفضة، المطمور نصفها بالتراب، والمغطاة بالقرميد المسطح الذي اسودّ بفعل مرور الزمان.

صعد دخان أزرق في خط مستقيم وسط الشعاع اللطيف للمساء الهادئ.

كانت نهاية فصل الربيع، وامتزجت رائحة حياة وخصوبة قوية مع رائحة البيت البسيط المنبعثة من عفونة الاصطبلات وزنخ البصل المقلي.

كان أورشانو يرتدي صدرية ويحمل رزمة صغيرة عند طرف عصا. وكان يقصد المكان من دون استعجال، مستمتعاً بهدوء اللحظة في بساطة المنظر غير الفظ.

كان يتجول على ذلك النحو منذ شهرين عبر السافوا متنقلاً من ضيعة إلى ضيعة، ومن مزرعة إلى مزرعة.

هناك في روسيا كان قد تعلم في السابق من العمال الذين أحب مخالطتهم كثيراً بعض الحرف الصغيرة كنجارة العربات والبيطرة والنجارة.

إضافة إلى ذلك كان الأمر بسيطاً جداً في ذلك البلد البدائي لدى القرويين السافويين، فقد كان المرء يطلب العشاء والنوم مقابل مساعدة وإصلاح ما.

وهدأت دواخل أورشانو من ذكريات الشهور الأخيرة. وبدا له كل ذلك بعيداً جداً في تلك اللحظة حيث لن يرى مجدداً فيرا، وحيث انتهى كل شيء إلى الأبد.

لم ينس فيرا، وكان جسدها المحبوب يمر دوماً في أحلامه مكدراً بالحزن، غير أن أورشانو، عوض الإحساس بالألم والتمزق المضني، كان يشعر بلذة الهجر العميقة...

آه، ما أجمل أن يكون المرء وحيداً وحراً ومجهولاً من دون تعلق ومن دون عقبات على الأرض الكريمة واللطيفة للمتسكعين! وما أمتع النوم في ملاجئ الصدفة حيث لا يُملك شيء ولا يُتلَّعق بشيء، والرحيل في اليوم الموالي إلى البعيد جداً باتجاه مناظر أخرى، وسط أناس آخرين. . . وهكذا دوماً وأبداً!

كان أورشانو يشعر على الخصوص في ساعة الشفق المفضلة بالحزن المطبق الذي توقعه منذ مدة طويلة والذي غلبته جاذبيته. . .

دنا أورشانو من المزرعة. وكانت عجوز تقشر الخضار في الباحة جالسة على العتبة المطحلبة، مرتدية صدرية زرقاء وقبعة بيضاء.

حياها أورشانو وسألها إن كان هناك عمل. نظرت إليه العجوز مثبتة ناظريها عليه.

ـ من أين أتيت هكذا؟

ـ من سيرجي حيث قمت بإصلاحات لدى السيد موشي مزارع الكونت.

ـ آه. . . تبحث عن عمل إذن؟

ـ أجل أيتها السيدة الطيبة.

ـ يتوقف الأمر على المطلوب أهو العمل أو النوم. . . أما العمل فلا عمل، لأنه ليس موسم العمل. . . ومن أجل حصاد الكلأ ليس هناك عمل أيضاً. . . لا يوجد عمل الآن. أما من أجل النوم، فهذا ممكن. غير أنه يوجد شخص آخر، مسافر. . . ثم أنت، أي إثنان. . . ومن هنا إلى مزرعة السيد بوزون مسير أربع ساعات. . . ذلك بعيد جداً. إذن، إذا أردت النوم عليك تقطيع الخشب وإدخاله. . . أما الآخر فقد ذهب ليساعد رجلي في قطع الأعشاب وهذا يفيد الأبقار. سيكون هناك وعاء حساء لك. عندما يتوفر ذلك لأربعة أشخاص يتوفر لخمسة.

وضع أورشانو رزمته. وقدمت له فتاة طويلة القامة، قوية كرجل، ذات وجه جاد من دون ابتسامة، فأساً وأرته كومة من جذوع البلوط.

ـ عندما تنتهي، ضعها هنا تحت المخزن وراء العربة.

وعادت المرأتان لعمليهما، دون أن تعيرا انتباهاً لأورشانو الذي كان يشق الخشب المعقود والصلب على بعد خطوتين منهما. . . وكانتا تتبادلان بعض الكلمات باللهجة الإقليمية.

*
* *

كانت هناك قاعة مربعة ذات سقف من عوارض غليظة ومدخنة وحيث عُلّقت قطع من الجانبون وعناقيد من البصل الجاف. وعلى الجدارن المسودّة رفوف عليها أوانٍ طينية عتيقة، ورُصفت لوازم المطبخ التي استعملت في الماضي على رداء المدخنة الكبيرة.

وبمعلاق القِدر الحديدي القديم، علامة الحياة البدوية المنسية، كان القدر الحديدي معلقاً في النيران الصافية لجذوع الكرم.

وكان على الطاولة مصباح، وأوعية الحساء المخروطية الشكل برسومات خضراء وحمراء على الطلاء الخزفي الخشن، ورغيف الخبز الأسمر الكبير الذي يزن عشر ليبرات.

وعلى المقاعد التي صقلت لفرط ما استعملت جلس الرجال بأجسادهم الثقيلة والقوية، وعضلاتهم المفتولة تحت قمصانهم وسراويلهم القطنية، من دون أن يخلع أيّ منهم قبعته. وكانت المرأتان تقدمان الطعام وقد شمّرتا عن سواعدهما.

صبّ صاحب البيت الذي كان ذا وجه صلب وحليق النبيذ في الكؤوس الغليظة، وبدا المتجول الآخر متضايقاً. وكان أشقر وقصيراً وسميناً بشارب يسقط على الفم الصارم والمتناسق، وعينين زرقاوين، وملامح أوروبية. وعندئذٍ قال المزارع بلكنة مكسرة:

ـ هيا، لا ينبغي أن تخجلا. عندما نقدم العشاء نفعل ذلك عن طيب خاطر بطبيعة الحال. من الأفضل أن يطلب المرء على أن يسرق، أليس كذلك؟ ثم إنه يحدث لأي كان ألا يجد عملاً. لا نعرف في هذا الموسم العامل الخامل من العامل الجيد، لكننا نعلم ذلك إبّان الأعمال الكبرى. هيا عليكما أن تشربا معنا، لتظهرا أنكما لستما أكثر حمقاً من البقية!

منذ أن رحل أورشانو عن جنيف أخذ يلاحظ بفضول ذلك الشعب المنتمي إلى عِرق آخر، من دون الحزن المستسلم والورع المشوش للقروي الروسي، الأقل عملاً والأكثر تأملاً.

فكر أورشانو: «إنه العمل، العمل الجائر والأبدي هو ما جعلهم هكذا. هم أشبه بدواب حصادهم، وليس لهم وقت ليرفعوا رؤوسهم وينظروا إلى الأفق الحر حولهم،

ويستنشقوا في سلام الهواء المتاح للجميع... أجل، هي الحياة المقيمة والملكية والعائلة والعمل، كل ما يشكل المجتمع الذي يوحشهم ويقتلهم ويبقيهم منحنين على الأرض في الصراع القاسي لكل ساعة والذي يقويهم ويقبّحهم».

*
* *

في المتبنة المغبرة، ولما كان المتشردان يقفان جنباً إلى جنب على الرزم المرتخية، أخذا يتحدثان. تحدثا عن حياتيهما، كلٌّ بما أراد قوله، وخاصة أورشانو الذي أخفى ماضيه كمتعلم وادعى أنه عامل روسي مهاجر.

أما أنطون بيران، فقد كان من بوجي. توفي والده حين كان في الخدمة العسكرية فبيعت ممتلكاته. وعند عودته اشتدّ عليه الأمر فرحل كاسباً قوت يومه، لأنه بقي عاملاً جيداً محترماً العمل، العمل الحقيقي مثلما قال باحتقار كبير، أما المتشرّدون العاديون فكلهم كسالى ومختلسون.

أعجبه أورشانو لأنه وجد فيه رجل ثقة ومن دون مكر، ويمكن للمرء أن يعتمد عليه، ولا يضع الرفاق في مواقف سيئة مثلما يحدث عادة.

وبعد صمت طويل، انتهى بيران الذي كان يفكر بأن قال:

ـ إذا أردت، يمكننا أن نرحل معاً غداً. سوف نكون أقل انزعاجاً إذا كنا اثنين، ثم سيكون ذلك أفضل بالنسبة لك ما دمت لا تعرف عادات بلدنا. يمكنك أن تقع على أشخاص سيئين يلقونك في مصائب لأن ذلك يحدث سريعاً.

ـ هذا جيد...

أعجب أورشانو ببيران، زد على ذلك أنه كان بإمكانه أن يتركه إذا ما أصابه الملل. كانت الفرصة المؤقتة رفقة متشرد عامل جيدة، مثل كل ما يأتي بالصدفة في حياة التشرّد.

ناما من دون هم ومن دون أسى أو قلق. كانا شابين وقويين، وكانت الطريق هناك مرحبة بالجميع ومفضية إلى البعيد، إلى أي مكان. وكانت الشمس تتألق في كل مكان... وكان الرجل يأكل الخبز.

الفصل الثالث

كان دفق الحياة والفرح يعمّ الأرصفة ذات البلاط الأصفر، وتكدست الثروات متنوعة ومازجة لمساتها الملونة عند الخروج من العربات المغبرة.

كان هناك العديد من ألواح الشمال الخشبية بلون منعش وشاحب مع دموع الصمغ الأحمر وبراميل كبريت آجد، مع شبكات دقيقة ذات ألوان صفراء مخضرة بين ضلوع البراميل الجافة، وأكياس جبس كابية، وبراميل النبيذ المصبوغة بثفل بنفسجي، وصناديق بألوان البارود، وبراميل أكسيد الرصاص الأحمر المسحوق بلون شديد الحمرة...

وتقزّحت مياه الأحواض تحت شمس مائلة في انعكاسات حانية مع تجمع للذهب المسال في الأمواج المشكلة من شق الماء خلف السفن.

ألقت منازل لاجوليييت السوداء العالية نظراتها المتأملة، نظراتها الكثيرة من نوافذها على البحر الهادئ حيث تنتظر المراكب تلك التي وصلت وتلك التي ستغادر.

كان المساء، وانتهى حمالو السفن العابرة للمحيط من تحميل سانت أوغستان التي ستقصد وهران. كانوا يرتاحون في تلك اللحظة ماطّين أذرعهم القوية.

كانوا يرتدون سراويل من النسيج الأزرق مبقعة بالقطران والزيت وقد شدت الصدور في قمصان زرقاء وبيضاء بأحزمة صوفية حمراء مرتخية ومنحدرة على الردفين.

كان بعضهم يعتمر قبعات الملاحين واعتمر بعضهم الآخر شاشيات الزواوة أو الفرسان الباهتة العتيقة على ثياب إفريقية مهلهلة.

وداعب الضوء الدافئ الذي أضحى أحمر أعناقهم البارزة، وخطوط وجوههم السمراء المختلفة، فبعضها كان غامضاً يصعب وصفه بينما كان بعضها الآخر صافياً وجميلاً.

لبس أورشانو مثلهم. وبعد شهر فقط كان يتحدث لهجتهم نصف البروفانسية ونصف الملاحية والمرصّعة بكلمات قادمة من أماكن بعيدة، عربية وصينية، والتي كانت بنكهة متبلة متوسطية.

احتفظ بيران بسرواله القطني وقبعة بلده، غير أنه كان عليه أن يستبدل بصدريته قميصاً بسبب السخرية التي لم يكن يستسيغها.

قدم مكرهاً إلى ذلك الجنوب الغريب، إلى ساحل ذلك البحر الذي كان يخيفه، وخضع لسلطة أورشانو، فتبعه.

دُهش أورشانو وفُتِن بالبحر الأبيض المتوسط بعد مرافئ الشمال المدخنة والكئيبة، وبعد قسوة البحر المتجهم.

كان هذا هو البحر التقليدي حقاً، البحر المتألق والحيوي في عظمة الشمس التي داعب دفقها البنفسجي السواحل بالأنوار وحيث ولد الفكر الإنساني... وكانت تلك هي الطريق الكبيرة أيضاً التي تؤدي إلى كل بلدان الحلم.

أحبه أورشانو واستسلم له منذ الصباح الأبيض، حين رآه أول مرة من قمم نيرث البيضاء.

يا لتلك العامة البحرية، الصاخبة جداً والمتألقة جداً في بهرجها الزاهي لبؤسها المعروض، وذات الروائح الشديدة في التخمر الحار للأرض الخصبة!



لم يبال بيران أمام افتتان أورشانو.

كان هناك غنى وعمل بطبيعة الحال. وجد خبزاً ليؤكل، لكن كان يتعين مع ذلك الحذر من كل أولئك «الموكو»[1] الذين يعانقونك بحرارة من دون أن يعرفوك، والذين سيطعنونك من الخلف إذا استطاعوا من أجل عشرة قروش!

كشف بيران بسرعة الحيلة والشغف الهمجي والمنفعل وغير المكبوح خلف بساطة أناس الجنوب.

لم يحبهم وهو الذي لم يستطع أن ينظر إليهم كفنان مثل أورشانو، وأن يعجب بهم كأشياء جميلة تحت ضوء جميل. لم يستطع أن يتجرد من قبحهم وانحطاطهم الأخلاقي. فقد كانوا بالنسبة له أناساً سيئين وماكرين يلعبون بالسكاكين. ولا ينبغي التحمّس.

---

(١) بحارة تولون وبروفانس. المترجم.

وكان أورشانو بمرونته كسلافي يعرف كيف يدخل كل الأوساط، وبدا أنه يستوعب كل العادات وكل اللغات مبقياً مع ذلك على شخصيته كما هي.

وكان حمّالو الميناء يحبونه أكثر من بيران المتجهم، وكانوا ينادونه «الروسي» ويقولون إنه طيب.

*
* *

كان أورشانو جالساً عند طرف الرصيف وقدماه عاريتان تتمايلان فوق الماء حيث كانت تطفو قطع من الفلين ومِزق من الملصقات الحمراء والصفراء، وكان يحلم.

وكان إلى جواره بيمونتي ضخم ثقبت أذنه بقرط ذهبي صغير، وقد تمنطق بحزام يسقط أرضاً، متمايلاً مثل أفعى النار.

وكان هنري الصغير، الصبي المتخلع الوركين ذو الوجه الشبيه بوجه عنزة ماكرة، يغني:

تُقرع تقرع الأجراس
تُقرع الأجراس صباحاً!

ولما لم يكن هناك أحد يرد لازمة على المقطع كان يفعل ذلك بنفسه.

وكان الآخرون يسندون ظهورهم إلى أكوام من الأكياس، وكانوا يدخنون الغليون ويتحدثون عن المراكب.

وكان سليمان العربي شبه مستلق على الأرض يخط رسوماً على تراب الأرض الحار.

مرت عاملات حاسرات الرأس، يرتدين تنانير حمراء وقمصاناً زاهية كآنسات. وكانت كل واحدة منهن تحمل عملها في منديلها. ألقين نظرة مغرية على الحمالين الذين اعتدلوا نافخين صدورهم وماطّين شفاههن، وضحكن.

ألقى كلب أسود بنفسه في الحوض، وأخذ الرجال ينظرون إليه يسبح وفمه خارج الماء. وحوله تمددت دوائر ذهبية حمراء حتى هيكل السفن المعتم.

استسلم أورشانو بهدوء لهدهدة تلك اللحظة.

كان ينظر أمامه إلى الجسر العائم ومسابك البحر الأبيض المتوسط حيث توقف الطرق القوي المبحوح والأنين الحديدي، وحيث رست وحوش الإرساليات البحرية العملاقة وسُفن البريد الخاص بالأماكن البعيدة كالهند والصين وجزر أوقيانوسيا.

وفي البعيد كانت آرين ولازاريت ورصيف حاجز المسالخ حيث تتراءى أشباح حزينة لعرب في برانس صفراء يرافقون قطعان الخراف الجزائرية.

وأبعد، كان جُوين الأسطاك الدائري الصغير ومراكب شراعية. وفوق حصني سان جون وأنتر كاسطو كانت نوتر دام دو لاغارد تشتعل متألقة في الاحتراق الأحمر لشمس الغروب.

وكانت تهب ريح حياة قوية، ونداء فتّان من مرسيليا ومرافئها إلى الآفاق البعيدة مثل سحر قوي ولا يقاوم.

ولأول مرة حدّث أورشانو نفسه قائلاً بأن الكون لا ينتهي في ذلك المرفأ، وأن هناك خلف البحر المداعب أراضي الشمس والهدوء، وهناك إفريقيا...

الفصل الرابع

أشرقت الشمس خلف قمم نيرث البيضاء، قرمزية من دون أشعة في سماء بنفسجية أرجوانية صافية وعميقة.

وبدأ العمل مجدداً في الأرصفة حيث الصرير المستمر للعربات الثقيلة المشدودة بثمانية أو عشرة أحصنة حراثة ذات أرداف مربعة وأعناق ضخمة قوية مطوّقة بأكاليل عالية ذات جلاجل.

وكان العمال يقصدون السراديب وسط الوقع اللين لنعالهم وأقدامهم العارية على الأرض المغبرة.

وبدأت حركات الذهاب والإياب المنهمكة للباعة المتجولين الذين يحملون على رؤوسهم سلالهم العريضة المصنوعة من السوحر، مطلقين نداءاتهم الطويلة، مرددين أغان تغلب عليها زأزأة لهجاتهم.

وتدفق سيل من ضوء أحمر على المنازل والمراكب وبلاط الرصيف، وتكسر في شرارات كثيرة في تموجات الماء الخفيفة في المرافئ الهادئة.

ومضى أورشانو وبيران بسلّتيهما المصنوعتين من الخرق في سعادة الصباح خلف الجسد المتوارك للصغير هنري، الذي يتقافز مستمراً في حركاته كقرد مضحك.

وأخذ بيران المتأمل نفساً من غليونه مفكراً كعادته. كان ينظر مباشرة أمامه، فبعد رجة المفاجأة القصوى عند الوصول إلى مرسيليا، والتعود السريع عليها، لم يعد يشعر بأي طرافة في المناظر البحرية. كان يهتم بالأمور اليومية الصغيرة، وبالعمل على الخصوص.

ومنذ عدة أيام زعزع حمالون جدد الأسعار في المراكب، واستغل الصغير هنري ذلك لإقناع أورشانو وبيران بالبحث عن عمل في فونطين دي تويل قرب إستاك.

كان الأمر أكثر طرافة. وكان ذلك على الخصوص بعيداً وشيئاً مختلفاً.

لم يكن الصغير هنري يستطيع العيش يومين في الشارع نفسه والحي عينه. كان ابناً حقيقياً للشارع المرسيلي، وعاشقاً للسرقة والتشرد و«حمّالاً في الروح» مثلما كان يقول زملاؤه المرسيليون.

تردد بيران بعض الشيء، فسينتهي ذلك الشيطان الصغير بحركاته القردية وميله إلى النشل بأن يلقيهما ذات يوم في ما لا تحمد عُقباه.

ومع ذلك تبع بيران أورشانو مرة أخرى، وكان هذا يفضّل أن يستمر في التسكّع عبر مرسيليا، مثلما تسكعا عبر فرنسا.

وكلما ازدادت قوة الروسي وصلابته حد أنه صار عاملاً صلباً، زاد إحساس بيران بالتقدير والاحترام أيضاً اتجاهه. ولم يعد هناك مجال للحديث، فالروسي أضحى يعرف كيف يدبر أمره على نحو عجيب.

ثم إنه أخذ يعرف أفضل المهن الجديدة التي كان المرء مجبراً على القيام بها في ذلك البلد.

***

كان أورشانو يمشي بمرح متأملاً جمال الأشياء، مكتشفاً فيها في ذلك الصباح تناغماً جديداً في خطوطها وألوانها.

ساروا عبر رصيف لازاريت، حيث تتزاحم المراكب ذات الحمولة الخفيفة، والسفن البخارية الصغيرة غير المنظمة، والصدئة والتعبة والحاملة لأسماء رنانة، أسماء

سفن شراعية قديمة: سان إيرينيو، وقرطاجة، وسانتا ماتر دولوروزا، وكاديكس، وإيلني بروتي، وكورينث، وستيلا ماريس، ولابلاطا...

كانت تنتظر هناك، وقد تفرقت طواقمها في أحياء المدينة العتيقة، المدخنة. رحلات أخرى، وأحلام أخرى تهدهد على أمواج أخرى.

فكر أورشانو للحظة أن يصبح ملاحاً.

فمنذ المساء الذي حلم فيه على بلاط لاجوليبت ناظراً إلى سانت أوغستان المبحرة إلى وهران، سكنته إفريقيا، وعلى الخصوص إفريقيا المسلمة.

فكر في وراثته الإسلامية الشخصية عبر كل نسل أمه التتاري والبدوي.

أحس أورشانو دفق حياة يجتاح كل جسده، ويدثره بالحيوية، ويدفعه إلى اكتشاف العالم مثل الصباح الذي ترك فيه جنيف وفيرا وحياته السابقة.



لم يكذب الصغير هنري فقد قُبلوا للعمل من أجل حفر ونقل التراب الحارق في عمق المقالع المفتوحة مثل جروح دامية على الخاصرة الخضراء للتلال المتوجة بأشجار الصنوبر البحرية.

وكانوا يعانون اليوم كله تحت الشمس الملتهبة والغبار الأحمر وسط البيمونتيين الصامتين والسيسيليين الأفظاظ.

وكانا يستيطعان أن يربحا ستة فرنكات لليوم الواحد، وسيكونان سعيدين بذلك.

سأل الصغير هنري الصبي الأمرد ذو الوجه المتغضن والعينين الخضراوين والماثلتين عند خروجهم من الورش:

ـ ماذا لو ذهبنا لنأكل خبزاً وجبناً وسرديناً عند جسر إستاك؟ فقد فرقعت[١] زوج مولان[٢] من سلة امرأة.

أطلق بيران الذي كان يغتاظ من تلك السرقة الصبيانية شتيمة وقال:

ـ بحق الله أيها اللص!



(١) سرقت. الأصل.

(٢) خوخ. الأصل.

أما أورشانو فبقي غير مبال، فالصغير هنري كان ظريفاً مثل حيوان محتال، وكان يشبه زهرة موحلة أجبرت على التفتح الحار في التراب المتوسطي. ألم يكن ذلك كافياً؟

ذهبوا ليجلسوا وسط الألواح السوداء الكبيرة، حيث كاسرات الأمواج للجسر العائم الأبيض الصغير المحيط بحوض موحل وراكد تقريباً ومملوء بالطحالب الداكنة حيث تلعب بعض السرطانات الماثلة التي كان يناديها الصبي سلطعوناً رمادياً.

أكل بيران ببطء وتؤدة الخبز والجبن، طعام بلده، أما السردين فلم يكن يحرص على أكله، إذ كان يجده غير مجد.

أما أورشانو الذي أكل بسرعة فقد جلس شبه مستلق خلف لوحين مصقولين قبالة الخليج.

وكانت مرسيليا تدخن في البعيد جداً غارقة في ضوء ذهبي وردي مع ما لا يحصى من الواجهات الزجاجية والنيران التي كانت ما تزال في بداية اشتعالها في المنارات والمراكب التي كانت تضاء.

وإلى اليمين تتراءى بون مير العالية فوق صخرتها الطبشورية بلون الجمر وتتحول إلى ألوان شفافة حتى اللون الأحمر المعتم لنتوءات أندوم عبر اللون الأحمر المورد للصخور الصلبة لمادراغ دو مون رودون، واللون البنفسجي الغامق للبحر، وهالة النور التي تغرق الجزر وتجعلها تتلاشى... وحدها الصخرة المسننة والمعتمة لجزيرة مير كانت تتألق كثيراً وسط المياه المعتمة.

وكانت العين الكبيرة لمنارة بلانيي تومض في البحر.

وصعدت زفرات مستمرة وعظيمة من غموض المياه الراكدة متحولة شيئاً فشيئاً إلى ألوان زرقاء باردة وألوان زرقاء سوداء للمناطق المظلمة...

أحس أورشانو ما يشبه خدراً لذيذاً.

وكما لو أنه كان يحلم من دون انفعال ومن دون استعجال فكّر في أن الأمر سيكون جيداً في مساء مماثل، مساء هادئ ومُتلاش، الرحيل إلى الأراضي المجهولة خلف البحار، وفي القلب حزن رقيق جداً من دون مرارة، مع التخلي النهائي عن كل ماضيه، وكل ما بداخله، ومع الإحساس بأنه لن يعود أبداً.

الفصل الخامس

كانت الساعة الحادية عشرة، صيفاً، عندما توقفت فجأة حُمّى العمل، في الأرصفة وفي الشوارع.

انقطع صوت العربات الكبيرة الثقيلة والجلبة الدائمة للمدينة البحرية للحظة في خدر القيلولة.

وتدفقت أنوار ذهبية على المنازل ذات الآجرّ الأحمر في ساحة لاجوليبت، وعلى غبار الأرصفة المحترق، وعلى مياه المرفأ البنفسجية الساكنة والثقيلة، كما لو أن حجمها زاد بفعل الحرارة حيث تألقت بقع معدنية كبيرة وزيتية ببطء.

ووسط الساحة، وفي خيم خفيفة من القماش الرمادي ذي الخطوط الحمراء، تكدّست الصناديق المحملة بالمؤن ذات الألوان والروائح الشديدة كالطماطم القانية والفلافل الخضراء والزيتون الأسود والفلافل الحلوة الحمراء، والبصل البنفسجي الكبير، ونقانق ذابلة مقرونة، وأسماك مقلية في الزيت بسمرة ذهبية، مزيّنة بقطع من الحامض شفافة، والحوامض الصفراء المخضرة وسط حراشف الصدف السوداء، وعنب مسكي ثقيل بألوان عسلية شاحبة، وخبز أبيض وخفيف، وكرز بلون أحمر رماني ضارب إلى السواد.

لذة عين كاملة قرب الأفران الصغيرة المرتجلة بصفائح قديمة مكسورة حيث يطهى الطعام المرسيلي المتبل والأصفر بالزعفران.

وصعدت أبخرة الزيت من كل هذه المعروضات، وأخذت تطن فيها أسراب الذباب.

وأقبلت مجموعات من الرجال أنصاف عراة تاركين الأرصفة، وبينهم حمالون منهكون.

توقفوا في البداية عند الساقية وغسلوا أياديهم واحداً في أثر الآخر، ومن أجل تجفيفها اكتفوا بهزها فقط.

ثم تحلّقوا بصخب حول تلك الصناديق.

وكانت الدعابات تطلق بسخاء باللهجات الإقليمية، وتمضي المساومات

والعروض والأحاديث، وتلقى القروش النحاسية بصوت أخرس ومتواصل على الألواح الخشبية.

وتصعد من كل ذلك الحشد الجائع رائحة عرق ذكوري متوحشة تحت الشمس.

اعتاد أورشانو على الأكل المزيت والحار والبصل النيء والزيتون.

بينما كان بيران يهز كتفيه مفضلاً حمل ليتر من النبيذ الأبيض مع خبز وقطعة جبن، أشياء كما في دياره، لا تبقى كثيراً في البطن، كما كان يقول.

وكان العمال الحاملون الأوراق الدسمة على الصحون باليد اليمنى والخبز تحت الإبط والقنينة في اليد الأخرى، يهرولون بحثاً عن أماكن في ظلال المنازل على امتداد الرصيف. وكانوا يجلسون على حواف الأرصفة وأقدامهم في المجرى الجاف حيث يتجمّع القش والقاذورات، فيأكلون بشراهة طعامهم الموضوع على أفخاذهم.

وفي كل لحظة ترتفع يد بقنينة حمراء أو بيضاء، ويميل رأس إلى الخلف، وتنقبض عضلات قفا سمراء، وتبرز في التخريم الدائري للباس البحارة.

كان أورشانو ينهي أكله قبل الجميع دوماً، فيتمدد على بلاطات الرصيف الباردة بعض الشيء، ويضع قبعته على عينيه لا لينام بل ليحلم.



كان مسترخياً وهادئاً بلا رغبات.

وكان يفكر في حياته الجديدة، ويتفاجأ أن جعل نفسه حراً وسعيداً، السعادة الوحيدة الموافقة لطبيعته. وكان ذلك أمراً بسيطاً جداً بالنسبة إليه وسهلاً جداً بعد عذابات وتردد السنوات الأخيرة.

كان يكفيه أن ينعزل، وأن ينحدر إلى ذلك الوسط البسيط والقاسي حيث يعيش مرتاحاً مقبولاً من الجميع لأنه كان يتصرف ويتحدث مثلهم، وحيث سيبقى، مع ذلك، الوحيد كما كان دوماً وكما سيظل إلى الأبد.

وعلى عكس المتعلمين لم يزعج الفقراء والبسطاء ديمتري، لأنهم لم يكونوا يقتحمون أبداً عالم الأحاسيس والأفكار المُشكل حيث كان يعيش والذي ما كانوا حتى ليشكوا في وجوده.

لكي يكون المرء حراً عليه أن يكون وحيداً دوماً في أي مكان وعلى الخصوص وسط الناس.

كان أورشانو يشفق على الناس وحاجتهم البائسة إلى أن يعيشوا في تجمع معنوي، وأن يتجمعوا، وأن يتجندوا مجتمعين، وأن يمدوا أعناقهم باتجاه النير المهشم والظلم غير المحتمل لرأي الآخرين.

كان أورشانو المتسكع والمنعزل في عالم حيث يمكنه أن يبقى مجهولاً إلى الأبد، وحراً بالفعل.

كان يفكر ويتصرف كيفما شاء، ولا يمكن لأي كان أن يتحكم في أفكاره لأنه كان يكفيه الرحيل ومتابعة الطريق عند أقل اصطدام.

... كان أورشانو ممدداً على بلاطات الرصيف في خدر أطرافه التي قست، ولما راودته فكرة انعتاقه النهائي أحسّ سعادة وفخراً يملآن صدره.

وفجأة، أخذ يفكر في فيرا فاهتز قلبه قليلاً.

كان التفكير في فيرا بالنسبة إليه لذة لطيفة جداً وحزينة جداً من دون أية وحشية، محدثاً نفسه بأنه لن يعود ليراها مجدداً، ولن يعرف أي شيء عنها أيضاً، لأنه أحسّ أثناء رحيله أنه لن يكتب لها أبداً وأنه لم تعد هناك أية رابطة بينه وبين ماضيه.

عاد أورشانو ليرى فيرا مجدداً مغمض العينين، تلك العشيقة المشتهاة طويلاً جداً وبشدة، والتي جسدت اللحظات الأكثر احتداماً لحواسه ومخيلته.

تخيل شعر فيرا القصير والمتموج والذي يداعب جبهتها العالية البيضاء وظله الذي يلطف ألق عينيها السوداوين الواسعتين.

ورأى غموض ابتسامتها والخط المتموج لجسدها النضر جداً، والذي يمضي من كتفها إلى فخذها في انحناءات مثالية ومتحركة.

أحس أورشانو عند تلك الذكرى بأسف غامض يتأكل أعمق نقطة في جسده.

تمطى وفتح عينيه ليرى الشمس فوق المراكب وبقع الضوء تلتمع على مياه المرافئ... وهكذا هدأ مجدداً وابتسم للحياة والحب والأشكال المتغيرة...



في المساء، وقد بقي في داخله شيء حارق ومقلق من حلمه في الظهيرة، ترك

أورشانو رفيقيه وصعد ببطء متسكعاً باتجاه الشوارع السوداء حيث موجة النزوات الهمجية للمدينة الحارة تضرب الأرصفة المملوءة بالفتيات ذوات التنانير القصيرة والرؤوس الحاسرة، واللواتي يدخّن وينتظرن الرجال، الملاحين والحمالين والجنود. . .

في الليلة القائظة التي تفوح فيها عطانة المسك ورائحة النساء، كان أورشانو يتجول من دون استعجال داخلاً الحانات وجالساً إلى الطاولات من دون أن يشرب لأنه لم يكن يبحث عن الشراب منذ أن ترك روسيا.

كانت مشاهد شوارع البغاء العتيقة والبؤس والجريمة المترعة بالأغاني والعربدة تتوافق جيداً مع حالة أورشانو النفسية.

وعوض النفور أو الفضول أحس أورشانو نفسه يؤخذ بكل الرغبة العمياء المنتشرة عبر المدينة العالية.

وأخيراً، عندما كان ينزل من كالفير ديزاكول، عبر شوارع مظلمة ورطبة، رأى امرأة ترتدي سترة حمراء وشالاً أصفر كنارياً فوق شعر أسود عجيب كان ينساب مثل موجة على كتفين منحدرتين.

كانت شابة بوجه شاحب وكأنه لامرأة مصابة بفقر الدم، وذات جمال غريب هو الجمال المتوسطي المختلط جداً والمعقد جداً والذي كان يشق تحديده.

ـ ديغو، أيها الفتى!

كانت امرأة أخرى بدينة ترتدي فستاناً طويلاً تجرّه أرضاً تزيّن بأزهار شعرها الأشقر، وكانت تنادي أوشانو.

احتفظت الفتاة السمراء بالصمت، وقد أسندت ظهرها على السور.

حتى إنها لم تبتسم.

لحظ أورشانو أنها كانت حافية القدمين.

دنا منها، وقال:

ـ أين تقع غرفتك؟

ـ تعال يا ولد.

ومن دون استعجال وبلامبالاة تامة سبقت أورشانو في رواق معتم عطن.

كان في الغرفة سرير وطاولة من الخشب الأبيض ومقعدان زال قشهما ومرآة. وكانت بقع رطوبة سوداء في السقف المنخفض وعلى الورق المنزوع للجدران المتسخة والتي زادت في قتامة المشهد.

دفعت المرأة مزلاج الباب، ثم أخذت تنزع ثيابها من دون أن تقول كلمة.

أربك صمت الفتاة الذي كان يتوافق مع جمالها الغريب أورشانو وسحره.

كان الجماع بالنسبة للفتاة مثل حركاتها المباغتة وصوتها الرنان الأبح تقريباً حارقاً ووحشياً، من دون خمول، ومن دون اللازمات المكررة الحزينة والسخيفة لأغلبية الفتيات...

***

استيقظ أورشانو. كانت مغالق الشباك قد بقيت مواربة فتسلل ضوء الصباح المزرق باتجاه السرير حيث تنام الفتاة وقد غاص رأسها في الوسادة.

لم ير أورشانو منها إلا شكلها المشوش تحت الملاءة الفظة والانسدال الكثيف لشعرها.

استدار جهة النافذة.

في مكان ما كان يزقزق عصفور في قفص.

حركت ريح منعشة الستائر ومرت كمداعبة على صدر أورشانو في فتحة قميصه العمالي.

وفجأة، اجتاحته رقة عظيمة وغامضة من دون سبب...

أحس بروحه جديدة تماماً وناصعة البياض.

كان سعيداً بالحياة، وسعيداً بأن يعلم أن النهار يطلع في الخارج، وأن النسمة المنعشة تهب على البحر، وسعيداً بأن يفكر في أنه سيذهب للعمل ويكدّ تحت الشمس مع الرفاق الذين كان يحبهم في تلك اللحظة.

وكان سعيداً في الوقت عينه بعلمه أنه في غضون أيام قليلة سيترك حتماً أولئك الرجال وتلك الأشياء، وسيرحل بعيداً، بعيداً جداً خلف البحر الأبيض المتوسط ليثمل من منابع لذة وحزن أخرى.

الفصل السادس

أواخر شهر آب/أغسطس هبت ريح غاضبة على الأرصفة.

كانت السفن الإيطالية تحمل كل يوم أناساً هزيلين بأثواب رثة ووجوه بارزة وحليقة. وكانوا ينزلون منها بظهور مقوسة تحت رزمهم.

ومن فورهم كانوا يصعدون بعيون متكتمة ورؤوس مطأطأة باتجاه الأكواخ القذرة في المدينة العالية حيث يلتقون أبناء بلدهم.

وفي اليوم الموالي، يعودون للظهور على الأرصفة.

وكانوا يقتربون من رؤساء العمال وقبعاتهم في أيديهم ويعرضون بمسكنة أذرعاً معقودة لأناس يقضون جوعاً بثمن بخس.

وتدنت الأجور.

وما إن يحاول أحد العمال القدامى أن يحتج حتى يتم طرده لأنه كان هناك مخزون إيطالي لا ينفد.

وذات صباح اندلع شجار أمام رصيف شحن إحدى عابرات القارات عندما كان كلابريون[1] جدد يعرضون خدمتهم.

أزاحهم العمال بشتائم ووعيد، فحدث شجار، والتمعت السكاكين، وتدفق الدم. ومساءً طُرد عشرة عمال، بقوا في الرصيف حتى الليل في مجموعة صاخبة تصدر عنها حركات عنيفة.

وفي مسابك المتوسط ضرب عامل بقي مجهولاً إيطالياً بقبضته ضربات فأفقده الوعي وأغرقه...

وهكذا أخبر رفاق أورشانو بأن عليه أن يقودهم ما دام هو أكثرهم تعليماً.

كانوا ذوي حقوق، ويريدون أن يدافعوا عن أنفسهم، غير أنه وحده كان يعرف كيف يتكلم، ووحده كان يعرف كيف يجعل أرباب العمل والسلطات ينصتون.

امتنع أورشانو في البداية، ذلك أنه لم يكن حمالاً مثل الآخرين، ولم يكن يرغب في أن يصبح زعيماً.

---

(١) من كالابريا بإيطاليا. المترجم.

اجتاحه ملل كبير إزاء تلك المهمة التي أرادوا تحميله إياها.

كان يتألم من دون شك مثل الآخرين من تدني الأجور، وعومل بغلاظة مثل الآخرين من قبل رؤساء العمال الذين أضحوا متكبرين وميالين إلى الشجارات.

غير أن كل ذلك كان سواء بالنسبة إليه...

كان هناك عن طريق إحدى صدف الحياة كمتشرد، وكان يشعر من خارج أنه رفقة أولئك الناس، ولم يكن يريد أن يصير قائدهم، لأن ذلك لن يكون جيداً لأحد. وكان يدرك أنه يستطيع بقليل من الجهد أن يروّضهم جميعاً وأن يجعل تجمعهم الصاخب ملكاً له، لكنه كان يريد أن يبقى وحيداً وحالماً فقط.

غير أنه عندما ساءت الأحوال، وعندما تحولت الاجتماعات السلمية في البداية إلى اجتماعات صاخبة، وقع في الشرك وجرفه السيل المندفع.

ومنذ الأيام الأولى أحب تلك الحياة المحمومة فجأة، ولم يملك شجاعة التلاشي فيها.

وسرعان ما أضحى محرك رفاق مجموعته بحكم الواقع تجنّباً لاضطراب عقولهم المهتاجة وطباعهم السطحية.

افتتنوا بالكلمات الرنّانة، وتحدثوا عن الانتقام، ومزجوا مقاطع من النشيد الأممي بنكات شوفينية عنيفة على نحو صبياني. فقد كان يتعين القضاء على أبناء المعكرونة، البابي، الذين كانوا يسرقون من الفرنسيين خبزهم.

هم أيضاً كانوا خليطاً من الناس المسحوقين من كل الأعراق، من اللاتينيين وغيرهم، ألقوا إلى الساحل عبر الدفق الخصب للبحر الأبيض المتوسط، وكلهم، بمن فيهم سليمان العربي، وحتى جوانيطو ماهوني، استظلوا بفرنسا.

وتدفق الشراب، مهيجاً الغضب ودافعاً الأعصاب المشدودة، ومشوشاً العقول المترنحة.

وعلى الرغم من الصفاء الذي كان يرى به أورشانو بطلان جهدهم وضعفهم الكبير فقد كان يحثهم في ساعات الغضب الجميلة والداعية للرثاء.

ألم يضيّع في الماضي عبثاً أياماً ثمينة في نقاشات مملة بأندية ثورية ؟

لمَ الفرار في تلك اللحظة حيث تلك الأفكار عينها المشوهة والمشوشة والغامضة نزلت فجأة إلى معترك الحياة المأساوية في عظمة الشمس الذهبية والدم الأحمر؟

ما إن قيلت كلمة إضراب حتى ظهر رجال يتحدثون عن التنظيم والدفاع عن العمال والنضال.

رددوا بحدة أقل وعلى الخصوص بحلم أقل الأفكار التي تملكت أورشانو في الماضي وكانت «عقيدته» التي صارع من أجلها.

اختلط أولئك الرجال بالعمال ساعين إلى تجميعهم. ولما كانوا هم أنفسهم غير متفقين فيما بينهم، ولما كانوا منتمين إلى أحزاب مختلفة، فقد جروا الحمالين إلى شجاراتهم. وما فاجأ أورشانو واستنكره هو أن التنافر الذي كان يسود أوساط العمال لم يضايق أبداً الخطباء الشعبيين، بل على العكس من ذلك لم يدرك أحد كيف يستفيد منه.

لم يعمل أحد منهم على إيقاظ عقول الجموع. عاملوهم جميعاً كقطيع وضيع كان ينبغي التحكم فيه لجره إلى فتح العاصمة. كانوا بالنسبة لهم قوة مشوشة لا شكل لها، ولكنها محطمة وإذا ما عرفوا كيف يستغلونها فستكنس في وقت قصير خرابات المجتمع القديم.

لم يبحث المحركون لدى العامة عن إرادة واعية بعض الشيء، فقد كانت المادة الخام تكفيهم، وكان يتعيّن إخضاعها وتحويلها إلى أداة وليس صقلها.

وكان أورشانو يرى جيداً أن أولئك الناس لا يحبون الشعب، بل إنهم كانوا يحتقرونه في العمق.

كان قد قابل في روسيا بعض المنظّرين من ذلك الصنف.

ومع ذلك كانوا قليلي العدد ولم يحظوا بمودة الثوار، فالمثالية العميقة والخشنة للمزاج الروسي لم تكن تتوافق مع تصورهم الوحشي.

ابتسم أورشانو ذات مساء عند خروجه من اجتماع حيث لم يتكلم ليناقض كلام خطيب كان يحاول تجنيد عمال أحد مرافئ الأساطيل الكبيرة للشمال.

ابتسم أورشانو وقد ذهب غضبه لأنه أحس أنه كان وحيداً وسط عشرة من المثقفين أو اثني عشر مثقفاً كانوا حاضرين الاجتماع. كان يحب الشعب بصدق كبير فعلاً وبألم كبير أيضاً، لأنه كان يراه يتعذب ضعيفاً وبائساً. وكان يحبه مثلما هو عليه من دون احتقار ومن دون نبذ.

وكان يشعر بالحزن في صمت الليل الفاتر عندما كان يعود إلى الصهريج حيث كان ينام.

سوف يبدأ الإضراب وسيكون البؤس مروّعاً، وسيسيل الدم وسيُبذل الجهد عبثاً، وستظلم حيوات بأكلمها. ولما كانت الجموع مدفوعة بالحاذقين أو المتعصببين فالإضراب سوف يجهض.

وأخذت أورشانو اللطيف الرغبة في أن يرى كل تلك المجموعات المتألمة والتي كبرت بفعل الغضب تزحف عبر مرسيليا وعبر العالم من أجل عمل فيه تحطيم عظيم...

لكنه لن يقودهم، ولن يقول لهم ذلك أبداً... وسيستمر في استقبال كل ألمهم قطرة قطرة في قلبه المفتوح مثل كأس...

خطب أورشانو أمام مجموعته في العديد من الممرات. حاول إبعاد العمال عن أي انشغال غريب عن قضية الأجور الأساسية، ونصحهم بأن يوفروا بعض المال ماداموا يربحون بعض القروش، وأخبرهم على الخصوص بأنه يتعيّن عليهم أن يظلوا عمالاً مطالبين بحقهم في الخبز الذي يحصلون عليه بعناء كبير.

وبينما كان يتحدث كان الحمالون يرون في ما يقوله الصدق لفرط ما كانت خطبه بسيطة وحصيفة، إضافة إلى أنه كان يعمل معهم وقدّم لهم دوماً نصائح جيدة.

ولكن في اليوم الموالي عاد «منظمو» الإضراب الوشيك فقدموا الشراب وأشعلوا المخيلات الجنوبية بكلمات صاخبة كبيرة.

ومجدداً، ولما سكروا بالشراب والأغاني والأحاديث، عبروا الأرصفة صارخين بالهتافات.

وكانت لأورشانو أيضاً ساعات ثورته وحنقه. وأخذ يكره أولئك الناس الأغبياء والذين لا ينقادون إلا لمن كان يحتقرهم ويسخر منهم.

وذات يوم فيما كان محام يتحدث عن خنق البروجوازيين وتقطع كلامه هتافات: الوت للمستغلين! قال أورشانو بصوت مرتفع:

ـ إذا ما انتهى الأمر بالعمال إلى القضاء على البورجوازيين، ينبغي في اليوم الموالي القضاء عليكم لأنكم ستأخذون مكانهم.

سعى الخطيب إلى تهييج العمال على رفيقهم الذي كان ينتظر شاحباً وهادئاً جداً.

وهكذا نزع أحد أصدقائه، وهو ملاح سابق معروف بعناده وصمته، غليونه من أسنانه الصفراء، وقال:

ـ هذا لا يهمنا، إذا ما جاء يوم التدمير فلن نتوقف بكل تأكيد. إذا ما قتلنا بورجوازياً فسيقتلون جميعاً. الدم أسوأ من الماء، إنه يُسكر. رأيت ذلك في الهند الصينية، فعندما كنا نهجم على قرية كان يتعين القضاء على الجميع.

أكد آخر وكان شاباً بوجه وديع:

ـ أجل عندما نتخلص من أولئك الذين يأخذون حقنا في الوقت الحالي سنجد القوة للقضاء على أولئك الذين يسعون إلى أن يأخذوا مكانهم. وفي ذلك اليوم سنرى.

وأمام هزيمة الخطيب الذي أخذ يتمتم أحس أورشانو ببعض الفخر، وعبر شيء دافئ وعذب قلبه.

ثم هز كتفيه وخرج. ولو أنه ترك نفسه ينجرّ لوصل إلى تمني لعب دور الخطيب الشعبي المهين.

الفصل السابع

أخيراً أشرقت الشمس على المرافئ الخالية التي بدت أكثر اتساعاً، وعلى الأكشاك والبضائع الكثيرة المكدسة على الرصيف. وحدهم رجال الجمارك كانوا يتجولون شاردين ببذلهم الزرقاء والحمراء. لم يحضر أي حمّال إلى عابرات القارات، ولدى تواش، وعند الإرساليات.

كان الإضراب قد أعلن منذ مساء الليلة الماضية في جلبة وهتافات قاعات الاجتماعات وفي المقاهي. وفي وقت متأخر من الليل غنوا المقاطع التحررية، وهتفوا: «يعيش الإضراب» وتجول أورشانو رفقة مجموعته وسط تلك البهجة والإثارة.

ولخص الصغير هنري حالة الحمالين النفسية قائلاً: «فليكن! غداً عوض الذهاب وحمل العوارض في السفن يمكننا الذهاب إلى لامادراغ أو إلى إستاك لتناول حساء السمك!»

استمتع الحمالون في سذاجة كبيرة بالأيام الأولى للإضراب. كان ما يزال لديهم

بعض القروش، وكانوا يأكلون، ولا يفعلون شيئاً. ثم إن أرباب العمل سيخضعون عندما سيشعرون بالضيق. أما الإيطاليون البابي البغضاء فسيركبون السفن بركلات في مؤخراتهم ليرحلوا إلى بلدهم.

كان الأمر عادلاً جداً وبسيطاً جداً! وكان أورشانو ينظر إليهم في المساء الأول للإضراب سعيدين جداً ومفعمين بالمرح قاطعين بقهقهات طرائفهم اللاتينية الدائمة.

لمَ كان يلزم أن يبيّن لهم أنهم كانوا مخطئين بالاستمتاع وأنهم سيقضون جوعاً غداً، وأنهم حتى لو نجحوا في التخلص من الإيطاليين فإن ذلك النصر الصغير سيتسبّب في عذابات وضغائن لا تحصى؟

وقال أورشانو في نفسه إن تلك اللحظات كانت مع ذلك أكثر حدة وأكثر سعادة من رتابة عبوديتهم...

*
* *

وفي الصباح، وبينما تفرق الآخرون في المدينة العالية للاحتفال، ذهب أورشانو وحيداً إلى غابة الصنوبر في إستاك.

وهناك راح يحلم مطوّلاً وهو ممدد على الأرض الحارة متنسماً رائحة صمغ الصنوبر الجيدة.

كان يتعين انتظار نهاية الإضراب بداعي الكبرياء، وأيضاً بداعي الفضول... وعندما سينتهي كل ذلك يبدأ الرحيل بعيداً، إلى أي مكان...

سيرحل وحيداً من دون بيران الذي أرهقه منذ مدة طويلة بأحاسيسه الكبيرة جداً ومبادئه كعامل جيد.

لزم بيران الصمت في الاجتماعات الصاخبة والتجمعات التي سبقت الإضراب.

لكن عندما أعلن رفاقه أنهم لن يعملوا قال لأورشانو بهدوء كبير كالعادة:

ـ إذا كان الأمر كذلك فلن نعمل. سيكون من النذالة العمل بينما الرفاق غير سعداء... تصيبني بطبيعة الحال كل سياستهم بالصداع... هناك كل أولئك السادة المخادعين الذين يتحدثون في المقاهي، أنا أقول إنهم مخادعون يسخرون منا... وهناك أيضاً كل أولئك «البحارة» الذين يتحدثون طوال الوقت وذلك يحدث فرقعة كثيرة. أنا لا أحب ذلك...

واحتفظ بيران بكل رصانته كعامل جيد وهادئ ولم يتدخل في شيء، كان ينتظر فقط.

قرر أورشانو أن يترك بيران من دون خلاف ومن دون غضب لأنه كان يتوق إلى المضي في الطريق مجدداً وحيداً رفقة حلمه.

كان يحب كثيراً ذلك الرفيق البسيط والمستقيم والذي ساعده في بداياته كمتسكع في فرنسا.

لكن على الرغم من تعوده عليه وعلى صداقته سيتركه بإرادته مثلما ترك رفاقه في الماضي، وحياته كطالب، وحتى فيرا.

كان للمنفى والافتراق سحر حزين وكبير بالنسبة إليه.

وكان يحب على الخصوص الغد، وهو يعاود بدء حياة جديدة، وأن يلفي نفسه وحيداً مع ذكرياته وأشباح ماض قريب.



توقع أورشانو اضطرابات كبيرة نتيجة الإضراب، ومن المؤكد أن شجارات ستنشب بين المضربين والإيطاليين.

وكان البابي يعملون على الخصوص في النقل البحري.

وفي سعادة اليوم الأول لم يذهبوا لإزعاجهم. كانوا يتحدثون عنهم باحتقار، غير أن ذلك لن يستمر. وعندما سيُشعل الشراب بعض الرؤوس ستحدث جلبة.

وإذا ما ذهبوا لمنع الإيطاليين من العمل فسيذهب أورشانو أيضاً. أجل، ألم يكن ذلك منطقياً وضرورياً؟

لم يكن يحمل كراهية لجحافل النمل الحزينة والقادمة من مكان بعيد حاملة أجسادها الحزينة للعمل بأجور بخسة. بيد أنه تذمر منهم بقدر الآخرين.. لكنها الحرب، الحرب المستمرة.

تساءل أورشانو إذا ما أثر غضب أو خوف العامة عليه كثيراً، وهو الوحيد، والغيور جداً على حريته.

شك في ذلك. ثم إنه كان يدرك جيداً أن الفرصة سوف تتاح له خلال أيام قليلة لاختبار ذلك.

الفصل الثامن

كان المساء، وهرع حشد في الشوارع الضيقة المحاذية للمرفأ في حرارة ليل من دون قمر. كان الحمالون يعبرون مرسيليا في مجموعات، وكانوا يمضون إلى الأمام كما لو أنهم يمشون لفتح المدينة.

وكانوا يتوقفون أحياناً ويصرخون ملء حناجرهم:

ـ الموت للبابي! الموت!

وقفوا مهددين أمام المطاعم الحقيرة والحانات الإيطالية التي أخذت تغلق أبوابها أمامهم.

تجولوا على ذلك النحو لفترة طويلة، مكتفين بالصراخ حتى من دون الدخول إلى المقاهي التي كانت تغريهم.

أضحت الحرارة خانقة، ولفرط ما صرخوا وغنوا عطشوا، وهكذا تدفق الشراب فاحتدم الدم اللاتيني الخفيف. وهبّت ريح الغضب على المجموعات المختلطة، خافقة في الثنيات الحمراء للأعلام المرتفعة على طول الأذرع. وغالباً ما كان يتردد وسط الأغاني صراخ «الموت للبابي!» في أطراف الأحياء البحرية وسط الروائح المالحة للأحواض الراكدة.

وصلت الشرطة، وهجم رجالها على المضربين لتفريقهم.

تبع أورشانو مجموعته. لم يشرب كما لم يشرب بيران. وكان بيران هادئاً جداً. بمَ سيفيدهم «الصراخ»؟ إذا لم يريدوا أن يعمل أبناء المعكرونة فعليهم الذهاب صباحاً إلى الأرصفة عوض الجري مثل مجانين من مقهى إلى مقهى.

قال وقد ملّ من كل تلك الجلبة، التي كان عقله الطيب يخبره أنها غير مجدية:

ـ لو لم يكن من المخجل ترك الرفاق لرحلنا.

غير أن أورشانو أُخذ بجمال الحشد الهمجي. كل أولئك الرجال الطيبين والأشداء في ثياب العمل، والذين جعلهم الغضب يبدون أكبر، هم في تلك اللحظة وسط الضوء المتعاقب للغاز والكهرباء والذي يتدفق في برك حمراء وأخرى زرقاء على البلاط المتسخ وعلى أكتاف الرجال العريضة في ملابس البحارة من قماطات حمراء وصدريات سوداء.

ثم إن الأمر بدا له وهو الذي يفهم ما يجري منظراً يثير الفضول من حيث إلغاء الفرديات المختلفة لتشكل في جسد واحد وروح هاذية واحدة.

ومع مرور الوقت شعر أورشانو بما يشبه سكرة مشوشة تجتاحه، فحدث نفسه من دون إعمال عقله وهو يستذكر المواعظ الثورية في الماضي، بأنها كانت بعد كل شيء الثورة الحقيقية على الرصيف المأساوي لمدينة البؤس والكد الظالم حيث الموج العظيم المتشكل من رجال المعاناة المتعبين.

وفجأة توقفت المجموعة التي كانت تسبق مجموعة أورشانو فاهتزت الرؤوس وتضاعف الصياح، ذلك أن الحمالين اصطدموا برجال الشرطة.

كان ذلك في رصيف الفراتيرنيتي عند منعطف رصيف المرفأ.

ـ الموت! الموت للبابي!

وكان صراخ رجال الشرطة يُسمع ضعيفاً: «إذهبوا! إذهبوا!» ثم تغطيه هتافات العمال الفظيعة.

وقع تدافع. وأخرج رجال الشرطة أسحلتهم. وكان هناك التماع مباغت للحديد وسط اختلاط للحشد.

وبغتة، وبخطى متناغمة، سُمع دوس أخرس لقطيع في الجلبة.

ـ الجنود! الجنود!

دمدم بيران قائلاً:

ـ سيمزق أحشاءنا أولئك المسعورون!

غير أن أورشانو لم يسمعه، فقد كان منتشياً، ومع الوقت أخذ يدفع نفسه إلى الأمام دون وعي.

سوف يقاتلون بكل تأكيد في تلك اللحظة... وعوض الندم على الحوادث السيئة المتوقعة للإضراب، كما في الأيام القليلة الماضية، قبل في تلك اللحظة الشجار والعراك الذي كان على وشك الاندلاع.

لم يكونوا مسلحين، وسيقاتلون بالقبضات والأرجل.

وكان أورشانو يتقدم دائماً، متجاوزاً بصعوبة الجموع المتراصّة.

ثم كان في المقدمة. وهناك كانوا يكتفون بسب رجال الشرطة ودفعهم باتجاه الجنود الذين كانوا ينتظرون على بعد خطوات وأسلحتهم على أقدامهم لا يتحركون.

صرخ أحد العمال:
- أيها الخنازير، أنتم أبناء الشعب، ولربما كنتم مرسيليين، ألا تخجلون من القدوم لقتل إخوانكم!
لم يتزعزع الجنود.
ولما استمر العمال في دفعهم رفع رجال الشرطة أسلحتهم بعد أمر قصير من أحد المفتشين.
استمر ذلك لفترة قصيرة، دقائق معدودات.
أخذ أورشانو يضرب كيفما اتفق وقد أصيب بالعمى وانفعل بالهيجان البديع للأجساد التي أخذت تنهرس.
ومسّه سيف أحد المفتشين، ومن دون أن يفكر، مد يده ولوى معصماً وأخذ السلاح.
وهكذا، صرخ رجل وسقط أرضاً وقد داسته أقدام الحشد.
استيقظ أورشانو من حلمه. لقد قتل رجلاً. لربما كان مفتش الشرطة. وكان ينبغي الفرار.
بدأ العمال يتراجعون أمام زحف رجال الشرطة والجنود. وكانوا على وشط محاصرتهم واعتقالهم.
ألفى أورشانو ذلك المنظر سخيفاً ومشؤوماً. تراجع ببطء وبمرونة وقوة. وفي النهاية وجد نفسه وحيداً في رصيف المرفأ.
انتهى الشجار في الشوارع الصغيرة المعتمة وقرب كنيسة الأوغستانيين.
سار أورشانو على امتداد رصيف لافراتيرنتي ببطء وسط حشود الفضوليين. كان كل شيء خالياً وهادئاً في ريف نوف. وهكذا أسرع الخطى ملتفاً على التلة.
انتهى الأمر هذه الليلة. لن يجده أحد قبل طلوع النهار. وفي الغد سيرى. سيغادر مرسيليا، وسيواصل الرحيل.
فكر في بيران فانقبض قلبه. لا شك أن الرفيق المسكين اعتقل لأنه لم يفر بكل تأكيد، ما الذي سيؤول إليه؟ ثم نام أورشانو في أرض بور خلف الروكا الأبيض وقد هدأ. لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً إزاء ما يجري، وكلٌ يمضي إلى تحقيق قدره. وهو سيرحل وحيداً مثلما أراد دوماً.

الفصل التاسع

كان أورشانو جالساً رفقة بيران[1] إلى طاولة في إحدى الزوايا الأكثر ظلمة لحانة في ريف نوف (نسخة مقلّدة لمغارة بحرية بزخرف الحصى بالإسمنت، وبمحارات مرصعة وبضوء أحمر مزيف).

كان يفكر في ما ينبغي عليه فعله، فقد ذكرت جرائد الصباح في روايتها لشجار الأرصفة أن مفتشاً للشرطة قد قتل على يد حمّال يُعرف بلقب «الروسي». كان ذلك كافياً ليجدوه.

قرأ أورشانو ذلك السطر وأعاد قراءته بهدوء، ثم رفع رأسه، فقد دخل رجل.

دنا الرجل من أورشانو. كان لومبار، أحد أفراد مجموعته، وقال:

ـ نحن أحياء يا صديقي، لقد قمنا بعمل سيّئ البارحة! إلا أن ذلك لا يهمني فلديّ فكرتي. دخلت لاحتساء كأس وبعده سأمضي لأتدبر أمري.

ـ ما الذي ستفعله؟

ـ أنا؟ الأمر ليس صعباً، سأنخرط في الفرقة الأجنبية لا أكثر. في إفريقيا سوف نمرح كثيراً! يوجد خبز في كل مكان.

قال بيران:

ـ هذه فكرة جيدة!

وعلى الرصيف، أمام صندوق «فواكه البحر» أسفل المجرى، كانت بائعة سمك تصرخ مستفزة ومحتقرة بلكنة فظيعة:

ـ بلح البحر، منثور شتوي، منثور شتوي جميل! اقطعوه هنا!...).

عمّ صمت بينهما.

(شرح لومبار المسألة:

ـ حيلة جيدة... ولا حاجة للأوراق).

---

(١) نشير بين قوسين وبخط مائل إلى الجمل التي أضافها فيكتور باريكون إلى مخطوطة إيزابيل إبرهارت لإرجاع بيران الذي اختفى في صيغة الأخبار بعد شجار الرصيف. (أنظر ملاحظة النهاية). الأصل.

إلى إفريقيا!... استمع أورشانو إلى الرفيق، واجتاحته عاطفة كبيرة.
وأخيراً قال:
ـ سأفعل مثل لومبار.
ـ هل لديك شيء أفضل، خصوصاً أنك في وضع سيّئ مثلي. أذكر أني قتلت شرطيين البارحة لأنهما أرادا اعتقالي. ضربت أحدهما بالآخر حد أني سمعت فرقعة! سقطا، فداسهما الآخرون طبعاً.
ـ كأس أخرى، ثم نمضي... (هل ستأتي يا بيران؟)
ـ بكل تأكيد لن أبقى في الخلف... صحيح أن ذلك المكان بعيد، وأنه ليس «ديارنا»، لكني لن أكون وحيداً أبداً! إذا كنت أنت هناك...
غير أنه لم يتحرك، فقد رغب في التحدث عن الأمر قبل القيام به.
ـ والحرية، ماذا سنفعل بها؟
رد لومبار:
ـ سنأخذها معنا.
ـ شيء آخر، ألست غريباً؟
ـ ستدعي بأنك سويسري وأنك قدمت من فادا...
ثم اقتنع بيران مع أنه كان متضايقاً، فطلب كأساً أخرى لثلاثتهم.
ـ ينبغي الاحتفاء بهذا!).
أدرك أورشانو أنه سيضحّي بخمس سنوات من حياته، لكن ذلك سيكون هناك في تلك الأرض الإفريقية التي يحلم بها منذ مدة طويلة والتي تشده إليها، وكان ذلك يكفيه.

(خرجوا واشتروا كل الباقات من صبية ذات حذاء قديم، وثبتوها في قبعاتهم وستراتهم. ولما سكروا قليلاً بالكؤوس التي شربوها تشابكت أذرعهم وراحوا يمشون بعظمة سادّين طريق الرصيف، غير أن نقالات خشبية كانت تغلق الجسور الصغيرة فمرّوا عبر العارضة، وشوهدوا يصعدون الساحل باتجاه مجرى منتزه بيير بورجي المشجر.
وكان بيران يغني بصوت مبحوح وممدود:

تجنّدت

من أجل حبّ شقراء...

ولعب بشاربه الريفي.

الفصل العاشر

كان أورشانو وحيداً على سطح حصن سان جون العتيق حيث نمت الأعشاب وسط الحجارة المتفرقة.

وكان النهار الصيفي ينتهي بعظمة.

وكانت أسوار الحصن العتيقة تغرق في مياه فيوبور الهادئة.

في المقابل، فوق البساتين، كانت النوافذ المرتفعة لقصر الإمبراطورة مضاءة.

وكانت المراكب الشراعية المتأملة واليخوت المتأنقة ترقد في الحوض.

وخلف صواري السفن كان رصيف لافراتيرنيتي الكبير وموجة الحياة الصاخبة لكانبيير تنزل في السيل الأخضر لممرات ميلهان.

وفي الأعلى، باتجاه هضبة سان ميشيل، كان السهمان التوأم لكنيسة ريفورمي ينتصبان رماديين في السماء الحمراء.

وكانت ضبابة حمراء تغلف مرسيليا.

استدار أورشانو باتجاه رصيف لاجولييت حيث كانت السفن البخارية المعطلة تنام كما لو أنها جانحة.

وكان الجنود يحرسون أرصفة الركوب ملقين لمسة سوداء بزيهم الموحد على فراغ البلاطات الباهتة.

وأحياناً تهبّ نسمة وسط همسات المدينة الكثيرة والتي كانت تحمل الأغاني الثورية والصراخ حتى الحصن الساكن.

ويصمت كل ذلك الضجيج عند أقدام الحصن الكئيب، وكان كل من فيه بمعزل عن كل صخب المدينة وغضبها...

*
* *

تبع أورشانو (وبيران) لومبار، الرفيق الذي قابله في حانة إفريقيا، إلى مكتب التسجيل.

وهناك، وعلى نحو آلي تقريباً، ولأن ذلك بدا لهما (لهم) ضروري أنهيا (أنهوا) الشكليات الضرورية السهلة جداً والسريعة جداً.

ادّعى أورشانو أن اسمه كازيميرسكي وأنه بولوني عاد من البرازيل حيث حاول أن يكون معمّراً هناك. (وادّعى بيران أنه سويسري مع أنه كان كذلك، واختار لومبار أن يكون بلجيكياً طوعاً).

وعندما سُئلا إلى أي الفوجين الغربيين يرغبان أن يرسلا لكز مجهول (كان على دراية بالأمر، وكان مجنداً عائداً) مرفق (البولوني[1]) قائلاً:

ـ قل إنك ترغب في الفوج الثاني، فهو أفضل.

فاختار أورشانو (ولومبار وبيران بإجماع) الفوج (الأجنبي) الثاني.

(كانوا) في تلك اللحظة في حصن سان جون، ذلك الفندق العتيق لجيش إفريقيا رفقة حوالي عشرة آخرين ينتظرون انطلاق سفينة إلى وهران.

وكان أورشانو يدرك جيداً ما أقدم عليه في تلك اللحظة، فقد تجند لخمس سنوات، وتنازل عن حريته، ولم يعد إلا شيئاً مجرداً من الإرادة.

ومع ذلك، لم يحل بعقله أي يأس.

كان يشعر بهدوء غير محدود، وحزن أسود، وإحساس بنهاية كل شيء فيه وحوله.

أحس تقريباً بالسعادة الحزينة عينها التي شعر بها عندما رحل عن جنيف.

وأدرك أنه سيكون على الرغم من كل شيء أكثر حرية في معطف رجل الفيلق العسكري مما كان عليه في قميص الطالب.

فوسط الفارين من الحياة الذين سيكون رفيقهم سيعرف كيف يبقى وحيداً ومجهولاً وبالتالي حراً.

تأمل بحزن من دون مرارة منظر مرسيليا حتى انطلاق ناقوس الإنذار المبكر الذي أضحى مألوفاً بالنسبة إليه، والذي انتهى بأن يقع في حبه.

---

(١) ... لكزه بمرفقه... (صيغة) الأخبار. الأصل.

سيعبر لآخر مرة رصيف لاجولييت حيث ثمل لأول مرة في حياته بالشمس والهواء المنعش، وحيث حصل على الاكتشاف الذي لا ينسى للحياة المتوسطية. سيكون ذلك من أجل الذهاب إلى إفريقيا المجهولة والجذابة والتي سكنته ذات يوم لكي لا يتركها أبداً.

الفصل الحادي عشر

خرج المجندون ذوو الثياب المتباينة والأكتاف المهتزة من ساحة الحصن رفقة رقيب وعريفين بثياب الخدمة العسكرية.

وكان بينهم صبيان هزيلان مذعوران مسجّلان في الأفواج الإفريقية، وجنود ببذلات مغبرة يمضون إلى سرية التأديب.

تبع أورشانو الفرقة نشيطاً وسعيداً للخروج في النهاية من الحصن الحزين الذي بدا له كسجن.

وكانت سفينة الشحن البري القوية بيري ستمضي بخفة تقريباً بربع حمولتها.

كم تغيّر الرصيف! كان يعمّه صمت مطبق، ويتجول فيه جنود بالطول والعرض وسط البضائع الأخيرة المهجورة تحت الشمس.

وضَع جنود إفريقيا والمجندون في مقدمة بيري، وقام الرقيب بالعدّ، ثم سُمح بالحديث والغناء والتدخين، فقد ركبوا وعُزلوا ورُقّموا. كانت تلك هي البضاعة التي ستحمل إلى وهران والتي كان الربّان مسؤولاً عنها.



كم من مرة حضر أورشانو انطلاق سفن البريد هذه إلى إفريقيا وبأي رغبة تبعها بنظراته وهي ترفع مرساتها ببطء وتبتعد!

تحققت أمنيته وأحس بالسعادة، غير أنه لم يعد المتجول الحر، والمتسكع المتحكم في مصيره. لم يعد إلا جندياً. انقبض قلبه عند هذه الفكرة.

وكان هناك مجندان متطوعان يتحدثان إلى جواره.

بدا أحدهما وكان صغير السن بوجه أمرد وشاحب وكأنه ندم ندماً مريراً على

ما أقدم عليه، بينما رفع الآخر كتفيه وكان أشقر طويل القامة حسن الهيئة بملامح شمالية.

ـ لا تقلق يا برنارت، لن تنسى الشمس أن تشرق غداً صباحاً، إذهب!...

كان المجهول محقاً، فستشرق الشمس غداً، شمس أكثر حرارة وأكثر احتداماً في سماء أكثر عمقاً.

ستتدفق أمواج البحر الأبيض المتوسط أكثر زرقة وأكثر لطفاً، وستنفتح آفاق أخرى أمام الأعين المتعطشة لمن لا وطن لهم.

هز أورشانو جسده، كما لو أنه يفعل ذلك بعد حلم سيّئ، واستند إلى درابزين السفينة وراح ينظر إلى مرسيليا بعينين وديعتين.

وبهدوء، كانت بيري ترفع مرساتها جارة حبالها.

عرف أورشانو غالباً عصمة حدسه تقريباً.

تساءل وهو يرى الرصيف يبتعد إذا ما كان سيعود يوماً ليرى مرسيليا، وكل تلك الأشياء التي ستظل محفورة في ذاكرته.

وهكذا أعتم ظل كبير تألُّق المدينة ومرافئها، وانسدل ستار من الحزن على المنظر البحري.

أحس أورشانو أنه لن يعود لرؤيتها أبداً.

وهناك أيضاً لم يشعر صادقاً بأي أسف، وفكر قائلاً: هذا أفضل!

في الواقع ما فائدة العودة، وما فائدة محاولة بدايات مستحيلة؟

دارت بيري واهتزت قليلاً، ومالت إلى الأمام متجاوزة الجسر العائم.

وفجأة تراجعت مرسيليا وأعتمت في عالم من الأبخرة الحمراء.



بعد العشاء، استقر ركاب السطح.

ووزعت على الجنود أغطية الأسرّة، وتخلّى عنها بعضهم لثلاث نساء من العامة كن يهدهدن أطفالهن، وساعد الجنود المدنيين على تحضير مراقدهم بالروح الأخوية الطيبة الصامتة للناس الفقراء.

وكان أورشانو قد منح غطاءه، فتمدد على كوّة الخزان المقفلة، وكان ينظر إلى

الليل الصافي يحل على هدأة البحر البنفسجي العالي، وقد عقد ذراعيه تحت رأسه.

وأومضت بلانيي[1] من البعيد بعينها الكبيرة المتغيرة، والتمعت آخر الصخور البيضاء للساحل البروفانسي بأنوار حمراء.

واستنارت النجوم في تموّج لمعان السماء الشاحب جداً.

وتمايلت بيري بلطف كما لو أن أمواج القعر تهدهدها، ونظر أورشانو إلى صواري السفينة وفانوسيها تمر وتعاود المرور بانتظام بطيء أمام النجوم الباسمة.

وأحس كل الأسى وكل المخاوف تهدأ بداخله. وبدا أن السكون الكبير الذي عمّ البحر والليل ينفذ إلى أعماقه، وجعلت عاطفة رقيقه جداً عيناه تبتلان.

أن يتخلّى عن كل شيء، وأن يكون فقيراً، وأن يطوف في العالم من دون عائلة ولا بيت ولا أصدقاء...

لا ينبغي الندم على شيء، أو الرغبة في شيء، وعليه أن يترك نفسه لأمواج الحياة تهدهده مثلما تترك بيري الطيّعة نفسها تهدهَد بالموج المرغي للبحر الأبيض المتوسط الجميل.

الفصل الثاني عشر

كانت الليلة هادئة وحارة تحت لمعان النجوم غير المحدود.

وتدفق البحر بخرير لطيف على جوانب بيري التي كانت تتمايل برفق كما لو أنها نائمة نوماً لذيذاً.

وفي المقدمة كان من لا وطن لهم والبؤساء الباحثون عن أرض رحيمة من دون جوع ومن دون فصل شتاء ينامون موجهين وجوههم إلى السماء ناسين كل شيء.

عبرت السفينة تياراً فاهتزت.

استيقظ أورشانو على القماش الكبير المبلل بالماء المالح.

وإلى اليمين كانت منارة تتلألأ وتستدير وتنطفئ في الأفق المعتم، لاهية في الظلام. وفي البعيد كانت منارة أخرى ذات نار ثابتة تصوّب ضوءها الأحمر الوحيد نحو الليل.

---

(١) إحدى الجزر التابعة لمرسيليا وأكثرها بعداً. المترجم.

كانت باليارس.
أشعل أورشانو سيجارة وأخذ يحلم.
راوده شعور لذيذ بالخفة والراحة.
وفي بعض اللحظات، منذ أن ترك مرسيليا، كان يشعر بنفاد صبر لبلوغ ذلك الساحل البربري الذي تمنى رؤيته كثيراً.
وفي لحظات أخرى، مثل تلك اللحظات الهادئة من الليل، وفي وحدة حلمه، كان يتمنى لو تستمر رحلته إلى الأبد...
كان سعيداً.
فمنذ بدء الاضطرابات في الأرصفة، ومنذ أن اهتم مجدداً بشؤون الناس وتقلباتهم، لم يشعر أبداً بذلك الإحساس اللطيف على نحو غير محدود بالحزن الهادئ وحرية الروح التي أسماها السعادة، الوحيدة الموافقة لطبيعته، وكان يدرك ذلك جيداً. وفي تلك اللحظة، وبعد أن انتهى كل شيء وألفى نفسه وحيداً ليبدأ مرحلة جديدة من حياته، عاد ليجد ذلك الإحساس، ويستسلم له كلياً.
ماذا يهم الغد، وذلك الالتزام الذي قبله بتوقيعه لخمس سنوات من الخدمة.
سيظل تحت لباس تجنيده الأكثر حظاً بين الرجال والأكثر فخراً بينهم لأنه يحمل سعادته داخله.
نظر إليه الجميع كبائس فاشل منذور لأتعس حياة بينما يدرك هو أنه الإنسان الأكثر سعادة.
نظر أورشانو إلى نيران باليارس تبتعد وتختفي شيئاً فشيئاً وتمتزج مع ضوء النجوم الكبير المنتشر على البحر.
وأخذت بيري تتحرك بلطف مجدداً على المياه الهادئة، وهدهدت حركتها الرتيبة أحلام وانتشاءات المتشرد الذي بدأ يغفو شيئاً فشيئاً.

الفصل الثالث عشر

تلال قاحلة مرتفعة، وحصن إسباني عتيق، وصخور حمراء تغوص في البحر البنفسجي وفوق الأشياء، وأشعة حارة وذهبية...
وكانت رائحة غريبة ونفاذة في الجو، رائحة يشق وصفها تهب من الساحل المشمس.

شعور ببطء مثمل وإهمال وإحساس بحلم مرهف.

أحس أورشانو كل ذلك بلا تفكير فزادت سعادته المضطربة لحظة الوصول بينما كانت بيري ترسو.

تبع الجنود والمجندون عريفاً كان ينتظرهم وناداهم واحداً بعد الآخر بحسب قائمة سلّمت له.

ثم أخذت المفرزة تصعد السلالم والمرتفعات الحارة، محاذية بساتين مغبرة حيث كانت ترتفع أصوات زيز الحصاد الكبيرة.

تبع صامتاً رفاقه الصاخبين، وقد فتنت عيناه بالأنوار المتعاقبة مع ظلال شفافة وألوان فاقعة وبراقة في الذهاب والإياب حركتها العامة الإسبانية بفظاظتها.

ولاستقبال أورشانو الذي أحبها دون أن يعرفها، والتي كان يرغب فيها، كانت أرض إفريقيا في ذلك اليوم رائعة ومبتسمة بأبّهة.

***

كانت هناك حقول محصودة بلون ذهبي باهت في الصفاء اللامحدود للهواء وكروم يغني فيها قاطفو العنب المغاربة، وتلال حمراء بقعت بأشجار زيتون بارزة... خصوبة كبيرة للأرض تحت مداعبة الشمس المحتدمة...

توالت المحطات الصغيرة، وكان القطار الصغير يمضي ببطء، كما لو أنه في نزهة.

وكانت المقصورات الخشبية الضيقة مملوءة بالجنود الذين كانوا يغنون ويضحكون.

وكان مجندو الفيلق الأكثر صخباً والأكثر تطلعاً للغد ربما جالسين مجتمعين.

وكانوا في أغلبهم شباناً ألزاسيين أو ألماناً عصاة أو فارين من الجندية أو بدّلوا الخدمة العسكرية في بلدانهم الأصلية بالخدمة في بلد أكثر بعداً.

اشترى البلجيكي جرائد وأخذ يقرأ. وكان الشاب الأشقر الطويل يتأمل المناظر بشرود، وكان يحتفظ بهدوء أعصاب محتقر تقريباً وينعزل عن الرفاق باستثناء البلجيكي الذي كان يحدثه أحياناً بجمل قصيرة وساخرة وبلكنة غير معروفة.

وفي المقصورة سأل أحد الألزاسيين أورشانو عن المكان الذي قدم منه فرد بأنه روسي وقد نسي ما أعلنه في مكتب التجنيد.

وهكذا استدار الشاب الطويل اتجاهه وتفحصه بعناية. توقع أورشانو أن يكون ابن بلده غير أنهما لم يتبادلا أية كلمة.

وكان أورشانو خاضعاً لإفريقيا المجهولة تلك. ولم يشعر بأية حاجة للكلام والاختلاط بالآخرين...

وكان منظر جزائر المستعمرين الباسمة أيضاً يمر في ضوء الصباح الأزرق.

بيريغو قرية إسبانية صغيرة غارقة في الخضرة الوفيرة بصفوف الأوكاليبتوس والفلفل الممتلئة بالظل والرطوبة...

وفي قمة منحدر جبلي واد مغلق يشكل بحيرة صافية عند سفح تلال مرتفعة نبتت فيها أشجار الصنوبر البحرية والعفصيات العطرة.

وأبعد من ذلك يمتدّ السهل والكثير من الحقول والكروم الكبيرة ذات الأوراق التي احمرت بفعل الشمس...

بعد قرية تريس فيل، تغير كل شيء فجأة.

فلا زرع ولا مزارع. وحده السهب اللامحدود الأجرد والبري مع اللمسات التي لا تحصى لمجموعات النخيل القصير وأحياناً اللمسة البيضاء لقطيع خراف يحرسه رعاة عرب صغار كانوا يعدون لرؤية مرور القطار مطلقين صرخات فرح.

كم كان ذلك السهب الفظ والمشتعل يشبه السهب عند الحدود حيث تقوم بيشال الحزينة، وحيث تعلم أورشانو أن يحلم ويحب حياة التسكع!

وفي الأفق ظلل ضباب حارّ الجبال البعيدة وبدت الهضبة بلا نهاية من منطقة في السماء إلى منطقة أخرى.

أظهر السهب البور الحارق، والخاضع للأبدية، والمهيمن عليه بالضوء الوحيد الذي يسكنه وينيره، لأورشانو الخبير والمتحمس سحرَه القاتل وفتنته في لحظة الوصول الأولى.

وهكذا احتقر أورشانو مناظر التل الماثلة والباسمة ليحب السهب الذي كان يراه جميلاً وهادئاً على الرغم من التهديد المشوش الغامض جداً الذي كان يحلق في الأماكن الباردة البعيدة...

وفي نازيريغ تلال تغطيها العفصيات والعرعر وأجمات كثيفة تحيط بخط سكة الحديد مع زقزقة العصافير وصرير أزيز الحصاد...

وفي آخر النهار بدت «سعيدة» الحزينة في منظرها الحجري الثابت.

ولما كان المجندون يميلون بفضول على الأبواب ليروا مكان المنفى، قال الشاب الأشقر الطويل بابتسامته الساخرة بحزن متوجهاً بحديثه إلى البلجيكي:

ـ هنا تنتهي الأحلام اللازوردية... هذا هو الملجأ حيث يعود المرء على نحو مميت مكرهاً، وعلى الرغم من كل شيء عندما يحضر مرة... ماذا يهم؟ فالمرء يعيش فيه.

نظر أورشانو إلى سعيدة.

كل شيء كان أحمر هناك في نهاية الفصل، الأرض والتلال، متوجة بالصخور المشقوقة، والحصون والمنازل ذات السقوف القرميدية والشوارع...

ملاحظة

هنا تنتهي الصيغة التي نشرت على حلقات في الأخبار أثناء حياة إيزابيل إبرهارت.

وفي الجزء الثالث الذي سيلي والذي ظهر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من سنة ١٩٠٤ بعد وفاة الكاتبة، استخدم فيكتور باريكون نهاية مخطوطة الصيغة الأولى للمتشرد التي كتبت سنة ١٩٠٢، فأجرى فيها بعض الحذف والتصحيحات، وأعاد كتابة مقطعين كاملين. نعيد نشر النص بحسب المخطوطة. (انظر الملاحظة النهائية).

القسم الثالث

الفصل الأول

اصطفت «الخيم» المخروطية البيضاء لمعسكر الفرقة الثانية والعشرين على الأرض الممهدة.

وإلى الشرق، كانت ثكنة الفيلق، والأسوار الطويلة الحزينة المسقوفة بالقرميد الأحمر، والمعسكرات، وجذوع الأشجار المسودة العارية في الساحة.

انتعش الجو عند الاقتراب من سعيدة، وهبت رياح عاصفة كنست الوادي. واجه المجندون فصل الشتاء وكان شتاء غريباً يذكر بفصول الخريف في بلدانهم.

كانت الجبال مكسوة بالثلوج، وشكل ذلك تبايناً مع الأوراق الدائمة لأشجار الزيتون الكبيرة والمتشابكة وأشجار الأوكاليبتوس النحيلة...

سيق المجندون بعنف عند وصولهم، وجُرّروا من مكتب إلى مكتب، وأُلبسوا في النهاية كيفما اتفق.

أحس أورشانو ضيقاً بذلك السروال الأحمر الجديد والمعطف الذي كان يضرب ساقيه فبدا له ذلك مثل تنكر. وعندما تبادل النظر هو وبيران أخذا يضحكان مثل طفلين.

ـ ينبغي التعود. الجميع يشعر بأنه غريب في الأيام الأولى. ثم أنا أعرف المهنة كما تعلم، وسأعلمك ما لا تستطيع القيام به.

كان بيران قد أمضى هناك سنوات خدمته العسكرية الثلاث وأمتعه ذلك على الرغم من كل شيء.

وما كان يصيبه بالملل كان النوم في خيمة في جو بارد أضحى قارساً. وعند المساء تهز رياح الجبل بغضب «الخيم» الصغيرة المسكينة.

بعد العشاء، وعند الساعة الخامسة، كان المجندون منهكين من دون أن يعملوا، ورؤوسهم فارغة. وغداً سيقدمون إلى العقيد، وبعدها سيُشرع في تدريبهم.

قال بيران:

ـ أفكّر في طلب التسجيل في مفرزة الطلاب العرفاء، ذلك أصعب ولكن لدينا على الأقل فرص النجاح.

ـ هل جدول الأعمال أكثر امتلاءً؟

ـ أجل، بطبيعة الحال.

ـ إذن، لا أحب أن ألتحق بها، فلنرتح في البداية، ولنأخذ بعض الوقت لمعرفة الناس الذين نحن مجبرون على العيش معهم، وفيما بعد سيكون لدينا الوقت دوماً.

كان أورشانو وبيران جالسين أمام «خيمتهما» ينظران إلى المعسكر الخالي تقريباً في لحظة الحرية المنتظرة بنفاد صبر طيلة النهار.

فكر أورشانو أنها ستكون لحظته، خلال تلك السنوات الخمس التي بدأت في ذلك اليوم.

سيعيش لنفسه من الساعة الخامسة إلى الساعة التاسعة، وسيتسكع في المدينة، وفي البادية بحسب اشتهائه حراً بأن يفكر ويحلم، وإذا ما أضحت الحياة العسكرية مضنية ذات يوم سيكون له ذلك العزاء، تلك الساعات الأربع اليومية التي ستكون ملكه، والتي لا ينازعه فيها أحد.

دنا جندي منهما. كان أشقر طويل القامة عيناه رماديتان بلون الحديد وذكيتان. طلب ناراً وأشعل غليونه الألماني الطويل وجلس قرب أورشانو وبيران:

ـ من أين أنتما؟

ـ أنا سويسري والرفيق روسي، وأنت؟

ـ أنا بلغاري، أنا من خيمتكما لأجل هذا سألتكما.

ومنذ ذلك الحين توجه بالحديث إلى أورشانو مباشرة باللغة الروسية وبلكنة مكسرة، إذ قال:

ـ أنا طالب سابق، كنت في كييف من أجل دراسة الحقوق، ثم ألفيت نفسي وسط الاضطرابات ففررت بعد أن ذقت البؤس، لأجد نفسي ها هنا. . . آه، الحياة

مروّعة بسبب الأفظاظ الذين يحيطون بنا، لا يوجد أي تضامن بين رجال الفيلق، فكل واحد مسؤول عن نفسه والشيطان للجميع.

ـ على المرء أن ينعزل بنفسه.

ـ لو على الأقل كانت هناك إمكانية القراءة، لكن من دون كتب ومن دون مجتمع متعلم كيف يمكن للمرء أن يعيش؟

ـ تركتُ بمحض إرادتي حياة الطالب لأجعل نفسي عاملاً ومتشرداً. ما دفعني لأتجند هو بؤس فصل الشتاء والرغبة في القدوم إلى إفريقيا. خلال سنتين كنت حراً تماماً ولم أفتح أي كتاب، ولم يدفعني الفضول إلى إلقاء نظرة على صحيفة.

ـ لا أفهمك.

ـ ما فائدة القراءة؟ بل ما فائدة التفكير. هناك متع أخرى أفضل وأكثر حدة.

ـ ما هي إذن؟ هل هناك ما هو أجمل من متع الروح الهادئة وتهذيب النفس ليكون المرء قادراً على النضال المتوجب علينا نحن المتعلمين؟

ـ النضال؟ لمَ ذلك؟ يبدو لي من قبيل الأنانية البورجوازية أن يقال للناس، تدبروا أموركم بمفردكم. كلا، إنه الرأي الوحيد الذي يمكنه أن يقدمه لهم فوضوي حقيقي. بأي حق يراد الدوس عل حرية الرجال؟

ـ يتعين إيقاظ النائمين.

ـ من ينام لا يعاني، وإذا كان يحلم فهو يعاني دوماً أقل ممن يبقى مستيقظاً. كلا، ينبغي الانتشاء من منابع أخرى، والبحث عن السعادة في كل مكان، في اللذة والألم لأنها هناك أيضاً.

ـ وكيف بحثت عنها أنت؟

ـ أخبرتك بأني كنت طالب طب. كنت خطيب المرأة الأكثر وعياً والأكثر جمالاً. . . وذات يوم تخليت عن كل شيء، رحلت بمنجل على كتفي من أجل العمل في الطريق الكبيرة، وفي الحقول وفي أرصفة مرسيليا كحمّال.

قال البلغاري من دون سخرية وبابتسامة حزينة:

ـ كم أنت شغوف! أعرف جيداً الدم الروسي، ذلك الدم المحتدم والمرضي في الآن عينه، والذي يتدفق بسرعة والذي يحرق القلوب ويجعلها تخفق بعبء دائم.

قال أورشانو بخشونة:

ـ هذا غير صحيح.

ـ كيف هذا غير صحيح؟

ـ كلا، ذلك غير صحيح! لو كنت رجل عقل، ولو لم يغل الدم السلافي في عروقك، ولو لم يرتدّ إلى عقلك، لما كنت هنا.

نظر البلغاري إليه وقد امتقع وجهه قليلاً:

ـ ومع ذلك، صحيح ما قلته الآن!

أطبق الصمت. لمَ فتح أورشانو تقريباً، وهو الصامت جداً عادة مع الغرباء، روحه فجأة لذلك الغريب الذي ألفى لديه كل الميول وكل الأفكار التي فر منها في السابق؟ لم يعرف. غير أنه لما فكر جيداً ابتسم. يا لها من صبيانية حزينة! فسماع تلك الأغنية المكرورة باللغة الروسية لأول مرة منذ رحيله منحه عاطفة فظيعةً عنيفة. جعل ذلك أعصابه ترتعش فجأة.

قام وراح يتجول وحيداً في المعسكر ليهدأ، ومرت بروحه فكرة أنه كان في منجم وهو مجبر على استغلاله لخمس سنوات. وستكون ملكه كل الثروات التي سيعرف استخراجها منه. ينبغي إذن استخراجها جميعاً ونبش المنجم. فبالنسبة له ليس هناك منجم من دون كنوز مخفية. سيكون عمل الاستخراج شاقاً لكن لا ينبغي أن يمل.

رجّ أورشانو نفسه وألفى جسارته الجميلة. كم كان الناس بلداء وعمياناً! كانوا جميعاً، عن وعي أم من دونه، يطاردون السعادة مثل الذكور المتوحشة في سعيها عدواً في الغابة وراء الإناث الخجولة. وكانوا جميعهم تقريباً يفتقدونها عندما كانت تحت أقدامهم وتحت رحمتهم. كلهم كانوا عبيداً للناس وللأشياء، ويتركون أنفسهم يؤخذون ويراقبون من قِبلهم، بينما كان يتعين عليهم ألا يتركوا أنفسهم ينساقون في سقوطهم الحتمي حيث يتحطمون.

أحس أورشانو بكبرياء ينفخ صدره، فقد أحب فيرا وكانت له بفضلها أوقات ساحرة، ولكن عندما أدرك أنها ستحطمه كانت لديه الشجاعة بأن يرحل...

كان ذلك في بداية انعتاقه الأولى، وفي تلك اللحظة اعتقد أنه سيد الأشياء. كان جندياً مفقوداً وسط الحشد... جعلته يد حديدية غير شخصية وعظيمة ينحني ولا يفكر، ولن يكون بمقدوره المضي في الطريق على غير هدى، غير أنه سيستمتع بكل ما سيكون في طريقه.

استدار أورشانو عائداً إلى خيمته.

صاح بفرح:

ـ بيران، ألا تشعر بالبرد؟ بدأت الريح تجلد وجهك مثل ضربات سوط!

ـ آه! ليس الجو حاراً في هذا البلد اللعين!

كان بيران جاداً ويفكر في المستقبل هو أيضاً لكن على نحو مختلف، وقد وجد أن تلك السنوات الخمس كانت طويلة جداً ليمضيها.

ابتسم أورشانو، فقد كان يعرف بيران الذي يبدأ دوماً بشتم كل الأماكن التي لا يعرفها ويذمّها، ثم يعتاد عليها جميعاً بواقعيته الكبيرة...

دنا صبي هزيل مريض بالعقدة الدرنية، أمرد، ومقدمة قبعته موجهة إلى السماء، وكان يضع يديه في جيبيه، فقال:

ـ ألم يعد لديكما خبز لتحضرا إلى هنا؟ آه، كم ستسعد بكما بندقية القرد القذر، والطفيليون والبربر الأشداء مثل ضلوع جدتي!

أراد كما يبدو أن يثير إعجاب «الغشيمين» بلكنته كسوقي باريسي والاستمتاع بجهلهما بمصطلحات الجيش في إفريقيا.

لم يبال بيران، ورد أورشانو فجأة وهو ينظر إلى الدخيل مباشرة في وجهه:

ـ لا شك أنه ليس هناك ما يؤكل في بيتك حتى تكون بهذه الهيئة السيّئة! أما بخصوصنا فإذا أردت أن ترى ما كنا نأكل فاقترب. وإذا ما حضرت إلى هنا لتفتخر فقد أخطأت. أنت غشيم مثل الآخرين.

ـ أنا غشيم؟

وافق أحدهم وكان قد اقترب من مكان الشجار، إذ قال:

ـ أجل هذا الضخم محق. إذا لم تكن غشيماً لمَ أنت في مكبّ النفايات هذا إذن؟

رحل الخبيث أمام ذلك المنطق الحاسم بعد أن قدّر الكتفين العريضين لأورشانو.

ابتسم ديمتري، فإلى تشرّده عندما كان طفلاً وسط البورلاكي كانت تعود ميزة أن يكون من العامة وسط الشعب.

قال بيران الذي كان يكره الخصام والشجارات غير المجدية مع أنه كان قوياً جداً وشجاعاً جداً:

ـ إذن، إذا ما بدأ الأمر بالشجارات فسيكون ذلك واضحاً، زد على ذلك أنه يبدو لي أن هناك تجمعاً قاسياً لأناس سيئين. ينبغي الحذر ! تعلم أن المرء في الخدمة العسكرية مسؤول عن أشيائه. . . إنها النصيحة التي تقدم عندما ينقص شيء، وإذن ينبغي الحذر حتى لا يُسرق منا شيء هنا. هذا ليس لوماً، ولكننا قمنا بحماقة كبرى بتجنّدنا.

ـ سُكب الشراب وينبغي شربه.

ـ آه بطبيعة الحال. اللعنة! فهنا ليس مون دو بيتي. هناك مكتب التجنيد، لكن ليس هناك من إعفاء أبداً. . .

جعلهم ذلك يضحكون.

كان أورشانو يعلم أن بيران لا ييأس أبداً ولا يعترض.

صحيح أن فكرة التجنيد أتت من ديمتري، وأنه قام بذلك نتيجة نزوة، بل إن أورشانو لام نفسه أنه بالغ في إخبار رفيقه بمخاطر وضعهما هناك في السافوا. كان ذلك فظيعاً لكنهما كانا سيتجاوزانه. نام في الخيمة الباردة التي هزتها الرياح بقوة، وفكر أن ذلك حدث نتيجة إحدى لحظات شغفه الكثيرة التي كانت تلقيه إلى بعض النساء بعينين مغمضتين. أضحى عاشقاً لإفريقيا التي فكر أن عليها أن تكون طيّعة على الأقل، وأن تمنح نفسها تماماً.

وفي الصباح، وفي المنظر البارد الفارغ لقاعة التشريف في الثكنة، ثم تقديم المجندين الجدد للعقيد الذي كان طويل القامة رقيق العظم وأشيب بعينين زرقاوين ثاقبتين جداً وباردتين جداً وبدا متعباً.

ـ ما اسمك؟

ـ بيران أنطون سيدي العقيد.

ـ من أين أتيت؟

ـ من جنيف بسويسرا.

ـ ماذا كنت تعمل في الحياة المدنية؟

ـ كنت عاملاً في الريف سيدي العقيد.

ـ لماذا تجندت؟

ـ من أجل خدمة فرنسا سيدي العقيد.

صدرت عن الضابط نظرة متفاجئة مشوشة وهو يسمع صوت بيران يرتعش تأثراً. مرّ إلى أورشانو الذي كان متأكداً من سبب تجنده، ولم يشأ أن يكذب.

ـ ليس هناك عمل سيدي العقيد. عانيت الجوع والبرد في سافوا.

قال أورشانو إنه كان عاملاً هو أيضاً.

نظر إليه العقيد بانتباه كبير.

ـ تشير أوراقك إلى أنك كنت طالب طب، لمَ تخليت عن تلك المهنة؟

ـ بإرادتي سيدي العقيد.

ـ أجل، ذلك شأنك في النهاية، هنا بالنظام وبالسلوك الجيد، وبالانضباط على الخصوص، يمكنك أن تشق طريقك. أنا عديم الشفقة في ما يخص السكر، تذكروا هذا جيداً. تفرقوا.

أصر بيران على القول عند الخروج:

ـ قلت من أجل خدمة فرنسا، لأن الأمر يؤثر دوماً في نفسي عندما أجبر على القول إني من سويسرا.

الفصل الثاني

في ذلك المساء، وبعد العشاء، كان خروجهم الأول إلى المدينة.

عبرا البوابة الكبيرة تحت النظرة القاسية لرقيب المداومة. تبعا الطريق المعاكسة لمجرى النهر تحت أشجار الدلب العارية، ومرا تحت باب تياري أمام المستشفى العسكري الكامد والحزين في احمرار المساء.

وكانت الشوارع المستقيمة محفوفة بالمنازل الأوروبية والدكاكين، والمتنزهات المزروعة بأشجار الدلب والفلفل.

قال بيران:

ـ هذا يشبه مدن الجنوب الصغيرة.

غير أن ما شد انتباههما على الخصوص كان الحشد المبرقع حيث تختلط ثياب رجال الفيلق وصيادي إفريقيا والإسبان الذين ينثرون اللون المحايد والكابي لأوروبا، وفي كل مكان كان العرب ببرانس ترابية أو بيضاء وعمائم بشرائط صفراء.

وكانت هناك بعض النساء المرتديات حايكاتهن الصوفية يتجولن مسرعات كما لو أنهن فارّات.

وكان هناك همس كبير للحياة يصعد من الشوارع الصغيرة. وكلما اقترب رجلا الفيلق من حي الأهالي ارتفع الهمس.

وكان المزابيط يجلسون في محلاتهم المفتوحة بوجوههم المسترخية المؤطرة بلحى سوداء واضعين غناديز قصيرة وسط البضائع الغريبة حيث الخزف الطيني الأخضر والأصفر، وقفاف وحصائر من الدوم وعناقيد من الفلفل الأحمر المجفف والتي كانت تشبه عناقيد من المرجان. وتلمسانيون بسترات وقبعات سوداء زينت بأقمشة ملصقة ذات ألوان زاهية، وزنوج يكنسون الشوارع دافعين أمامهم حميرهم الصغيرة، وحمّالون متعرقون يعدون بحملهم وسط الجموع.

وأمام المقاهي المغربية، وعلى الكراسي والحصائر، كان بعض الأهالي يلعبون مميلين وجوهاً جافة ودقيقة بينما كان آخرون يتذوقون سعادة سكون القطط.

وأمام الخمارات كان الجنود يتزاحمون مشكلين مجموعات مختلفة بحسب سلاحهم. وكانت تُسمع طقطقة دائمة للسيوف والخناجر والمهاميز. وحل الليل الشتائي على تلك الموجة متعددة الألوان مغرقاً الناس والأشياء في موجة حمراء، أخذت تبهت ببطء محترقة على قمم الجبال الثلجية لتذوب في الشفافية البنفسجية للشوارع الصغيرة.

وبعد أرض فارغة شبه جرداء، حيث خرجت من الأرض نباتات دقيقة وسط الحشفات الذهبية، متاهة غريبة من البيوت الحقيرة المطلية بالجير وحصائر ومقاعد خشبية بارزة جلس عليها الجنود والنساء.

وكان بمثابة اكتشاف رؤية النساء السائرات إلى المواخير الإفريقية، وكل الأنواع الأهلية وكل الأزياء وكل الزينات!...

كانت هناك بربريات بشاشيات مسننة يرتدين أثواباً حريرية زاهية، وزنجيات ذوات بشرة معتمة بلباسهن الفاقع الألوان، وبدويات بوجوه هادئة وموشومة كتماثيل برونزية وبنظرات ثقيلة، وبنات الجنوب، وعلى الخصوص بنات الهضاب العليا وجبل عمور بتنانير ذهبية عالية فوق رؤوسهن أو ضفائر شعر أسود أو صوف أحمر، وتيجان فضية مع زينة مرجانية وأكاليل من ريش النعام.

وكانت بنات الصحراء أكثرهن حملاً للحلي، فكن متألقات بالانعكاسات المعدنية على ملاحفهن الحريرية أو الصوفية الرقيقة ذات الألوان الرائعة المجموعة بفن بري. ملاحف تائهة منها البنفسجية ومنها ذات الشرائط الخضراء الواسعة والحمراء والصفراء والخضراء والبرتقالية والوردية والسوداء والبيضاء المطرزة بأزهار ملونة مثل فراشة زاهية.

وكن مزيّنات بسلاسل فضية تسقط من شعورهن وبأقراط آذان كبيرة وقطع ذهبية وزينة من المرجان أو أكاليل متيبسة عطرة أعلى طوق العنق وبالأحزمة الصلبة، والدمالج الفضية الرقيقة أو الواسعة ذات السدادات المربوطة على المعاصم. وفي كواحلهن دمالج فضية مخرمة. وكانت هناك جميلات ومنفرات، شابات بأجساد مشدودة وعطرة وعجائز ذابلات. وكان بعضهن يثرثرن وهن يشربن القهوة أو الأبسنت وأخريات يحتفظن مدخنات بمظاهرهن الخشنة وأحلامهن الكئيبة.

وكان بعض الجنود والعرب يعزفون ألحاناً بحزن غير محدود على الغيبري(١) المصنوع من قوقعة السلحفاة أو على الجواق القصبي البدوي... وفي مكان ما غيطة تنوح نواحاً وحشياً وحزيناً في يأس مجهول.

وتغني أصوات الرجال مقاطع شعبية جنوبية حزينة حيث تعود اللازمة الممدودة الداني دان المتجددة دوماً والمختلفة في نطقها ولحنها.

وتضاء المصابيح في غرف صغيرة ناصعة البياض وعارية حيث يمنح سرير بائس مغطى بالقطن المصبوغ، أو زرابي بدوية سميكة مُدّت أرضاً جوار صندوق أخضر عتيق.

وتحلّق في الجوار رائحة قوية صادرة عن مزيج من ماء الورد والعرق والأبسنت والتبغ.

ولما أُطلق الجنود وسط عرض الأجساد النسائية ذاك صرخوا بنزواتهم المحتدمة ورغبتهم في السعادة والراحة والنسيان...

وصعد صوت منتحب مبحوح ومتقطع من ساحة عمّت فيها الظلمة. كان بعض البدو ينيخون جمالهم.

وبينما كان أورشانو يشمل من كل ذلك المجهول الذي كان يرى روعته الجديدة،

---

(١) لعلها تقصد الغمبري، آلة موسيقية شعبية بوترين. المترجم.

وعلى الرغم من الشحوب والبؤس المحيط، كان بيران يتجول بذراعيه المهتزتين وقد أخذه الذهول.

قال أورشانو وهو يجلس على حصير ليرى في هدوء مكاناً فتنه:

ـ فلنتوقف، ولنشرب قهوة مغربية.

تردد بيران ثم جلس بطريقة رعناء على مقعد قرب جندي فسح له مكاناً.

وكان بيران قد قال: «سلام على الجيمع» فلم يردّ التحية إلا الجندي والنساء. وتمدد أورشانو على الحصير.

كان يحمل دماً مسلماً من جهة أمه التي كان أجدادها من التتار، وخضع لدفق كل تلك الردة الوراثية غير المحسوسة.

كان يشعر بالراحة هناك في تلك الوضعية غير المبالية، والتي غالباً ما أخذته على حافة الطرقات.

لم يشعر بأي اضطراب من رؤيته الهادئة لأولئك الرجال المنتمين إلى عالم آخر والمتفاجئين برؤية رجال الفيالق والروميين هؤلاء يجلسون بأخوّة بينهم وهم الذين كانوا يعلمون أنهم مكروهون ومحتقرون، والذين كانوا يردون على تعابير وجوههم بازدراء مطلق وغير مبالين بكل ما أدخله الروميون من أشياء جديدة إلى بلدهم وفي صمت آفاقهم الرحبة.

فكر ديمتري، وقد اجتاحته مجدداً الرغبة في أن يعيش الحياة الشعبية حيثما توجه قائلاً: «عليّ أن أتعلم لغتهم.»

ولما كان هو وبيران من دون مال ما كان لهما أن يفكرا في الحب اليسير المعروض تحت ناظريهما، زد على ذلك أن بيران لم يكن منجذباً لكل ذلك المجهول الذي كان يخيفه. فقد بدت له أولئك النساء اللواتي كن يحتككن به، واللواتي كن مع ذلك يكلّمنه باللغة الفرنسية بلكنة مكسرة، كأشباح. وكان يرمقهن بنظرة خاطفة دون أن يرد عليهن، وهكذا عنّفنه بجمل ألمانية معتقدات أنه لم يكن يفهم... ولما ألحت عليه شابة طويلة في غندورة بزهر الصيادين كانت تجلس جواره، رد بتجهم:

ـ لا فائدة من اجترار التبن... نحن نفهم الفرنسية، وبالتالي ما تريدين.

أحس أورشانو المستمتع بأنه سيعود إلى ذلك المكان تارة من أجل أحلام لذيذة، وتارة أخرى من أجل إشباع سعار الحب الطارئ، فتحدث إليهن بهدوء، وسألهن عن

أسمائهن، وأنصت لضحكاتهن وطريقة حديثهن الغريبة التي تمتزج بتنفس مبحوح أكثر مما يفعل الروس، ما إن كن يتحدثن العربية في ما بينهن.

امتدحنه ووجدنه وسيماً، فوعد بالعودة عندما يتوفر لديه المال.

أحس بيران بالملل غير أنه لما رأى رفيقه سعيداً ولا يتحرك لم يرد إزعاجه، فهذا الروسي اللعين كان مرتاحاً من فوره في كل مكان!

ثم قام بيران مع ذلك، وقال وهو يشير إلى حانة يهودي في أقصى الشارع:

ـ ألن تأتي لتشرب كأساً؟

ـ كلا، لا بأس بهذا المكان، أنت تعلم كيف هي طبيعتي، إذهب... سنلتقي في ما بعد.

كان أورشانو ممتناً لبيران بأدبه الفطري، ذلك أن القروي لم يسع أبداً أن يفرض ذوقه عليه وأن يتصدى لحاجته المباغتة إلى الوحدة أو الصمت أو التسكع، وبتعقل ومن دون ضغينة راح يبحث عن لذاذات متاحة أكثر تاركاً أورشانو يتدبر أمره مثلما قال.

وبقي ديمتري هناك حتى قُرع جرس الليل، صامتاً، ممدداً على الحصير، من دون التسرع في ولوج ذلك العالم الجديد الذي كان يعيش فيه سعيداً منذ اللحظة الأولى.

الفصل الثالث

على المقاعد في محل ضيق كان يجلس بعض الزبائن النادرين من الأهالي. وأمام الوجاق، الفرن الرخامي الأزرق والأبيض الذي كان على شكل باب مغربي وفي جانبه وعلى درجاته، كان التبقيع البسيط واللذيذ للكؤوس الصغيرة والنحاس المصقول للصينيات والركوات. وكان القهوجي، وهو مغربي أسمر بقامة طويلة، يعدّ القهوة بحركات مطمئنة وبطيئة. كان يرتدي قميصاً طويلاً من الكتان الشتوي، ولف عمامة بيضاء صغيرة على رأسه الحليق وحول شاشيته شديدة الحمرة.

وفي إحدى الزوايا كان أورشانو مقرفصاً على حصير قرب جنودي شاب بعينين سوداوين واسعتين مهدهدتين وبشارب أسمر قصير فوق الشفتين الغليظتين والمزمومتين. وعندما كان يبتسم كان وجهه يعود ليصبح طفولياً ورقيقاً جداً. وكانت

السترة والحزام الأحمر على الصدرية الزرقاء يأخذان شكل قامته الرقيقة وبرنسه القرمزي (. . .)[1] ليتمنى.

وكان أورشانو يدوّن على مذكرة صغيرة كلمات عربية بحروف روسية بإملاء من الجندي.

كان قد اكتشف ذلك المتعلم المتطوع الذي كان يتحدث اللغة الفرنسية جيداً، والذي بدا سعيداً بتعليم ذلك الرومي لغته. وعندما أعلمه أورشانو بأن أجداده من أمه مسلمون اصطبغ تفاجؤه بالود. كان يدعى محمداً وكان ابن معلّم قرآن فقير، درس بعض الشيء اللغة العربية.

قال لأورشانو:

ـ غداً ستتناول عشاءك معنا.

ـ أنت متزوج إذن؟

ـ كلا، لكن لديّ امرأة في قرية الزنوج ستطبخ الكسكس. هل أنت متأكد من أنك ستأتي؟

ـ بطبيعة الحال، تعال لاصطحابي من الثكنة الساعة الخامسة.

ـ ليس لدي أصدقاء لأني فخور جداً، إذا لم ترد أن يسخر الآخرون منك عليك أن تصمت وأن تكون ذكياً. أنت محتاج إلى أحد ما وسأجعلك ترى كل ما تحتاج إليه. . . ستكون بخير معي.

في تلك اللحظة كان محمد يتحدث إلى أورشانو بنبرة أخوية.

***

الساعة الخامسة من اليوم التالي حضر الجندي لاصطحاب صديقه. وارتاب الرفاق بعض الشيء في تلك الصداقة المستهجنة بين جندي المشاة والفارس خصوصاً أنه من الأهالي، غير أن أورشانو استمر في انعزاله عن الآخرين، وقد افتتن بذلك البلد الذي كان يشمله ثملاً فريداً.

اعترف بيران مبتسماً بأنه تعرف إلى إسبانية في الحانة وأنها تجده لطيفاً وهو على

---

(١) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

موعد معها ذلك المساء. وكانت حياة الأهالي المختلفة جداً ماتزال تخيفه لا بل تنفره، وكان دائم الارتياب بأولئك الناس المنتمين إلى عِرق مختلف.

*
* *

وفي كوخ صغير بجدران من الخشب المتداعي طلي بالجير مُدّت زربية بتشجيرات خضراء وصفراء كبيرة أرضاً. وأسندت إلى الجدران وسادات مغطاة بالصوف المصبوغ عوض المقاعد وكتكملة للأثاث وضع على الأرض شمعدان وصندوق كبير مُلطّخ بألوان مختلطة وبعض الفِراء القديمة.

حيّت بربرية في ملحفة بيضاء الرجلين وقبّلت أيديهما. كانت شابة، لكن بوجه تجعد بوشم البدويات، مع الرنين المبهج للدمالج في المعصمين والكاحلين. وكان صوتها البطيء مبحوحاً بعض الشيء وبنبرة مهدهدة.

قال محمد:

ـ سنشرب الأبسنت، وستخدمنا المرأة.

والواقع أنها لم تجلس بقربهما، إذ احتفظت بالدور المستعار الذي تلعبه المرأة المتزوجة واليقظة ممتثلة لنظرات الفارس الجزائري الذي ثبّت نفسه كسيّد.

وعلى الزربية ظهرت الكؤوس وإبريق الفخار الخاص بالماء وقنينة بيرنو.

ـ هل تعلمت الشرب في الخدمة العسكرية؟

ـ أجل... الخدمة العسكرية تفسد الناس... لم أكن أدخن في السابق لكني أقسم الآن أني أشرب الأبسنت وأدخن... ستحضر في ما بعد أخت زهرة...

نظر الفارس الجزائري المتكئ على الوسائد إلى صديقه مبتسماً.

استسلم أورشانو لذلك الجو الدافئ حيث عمّت رائحة مجهولة، وأحس الحرارة تصعد إلى حلقه.

نظرت زهرة الواقفة إليهما.

قالت وهي تضحك:

ـ هل أجلب العشاء يا السي محمد؟

ـ أحضريه.

وبينما كانا يأكلان من صحن واحد، الأكل المبهر والمتبّل بالأعشاب العطرة، طُرق الباب.

كانت عيشة. وكانت سمراء نحيلة بتلك النظرة الثقيلة الشرسة الخاصة بالبدويات والتي لحظها أورشانو وأصابته باضطراب غريب. بدت له جميلة جداً بخمارها الأزرق المعتم والذي ألقت الحلي الفضية عليه ألقاً غريباً. كانت أصغر سناً من زهرة، وكان وجهها الموشوم في الجبهة بنضارة زهرة برية.

جلست في إحدى الزوايا صامتة، واحتفظت بجمود تمثال. كان رأسها مكللاً بتاج فضي مصقول بحبات مرجان متدلية مثل قطرات الدم في شعرها الأسود.

كانت تخفض عينيها حتى من دون أن تنظر إلى ذلك الرومي الذي أحضرتها أختها من أجله.

ولما رأت زهرة المنفتحة القلب كثيراً أن محمداً سكر بعض الشيء اتجهت نحوه بمسكنة شبه زاحفة أرضاً:

ـ أعطني الأبسنت حباً بالله!

وبابتسامة لم تفارقه مددها أرضاً بضربة على رأسها.

قال أورشانو وقد أمسك معصمه:

ـ لمَ تضربها؟

ـ هذا لا شيء... لو أنك ترى كم أضربها عندما يروقني ذلك، عندما أكون غاضباً! ذلك يمتعها... ألا يمتعك ذلك؟

تجرأت برفع رأسها معترفة بذلك خوفاً بأن تضرب.

وهكذا وكأمير حقيقي سكب لها الفارس الجزائري الشراب، وقدم لها سيجارة.

قالت زهرة:

ـ إقتربي يا عيشة، تعالي لتشربي ولا تخجلي.

غير أن الأخرى التي فرّت من دوارها قبل وقت قريب بقيت جامدة.

ـ هي خجلى.

دفع محمد رفيقه بمرفقه.

دارت رأس أورشانو بلذة، فقد كان معجباً بمنظر العربدة الوحشي ذاك. احتقر نفسه في السابق من ميوله إلى ذلك الحب الوحشي الذي عرف نفسه به جيداً، والذي

كان يلقيه عادة في مغامرات يبقى خجلاً منها! استسلم له في تلك اللحظة، هادئاً ومدركاً على الرغم من سكره.

حكى له محمد قصة عيشة. تم تزويجها وكانت بطبع متكبر وثائر، ولم يعرف زوجها كيف يكون سيداً عليها ففرت ملتحقة بأختها.

أعجب أورشانو بالبهجة الوحشية للفارس الجزائري الذي كان يتعارك في تلك اللحظة مع زهرة إذ أخذ يدحرجها بيده أرضاً مثل كرة. وكالعادة، عادته الرغبة في تلك الألعاب التي أصابته بالجنون في ما بعد.

قام ثابتاً على قدميه ومقاوماً للشراب كرجل من الشمال. أمسك عيشة وجعلها تقوم على الرغم من أظفارها التي غرزتها في معصميه كهرّة، وألقاها على الوسادات. وهناك أجبرها بعنف على شرب كأس أبسنت. وتملّكه فجأة عناد وحشي.

تصلبت لتفر منه مديرة وجهها وقد صرفت أسنانها. لكن كان عليها أن تشرب وقد أمسك أورشانو بحلقها، وتألقت عيناه.

ثم انطفأت الشمعة بعد أن دفعها محمد بقدمه فتمايل كل شيء في السكر والظلمة...

الفصل الرابع

تساقط الثلج، وكنست ريح باردة الشوارع الخالية، وعدا أورشانو وقد صحا من سكره على نحو سيّئ حتى لا يفوّت النداء. كان على محمد أن يدفعه إلى الخارج ببرودة دم جندي قديم. ونسي ديمتري كل شيء، ورفض أن يرحل في سعادة احتفاله بالعرس الوحشي.

كان رأسه يدور في تلك اللحظة، وأحرقته الحمى في البرد القارس.

وصل في الوقت المحدد حين كان البوّاق يطلق لحنه الحاد.

قال بيران:

ـ بحق الله، أنت سكران!

ـ أجل أنا سكران... فلتأخذ عاصفة الله مهنة كهذه، بينما يتعيّن على المرء ترك كل شيء والذهاب إلى بيته لينام مثل طفل!

وجمع بيران المحب للنظام الملابس التي كان أورشانو يلقيها كيفما اتفق والتي كانت تحتفظ برائحة غريبة.

كان بيران يعرف رفيقه فأدرك سكرة الحب الطارئ التي تحرقه.

فاجأه دوماً ذلك الاندفاع. كان يحتفظ دوماً ببرودة دمه، وإن كان يحب اللهو. لم يكن يفهم احتدامات رجل السهب البدائي خلف تعليمه كسيد، بينما كانت وراءه وهو العامل الخشن أجيال من القرويين الهادئين والمتعقلين.

قال لما رأى أورشانو يرقد على سريره بعينين محتدمتين:

ـ فقدت عقلك مرة أخرى بسبب امرأة![1]

أضحى الطالب الروسي إذن مثل العامة الذين أحب العيش معهم، بل إنه تجاوزهم، على الأقل أولئك الذين من أوروبا، مقترباً أكثر من وحشية القدامى.

لم يندم أورشانو على شيء، ولم يعد يحتقر نفسه. تردد أحياناً في البداية عند رحيله عن جنيف قلقاً وخائفاً أن يكون إظهار أحاسيسه القاتلة تقريباً من أعراض العصاب. لكن كلا، فقد كانت توافق أشد مراحل حياته تألقاً وأيام الصحة والحيوية. وتحت تأثيرها حصلت ملكاته على حدة جديدة، وكان يعيش باحتدام وقد أضحى محباً للحياة مجدداً، وكان سعيداً! وهادئاً. من جهة أخرى لم تأته أي فكرة بخصوص اللذة غير السليمة والشبق المرضي في احتدامه.

كان كذلك، ومنحه وعي رجولته البسيطة التي تقوّت بأصوله لحظات سعادة عميقة! لماذا تعذب منذ ذلك الوقت بالوساوس والظلال الملتبسة؟

* * *

كان ينصت بتشوش إلى الأحاديث المختلطة حيث الأصوات المرتفعة والمداعبات بلغات مختلفة والشجارات في الخيمة الهزيلة التي تهزها الريح.

أضحى مكانه هناك وسيعلم كيف يتجمع فيه، وكيف يصنع مكاناً له وسط الرفاق ذوي الحيوات المخفية.

---

(١) هنا، تفقد صفحتان من المخطوطة. (ملاحظة الناشرين).

كل أولئك الأقوياء كانوا بمخالب صلبة وجارحة، وكانوا يخفونها في تلك اللحظة، تاركين مؤقتاً شخصياتهم المزعجة مثل ثوب مثير جداً. سيمكنهم ذلك من السير براحة أكثر، والعيش داخلياً بحرية أكثر تحت جور النظام، متخلصين من أثقال المسؤوليات المميتة. في عودته إلى حرارة القطيع، إلى الحياة الحيوانية، أحس شعوراً بالراحة، راحة إزاحة الثقل الملقى هناك، والذي جعل الصدر أكثر حرية.

في الماضي أحب الذهاب إلى العامة، وفي تلك اللحظة عاد إلى الشعب حتى لا يفكر أبداً.

مجاورة مأس قديمة حتى لا يستمر في العذاب أبداً، وإيجاد جوهر شخصية سليمة وقديمة بعد حوادث عدة، واكتشاف نار سرية تحت الرماد، نار الحياة ومعنى خلود الفطرة. . . كان أورشانو يحسّ كل ذلك، وهو نائم في الخيمة مثل دابة سعيدة. كانت نظرته تجول بلذة على سعيدة الحزينة، مأوى القلوب الحزينة.

الفصل الخامس

قال أورشانو الذي أسف على «خيمته» في تلك اللحظة:

ـ سيحل فصل الربيع، وسيجعلوننا نقيم في الثكنة الآن عندما سيكون من الجيد البقاء في الخيمة حيث تركونا نرتعش برداً خلال الشتاء.

أضحى بيران جندياً مثالياً، جاداً ودقيقاً مثلما كان عاملاً جيداً، حتى إنه أحب تلك الحياة وتلك المهنة. أما أورشانو غير المبالي فقد أدرك أنه كان يتعين عليه القيام بما يلزم فقط حتى لا يعاقب أو يُمنح علامة سيئة، فكل حياته كانت في الخارج. وعدا بضعة أيام من الحجر، ومرة في قاعة الشرطة من أجل رد عنيف، كان خاضعاً للنظام من دون ثورة داخلية كبيرة.

وفي الفرقة السادسة كان رقيب الشعبة شميتز الألزاسي سكيراً ذا سلوك خشن، متذمراً في تلك الأوقات، لكنه لطيف مع أولئك الذين يقدمون له الشراب. من جهة أخرى كان يقوم بأشياء مروّعة مع العرفاء المكلفين بالنظام والتموين لسدّ حاجته الدائمة إلى المال من أجل الشرب، ذلك أنه لم تُعرف له عشيقات. كان قصير القامة ونحيفاً بعينين حمراوين ومضطربتين. وكان يبدو قلقاً دوماً، وكان لباسه العسكري لا يناسبه على نحو غريب، فقد كان دوماً قذراً بقدر ما يسمح له رؤساءه.

تعلق أورشانو به، فقدم له ماء الحياة وكان يتحدث إليه بالألمانية.

وما إن استقر بالغرفة حتى رغب في التعرف على رفاقه الجدد، هو من لم يعر أي انتباه رجال الفيالق عندما كان في المستودع القديم. تواجد البلغاري معه وهو ما أصابه بالملل لأن الطالب السابق فرض عليه معالجاته لمواضيع اجتماعية وسياسية. كان ذلك الرجل يحتقر بالفعل الناس الذين كان أورشانو يحب الاختلاط بهم، والبسطاء مثل بيران.

قال بيران:

ـ صديقك البلغاري متغطرس.

ـ أنت تعلم أنه ليس صديقي وأنه يضايقني، ليس لي من صديق آخر إلا أنت ومحمد.

كان بيران قد بدأ يقدّر هذا الأخير، على الرغم من اختلافه معه، وذلك لطبعه الطيب والجسور.

حتى إنه وافق ذات مرة أن يرافق أورشانو عند زهرة من أجل تذوق الكسكس. ووجد عيشة جميلة مع أن البربريات كن يخفنه مثلما قال. وبدت له هذه الأخيرة على الخصوص مقلقة بمظهرها الفظ، والتي لم تكن تضحك أبداً أمام محمد وبيران. ونادراً ما كانت تبتسم كاشفة عن أسنان بيضاء حادة.

وعلى الرغم من الإلحاح الودود لمحمد وممازحات أورشانو لم يرغب بيران أبداً أن تأتي جارة زهرة البربرية إلى بيت هذه الأخيرة.

وكان هناك الكثير من الألمان في الغرفة. كانوا في الغالب فارين من الجندية. وكانوا رجالاً يحاولون بأفضل ما يستطيعون التعايش مع حياتهم الجديدة، ولم تكن لهم متعة أخرى باستثناء ماء الحياة والورق. وكان الألزاسيون واللورينيون العُصاة كلهم تقريباً قد فروا من التجنيد الألماني، ولم يكونوا يتفقون مع (. . .)[1] والألمان. وغالباً ما كانت تندلع الشجارات وتنتهي بالحبس. ثم هناك بعض الإيطاليين ومن ضمنهم ضابط فار من الجندية، الذين يشكلون مجموعة منعزلة، وكانوا صاخبين بفرحهم الجنوبي. وهناك بلجيكيون وسويسريون وآخرون يخفون جنسياتهم الحقيقية.

---

(١) هكذا جاء في الأصل. المترجم.

لحظ أورشانو أن العادة بالفيلق أن لا يروي المرء حكايته وأن يخفيها بكلمات غامضة، وأولئك الذين كانوا يوحون أكثر في الظاهر كانوا يروون حكايات متخيلة.

لم تقرّب مأساة الحياة القاسية المشتركة بين أولئك الرجال. كان كل منهم يسعى أن يصنع لنفسه حُفرة وحيداً وأن يلوذ بها.

وكان كل شخص يحاول أن يتدبّر أمره بقدر ما يستطيع. هو نظام تدبير مثلما يقول رجال الفيلق. فالمرء يتدبر أمره حتى لا يقوم بأي شيء. ويتدبر أمره إزاء الرفاق، والأشياء التي يكون محتاجاً إليها. إذ ما انكسر إبريق الغرفة تدبّرون أمر أبريق آخر من غرفة أخرى. وإذا ما سُرقت أشياء دقيقة أو حتى الملابس والمعدات العسكرية الشخصية، فتلك حالة دائمة على الرغم من الخطر المتساوي بين السارق ومن سُرق له. فكم من فيلقي مر في الدوارة من أجل إضاعة شيء عسكري.

كان الفيلقيون قساة إزاء ألم الغير. ماتت قلوبهم واعتادوا هم أيضاً على المعاناة.

وكان رجال الفيلق كلهم تقريباً جنوداً جيدين على الخصوص في السير بعناء. ومع ذلك فقلة منهم كانوا يحبون المهنة فعلاً. وكانوا كلهم تقريباً يحبون الكسل وألا يبذلوا مجهوداً.

وكان يُفرض عليهم انضباط بقسوة لا شبيه لها. ولم تكن تفرغ المقرات التأديبية فقد كان يُرى كل يوم في الساحة مجموعة شاحبة بعيون رديئة حانقة في البرد وهم يرقصون بحقائبهم الظهرية التي كانت تملأ بالحجارة في بعض الأحيان.

وكان بعض الرقباء المداومين يجدون متعة وحشية في جعل الرجال المعاقبين يقومون بأشد الحركات عناءً. وهكذا كان للرقيب شميتز اختصاص الخطوات الرياضية المستمرة في الصيف، ووضعيات مؤسفة وطويلة في الشتاء.

ومن لم يكن يمتثل كان يمر إلى التأديب أو الدوارة. وكانوا كثيري العدد.

فبعد أن كانوا يرهقون بكل الأمور الصارمة، وبعد أن يهشموا بالرقص المتعب الفظيع وهول السنغال وزنزانات التأديب، كانوا يرسلون إلى وحدة الانضباط، وبالتالي كانوا يضيعون. كانوا يقصدون عين الحجار أو مرس الكبير بل يقصدون أحياناً نوفيل أو كايين. وكان من بينهم من يفتخر بكونه لا يكسر ومتمرد.

وكان أحد البريتانيين الذي كان عريفاً سابقاً بالبحرية، والذي كان يسرف في الشرب على نحو مرعب، يردد كل يوم في الزنزانة:

ـ الشيء المثالي بالنسبة لي أن أهشَّم.

ولم يكن يضيف شروحات إضافية، وذات يوم وتحت ملاحظة لعريف المجموعة، ضُرب بعقب بندقية بقسوة ومن دون سبب.

وعندما كانوا يأخذونه ليضعوه في زنزانة الحبس الاحتياطي، قال:

ـ ترون جيداً أني كنت محقاً عندما قلت إني سأُهشَّم.

وعُلم بعد وقت قصير الحكم عليه بالإعدام مع لامبالاة الفيلقيين بشأن مصير رفاقهم الراحلين سواء المحكوم عليهم أو المحررين.

وكان ديمتري يشعر ببعض الود اتجاه أولئك المتمردين الذين ينتهي أمرهم قبل الأوان، والذين لم يكونوا يريدون مع ذلك طأطأة رؤوسهم. وهكذا تذكر أورلو البروداياغا الذي أحرق قرية نيكوبلاتيموفكا انتقاماً من صاحب حانة. وبكل تأكيد لم يقابل أورشانو لدى الفيلقيين الجانب الملحمي والغامض الذي فتنه عندما كان طفلاً متمرداً في السهوب، لكن بدا له أنه كانت لديه عظمتهم أيضاً.

قال بيران:

ـ إنهم مجانين! ما فائدة أن يتذاكى المرء عندما لا يكون الأقوى؟ لا يفضي ذلك إلى شيء.

أما هو فقد كان يرى أنه يتعين على المرء أن يعيش جيداً حيثما تواجد، وأن من الغباء جداً أن يسعى المرء إلى إرادة كسر رقبته عندما يكون بمقدوره الانحناء بأدب.

ـ آه! إذا ما أردوا أن يجبرونا على القيام بأمر شرير أو اقتراف أشياء سيئة وفعل أمور قبيحة، أجل هناك لدينا الحق في الاحتجاج، لكن ماذا يطلبون منا هنا؟ أن نمتثل ونقوم بالعمل الذي جُنّدنا من أجله. هذا عادل، إذا ما قُبلت للعمل على التبن عليّ أن أجمع التبن حتى النهاية، إنه أمر مشابه.

لم يلم بيران، الذي تردد طويلاً قبل أن يجنّد والذي لم يقم إلا باتباع صديقه، هذا الأخير على العمل الخطير الذي وحّدهما.

كان يقبل الأحداث بقدرية القروي الذي يعلم أن كل كد فصل يمكنه أن يحطم في ساعة واحدة من دون أن يكون ذلك ذنب أحد.

اعتاد أورشانو أيضاً على تلك الحياة، مع ثورات داخلية نادرة جداً عندما كان يصطدم بالإرادة المعاكسة للرؤساء الذين يتحكمون فيه.

وعلى الخصوص الملازم أول كليرك، وهو شخص غليظ ومستفز من سان سيراك. كان يبدو بمظهر رجال المجتمع من الخارج لكنه كان مستبداً من الداخل. كان يغيظه أحياناً بطريقته في القول في كل مناسبة «قصدت أن يكون الأمر مختلفاً. أمرت بالقيام بهذا الأمر.» وكان أورشانو يرغب في أن يصفعه، وكان يكظم بعناء غضباته.

كان يكره الملازم أول كليرك، الذي كان يتمتع بوضع جيد في الفرقة بسبب ضعف رينو النقيب الذي كانت النساء موضع اهتمامه الوحيد، والذي كان يترك كل شيء للملازم أول.

وكان الملازم مورييز شاباً أشقر طويل القامة بعينين رماديتين حيث يخفق حزن أبدي يلطف شعلة الذكاء فيهما، ويحمل أسى وسط أسى رجاله المخفي أيضاً.

وكان المساعد غريغ بغيضاً على الخصوص وكان مدعياً لأنه كان فتى وسيماً، يعامل الرجال بقسوة باردة ويحمل لهم احتقاراً محطماً.

وكان ضحاياه أولئك الذين كان يرى أنهم متعلمون، وكان يحرص على إذلالهم.

غير أنه لم يمسك بأورشانو لأنه لم يكن ينفر حتى من أقصى أنواع العمل وأشدها قبحاً، بل إنه كان يحب الأعمال الوضيعة لحارس الغرفة في حاجته الدائمة للأنشطة الجسدية. وكانت أفضل اللحظات بالثكنة تلك التي يمضيها في مغسل الساحة الصغيرة بين السنغال والمنشر، حيث يغسل ثيابه وأشياءه من نسيج الكتان الغليظ ضارباً إياها في الماء وصدره إلى الريح. وكان رجال الفيلق يغنون. وكانت الأغاني الحزينة باللغات المختلفة تترك لمستها الغريبة العجيبة في ذلك المكان الحزين من الثكنة.

وكان أورشانو يبقى غير مهتم أمام إيحاءات المساعد الساخرة أو يرد بأدب جم بجمل لاذعة لايستطيع المساعد أن يتشبث بها ليعاقبه، والتي كانت تجرحه.

تحول الأمر إلى صراع خفي حيث كان أورشانو يكتفي بالدفاع فقط.

وكان ديمتري قد ارتبط تقريباً بعريف المجموعة فيالار. وكان فيالار الفرنسي عاملاً قروياً سابقاً ويدعي أنه بلجيكي، وكان شاباً متعقلاً بليد الذهن بعض الشيء ويتصف بعدل صارم. وكان بيران صديقه المفضل في الغرفة. وكان فيالار يحمل الميدالية العسكرية ولا يبدو متعجرفاً. وقد أمضى سبع سنوات في الفيلق وسلوك جيد لا يكلّ. وكان مستقيماً صبوراً أمام كل بلاء. ويعمل من أجل تقاعده بتعقل من دون فقدان الصبر.

وكانت المجموعات الأخرى تحسد فيالار بسبب طيبته ورتبته.

وعندما كان الرقيب شميتز يصاب بنوبات غضب مفاجئة، وتجتاحه نزوات السكير، كان العريف هو من يدافع عن رجاله بهدوء، ومن يصلح الأمور مهدئاً من روح الرقيب مقدماً له الشراب، وكان ذلك أفضل علاج...

الفصل السادس

مضت الأيام رتيبة من دون ملل، ذلك أن أورشانو كان يجد كل مساء في المقاهي المغربية أو في منازل القرية السوداء البيضاء نشوة ذلك الشرق الذي كان يستيقظ داخله.

وبعد أربعة أشهر بدأ يحسن التعبير باللغة العربية، ويفهم الأحاديث البطيئة أمام المقاهي المغربية والأغاني الحزينة التي لا تنتهي.

وبدأ العالم العربي الذي كان مغلقاً جداً في الأيام الأولى، والذي بدا أشبه بسحر مشكل من الألوان والعطور، ينفتح شيئاً فشيئاً.

وبقي محمد بدوياً خلف برنسه الأحمر، فحكى لأورشانو قصص الحب في الدوار والملاحم القاتلة التي تشغل حياة الشبان في الروعة الحارقة للريف العربي.

وأصبح مألوفاً في الأوساط الأهلية حيث كان يلقى متعة حصرية. وقُدِّر لوده ولأنه قدم إلى الأهالي بقلب مفتوح كأخ لم ينس أن الدم الإسلامي كان يسري في عروقه.

وكان محمد يقول دوماً، وقد أضحى يحبه كأخ يريد أن يتحطم الحاجز الأخير الذي كان يفصلهما.

ـ من المؤسف أنك رومي!

وكان أورشانو يعترض مبتسماً:

ـ لكني لست رومياً. لا أنتمي إلى أي ديانة، ولو كان لي دين بين كل الأديان الموجودة لكان الإسلام.

والحقيقة أن الإسلام كان كما لو أنه ألقى عليه سحراً حزيناً، إذ كان يمثل الهدوء والسكينة.

وأمام الشقاء والموت كان العربي يبقى هادئاً من دون ثورة وتقريباً من دون

دموع، وقد تأثرت الوراثة القدرية لأورشانو على نحو أخوي دافعة إياه اتجاه أولئك الرجال.

إضافة إلى ذلك، ألم يكن شبيهاً بهم؟ ألم يتخلَّ بمحض إرادته عن النضال، هدف كل الحياة الأوروبية، ليستسلم مثلهم ويمضي بلذة في مجرى الحياة؟

ثم إنهم كانوا بدواً ومتشردين محصنين مع العديد من الملامح الأخرى التي كانت تجعلهم يشبهون الشعب الروسي الذي تركه أورشانو إلى الأبد والذي كان يحبه حباً أليماً وعميقاً.

وكان الشعب العربي مثل الشعب الروسي يبقى مستمراً في الوجود بفضل قوته الكامنة والثابتة تقريباً، ومثله أيضاً كان يعاني في صمت من علاقته بالإرادة المستبدة والطاغية، بنفس الخضوع والاستسلام واستنكار الظلم. والروسي يقول «كان ذلك منذ ولادتي» بينما يكتفي العربي الأكثر اختصاراً بحركة مبهمة تعبّر عن الخضوع قائلاً: مكتوب[1]، هذا مكتوب!

وألفى أورشانو لدى العرب بعض عادات الأرض السلافية المؤثرة من حب الوفادة والكرم والإحسان اتجاه الفقراء.

كانوا حزينين وجاهلين بالدعابة، تلك السعادة المزيفة لدى الغربيين الغريبين جداً لدى أورشانو، ومع ذلك كانت لهم لحظات سعادتهم الخفيفة وضحكهم كأطفال كبار. لكن سرعان ما يعودون إلى جديتهم وينغلقون على ذواتهم مكتفين في أغلب الأحيان بالابتسام.

ثم إنهم كانوا مثل عامة السلافيين اجتماعيين ومناصرين للمساواة من دون ازدراء للفقراء. وكان الأثرياء والمتعلمون يجلسون جنباً إلى جنب مع ذوي الثياب الرثة في أخوّة الإسلام الرحبة، وإذا ما دخل متسول المقهى يُقدَّم له مكان ويتم تبادل السلام معه، السلام نفسه بالنسبة لكل المسلمين.

واستسلم أورشانو لهدوء الحياة العربية الطيّعة وقليلة التعقيد.

وأقنع محمد الذي كان يدخّن الكيف ديمتري بأن يتخلّى عن الشراب من أجل

---

(١) هكذا ذكر في الأصل، الكلمة الأولى باللغة الفرنسية والثانية بالعربية في النص الأصلي. المترجم.

غبار القنب في الغليون الصغير، وعوض سكرة الشراب الصاخبة هناك خدر لطيف وهدوء غير محدود يأتي كلما ازداد صعود دخان الكيف الأصفر في الجو الفاتر.

الفصل السابع

خلف مقهى مغربي، وفي باحة صغيرة طليت بالجير المزرق، وعند قدم كرمة عتيقة ملتوية مستندة إلى شجرة تين متشابكة انعزل بعض العرب.

وكانت حجارة جافة مربعة ومصفوفة مشكلة ما يشبه مقعداً حجرياً دائرياً واسعاً حول بئر ضيقة. وفي الفتحات غير المنتظمة للأسوار كانت أوعية الرياحين وأباريق الفخار المغلقة بأكاليل غُريسة المصطكا. وفي صندوق قديم كانت زهرة ياسمين بيضاء مضلّعة بخطوط وردية باهتة تسقط بتلاتها على الحصائر.

وكان صقر مربوط من قائمته يحلم فوق مجثمه، وعنادِل في أقفاص صغيرة منتشية بنقر حيوان الشيهم.

كان ذلك المكان وكر الكيف غير الشرعي لجنينة الدار المملوكة من قبل الحاج عَدّا، وهو زنجي مغربي متعلم ورصين ومؤدب. كان ذا وجه منتظم الملامح بسواد أبنوسي مؤطر بلحية بيضاء، وكان يبتسم للمعتادين عندما يريد أن يقبل غليوناً صغيراً.

ومنذ الساعة الخامسة كانت الحديقة الصغيرة تبدأ في الامتلاء، وكان يحضر حوالي عشرين شخصاً من حمالين وبدو عابري سبيل وبربر.

ولم يكن هناك شيء تهتكي في تلك الاجتماعات، فقد كانوا يدخنون الكيف، ونادراً ما كانوا يتبادلون الحديث، ثم تعزف الموسيقى العربية، ويغنون.

لم تكن هناك امرأة أبداً، ولم يكن هناك مزاح ماجن أبداً.

*
* *

أدخل محمد أورشانو إلى الجنينة مجيباً عن ذلك الفيلقي الذي نظر إليه بطرف خفي في اليوم الأول، ثم تم الاعتياد عليه وعاملوه كأخ مبتسمين في وجهه عندما يحضر.

كان يتمدد جوار الفارس الجزائري، وينصت ممسكاً غليونه الصغير بيده، وعيناه

شبه مغمضتين، إلى همس العنادل الحبيسة الرقيق، وموسيقى حلم الحشايشية، مدخني الكيف.

وكان محمد يعزف الجواق ناثراً ألحاناً مخنوقة طويلة أحياناً، وبحزن غير محسوس أحياناً أخرى، من قصبته الصغيرة التي انتُزعت من عمق أحد الأودية.

وكان حمو بنحليمة، وهو حمّال بأسمال أوروبية ومنديل قطني أزرق لُفّ حول شاشيته، يعزف القيثارة الإسبانية.

وكان رجل مسن بوجه حليق هادئ وعينين مغمضتين كما لو أنه منتش يجعل كماناً قديماً ينوح، حاملاً إياه على فخذه على الطريقة العربية. وكان آخرون، وهم مجموعة من البدو بوجوه كواسر رقيقة وعيون حمراء أسفل الخمار عند مقدمة عمائمهم ذات الشرائط الصفراء، يحركون قطع لحاء صغيرة على أوتار غبرياتهم التي تميل الرؤوس وتغمض العيون.

وكان الحشايشية المنتشون يغنون.

وكانت الأغاني بدوية حزينة أحياناً، حيث ملاحم الصيد والحب والشجارات، وتراتيل صوفية أحياناً أخرى، حيث البُردة تكريماً للرسول أو أغاني حب شغوف وبائس حيث تنزف القلوب ساكبة دموع فراق ونسيان حارقة، دمعة دمعة.

وكان أورشانو الذي يخرج من شبه خدره يرقب أحياناً في ضوء الشموع المتراقص المجموعات ذات الأجساد المرنة والهرمة، وأوضاع القرفصة والأوضاع الممددة التعبة، حيث تحتفظ وجوه الرجال السمراء بالرصانة الفظة والحدقات الملتمعة فقط عند خفق الجفون الثقيلة.

وكان الكلام قليلاً في الجنينة، ويوزع القهوجي بصمت كؤوس القهوة الصغيرة وكؤوس الشاي المغربي الصغيرة جداً بالنعناع الحار.

الفصل الثامن

كان الليل.

وكانت الغرفة غارقة في الظلام، وتزفر رائحة التعب في لحظة راحة.

كانت الأجساد الغافية ملفوفة في الإزارات الكبيرة. وكان الصمت يقطع أحياناً بأنين أو سعال.

كان أورشانو نائماً ملقياً أغطيته وقد خرجت ذراعاه العاريتان عن السرير. كان قد ألفى النوم من دون أحلام ومن دون كوابيس سنواته الأولى.

وفجأة أيقظه شيء فقفز. وفي الباحة كان البوّاق ينفخ في بوقه مصدراً صوتاً غريباً بطيئاً ومحزناً، وسُمع على ذلك النحو في خدر النوم.

وكان العريف فيالار قد قفز صائحاً:

ـ انهضوا جميعاً! إنذار!

قام الفيلقيون كيفما اتفق شاتمين، وقد استيقظوا على نحو سيّئ.

كان الأمر جديداً بالنسبة لديمتري.

اعتقد أن شراً ما حدث.

ـ هي نزوة أخرى للعقيد، أن يلقي الجميع في الخارج وسط الليل.

وفي المدينة تردد صوت بوق الصيادين، ثم قذيفة مدفع مزقت ظلام وصمت بوسعيدة النائمة.

كان العريف قد أعاد إضاءة المصباح. وكانوا يرتدون ثيابهم مع طقطقة الأسلحة واندعاك الجلد المشدود بقوة.

كان الرجال يسبّون إلا أنهم يسرعون. وعلى السلالم سمع وقع الأحذية العسكرية لفرق أخرى كانت تنزل.

قال الرقيب شميتز الذي دخل شاحباً وقد صحا على نحو سيّئ من سكرة الليلة الماضية:

ـ هيا بحق الله! هل تسخرون منا أيها الفاشلون!

وفي الباحة كانت المصابيح تعدو مثل وهج متحرك، ملقية نوراً أحمر مفاجئاً أسفل الأشجار السوداء وعلى البلاط الرمادي.

تشكلت الوحدات مع فرقعة الحديد ووقع الأحذية الحديدية، وجعلت الأضواء المهتزّة بغضب البنادق تلتمع. ووصل الضباط الذين أعلموا بواسطة ضابط تموين.

كان الملازم أول كليرك يزرر ياقته صارفاً أسنانه مع وميض غضب في عينيه، ذلك أن بلجيكية لذيذة عابرة بقيت في الغرفة التي خلت فجأة هناك في الفندق.

وأخيراً، ظهر العقيد على حصانه الأبيض. كان بارداً ومستقيماً كأنه في استعراض عسكري. وسأل إن كان الجميع مستعداً.

وهكذا ترددت الأوامر من فورها قصيرة وخرجوا ملتفين على الطريق باتجاه الجنوب.

وفي الظلام لم يعد يسمع إلا الأصوات الصاخبة، الضجيج البحري للجنود الذين يمشون مع وقع تصادم الحديد في بعض الأحيان.

* * *

صعدوا المرتفعات الحجرية الوعرة بخطى رياضية وعناء.

همس أحد رجال الفيلق:

ـ نحن نقصد عين حجار!

كانوا يتقدمون مدفوعين بمن يفوقونهم رتبة مع ضغينة في القلب لعبوديتهم وملل كل ذلك الجهد المبذول عبثاً.

وحده أورشانو لم يصب بالملل، فلأول مرة بدت له البادية على ذلك النحو في الصفاء المشوش لليل الربيعي.

وكان الدغل يأخذ مظاهر عجيبة فبدا أنه يتحرك كأطياف سوداء غامضة.

وانفرجت الأودية فبدت من دون قرار وانعزلت في قمم الجبال كأجساد دقيقة في شحوب الأفق المعتم.

وأحياناً، في تألّقات السماء التي لا تحصى كانت نجمة تنعزل كفاكهة ناضجة وتنزلق إلى ما لا نهاية.

وفي صمت الجبل يسمع صوت حياة قوية أخرس، حيث الإخصاب الاستثنائي لفصل الربيع الإفريقي، ومآسي الدغل المجهولة.

وكانت بنات آوى تعوي وهي تعدو في مجموعات على التلال.



وصل رجال الفيلق لاهثين إلى هضبة عين حجار الكبيرة. وهناك، خلف بحر الحلفاء حيث كانت تعوي الرياح الفاترة، امتدّ الأفق واسعاً وفسيحاً وحراً...

أحس أورشانو بارتياح كبير. فلا مزيد من الجبال المنهكة، ولا مزيد من الأسوار التي تحجب السماء.

استنشق بسعادة هواء الهضبة الخفيف. وأضحى حبه للأرض الإفريقية أكثر وعياً وعمقاً. لم يعد يشعر بأنه منفي، ولم يأمل إلا في البقاء هناك في ذلك المكان الوعر إلى الأبد، حتى وإن كان تحت المعطف الأزرق الحقير لرجل الفيلق.

أضيء الأفق ببطء. كان ضوءاً أخضر انتشر راسماً في البعيد التسننات الحادة للجبال التي كانت تميزها عن رتابة ليل أشجار المصطكا والنخيل القصير. وبدت الهضبة في موجة الحلفاء اليابسة مبقعة مثل جلد نمر.

ثم عظُم الضوء، وارتفع في السماء. ولم يعد رجال الفيلق يظهرون مثل موجة دكناء.

ارتعشت ريح خفيفة في العشب الصلب، وداعبت الوجوه التي التصق بها الغبار الأحمر الممزوج بالعرق.

أحسّ ديمتري في تلك اللحظة بسعادة الفجر في البلد المنبسط، الساعة المحبوبة التي يولد فيها الأمل وقوة الحياة مجدداً مع الضوء البهي...

*
* *

وفي بحر الحلفاء حضرت فرقة كئيبة، صامتة. وفي ضوء الصباح الليلكي مر الرجال بسترات زرقاء، وقد اعتمروا قبعات بمقدمات مربعة كبيرة، فوق وجوه حليقة ونحيلة، وعيون غائرة وحزينة، وسط رجال الفيلق بحرابهم في فوّهات البنادق وبين الشواش ضباط الصف التابعين للمحكمة العسكرية بمسدساتهم عند أحزمتهم.

هؤلاء خارجون عن القانون. هم معتقلو سجن عين حجار الذين كانوا يذهبون إلى العمل حاملين معداتهم على أكتافهم. وكان بعضهم سُمراً بجباه وأيدٍ موشومة محافظين على الرصانة العربية في ثياب السجن، وكان آخرون شقراً يتبادلون نظرات مع الفيلق الأجنبي الذي كان يمر. هم رجال فيلق سابقين محكوم عليهم، قابلوا بتجهّم رفاقاً لهم سابقين مع تلك الكراهية التي يكنها المحكوم عليهم للآخرين، أولئك الموجودين في الخارج والذين يبدون لهم أحراراً.

ومرّ هؤلاء المسترقون للدولة الحزانى مرور قطيع مستسلم تحت سلطان الشمس التي كانت تشرق هناك، في عالم من الأبخرة القرمزية فوق الهضبة الحزينة.

أحس أورشانو ثورة تحت اللباس للعسكري الثقيل فبدا له كل ما هو تعاقدي وكل

كذب الحياة المدنية كذب يصدر عن المجتمع المستأثر بالحق المنكر على الأفراد، لتجديد العبودية القديمة الضاغطة بكل ثقلها على أولئك الذين لا يريدون الانحناء لها.

كم من أولئك الخارجين عن القانون الحزانى والمختمين كانوا هناك من أجل جرائم عسكرية بحتة، بمعنى أفعال تعتبر في الحياة العادية الأكثر طبيعية مجرد جنح!

آه! ما أحلى الذهاب إلى الدغل والعيش وحيداً بحسب اشتهائه من دون طأطأة رأسه أمام كل تلك الأشباح الغبية التي ترهق الرجال باستبدادها القاسي.

استيقظت غرائز المتشرد والثائر لدى أورشانو في تلك اللحظة، وفكر في أنه لا يزال هناك ما يقرب من خمس سنوات للعيش وسط أولئك الرجال، تحت سلطتهم المهددة!

لكن ينبغي التماسك والانتظار والمضي أخرس وأعمى قابضاً في مروره على ساعات الحياة والأحاسيس الساحرة تماماً كنشوة طلوع النهار في الصحراء لذلك اليوم.

الفصل التاسع

كان في مجموعة العريف فيالار رجل فيلق يدعى بيدرو غارسيا وكان ينعزل عن الآخرين، مؤثراً الصمت وغارقاً في حلم كثيب دائم. كان طويل القامة نحيفاً متيناً بوجه أسمر منبسط تحت القبعة الحمراء والسوداء، وشعر مجعد شديد السواد، وشارب قصير يظلل الشفتين الدقيقتين المزمومتين دوماً من دون ابتسامة.

ومنذ اليوم الأول لم يخطئ أحد أبداً حول حقيقة مقتطفات الحكايات التي رواها للعريف. لم يكن ذلك صحيحاً، فهو لم يكن إسبانياً فاراً من الجندية، وعلى الفور أُطلق عليه لقب العربي الذي كان يمتقع لسماعه.

كان سريره يجاور سرير أورشانو. ولم يكن العربي يتحدث إلى ديمتري كما لم يتحدّث إلى الآخرين غير أنه كان ينظر إليه بطريقة مختلفة، وقد علم أنه يحترم صمته، ولم يكن يمازحه بسوء.

وكان على فيالار أن يتدخل في العديد من المرات صارخاً:

ـ بحق الله! دعوا الرجل في سلام، ما الذي يهمكم إن كان عربياً وليس إسبانياً؟ أليس من بينكم كثيرون لم يكشفوا أسماءهم وجنسياتهم الحقيقية عند تجنيدهم؟

وكان بيران يردّ زافراً، ومحتفظاً دوماً بحسرة أنه أُجبر على الادعاء أنه سويسري:
ـ هذا صحيح أيها العريف.

عندما كان رجال الفيلق في معسكر هضبة عين الحجار سنحت للعربي فرصة تقديم بعض الخدمات لأورشانو. كان جندياً ممتازاً بنظافة قطة، فكان يرى دوماً وهو يغسل أغراضه ويصقل جلده. ولم يكن يشبه في شيء الجندي الغشيم الأخرق الذي كان يتعيّن عليه أن يكونه نظراً إلى أنه لم يلتحق بالفيلق إلا منذ ثلاثة أشهر فقط.

سأله ديمتري:
ـ لمَ لا تخرج أبداً إلى سعيدة؟
ـ لا أحب المزاح.
ـ سنخرج معاً إذن، لن أسألك شيئاً وستروي لي ما تريد. لا أسعى لمعرفة ما لا يعنيني.[1]
ـ أين تذهب في سعيدة عندما تخرج؟
ـ أذهب إلى المقهى المغربي، وأتجول أيضاً على الطريق.
ـ أجل على الطريق، هناك ملل أقل...

وفي ذلك المساء سارا طويلاً حول المعسكر في هالة الشمس الغاربة باحمرار على أفق الجنوب الفسيح الجذاب.

فجأة، سأل العربي:
ـ من أين أنت؟
ـ أنا روسي من جهة الأب، وتتاري من جهة الأم، وأنت؟
ـ أنا؟... أنت تعلم أنني صرّحت بأني أُدعى بيدرو غارسيا... هذا غير صحيح. الآخرون على حق! لكن لمَ إزعاجي؟ أنا من بوسعادة، وأدعى العمري بلهواري.

وروى حكايته دفعة واحدة كما لو أنه يبرّر شيئاً ما.

كان ابن القاضي، وكان في المدرسة الفرنسية العربية ثم في الإعدادية بالجزائر.

---

(١) جعلت تصحيحات فيكتور باريكون المخطوطة غير صالحة للقراءة في هذه الفقرة. (ملاحظة الناشرين). الأصل.

كان ثرياً، ولم يكن محتاجاً للعمل. وعند عودته إلى بوسعادة قدّم له والده بيتاً صغيراً جميلاً شُيّد بالطوب الذهبي وكانت بساتينه تحف بالواد. تزوج بالاتفاق قريبته حليمة الشابة جداً والجميلة جداً، وأضحى العمري محباً لزوجته الصغيرة. كان متيّماً بها.

وذات مساء حضر أحدهم يبحث عنه لأن والده كان مريضاً. ترك بيته الهادئ وحليمة أسفاً، وهرع إلى والده قائلاً بأنه سيعود في اليوم التالي. أضحى الشيخ أحسن بعد أزمة، فعاد العمري سعيداً جداً. كان معه مفتاح البيت فدخل بهدوء. وهكذا، وفي طراوة الباحة حيث كانا ينامان صيفاً، وجد حليمة بين ذراعي قريبه علي.

فقد العمري عقله فمزق جسدي العشيقين بضربات سكين... وألقى بنفسه على السرير المضرج بالدماء منتظراً طلوع النهار خائر القوى وفاقداً وعيه. ثم اعتُقل وحكم عليه المجلس العربي، الذي كان تابعاً له كرجل من الأهالي في التراب العسكري، بسنتين حبساً فقط...

عاش العمري في السجن الاستعماري في بيرواغية تينك السنتين في حلم كئيب. ثم توفي والده، وبدت له بوسعادة عند عودته فارغة وقاحلة.

وهكذا تخلّى عن أملاكه لأخيه أحمد مساعد القاضي، وتجند بسلاح الفرسان الجزائريين عندما أحس مللاً. وقُبيل انتهاء سنة خدمتة الرابعة شُغف العمري الذي كان في حامية أومال بيهودية جميلة. وذات مساء حصلت مشادة بين العمري وفارس جزائري آخر لدى تلك المرأة، فتشاجرا وجرح العمري رفيقه. وللمرة الثانية مثُل أمام المجلس، وحُكم عليه بسنة حبساً بعد أن قبل المجلس عذر الاستفزاز.

بعد خروجه من السجن أكمل العمري التعب واليائس والذي شعر بأنه أضحى منبوذاً الشهور الأربعة المتبقية له في ميديا. وليختفي إلى الأبد، وحتى لا يذكر شيئاً، تجنّد في الفيلق باسم غارسيا المستعار.

أنهى حديثه قائلاً:

ـ انتهى كل شيء. لم أعد أحيا، أنا أحلم. ويعلم الله كم هو حزين حلمي.

كان ذكياً جداً، وكان حديثه، وهو الصامت عادة، واضحاً وصافياً في لغة فرنسية سليمة.

ـ احتفظ لنفسك فقط بما قلت لك. أنت ما تزال بعد شاباً، إحذر من القيام بما قمت به. أنت تعلم، في اللعب لا ينبغي وضع كل شيء في ورقة واحدة. الأمر

مماثل في الحياة. أصبت بالجنون مرتين، ووضعت حياتي في ورقة واحدة، حب امرأة. أنا أقل سعادة اليوم مثل ميت.

فكر أورشانو أنه هو أيضاً لو تزوج فيرا لكان وضع حياته كلها في ورقة واحدة. . .

وكان أورشانو يشعر أحياناً بمتعة حارقة وفتنة كبيرة عندما يشارك في انطلاق رجال الفيلق في المقاهي والحانات. وهكذا كان يشرب وأضحى سكره صاخباً مع مسحة جرأة حزينة، روسية جداً. وكان إذ يشرع في الغناء ملء صوته، يرتجل فكاهات صبي كبير (. . .) وهكذا كان يقف على رؤوس رفاقه، ويشغلهم بالشجارات المعتادة والخصومات الدموية مع قناصة إفريقيا.

بل إنه كان يقحم بيران، المتعقل مع ذلك، والعربي الحزين.

وكان شوارتز يستسلم لأورشانو. وكان هذا رجلاً طويل القامة، نحيفاً بهيئة أرستقراطية، وهو ضابط نمساوي فار، كان يدعي أنه من الألزاس، وهو نديم لا يتعبه شيء. . .

(توقفت المخطوطة).

الفصل الحادي عشر[1]

[2] أثار العشق المأساوي لذلك العربي الذي ذهب ضحية الغريزة اهتماماً لدى أورشانو. وتشكّل في داخله تنظيم أفكار جديد ونهائي. أضحى يفهم على نحو أفضل وبطريقة جديدة لمَ ترك فيرا مع أنه كان يحبها؟ ولمَ كان عليه هجرها؟

شفاه حب فيرا في البداية من عبوديته الثورية. وتجاوز بسرعة تقريباً تلك المرحلة، ففر من قفص السعادة المحتدم الصغير لأنه كان يحمل بداخله إحساساً بالمدى، ولأنه كان يحس خلافاً للعديد من الناس الحاجة إلى أن يكون وحيداً، وأن يفر.

---

(١) الفصل كله تم تصوره وكتابته من قبل فيكتور باريكون. (ملاحظة الناشرين). الأصل.

(٢) كما في الأصل، من الفصل التاسع إلى الفصل الحادي عشر من دون وجود الفصل العاشر. المترجم.

بدت له طريقة العيش تلك وحشية في البداية، لكنه رأى فيها في تلك اللحظة تفوقاً، ولربما وجد فيها هدفَ التطور البشري بجهد اتجاه الفردانية والحرية، كاسراً قيد التجمعات والجنسين، مرتقياً دوماً إلى الأعلى باتجاه حقيقة أكبر، قابلاً الشغف لكن متجاوزاً الحب الذي يستمر في تقييد الناس.

حظي بفكرة مشابهة ذات يوم على قارعة الطريق، ووضعها مثل زهرة الجبل في مذكرة ملاحظاته.

حدث ذلك في جنيف في المكتبة الكبرى المتألقة، فعندما فتح كتاباً لشاتوبريون اختلج، وهو يقرأ:

«تدفعني دوماً استحالة استمرارية العلاقات البشرية وطولها، والنسيان العميق الذي يتعقبنا، والصمت المتعذّر قهره الذي يستحوذ على قبرنا والذي يمتد من هناك على منزلنا، إلى الحاجة إلى الانعزال. كل يد تُمَدّ لمنحنا كأس ماء نحتاج إليه في حُمّى الموت هي يد طيبة. آه! لو لم تكن غالية جداً علينا! لأنه كيف تُهجر اليد التي تُغطّى بالقبل، والتي نريد أن نحفظها أبداً على قلوبنا، من دون أن نصاب باليأس؟»

حمل أورشانو ذلك بداخله مثل صيغة غريبة. لم يشعر بعد بقوة ذلك الطلسم، بل كانت تلزمه تلك الحكاية العربية العادية لتكشف له معنى أفعاله. وكان يملك في تلك اللحظة حقيقة قيّمة مكّنته من مجابهة كل العبودية، وأضيء بفضلها وجه صديقته البعيدة.

بدت له فكرة المرأة المتخلّى عنها جيدة وناهشة وستساعده في أن يشعر بنفسه أقوى.

*
* *

ومن دون الاهتمام بحضور العربي الحزين أدرك أورشانو سعادة التواجد هناك والحديث. كانا يسيران ممسكين ببنصري يديهما، متبعين في ذلك التقليد الإسلامي الأخوي. وصل الطالب الروسي خلال لحظات، وهو على طريق هضاب الجنوب العليا، إلى الوعي السعيد بعزلته المحررة، وألفى نفسه سيداً على نفسه، وابتسم لحريته الفتية تحت المعطف العسكري الثقيل.

لَم يعذب المرء نفسه بحب بائس بينما يتألق شغف الحياة الكبير المختلف جداً

تحت شموس العالم وفي روعة الكون؟ فيرا! فيرا أجمل وهي بعيدة! كم يُشَدّ إليها وكم يتنفس روحها في الشفق، وكم يتملكها وكم ينفذ إلى روحها الخالدة!

كان جالساً في تلك اللحظة عاقداً رجليه على فخذيه ببطء وانتباه طالب عربي.

«إلى فيرا التي لا تُنسى»[١]

«أكتب لأسعدك لأني أعلم أنك لم تنسني أيضاً. لم يعد هناك الجسد البائس الداعي للرثاء الذي يتقلص في تشنجات غير مجدية. أنا الآن قوي وسعيد مثلك، وأحب الحياة والشمس. كان ماكاروف مصيباً في تركي أرحل. اشكريه نيابة عني. الطريق الحرة الجيدة هي ما أنقذني، وكل مرة تنظرين فيها إلى الطريق، اشكريها، وأخبري نفسك بأنها هي الأم الطيبة الكريمة التي بعثت الحياة في ديمتري، والتي أنقذته من الانحطاط والموت. الوداع، فلتضئ شمس الحياة طريقك مثلما تضيء طريقي.

«ديمتري أورشانو»

عند عودته إلى المعسكر ألقى الرسالة في علبة البريد.

لم يقدّم لفيرا أي عنوان.

ما فائدة ذلك؟



ملاحظة

ظهرت المتشرد وهي أكثر من محاولة سيرية منقولة مثل مرآة روائية لتطور إيزابيل إبرهات. كان العمل عليها يشبه هوساً حقيقياً رافق من دون توقف قدر الكاتبة البدوية الصاخب، خلال عشرة أعوام من المحاولات الأولى بسويسرا حتى موتها. وجدت المخطوطة التي بقيت سليمة في ما يشبه المعجزة، ولكن غير مكتملة دوماً، قرب جثة إيزابيل إبرهارت في وحل فيضان عين صفرا.

تتوقف الرواية على نحو غير متوقع مثل حياة كاتبتها بيد أنها مكتملة أكثر وقد كشفت مميزات عمل بنفس طويل بوضوح النَفَس التخييلي لكاتبة مستقبلية كبيرة.

---

(١) أخرجت الرسالة من إحدى الصيغ التي كتبتها إيزابيل إبرهارت. (ملاحظة الناشرين) الأصل.

ومنذ أعمال إيزابيل إبرهارت المنشورة الأولى سنة ١٨٩٥ بالمجلة الحديثة الجديدة والتي وقّعت حينها باسم ن. بودولانسكي، أعلنت إحدى قصصها رؤية المغرب «كمقطع من رواية البوهيمي الروسي، والتي ستنشر بعد وقت قصير.»

لم ير ذلك المشروع النور غير أن إيزابيل إبرهارت كانت في بون بعد سنتين من ذلك. وخلال إقامتها الأولى بالجزائر أشارت إليها مجدداً في رسالة إلى صديقها علي عبد الوهاب ذاكرة عنواناً على غير هدى. وما إن بدأت كتابتها حتى توقفت سريعاً. كرّست إيزابيل إبرهارت جهدها في رواية أخرى وهي رحيل «دفاع عن القرآن» التي تخلت عنها بعد عدة محاولات لكتابتها. وكان يتعين انتظار عودتها الثالثة إلى الجزائر سنة ١٩٠٢ لتأخذ شكلها على غير هدى. وبعد سنة نُشرت أخيراً على حلقات في الأخبار تحت عنوان المتشرد بدءاً من تاريخ ٩ آب/أغسطس ١٩٠٣.

ولكن قبل ذلك النشر الأول تابعت إيزابيل إبرهارت إنضاج مشروعها بكتابة ثلاث قصص وهي الفوضوي والروسي والمتورني، وشكلت جميعها صيغاً قصيرة ومختلفة لروايتها.

ويغيّر البطل اسمه بحسب الصيغ بل وحتى جنسيته (إيطالي في المتورني) غير أن الطريق هي نفسها دوماً من الغرب إلى الشرق في محاولة ناجحة تقريباً للاندماج مع العالم الإسلامي، ومع لقاء الحب في الطريق الذي يساعد على الانصهار في حضارة أخرى.

وتشبه ملامح أبطال قصص إيزابيل إبرهات والمتشرد ملامح شخصيتها، على الرغم من أن مغامراتها الشخصية، كما يقول فيكتور باريكون، كانت أقوى. والجانب الذكوري الذي لم تستطع عيشه والانخراط في الفيلق كانت تجدهما على سبيل المثال في قصة أخيها أوغستان الذي تطوع مرتين في سيدي بلعباس.

وتختلف النهايات في القصص، فهي سعيدة في الفوضوي، وعلى الخصوص في المتورني، ومأساوية في رجل الفيلق. ولن نعرف أبداً أي مصير نهائي قررته إيزابيل إبرهارت لديمتري أورشانو في المتشرد. ولربما كانت تجهله عندما أتى فيضان واد عين صفرا لإنهاء مسارها الطويل في ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٤.

بعد نشر الحلقات الأولى في سلسلتين في الأخبار (من ٩ آب/أغسطس إلى ١٣ تشرن الثاني/نوفمبر ١٩٠٣ ومن ١٧ كانون الثاني/يناير إلى ١٠ تموز/يوليو ١٩٠٤)

سارع باريكون لتقيدم سلسلة ثالثة بعد وفاة الكاتبة بداية من ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٤ أي بعد أقل من شهر على وفاة إيزابيل إبرهارت.

انتهت المخطوطة المستعملة فتصوّر نهاية مضمرة، ولم يسامحه «محبو» إيزابيل إبرهارت على ذلك «الإنهاء» مثل إعادة الكتابة الوقحة لفي ظل الإسلام القائظ.

ولم يُعدم نشر المتشرد في أيار/ مايو ١٩٢٢ لدى أوجين فاسكيل من تجديد الجدل في الأوساط الأدبية. حمل غلاف الكتاب هذا التوضيح «انتهى ونشر مع مقدمة لفيكتور باريكون.» كان ذلك كافياً من أجل تجديد المخاوف، فقد أضحى فيكتور باريكون منذ ظل الإسلام... متهماً بإتلاف عمل مساعدته السابقة.

صحيح أنه لم يعدم الجرأة ليدافع عن نفسه في تقديمه للمتشرد إذ يتحدث عن «عمل مشترك» حيث يكتب «أضفنا لبقايا جهدها، بتسامح روحها السامية...»

وحدها دراسة المخطوطات المحفوظة بأرشيفات أوتر مير بإكس أون بروفانس يمكنها أن توضح إلى أي درجة أدخل الناشر نثره إلى نثر إيزابيل إبرهارت.

والحقيقة أنه باستثناء تصحيح طاول نقطتين أو ثلاث نقاط لم يغير شيئاً في الجزءين الأول والثاني، غير أنه تدخل بثقل في الجزء الثالث. وعلاوة على ذلك، فالمتشرد مثلما نشرت في الأخبار ونشرت لدى فاسكيل، هي تركيب للعديد من الصيغ التي كتبت من قبل إيزابيل إبرهارت.

فالصيغة الأولى (الأقل اكتمالاً مقارنة بما تلاها) حُرّرت سنة ١٩٠٢، وفي ما بعد، وبين إقاماتها الطويلة بالجنوب الوهراني وفي خلالها بين سنتي ١٩٠٣ و١٩٠٤، وجدت إيزابيل إبرهارت الوقت للقيام بكتابة جديدة. وفي الصيغة التي نشرت في الأخبار أثناء حياتها ونشرت لدى فاسكيل كانت هي التي أعادت الجزءين الأول والثاني للكتاب المنشور لدى فاسكيل، والذي أعدنا نشره في هذا الكتاب الأعمال الكاملة مادام ظهر في كتاب قيد حياة الكاتبة، وبقي الجزء الثالث...

تضمّ الإضبارة ٢٣ × ١ لصندوق إيزابيل إبرهارت في إكس أون بروفانس أربعة ملفات. في الملف الأول الذي علق عليه فيكتور باريكون «صيغة الأخبار ١٩٠٣»، اختفت المخطوطة، وعوضها وجدت نسخة للفصلين الأول والثاني.

ويتضمن الملف الثاني هذه الملاحظة لفيكتور باريكون: «المتشرد رواية غير منتهية، صيغة عين صفرا المستعملة للجزء الثالث» وتتضمن مخطوطة تضم حالة

المتشرد الأولى والمؤرخة سنة ١٩٠٢، والتي كتبت من الوجهين بمداد بنفسجي وبالأوراق، آثار الرطوبة ووحل فيضان عين صفرا، ويقرأ فيها بداية جزء ثالث للمتشرد الذي سارع فيكتور باريكون لاستعادته لاستكمال سلسلة الأخبار. استسلم لهوسه بإعادة الكتابة، فأضاف إليه، وصحح الأسلوب، وسمح لنفسه بحذف أربع أوراق. وفي النهاية كتب الفصل الأخير وعنونه بنفسه «إضاءة» كمحاولة منه لوضع نهاية مفتوحة للنص. وعند نهاية النص أكد: «توقفت المخطوطة» غير أنه شطب فقرة أخيرة شكلت مخططاً لتتمتها التي كانت ما تزال طويلة جداً في مشروع إيزابيل إبرهارت، ذلك أن مصير بطلها لم يحدد بعد.

نشرنا بطبيعة الحال الجزء الثالث معيدين بقدر استطاعتنا صيغة المخطوطة. من الصعب أحياناً وانطلاقاً من أوراق مشطوبة جداً وبخطوط متداخلة إيجاد النص الأصلي، فكانت تبقى كلمتان أو ثلاث كلمات موضع شك.

وفي النهاية، ومن أجل الكتاب المنشور لدى فاسكيل سنة ١٩٢٢ كان فيكتور باريكون مجبراً مرة أخرى على القيام بتعديل أخير. اختفى بيران رفيق ديمتري في مرسيليا خلال مظاهرة عمال المرفأ في سلسلة الأخبار، فأعاده الناشر على نحو عابر من أجل ضمان التناسق مع الجزء الثالث (المكتوب سابقاً) حيث كان بيران حاضراً.

وفيما يشبه نهاية، أقحم فيكتور باريكون في فصله القصير للنهاية رسالة من ديمتري إلى فيرا أخرجها من صيغة أخرى، ويوجد العديد منها ويمكن قراءتها في إكس أو بروفانس في الملف ٢٣ × ١ . ويحمل الملف رقم ٣ الملاحظة التالية: «المتشرد مخطوطة عين صفرا بوحل الفيضان. الصيغة الثانية» (شطبت الكلمتان الأخيرتان) ويتضمن مخطوطة من ١١٩ صفحة كتبت من الوجهين بالمداد الأسود، وألصقت الأوراق التي أصبحت هشة بالرطوبة على ورق مقوى بعناية. توقفت المخطوطة عند بداية الفصل ١٥ . لم تحمل أية عملية تصحيح أبداً كما لو كتبت بنفس واحد. يتعلق الأمر بنسخة من دون شك. والبداية مشابهة تقريباً لنصوص الأخبار وفاسكيل. وتختلف التتمة على نحو محسوس وعلى الخصوص بدءاً من الفصل الثالث حيث يمكن أن تقرأ الملاحظة التالية المقدمة بمداد أحمر «ليدخل كفصل ثان في حياة ديمتري في قاع بيترسبورغ». لا شك في أن إيزابيل إبرهارت كانت تنوي في هذه الصيغة إغناء بداية روايتها، فوصف بؤس الأحياء الوضيعة يمكن مقارنته بأفضل

صفحات سادة الأدب الروسي في القرن ١٩، وقد استلهمت ذلك منهم مباشرة. لم تعرف إيزابيل إبرهارت بلدها الأصلي لكننا نعلم أنها قرأت كثيراً تولستوي وديستويفسكي، ونجد أيضاً بعض الصيغ القصيرة المجزأة وغير المكتملة في الملف رقم ٤، كتبت بقلم الرصاص خلف فاتورة مطبعة زاميت في الجزائر أو بالمداد الأسود على ورقة بعنوان معمل جعة تورتيل بوهران والمستشفى المدني لمصطفى بالجزائر.

وهكذا يمكن إعادة تشكيل مكونات هذه الرواية الوحيدة التي كتبتها إيزابيل إبرهارت خطوة خطوة، وحيث تبقى هناك بقية يمكن تخيلها. أعاد الجزءان الأول والثاني في صيغهما المتلاحقة إظهار عودة متخيل روسي خالص، فروسيا، أرض الاجتثات واللغة التي داعبت طفولة إيزابيل إبرهارت حيث الشخوص التولستوية والديستوفسكية والتي رافقت شبابها في سويسرا والتي نحتت قليلاً أو كثيراً ثورتها، لم تكف عن ملازمة ذاكرتها، وعبرها ألفت إيزابيل إبرهارت «الروح الروسية» لأصولها البعيدة ولجذورها الضرورية.

نصوص أخرى

إيروسترات

«احترق المعبد العظيم مثل شعلة جنائزية... ولم تطفأ أبداً تلك النار. وفي تلك الليلة المجهولة نفسها أتى أخرق عظيم وغامض آخر إلى العالم، من أجل دم وانتصارات!»

س.ي. نادسون.

كل مساء، وفي لحظة الغروب الرائعة، كان يذهب ليتجول على ضفة الشاطئ. وكان ينظر أثناء جلوسه على صخرة إلى الشمس الذهبية تنزل على البحر الهيليني حيث تطفو جزر الأرخبيل في احتراق الغروب الذي يزيل خط الأفق.

وكانت ساموس تبدو له بعيدة جداً ومزينة بلون ذهبي أرجواني. وتعبر روحه درجات الحزن، ويخفق خياله عابراً المحيط باحثاً عن الحقيقة حيث يضنيه الحب المعذّب.

شحب وهزل منذ عودته من تير. وحُفر بين حاجبيه المثاليين تغضّن حزين في ظل الشعر الأسود الذي كان يسقط مجعداً والمشدود بشريط من الكتان.

وكان يمكن أن ترى إلى جواره دوماً ميرسين العشيقة المشهورة التي كانت محبوبة ومعشوقة مثل أفروديت.

أُحضرت ذات مساء إلى الحمّام على محمل.

رأت شاباً واقفاً مستنداً إلى عمود معبد بقامة طويلة وبوجه لم يكن يشبه في شيء وجوه شبان إيفيز الآخرين.

كان أكثر وسامة، وقرأت ميرسين على وجهه حزناً غير محدود.

أمرت بتوقف محملها ونادت على الغريب بلكنتها الأثينية.
غير أنه أصدر حركة رفض، ورحل.
في الليلة الموالية لبست مثل عبدة حتى لا تُعرَف، وهرعت إلى بيت الإسكافي شيلو الذي كان يعيش عنده إيروسترات.
ألفت الشاب جالساً قرب المنزل. كان ينظر إلى أشعة القمر الخضراء المزرقة تنزلق على الساحة الخالية... كان يفكر.
- ما اسم عشيقتك يا إيروسترات التي تفكر فيها دون توقف؟
فقال:
- أليثيا! الحقيقة التي ستأتي يوماً لتنير العالم.
وضعت الأثينية الشابة يدها الهزيلة على كتف الإيفيزي.
- لمَ أنت حزين جداً؟
- لأني أشك، ولأن عالماً جديداً حل في قلبي ويخنقني... أريد أن أخطف نار السماء مثل بروميثي وأمنحها كهدية مفيدة للجنس البشري غير المحظوظ! لا أستطيع، لا أستطيع! آه، كم أعاني يا ميرسين! لمَ يوجد العذاب! هو يقطع تناسق الطبيعة، ويفسد كل ما يمسه ويجعله قبيحاً!
- هناك الجمال، وهناك الحب!
- يموت الجمال وينتهي الحب.
- يموت شكل الجمال، وتُبعث آلاف الأشكال الأخرى مثل العنقاء من الرماد. يموت حب ويولد آخر، وحركة الأشياء أبدية.
- لم تردّي! العذاب موجود، ويهيمن على كل شيء. لربما هو طريق الحقيقة. بجّلنا الآلهة وعشقناها، وبقيت خرساء بكماء، ولم تستجب أبداً لصلواتنا... بحثنا عن نسيان العذاب في المُتع... غير أن الحزن أبدي. تلد المرأة في الألم، لمَ لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للفكر؟
ابتسمت الأثينية مشككة، وقالت:
- الحقيقة جميلة لا يمكن لما هو قبيح أن يكون طريق شيء جميل، والعذاب قبيح.
- كلا، هو ليس قبيحاً، فمن تألم ولو للحظة فقط الألم الرائع للفكر ما كان

لينفصل أبداً عن سحر ذلك العذاب، وحتى في الحب الذي تتحدثين عنه ألا تتألم الروح عندما يكون الشغف في أوجه؟

بدت ميرسين متفكرة. . .

ـ كيف بدأت تفكر في هذه الأشياء، يا إيروسترات؟

ـ تعلمين أني أنصت لأحاديث الخطباء والفلاسفة. . . كنت في أثينا وسمعت أحكم الحكماء يتحدثون، أشعلوا بداخلي شعلة الفكر لكنهم لم يشفوا غليلي. وفي ما بعد رحت إلى ميلو، وذات يوم قابلت فيها رجالاً قدموا من بلد أحرقته الشمس أشبه بالصحراء. . . سمعتهم يتحدثون، غير أنهم قالوا بأن كل آلهة أجدادنا ليست سوى أساطير صبيانية، وأن إلهاً واحداً خلف النجوم وفي الكون غير المحدود، خلق كل شيء من روحه، ويعود إليه كل شيء. . . كانوا يتحدثون باليونانية لأنهم كانوا تجاراً. أنصتّ لهم فأحسست بفتنة غريبة في روحي. تصوري يا ميرسين أنهم قالوا إن أرواحنا تعيش بعد الموت، وترحل إلى أماكن حيث يمكنها أن تتأمل الحقيقة مباشرة. . . وأن تلك كانت مكافأة المستقيمين. قالوا أيضاً بأن المستقيمين كانوا أولئك الذين لم يكنزوا الثروات، والذين كانوا مفعمين بالرحمة والشفقة.

ـ من كان أولئك الرجال؟

ـ كانوا برابرة، ورجال يهوذا.

ومرة أخرى، هزت رأسها ثم قالت:

ـ كلا، يا إيروسترات، ذلك ليس حقيقياً، إنه الحب. العظيم إيروس هو من يحكم العالم، وهو من أخرجه من الظلمة، وهو من يخرج الوردة من رماد القبر، ويجعل النرجس يزهر في الخرابات. لكنك يا إيروسترات المتألم لست مثل الآخرين، فروحك غريبة وعظيمة، ويبدو أن هناك إلهاً يحركها. أحبك يا إيروسترات.

فقال:

ـ لن آتي إليك أبداً وسط ترفك وتهتكك، فمكاني في الظلام والصمت لأن روحي روح طفل !

وكانت تعود كل ليلة. ومنح حزن إيروسترات حبَّها نكهةً غريبة، فتنت روح الأثينية الرقيقة.

وذات صباح، وفي ساعة رحيلها المعتادة، بقيت ميرسين.

فقال شارداً:

ـ ألن تعودي إلى هناك اليوم؟

وابتسمت قائلة:

ـ كلا، وهبت البارحة كل شيء من أجل انعتاقي الخيّر... كل شيء، بيتي وعبيدي وفساتيني وحليّ. وقدِمت. سأبقى جوارك يا إيروسترات لأن لا شيء يسعدني بعيداً عنك، وكل شيء يجعلني أغرق في ملل حزين.

وبقيت، واقتسمت حياة إيروسترات الفقيرة وغير المبالية في الغرفة الصغيرة للإسكافي شيلو.

منذ عدة أيام لحظت تغيّراً غريباً في إيروسترات، فقد بدا وكأن نوراً انتشر في وجهه، وكانت نظرته مشرقة.

وذات يوم، وبعد أن أمضى ساعات طويلة في صمت عميق، أمسك يد ميرسين متألقاً وقال:

ـ يا ميرسين، أيتها الرفيقة العذبة! وجدت أخيراً ما كنت أبحث عنه! صرت أعرف، لقد قال رجال ميلو الحقيقة، ليس هناك إلا إله واحد وهو الحقيقة. يتعين السير في طريق الله، وفعل الخير والشفقة أمام العذاب، وينبغي أن يكون المرء مستقيماً، وكل الباقي ليس إلا عمى وجنون!

ولما كانت مقتادة من قبل غريزة القلوب العاشقة لم تعترض أبداً. ومع ذلك بقي روحها طقس الجمال مثلما تصورته الروح الهيلينية ثابتاً.

عاد إيروسترات للقول:

ـ ينبغي التحرر من أغلال المادة الثقيلة، لا ينبغي العيش وسط الثراء والخمول، لا تمنح الحقيقة نفسها إلا لمن يبحث عنها في الكدّ المضني وفي الألم!

فكرت مرسين بأي ظلال ملئت روحه بأفكار البرابرة التي هي من دون أفضال.

لكنها كانت تحبه.

وعدا حبها، بدا كل شيء لا يستحق الاهتمام.[1]

---

(١) مخطوطة غير مؤرخة. أرشيفات أوتر مير. إيكس أون بروفانس. (الأصل).

يهوذا

«كيف دخلتَ إلى هنا، يا صديقي، وأنت لا تلبس ثياب العرس؟»

(الإنجيل).

كان يسوع يصلّي... وتصبّبت جبهته المنحنية عرقاً قانياً. كان يسوع يصلي من أجل الناس، ومن أجل المنافقين... وكانت شعلة الإلهام المقدسة تتألق على وجهه. خضع بابتسامة مشفقة للعذابات الأخيرة، وألم التاج الشائك. تحلّق الحشد حول الصليب، وكانت ضحكة فاحشة تُسمَع بين الفينة والأخرى.

لم تفهم الجموع العمياء أبداً مَن كانت تشتم بحقدها العاجز. ماذا فعل؟ لمَ اتُّهم مثل عبد أو لص؟... ومَن الأحمق الذي تجرأ على رفع يده على السيد؟ دخل الكون بحب مقدّس. علّم الناس، وصلّى، وتألّم. ولطّخ العالم أبداً بدمه البريء...

أنار الليل الأزرق الأرض بخفوت، وصعد القمر الفتي في السماء ناثراً ضوءاً خافتاً... وكان يختفي أحياناً كما لو أنه يفكر، وينير أحياناً أخرى الجلجثة بضوء مرتعش.

وفي الأسفل امتدت المدينة محجوبة بالضباب. وفي الأعلى صعدت الصلبان المأتمية مهيمنة عليها مثل مردة.

وبقي معذبان على اثنين منها. وكانت أشعة القمر تنظر إلى وجهيهما الكابيين من عمق المدى غير المحدود.

غير أن الصليب الثالث كان فارغاً. ذلك أن يسوع حُمل من قبل أصدقائه، وارتوى صوان قبره بدموعهم المشيعة.

لكن، لمن هو الانتحاب المخنوق الذي كان يتردد قرب صليب الوسط؟ من يكون ذلك الرجل؟ كانت ملامح وجهه المحترق تشي بالألم.

لربما كان يتوق إلى الخلاص، وأتى من البعيد حتى يشفي يسوع بكلمته القوية ألمه... لربما كان دنياً من السقوط، متوسلاً عند قدمي المسيح؟ بيد أنه علم من كل مكان أن من كان يحييه الناس في السابق باسم الملك، ومن أنار العالم، ومن لم يكن ينحني أمام أوثان الأرض، والذي كشف الشر علناً، قد قضى، وهلك يسوع باحتقار الناس وحُطّم بالعذاب والألم؟!

لربما هو أيضاً حواريّ سرّي أسند رأسه المتعب بألم وصلاة محتدمة إلى قدم صليب سيده؟ لربما هو مذنب أتى ليعلن توبته جاثياً؟ لكن كلا، إنه يهوذا! لم يحضر من أجل الصلاة، لأنه لا يجرؤ على الصلاة، لأن روحه مذنبة. لم يحضر من أجل وداع جسد سيده... حتى هو لا يعرف كيف ولماذا حضر هناك.

عندما، متهم أو شهيد...

(توقفت المخطوطة[1]).

---

(١) نص غير مؤرخ نشر في الأخبار سنة ١٩١٥.

سيريس
رؤية ليلية

كانت من الخشب الصلب المشقوق والمتآكل برياح البحار، تعبة من حمل ابتسامتها القديمة عبر العديد من العواصف، وكونها تأملت خرساء أحزان الكثير من الآفاق.

بعد أن رأت بعينيها الفارغتين والواضحتين المدى المتغير لما يقرب قرناً من الزمان، وبعد أن جالت كثيراً في أنحاء مختلفة من العالم، اندحرت هناك، كشيء عتيق معطل وغير ذي جدوى، في زواية مظلمة لغرفة صغيرة جداً مضاءة من الأسفل مثل زنزانة من خلال نافذة مسيّجة.

كانت تسكن ذلك المكان الحزين في صمتها المعتم الغامض، مستمرة في الابتسام لرؤى السماء القديمة.

كنت ألفيها في كل مرة مبتسمة دوماً، في ذلك البيت الذي لم يكن بيتها، والذي كان أليفاً مع ذلك حيث كان القدر يحضرني إليه أحياناً من أماكن بعيدة، والذي كان يسعد روحي.

ألفيتها في البداية محرجة في ثقلها الكبير، ولم أعرف كيف أنفذ إلى غموض روح حورية البحر تلك.

وذات ليلة، وبينما كنت أنام عند قدميها، بدت لي وسط رؤى أخرى، تقوم بألم ساقيها المفروقتين إلى مقدمة السفينة الأصلية وتخرج من تلك الزاوية، عالية وبيضاء، كما لو أنها مغطاة بهالة مشرقة، مثل الصفاء الأزرق للأقمار الهابطة في البحر.

أضيء وجهها الهيليني وفمها الذي ظل جامداً طويلاً في ابتسامة غامضة، قبل أن يُفتح لتقول:

«لمَ لم تسألني أبداً أيها الشاعر المتشرد والقلق، يا عاشق الآفاق اللامحدودة، عوض أن تزعجني وأنا الحزينة، وتأتي لتلومني حتى هذه الزاوية المظلمة حيث سجن جمالي؟ لمَ لم تخمّن الروعة الكبيرة والحزينة لقدري؟ لماذا وأنت من عليك أن تتواصل مع الروح الغامضة للأشياء الصامتة، لماذا شتمت عظمة منفاي؟

ومع ذلك أردت أن أروي لك آلامي وأحلامي مثل جدة عجوز جداً ليلاً في كوخ، تعبة من صمت قديم جداً أقل فتاةً منكم أيها الآدميون، ومن مادة أكثر بقاءً قبل أن أصير خرساء إلى الأبد. هل أحاول أن أخبرك بما كان يبهجني في الماضي، المياه تلك العاشقة الحزينة التي كنت متعطشة إليها دوماً، والتي كانت تعانقني، وأحطّمها مبتسمة ومن دون تأثر بغصن الزيتون في يدي، شاقة الموجة الصافية أو مهدئة ثورة الأمواج المروّعة؟

بعد أن صقلتني يد فنان منسيّ، يبست الآن في تراب القبر، من الجذع الصافي لشجرة شمالية كبيرة، أُلبست فستاناً بريئاً، ورصّعت جبهتي العالية والمفكرة بالذهب، ورُبطت في مقدمة فرقاطة كبيرة. كنت روحها وشكلها، وانطلقت مغامرة في المياه الزرقاء للبحر الأبيض المتوسط حيث ولدت... كنت غير منفعلة وبحياة غير متوقعة. حضرت معارك عنيفة، وبينما كان الرجال يتقاتلون على جسر فرقاطتي ويموتون، كنت أتملّى في المدى الصافي أو المهتاج بعيني الهادئة البيضاء.

رأيت شموساً من نار تنزل على احمرار صحاري إفريقيا... رأيت أقماراً فسفورية تلقي دفق نورها على آلاف الأحجار الكريمة ذات ألوان كثيرة وشفافة...

تنسّمت عطوراً مسكرة وحساسة لمرافئ الشرق الخربة، ورأيت نهارات قائظة وكامدة تطلع على غابات الهند النائمة... سمعت أنين بنات أوقيانوسيا التي كانت فرقاطتي تأخذ عشاقهن إلى الأبد...

سمعت في الكثير من المرات الصوت العظيم المروّع، وأحاديث الريح العنيفة تزمجر في البحر الثائر... وتعرضت للاصطدام العاشق والغاضب للمياه التي كانت تريد أن تبتلعني لتضمني على نحو أفضل. اعتقدت أني غرقت في الهوة المريرة حيث وطني... لكني كنت محمية ومحافظة على ابتسامتي، ورأى الأفق الهادئ مثل فينوس أناديومين المياه تغرق وجهي الأبيض الصافي.

وأخيراً، عندما حضرت فرقاطتي الجميلة ذات الجناحين الأبيضين الواسعين لترقد لسنوات غير محدودة في الماء الراكد لمرافئ الحرب، وعندما ضم إلى الأبد جناحي

الطائر مثل جميلة ذهب عنها جمالها، اكتفيت بأن أتأمل أفقاً أكثر ضيقاً كشيء مقدس تائه في وحدة عظيمة جداً.

سكنني الحنين إلى البحر لمدة طويلة، وإذا ما بدت لك عيني الخشبية ميتة اليوم، من يدري إن لم تذرف دمعاً مجهولاً في الليالي المقمرة؟

من فكر في مقدمة السفينة الحية دوماً والمربوطة بالفرقاطة الميتة مثل غريق يتشبث بجسد طائر عظيم، والذي يظل معلقاً إليه أبداً بعد أن يسقط الطائر عند الشاطئ ويموت؟

ثم أتى يوم اجتاح فيه الرجال الذين هجروا لمدة طويلة فرقاطتي الفقيدة تلك الحيوانات المخرّبة وغير المحترمة للماضي.

لم يكن إلا صريراً وأصواتاً مشؤومة لأن حياة خافتة ماتزال ترقد في فرقاطتي الهرمة التي لا تريد أن تكمل موتها.

وفي النهاية، عندما فُصلتُ بوحشية عن الهيكل المتصدع الحقير والمدنس، هويت في التراب القذر والوحل.

هناك احتضنتني يد رحيمة ومنحتني هذا المرفأ المعتم حيث تراني وحيث أحلم خرساء ومتفكرة معيدة في أحلامي رؤية آفاق الماضي الشاسعة.. لم أعد أطمع وقد أدركني الهرم والتعب إلا في الراحة. لكني رغبت بأن أنتهي قبالة أفق المرافئ الحر لأستمر في مشاهدة عشيقاتي السابقات، الأمواج تلعب وتمور... يثقل الظلام علي ويخنقني ضيق معزلي... آه! لو أستطيع ان أرى البحر مجدداً، وأسمع حفيف رياح الاعتدال الربيعي في البحار المائجة!... لأن المعول المدنّس سيحطمني في القريب، وستمضي روح حورية البحر من دون أن تشك في شيء، لتتلاشى في الضباب وهبوب البحر.»

تدفقت دمعتان متألقتان وثقيلتان مثل حجر البحر الكريم من عيني السفينة البيضاوين، ثم تدحرجتا ببطء على خديها اللذين ابتلتهما قبلات الأمواج المريرة.

كانت العشيقة القديمة تأسى على بسمات وغضب المحيطات الخالدة[1].

---

(١) نص نشر من قبل فيكتور باريكون في الأخبار سنة ١٩١٧ مع هذه الإشارة «كتبت بقلم الرصاص من دون توقيع أو تأريخ في ثلاث أوراق من الجانبين، ورقمت من واحد إلى خمسة».

إلى ج. بونيفال
في ذكرى لطيفة.

عصر العدم

كنت متفرغة ذات مساء، فذهبت إلى أحد المسارح الرئيسية في المدينة البحرية الفرنسية الكبيرة حيث كنت أعبر... لم أذهب لأحضر عرضاً لم يخبرني البرنامج عنه أي شيء، ولكن لأشاهد أحد أعظم وأعمق مشاهد التراجيديا الكوميدية العصرية.

أخذت أتطلع إلى الجمهور، ذلك الجمهور الإيحائي في مدن أوروبا الكبيرة.

كان لباس النساء غريباً ويصيب بالقلق تقريباً حيث لمسات زاهية جداً وسط السواد الحزين، والصبغة المحايدة لملابس الرجال...

وجوه مبالغة في التفكير أو بوحشية ثقيلة. وجوه بارزة التقاطيع، ووجوه مضطربة انسحب عنها الجمال الحقيقي... وجباه قلقة حُفرت بها تجاعيد مبكرة، وجوه لن تستطيع كل المساحيق أن تخفي كل فسادها المتوارث... وعيون محمومة أو فاترة محتدمة بفظاظة أو غير مبالية بحزن، ونظرات تعبة أو متقززة أو متألمة ألماً خفياً مكبوتاً بسبب احترام التعاقدات...

ووسط النساء ذوات الوجوه المتكلفة أو الحساسة من دون عمق التعبير سيدات مجتمع، خادمات الظهور على حساب الواقع، وخادمات أجسادهن على حساب أرواحهن المهتمة فقط بالترهات التافهة... وعشيقات بوجوه مصطنعة مثل وجوه سيدات المجتمع، وجوه خادعة أيضاً من دون لطف جمالي وبمظهر مادي خالص في ابتذالها المطلق... وبورجوازيات أصابهن العجز مبكراً بسبب حياة حقيرة وضيقة من دون أفكار واسعة المدى، وهزيلات ومتشابهات على نحو غريب.

... غير أن داء العصر يبدو أكثر وضوحاً لدى الرجل الذي يهمل نفسه أكثر لكونه أقل عبودية لما هو متعاقَد عليه... أية وجوه حيوانية أفسدها الطموح المخيب،

والشهوات الظامئة لذوي النعمة المحدثة الباحثين عن البقاء طافين وسط الموجة البشرية الكبيرة التي لا تصدّ، والثملة بالرغبة الجامحة في الفرار!... يالها من وجوه منهكة ومعذبة لدى المثقفين الحقيقيين ذوي الأرواح التي حُملت بعيداً في دوامة أفكارهم الكئيبة السوداء.

وفي الأعلى هناك العرض نفسه حيث حضرت العامة البائسة ذات مساء للنسيان، ولربما كان أكثر رعباً لأنه أقل إخفاءً... رغبات لن تتحقق أبداً حيث البغاء والجريمة واليأس والتفاهة وخضوع ممل لحيوانات مسحوقة إزاء الألم الظالم وثورة عنيفة للشهوات المكبوحة طويلاً....

بعد تأمل الحشد الحزين المتكدس أمام ناظري وجّهت ناظري إلى خشبة المسرح المغبرة. كانت هناك مغنية لم تحتفظ بأي لطف طبيعي، تعبّر بحركة سوقية وتغني بفرح، بيد أنها بدت لي وكأنها تفعل ذلك على نحو مأتمي. كانت ترتدي ثياباً فاقعة الألوان، مصطنعة ابتسامة على شفتين كانتا ستبدوان ذابلتين لولا اللون الأحمر الاصطناعي، ابتسامة متنافرة على نحو أليم مع ملل النظرات وألمها.

... وهكذا بدا لي أني أرى صف أنوار مقدمة المسرح ذات الصفاء الحادّ تشحب لتصبح شفقاً حزيناً ومضطرباً، ذلك الشفق الذي من المفروض أنه يأتي على نحو حتمي بعد نهار كانت شمسه ساطعة حيث سيتوج المجتمع العصري الذي كان من دون إيمان ومن دون أمل، والمتعطش إلى اللذة، ليس من أجل رعشة اللذة المقدسة ولكن لنسيان ألم العيش الذي يشق وصفه، منتظراً وخائفاً وفاقداً صبره في الآن عينه للحظة الموت...

... وللحظة قصيرة حملني عقلي إلى ليل الماضي البعيد. كانت البشرية في فجرها البعيد وهي بعد تخطو خطواتها الأولى المتعثرة التي تحرك الكواكب والتي تحيي وتميت... وما إن أفسدت المجتمعات البدائية بالبذخ والمتع المختلفة حتى غدت ذات طقوس بربرية حيث مولوخ[١] والبعليم... ومع ذلك، حتى أولئك أعجبوا بالثنائية الموجودة في قوى الطبيعة، حيث الصراع بين مبدأ النور ومبدأ الظلام.

وأبداً، وحتى في قلب التعب غير المنتهي لروما المنتهية، وفي انحلال بيزنطة

(١) مولوخ: إله قديم لدى الفينيقين. المترجم.

المتوحش، أو في الليل الدامي للعصر الوسيط المتعصب المظلم الشيطاني، لم يكن لأي مجتمع الطقس الرهيب الذي تجاهر به الحضارات العصرية الجاثية والداعية للرثاء أمام طيف العدم المهدد.

فأوروبا وبناتها الروحيات الموزعات في جهات العالم الأربع انتهت إلى رفض كل المعتقدات اللطيفة والمعزية، وكل الآمال وكل المواساة... كان ذلك حقهن من وجهة نظر العلم... ومع ذلك استخلص الناس من الكفر هذه الخلاصة المروّعة، ليس هناك من إله وليس هناك من لعنة خارقة سوداء في الدنيا أو في مكان آخر، وإذن ليس هناك مسؤولية... ومنذ ذلك الحين أضحى كل شيء مسموحاً، والأخلاق عاشت زمنها.... وبسبب ذلك فالكفر العصري مزدوج، فهو ديني وأخلاقي.

أدركوا بأنفسهم أن دور المخلوق الأخرق الكريه ينحصر في العذاب والموت... ويفضّل الكثير منهم مأخوذين بالدوار السيئ الذي تحدثه مجاورة هاوية سحيقة حيث من المؤكد أن يُلقى الإنسان ذات يوم على نحو حتمي، المسارعةَ إلى الموت لتقصير أجل احتضار مؤسف.

والمجتمع غير المؤمن ومن دون مثل أعلى، والذي يمضي من دون سعادة، أضحى وحشاً مخالفاً للقوانين.

وهو محكوم عليه في جوهره.

وأضحى المتسوّل الداعي للرثاء الذي لم يعد له أين يذهب، ولا من يتوسل إليه، ولا من يأمل فيه.

فخلفه يوجد العدم الذي يظن نفسه انبعث منه. وحوله الملل البارد الذي هو ظل العدم الممتد على أمور الحياة. وأمامه الرعب المدوخ... ثم هناك الانحدار النهائي والموت. هذه حصيلة الجهود التي قام بها الناس من أجل إقامة الكفر والشك الأخلاقي الأسود من بين كل الأشياء، حيث سيول الدم والدموع المراقة من قبل البشرية التواقة إلى السعادة... وكل هذا يذهب سُدىً مادامت لن تؤمن غداً بذلك المثل الأعلى، الأول الذي تم تصوره، أوذاك الذي قُدّر له أن يبقى بعد زوال المُثل الأخرى.

وعدت الحضارة، تلك الخديعة الكبرى في الوقت الحاضر، الناس بأن تضاعف متعهم بتعقيد حياتهم ويجعل كل أشكال اللذة أكثر براعة وأكثر احتداماً وأكثر حدة

وأكثر نملاً، وبأن تؤلّه الحواس، وبأن تدلّلهم وتخدمهم بانقياد... ووعدتهم بجعلهم أحراراً. كل ذلك على حساب التخلي عن كل ما هو ثمين لديهم، والذي تزدريه وتصفه بالأكاذيب والأحلام الباطلة...

وبدلاً من هذا كلّه ينتصر الألم في الواقع، ويتفرع ويجتاح القلوب والأرواح... فيجعل القلوب واهنة وبلهاء، والأرواح عقيمة على نحو لا شفاء منه.

تزداد الحاجات من وقت إلى وقت آخر، وتبقى غير مشبعة على الدوام تقريباً، وتملأ الأرض بالثوار والغاضبين. فقد أضحى الشيء الزائد حاجة، والترف ضرورياً يمضي الحشد المتعطش للمتع نحوه باهتياج، وقد خُدع بالوعود الكاذبة التي قدمت له.

... تلك الحشود البائسة محقة بكل تأكيد، وهي التي يُصرخ في وجهها من فوق كل الكراسي والمنصات «أيها الإنسان، ليس لك إلا لحظات عيش قصيرة! تمسك باللحظة التي تمضي ولا تعود أبداً، وبالإحساس الذي ما إن يولد حتى يبدأ في الموت، لأنك لست متأكداً إلا من هذا اليوم. لم يعد هناك أمس، ولا تملك أن تغير فيه شيئاً، ولن يأتي الغد أبداً... استمتع لأنك ستموت في القريب، وسينتهي كل شيء، لأن الآخرة ليست إلا خرافة اخترعها جهل أجدادنا.»

غير أن الحشود تستخلص من هذه النظريات خلاصات مشؤومة، فما دام لا يوجد عدل أو رحمة في أي مكان يمسي كل شيء ممكناً. فالعنف الشديد ليس فقط شيئاً مغتفراً بل إنه مشروع عندما يكون من أجل تحقيق متعة آنية... ومن دون اهتمام آخر تنطلق الجموع باتجاه السراب الخادع عبر الخراب الذي تخلفه في طريقها... وهي النتائج الحقيقية لجهدها.

هي اللعنة المحتومة التي تلقيها الطبيعة على أولئك الذين يريدون تعديل القوانين وخرقها مهما كلفهم ذلك من ثمن، أولئك الذين يثورون على قوتها الجبارة ناسبين إليها عمى ووحشية لا تحمل اسماً.

معظم العصريين خُرسان أمام غناء الطبيعة الذي يفوق كل وصف، وعميان أمام عروضها العجيبة. لم تعد قلوبهم العليلة والمتحجرة ترتعش للنداءات الغامضة التي تصيب بالاضطراب والصادرة عن المجهول العظيم الذي يحيط بهم من كل جانب.

يصيب المجتمع الظالم احتضار في حزن غير محدود، من دون رأفة بالضعفاء، ومن دون إله، ومن دون مثل أعلى، وهو محكوم عليه بأن يلتهم نفسه في عذاب عقيم وقبيح.

. . . ثم فكرت بفزع جعلني أقشعر في الجحيم المزمجر داخل الأرواح البلهاء وفساد أطفال ولدوا من قبل مثل أولئك الآباء، رضعوا مع حليب بائس لأمهات عصبيات وحاضنات فاسدات مللاً مزمناً وتعباً من الحياة قبل أن يعيشوها.

أجل، فكرت في مريدي الموت الذين يمضون صامتين وحزانى عبر الحياة التي يطلبون منها الشيء الكثير من دون أن يأملوا في الحصول على شيء... في حشود الغد السوداء التي تنجبها حشود اليوم الرمادية، وفي كل أولئك البؤساء الذين لن يعرفوا أبداً أن يؤمنوا أو يأملوا أو يحبوا أو يخلصوا أو يرأفوا أو يتوبوا. . . وعند وصولهم إلى ذلك الشيء الوحشي، أن يكونوا أحياء، وينكروا الحياة.

. . . ومع ذلك يوجد بين العصريين من يؤمن ويخدم مثلاً أعلى، الله أو العلم أو البشرية. . . لكن، ويا للأسف، فعوض أن يعترف هؤلاء بأنهم، في ما يتعدّى الاختلافات والتنافرات التي تجعلهم يبدون أعداء بعضهم البعض، متضامنون ما داموا جميعاً جنود الفكرة ضد الشغف، والمثل الأعلى ضد اليأس، يضيعون طاقتهم وشجاعتهم في معارك غير مجدية ومشؤومة بينما يكتمل حولهم انحطاط تناسق الحشود. . . ولا تستطيع النبوءات المنعزلة لبعض المتبصرين القلائل أن توقف اندفاع الناس المخيف نحو الإنكار الشامل. . .

«صُمّ بُكم عُمي فهم لا يرجعون.» (سورة البقرة، آية ١٨).

ومع ذلك يبقى أمل مشوش ويا للأسف، فلربما يشرق بعد ليل الغد الحالك فجر متألق على الخرابات المدخنة للعالم المنحط القديم، ولربما يُبعث عالم آخر من غبار الماضي مطهراً بالدم والمعاناة - العلمانية لبعض الغزوات الهمجية الخيرة، المدمّرة في الظاهر لكنها في الحقيقة أدوات غير واعية للمجهول ذي القدرة المطلقة. . .

فليتوقف كل كائن يفكر وليسأل نفسه، وليشعر بكبريائه، المفرط باطراد، وليذل نفسه في ضعفه اللامحدود أمام الإرادة الأزلية التي تولد الموت من الحياة، وتخرج الحياة من الموت، والتي تجعل الوردة تتفتح وهي التي تنبت من دِمَن القبور، والتي تولد وتقتل لتولد مجدداً ولتقتل مجدداً في المكان والزمان اللامحدودين. . . والآ

ينسى أبداً اليأس الحزين لأيامنا هذه، وأن الحياة تتفجر دوماً من كل الخرابات، وأن كل من يموت يعود للحياة.

ملاحظة

نص وقّع من قبل محمود السعدي، المتعلم العربي غير المعروف في باريس، وهو نص ملتهب يقدم تناقضاً يسترعي الانتباه مع المقالات المناسبة لمجموع كتابات شهر آذار/مارس سنة ١٩٠٠ لمجلة الثانوية.

عندما كتبت إيزابيل إيرهارت عصر العدم في شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٨٩٩ كانت عابرة لمرسيليا في عودتها من إقامتها الثانية الطويلة في المغرب. كانت مواردها المادية قد انتهت فقررت أن تجرب حظها في باريس وأن «تصنع لنفسها اسماً هناك». وخلال شتاء وربيع سنة ١٩٠٠ احتفلت العاصمة بنجاح «بحصيلة نهاية القرن». ومد المعرض الشامل أروقته من بوا دو بولون حتى ساحة الكونكورد. واندهشت المدينة حالمة بإمبراطورية استعمارية بعد أن خرجت لتوّها من الهرج والمرج الذي رافق اضطراب قضية دريفيس. أصابت «الحقبة الجميلة» برجالها المزينين، ونسائها ذوات السترات، وصالوناتها العصرية، ومسارحها المزدحمة، «المنفية» بالاشمئزاز. واكتفت بتدوين زيارة لمقبرة مونبرناس ذات ليلة من دون قمر في يومياتها...

كان على عصر العدم أن ينشر في الكتاب الأول للأعمال الكاملة (غراسي ١٩٨٨) غير أن مخاطر الأبحاث بالمكتبة الوطنية أجبرتنا على إرجاء ذلك.

هل وضع هذا النص الذي يقطع مع الغرب كخاتمة للكتاب عمل غير مناسب فعلاً؟

ملاحق

أعمال إيزابيل إبرهارت

أعمال مخصصة لإيزابيل إبرهارت

معجم الكلمات العربية

أعمال إيزابيل إبرهارت

في ظل الإسلام القائظ. أعده، وشرحه وشارك في كتابته فيكتور باريكون. فاسكيل. ١٩٠٦. (الجزء الثاني من الجنوب الوهراني، أكمل بأشياء حول الصحراء، وساعات تونس، وملاحظات).

ملاحظات على الطريق. أعده وقدمه فيكتور باريكون. فاسكيل ١٩٠٨. (الجزء الأول من الجنوب الوهراني، والساحل التونسي).

في بلاد الرمال. كتيب أعدته كلوي بيليو. مطبعة. إم. توماس. بون. ١٩١٤.

صفحات الإسلام. قصص قدم لها فيكتور باريكون. فاسكيل ١٩٢٠.

المتشرد. رواية قدمها وأتمها فيكتور باريكون. فاسكيل ١٩٢٢.

اليوميات. كراسات شخصية جمعها وقدمها وشرحها روني لويس دويون. المعرفة. ١٩٢٣. (أعيد نشرها في الآنتروفابل ١٩٨٥).

المحكوم والفوضوي عمارة. ليزامي ديدوار. فريديريك بايار. آبفيل ١٩٢٣. تقديم روني لويس دويون.

حكايات ومناظر. المعرفة ١٩٢٥. طبعة فاخرة سحبت منها ١٣٨ نسخة. قصص مختارة من قبل روني لويس دويون: ياسمينة، وفي بلاد الرمال، ودكتوراه، والبلد المنسي، والمحكوم والفوضوي عمارة، والميجر.

في بلد الرمال. سورلو ١٩٤٤ (قصص قدم لها روني لويس دويون، مستعيداً النصوص التي سبق نشرها سنة ١٩٢٥).

ياسمينة وقصص جزائرية أخرى. قصص اختارتها، وشرحتها وقدمتها ماري أوديل دولاكور، وجون روني إيلو. ليانا ليفي ١٩٨٦.

رسائل غير منشورة. آنترناسيونال دو ليماجينير. نشرة دار ثقافات العالم. العدد التاسع، شتاء ١٩٨٧/ ١٩٨٨.

أعمال مخصصة لإيزابيل إبرهارت

ليسلي بلانش: *Les Rives Sauvages de l'amour* (ضفاف الحب البرية)، بلون ١٩٥٦ (أربعة بورتريهات: isabelle ebrhardt, aimée dubucq de rivery, isabel burton, jane digby el mazrab).

بول بولس: *The Oblivion Seekers, City Lights* (طالبو النسيان، مدينة الأنوار)، سان فرانسيسكو ١٩٧٢.

دونيز براهيمي: الواد والزاوية. مكتب المنشورات الجامعية، الجزائر. ١٩٨٣، ترانيم من أجل إيزابيل. بيليزود ١٩٨٣ (وهذان الكتابان متشابهان).

إدموند شارل رو: *Un desir d'Orient* (رغبة في الشرق)، كراسي ١٩٨٨.

جون ديجو: *Femmes d'Algerie* (نساء الجزائر. أساطير وعادات ورواية وأدب)، لابواط آدوكيمون. باريس ١٩٨٧.

ماري أوديل دولاكور وجون روني إيلو: *Sables, le roman de la vie d'Isabelle Eberhardt* (رمال، رواية حياة إيزابيل إبرهارت)، ليانا ليفي ١٩٨٦.

فرانسواز دوبون: *La Couronne de sable* (تاج الرمال)، فلاماريون ١٩٦٧.

إغلال إريرا: *Sept Années dans la vie d'une femme. Isabelle Eberhardt* (سبع سنوات من حياة امرأة. إيزابيل إبرهارت. رسائل ويوميات)، آكت سيد ١٩٨٧.

أنيط كوباك: *Isabelle, the life of Isabelle Eberhardt* (إيزابيل، حياة إيزابيل إبرهارت)، شاتو آند ويندوس. لندن ١٩٨٨.

سيسيلي ماكورث: *The destiny of Isabelle Eberhardt* **(قدر إيزابيل إيرهارت)**، روتليدج أند كيغان بول ليمتد. لندن ١٩٥١، نيو يورك إيكو بريس ١٩٧٥، كوارتيت بومس ليمتد ١٩٧٧. عمل ترجم بالفرنسية بواسطة أندري لوبوا في كتاب بعنوان: *Le Destin d'Isabelle Eberhardt*. فوك. وهران ١٩٥٣.

جون نويل: *Isabelle Eberhardt, l'aventureuse du Sahara* **(إيزابيل إيرهارت، مغامرة الصحراء)**، باكونيي. الجزائر ١٩٦١.

إليز نويل: **سيدات بارعات** (أربعة بورتريهات: ليدي ستانفور، وإيزابيل إيرهارت، ومارج دونديران، وأوريلي بيكار). غي لو برا ١٩٧٧.

روبير روندو: *Isabelle Eberhardt, notes et souvenirs* **(إيزابيل إيرهارت، ملاحظات وذكريات)**، إد. شارلو. الجزائر ١٩٤٥.

سيمون رزوق: *Isabelle eberhardt, Classiques maghribins* **(إيزابيل إيرهارت، كلاسيكيات مغاربية)**، مكتب المنشورات الجامعية، الجزائر ١٩٨٥.

كلود موريس روبير: *l'Amazone des sables* **(أمازونية الرمال.)** سوبيرون ١٩٣٤.

راوول ستيفان: *Isabelle Eberhardt ou la révèlation du Sahara* **(إيزابيل إيرهارت أو اكتشاف الصحراء)**، تقديم فيكتور مارغريت، فلاماريون ١٩٣٠.

ميشيل تورنيي: *Le Vol du Vampire (Isabelle Eberhardt ou la Metamorphose accomplie)* **(طيران الخفاش، إيزابيل إيرهارت أو اكتمال التحول)**. ملاحظات قراءة. ميركور دو فرونس. ١٩٨١.

معجم الكلمات العربية

استعملت إيزابيل إبرهارت وفقاً لنصوصها كتابات دائمة التغيير، وحاولنا قدر استطاعتنا في هذا المعجم توحيدها، وذلك بمنح كل كلمة شرحها الحقيقي.[1]

عدل: قاضي. كاتب. رجل الدين.
عجاج: رياح مليئة بالغبار، وعواصف رملية.
عامل: حاكم.
عساس: الحارس. المراقب.
باش آمر: مرشد القوافل أو المواكب. (الشخص الذي يأمر).
باش آغا: موظف سامي من الأهالي.
بندير: (جمعه بنادير.) طبلة خاصة بالبدو الرحل.
بردعة: سرج.
شاشية: قبعة.
الشهيلي: الشلوق. رياح الصحراء.
الشلحة: لغة البربر.
دار الضياف: بيت تابع للجماعة مخصص للمسافرين وللمدعوين.
ديرة: حرس بلدي. دورية.
دربوكة: آلة موسيقية مشكلة من قطعة جلد مشدودة على قطعة من الخزف.
الديس: نبات صحراوي جاف.
جيش: (جمعها جيوش) ومعناها هنا قبائل مسلحة تقوم بأعمال السلب والنهب.

---

(١) لما كانت بعض المفردات واضحة لدى قراء العربية فقد تم تجاوزها خلال الترجمة. المترجم.

الجواق: ناي من قصب.
الدرين: نبات صحراوي.
الفيلالي: جلد يصنع في منطقة تافيلالت المغربية.
غندورة: لباس من صوف أو من قطن قصير الأكمام ويلبس تحت البرنس.
غيطة: آلة موسيقية تشبه المزمار.
كوم: فرقة عسكرية مكونة من الأهالي يعملون تحت إمرة قائدهم.
كمبري: آلة موسيقية بوترين، وتصنع من قوقعة السلحفاة.
كوم: (أو الكوميون) جنود تابعون للكوم.
القربي: بيت بدائي من الطين.
القميرة: (أو الكميرة) حد أو علامة لتمييز نهاية طريق رملية.
الكلال: آلة موسيقية.
حابو: ملك لإحدى المؤسسات الدينية.[1]
الحمادة: صحراء صخرية.
الحركة: عصابة مسلحة. حملة.
الحراك: قطيع.
حرطاني: من نسل العبيد السود في أراضي الجنوب.
حاسي: بئر.
كانون: نار تتغذى من الرماد الساخن.
خوجة: كاتب. مترجم.
مشطة: قرية صغيرة. مزرعة.
مزانات: منشق.
نفرة: نزاع. خلاف.
وجاق: موقد المقاهي المغربية، المزين عادة بالخزف.
سيفساري: برنس تونسي.
تليس: كيس.
الزبوج: الزيتون البري.

---

(١) لا شك أنهما يقصدان الحبوس. المترجم.

شكر

ما كنا لننجز هذا الكتاب، الأعمال الكاملة لإيزابيل إبرهارت، على نحو جيد من دون دعم فايزة عبد الوهاب، وحيمود إبراهيمي الملقب بمومو، وإدموند شارل رو، وفرانسوا كوميناردي، وجون ديجو، وإغلال إيريرا، وعلي غانم، وميشيل لو بري، ودانيال ماس، ومقران موالد، وليلى صبار. . . فلهم جميعاً جزيل الشكر.

المحتويات

تقديم

قصص

رواية

نصوص أخرى

ملاحق



هذا الكتاب

في هذا الكتاب الثاني نجد مجموع أعمال إيزابيل إبرهارت المتخيلة لأول مرة حتى تلك التي لم يسبق نشرها، أي سبعاً وخمسين قصة، وأربعة مخططات روائية، وروايتها الوحيدة غير المنتهية للأسف المتشرد.

كانت إيزابيل إبرهارت تكاد لا تبلغ الثامنة عشرة من العمر حين اختارت الاستفزاز للدخول إلى عالم الأدب، فقصتها الأولى المعنونة جهنمية والتي نشرت في المجلة الحديثة الجديدة تشهد على «شبق قبري» غريب. وستستثمر هذه الجرأة على امتداد أعمالها جاعلة من الفلاحين والفيلقيين والمساجين والمومسات والزهاد والمجانين. . . أبطال نصوصها.

هذه إذن أعمال إيزابيل إبرهارت التي نشرت في شكلها الأصلي، وهُيّئت مثلما كانت تتمنّى.



